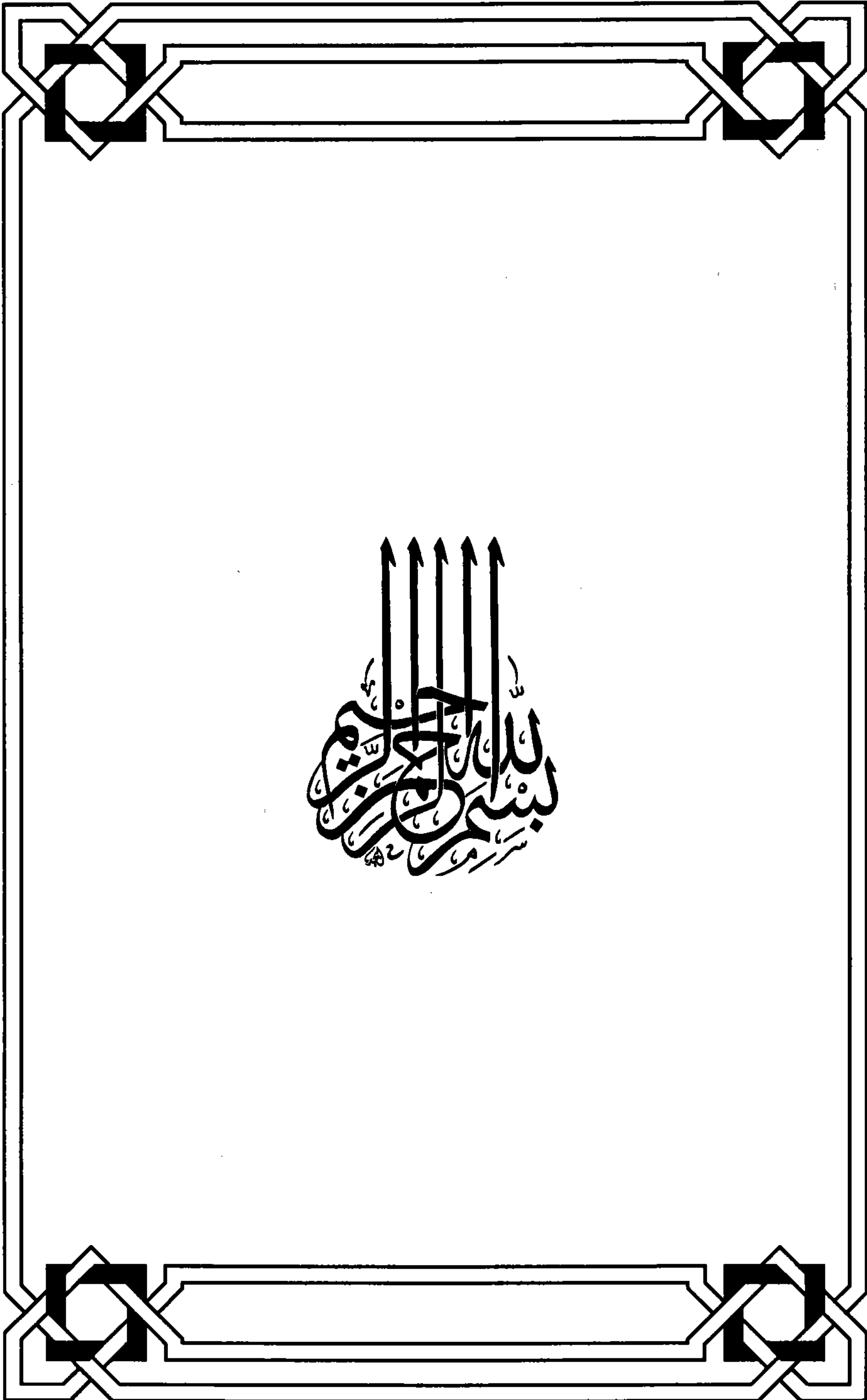
# عصر الصحابة

(١) خلفاء النبي ﷺ
(٢) قادة النبي ﷺ
(٣) العبادلة
(٤) البكاؤون
(٥) أرقاء عظماء اعتنقوا الإسلام
(٦) الشهداء السبعة

تأليف
عبد المنعم الهاشمي

دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة

دار ابن كثير
دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

# عصر الصحابة

الطبعة الثالثة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م




للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - ٣١١ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ٦٣١٨ / ١١٣ - تلفاكس ٨١٧٨٥٧ ٠١ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

عصر الصحابة
(١)

# خلفاء النبي

صلى الله عليه وسلم

أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب

عثمان بن عفان علي بن أبي طالب

تأليف

عبد المنعم الهاشمي

# مقدّمة

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، إنه من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

والصلاة والسلام على نبيّنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن عهد الصحابة الكرام ، رضوان الله تعالى عليهم ، مليء بالعِظات البالغة ، والمواقف الرائعة ، والأحداث العظام ، ذلك أن سيرتهم العطرة ، وتاريخهم الزكي مصدرٌ كبير للإيمان ، ومنبع أصيل يقتبس منه المسلمون مشاعل الإيمان ، يوقدون بها مجامر القلوب ، فتاريخ الخلفاء الراشدين منابع بطولة في كل شيء: في إيمانهم ، وصبرهم ، وشجاعتهم ، وعلمهم ، ومثابرتهم... كانت بطولاتهم تفيضُ كُلَّ حين ، رحمةً بالناس ، وزهداً في متاع الحياة الدنيا ، وخشوعاً ، وتبتّلاً ، وإنابة في كل آن إلى الله عز وجل.

والخلفاء الراشدون هم: أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب. وقد أوصى رسول الله ﷺ باتباع نهجهم ، فقال عليه الصلاة والسلام:

«عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسَّكُوا بها ، وعضّوا عليها بالنواجذ»[١] .

وقال ﷺ:

«إني لا أدري قدر بقائي فيكم ، فاقتدوا باللذين من بعدي» وأشار إلى أبي بكر وعمر[٢] .

وقد خاطب رسولُ الله ﷺ كُلاًّ من الخلفاء الأربعة ، فقال: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً»[٣] .

«يا بن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً قط إلا سلك فجّاً غير فجك»[٤] .

«أشدّ أمتي حياء عثمان بن عفان»[٥] .

«أنت مني بمنزلة هارون من موسى»[٦] . ـ في خطابه ﷺ لعلي بن أبي طالب ـ.

وانطلاقاً من أن الصحابة هم خير السلف ، وأن الخلفاء الراشدين أكثرهم برّاً ، وأعمقهم علماً ، وأقلّهم تكلّفاً ، وأكثرهم اجتهاداً ، وصياماً ، وصلاة . . . . كانت رحلتُنا معهم ميمونة ، مباركة ، إن شاء الله تعالى .

وما أجمل أن يستظلَّ الإنسانُ بجنّة وارفة الظلال ، أشجارها باسقة ، وأغصانها ظليلة ، ونسيمها يُنعش الفؤاد ، ويُثلج الصدر .

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود .
(٢) رواه الترمذي .
(٣) رواه البخاري ومسلم .
(٤) رواه البخاري ومسلم .
(٥) رواه الترمذي وأحمد .
(٦) رواه البخاري ومسلم .

لذا كان كتابُنا رحلة مع سيرة الخلفاء ، تأريخاً لحياتهم ، واقتباساً من أنوار معارفهم ، وتجديداً للإيمان.

اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً يا أرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين

**عبد المنعم الهاشمي**

# (١)

# أبـو بكـر الصِّـدِّيـق

قال تعالى في سورة التوبة:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

## في البدء كلمة

أبو بكر الصِّدِّيقُ صاحبُ رسولِ اللهِ ﷺ من حين أسلمَ إلى حين وفاته، لم يفارِقْهُ سفراً ولا حضراً[1]، كان رفيقه في الغار، وناصرَهُ في غيرِ موضعٍ، وله الآثارُ الجميلةُ في المشاهد؛ فقد ثبتَ يومَ أُحُدٍ، ويومَ حُنَينٍ.

أحبَّ رسولَ اللهِ حبّاً لا يُدانيهِ فيه أحدٌ: فقد جلسَ رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم يُصلِّي، فجاءهُ عقبةُ بنُ أبي مُعَيْطٍ، فوضعَ رداءَهُ في عنقِهِ فخنقَهُ به خَنْقاً شديداً، فجاءَ أبو بكرٍ ودفَعُه عن رسولِ الله.

ثم قالَ لهذا الرجلِ: ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾؟ [غافر: ٢٨][2].

كان رجلاً جواداً بالمالِ حتى إن القرآنَ نزلَ يمدحُ هذه الصّفَة فيهِ.

فنزلَ قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة الليل:

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٥.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢٢ و١٦٦).

والتواضُع من شمائلِ أبي بكر الصِّدِّيق؛ فهو خليفةُ رسولِ اللهِ ﷺ ، وأميرُ المؤمنين ، ولكنَّ هذا كلَّه لا يمنعُهُ من الجلوسِ يحلُبُ الغنَم للنِّسْوة العاجزاتِ ، فلما وُلّي الخلافةَ قالت النساء: الآن لا يحلُبُ لنا أبو بكرٍ أغنامَنا ، فبلغ ذلك أبا بكرٍ فقال: بلى واللهِ لأحلُبَنَّ لكُنَّ كما كُنْتُ أصنعُ من قبلُ ، وأرجو ألاَّ يغيّرني الله عنْ خُلُقٍ كنتُ أعتادُه وأدّخر ثوابه ليوم القيامة.

يرحمُ اللهُ أميرَ المؤمنين ، فأيُّ عظمةٍ هذه! وأيُّ تواضعٍ يتماثلُ معَ تواضع هذِهِ النفسِ الطيِّبة!

كان ناصِحاً أميناً ، تقيّاً ، يقول في كلمات خالدةٍ له:

أيُّها النَّاسُ: إنِي أوصيكمْ بتقوَى اللهِ العظِيم في كلِّ أمرٍ وعلى كُلِّ حالِ ، ولزومِ الحقّ فيما أَحْبَبْتُم وكرهتُمْ؛ فإنهُ ليسَ فيما دونَ الصدقِ من الحديثِ خيرٌ ، مَنْ يكذبْ يفجُرْ ، ومن يفجُرْ يهلكْ ، وإيَّاكُمْ والفخرَ ، وما فخرُ مَنْ خُلِقَ من ترابٍ وإلى التراب يعودُ؟!

أيُّها الناسُ! إن كَثُرَ أعداؤكمْ ، وقلَّ عددُكُمْ ، ركبَ الشيطانُ منكم هذا المركبَ؟ والله ليظهرنَّ هذا الدِّينُ على الأديانِ كلِّها ، ولو كرهَ المشركونَ ، قوله الحقّ ، ووعده الصدق ، ثم تلا قولَهُ عزَّ وجلَّ في سورة الأنبياء:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨ ﴾ .

ولا نترك العنانَ للصفاتِ والشمائلِ تسترسلُ ، وهي كلّها عذبةٌ طيبةٌ؛ قبلَ أَن نتعرَّفَ عن قربٍ على خليفةِ رسولِ اللهِ الأوَّلِ ، مولدِهِ ونشأته ، ثم تتصلُ السيرةُ عنْ صِفتهِ وإسلامِهِ ، إلى نهاية هذه الروضةِ الطيبةِ.

## مَـن هـو الخليفـةُ الأولُ؟

لم يكنْ في نسبهِ شيءٌ يُعابُ عليهِ وبهِ ، لذلكَ لُقِّبَ عتيقاً لِعَتَاقَةِ وجههِ[1] ـ أي لحُسنه وجماله ـ ، والعتيق: الكريم الرائع من كل شيء.

---

(١) روى الترمذي (٣٦٧٩) قول رسول الله ﷺ: «أنت عتيق الله من النار».

أبو بكر الصديقُ خليفةُ رسولِ اللهِ ﷺ ، اسمُهُ عبدُ الله بنُ أبي قُحافةَ؛ عثمان بن عامِر بن عمْرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة بن كعب بن لُؤيٍّ بن غالب ، القرشيّ ، التَّيمي ، يلتقي نسبُـهُ مع رسولِ اللهِ في مرَّةَ بنِ كعبٍ[1] .

## الصِّدِّيق

وأجمعتِ الأُمَّـةُ على تسميته بالصديق؛ لأنَّـهُ بادرَ إلى تصديقِ رسولِ اللهِ ﷺ.

ولازمَ الصِّدقَ ، فلم تقعْ منهُ هَنَوات[2] ، في حالٍ من الأحوالِ؛ من ذلك ما كان منه يومَ ليلةِ الإسراء ، وجوابه الكفارَ في ذلك.

ففي صبيحةِ الإسراء ، جاء المشركون إلى أبي بكرٍ ، فقالوا: هلْ لَك إلى صاحبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسرِيَ بهِ الليلَةَ إلى بيتِ المقدِسِ.

قال أبو بكر: أَوَ قالَ محمدٌ ذلك؟

قال المشركون: نعمْ.

فقال: لقدْ صدَقَ ، إنِّي لأصدِّقُهُ بأبعدَ منْ ذلك؛ بخبرِ السَّماءِ غدوةً وروحةً[3] .

وقد قالَ عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنهُ ـ عن أبي بكرٍ: إنَّ اللهَ سمَّى أبا بكرٍ على لسانِ نبيهِ صدِّيقاً.

وقد وُلِدَ أبو بكر بعدَ موْلِدِ رسولِ الله ﷺ بعاميْنِ وبضعةِ أشهرٍ؛ وكان أولَ مؤمن بالرسول من الرجال البالغين.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٧.
(٢) «الهنوات»: جمع هَنَة ، وهي الشر والفساد والتّهمة وخصلة السوء.
(٣) رواه الحاكم في المستدرك.

وقد تزوَّجَ في الجاهلية أمَّ رومانَ ، وفي الإسلام أسماءَ ، وحبيبة ، وتُوفِّيَ وكانتْ حبيبةُ حاملاً .

كان رضوانُ اللهِ عليهِ لهُ من الولَدِ ستّةٌ: ثلاثةُ بنينَ وثلاثُ بناتٍ؛ أما البنونَ فهمْ: عبدُ اللهِ ، وعبدُ الرحمنِ ، ومحمدٌ؛ والبناتُ فهنَّ: أسماءُ ذات النطاقين ، وعائشةُ أمُّ المؤمنين ، وأم كلثومٍ ، ـ رضوانُ الله عليهمْ أجمعين ـ.

## في الجاهلية

كان أبو بكر من أنسب قريشٍ وأعلمِها ، فقد كانَ تاجراً ناجحاً يعرفُ مهنة التجارةِ حقَّ المعرفةِ ، ذا خُلُقٍ وفَضْلٍ ، يُحبُّهُ الناسُ ، لمْ يعبدْ صنماً ، ولم يشربْ خمراً ، وفي هذا تقولُ عائشةُ ـ رضيَ اللهُ عنها ـ:

واللهِ ما قالَ أبو بكرٍ شعراً قطُّ في جاهليةٍ ولا إسلامٍ ولقدْ تركَ هو وعثمانُ شُرْبَ الخمرِ في الجاهليةِ[١].

ولما سأله أحدُ أصحابهِ: هل شربت الخمرَ في الجاهليةِ؟

فقالَ: أعوذُ باللهِ.

فقيلَ: ولِمَ؟

قال أبو بكر: كنت أصونُ عِرضي ، وأحفظُ مروءَتي ، فإنَّ منْ شربَ الخمرَ كانَ مضيّعاً من عِرضِهِ ومروءَتِهِ.

فلما بلغ ذلك الحديثُ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «صدق أبو بكر ، صدق أبو بكر» مرتين.

وقد وَصَفَتْ عائشةُ أمُّ المؤمنين أبَا بكرٍ الصديق ، وهي خيرُ مَن يصفُ أباها ، فقالتْ: «رجلٌ أبيضُ ، نحيفٌ ، خفيفُ العارضين ، أجنأُ[٢] ،

---

(١) ابن عساكر بسند صحيح عن عائشة.

(٢) الجنأ: انحناء في الظهر ، وقيل في العنق.

لا يستمسك إزاره يسترخي عنْ حَقَويهِ ، معروق الوجهِ ، غائر العينين ، ناتىء الجبهةِ ، عاري الأشاجعِ[١]»[٢].

## إسـلامـه

كان أبو بكرٍ ـ رضي الله عنهُ ـ صديقاً لرسولِ اللهِ ﷺ قَبلَ الرسالةِ ، فلمّا نزلت الرسالةُ ، كان أبو بكر الصديق أوّل مَن دعاهم الرسول للإسلام ، ولنتركْ أبا بكرٍ يقصُّ بدايةَ عِلْمِه بأَنَّ هناك ديناً جديداً ، يقولُ رضوانُ اللهِ عليه :

كنتُ جالساً بفناءِ الكعبةِ ، وكان زيدُ بنُ عمْرو بنِ نُفَيْلٍ قاعداً ، فمرَّ بِهِ أُميّةُ بنُ أبي الصَّلْتِ ، فقال : كيف أصبحتَ يا باغِيَ الخيرِ؟

قال زيدٌ : بخيرٍ.

قالَ : قالَ أُميةُ : وهل وجدتَ؟

قال زيدٌ : لا!

فقال أميّةُ : كلُّ دينٍ يَوْمَ القيامةِ إلا ما قضى اللهُ في الحقيقةِ بُور ، أما إنَّ هذا النبيَّ الذي يُنْتَظر منَّا أوْ منكم.

ثم قالَ أبو بكر : ولم أكنْ سمعتُ قبلَ ذلك بنبيٍّ يُنْتَظَرُ ويُبْعَثُ ، قال : فخرجتُ إلى وَرَقَةَ بنِ نَوفلٍ ، وكان كثيرَ النظرِ إلى السماءِ ، كثيرَ هَمْهمَةِ الصَّدْرِ ، فاستوقفْتُهُ ، ثُمَّ قصصتُ عليهِ الحديثَ فقال : نعم يا بن أخي ، إنّا أهلُ الكتبِ والعلومِ ، إلاّ أنَّ هذا النبي الَّذي يُنتظرُ من أوسط العربِ نسباً ـ ولي علمٌ بالنسبِ ـ وقومُكَ أوسطُ العربِ نسباً.

قال أبو بكرٍ لورقةَ : يا عمّ وما يقول النبيُّ؟

قال ورَقةُ : يقولُ ما قيل لهُ ، إلاَّ أنَّهُ لا يَظلِمُ ولا يُظْلَمُ ولا يظالِمُ.

---

(١) الأشاجع : واحدها : أشجع ، مفاصل الأصابع ، أي كان اللحم عليها قليلاً.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٠.

فأضافَ أبو بكرٍ: فلما بُعِثَ رسولُ الله ﷺ آمنتُ به وصدَّقتُه[1].

ونتركُ أبا بكر قليلاً، ونسمعُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ عن إسلام أبي بكرٍ: «ما دعوتُ أحَدَاً إلى الإِسلامِ إلاّ وكانتْ له عنه كَبْوَةٌ، ونَظَرٌ وَتردُّدٌ، إلاَّ ما كانَ من أبي بكرٍ، ما عَكَمَ عنهُ حين ذكرتُهُ، وما تردَّدَ فيه»[2].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ لأصحابِهِ: «هل أنتمْ تاركونَ لي صاحبي؟ إني قلتُ: أيُّها الناسُ، إني رسولُ الله إليكمْ جميعاً، فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكرٍ: صدقتَ».

هكذا كانَ صادقاً في الجاهليةِ، وصادقاً في إسلامِهِ، فاستحقَّ هذا اللقبَ الكريمَ، ونال صحبةَ رسولِ اللهِ ﷺ.

ولقد سبقَ أنْ ذكرنا ما قالهُ الرسولُ ﷺ عن إسلام أبي بكرٍ: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانتْ لهُ كبوةٌ وتردّدٌ ونظرٌ، إلاّ أبا بكر، ما عَكَمَ حينَ ذكرتهُ لهُ وما تردَّدَ فيهِ».

لذلك عندما نسمعُ القصةَ التاليةَ من أبي بكرٍ ذاتِهِ نجدُ أنَّ الرجلَ ما كانَ بموافقتهِ هذهِ مستسلماً لعاطفةٍ نحو صاحبِه، وإنما أجرى التحقيقَ الذي يثبتُ أنّ صاحبَه محمداً هو المبشَّرُ بالدعوةِ، المُتَرقَّبُ من أهل العلمِ والكتاب، قبل أن يبزُغَ نورُ دعوتِهِ ويسطعَ حتى يملأَ الدنيا. يقول أبو بكرٍ في هذهِ القصة:

خرجتُ إلى اليمن قبل أن يُبْعَثَ النَّبيُّ ﷺ، فنزلتُ على شيخٍ من الأزدِ عالمٍ، قد قرأ الكتابَ، وعَلِمَ من الناس علماً كثيراً، فلما رآني قال: أَحْسَبُكَ حَرمياً؟ (أي من مكةَ).

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٤٢، ٤٣.

(٢) سيره ابن هشام ١/ ٢٥٢. وعَكَم: تلبَّث وانتظر. وهي في تاريخ الخلفاء ما عَتَم: بمعنى ما أبطأ أو تأخر.

ثم أضاف قائلاً لي: أجدُ في العلم الصحيح الصَّادقِ أن نبيّاً يُبعثُ في الحَرَم.

ثم قالَ: أحاملٌ أنتَ عنِّي أبياتاً قلتها في ذلك النبيِّ؟

قال أبو بكرٍ: فقدمتُ مكةَ فجاءني عقبةُ بنُ أبي مُعَيطٍ وشيبةُ وربيعة وأبو جهل وصناديدُ قريشٍ.

قالوا: يا أبا بكرٍ. أعظم الخطب.. يتيمُ أبي طالبٍ (يقصدون الرسول ﷺ)، يزعم أنَّهُ نبيٌّ مُرْسَلٌ، ولولا أنتَ ما انتظرنا بِهِ.. فإذا قدْ جئتَ فأنتَ الغايةُ والكفايةُ..

صرف أبو بكر صناديدَ قريشٍ، وقد بدا لهُ أن لقاءَ محمَّدٍ الآنَ أصبحَ عاجِلاً ليؤكدَ ما في نفسِهِ، ويحقِّقَ ما سِمعَهُ هُنا وهناكَ، يقول أبو بكرٍ يكمل أحداثَ هذه القصة:

وسألتُ عن النبيِّ ﷺ، فقيل لي هو في مَنْزِلِ خديجةَ، فقرعتُ عليه البابَ، فخرجَ إلي، فقلْتُ: يا محمد... فقدتَ منازلَ أهلِكَ، وتركتَ دينَ آبائِك وأجدادِك!

قال: يا أبا بكرٍ! إني رسولُ اللهِ إليك وإلى الناسِ كلِّهمْ، فآمِنْ باللهِ.

فقلت: ما دليلك على ذلك؟

قال: الشيخ الذي لقيتَ باليمنِ!

قلت: وكمْ من شيخٍ لقيتُ باليمنِ!

قال: الشيخُ الَّذي أفادكَ الأبيات..!

قلت: ومن أخبرك بهذا؟!

قال: أخبرني المَلَكُ العظيم الَّذي أتى الأنبياءَ من قبلي.

قلت: مُدَّ يدَك فأنا أشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وأنَّكَ رسولُ اللهِ.

بهذه الروح الطيبة العالية ، والنفسِ الخيّرةِ ، انضمَّ أبو بكرٍ لقافلةِ الإيمان وموكبِ النورِ.

## صاحب رسول الله الشجاع

عندما بُلِّغَ محمدٌ ﷺ الرسالة ، انطلقَ يدعو الناسَ إلى التوحيدِ ، ويبيّن لهم ما هم فيهِ من ضلالٍ وفسادٍ ، ويدعوهمْ بالحجة والبرهانِ بأنّ هذه الأصنامَ لا تسمنُ ولا تُغني من جوعٍ ، وأن اللهَ باسط النعمِ ، خالق كلِّ شيءٍ ، وهو ربّهُم الأعْلى.

وكان أبو بكرٍ يسمعُ قولَ رسولِ اللهِ ﷺ فيقولُ: صدقتَ ، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ عزّ وجلّ بعثني إليكمْ فقلتمْ: كذبتَ ، وقال أبو بكرٍ: صدقتَ ، وواساني بنفسهِ ومالِهِ»(١).

كان الرسولُ ﷺ في البدايةِ يدعو النّاسَ سِرّاً ، وبالتالي كانَ صاحبُهُ أبو بكر يكتمُ إيمانَه ، لم يعلمْ بهِ إلاّ نفرٌ قليلٌ من أهلِ مكةَ.

ولم يعدْ يحتملُ هذِهِ السريةَ وقد أيقن أنَّهُ الحقُّ ، وعَرَفَ أَنَّ اللهَ إلى جانب رسولِهِ ينصرهُ ، ولا يخذُلُهُ أبداً ، أملتْ عليه مشاعرُ الإيمان ، وحرارةُ التقوى أن يخرجَ مُعْلناً للنّاسِ أنه يقولُ لا إلَه إلا اللهُ ، محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ ، ليس بالقول فقط وإنّما بالعمل أيضاً ، فذهبَ إلى حبيبه وصاحبه في دار الأرقم بنِ أبي الأرقم ، وعرض عليه ما يجيشُ في نفسهِ وخاطره.

وما هيَ إلاّ لحظات حتى وافق الجمعُ على رأي أبي بكرٍ ، وخرجَ الجميعُ ، ثم اتّجهوا إلى الكعبة ، فوجدوا أشرافَ قريشٍ ووجوهَها جالسين يتحدّثون ، فاتخذوا مجلساً بالقرب منهم.

ثم وقف أبو بكر خطيباً في الناس ، يدعوهم إلى وحدانية الخالق ، وقدرتِهِ العظيمةِ ، ونعمه المبسوطةِ بينهم ، الظاهرةِ على أجسامهم

---

(١) البخاري في المناقب (٣٦٦١).

وأموالهم ، كلُّ هذا ورسولُ اللهَ جالسٌ يستمعُ إلى صاحبهِ ، وكان أبو بكر أولَ خطيبٍ إلى اللهِ ورسولِهِ في هذا الموقفِ ، وقد اتّضحَ منذُ البدايةِ أنّ هذا الموقفَ يُعَدُّ تحدّياً صريحاً لقريش وأشرافِها.

اعترضَ عتبةُ بنُ ربيعةَ أحدُ وجوهِ قريشٍ على كلماتِ أبي بكرٍ الَّتي انسابتْ وانهالتْ عليهمْ كسيلٍ لا يوقفُ أبداً ، ولكن دونَ جدوى ، فثارَ الناسُ واشتبكَ الرجالُ بالرجالِ ، وانهالوا ضرباً على رأس ووجهِ أبي بكرٍ ، وخلَع عتبةُ نعليهِ وانهالَ بهما ضرباً على وجه أبي بكر ، فسال الدم ، وسقط أبو بكر مغشياً عليه ، وشاع خَبرُ سقوطِه بين يدَيْ هؤلاء ، فأقبل رجالٌ من قبيلةِ تميمٍ وهم أهلُهُ وعشيرتُهُ ، وقد ظنّوا أنَّ أبا بكرٍ قد قبضتْ روحُهُ من شدّة الضربِ الذي وقع عليه.

حَمَلَ عددٌ من رجالِ بني تميم أبا بكرٍ وهو فاقدُ الوعي ، وتيقنوا أنَّه لا محالةَ ميتٌ ، وقد انتهى أمرُهُ. ولما وصلوا إلى بيته ، ووضعوهُ على فراشه ، تعاهدوا فيما بينهمْ على قتلِ عتبةَ بن ربيعةَ إن ماتَ صاحبُهم. والتفَّ حولَ فراشِه أبوه أبو قُحَافَةَ وأُمُّهُ أُمُّ الخير «سلمى» وما هي إلا لحظاتٌ حتى أفاق من غيبوبته ، وكان أوّلُ ما نطقَ بِه: ما فعل محمدٌ ، ما فعل رسولُ الله؟. . وظل يردِّدُ ما فعل محمدٌ ﷺ؟

فجاءهُ من يقولُ: إنَّه في دار الأرقم بنِ أبي الأرقمِ ، فتحاملَ على نفسهِ وصحبَ أمَّهُ إلى هناك ، فلمَّا دخلَ على رسولِ اللهِ رحَّبَ بهِ وحيَّاهُ وسألهُ عن حالِهِ ، فأجابَهُ: بخيرٍ ، ليسَ بي إلا ما نالَ الفاسقُ من وجهي ، فدعا لهُ الرسولُ ﷺ ، فطلبَ أبو بكر من رسول اللهِ ﷺ أن يدعو أُمَّهُ إلى الإسلام.

فلمَّا دعاها ﷺ إلى الإسلام استجابتْ على الفورِ ونطقتْ بالشهادة ، فكانت كلماتُها مصدرَ سعادتِهِ. وأصبحَ أوَّلَ المسلمين السابقينَ الأولين ، المجاهدينَ بأموالهمْ وأنفسهم. وينتقلُ الصِّدِّيقُ ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ إلى المدينةِ ، وتمرُّ الأيامُ وتتوالى الأحداثُ ، فيأتي يومُ بدرٍ ، وخيرُ منْ يتحدثُ عن صاحب رسول الله هو عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ الله عنهُ ، تُرى ماذا يقولُ عليٌّ في شجاعةِ الصِّدِّيق؟

قالَ عليٌّ[1]: قلتُ للناسِ: أخبروني مَنْ أشجعُ النَّاسِ؟

فقالوا: أنتَ.

قلتُ: أما إنِّي ما بارزتُ أحداً إلا انتصفتُ منهُ، ولكن أخبروني بأشجع الناسِ؟

قالوا: لا نَعْلَمُ، فمنْ أشجعُ الناسِ في رأيكَ؟

قال عليٌّ: أبو بكرٍ... إنَّه لمّا كانَ يومُ بدرٍ، فجعلنا لرسولِ اللهِ ﷺ عَريشاً.. فقلنا: مَنْ يكونُ مع رسولِ اللهِ ﷺ لِئلاّ يهوي إليه أحدٌ من المشركين؟

فواللهِ ما دَنَا منَّا أحدٌ إلا أبو بكر شاهراً بالسيفِ على رأسِ رسول الله ﷺ، لا يهوي إليه أحدٌ إلا هوى إليه، فهو أشجعُ الناسِ.

قال عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ: ولقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وأخذتهُ قريشٌ، فهذا يجبؤه[2] وهذا يُتَلْتِله[3]، وهم يقولون: أنتَ الّذي جعلتَ الآلهةَ إلهاً واحداً؟!!

ويستطردُ عليٌّ قائلاً:

فواللهِ ما دنا منّا أحدٌ إلاّ أبو بكرٍ يضربُ هذا، ويجبأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقولُ:

ويلكمُ! أتقتلونَ رجلاً أَن يقولَ ربِّيَ الله! ثم رفعَ عليٌّ بُرْدَةً كانتْ عليه، فبكى حتى اخضلّت لحيته وقال:

أنشُدكمُ اللهَ! أمؤمنُ آلِ فرعونَ خيرٌ أم أبو بكرٍ؟ فسكتَ القومُ، فقال عليٌّ: أَلاَ تجيبوني؟

فقال عليٌّ: فوالله لساعة من أبي بكرٍ خير من ألف ساعة من مثل مؤمن

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٤، ٤٥.
(٢) يجبؤه: يردعه ويفجؤه ويبغته.
(٣) يتلتله: يسوقه بعنف، ويحركه ويزعزعه.

آل فرعون. ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه. هذه شهادةُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ في شجاعة الصِّدِّيقِ رضوانُ الله عليهِ.

ولا نترك هذا الموقفَ الآخرَ الذي تحدَّثَ عنهُ عروةُ بنُ الزبيرِ فقال: سألتُ عبدَ اللهِ بنَ عمْرو بن العاص عن أشدِّ ما صنعَ المشركون برسول اللهِ ﷺ فقالَ:

رأيتُ عقبةَ بنَ أبي مُعَيطٍ جاءَ إلى النبيِّ ﷺ وهو يُصلِّي، فوضعَ رداءَه في عنقِهِ، فخنقَهُ بهِ خَنْقاً شديداً، فجاءَ أبو بكرٍ رضي الله عنه حتى دَفَعَهُ عنهُ. فقال:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨][1].

هذه مشاهدُ تدلُّ على شجاعةِ الصِّدِّيق رضوانُ اللهِ عليه.

## الجواد الكريم

قال الله عز وجل في سورة الليل:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

هاتان الآيتان نزلتا في أبي بكر الصديق رضيَ اللهُ عنه؛ لشدةِ كرمهِ وتصدّقـهِ بمالِه، وقد تحدَّثَ أصحابُ الصديق عن سَبْق أبي بـكـرٍ في التصدُّقِ بمالهِ، ومنهم عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنهُ، عندما قال: أمرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أن نتصدَّقَ فوافقَ ذلكَ مالاً عندي، قلتُ: اليوم أسبقُ أبا بكر، إن سبقته يوماً.

فجئتُ بنصفِ مالي، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلك»؟

قلتُ: مثلَهُ، أي مثل ما أعطاهُ.

وأتى أبو بكرٍ بكلِّ ما عندَه، فقال: «يا أبا بكر ما أبقيتَ لأهلكَ»؟

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٨) في فضائل أصحاب النبي.

قال أبو بكرٍ: أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَهُ.

فقالَ عمرُ: لا أسابقك إلى شيءٍ أبداً[١].

حدثَ هذا الموقفُ العظيمُ يوم تجهيزِ الجيش، جيشِ العسرة في غزوةِ تبوكَ. وقد تحدَّثَ الرسولُ ﷺ عن أبي بكرٍ في مواطنَ كثيرةٍ فقال عنهُ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليه: «ما أحدٌ عندي أعظمَ يداً من أبي بكرٍ؛ وَاسَاني بنفسهِ ومالهِ، وأنكحني ابنَتَهُ»[٢].

وفي موقفٍ آخرَ يقولُ عليه الصلاة والسلامُ: «ما لأحدٍ عندنَا يدٌ إلا وقدْ كافأناهُ، إلا أبا بكرٍ؛ فإنَّ لهُ عندنا يداً يكافئهُ اللهُ بها يومَ القيامةِ، وما نفعني مالُ أحدٍ قطُّ ما نفعني مالُ أبي بكرٍ»[٣].

وتتحدثُ عائشةُ عن والدها الذي ضحّى بنفسه ومالهِ في سبيلِ دعوةِ الحقِّ، ودِينِ اللهِ فتقولُ: إن أبا بكرٍ رضيَ الله عنهُ أسلمَ يومَ أسلمَ ولَهُ أربعونَ ألف دينارٍ، أو أربعون ألف درهمٍ، فأنفقها على رسولِ اللهِ ﷺ[٤].

ويومَ خرجَ أبو بكرٍ إلى المدينةِ في الهجرةِ كان لا يملكُ إلا خمسة آلافٍ، فقد أنفقَ معظمَ ما يملكُ من أموالٍ في العَوْنِ على نشر الإسلام، وفكِّ الرقاب[٥].

## العالـم، الفطـن، الذكـي

استدلَّ أهل العلمِ على عظم علمِ أبي بكرٍ وفطنته بقولهِ رضي الله عنهُ: واللهِ لأقاتِلَنَّ من فرَّقَ بين الصلاةِ والزكاةِ، واللهِ لوْ منعوني عِقَالاً كانوا يؤدُّونهُ

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨) والترمذي (٣٦٥٧) و قال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ابن عساكر عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة.

(٤) ابن عساكر عن عائشة.

(٥) فك الرقاب: أي عتق الضعفاء الذين أسلموا وهم تحت يد الكفار.

إلى رسولِ اللهِ ﷺ لَقاتلتُهُمْ على منعِهِ[1].

كان عالماً بإقامة الحدِّ على مَنْ مَنَعَ الصَّلاةَ والزكاةَ ، وجَعَلَ الصلاةَ شيئاً والزكاة شيئاً آخرَ.

ولقد كان أبو بكر ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ يفتي النَّاسَ في زمنِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وقد وقفَ الرسول ﷺ ذاتَ يوم خطيباً بينَ الناسِ ، فقال: «إن الله خَيَّر عبداً بين الدُّنيا وبَيْنَ ما عندَهُ ، فاختارَ ذلك العبد ما عندَ الله»[2].

سمع أبو بكرٍ هذه العبارةَ فبكى وقال: نفديكَ بآبائنا وأمهاتنا ، فعجب صحابةُ رسولِ اللهِ لبكائه.

ولكنَّ فطنتَهُ بدَّدَتْ عجَبهمُ واستغرابَهم عندما علموا أنَّ العبدَ الَّذي اختارَ ما عندَ اللهِ هو رسولُ اللهِ ﷺ ، وقد قال هذه العبارةَ عند دُنوِّ أجلهِ ، وقربِ وفاتهِ ، مما أبكى أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

وقد قال الرسولُ ﷺ عن علمِهِ وقراءتِهِ: «لا ينبغي لقومٍ فيهم أبو بكرٍ أن يؤمَّهمْ غيرُهُ»[3].

كان أقربَ الناسِ إلى رسولِ اللهِ ، فقد واظبَ على صحبتهِ من أولِ البعثةِ إلى الوفاةِ ، فصار أعلمَ النَّاسِ بالسنةِ ، ورجع إليه الصحابةُ في غير موضعٍ ، فيملي عليهمْ ما حفظهُ من سنةِ رسولِ الله ﷺ فهوَ يحفظُها ويسترجعُهَا عندَ الحاجةِ.

«ولم يُرْوَ عن أبي بكرٍ مِنَ الأحاديثِ المسندةِ إلاَّ القليل؛ لِقصَرِ مدَّتهِ[4]

---

(١) رواه البخاري (٢٧٨٤) في الاعتصام ، ومسلم (٢٠) في الإيمان.

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٤) في فضائل أصحاب النبي ، ومسلم (٢٣٨٢) في فضائل الصحابة.

(٣) رواه الترمذي عن عائشة.

(٤) ومع قصر مدّته فقد كان مشغولاً أعظم الشغل بحروبِ المرتدين من العرب ومانعي الزكاة ، ذلك مع أنه كان على ثقة من أنَّ بين الصحابة من يقوم مقامه في فتيا الناس.

وسرعةِ وفاتهِ بعدَ النبيِّ ﷺ ، وإلاّ فلو طالتْ مدته لكثُرَ ذلك عنه جدّاً ، ولم يترك الناقلون عنهُ حديثاً إلا نقلوهُ»[١].

كان رضوانُ اللهِ عليهِ يتميَّزُ بعقلٍ راجحٍ وذاكرةٍ حافظة ، فإذا وردَ عليه الخصومُ نظرَ في كتابِ اللهِ ، فإن وجدَ فيهِ ما يقضي بينهمْ قضى بهِ ، وإن لمْ يكنْ في الكتابِ وَعَلِمَ مِن رسولِ اللهِ ﷺ في ذلك الأمرِ سنةً قضى بها ، فإن عجزَ عنِ الحكمِ والقضاءِ خرجَ فسأل المسلمينَ وقال: أتاني كذا وكذا ، فهلْ علمتمْ أَنَّ رسولَ اللهِ قضى في ذلك بقضاءٍ؟ فربما اجتمعَ إليه النّفر ، كلُّهمْ يذكرُ عن رسولِ اللهِ ﷺ فيه قضاءً ، فيقول الصديقُ رضوانُ الله عليهِ: الحمدُ للهِ الذي جعلَ فينا من يحفظُ عنْ نبيّنا .

وكان الصديقُ رضيَ اللهُ عنه أَعلمَ الناسِ بأنساب العربِ لا سيما قريش. وكان رضوانُ اللهِ عليهِ بارعاً في تعبير الرؤيا ، حتى في زمنِ النبيِّ ﷺ ، ذلك ما قالهُ التابعيُّ الجليلُ محمدُ بنُ سيرينَ صاحبُ «تفسيرِ الأحلامِ» فقد ذكر «أن أبا بكرٍ أعبرُ هذه الأمةِ بعدَ النبيِّ ﷺ»[٢].

ومِنْ علمهِ أنه كانَ فصيحاً إذا خطبَ الناسَ ، بليغاً إذا تحدَّثَ إليهم ، وليس ذلك بغريبٍ على أبي بكر فقد توفرتْ له أدواتُ الكلام البليغ ، فالصدّيقُ أحدُ الصحابةِ الذين حفظوا القرآنَ كلَّهُ ، وأشارَ بجَمعهِ فَجُمع . ولازمَ رسولَ اللهِ فتعلَّمَ منهُ ، ولمَّا كانَ عليهِ الصلاة والسلامُ قد أوتيَ جوامِعَ الكَلِمِ ، فما يُستغربُ على أبي بكرٍ فصاحتهُ ، وقد أجابَ أبو بكرٍ عمرَ بنَ الخطابِ ـ رضي الله عنهما ـ يومَ صلحِ الحديبيةِ كما أجابَهُ النبيُّ سواءً بسواءٍ[٣].

---

(١) السيوطي في «تاريخ الخلفاء» ص ٥.

(٢) طبقات ابن سعد.

(٣) ورد الحديث في صحيح البخاري عندما سأل عمر النبي: علام نُعطي الدنيّة في ديننا؟. و«الدنية» هي الخصلة الخسيسة الوضيعة.

## خليفة رسول الله ﷺ

تمَّت حجةُ الوداعِ وعادت الألوفُ المؤلفةُ ممّن صحبوا النبيَّ ﷺ ، فأهلُ نجدٍ إلى بلادهمْ ، وأهلُ تِهامةَ إلى موطنهم ، وما بقيَ من أهلِ اليمنِ وحضرموتَ فقد انحدروا إلى مساكنهم ، وسار النبيّ ﷺ وأصحابُهُ يقصدون مدينتَه المنورةَ ، وما إنْ وصلَ عليه الصلاة والسلامُ إلى المدينةِ ، وبينما هوَ جالسٌ في بيتهِ عندَ عائشةَ حتى وجدها تشكو صداعاً في رأسها وتقولُ: وارأساهُ!

فقالَ لها وقد بدأ يحسُّ ألمَ المرضِ: بل أنا واللهِ يا عائشةُ وارأساهُ! إلى هذا الحدِّ لم يكنِ الألمُ ذا خطرٍ يُذكرُ بالنسبةِ إلى النبي ﷺ ، ولكن ما هي إلا أيامٌ قليلةٌ حتى اشتدَّ عليهِ المرضُ.

دخل أسامةُ بنُ زيدٍ وقد أصبحَ أميراً على جيشِ المسلمينَ لغزو الرومِ ، دخلَ على الرسولِ في فراشِ المرضِ فجعل ﷺ يرفعُ يَدهُ صامتاً إلى السماءِ ثم يضعها على أسامةَ علامَةَ الدعاءِ بالنصر لهُ. لقد أعجزهُ المرضُ عن الكلامِ.

وكان النبيُّ ﷺ قد أمرَ بتجهيز جيشٍ عرمرم إلى الشامِ ، جعلَ فيه المهاجرينَ الأولينَ ومنهم أبو بكر وعمرُ ، وأمَّر على الجيشِ أُسامةَ بنَ زيد بنِ حارثةَ ، وكان أُسامةُ يومئذٍ حَدَثاً لا يكادُ يتجاوز العشرينَ من عمره ، فكان لإمارتِهِ على المتقدّمين الأوّلين مِنَ المهاجرينَ ومن كبارِ الصحابةِ ما أثارَ دهشةَ النفوسِ[١] ، لولا إيمانهم الصادق برسول الله ﷺ.

وقد أراد النبيُّ بتعيين أسامةَ أن يستخلفه مكانَ أبيه ، ويقيمهُ مقامَه ، فقد استشهدَ زيدُ بنُ حارثةَ في موقعةِ مؤتةَ ، مما أثارَ الحزنَ في نفسِ هذا الفتى المسلم ، وقد رغبَ الرسولُ ﷺ أيْضاً أن يجعلَ لأسامةَ من فخارِ النصرِ ما يُجزي بهِ ذلك الاستشهادَ ، فأمرهُ أن يوطىء الخيلَ على حدودِ البلقاءِ

---

(١) انظر «حياة محمد» د. هيكل ص ٤٩٦.

وفلسطينَ على مقربةٍ من مؤتةَ حيثُ قُتِلَ أبوه ، وأن يباغت الأعداءَ من مطلع الصبح ، وأنْ يتمَّ ذلك سريعاً كيلا يتمكن العدو من ردّ الضربة للمسلمين ، فإذا أتَمَّ اللهُ النصرَ لم يطلْ بقاؤهُ بينهمْ ، وعادَ غانِماً مُظَفَّراً.

خرج أسامةُ إلى منطقةٍ خارج المدينة يقالُ لها «الجُرْف» وما إنْ علِمَ بِمَرَضِ الرسولِ حتَّى عاد إليهِ مسرعاً يُطمئنُ النفسَ ، ويعود رسولَ الله ﷺ في مرضه.

فكان هذا الدعاء الصامت ، فقد ارتفعتْ يدُ الرسولِ الكريمةُ بالدعاءِ لزيدٍ وقد أعجزَهُ المرضُ عن الكلام ، وزادتْ به الحمّى في الأيام الأولى من مرضه. وبعدَ خروجِ أسامةَ من عندِهِ ، اغتسلَ وخرج بعد أن تحسَّنَتْ صحتهُ بعضَ الشيءِ ، خرجَ إلى المسجد ، وقد لبس ثيابَهُ وعصبَ رأسَهُ وجلس على المنبر ، فحمِدَ اللهَ ثم ترحَّم على أصحابِ أُحُدٍ ، واستغفرَ لهمُ فأكثَرَ من الصلاةِ عليهمْ.

ثم قالَ: «أيّها النَّاس ، أنفِذوا بَعْثَ أُسامةَ ، فلعَمري لئن قلتم في إمارته ، لقد قلتم في إمارةِ أبيهِ من قَبْله ، وإنَّه لخليقٌ للإمارةِ ، وإنْ كان أبوه لخليقاً لها».

وسكت الرسولُ ﷺ بُرْهةً خيَّم الصمتُ على النَّاسِ أثناءَها ، ثم عاد إلى الحديثِ فقالَ: «إنَّ عبْداً من عِبادِ اللهِ خيَّرَهُ اللهُ بين الدنيا والآخرة وبينَ ما عندَهُ فاختارَ ما عندَ اللهِ»(١).

ثم سكتَ الرسولُ من جديدٍ والنَّاسُ كأَنما على رؤوسهم الطيرُ ، لكن أبا بكرٍ أدرك أنَّ النبيَّ إنما يعني بالعبارةِ الأخيرة نفسَهُ.

لم يستطعْ أن يمنعَ نَفْسَهُ عن البكاء لرقةِ وجدانه ووفاء صداقتهِ ، فأجهشَ بالبكاء قائلاً: بل نحن نَفْديكَ بأنفسنا وأبنائنا يا رسولَ اللهِ.

نظر الرسولُ إلى أبي بكرٍ قائلاً: «على رِسْلِكَ يا أبا بكر».

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٠٠).

ثم أمرَ ﷺ أن تقفَلُ جميعُ الأبواب المؤدية إلى المسجدِ إلا بابَ أبي بكر الصديقِ، فلما أقفلتْ جميعاً قال: «إنَّ من أَمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوّة الإسلام ومودّته، لا يبقينَّ في المسجد بابٌ إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر»[1].

ولقد لفتَ الرسولُ ﷺ الأنظار إلى أبي بكر بشكلٍ يوضِّح لأولي الألبابِ أنه عليه الصلاة والسلام يُرشحهُ للخلافة من بعدِهِ، ورغمَ ذلك لا يمكنُ القول بأنَّ الرسولَ قد صَرَّحَ بأمرِهِ القاطعِ في هذا الشأنِ.

وفي دليلٍ آخرَ على ذلكَ عندما قال لعبدِ الرحمنِ بنِ أبي بكرٍ بعد أنْ أمرهُ بإحضار أدواتٍ للكتابة: «اجلس، أَبَى اللهُ والمؤمنون أن يُخْتَلَف على أبي بكرٍ»[2].

ومما يدلُّ على أنهُ لم يصَرحْ بأمرِهِ القاطعِ في خلافةِ أبي بكرٍ أيضاً، ما نقرأُ في أحداثِ يومِ السقيفةِ في السيرة، وغيرِها من أحداث السيرةِ الشريفةِ أنَّ عمرَ قد عَرَضَ على أبي عبيدةَ أولاً أن يبايعَهُ بالخلافةِ فردَّ عليهِ قائلاً: ما رأيت لَكَ فَهَّةً[3] قبلَها! أتبايعني وفيكم الصديقُ وثانيَ اثنينِ؟

وبمناسبة قوله: ثاني اثنين، فقد «عاتب اللهُ المسلمينَ كلَّهم في رسول اللهِ ﷺ، إلا أبا بكرٍ وحدَهُ فإنَّه خرجَ مِنَ المعاتبةِ، واستثنيَ منها عندَما نزلت الآيةُ:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠][4].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٥٤) ومسلم (٢٣٨٢).

(٢) أخرجه أحمد، ومسلم عن عائشة بطرق، ونصّ مسلم عن عائشة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه «ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمنٍّ ويقولَ قائل: أ نا أولى؛ ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

(٣) الفَهَّة: ضعف الرأي.

(٤) ذكره السيوطي عن ابن عساكر. ص ٥٨ من «تاريخ الخلفاء».

نترك الأمر ونعودُ إلى بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فقد عادَ من المسجدِ واشتدَّ عليه المرضُ ، فلما جاءَ وقتُ الصلاةِ قال لبلالٍ: «مُروا أبا بكر فليصلِّ» ، فيستدِلُّ بعضهم بهذا على استخلافه.

وذات يومٍ ، بينما كان أبو بكرٍ جالساً بينَ أهلهِ ، جاءهُ نبأُ وفاةِ الرسولِ ﷺ ، فأسرعَ إلى بيتِ عائشَةَ فوجدَ النبيّ مسجًّى في ناحيةٍ وعليهِ غطاؤهُ يحجُبُ جسدَه كلَّه ، فمال عليهِ ورفعَ الحجابَ عن وجههِ وقبَّلَهُ قُبْلَةَ الوَداعِ وهُو يقولُ: بأبي أنتَ وأُمِّي ، أَمّا الموتة التي كَتَبَ اللهُ عليك فقد ذقتَها ، ثم لن تصيبَك بعدها موتةٌ أبداً.

ثم وضع الغطاءَ على وجهِ الرسولِ وخرجَ ، فرأى الناسَ مجتمعين خارجَ المسجدِ وعمرُ بنُ الخطابِ يخطبُ فيهم ويقولُ:

أيُّها النَّاسُ ، إنَّ رسولَ اللهِ لم يمتْ ولكنّهُ ذَهَبَ إلى ربّه كما ذهبَ موسى بنُ عمرانَ(١).

أقبل أبو بكرٍ على الناسِ قائلاً: على رِسْلِكَ يا عمرُ ، فصمتَ عمرُ عندما رأى الناسَ وقد انتبهوا إلى أبي بكرٍ الصديقِ.

وقف الصِّدِّيقُ صفيُّ النبيِّ وخليلُهُ وراحَ يخطُبُ في النَّاس ويقولُ:

أحمدُ الله وأُثني عليهِ... أيُّها الناسُ ، إنه منْ كان يعبُد محمداً فإنَّ محمّداً قد ماتَ ، ومنْ كانَ يعبدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ ، ثم تلا قولَهُ تعالى من سورة آل عمران:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

فكأن النَّاسَ ما عرفوا أنَّ هذِه الآية نزلَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ حتى تلاها أبو بكرٍ.

فقدْ قالَ عمرُ بنُ الخطابِ: واللهِ ما هوَ إلا أنْ سمعتُ أبا بكرٍ يتلوها

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٠٥).

فدهشتُ حتى وقعتُ على الأرضِ ما تحمِلُني رجلايَ ، وعرفتُ أنّ رسولَ الله ﷺ قد ماتَ[1].

دُفن رسولُ الله ﷺ ، وأصاب المسلمينَ وجومٌ شديدٌ ، وحزنٌ أشدُّ ، فهمْ في دوامةٍ لم ينقذهمْ منها غير إيمانهمْ ، وحبّهم وإخلاصهمْ لدينهم.

وانصرَف كلُّ جماعةٍ يتحدثون في أمرِ خليفة رسولِ الله ، وقد تولَّتهم رحمةُ الله عزَّ وجلَّ عندما دبَّ بينهم الخلافُ حولَ من يكونُ منهم خليفة رسولِ اللهِ حتى كانَ الموقف الخطير عند سقيفة بني ساعدة.

## يـوم السقيفـة

اجتمعَ الأنصارُ في سقيفة بني ساعدة ، وهي مكانٌ فسيح شبهُ البهوِ الواسعِ له سقفٌ ، فقالوا:

نُولِّي هذا الأمرَ بعدَ النبيّ سعدَ بنَ عبادةَ ، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريضٌ ، فلما اجتمعوا قال لابنِهِ:

إني لا أقدِرُ لشكواي أن أُسمِعَ القومَ كلَّهم كلامي ولكن تلقَّ مني قولي فأسمعهموه[2].

فراح يتكلّمُ وابنهُ يردِّدُ فقالَ:

أحمدُ اللهَ وأثني عليه ، يا معشر الأنصارِ لكمْ سابقةٌ في الدينِ وفضيلةٌ في الإسلام ليستْ لقبيلةٍ من العرب ، إنَّ محمداً لبث بضْعَ عشرةَ سنة في قومهِ يدعوهمْ إلى عبادةِ الرحمٰنِ وخلعِ الأندادِ والأوثانِ ، فما آمنَ به مِنْ قومِه إلاَّ رجالٌ قليلٌ ، وما كانوا يقدرونَ على أَنْ يمنعوا رسولَ الله ، ولا أَن يُعِزُّوا دينَهُ ، ولا أَنْ يدفعوا عن أنفسهمْ ضيماً (ظلماً) عُمُّوا بهِ ، حتى إذا أرادَ بكم الفضيلَةَ ، ساقَ إليكم الكرامةَ وخصَّكم بالنعمةِ........ إلى آخر خطبة

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٩٩).
(٢) المصدر السابق.

طويلة آثرنا أن نختصرها فأجابَهُ الأنصارُ بقولهم: قد وفقتَ في الرأي وأصبتَ في القولِ، ولن نعدو ما رأيتَ، نوليكَ هذا الأمر، فإنَّكَ فينا مُقْنِعٌ ولصالحِ المؤمنين رضيٌّ.

أَمَّا المهاجرونَ فقدْ قالوا ردّاً على هذا الكلام: نحن المهاجرونُ وصحابَةُ رسولِ الله الأولون، ونحن عشيرتُهُ وأولياؤهُ، فعلام تُنَازِعُونَنَا هذا الأَمْرَ بعدهُ!

فقالت طائفةٌ منهمْ: فإنا نقولُ: منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ.

وكانَ مع المهاجرين أُسيدُ بنُ الحُضيرِ الذي انحازَ إليهمْ وأيَّد رأيَهُمْ.

وصلتْ أخبارُ السقيفةِ إلى عمرَ بن الخطابِ، فأرسَل إلى أبي بكرٍ وهوَ في دارِ رسولِ اللهِ، فلما جاءَ أبو بكرٍ، مضيا مُسرعَيْن نحوهمْ، فلقيا أبا عبيدةَ بن الجرَّاحِ فمشى معهُمْ إلى السقيفةِ، فجاؤوا وهمْ مجتمعونَ في السقيفةِ، وقد وقَفَ بينهم سعدُ بنُ عبادةَ خطيباً.

وهمَّ عمرُ بالكلام فقالَ أبو بكرٍ: رويداً حتى أتكلَّمَ، وتقدَّمَ الصديقُ وتحدثَ إليهم قائلاً: أحمدُ الله وأُثني عليهِ(١):

إنَّ اللهَ بعثَ محمداً رسولاً إلى خَلْقِهِ، وشهيداً على أُمَّتِه ليعبدوا اللهَ ويوحدوهُ وهم يعبدون منْ دونهِ آلهةً شتّى ويزعمونَ أنها لهم عندَهُ شافعةٌ، ولهمْ نافعةٌ. وإنما هيَ من حجرٍ منحوتٍ وخَشَبٍ مَنْجُورٍ، ثم قرأ الآية:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فعظُمَ على العربِ أنْ يتركوا دينَ آبائِهم، فخصَّ اللهُ المهاجرين الأولين من قومِهِ بتصديقه والإيمان بهِ والمواساةِ له، والصبرِ معهُ على الشدةِ شدَّةِ الأذى؛ أذى قومهم لهمْ، وتكذيبهم إياهمْ.

---

(١) المصدر السابق.

واستطردَ الصديقُ قائلاً: وأَنتمْ يا معشَر الأنصارِ ، مَنْ لا يُنْـكرُ فَضْلُهم في الدينِ ولا سابقتهم العظيمة في الإِسلام ، رضيكمُ اللهُ أنصاراً لدينهِ ورسولِه ، وجعلَ إليكم هجرتَهُ وفيكم جِلَّة أصحابهِ ، فليسَ بعد المهاجرين الأولينَ عندنا بمنزلتكمْ ، فنحن الأمراءُ وأنتم الوزراءُ ، لا تفوتكم مشورة ، ولا تُقْضَى دونكم الأُمورُ[1].

ثم وَقَف الحُبابُ بنُ المنذرِ فتحدَّثَ إلى الناس ثم قال: مِنّا أميرٌ ومنكم أميرٌ.

ونتركُ عمَر بنَ الخطابِ يتحدثُ عن بقيةِ القصة فيقولُ: .... وكثُرَ اللغَطُ ، وارتفعتِ الأصواتُ حتى خشيتُ الاختلافَ. فقلنا: ابسطْ يَدَكَ أبَا بكرٍ ، فبايعتُهُ ، وبايعهُ المهاجرون ، وبايعهُ الأنصارُ ، فواللهِ ما وجدنا أمراً أوفقَ من مبايعةِ أبي بكرٍ ، خشينا إنْ نحن تركنا القومَ ولم تكن بيعة أن يُحْدِثوا بيعةً بعدنا ، فإمَّا بايعناهمْ على ما نرضى ، وإما أخلفناهمْ فيكون فسادٌ.

وبذلك تمتْ بيعةُ خليفةِ رسولِ اللهِ الأوّلِ أبي بكرٍ الصديق ، وبعدَ دفنِ جثمانِ الرسولِ ﷺ وقفَ أبو بكر يعلنُ سياسَتَه ، ويبيِّنُ للناسِ طريقهُ الصحيحةَ ليكونوا منها على بيِّنةٍ. فخطبَ يقولُ:

أحمدُ اللهَ وأُثني عليه ، أيُّها النَّاسُ. قد وُلِّيتُ عليكمْ ولسْتُ بخيركُم ، فإنْ أحسنْتُ فأعينوني ، وإنْ أسأتُ فقوِّمُوني ، الصدقُ أمانةٌ ، والكذبُ خيانةٌ ، والضعيفُ فيكم قويٌّ عندي حتى آخذَ له حقَّهُ ، والقويُّ عنْدي ضعيفٌ حتى آخذَ منه الحقَّ إنْ شاءَ اللهُ ، لا يدْع أحدٌ منكم الجهادَ ، فإنَّه لا يدعهُ قومٌ إلا ضربَهم اللهُ بالذلِّ... أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسولَهُ ، فإذا عصيتُ اللهَ ورسولَهُ فلا طاعةَ لي عليكُمْ»[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

## راتب الخليفة

بدأَ أبو بكر الصديقُ يمارسُ مهامهُ كخليفةٍ تولَّى أمرَ المسلمين ، ولم يكنْ بدٌّ للصديق من السعي لرزق عياله ، بعد أن أَنْفَقَ كلَّ ما يملك في سبيلِ اللهِ ، فذهبَ إلى السوقِ يبيعُ ويشتري ، فلقيهُ عمرُ وأبو عبيدةَ فراجعاهُ في ذلك ، وذكَّراه بأن مهمتَهُ تستوجبُ التفرُّغَ الكاملَ لمصالحِ المسلمين ، وبالتالي فإنَّ مِنْ واجبِ المسلمين أن يؤمّنوا لهُ رزقَه ورزقَ عِيالِهِ.

سَكَنَ الصدّيق ـ رضوانُ الله عليه ـ في منطقةٍ بالمدينة تسمى «السُّنْح» ستةَ أشهرٍ بعدَ استخلافِهِ ، يغدو على رجليْهِ أو راكباً إلى المدينةِ فيصلّي بالنّاسِ ، ويغدو إلى السوقِ كلَّ يومٍ فيبيعُ ويبتاعُ ، فإذا صلَّى العشاءَ رجعَ إلى أَهلِهِ بالسُّنْحِ ، ثم نزلَ إلى المدينَةِ فأقامَ بها ونظرَ في أمرِهِ ، فقال:

«لا واللهِ ما يصلحُ أمرُ النَّاسِ بالتجارة ، وما يصلحُ لهمْ إلاَّ التفرُّغُ». ولكن لا بُدَّ لعيالِهِ ممّا يصلحهم ، فتركَ التجارةَ وأخذ من بيت مال المسلمين ما يصلِحُه وعيالَه يوماً بيوم.

هكذا كانتْ بدايةُ الخلافةِ لأبي بكرٍ الصدّيقِ؛ إجماعٌ كاملٌ من رعيةِ المسلمين على بيعته ، وتفرُّغٌ لأمرِ المسلمينَ ، وبدأ خلافتَهُ في جهادِ المرتدين وضربِ معاقلِ الشركِ في كلِّ أنحاءِ الجزيرةِ ، ممَّنِ استغلوا وفاةَ الرسولِ ﷺ ، وضعفتْ قلوبُهم فارتدوا ، وامتنعوا عن دفعِ الصدقاتِ والزكاةِ.

## المجاهد العظيم

ما إنْ مات رسولُ اللهِ ﷺ ، حتى أطلّ النِّفاقُ برأسِهِ في مكَّةَ والمدينة ، وقد أصبح المسلمون وكأنّهم طيرٌ اهتزَّتْ أعشاشُها مِنَ الريح العاصف والمطر الهاطل لفقد نبيّهم ، وقلَّةِ عددهم ، وكثرةِ أعداءِ الإسلامِ ، وقد تسابقتِ القبائلُ على الارتدادِ بعضُها أو كلُّها.

كلُّ هذه الأحداث شخُصتْ واشرأَبَّتْ أعناقُها؛ بينما كان أسامةُ يستعدُّ للخروجِ ، وقد أَعدَّ جيشَه بأمرِ رسولِ الله ﷺ ، ولكنَّ الأحداثَ التي ظهرتْ عقبَ وفاةِ الرسولِ جعلتِ الآراءَ والأصواتَ تتعالى بالقول: إن حمايةَ المدينةِ الآن أصبحَ أمراً ضرورياً لضرب النفاقِ وأصحاب القلوبِ المريضةِ ، فكان بعضُ الصحابةِ مِنَ الأنصارِ على هذا الرأي ، ووسَّطوا عمرَ بنَ الخطابِ عند الصدّيقِ كي يأْخذَ بهذا الرأي ، ويُفاجَأُ عمرُ بردٍّ عنيفٍ من صاحبه أبي بكرٍ؛ الذي قال: ثكلتكَ أمُّك يا بنَ الخطّابِ!!! اسْتَعْمَلَهُ رسولُ اللهِ وتأمُرني أنْ أنزِعَهُ!!

وكان أسامةُ موضعَ اعتراضٍ أيضاً كقائدٍ لهذا الجيشِ مما حدا بأبي بكرٍ أن يقول هذِه الكلمات السالفةِ الذكرِ.

ولكي يؤكّدَ الصدّيقُ إصرارَهُ على تنفيذِ ما أرادَهُ رسولُ اللهِ ﷺ خرجَ إلى منطقةٍ تسمى «الجُرْفَ» خارجَ المدينةِ لِيُشَيِّعَ المجاهدين ، فسار معهمْ ماشياً ، وأسامةُ راكبٌ دابّتَهُ ، فألحَّ أُسامةُ على الخليفة بالركوبِ فأَبَى ، وَهَمَّ أسامةُ بالنزول ليساويَ بينه وبين الصدّيقِ ، فأقسمَ الصدّيقُ أنَّه لن يركبَ وأنَّ أسامة لنْ ينزلَ ، ثم جعلَ يوصيه قائلاً:

يا أسامَةُ؛ اصنع ما أمركَ به نبيُّ اللهِ ﷺ ، ابدأ ببلادِ قضاعةَ ، ثم ائتِ آبِلَ ، ولا تقصِّرن في شيء من أمرِ رسولِ الله ﷺ ، ولا تعجلنّ لما خلّفتَ عن عهده.

ثم وقفَ خطيباً في الجيشِ كلِّه فقال:

قفوا أوصِكُم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونُوا ، ولا تَغْدِروا ولا تُغلُّوا ، ولا تُمثّلوا ، ولا تقتلوا طِفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأةً ، ولا تَعْقِروا نَخْلاً ولا تحرقوهُ ، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلاَّ لمأكلة؛ وسوف تمرُّوا بأقوام قد فرّغوا أنفسَهم في الصوامع ، فَدَعُوهم وما فرّغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوانُ الطعام؛ فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقَوْن

أقواماً قد فَحَصوا أوساطَ رؤوسهمْ وتركوا حولَها مثلَ العصائب فاضربوا بالسيف خَفْقاً. اندفعوا باسم الله[1].

استبقى الصديقُ عمرَ بنَ الخطاب معه ليعاونهُ في شؤون الدولةِ مستأذناً أسامةَ بحكمهِ قائداً للجيش وأميراً عليهِ. أليس في هذه الواقعةِ قمة الالتزامِ من خليفة رسولِ الله بالطريقِ الصحيح والسبيلِ العظيم للقيادة؟ إن في هذه المشاهد معانيَ عظيمة لو تأمْلنَاها لعرفنا عظمة الصدّيقِ وأصحابِ الرسولِ رضوانُ اللهِ عليهم.

ثم انطلقَ جيشُ أسامة مجاهداً في سبيل الله ، وبذلك أنفذَ الصديقُ أمرَ رسولِ الله ﷺ ، وحقَّقتْ هذِه المهمةُ نتائجَ عظيمةً جعلت الذينَ في قلوبهم مرضٌ يفكرون جيداً قبل ارتدادِهم ، ومشى جيشُ أسامةَ قرابَةَ السبعينَ يوماً ، فهزَم مرتدِّي قضاعَة وغيرَهم ، وقد كانتْ النتيجةُ الرائعة لإنفاذِ هذا الجيشِ ، ألا وهي إلقاءُ الرعبِ في قلوب هؤلاء الذينَ ظنّوا أنَّ وفاةَ الرسولِ قد أنهت المسلمين ، وتثبيتُ تلك الهيبة العظيمة التي اكتَسبها المسلمون في معاركِهم العظيمة يومَ بدرٍ وأُحُدٍ وغيرها من المشاهد العظيمة.

ولم يخسر المسلمونَ شهيداً في هذه الرحلة المباركةِ ، وعادوا سالمينَ غانمينَ ، وأصبحت المدينةُ موضعَ مَهابة واحترامٍ كما كانتْ في حياةِ النبيِّ صَلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ.

## يوم ذي القَصَّة

اجتمعت أسد وغطفانُ وبعضُ حلفائهم ، وقرّروا أمراً بعثوا به إلى خليفة رسولِ اللهِ ﷺ ، فنزل وفدُهم على وجوهِ النَّاسِ في المدينة ، ثم ذهبوا بهم إلى أبي بكرٍ ليبلغوهُ أنّهم سيقيمونَ الصلاةَ ، على ألاّ يؤتوا الزّكاةَ ، فقال

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧).

الصدّيقُ على الفور ودونَ تردّدٍ: «والله لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعه»(١).

فرجعَ الوفدُ إلى أهلهمْ بذي القَصَّةِ ، وهي موضعٌ بينه وبين المدينةِ أربعة وعشرون ميلاً من طريقِ نجدٍ(٢).

أمَّا أبو بكر فإنه توجَّسَ شراً من هؤلاء القوم ، وجعل عَلَى مداخل المدينةِ رجالاً منهم عليُّ بنُ أبي طالب ، والزُّبيرُ بنُ العوَّام ، وطلحةُ بنُ عبيْدِ اللهِ ، وعبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ، وجمع أهلَ المدينة في المسجدِ ، وقال لهم:

إنَّ القَوْمَ قد رَأَوْا مِنكم قِلَّةً ، وإنكم لا تدرون: أَلَيْلاً تُؤتَوْنَ أمْ نهاراً! وأدناهم منكم على بَرِيدٍ ، (أي مسافة اثني عشر ميلاً من المدينة) ، وقد كانوا يأملونَ أن نقبلَ منهم ونُوَادِعهمْ ، وقد أبَيْنا عليهم ، ونبذنا إليهمْ عهدهُمْ ، فاستعدُّوا وأعِدُّوا.

وكأنَّ الصدّيقَ رضوانُ اللهِ عليهِ كان على علمٍ ودرايةٍ بما سيحدثُ من هؤلاء فلمْ يكتفِ بهذا التحذيرِ وإنما اتَّخذ تدبيراً يَدْعمُ الدفاع عن المدينةِ ، فجَعلَ على طرقاتِها حراساً يبيتون على أوَّلِ الطرقاتِ حول المدينةِ ، وأمَّر على هؤلاء الحراسِ طائفة من كبارِ الصحابةِ؛ منهم الزُّبَير وعليٌّ وطلحةُ وسعدٌ وعبدُ الرحمن بنُ عوفٍ وعبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنهمْ أجمعينَ. بينما جعلَ قيادةَ القواتِ الإسلاميةِ في المدينةِ في حالةِ استنفارٍ تامٍ.

ولم يكنْ قد مضى على عودة وفدِ المنافقينَ المرتدينَ عن دفع الزكاةِ إلا ثلاث ليالٍ حتى حَدَثَ ما توقَّعهُ خليفةُ رسولِ اللهِ أبو بكرٍ الصديقُ؛ فقد اقتربَ القومُ من المدينة مع الليلِ وتركوا بعضَهم عند موضِع يسمى «ذا حُسىً» وهو موضع بِنَجْدٍ من ديارِ عبْسٍ وغطفانَ(٣). تركوهمْ ليكونوا عَوْناً ومدداً ، وقد تنبه لهم أبطالُ المسلمين حراس المدينةِ ، ووصل الخبرُ إلى أبي بكرٍ الصدّيقِ

(١) رواه البخاري (٢٧٨٤) ومسلم (٢٠).
(٢) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٦٥).
(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٢٤٥).

عندئذٍ ، فخرجَ في أهلِ المسجدِ ، وقد رَكب الجميعُ نواضِحَ الإبلِ التي يُستقى عليها ، ولكنْ عندَما وصلوا «ذا حُسىً» وهو الموضعُ الذي اختبأ فيه عونُهم ومددُهم ، إذا بالمسلمين يفاجَؤون بحجارةٍ تتدحرجُ من أعلى الجبلِ حتى خافت الإبلُ منها ، فنفرتْ ، وأصبحَ ركابُها منَ المسلمين لا يملكونَ زمامَها حتى رجعتْ إلى المدينة ، ولكنْ لم يصبْ أحدٌ منْ هؤلاءِ الذينَ ركبوها؛ لذلك ظنَّ هؤلاءِ المرتدون أن بالمسلمين ضعفاً ووهناً مما جعلَ شاعرَهمْ يقولُ:

أَطَعْنا رسولَ اللهِ ما كانَ بيننَا ... فَيا لِعبادِ اللهِ ما لأَبي بكرِ!
أيورثُها بَكْراً إذا مات بَعْدَهُ! ... وتلكَ لَعَمْرُ اللهِ قاصِمةُ الظَّهْرِ!
فهلَّا رددتم وفدنا بزمَانِهِ ... وهلَّا خشيتم حِسَّ راغية الْبَكْرِ!
وإنَّ التي سألوكُمُ فَمنعتُمُ ... لكالتَّمْرِ أَوْ أَحْلَى إلِيَّ مِنَ التَّمْرِ

وتجمعَ القومُ ظنّاً منهم أَنَّ هذِه هي النهايةُ ، ولكنَّ الصدّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ باتَ ليلتَهُ يستعدُ ليواجه معركتهُ الأُولى ، فجهَّزَ الجيشَ وعبَّأَ النَّاسَ ، ثم خرجَ وعلى ميمنته النُّعمانُ بنُ مُقَرِّن ، وعلى ميسرته عبدُ الله بن مُقَرِّن ، وعلى مؤخرةِ الجيشِ سويدُ بن مُقَرِّن ، فما طلعَ الفجرُ إلاَّ وقد فاجأَ عدوَّهُ ، وقبل أن تشرق الشمسُ كانَ المسلمون قد حققوا نصراً عظيماً وولَّى القومُ أدبارَهم ، وتبعهمْ أبو بكرٍ حتى نزل بذي القَصَّةِ ، فتركوها وولوا منهزمين ، ورجعَ أبو بكرٍ إلى المدينةِ ، فكان أول الفتح بداية الجهادِ[١] .

## حروب الردة

تابعَ الصدّيقُ رضوانُ اللهِ عليهِ مناوراتِهِ لتأديب هذهِ النفوسِ المريضَةِ ، فخرجَ إلى موضعٍ بالقربِ من المدينةِ يسمى «الرَّبذَةَ» فَلَقِيَ بني عبسٍ وذُبيانَ وجماعةً ممن حالفوهم فقاتلهم وهزمهم ثم رجعَ إلى المدينةِ ، وكان جيشُ أسامةَ قد عادَ إلى المدينةِ واستراح رجالُهُ.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٤٢ وما بعدها).

عندئذٍ جمعَ الخليفةُ المجاهد قادةَ جيشِهِ ، وقد وصلتْهُ أخبارُ المرتدينَ ، فعقدَ :

* **اللواءَ الأولَ**: لخالدِ بنِ الوليدِ ، وأمرَهُ أن يخرجَ بكتيبته إلى المرتدِ طُليحة بنِ خويلدِ الأسديّ ، فإذا فرغ سارَ إلى ديارِ بني أسدٍ ليلقى مالك بن نويرة.

* **واللواءَ الثاني**: لِعكرمةَ بنِ أبي جهلٍ وأمره بحرب مسيْلَمَة الكذّابِ في اليمامةِ (جنوب الرياض حالياً).

* **واللواءَ الثالث**: للمهاجرِ بنِ أبي أُميّةَ ، وأمره بقتال الأسود العَنْسي بصنعاءَ اليمنِ.

* **واللواءَ الرابعَ**: لخالِد بن سعيد بن العاص الذي أمرَه بالتوجّهِ إلى حدود الشامِ.

* **واللواءَ الخامسَ**: لِعمْرو بنِ العاصِ ، وَوَجَّهَهُ إلى قُضاعةَ (مدائن صالح).

* **واللواءَ السادسَ**: للعلاءِ بن الحضرميّ وأمرهُ بالتوجه إلى البحرين.

* **واللواءَ السابعَ**: وجعله لحذيفَة بنِ محْصنِ الغلفانيّ وأمرَه بالتوجهِ إلى أهلِ دبَا بعُمانَ.

* **واللواءَ الثامنَ**: لِسُويدِ بنِ مقرِّنٍ وأمَرهُ بالتوجه إلى تِهامةَ اليمنِ.

* **واللواءَ التاسعَ**: لـشُرْحبيلِ بـنِ حَسَنَةَ في أثرَ عِكرمةَ بنِ أبي جهلٍ ليساعِدَهُ في اليمامةِ ، ثم أمَرهُ إذا فرغَ من اليمامةِ أن يَلْحَقَ بعمْرو بنِ العاصِ في قُضاعةَ[1].

ثم كتبَ لكلٍّ منهمْ كتاباً قالَ فيهِ: «هذا عهدٌ منْ أبي بكرٍ خليفةِ رسولِ الله ﷺ لفلانٍ حينَ بعثَه فيمن بعثَهُ لقتالِ مَن رجعَ عن الإسلامِ؛ وعهدَ

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٧٠).

إليهِ أن يتّقيَ اللهَ ما استطاعَ في أَمرهِ كلِّهِ ، سِرِّهِ وعلانيته ، وأمرهُ بالجدِّ في أمرِ اللهِ ، ومُجاهدةِ مَنْ تولّى عنهُ ، وَرَجَع عن الإسلام إلى أمانيِّ الشيطانِ بعد أن يعذر إليهم فيدعوهمْ بداعيةِ الإسلامِ؛ فإنْ أجابوهُ أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوهُ شنَّ غارتَهُ عليهم حتى يُقِرُّوا له. . . » الخ[1].

إلى آخر رسالَةٍ طويلةٍ وضَّح فيها أخلاقياتِ الإسلامِ حتّى مع أعدائه.

ثم كتب كتاباً للمرتدين قالَ فيه[2]:

من أبي بكرٍ خليفةِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى مَنْ بَلَغهُ كتابي هذا من عامَّةٍ وخاصةٍ ، أقام على إسلامهِ أو رجعَ عنهُ سلامٌ على مَن اتَّبعَ الهُدى. . .

فمن كان يعبدُ محمَّداً فإنَّ محمداً قد ماتَ ، ومن كان يعبُد الله وحدُه لا شريك له ، فإن اللهَ له بالمرصادِ ، حَيٌّ قيُّومٌ لا يموتُ. . . .

وقد بلغني رجوع مَنْ رجعَ منكمْ عن دينهِ بعد أن أقرَّ بالإسلامِ وعَمِلَ بهِ؛ اغتراراً باللهِ ، وجهالةً بأمرِهِ ، وإجابةً للشيطانِ. . . .

وإني بعثتُ إليكم فُلاناً في جيشٍ مِنَ المُهاجرين والأنصارِ ، والتابعينَ بإحسان ، وأمرتُهُ ألا يقاتِلَ أحداً ولا يقتلَهُ ، حتى يدعوهُ إلى داعية اللهِ؛ فمن استجابَ له وأَقَرَّ وكفّ وعمِلَ صالحاً قبلَ منهُ وأعانه عليه؛ ومَنْ أبى أَمَرْتُ أَن يقاتِلَهُ على ذَلِكَ ، ثم لا يُبقي على أحدٍ منهمْ قَدَرَ عليهِ. . . » إلخ.

وانطلقتْ كتائبُ المسلمين تضربُ في الأرضِ ، لتقطعَ دابرَ المنافقين والمرتدين ، فتوجّه خالدٌ إلى اليمامةِ لحربِ مسيلمةَ الكذّاب ، وبعد قتالٍ عنيفٍ لمْ يشهد المسلمونَ لهُ مثيلاً قُتِلَ مُسَيْلَمةُ ، وقُتِلَ معه عشرةُ آلافٍ من رجالِهِ ، وسقطَ مِن المسلمين قرابةُ ألفِ شهيدٍ ، بينهم عددٌ كبيرٌ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ مهاجرينَ وأنصاراً.

وفي البحرين حاصرَ المشركون العلاءَ بنَ الحضرمي عامِلَ رسولِ اللهِ ﷺ

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

على البحرينِ ، وظلَّ الحصارُ شديداً ممّا أجهدَ المسلمينِ ، وذات ليلةٍ يسَّر اللهُ للمسلمين مباغتتَهم ، فأغاروا عليهم بقيادة العلاءِ ، وظلوا يقاتلونهم بعنفٍ بعد أن حاصروا مدينتَهم حتى قبلوا الصلحَ ، ونال المسلمون منهم غنائمَ كثيرةً ، بعد هذا النصرِ المؤزّر الذي كتبهُ الله لهم[١].

وفي حضرموتَ ، حيثُ كان الأشعث بنُ قيسٍ قد ارتدَّ بقومِهِ من قبيلةِ كندةَ وهاجمَ واليها الإسلاميَّ زياد بن لبيد البياضيَّ ، فكتب الصدّيقُ رضوانُ اللهِ عليهِ إلى المهاجر بن أبي أميّةَ الذي خرجَ إلى نجران ليُخضِعَ المرتدينَ كي يقومَ بنجدتِهِ من صنعاءَ ، ففعل المهاجرُ ، وفرَّ المرتدُّون إلى حصنٍ لهم ، ثم استسلموا ، وعاد الأشعثُ إلى رشدِهِ وكتب عهداً إلى أبي بكرٍ فعفا عنهُ بعد أن ندمَ على ما فعلَ.

وتحدثتْ كتبُ المغازي والسيرِ[٢] عن رجلٍ عُمانِيٍّ يدعى ذا التَّاج الأزديِّ ، وادَّعى النبوَّةَ ، واستجابَ له ضعافُ النفوسِ ، فكثُرَ الرجالُ حولَهُ ، فَسَيْطَرَ على المنطقةِ كلِّها. ولما قويتْ شوكَتُهُ وخافَ المسلمونَ الذين ثبتوا على إيمانِهم منه أرسلوا إلى الصدّيقِ بطلبِ النجدةِ ، فأرسل إليهم حُذَيفَة بنَ مِحصنٍ ، ولحقَ به عِكرمةُ بنُ أبي جهلٍ ، والتحم الجيشانِ في معاركَ شديدةٍ ، كاد المرتدون ينتصرون ، لولا اللهُ سبحانَه وتعالى ورحمتُه التي سببتْ لهم النجدةَ من قبائلَ قريبةٍ تؤيدُ المسلمينَ ، وفي النهايةِ حقق المسلمونَ النصرَ وقتلوا عشرةَ آلافٍ منهمْ ، وغنموا مغانمَ كثيرةً.

## جمع القرآن

بعد موقعةِ اليمامة جاءت الأنباءُ بأن عدداً كبيراً من قرّاءِ القرآنِ قد قُتِلوا ، وعلِم عُمرُ بذلك فجاء إلى أبي بكرٍ في مجلسهِ وقال:

إنَّ القتلَ استحرَّ يومَ اليمامةِ بقرَّاءِ القرآنِ ، وإنِّي لأخشى أن يستحرَّ القتل

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٠١ وما بعدها).

(٢) الطبري (٣/ ٣٣٠ وما بعدها).

بالقرّاءِ في المواطنِ فيذهب كثير من القرآن ، . . . وإني لأرى أن يُجمَع القرآنُ.

فأرسلَ أبو بكرٍ إلى زيد بنِ ثابتٍ الأنصاريِّ كاتبِ وحي الرسولِ وقالَ لهُ:

إنّك شابٌّ عاقلٌ ولا نتّهمكَ ، وقد كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسولِ اللهِ ﷺ ، فتتَّبع القرآنِ فاجْمَعْهُ.

فقالَ زيدٌ موجهاً حديثَهُ لأبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهما:

كيف تفعلان شيئاً لم يفعلْه رَسولُ اللهِ ﷺ؟

فقال أبو بكرٍ: هو واللهِ خيرٌ.

فقالَ زيدٌ: فلمْ يزَلْ أبو بكرٍ وعمر يراجعاني في ذلك ، . . . حتَّى شرَحَ اللهُ صدري للذي شرحَ لهُ صدرَ أبي بكرٍ وعمرَ. . فتتبعتُ القرآنَ أجمَعُهُ مِن الصحف والعسب واللخافِ[1] وصدورِ الرجال ، حتى وجدتُ آخرَ سورةِ التوبةِ مع خزيمة بن ثابت.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ. . .﴾ الآية.

فكانت الصحفُ عند أبي بكرٍ حتى توفاهُ اللهُ[2].

هذه رواية زيد الوافية عن دور الصديق في جمع القرآن.

وقدْ شاركَ في هذا العملِ العظيمِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ، فقد حبَس نفسَهُ ستةَ أشهرٍ في دارهِ ، لا يغادرها إلا للصلاةِ عقب وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ولما سألَهُ الصدّيقُ عن ذلكَ قال:

أقسمتُ أن لا أرتدي برداء إلاّ لجمعة حتى أجمع القرآن. . . يعني أتمّ حفظه[3].

وقد تولى زيدُ بنُ ثابتٍ مجردَ عملية جمع سورهِ في صحُفٍ ، جُعِلتْ في

---

(١) اللخاف: الحجارة الرقاق.

(٢) انظر كتاب: المصاحف لابن أبي داود سليمان السجستاني ص ١٢ ، ١٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٦.

عهدةِ أبي بكرٍ رضي اللهُ عنهُ ، فلما تُوفِّي حُفِظتْ لدى عُمَرَ ، وبعدَ عُمَرَ أُودعتْ لدى ابْنتِهِ حفصةَ أمِّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنهما ، حتى جاءت الخلافةُ في عهدِ عثمانَ ، فاستحضَر هذهِ النسخةَ لينقلَ عنها النسخَ الَّتي كتبها لنفسِه وللأمصارِ ، كي لا يُختَلَف على قراءةِ القرآنِ بينَ المسلمينِ.

وسيظلُّ جمعُ القرآنِ العظيمِ من مآثرِ خليفةِ رسولِ اللهِ الصدّيقِ رضوانُ اللهِ عليهِ ، كما كانتْ حروبُ الردةِ عملاً عظيماً سيشهدُ الزمانُ أنهُ وَطَّدَ دعائمَ الدولةِ الإسلاميةِ وأركانها في مهدها ، ودفعَ عن المدينةِ أطماعَ الطامعين ، من أهلِ الكفرِ والنفاقِ الذين أطلوا برؤوسهم عقبَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

## فتح العراق

بدأ الاحتكاكُ العسكريُّ بينَ المسلمينِ والفرسِ منذُ أنْ سيطروا على اليمنِ والبحرينِ وعُمانَ وضربوا المرتدين فيها ، وقد كانت فارسُ تسيطرُ على بعضِ الجماعاتِ والبلادِ ذات الأصولِ العربيةِ التي ترغبُ بالخلاصِ من هؤلاءِ.

وقد كان الفرسُ يعانون هزيمةً قاسيةً من الرومِ منذ فترةٍ زمنيةٍ قصيرة على فتوحات المسلمينَ ، مما دعا المسلمينَ إلى التفكير جيداً في نشرِ الإسلامِ في ربوعِ العراقِ والمعمورةِ كلِّها ، ورغمَ ذلك لم يغبْ عن بالِ الصدّيقِ وأصحابهِ وأهلِ شوراهُ من الصحابةِ الأجلاءِ أنَّ الفرسَ يملِكون رصيداً ضخماً من العَددِ والعُدَّةِ وخبرةً قتاليةً لا يستهانُ بها.

وبينما كانت القيادةُ العسكريةُ والسياسيةُ للمسلمينَ في المدينةِ تفكرُ في الأمر جليّاً من جميع جوانِبهِ ، حتى تواترت الأنباءُ تقولُ: إنّ المثنى بنَ حارِثَةَ الشيبانيّ نقلَ معاركَ المسلمينَ إلى أطرافِ العراقِ لمطاردَةِ الفرسِ الذينَ ساعدوا المرتدين في معاركِ البحرينِ.

وجاءَ المثنى المدينةَ ، وتحدَّثَ في الأمرِ للقيادةِ العامة وعلى رأسها أبو بكرٍ الصديق؛ الذي عرضَ الأمرَ على أصحابهِ حيث: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ . . . فتعالت أصواتٌ في المجلسِ على الفورِ تهتفُ بضرورةِ الاستفادةِ

من خبرةِ خالِد بنِ الوليدِ ، فاستُدْعِيَ خالدٌ منَ اليمامةِ على الفورِ[1].

ولما جاء خالدٌ وعُرِضَ الأمرُ عليهِ ، قال: يجبُ الإعدادُ التامُّ ، وتسخيرُ كلِّ الإمكاناتِ لهذا العملِ العظيمِ. وعلى الفورِ بدأ الخليفةُ المجاهدُ بالإعداد لهذِه المهمةِ الخطيرةِ ، فجعل المثنى أميراً على العراقِ ، وأصدر أمراً بتعيين خالدٍ قائداً عاماً للجيوش الإسلامية في جبهة العراقِ.

وفي مطلعِ المحرم من العامِ الثاني عشرَ لهجرةِ رسولِ اللهِ ، بدأ زحفُ المجاهدينَ ، وبدأ المثَنَّى يضربُ في معاقِلِ الشركِ على امتدادِ دجلَة والفراتِ ، وخرجَ خالدٌ في بادىء الأمرِ بألفينِ من المقاتلينَ المجاهدينَ ، انضمتْ إليهِ بعدها ثمانيةُ آلافٍ من ربيعةَ ومضرَ ، فقدِمَ بعشرةِ آلاف على المثَنَّى ، وبدأَ خالدٌ بمنطِقَةٍ قريبةٍ من كاظمةَ على الحدودِ تسمى بالخفيرِ ، فسقطتْ في يدهِ بعد مقتلِ قائدِها هرمزَ ، وواصل خالد زحفه تجاه الحيرةِ ، وكانَ في الطريقِ قتال عنيف ، في «نهرِالدمِ» لكثرةِ القتلى الذين سقطوا في منطقة «أُلّيْس» فتحطمتْ معنوياتُ الفرسِ ، وأصبحَ الطريقُ مفتوحاً إلى الحيرةِ عاصمةِ العراقِ العربيةِ ، فاستولى عليها المسلمون وأصبحت مركزاً لقيادةِ خالدِ بنِ الوليدِ ، وانضمَّ إليهِ جماعاتٌ هائلةٌ من الفلاحينَ والدّهاقين لعدل الإسلام وسماحته ، ومقارنَتِهِ بظلمِ الفرسِ[2].

وجاءَ دورُ الأنبارِ التي حشدَ فيها الفُرسُ قواتٍ كثيرةً ، وتُركَ بطلٌ منْ أبطالِ المسلمين هو القعقاعُ بنُ عمرو والياً على الحيرةِ.

ولمَّا بلَغ خالدٌ الأنبارَ وشهدَ أسوارَها؛ قام بدراسةِ أوضاعِ حراستها وكيفيةِ اقتحامها ، ثم قالَ لرجالهِ:

أرى قوماً لا علمَ لهمْ بالحربِ فارْموا عيونَهم. ورمى الرُّماةُ المهرةُ العيونَ ، ففقؤوا ألفَ عينٍ في سهولةٍ ويسرٍ ، فدبَّ الذعرُ في النَّاسِ وارتفع الصياحُ وتهادتْ إلى الأسماعِ صيحاتٌ تقولُ: ذهبتْ عيونُ أهلِ الأنبارِ.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣٤٣ ـ وما بعدها).
(٢) المصدر السابق.

وانتصر خالدٌ ودخلَ الأنبارَ.

ثم جاءت الأخبارُ بانتصارِ عياضِ بنِ غنمٍ في دومةِ الجندلِ بعد أنْ نجدَهُ خالدٌ.

وتم فتحُ العراقِ بعدَ معارِكَ فاصلةٍ في الحُصَيد، والمُصَيَّخ، والفراضِ[1]، وهي معاركُ هائلةٌ دارتْ بينَ المسلمينَ وأعدائهم تجلت فيها الانتصارات بِفَضْلِ حكمةِ القيادةِ، وجهادِ الأبطالِ، وعسكرية خالدٍ، وبطولةِ المثَّنى بنِ حارثةَ، وحكمةِ سعدِ بن أبي وقاصٍ خير خلفٍ لخيرِ سلفٍ، رضوانُ اللهِ عليهمِ أجمعين، وفوق ذلك كله عون الله تعالى.

## وداعاً خليفةَ رسول الله

قضى الصديقُ عشرينَ عاماً، من حياته الحافلة الشريفةِ يخدمُ الدعوةَ والرسالةَ الإسلامية العظيمة، فقد بدأت الدعوةُ وكان في بَيْتِهِ أربعون ألف درهمٍ، ولما هاجَر مع رسولِ اللهِ ﷺ كان لا يملكُ طعامَ أهلِهِ في بيتِهِ، فتركهمْ للهِ عزّ وجلّ ورعايته.

ولما استخلفَ بعد وفاةِ النَّبيِّ ﷺ مدة خمسة وعشرين شهراً قضاها في الجهادِ المتواصلِ في رعايةِ المسلمينَ وقيادةِ المجاهدينَ من صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فكان أمر المسلمين شورى بينهمْ وبينهُ، عملاً بالقولِ الكريمِ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ فكان لا يستبدُّ برأيٍ، ولا يستقلُّ بخطّة.

وقد روت السنةُ الشريفةُ كثيراً من مآثرِه رضي الله عنه، فهاهو يصعدُ معَ النبيِّ ﷺ، وعمَرَ بنِ الخطاب وعثمانَ بن عفان رضي الله عنهما جبلَ أُحدٍ، فارتجفَ بهمْ فقال عليه الصلاة والسلام: «اثبتْ أُحُد، فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدانِ»[2].

---

(١) أسماء معارك خاضها المسلمون في فتح العراق.

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٥) وأبو داود (٤٦٥١)، والترمذي (٣٦٩٧).

وقد أطبق السلفُ على أنّ أبا بكرٍ أفضلُ الأُمَّةِ ، فقد حكى الشافعيُّ وغيرُه إجماعَ الصحابةِ على ذلكَ.

وقد شاركَ بيتُ الصدّيقِ كلُّه في خدمةِ الرسولِ ﷺ يومَ هجرتِهِ المباركةِ إلى المدينةِ المنورةِ ، كلٌّ منهم يعملُ في أمرٍ من الأمورِ ، فكمْ خرجتْ أسماءُ ذات النطاقين لخدمةِ هذا الركبِ المباركِ ، ويكفي ما عاشهُ هذا البيتُ العظيمُ من لحظاتِ الخوفِ من بطشِ الكفارِ لعلمِ قريشٍ أنَّ أبا بكرٍ هو صاحبُ الرسولِ ﷺ في هذه الرحلةِ.

وقبلَ فترةٍ وجيزةٍ من نهاية رحلتهِ من الحياةِ أصيبَ أبو بكرٍ الصديقُ بوعكةٍ صحية من أسبابها أنه اغتسلَ في يومٍ باردٍ ، فأصابته الحمّى ، فلزِمَ بيتَهُ ، لا يستطيعُ الخروجَ للصلاة ، حتى تُوفِّيَ رضي الله عنه وأرضاه.

ومما ذكرتْه كُتبُ السيرِ أن مرضَه كان بسببِ سُمٍّ دُسَّ لهُ في طعامٍ فما زالَ يسري في جسمِهِ طوال عامٍ كاملٍ حتى أدركهُ الموتُ!.

وقد رفضَ الصدِّيقُ مراراً عرضَ نفسهِ على الطبيبِ ، ويعللُ ذلك بقولهِ «قد رآني» أيْ عَلِمَ ربي بحالي. فتركَ الأمرَ كلَّه للهِ سبحانَه وتعالى.

ومن حرصه واهتمامهِ بشؤون المسلمينَ رغمَ شدةِ مرضهِ استخلافه عمَر بن الخطاب ، بعدما عَرَف أن الرعية ترضى بذلك ، فأكَّدَ حسنَ اختيارهِ؛ لكفاءَةِ عمرَ وقوةِ احتمالِهِ وعدلِه الفريدِ.

ولذلكَ اختارَه إماماً للمسلمينَ وهو في مرضِهِ ، ولم يكتفِ بهذا بلْ قالَ للمسلمينَ في المسجد: أترضون بمن أستخلِفُ عليكمْ؟ فأجابوه بنعم.

فقال: إني قد استخلفْتُ عمرَ بنَ الخطابِ ، فاسمعوا لهُ وأطيعوا.

فقالوا: سمعنا وأطعنا.

فجعل يخاطب نفسهُ ويقولُ: اللهم إنِّي لم أُردِ بذلك إلاَّ صلاحَهم ، وخفتُ عليهم الفتنةَ فعملتُ فيهم بما أنتَ بِه أَعْلمُ بِه ، واجتهدتُ لهمْ رأياً فولَّيْتُ عليهم خيرَهُمْ وأقواهم عَلَيهمْ ، وأحرصهمُ على ما أرشدَهُمْ ، ولم

أرِدْ محاباة عمَرَ ، أصلح اللّهمّ واليهمْ ، واجعلْهُ مِن خلفائِكَ الراشدينَ وأصلح له رعيته.

أوصى أبو بكر أن تغسلَهُ زوجهُ أسماءُ بنتُ عُمَيْسٍ مستعينةً بابنه عبدِ الرحمٰنِ ، وفي لحظاتِه الأخيرةَ وصلَ المثنَّى مِنَ العراقِ ، فدخل عليهِ ، وأبلغهُ ما جدَّ من أنباءِ أبطالِ الإسلام هناكَ ، ثمّ وافتهُ المنيةُ في مساءِ الإثنين الثامن من جمادى الآخرةِ ، للعام الثالث عشرَ من هجرة الرسولِ ﷺ. رحمَ اللهُ الصدِّيقَ ، الوفيّ ، الخليفةَ الأوَّلَ.

* * *

# (٢)

# عمر بن الخطاب

قال تعالى في سورة طه:

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾

## فـي الـبـدء كلمـات

عمرُ بنُ الخطابِ، الفاروقُ، لقَّبهُ رسولُ اللهِ ﷺ بالفاروقِ لأنَّه فرَّقَ بين الحقِّ والباطلِ.

سمعَ عمرُ بنُ الخطابِ آياتِ القرآنِ التي صدَّرنا بها هذهِ الكلماتِ، فسكنَتْ ثورتُهُ، وغزا الإيمانُ قلبَهُ الّذي كانَ في الجاهليةِ مِنْ أقسى القلوبِ، وأشرقَ الإسلامُ في كلِّ موضعٍ يرتادُهُ.

عمرُ بنُ الخطابِ قالَ عنهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنِّي لأنظُرُ إلى شياطينِ الإنسِ والجنِّ قد فرُّوا من عمرَ»(١).

الفاروقُ عمرُ رضوانُ اللهِ عليهِ يخاطبُهُ رسولُ اللهِ فيقولُ: «يا بْنَ الخطاب! والذي نفسي بيدهِ، ما لقِيكَ الشيطانُ سالكاً فجاً قطّ إلاّ سلَكَ فجّاً غيرَ فجكَ»(٢).

كانتْ مهمةُ رسولِ اللهِ العظمى هي تبليغ الرسالةِ، وقد بَلَّغَ الناسَ، وأشهدَ اللهَ على أَنَّه بلَّغَ الرسالَة، وعلَّمَ النَّاسَ ما فيهِ صلاحُ دينِهم ودُنْياهمْ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٩١) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٣) ومسلم (٢٣٩٦).

ولكنَّ الإسلامَ لم يتجاوزْ حدودَ جزيرَةِ العربِ في حياةِ الرسولِ ﷺ ، وجاءَ أبو بكرٍ وامتدَّ الإسلامُ إلى أطرافِ الجزيرةِ في الشامِ ومصرَ وفارسَ ، ولمّا كانَ عهدُ أبي بكرٍ قصيراً لمْ يكتملْ فيهِ النصرُ في حربٍ بدأتْ بينَ الحقِّ والباطلِ ، بينَ الإسلامِ وأعدائهِ في بلادِ فارسَ والرومِ.

وماتَ أبو بكرٍ ، وجاءَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ؛ وقد فتحَ بَابَ الجهادِ على مصراعيْه لمواجهة قوىً باغية.

وكانَ الفاروقُ عمرُ رائعاً ، فقد استجابَ لمستجداتِ عهدِهِ فأنشأَ دواوينَ ، وكوَّنَ جيشاً للدِّفاع عنِ المسلمينَ.

كانَ عهدُهُ تغييراً هائلاً في كُلِّ النظمِ ، وتوطيداً لدولةٍ عظمى وخلافة انتظمَ فيها العدْلُ ، كأحسنِ تشريعٍ أهداهُ الإسلامُ للدنيا.

هذهِ الكلماتُ ، تمتدُّ هنا وهناكَ ، ولكنْ للسيرةِ نظامُها ، نلحظه لبنةً بعد لبنة؛ في صفحاتٍ قد لا توفي عمَر حقَّهُ ، فمنَ المولدِ والنشأةِ ، تتحركُ الخطى إلى عمرَ: شاباً في الجاهليةِ ، بطلاً في الإسلامِ؛ فنترك اللبناتِ تأخذُ مكانَها حتى يكونَ البناءُ كاملاً بعدَ هذهِ الكلماتِ في البدايةِ.

## المولد والنشأة

بعدَ حوالي ثلاثَ عشرةَ سنةً من ميلادِ رسولِ اللهِ ﷺ جاءَ ميلادُ هذا الفتى ، فتهلَل وجهُ الخطَّابِ بن نُفَيلٍ المخزوميِّ القرشيِّ ، وتلقَّى تهاني القومِ ، وقد انشرحَ صدرُهُ بقدومِ ابنه الصغير ، وقد قصَد الدارَ لتهنئةِ زوجته «حنتمةَ» بنتِ هاشمٍ بقدومِ الوليدِ ، وسلامتِها ، وكان اختيارُ الاسمِ: عمرَ.

فأصبح اسمُهُ: عمَر بنَ الخطَّابِ بنِ نفيل بن عبدِ العزى. ويجتمعُ نسبُهُ معَ النَّبيِّ ﷺ في كعبِ بنِ لؤي ، فهو قرشيٌّ مِنْ بني عديٍّ.

وكُنيتُـهُ أبو حفصٍ ، والحفصُ هو شبلُ الأسدِ ، كنَّاهُ بهِ النبيُّ ﷺ يومَ

بدرٍ ، ولقَّبَهُ بالفاروق ، فأعزَّ اللهُ به الإسلامَ وفرَّقَ بينَ الحقِ والباطلِ[1]. وُلِدَ بعدَ عام الفيلِ بثلاثَ عشرةَ سنةً[2].

كانَ صهر رسول الله وأبا حفصةَ أمِّ المؤمنين ، زوج رسولِ الله.

نشأَ عمرُ في رعايةِ والديهِ على أحسن ما تكونُ الرِّعايةُ ، فلما بلغَ الصبيُّ ويَفَعَ ، وأصبحَ شاباً قويّاً متماسكاً ، عمِلَ بالتجارةِ حيناً ، وأحياناً كانَ يجعلهُ أبوهُ على مواشيهِ يرعاها ، ويسرح بها.

وقدْ كانَ الفاروقُ عمرُ رضوانُ اللهِ عليهِ أبيضَ البشرةِ مُشْرَباً بالحمرةِ ، فارعَ القامةِ ، عريضَ المنكبينْ ، مفتولَ الساعدينِ ، إذا مشى أسرعَ في مِشْيَتِه، وَقَلَّ أَن يدركَهُ من يرافقهُ ، يَحْسَبُ شبانُ قريشٍ لغضبتِهِ ألفَ حسابٍ.

كانَ ندّاً قوياً لأقرانِهِ ، فإذا ما صارَعَ أحداً غَلَبَه ، وقد حدثَ هذا في سوقِ عكاظٍ حتى إنَّ النَّاسَ التفوا حولَهُ وخصمه يشهدون نزالَ الأبطالِ فما كانَ من ابن الخطابِ إلا أن صرعَ خَصْمَهُ.

وقد كانَ عمرُ في جاهليتهِ غليظاً جافاً ، فيهِ غلْظةُ الطبيعةِ وجفافُ البداوةِ.

وكان رضوانُ اللهِ عليهِ يمارسُ ضروباً مختلفةً من الفروسيةِ والرياضةِ ، وقراءةِ الشعرِ وحِفْظِهِ ، إذْ كان يسمعُ الشعراءَ في سوقِ عكاظٍ ، ويطرَبُ للجيّد مِنَ الشعرِ ، ولا يحفَلُ بالمهلهل منهُ ، وكثيراً ما كانَ ينقدُهُ.

وقد تحدَّثَ عمرُ أحياناً عن قسوةِ أبيهِ عليهِ في الجاهليةِ وصرامتهِ في معاملتِهِ ، حينما كان يقومُ على رعي إبلِهِ.

## إسلامه

جلسَ عمرُ بينَ أقرانِهِ من شبابِ قريشٍ وفُرسانها يتحادثونَ في أمرِ هذا

---

(١) الرياض النضرة (١/ ١٨٨).

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٢٣.

الدِّينِ الذي جاءَ بِه محمدّ بنُ عبدِ اللهِ ، يتيمُ بني هاشمٍ ، واشتدّ الحديثُ حتى وقفَ عمرُ بن الخطابِ وقد امتلأَ غضباً ، وتقلَّدَ سيفَه ، وهدَّدَ ، وتوعَّدَ ، فوقفَ رجلٌ من بني زُهْرَة لقيَهُ وهو خارجٌ يتوعَّدُ.

فقالَ الرجلُ: أين تقصِدُ يا بن الخطاب؟

قالَ عمرُ: أريدُ أنْ أقتلَ محمداً.

فقالَ الرجلُ: وكيف تأمنُ من بني هاشمٍ وبني زهرةَ إن قتلتَ محمداً؟

قال عمر: ما أراكَ إلاَّ قدْ صبأتَ.

قال الرجل: أفلا أدُلُّك على عجبِ العجابِ يا عمر؟

فصمتَ عمرُ؛ عند ذلكَ واصلَ الرجلُ حديثَهُ قائلاً:

عليكَ بابن عمكَ سعيد بنِ زيدِ بن عمْروٍ وزوجتِهِ فاطمةَ بنتِ الخطابِ ، فقد صبأا واتبعا دينَ محمدٍ ، فالأوْلى بكَ قَبْلَ أن تقتلَ محمداً أن ترجعَ إلى أهلِ بيتكَ فتُقيمَ أمرَهُمْ[1].

ثار عمرُ وأَخذهُ الغضبُ الشديدُ ، وكأنَّ ناراً قد شبتْ في بدنِهِ ، فانطلقَ لا يلوي على شيءٍ حتى وصلَ إلى دارهما.

كان في دار أُختِهِ وزوجها خبابُ بنُ الأرتِ ، ومعهُ صحيفةٌ يقرأ فيها سورة طَه ، وقفَ عمرُ متوارياً قليلاً وجاءَ صوتُ خباب رائعاً يقولُ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة طه: ١ ـ ٨].

---

(١) تاريخ السيوطي ص ١١٠.

عندما سمعَ خبابٌ وصاحبُهُ صوتَ عمرَ آتياً من الخارج ، وأحسّا به عندما تحركَ وقد كان البابُ مفتوحاً ، اختفى خباب في مخدعٍ لهمْ ، وأخفت فاطمةُ بنت الخطابِ الصحيفةَ على الفورِ ، ودخل عمرُ غاضباً مزمجراً وقال لأخته: ما هذه الهينمة[1] التي سمعتُ؟

قالت فاطمةُ: ما سمعتَ شيئاً.

قال: بلى واللهِ ، لقد أُخبرتُ أَنكمَا تابعتمَا محمداً على دينِهِ ، وهمَّ أن يبطش بسعيدِ بن زيدٍ ، فقامت أُختهُ لتكفَّهُ عن زوجها ، فضربَها فشجَّها ، فلمَّا فعلَ ذلكَ قالا لهُ: نعم ، قَد أسلمنَا وآمنا باللهِ ورسولِهِ ، فاصنعْ ما بدا لَكَ[2] .

نظرَ عمرُ إلى أختهِ فاطمةَ ورأى الدمَ على وجهها ، فرقَ قلبُهُ وندِمَ على ما فعلَ وما صنَعَ ، وقالَ لأختهِ وقد عادَ إليهِ هدوءه وسكينتُهُ:

أعطيني هذه الصحيفة.

ثم نظرَ إلى سعيدٍ قائلاً: أعطوني الكتابَ الَّذي هو عندكُمْ فأقرؤهُ ـ وكان عمرُ يقرأ الكتابَ.

فقالتْ أختُهُ فاطمةُ: إنَّكَ رجسٌ ، وإنهُ لا يَمسُّهُ إلاَّ المطهرونَ ، فقُمْ فاغتسلْ .

فقامَ عمرُ فاغتسل ، ثم أخذَ الكتابَ فقرأَ ما فيه ، حتى انتهى إلى ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ .

فلمَّا انتهى من القراءةِ قالَ: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمَه[3] ! .

سمع خبَّابٌ هذه العبارةَ من عمرَ وهو في مخبئِهِ ، فخرجَ مسرعاً وقالَ لعمَر: يا عمرُ والله إني لأرجو أن يكون اللهُ قد خصَّكَ بدعوةِ نبيهِ فإنِّي سمعتُهُ

---

(١) الهينمة: الصوت الخفي.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١١٠ ـ ١١١.

(٣) المصدر السابق.

أمس وهوَ يقولُ: «اللهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام ـ يعني أبا جهل ـ»[١].

تهاوتْ غلظةُ عمرَ، وتداعتْ قسوتُهُ أمامَ أَنوار الإسلام العظيمةِ التي تسلّلتْ إلى نفسهِ، ففاضتْ نفسُهُ بالشوقِ للانضمامِ إلى هذه الكوكبةِ المباركةِ وقدْ استجابَ اللهُ لدعاءِ محمدٍ ﷺ.

انطلق عمرُ إلى دارِ الأرقم بنِ أبي الأرقمِ، وما إنْ وصلَ حتى قَرَعَ البابَ، فقام أحدُ الصحابةِ ونظرَ، ثم عادَ إلى رسولِ اللهِ يقولُ: إنهُ ابنُ الخطابِ يا رسولِ اللهِ متوشحاً سيفَهُ.

وقفَ حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ وقالَ لرسولِ اللهِ ﷺ: ائْذَنْ لهُ يا رسولَ اللهِ، فإن يردِ اللهُ بهِ خيراً يسلِمْ، وإنْ يردِ غيرَ ذلكَ يكنْ قتلُهُ علينا هيّناً.

أذِنَ ﷺ أن يُفتح الباب، ونهض عليه الصلاة والسلامُ حتى لقيهُ فأمسكَ بتلابيب ثيابه وجذبهُ جذْبَةً شديدةً، وقالَ لهُ: «أما أنتَ بمُنْتَهٍ يا عمرُ حتَّى يُنزِلَ اللهُ بكَ من الخِزي ما نزلَ بالوليدِ بنِ المغيرةِ»[٢]؟.

فقالَ عمرُ: أشهدُ أن لا إلَه إلاَّ اللهُ وأنكَ عبدُ اللهِ ورسولُهُ يا رسولَ اللهِ لقد جئتكَ لأؤمنَ باللهِ ورسولِهِ وبما جاءَ من عِنْدِ اللهِ.

فكبَّرَ رسولُ اللهِ ﷺ تكبيرةً عَرَف منها أصحابُهُ أنَّ عمرَ قد أسلمَ.

فكبروا على إثرِهِ تكبيرةً سُمعَتْ بفجاجِ مكَّةَ.

ونتركُ عمرَ يتحدَّثُ عنْ لحظاتِ ما بعدَ إسلامِهِ فيقول: جئتُ إلى خالي أبي جهل بنِ هشامٍ وكانَ شريفاً، فقرعتُ عليهِ البابَ، فقالَ: منْ هذا؟

قلت: ابنُ الخطابِ وقد أسلمتُ وصبأتُ.

فقالَ: لا تفعلْ، ثم دخلَ وأجاف[٣] الباب دوني.

(١) الرياض النضرة (٢/١٨).
(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٢٥ والرياض النضرة (٢/١٨).
(٣) أجاف: أغلق.

فقلتُ: ما هذا بشيءٍ.

فذهبتُ إلى رجلٍ منْ عظماءِ قريشٍ فناديتُهُ، فخرجَ إليَّ، فقلتُ لَهُ مثلَ مقالتي لخالي، ففعلَ ما فعلَ خالي بي[1].

فذهبت إلى رسولِ اللهِ وقلتُ: يا رسولَ اللهِ ألسنَا على الحقِّ؟ قالَ: بَلَى. قلت: ففيم الإخفاءُ؟

فخرجنا صَفَّين أنا في أحدهما وحمزةُ في الآخرِ حتى دخلنَا المسجدَ، فنظَرتْ قريشٌ إليَّ وإلى حمزةَ، فأصابتهمْ كآبةٌ شديدةٌ، لم يصبهمْ مثلها، فسمَّاه رسولُ اللهِ «الفاروقَ» يومئذٍ لأنه أظهر الإسلامَ وفرَّقَ بين الحقِ والباطلِ[2].

وهكذا أعزَّ اللهُ الإسلامَ بعمرَ بن الخطابِ، فانضمَّ إلى لواءِ الإسلامِ وروضةِ الحقِ.

## صاحب رسول الله ﷺ

كانَ عمرُ في صحبتِهِ للرسولِ ﷺ مثالَ المؤمنِ القويِّ الإيمانِ، الواثقِ بربِّهِ، المطيعِ لِنَبِيِّه، الشديد الغلظةِ على أعداءِ الحقِّ والإسلامِ.

كانَ متمسّكاً بما أنزَلَ اللهُ من أحكامٍ وشرائعَ، وقد أثنى عليهِ الرسولُ ﷺ حينما قال: «إن اللهَ جعلَ الحقَّ على لسانِ عمرَ وقلبِهِ. وفرَّقَ اللهُ بِهِ بينَ الحقِّ والباطلِ»[3].

كانَ عمرُ ذا عقلٍ كبيرٍ، ورأيٍ سديدٍ رشيدٍ، وقد وافَقَ القرآنَ في ثلاثِ مسائلَ قبلَ أن ينزل فيها الوحيُ[4]:

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٢.

(٢) المصدر السابق، وصفة الصفوة (١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣).

(٣) الترمذي: (٣٦٨٣) وقال: حسن صحيح، وأبو داود: (٢٩٦٢).

(٤) عظماؤنا في التاريخ د. مصطفى السباعي، ص ١٣٢ ط ١ المكتب الإسلامي. وقد أوصل بعضهم موافقاته إلى أكثر من عشرين. انظر تاريخ الخلفاء ص ١٢٢.

* رأى تحريمَ الخمرِ ، فنزلَ تحريمُها بقول اللهِ تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [االمائدة : ٩٠].

* كانَ مِنْ رأيِهِ عدمُ قبولِ الفِداءِ من أسرى بدرٍ ، فنزلَ القرآنُ مؤيداً رأيَهُ: يقولُ عزَّ وجلَّ في سورة الأنفال:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

* كما أشارَ عمرُ على النبيِّ باتخاذِ الحجابِ على زوجاتِهِ أمهاتِ المؤمنينَ ، فنزل القرآنُ بذلِكَ في سورة الأحزاب:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ .

ومنْ فضائِلِ عمرَ ، قولُ رسولِ اللهِ ﷺ: «بينا أَنا نائمٌ رأيتُني في الجنَّةِ ، فإذا امرأةٌ تتوضَّأُ ـ أي تتّقد نوراً إضاءة لا من الوضوء المعهود ـ إلى جانبِ قصرٍ.

قلت: لمنْ هذا القصرُ؟

قالوا: لعمرَ.

فذكرت غيرتَكَ ، فولّيتُ مدبراً».

فبكى عمرُ عندما سمعَ هذا الحديثَ وقالَ: أعليك أغارُ يا رسولَ اللهِ[1]؟ .

ولما أذِنَ النبيُ ﷺ بالهجرةِ إلى المدينة ، كانت هجرةُ عمرَ غيرَ هجرة سائرِ المسلمينَ ، لأنّ أكثرَ المسلمينَ خرجوا متخفّينَ من مكة ، جماعاتٍ ، كلُّ جماعةٍ تحمي الأخرى ، أمَّا عمرُ فما رضيَ لنفسهِ أَنْ يخرجَ متخفّياً أبداً ، وأبت نفسُهُ وشجاعتُهُ وكبرياؤهُ أنْ يهاجرَ متخفّياً في جنحِ الظلامِ أو في حِمايةِ أحدٍ.

تقلَّد الفاروقُ سيفَهُ ، وتنكّب قوسه[2] ، وانتضى[3] في يده أَسْهُماً ، وخرجَ إلى الكعبة والناسُ من قريشٍ يجتمعونَ حولَها ، فطافَ بالبيتِ سبعاً ، ثم صلّى في المقامِ.

وقالَ للنَّاس من قريشٍ: شاهَت الوجوهُ[4] لا يرغم اللهُ إلا هذهِ المعاطِسَ ، من أرادَ أن تثْكَلَهُ[5] أمُّهُ ، ويُيتِّمَ ولدهُ وترمّل زوجته ، فَلْيَلْقَني وراء هذَا الوادي.

ثم خرجَ قاصداً المدينةَ وقد أخرسَ أَلْسِنَةَ النَّاسِ بهذهِ الكلماتِ ، وبلغَ المدينةَ بعد أَنْ عانى من التَّعبِ والنَّصبِ ، فأقامَ فيها وقد اشتاقَ لمقدِمِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فراح يسألُ كلَّ وافدٍ إلى المدينةِ عن أخبارِهِ عليه الصلاة والسلامُ ومتى يكونُ وصولُهُ؟

حتى كانَ يوم الوصولِ ، وصول رسولِ اللهِ ، وإشراق نورهِ الكريمِ ، ولما أهلَّتْ طلعتُهُ البهيةُ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهِ ، وخرجتْ جموعُ المدينةِ رجالاً

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٢) ومسلم (٢٣٩٥).
(٢) تنكّب قوسه: وضعها في منكبه.
(٣) انتضى السهم: أخرجه من الكنانة فجعله في يده.
(٤) شاهت الوجوه: قبحت.
(٥) تثكله: تفقده.

ونساءً ، بنينَ وبناتٍ ، تستقبلُ حبيبَ المسلمين ، كانتْ سعادةُ عمرَ لا تقدَّرُ بثمنٍ.

وقد صاهرَ الفاروقُ عمرُ رضوانُ اللهِ عليهِ ﷺ ، وغمرتِ السعادةُ قلبَهُ حينَ خطبَ إليهِ الرسولُ ﷺ ابْنَته «حفصةَ» ، فكانت المصاهرةُ بين عُمرَ ورسولِ اللهِ وثاقاً عظيماً بين المحبّينَ في الله ، ونال عمرُ شرفَ هذهِ المصاهرةِ العظيم.

وفي يومِ بدرٍ تصدَّى للمشركينَ ولم يرحمْ قلبهُ مشركاً أيّاً كانَت صلتُهُ بهِ ، ففي هذا اليومِ المشهودِ ، وعندما التحمَ الجيشان ، التقى الفاروقُ عمرُ بخالهِ «العاص بنِ هشام» وكانَ مشركاً يقتلُ المسلمين ويقاتلهمْ ، فما كان من عمرَ إلاَّ أنْ نازلَهُ وقتلهُ ، وكان الإسلامُ فوقَ كلِّ أهواءِ النسبِ ، ورابِطة الدمِ.

هكذا كانت العقيدة الإسلاميةُ تعلو على أيِّ اعتبارٍ آخرَ.

وفي هذا اليوم غنمَ المسلمونَ غنائمَ كثيرةً ، وجاءَ دورُ عمرَ في الشورى بخصوصِ أسرى بدرٍ فكان لعمَر رأيُهُ الذي سبقَ وأن أوردناهُ في موافقته القرآن الكريم ، فقد نزلت الآياتُ توافقهُ عقبَ عودةِ الرسولِ ﷺ إلى المدينةِ المنورةِ.

وقد شهدَ عمرُ المشاهدَ كلَّها مع رسولِ اللهِ ، في أُحدٍ ، والخندق ، كان بطلاً في كل موقفٍ ، ثابتَ الجنانِ لا يفرُّ ، وإنَّما يكرّ على عدوِّهِ ولا يخشاهُ.

وجاءَ يومُ الحديبيةِ ، فمنعتْ قريشٌ المسلمينَ مِن دخولِ مكَّةَ للعمرَةِ ، فذهبَ عثمانُ بنُ عفان موفداً من رسولِ اللهِ إلى مكةَ للتفاوضِ مع قريشٍ فاحتجزهُ النَّاسُ هناكَ ، ولما طالتْ غيبةُ عثمانَ في مكَّةَ ، ظنَّ المسلمونَ أنه قدْ أَصابَهُ أَذىً ، وخشِيَ الرسولُ على عثمانَ ، فدعا صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليه الحاضرينَ إلى البيعةِ فبايعوهُ بيعة الرضوانِ ، وكان عُمر مِمَّن شهدوا هذهِ البيعةَ ، ونزل فيهم قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ

ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وبعد هذهِ البيعةِ أحست قريشٌ بخطورَةِ الموقفِ، فتركتْ عثمانَ يَعودُ معَ أَصْحابِه، وبعثتْ بـ «سهيلِ بنِ عمْروٍ» لمفاوضةِ المسلمينَ الَّذين أَصَروا على دخولِ مكةَ بالقوةِ.

وقد انتهت المفاوضاتُ إلى عهدِ الحديبيةِ وقدْ نصَّ العهدُ على ما يلي:

«هذا ما صالحَ عليه محمدُ بنُ عبدِ اللهِ سهيلَ بنَ عمْروٍ، اصطلحا على وَضْع الحرب عن الناس عشرَ سنين، يأمنُ فيهنّ الناسُ، ويكفُّ بعضهُم عن بعض، على أنه مَنْ أتى محمداً من قريشٍ بغير إذنِ وليِّهِ ردَّه عليهمْ، ومَنْ جاءَ قريشاً ممّن مع محمدٍ لم يردّوه عليهِ، وإن بيننا عَيْبَةً مكفوفة[1]، وأنه لا إسلال ولا إغلال[2]، وأنه من أحب أن يدخل في عَقْد محمد وعَهْده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه»[3].

سمعَ عمرُ بنُ الخطابِ نصَّ الصلْحِ، ورأى أنَّ ظاهِرها يوحي بضعفٍ في موقف المسلمين ورغبتِهم في الصلحِ نتيجةَ هذا الضعف، مما أثار حفيظة عمرَ، فغضبَ، وبدأ يعارضُ شروطَ هذا الصلحِ، بل أصبحَ من أشدِّ المعارضين لهذهِ الشروطِ المجحفةِ، وقد ذهبَ في معارضته حَدّاً جعله يقولُ لأبي بكر: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا مسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نُعطي الدنيَّةَ في ديننا؟».

ثم جاء رسول الله ﷺ فقال له مثل مقالته لأبي بكر فقال النبيُّ ﷺ: «أنا عبدُ الله ورسولُه، لَنْ أخالِفَ أَمرَه، ولنْ يُضيعَني»[4].

انتهى الحوارُ وانصرفَ عمرُ رضي اللهُ عنهُ، وعادَ المسلمون إلى مدينةِ

---

(١) عيبة مكفوفة: أي صدور منطوية على ما فيها، لا تُبدي عداوة، وضَرَب العيبة مثلاً.

(٢) الإسلال: السرقة الخفية. والإغلال: الخيانة.

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٣٢).

(٤) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٣١). والدنيّة: الذّل والأمر الخسيس.

رسولِ اللهِ بعد صلحِ الحديبيةِ ، فنزلتْ سورةُ الفتحِ تبشِّرُ المسلمينَ وتبيِّنُ لهمْ جميعاً بُعْدَ نظرِ الرسولِ ﷺ ، فقال عزَّ وجل:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾ .

ويشاء العزيزُ الحكيمُ أن تنقُضَ قريشٌ العهدَ الذي تمَّ بينها وبينَ المسلمين ، فكانَ سبباً مباشراً لفتحِ مكةَ ، وكان فتحاً عظيماً ، حطمَ به المسلمون رؤوسَ الشركِ وأصنامَ الكفرِ ، وعادوا إلى بلدِهم الأمين.

وبعدَ فتحِ مكةَ وحجّة الوداعِ ، عادَ الرسولُ إلى المدينةِ ، ومرضَ فاشتدَّ عليه المرضُ ، فكان عمرُ بنُ الخطابِ مِن أكثرِ المسلمين قلقاً وجزَعاً ، لا يشعرُ براحةِ نفسٍ والرسولُ مريضٌ في فراشهِ.

وجاء نبأ وفاةِ النبيِّ كالصاعقة على عمَر ، فشهرَ سيفَه ، وخرج ينذرُ منَ يقول إن النبيّ ﷺ قد ماتَ ، وأشاعَ بينَ الناسِ أن النبيَّ في غيبةٍ كغيبة موسى عليه السلامُ ، وراح يقولُ للناسِ:

«إنَّ رجالاً من المنافقين يزعمونَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ تُوُفيَ ، وإن رسول الله ﷺ والله ما ماتَ ، ولكنَّه ذهبَ إلى ربِّه كما ذهبَ موسى بنُ عمرانَ ، فقد غابَ عن قومه أربعينَ ليلةً ، ثم رجعَ إليهم بعد أَن قيل: قد ماتَ.

والله ليرجعنَّ رسولُ الله كما رجعَ موسى ، فليقطِّعَنَّ أيدي رجالٍ وأَرجلَهُم زعموا أن رسول الله ﷺ ماتَ»[1].

سمعَ المسلمونَ صوتَ عمرَ وهو يصيحُ بهذهِ الكلماتِ في المسجدِ ، وجاءَ أبو بكرٍ وقال: على رسلك يا عمر ، أنصِت ، فأبى إلا أن يتكلَّم ، فلما رآه أبو بكر لا يُنصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال:

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٠٥).

أيُّها الناس! إنه من كان يعبدُ محمّداً فإنَّ محمّداً قد مات ، ومن كان يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموتُ.

ثم تلا قولَ الله سبحانَهُ وتعالى من سورة آل عمران:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

أنصتَ عمرُ إلى كلام أبي بكرٍ ، فلمَّا سمعَ أبا بكر يتلو هذه الآية خرّ إلى الأرضِ ما تحملهُ رجلاهُ موقِناً أَنَّ رسولَ الله قد مات.

وبعد هذه الأحداثِ بدأت الأنظارُ تتجهُ إلى خليفةِ رسول اللهِ ، وكان يوم سقيفةِ بني ساعدةٍ ، وما جرى فيهِ من أحداثٍ ، ولقدْ كان عمرُ إلى جوارِ صاحبِهِ أبي بكرٍ في هذا اليومِ المشهودِ وغيرِهِ من الأيام طوالَ خلافةِ الصدّيقِ رضوانُ اللهِ عليهما.

## مع أبي بكر الخليفة الأول

كان عمرُ رضيَ الله عنهُ وزيرَ صِدقٍ لأبي بكرٍ ، ورجلَ الشورى القريبَ من خليفة رسولِ الله الأولِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ.

بدأ عمرُ بنُ الخطابِ مع صاحبهِ أبي بكرٍ يومَ سقيفة بني ساعدةٍ ، وكانَ موقفاً رائعاً يومَ امتدَّتْ يدُ الفاروقِ الكريمةُ إلى يدِ صاحبهِ ليبايعَهُ كي يوقف فتنةً كادتْ تزحفُ بينَ صفوفِ أحبِّ الناسِ في اللهِ لبعضهم ، المهاجرين والأنصار.

وما إن امتدت يدُ الفاروقِ عمرَ حتى بادرَ الأحباءُ في اللهِ إلى البيعةِ ، وكان لعمرَ الفضلُ في حسمِ الخلافِ الذي كادَ أنْ يودي بوحدة المسلمين في المدينةِ ويضربَ أركانَ دولةِ الإسلامِ الفتية في مهدِها.

ويقول أحدُ العلماءِ[1] في هذا الموضعِ:

---

(١) الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي في «عظماؤنا في التاريخ» ص ١٣٣.

وكانت شدّةُ عمرَ في حياةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، هي في حياةِ أبي بكرٍ، فأبو بكرٍ كان رجُلاً حليماً تملأُ الرحمةُ برديهِ، ويغلبُ الوقارُ والعفوُ على صفاتِهِ كلِّها، فكانَ لا بدَّ من رجلٍ قويِّ الشكيمةِ كعمر، يمزجُ حلمَ أبي بكرٍ بقوةِ الدولةِ، واحتلّ تلكَ المنزلةَ، ولذلِك كان أبو بكر يأخذُ برأيهِ، ويعملُ بقولهِ:

أمر أبو بكر يوماً بأمرٍ فلم ينفذْهُ عمرُ، فجاؤوا يقولون لأبي بكرٍ: واللهِ ما ندري: الخليفةُ أَنْت أم عمرُ؟ فقال أبو بكرٍ: هو إن شاءَ.

ولذلكَ كان عمرُ يقول لأبي بكرٍ يومَ السقيفةِ: أنتَ أفضلُ منِّي.

وأبو بكرٍ يقول لعمرَ: ولكنك أقوى مني.

فيقولُ عمرُ لأبي بكر في أدبٍ جمٍّ، وحياءٍ عظيمٍ، إنه حياءُ الأقوياءِ، يقول عمرُ: إن قوّتي مع فضلِك.

أيُّ تسامُحٍ هذا؟. وأي وفاءٍ يكونُ مثلَ هذهِ الكلماتِ الطيبةِ الطاهرةِ التي أصبحت دستوراً في خلافةِ أبي بكرٍ، وتمَّ من خلالِهِ بناءُ لبناتِ الدولةِ الإسلاميةِ الأولى.

وقد قرنَ الرسولُ ﷺ عمرَ وأبا بكر عندما قالَ:

«بينما راعٍ في غنمهِ عَدَا عليهِ الذئبُ فأَخذَ منها شاةً، فطلبهُ الراعي، فالتفت إليهِ الذِّئبُ فقالَ: مَن لها يَوم السَّبع يومَ ليس لها راعٍ غيري؟ وبينا رجلٌ يسوقُ بقرةً قد حمَّلَ عليها فالتفتت إليْه فكلّمتهُ فقالَتْ: إني لم أُخْلَقْ لهذَا، ولكنّي خُلقت للحرثِ، قال النَّاس: سبحان اللهِ بقرةٌ تتكلمُ؟ قال النبيّ ﷺ: «فإني أُؤمنُ بذلكَ وأبو بكرٍ وعمرُ ـ وما ثَمَّ أبو بكر وعمر ـ»[1]. أي لمْ يكونا في المجلسِ، وشهد لهما بالإيمانِ بذلك لعلمهِ ﷺ بكمالِ إيمانهما».

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٣) ومسلم (٢٣٨٨).

كل هذه الدلائلُ تشهدُ بمكانةِ الصحابيين الجليلين ، وسمو علاقتهما ببعضهما بعض.

وقد كان ترشيحُ عمرَ للخلافةِ ، نتيجَةَ قناعةِ أبي بكر بقوَّةِ إيمانِ هذا الرجلِ ، وبشدةِ احتياجِ المسلمينَ لعدلهِ وحزمهِ وتثبيتِ أركانِ دولتهم الناشئَةِ.

ولنر كيفَ رشَّحَ الخليفةُ الأوَّلُ صاحبَه الفاروقَ ، وما هي حيثياتُهُ في ترشيحهِ لهُ ، وعلى أي أسسٍ اختارَهُ خليفةً من بعده ، وهوَ على قناعةٍ تامةٍ بحسن اختيارهِ.

لنتابع أحداث استخلافِ عمر بعد أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهما.

## الخليفة العادل

عندما أحس أبو بكرِ الصديقِ بقربِ أجلِهِ ، فكَّر فيمنْ يستخلفُهُ من بعدِهِ على المسلمينَ ، وكان آخر ما استقر رأيُهُ عليهِ هو استخلاف عمرَ ، فدعا عثمانَ بنَ عفان وقالَ لهُ: اكتبْ ، فكتبَ عثمانُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

«هذا ما عَهدَ أبو بكرٍ بن أبي قُحَافَة في آخرِ عهدِهِ بالدنيا خارجاً منها ، وعندَ أولِ عهدِهِ بالآخرةِ داخلاً فيها ، حيثُ يؤمِنُ الكافرُ ، ويوقن الفاجرُ ، ويصدقُ الكاذِبُ ، إني اسْتَخلفْتُ عليكم بعدي ، عمَر بنَ الخطابِ ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإني لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً ، فإن عَدَلَ فذلك ظنّي به وعلمي فيهِ ، وإنْ بدَّلَ فلكُلِّ امرىءٍ ما اكتسبَ ، والخيرَ أَردتُ ، ولا أعلمُ الغيبَ ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ثم دعا عمرَ بنَ الخطابِ خالياً ، وأوصاهُ خيراً بالمسلمينَ.

وما إن خرجَ عمرُ بنُ الخطابِ من عندهِ ، حتَّى رفعَ أبو بكر يديْه داعياً

ربّه ، وقال: «اللهم إنّي لم أُرِدْ بذلكَ إلاّ صلاحَهُمْ ، وخفتُ عليهم الفتنةَ ، فعملت فيهم بما أَنْتَ أعلمُ بهِ ، واجتهدتُ لهم رأياً ، فولَّيْتُ عليهم خيرَهم ، وأقواهُم عليهم ، وأحرصَهم على ما أرشدَهُمْ»[1].

بدأ عمرُ الخلافةَ بخطابٍ شاملٍ بيَّنَ فيه سياسَتَهُ ومنهجَهُ في إدارةِ الدولةِ فكانَ مما جاءَ في هذا الخطابِ:

أيُّها الناس أحمدُ اللهِ وأُثني عليهِ ، اقرؤوا القرآنَ تُعْرَفوا بهِ ، واعملوا بهِ تكونوا مِنْ أهلِهِ ، وزنوا أنفسَكُمْ قبلَ أن توزَنوا ، وتزيّنوا للعرضِ الأكبرِ ، يومَ تعرضون على اللهِ لا تخفى منكمْ خافيةٌ.

ثم يضيف عمرُ قائلاً:

أيُّها النَّاسُ ، إنِّي قد علمتُ أنكمْ تؤنسونَ مني الشدَّةَ والغلظةَ ، وذلكَ أني كنتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ فكنتُ عبدَه وخادمَه وكان كما قال تعالى: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وكنت بينَ يديهِ كالسيفِ المسلولِ ، إلاّ أن يأمرني أو ينهاني عَنْ أمر فأكُفُّ عنه ، فلمْ أزلْ معَ رسولِ اللهِ ﷺ على ذلكَ حتى توفَّاهُ اللهُ وهوَ عني راضٍ ، والحمدُ للهِ على ذلكَ كثيراً ، وأنا بهِ أَسعدُ.

ثم قمتُ ذلكَ المقام مع أبي بكرٍ الصِّديقِ خليفةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وكانَ مَنْ قد علمتمْ من رحمتِهِ ولينِهِ ، فكنت خادمَهُ ، وكنتُ كالسيفِ المسلولِ بين يديهِ على الناس ، أخلطُ شدَّتِي بلينِهِ؛ إلاّ أَن يتقدم إليَّ فأكفُّ. فلَمْ أزَلْ حتَّى توفَّاهُ اللهُ وهو عنّي راضٍ ، والحمدُ للهِ على ذلكَ كثيراً.

ثم صار أمركُم اليَوْمَ إلِيَّ ، وأنا أعلمُ أنهُ يقولُ قائلٌ: كان يشتدُّ علينا والأمرُ إلى غيرهِ ، فكيفَ به لمَّا صار والأمرُ إليهِ ، فاعلموا أنكم لا تسألونَ عني أحداً فقد عرفتموني وخبرتموني ، وقد عرفتُ بحمدِ اللهِ من محمدٍ نبيكم ﷺ ما قد عرفتُ ، وما أصبحتُ نادماً على شيءٍ كنتُ أُحب أَنْ أسألَهُ عليهِ إلاّ وقدْ سألتُهُ ، اعلموا أَنّ شدَّتي التي كنتم ترونَها ازدادَتْ أضعافاً على

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص (٨٢ ـ ٨٣).

الظالم والمعتدي ، والأخذ لضعيفِ المسلمينَ من قويهمْ ، وإنّي بعدَ شدتي تلكَ أضعُ خدّي على الأرض لأهل العفافِ وأهل الكفاف ، وإن كان بيني وبينَ أحدٍ منكمْ شيءٌ فلهُ أن أمشيَ معهُ إلى مَنْ أحبّهُ منكمْ ، فلينظر فيما بيني وبينهُ. فاتقوا الله وأعينوني على نفسي بالمعروف والنهي عن المنكرِ ، وإحضاري النصيحةَ فيما ولاّني اللهُ مِن أمركمْ.

وقد طالتْ هذهِ الخطبةُ العظيمةُ ، أخذنا منها ما يكشفُ عن شخصيةِ هذا الرجلِ العظيمِ رضوانُ اللهِ عليهِ ، لقد حطَّم الحاجزَ النفسيّ ، والانطباعَ الخاطىءَ عنهُ عندَ الناس ، فبيّنَ أَنَّ غلظتَهُ وشدَّتَهُ لن تكونَ إلاّ على الباطلِ ، أما الحقُّ والعدلُ فهو حليفٌ للمسلمين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وقد كان الفاروقُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ واضحاً جليّاً عندما عرضَ سياستَهُ على المسلمين ، وفي هذهِ الخطبةِ بالذاتِ عاهد اللهَ والمسلمينَ أن يكون بالرعيةِ رحيماً ، فقال في النهاية:

إنَّما أَنا ومَالكم هذا كولي اليتيم إن استغنيتُ استعففتُ ، وإن افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بالمعروفِ ، ولن أشُقَّ علَيْكُم فأجمِّركمْ في الثغورِ.

ولَسْتُ أَدَعُ أحداً يَظْلِمُ أَحداً حتَّى أَضَعَ خدَّهُ على الأَرْضِ وقدمي على الْخدّ الآخرَ حتى يُذْعِنَ للحقِّ».

وقد ترجمَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ خطَابهُ هذا بقرارٍ؛ يُعَدُّ أَوَّلَ قرارٍ اتخذَه بعد تولِّيهِ الخلافةَ ، فقد أرسل رسولاً إلى جيشِ المسلمينَ بالشام ، رسولاً يُنبئُه بوفاةِ أبي بكرٍ رضي اللهُ عنهُ ، وتولّيهِ الخلافةِ ، ومعه هذا القرارُ الذي ينصُّ على عَزْلِ خالِد بنِ الوليد رضي اللهُ عنه عن قيادة جيشِ المسلمين واستبدالِهِ بأبي عبيدةَ عامِر بنِ الجراحِ رضي الله عنه ، معللاً هذا التصرُّفَ ، بأنَّه يخشى على دماءِ المسلمينَ من مغامراتِ خالدِ العسكريةِ التي تمثلت في ثقته الكبيرةِ بنفسِه ، مع عِلم عمرَ رضيَ اللهُ عنه بكفاءةِ خالدِ العسكريةِ.

ولنقفْ قليلاً عند أحداثِ عزل خالدِ بنِ الوليدِ رضيَ اللهُ عنهُ:

لقدْ طالتِ الحربُ مع الرومِ وأوشكتْ على النهايةِ وخالدٌ رضيَ اللهُ عنه

ينطلقُ منْ نصرٍ إلى نصرٍ ، وزحفَ جيشُهُ البطلُ إلى بلادِ الرومِ ، وعادَ منها بغنائِمَ كثيرةٍ ، وقد دفعَ منها آلافَ الدراهمِ لشاعرٍ مدحَهُ ، ولَما علمَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ أرسل لأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، وأمرهُ أنْ يعزِلَ خالداً عن ولايةِ قنسرينَ وأن يقاسمه مالَهُ نصفينِ[1] .

ومهما تكنِ الرواياتُ وتعدُّدها في عزلِ خالدٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فإنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضوانُ اللهِ عليهِ كانتْ لهُ رؤيا تتضحُ من أقوالٍ أجمع عليها الرواةُ منْ حيثُ المضمون وإنِ اختلَفَ اللفظُ ، فقدْ قالَ عمرُ بنُ الخطابِ :

إنني لمْ أعزلْ خالداً عن سُخطٍ أو خيانةٍ ولكنَّ الناسَ فُتِنُوا بهِ؛ فخشيتُ أن يُوكلُوا إلَيْه ويُبْتَلُوا وألاَّ يكونَ بِغَرَضِ فتنةٍ .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ أيضاً :

لأنزعنَّ خالداً حتى يعلمَ أَن اللهَ إنما ينصُر دينَهُ[2] (يعني بغير خالد) .

كان أميرُ المؤمنينَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لا ينامُ الليلَ خشيةَ أَنْ يفوته قيامُهُ ونوافلُهُ ، ولا يزالُ يعملُ نهاراً حتى يكونَ على درايةٍ بأمرِ الرعيةِ .

وهاهوَ في أحدِ أزقةِ المدينةِ؛ يمشي كعادتهِ ليعرف أحوالَ المسلمينَ ، فيسمعَ أصواتاً تئنُّ فتقدَّمَ منْ مصدرِ الصوتِ فلقيَ امرأةً حولَها صبيةٌ يبكونَ ، والمرأةُ أمامَ مَوْقِدٍ فوقَهُ قِدْرُ ماءٍ يَغْلي ، فَسَأَلَها عن شأنها وشَأْنِهم ، فقالتْ لهُ: لا أملِكُ طعاماً لهؤلاءِ ، وها أَنا أُلْهيهم بالقِدْرِ حتَّى يناموا .

انطلق عمرُ رضي اللهُ عنهُ عائداً إلى بيتِ المالِ ، وعادَ يحمل كيساً منَ الدقيقِ ، وأقامَ بجوارِ الموقدِ فترةً حتى أنضجَ طعاماً قدَّمَتْهُ العجوزُ إلى أطفالها[3] .

وفي النهارِ صعدَ المنبرَ ، وبعدَ أن حمِدَ الله وأثنى عليهِ قال :

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٠) والشاعر هو الأشعث.

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٧٨).

(٣) وردت القصة في المستطرف (٢/ ٩٣).

أَيُّها النّاسُ اسْمَعوا وأطيعوا ، فوقفَ رجلٌ وقالَ مقاطعاً عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ: لا سمع ولا طاعةَ لكَ.

فصمتَ عمرُ وأكمَلَ الرَّجلُ حديثَهُ قائلاً :

لقد نالَ كلٌّ منَّا قطعةَ قماشٍ منَ الغنائِم جهدنا أنفسنا لنجعلَ منها ثوباً وأنتَ رجل طوالٌ ، فلا بدَّ منْ أَنَّ القسمة التي قسمتهَا كانت قسمةً ضيزى «لا يُراعَى فيها العدلُ».

صمت عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ برهة ، وأشارَ إلى ابنهِ عبدِ الله بنِ عمرَ رضي اللهُ عنهُ ليجيبَ عنهُ!!

فقال عبدُ اللهِ: لقد أعطيتُ أبي حصتي حتى يكملَ ثوبَهُ.

عندَ ذلكَ قالَ الرجل لِعُمرَ رضيَ اللهُ عنهُ: الآن قُلْ نسمعْ ونُطِعْ.

وحينما جاءَهُ القبطيُّ من مصرَ شاكياً ابنَ عمرو بنِ العاصِ فقالَ لهُ:

يا أميرَ المؤمنينَ ، هذا مقامُ العائذ بكَ.

فقالَ عمرُ: لقد عُذتَ بمجيرٍ؛ فما شأنُكَ؟

قال: سابقتُ على فرس ابناً لعمْرِو بنِ العاصِ ـ وهو يومئذٍ أميرٌ على مصرَ ـ فجعلَ يضربني بسوطِهِ ويقولُ: أنا ابنُ الأكرمينَ! فبَلَغ ذلك عَمراً أباهُ ، فخشِيَ أنْ آتِيكَ ، فحبسني في السجنِ ، فانفلتُّ منهُ ، وأتيتُكَ.

فكتب عمرُ بنُ الخطابِ إلى عمْرِو بنِ العاصِ: إذا أتاكَ كتابِي هذا فاشْهدِ الموسمَ أنت وولدُكَ فلان.

ثم نظرَ للمصريِّ قائلاً: أَقمْ حتى يأتيكَ. فقدِم عمْرُو ، فشهد الحجَّ ، فلما قضَى عمرُ الحجَّ وهو قاعدٌ مع الناسِ وعمرُو بنُ العاصِ وابنُهُ إلى جانبِهِ ، قامَ المصريُّ ، فرمى إليهِ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بالدِّرَّةِ ـ وهيَ سوطُ عمرَ رضي اللهُ عنهُ ـ يقولُ أنسُ بن مالِكٍ أحدُ شهودِ هذا الموقفِ:

ولقدْ ضربَهُ ونحنُ نشتهي أَنْ يضربَهُ ، فلم يَنْزِعْ حتى أحببنا أَن يَنْزِعَ من كثرةِ ما ضَرَبَهُ ، وعمرُ يقولُ: اضْرِب ابنَ الأكرمينِ!

ثم قالَ المصريُّ: قد استوفيتُ واشتفيتُ.

قال عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ: ضَعْها على رأسِ عمْرو.

فقالَ المصريُّ وقد أحسَّ بالحرجِ: يا أميرَ المؤمنين؛ قد ضربتُ الَّذي ضربني.

فقال عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ: أما واللهِ لو فعلت لما منعكَ أَحدٌ حتى تكونَ أَنتَ الذي تَنْزِعُ.

ثم قال: يا عمْرو؛ متى استعبدتُمُ النَّاسَ وقد ولدَتْهُمْ أمهاتُهُمْ أحراراً[1]!

هكذا تَجلَّى عدلُ عمَر بن الخطابِ بينَ النَّاسِ، فلم يتركْ أميراً ولا قائداً ولا عظيماً، إِلاَّ وقد أقامَ عليه الحدَّ الفاصلَ بينَ الحقِّ والباطلِ.

## من طرائف عدله

ومن طرائفِ مواقفِ عمرَ رضي اللهُ عنهُ العادلَةِ، أنهُ خرجَ في ليلةٍ مظلمةٍ، يطوفُ في الليل بنفسهِ، فرأى في بعض البيوتِ ضَوْءَ سَرَاجٍ، وسمعَ ضجّة؛ فوقفَ على البابِ ليسمع؛ فرأى عبداً أسودَ أمامَهُ إناءٌ فيهِ شَرابٌ، ومعهُ جماعةٌ؛ فهمَّ بالدخولِ مِنَ البابِ فلمْ يقدرْ مِنْ تحصينِ البيتِ، فتسوَّر السطحَ، ونزلَ إِليهمْ، ومعهُ سوطُهُ الذي يضربُ بهِ.

فلمَّا رأَوْه قاموا وفتحوا البابَ، وانهزموا؛ فأمسكَ بالأسود؛ فقالَ لهُ: يا أمير المؤمنينَ، قد أخطأتُ وإنِّي تائبٌ؛ فاقْبَلْ توبَتي.

فقالَ: أريدُ أنْ أضربَكَ على خطيئتِكَ!

فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ؛ إن كنتُ قد أخطأتُ في واحدةٍ، فأنتَ أخطأتَ في ثلاثٍ، فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ وأنتَ تجسّسْتَ، ويقولُ: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ وأنتَ أتيتَ مِنَ السطحِ، ويقولُ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ وأنتَ دخلتَ وما سلَمتَ!

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (١/ ٥٩).

فهبْ هذهِ لتلْكَ؛ وأنا تائبٌ إلى اللهِ تعالى!

فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ: أسألكَ أن تتوبَ إلى اللهِ، فقد حَسُنَ كلامُك[1].

## الزاهد

كانَ الفاروقُ رضوانُ اللهِ عليهِ زاهداً في متاع الحياةِ الدنيا، يضربُ المثلَ تِلْوَ المثلِ للناسِ عامتهمْ وأمرائهم وهاهوَ الأحنفُ بنُ قيسٍ يحضرُ موقفاً للفاروقِ رضوانُ اللهِ عليهِ فيذكرُ شيئاً منْ زهدِهِ، يقولُ الأحنفُ:

كُنَّا جلوساً ببابِ عمَر، فمَرَّتْ جاريةٌ، فقالوا: سرِّيَّةُ أمير المؤمنينَ.

فقالَ: ما هيَ لأميرَ المؤمنينَ بسرِّيةٍ، ولا تحلُّ لهُ، إنَّها من مالِ اللهِ.

فقلنا: فما يحلُّ لأميرِ المؤمنينَ من مالِ اللهِ تعالى؟

قالَ: إنَّه لا يحلُّ لعمرَ من مالِ اللهِ إلا حُلَّتينِ: حُلَّةٌ للشتاءِ، وحُلَّةٌ للصيفِ، وما حجَّ بهِ واعْتَمَرَ، وقُوتي وقوتُ أهلي كرجلٍ من قريشٍ ليسَ بأغناهمْ، ولا بأفقرهمْ، ثم أنا بعدُ رجلٌ منَ المسلمينَ[2].

وقد وَجَدَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ من رجالهِ مَن يجاريهِ في الزهدِ، ويضربُ المثلَ بعد أنْ اتخذَ القدوةَ مِنْ عُمَر رضيَ اللهُ عنهُ.

ولنشهدْ بعضَ المشاهدِ بينَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وعمالِهِ على بلادِ المسلمينَ.

## مع رجاله ولاة الأمصار

كانَ عُمَير رجلاً من الأنصارِ صحابياً جليلاً رضوانُ اللهِ عليهِ، استعملهُ عُمرُ رضيَ اللهُ عنهُ والياً على حمصَ ببلادِ الشامِ، فلما مَضَتِ السَّنَةُ كتَبَ إليهِ

---

(١) المستطرف (٢/ ٩٤).

(٢) انظر طبقات ابن سعد ترجمة عمر.

يقولُ: أَن أَقْدم علينا ، فلم يشعرْ عمرُ إلاَّ وقدْ قَدِمَ عُمَيْر ماشياً حافِياً ، عصاه بيدِهِ ، ومزودُ الطعامِ ، وقربةُ الماءِ.

فلمَّا نظرَ إليهِ عمرُ قالَ لهُ: يا عميرُ ، أَجَبْتَنَا أم البلادُ بلادُ سوءٍ؟

فقالَ عميرُ بنُ سعدٍ: يا أميرَ المؤمنينَ؛ أمَا نهاك اللهُ أن تجهرَ بالسوءِ وتَنْأَى عن سوءِ الظنِّ؛ وقد جئتُ إليكَ بالدنيا أجرُّها بِقرابها!

فقال له: وما مَعَكَ مِنَ الدُّنيا؟

قال: عُكَّازةٌ أتوكَّأُ عليْها ، وأدفعُ بها عدوّاً إنْ لقيتهُ ، ومِزْوَدٌ أحمِلُ فيه طعامي ، وإداوَةٌ أحمِلَ فيها ماءً لشربي وطُهُوري ، وقَصْعَةٌ أتوضّأُ فيها ، وأغسلُ فيها رأسي ، وآكلُ فيها طعامِي ، فواللهِ يا أميرَ المؤمنينَ؛ ما الدنيا بعدُ إلا تَبَعٌ لما معي.

بكى عمرُ من هذِهِ الكلماتِ ثم أعادَ سؤاله على صاحبهِ قائلاً: ما صنعتَ في عملك يا عُميرُ؟

قال عُمَير: أخذتُ الإبلَ من أهل الإبلِ ، والجِزْيةَ من أَهلِ الذمّةِ عن يَدٍ وهو صاغرون ، ثم قسمتُها بينَ الفقراءِ والمساكين وأبناءِ السبيلِ؛ فواللهِ يا أميرَ المؤمنينَ لو بقيَ عندي منها شيءٌ لأتيتُكَ بهِ.

فقالَ عُمر رضيَ اللهُ عنهُ: عُدْ إلى عملك يا عميرُ.

فقال عميرُ رضيَ اللهُ عنهُ: أنشدكَ اللهَ يا أميرَ المؤمنين أَن تردَّني إلى أهلي. فأذِنَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأَتى أَهلَه.

ثم بعثَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ رجلاً يقال له حبيبٌ ، بمئةِ دينارٍ ، وقالَ لهُ: اختبرْ لي عُمَيْراً ، وانزلْ عليهِ ثلاثةَ أيام حتى ترى حالَهُ؛ هلْ هوَ في سَعةٍ أو ضيقٍ؟ فإن كان في ضيقٍ فادفعْ إليهِ الدنانيرَ.

فأتاه الرجلُ ، فنزل به ثلاثاً ، فلم يَر لهُ عيشاً إلاَّ الشعيرَ والزيتَ ، فلما مضتَ ثلاثةُ أيام ، قالَ عميرُ: يا حبيبُ؛ إنّي رأيتُ أَنْ تتحوَّلَ إلى جيرانِنا فلعلهمْ يكونون أوسَعَ عيْشاً مِنَّا؛ فإننا واللهِ لو كان عندنا غيرُ هذا لآثرناكَ بهِ.

عندَ ذلكَ دفعَ حَبيبٌ الدنانيرَ لِعُمَير وقال له: قد بَعَثَ بها أميرُ المؤمنين إليكَ، فدعا بفَرْوٍ قديم لامرأتهِ؛ فجعل يصرُّ منها خمسَةَ الدنانيرَ والستةَ والسبعةَ، ويبعثُ بها إلى إخوانِهِ من الفقراء إلى أَنْ أنفدَهَا.

فقدمَ حبيبٌ على عمرَ قائلاً: جئتُكَ يا أميرَ المؤمنينَ من عندِ أزهدِ الناسِ، وما عندَهُ من الدنيا قليلٌ ولا كثيرٌ. فأمر عمر لهُ بوَسْقينِ من طعامٍ وثوبينِ.

فقالَ عُمَيرِ لعمَر رضيَ اللهُ عنهما: أمَّا الثوبان فأقبلهما، وأما الوَسْقانِ فلا حاجة لي بهما؛ عندَ أهلي صاعٌ من بُرّ هو كافيهمْ حتى أرجعَ إليهمْ[1].

ومنذ هذهِ اللحظةِ ظلَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يردّدُ كلما ذُكِرَ عمير عندَهُ ويقولُ: وددتُ لو أنّ لي رجلاً مثل عُمَير بن سعدٍ أستعينُ به في أعمالِ المسلمينَ[2].

وبينما كان عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ جالساً في المسجدِ، إذ برجلٍ يمُرُّ بهِ فيقولُ: ويلٌ لك يا عمرُ مِنَ النارِ!

فقال عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ: قرِّبوهُ إليَّ. فدنا منهُ، فقالَ: لِمَ قُلْتَ ما قلتَ؟

قالَ: تستعملُ عُمَّالكَ وتشترطُ عليهمْ، ثم لا تنظُر؛ هل وَفَوْا لَكَ بَشْرطٍ أمْ لاَ؟

قالَ: وما ذاكَ؟

قال: عاملكَ على مصرَ اشترطْتَ عليهِ فترك ما أمرتَهُ بهِ، وارتكبَ ما نهيتَهُ عنهُ؛ ثمّ جلسَ يشرحُ أخبارَ عامِلِ مصرَ.

فأرسلَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ رجلينِ من الأنصارِ، فقالَ لهما: انتهيا إليهِ فاسألا عنهُ، فإن كان كَذَبَ عليهِ فأَعْلماني، وإن رأيتما ما يسوءُكُما فلا تُمَلِّكاهُ منْ أمرهِ شيئاً، حتى تأتيا بِهِ.

---

(١) المستطرف للأبشيهي.

(٢) المصدر السابق ص ١١٠.

فلمَّا ذهبا إلى مصرَ وجداهُ كما قالَ الرجلُ عنهُ ، فاحتملاهُ وأتيَا بهِ عمرَ ، فلما أتاهُ سلمَ عليهِ فلمْ يعرفْـهُ ، وقالَ لهُ: من أنْتَ؟

وكان رجلاً أسمرَ ، فلما أصابَ ريفَ مصرَ ابيضَّ وسَمِنَ ، فقالَ: أنا عاملُكَ على مصرَ ، أنا فلانٌ ، قالَ: وَيْحَك ركَبتَ ما نُهيتَ عنهُ ، وتركتَ ما أُمِرتَ به ، واللهِ لأعاقبَنكَ عقوبةً أُبْلِغُ إليكَ فيها.

ائتوني بكساءٍ من صوفٍ وعصا وثلاثمئةِ شاةٍ من غَنَمِ الصَّدَقَةِ؛ ثم قالَ لهُ: البسْ هذه الجبةَ الدّرَّاعة؛ فقد رأيتُ أباكَ ، وهذه خيرٌ من دُرَّاعتِهِ.

واذهبْ بهذِه الشياهُ فارْعَها في مكانِ كذَا. . . وكان ذلكَ في يومٍ صائفٍ شديد الحرارةِ ولا تمنعْ أبناءَ السبيلِ من ألبانِها شيئاً إلاَّ آل عمرَ ، فإني لا أَعْلَمُ أحداً مِن آلِ عمرَ أصابَ من ألبانِ غنمِ الصدقةِ ولحومها شيئاً.

فلما ذَهَبَ ردَّه ، وقال: أفهمتَ ما قلتُ؟ فضربَ الرجلُ بنفسهِ الأرض ، وقالَ: يا أميرَ المؤمنين لا أستطيعُ هذا ، فإن شئت فاضربْ عنقي.

فقال عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ: قد رددتُكَ فأيّ رجلٍ تكونُ؟ قال الرجلُ: والله ما يبلغكَ عنِّي إلاَّ ما تحبُّ ، فردَّهُ عُمر فكانَ نِعمَ الرجلُ[1].

## الفتـح الإسلامـي في عهد عمـر
## ـ الـفـرس والـروم ـ

مضى على ظهورِ الإسلام ربعُ قرنٍ منَ الزمانِ ، وبَلَغ صداهُ أسماعَ الفرسِ والروم ، وتوالتْ أخبارُ انتصاراتِ المسلمينَ ، وتحدَّثَ الناسُ عن مبادئِهِ السمحَةِ ، وبلغَ الأسماعَ ما جاءتْ بهِ تعاليمُ الإسلامِ من مساواةٍ بين السادةِ والعبيدِ والملوكِ والسُّوقَةِ.

كان الفرسُ ودولتهم الواسعةُ المترامية الأطرافِ قد بلغوا الشيخوخةَ ، وهرِمتْ حضارتُهُمْ في ظلِّ استبدادِ ملوكِهمْ ، وإحساسِ رعيتهمِ بالطغيانِ

---

(١) ابن أبي الحديد (٣/ ٩٨).

والظلمِ؛ لذلك فُقِدَ الولاءُ عندَهم ، ولم يعودوا في حاجةٍ للدفاعِ عن ظالِمهم.

أَمَّا الإمبراطوريَّةُ الرومانيةُ فقد امتدَّتْ من الشام إلى مصرَ وشمالِ أفريقية ، إلى إسبانيا ، وهي بذلكَ تشملُ عدَّةَ دولٍ وأَجْنَاسٍ ، وكانَ الأباطرةُ في تلك الدولة يسفكونَ الدماءَ ، ويستحلون أموالَ العامةِ؛ ممَّا جعلَ النَّاسَ يسخطونَ على الظلمِ والاستبدادِ ، وقد بدأتْ إمبراطوريةُ الرومِ تتصدَّعُ؛ للصراعِ الناشبِ بينها وبينَ جاراتِها.

وقد بدأتْ اهتماماتُ المسلمين تتَّجهُ أولاً إلى فارسَ لأهميةِ العراقِ بالنسبةِ إليهم ، ولحماية وتأمين أطرافِ جزيرة العربِ التي انتشر فيها الإسلامُ وأصبحتْ تحتَ سيطرةِ المسلمينَ.

انطلقتْ قواتُ المسلمينَ في عهدِ أبي بكرٍ رضي الله عنهُ ، وقد أَمَّرَ عليها المثَّنى بنَ حارثة الشيبانيّ ، وجرت المناوشاتُ الأولى بينَ العرب والفرسِ على يديْهِ ، ونجحَ المثنى وتقدَّمَ منْ موقعٍ إلى موقعٍ ، ومن نجاحٍ إلى نجاحٍ ، مما جَعَل القيادةَ في المدينةِ المنورةِ تُعِدُّ العُدَّةَ لتكوينِ جيشٍ قوي محاربٍ يقودُهُ سيفُ اللهِ خالدُ بنُ الوليدِ رضيَ اللهُ عنهُ.

خرجَ الجيشُ مِن المدينةِ بقيادةِ خالدِ بنِ الوليدِ رضيَ اللهُ عنهُ ، وكتبَ أبو بكر الصدّيقِ للمثّنى بنِ حارثةَ رضيَ اللهُ عنهما بأنْ يتلقى أوامرَهُ من خالدِ بنِ الوليدِ ، ووصلَ خالدٌ العراقَ ، فانهارتْ مقاومةُ أعدائه ، فأخذت مدنُ العراقِ تصالحُ خالداً وتَخْضَعُ لهُ ، وتدفعُ الجزيةَ ، وتعدُهُ أنْ تكونَ معهُ ضدَّ الفُرْسِ وجيوشهم.

وقدْ كانتِ الحيرةُ أهمَّ المدنِ التي صالحتْ خالداً فخرجَ منها إلى الأنبارِ فحاصرها؛ فطلبت الصلحَ واستسلمتْ ، ثم اتجهَ إلى عين التمرِ فحاصرها وقاتَل المدافعينَ عنها فاستسلمتْ أيضاً.

ومن خلالِ هذهِ الفتوحاتِ شعر أَهلُ العراقِ بسماحةِ الإسلامِ وقادتِهِ

وجنودهِ فانضموا إليهم وأيدوهمْ وأصبحَ كثيرٌ منَ النَّاسِ جنوداً أوفياءَ في جيشِ المسلمينَ.

ومنْ أهمِّ معاركِ خالدٍ ضدَّ الفرسِ كانتْ ذات السلاسلِ؛ التَّي ربطَ فيها الفرسُ جنودَهم بالسلاسلِ حتى لا يفروا ، ولكنهم فروا وقُتِلَ أكثرُهُم بسيوفِ المسلمينَ؛ ممَّا جعلَ المسلمين يستولون على موقعٍ هامٍّ في بلادِ فارسَ.

وانطلق خالدٌ ليستكمِلَ فتوحاتِهِ ، إلاَّ أنَّ حملةً أخرى للمسلمينَ كانت تقاتلُ الرومَ واجهتْ مصاعِبَ جمّةً ، فطلبَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ من خالدِ بنِ الوليدِ أن يتَّجِهَ إلى الرومِ ، وتوقفَ الزحفُ الإسلاميُّ ، وارتدَّ المثّنى قليلاً إلى الوراءِ في انتظارِ مددٍ كبيرٍ يستكملُ بهِ فتوحاتِهِ.

## وجـاء عمـرُ رضـيَ اللهُ عنـــهُ

وجاءَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، وبدأتْ معاركُ المسلمينَ والرومِ تأخذُ اهتمامَه أكثرَ من الفرسِ ، فانتصر عليهم في موقعةِ أَجْنَادين ، وبعدَها اتجهَ عمرُ رضوانُ اللهِ عليهِ إلى بلادِ فارسَ وكانتْ أهم المعاركِ هي:

**أ ـ رأس الجسر**[١]:

وقد حدثت في سنة (١٣) هجرية ، وكان يقود المسلمين فيها أبو عبيد بنُ عمرَ الثقفيِّ ، ومعه سليطُ بنُ قيس الأنصاريُّ ، وكتب عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ للمثّنى بن حارثةَ الشيبانيّ أَنْ يكونَ في طاعة أبي عبيدٍ ، بينما كان جيشُ الفرس تحتَ قيادةِ «رستمَ».

وقد سُميتْ هذهِ المعركةُ برأسِ الجسرِ لأنها تمتْ عندَ جسرٍ أمامَ الحيرةِ عبره المسلمونَ والتقوْا بجيشِ الفرسِ ، ممَّا جعلَ الفرسَ ينتصرون عليهم ، ويُقتلُ أبو عبيدٍ وَسَليطٌ بن قيس.

مما جعلَ عمرَ يتوقفُ قليلاً ، بل استمرَّ توقفُهُ حتى العامِ الخامسَ عشرَ

---

(١) رجعنا إليها في تاريخ الطبري.

للهجرةِ ثم عاوَدَ غزوَ الفرسِ فكانتْ معركةُ يومِ النَّخيلةِ الذي انتصر فيه المسلمون وقتلوا قائدَ الفرسِ «مهرانَ» وثأَروا لقتلاهُمْ يومَ رأسِ الجسرِ.

**ب ـ القادسية[1]:**

كانت القادسيةُ هي معركةَ الانتصاراتِ العظيمةِ ، بدأت في السنةِ السادسة عشرة للهجرةِ ، وقد ماتَ المثنّى بنُ حارثةَ قبلَ القادسيةِ بقليلٍ.

قادَ المسلمين في هذهِ المعركةِ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ ، وقادَ الفرسَ «رستمُ» وبلغَ عددُ جندِ المسلمينَ عشرةَ آلافٍ ، بينما بَلَغَ جيشُ الفرسِ مئةً وعشرينِ ألفَ مقاتلٍ.

وقد استعملَ الفرسُ في يومِ القادسية الفيلةَ حتى يخيفوا خيول العربِ ، ولكنَّ العربَ جاهدوا وقاتلوا قتَالاً عظيماً حتى انهزمَ الفرسُ وقُتِلَ رستُم كما قُتِلَ أكْثَرُ معاونيهِ ، وسقط جيشُ فارسَ بينَ قتيلٍ وأسيرٍ ، وعرفت القادسيةُ بأنّها الفتحُ العظيمُ ، وغنم فيها المسلمونَ مغانم كثيرةً لم تُغنمْ من قبلُ.

**ج ـ المدائن:**

كانت المدائن عاصمةً هامةً للفرسِ ، وقد بناها أنوشروانَ بنُ قباذَ ـ وهوَ أحدُ ملوكِ ساسانَ[2] ـ.

وكانَ انتصارُ المسلمين في القادسيةِ دافعاً لهم ليستمروا في زحفِهِمْ ، فبعدَ أنْ دخلَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ بَهُرَسِيرَ ، طلب إعدادَ تجهيز السفنِ لِيَعْبُرَ بالناسِ إلى المدائنِ ، إلاَّ أنهُ لم يجد استجابةً من النَّاسِ ، فقد تعسَّرَ تدبيرُ السفنِ الّتي تساعِدُ الجيش على العبور.

ولم تمضِ أيامٌ حتى جاءهُ رجلٌ من كفارِ العجمِ ، ودلَّه على مكانٍ يخوضُ منهُ إلى حيثُ يريدُ، ولكن سعداً أبى وترددَ في خوض نهر دجلة. ثم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ١٧٠) ، وقد كان اسم المدائن طيسفون فسماها العرب المدائن؛ لكثرة ضواحيها.

رأى سعدُ بن أبي وقاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ رؤيَا أنَّ خيلَ المسلمينَ اقتحمت النهرَ فعبرتْ، فعزمَ على العبورِ لتأويلِ رؤياهُ، وجمع النَّاسَ وقامَ فيهم خطيباً فقالَ لهمْ:

أحمد الله وأثني عليه وأصلّي وأسلمُ على رسولِ الله ، محمدِ بن عبدِ اللهِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ، أما بعدُ: فإنَّ عدوَّكُمْ قدِ اعتصَم منكمْ بهذَا البَحْرِ ، فلا تخلصونَ إليهم معه ، وهم يخلصونَ إليكمْ إذا شاؤوا ، فيناوشونكمْ في سفنهمْ ، وليس وراءَكُم شيءٌ تخافون أن تُؤْتَوا منهُ ، فقد كفاكموهمْ أهلُ الأيامِ وعطلوا ثغورهم ، وأفْنَوْا ذادتهمْ.

وقد رأيت مِن الرَّأْي أَن تبادروا جِهادَ العدوِّ بنيَّاتكُمْ قَبْلَ أن تحصرَكم الدُّنيا ، أَلاَ إني قدْ عزمتُ على قَطْعِ هذَا البحرِ إليهم.

فقال النَّاسُ جميعاً: عَزَمَ اللهُ لنا ولكَ على الرُّشدِ ، فافعلْ.

عند ذلكَ اتجهَ سعد إلى حافّةِ النهرِ واستعدَّ للعبورِ ، ثم قالَ: من يبدأُ ويحمي لنا الفِراضَ حتى يتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم مِنَ الخروج(١)؟

وقد قصد سعدٌ من ذلك ، أن تقفَ قوةٌ لها بأسٌ شديدٌ فتحمي خروجَ المسلمينَ من هذِهِ الناحيةِ منَ النهرِ ، وبذلك يحمي ظهرَ الجيشِ عندَ العبورِ.

خفَّ إليهِ وأسرعَ عاصمُ بنُ عمروٍ شقيقُ القعقاعِ ، ونحو ستمئةٍ من الناس ، من خيرةِ الفرسانِ ، وأمَّر عليهِمْ عاصم بن عمرو يقودُهمْ.

وقال سعدُ بنُ أبي وقاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ: من ينتدب معي لنمنعَ الفِراض من عدوكم ولنحميَكم حتى تعبروا؟

خرج ستونَ فارساً ، وقد استجابوا جميعاً لدعوةِ سعدٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

وقد دفعَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ فرسَهُ فاقتحم النَّهرَ ، واقتحمَ المقاتلون معهُ ، وامتلأَ النهرُ بأبطالِ المسلمينَ والخيلُ تمخُر عبابَ النهرِ غيرَ مباليةٍ بالأخطارِ ، لأن فرسانَها أرادوا ثوابَ الآخرةِ ، ونذروا أنفسهم للجهادِ في سبيلِ اللهِ ولرفعِ كلمةِ الحقِّ ، ونشرِ دعوةِ الإِسلامِ.

---

(١) تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) (٧/ ٦٤). وتاريخ الطبري (٤/ ٩).

بينما الخليفة عمرُ رضيَ اللهُ عنه ينتظرُ نتائجَ هذا الحصادِ في المدينةِ ، فيترقبُ الأنباءَ كلَّ يومٍ ، ونظرَ الفرسُ ، فرأوْا شيئاً عجيباً ، لقد صنعَ هؤلاء المسلمون ما فاق حساباتِهم ، قومٌ كهؤلاءِ لم يدخلْ في حسابهم الموتُ في سبيل الدعوة التي آمنتِ قلوبهم ونفوسهم بها ، فلما رآهم الفرسُ وما صنعوا ، أعدُّوا للخيلِ التي اقتحمتْ نهرَ دجلةَ خيلاً تواجهها في النهرِ ذاتِهِ ، واقتحموا على المسلمين نهرَ دجلَةَ ، واقتربوا منَ المسلمين ، فصرخ عاصمٌ قائلاً لأصحابهِ المجاهدينَ:

الرِّماحَ الرِّماحَ! أَشرِعوها وتوَخَّوا العيونَ. فطعنوهم في أعينهم ، وطعنوا عيون خيولهم فمن لم يقتلْ أصابتهُ ضربةٌ في عينهِ ، وانهارتْ بهم خيولُهُم ، وفرَّت مسرعة خارج الماء.

كانت قوةُ سعدٍ وهي ستونُ فارساً قد وصلتْ شاطئَ دجلةَ الآخرِ ، وتلاحقَ خلفَهم الستمئةُ وهم كتيبةُ عاصمِ بنِ عمروٍ.

نظر سعدٌ فرأى عاصماً على ناحيةِ النهرِ ، وقد حَمَى الجيشَ ومنعهُ ، فحمدَ اللهَ ثمّ أعطى رجالَه إذنَ الاقتحام وقالَ: قولوا: نستعينُ بالله ، ونتوكلُ عليهِ ، حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلِ ، لا حولَ ولا قوةَ إلاَّ باللهِ العلي العظيم(١).

ردّدَ الناسُ هذه الكلماتِ العظيمةَ ، وتلاحقَ الجندُ ، وركبوا ماءَ النهر ومضى سعدٌ رضيَ اللهُ عنهُ يسايرهُ في الماءِ سلمانُ الفارسيُّ ، وقد عامت الخيلُ بينما سعدٌ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ مردّداً:

حسبنا اللهُ ونعمَ الوكيل. واللهِ لينصرنَّ اللهُ وليَّهُ ، وليظهرنَّ اللهُ دينَه ، وليهزمَنَّ اللهُ عَدُوَّهُ ، إن لم يَكنْ في الجيش بَغْيٌ أو ذُنوبٌ تغلبُ الحسناتِ.

فقال سلمانُ الفارسي رضيَ اللهُ عنهُ:

الإسلام جديد ، ذُلِّلَتْ لهم واللهِ البحورُ كما ذُلِّلَ لهم البرُّ ، أمَا والذي نَفْسُ سلمانَ بيدِهِ لَيَخْرُجُنَّ منهُ أفواجاً كما دخلوهُ أفواجاً.

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ١٠).

وكأن سلمانَ كان بِحسّه العميق يعلمُ قلقَ القائدِ سعدِ رضيَ اللهُ عنهما ، فراحَ يقولُ هذِهِ الكلماتِ التي هي من وحي إيمانِهِ بنصرِ اللهِ الذي وعدَ جندَه بهِ.

ملأ المسلمونَ نهر دجلةَ وَطَبَّقوهُ خيلاً وفرساناً؛ حتى ما يرَى الماءَ من الشاطىء أحدٌ ، ثم بدأتْ أفواجُهم تخرجُ من الماءِ ، والخيلُ تنفضُ أعرافَها صاهِلةً ، لم يمسسهم سوء ، فلما رأى الفرسُ ذلكَ انطلقوا لا ينظرون خلفَهم ، ولا يلوونَ على شيءٍ ، وتابعهم المسلمونَ مطاردةً حتى فرقوهمْ ، وظلَّ زحفُهم يتقدَّمُ حتى وصلوا إلى القصرِ الأبيضِ ، وقد تحصَّنَ فيه جندُ كسرى ، فعرضَ المسلمونَ عليهم ثلاثةَ أمورٍ يختارون منها واحداً ، قالوا لهمْ:

* الإسلام ، فإن أسلمتم فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا.

* فإن أبيتم الإسلامَ ، فالجزيةُ عن يد وأَنتم صاغرونَ.

* وإن أبيتم فمناجزتُكم وقتالُكم ، حتى يحكمَ اللهُ بيننا وبينكم.

فرفض المتحصنون الشرطَ الأول والثالثَ وقالوا: لا حاجة لنا في الأولى ، ولا في الآخرةِ ، ولكن الوسطى.

دخل سعدٌ المدائنَ ، وانتهى إلى إيوانِ كسرىٰ ، وشهدَ فيه عَجَبَ الدنيا ، منَ حدائقَ وأنهارٍ وعيونٍ ، وأثاثٍ لم يُغنِ عنهمْ منَ اللهِ شيئاً.

وأقبل القائدُ الفذُّ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ يقرأُ قولَ اللهِ سبحانَه وتعالى في سورة الدخان:

﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ .

صلّى سعدُ بنُ أبي وقاصٍ صلاة الفتح في إيوانِ كسرى ، ثماني ركعاتٍ ، لم يفصلْ بينهنَّ ، واتخذهُ مسجداً ، وفيه تماثيلُ من الجِصِّ؛ رجال وخيل ، ولم يمتنعْ هوَ ولا المسلمون لذلك ، وتركوها كما هِيَ على حالها ، ثم أتمّ

الصلاةَ في المدائنِ؛ إذْ نوى المقامَ بها ، وكانت أول جمعةٍ بالعراقِ في صفرٍ سنة ست عشرة هجرية.

مَنْ لي بعمَر بن الخطاب أميرِ المؤمنين رضوانُ اللهِ عليهِ حتى يرى ما تاقتْ لهُ نفسُهُ واشتاقتْ آذانُه لسمَاعِ أخبارِها!؟ ولكنَّ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ لم يتأخرْ كثيراً ، فقد جمعَ ما في خزائِنِ كسرى مَن الأموالِ والغنائِمِ ، وكانتْ كثيرةً وافرة ، حتى إنّ الرواةَ ذكروا أَنَّ الفارسَ غنمَ اثنيْ عشرَ أَلفاً ، ثم قسم سعدٌ دورَ المدائنِ بينَ الناسِ.

وجمع الخُمْس ، وقد وضعَ فيهِ كلَّ شيءٍ أراد أن يعجَبَ منهُ عمرُ ، من ثياب كسرى وحليّهِ وسيفهِ ، وما إلى ذلكَ ، وأرسل كلَّ ذلكَ إلى عمرَ رضيَ اللهُ عنه في المدينةِ ، وكان مما أرسلَهُ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ بساط طولُهُ ستونَ ذراعاً وعرضُهُ كذلِكَ. صوِّرتْ فيه طرقُ المملكةِ ، وبُسْطتْ فيه الأرضُ مذهَّبَةً تجري خلالَها أنهار رُصِّعَتْ بالدرِّ ، وجُعِلَتْ حافاتُهُ كالأرضِ المزروعةِ ، فيها نباتُ الربيع ، قامت على سوقِه الذَّهب ، وما إلى ذلكَ من زخارفَ وتصاميمَ كان الفرسُ يصنعونَها لملوكهمْ.

أقبل رسولُ سعدٍ على عمرَ رضيَ اللهُ عنهما في المدينة ، ومعه الخمسُ ، فقامَ عمرُ وقسَّمَهُ على مستحقيه ، ثم قال أميرُ المؤمنين رضوانُ اللهِ عليهِ: أشيروا علي في هذا البساطِ؛ فأجمع النَّاس على أنّ هذا لهُ.

وجاءه علي ناصحاً فقال: يا أميرَ المؤمنين ، لم يجعل اللهُ علمَك جهلاً ، ويقينك شكّاً ، إنه ليس لك مِن الدُّنيا إلا ما أعطيتَ فأمضيتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فأَبْلَيْتَ ، أو أكلت فأَفْنَيْتَ ، وإنَّكَ إنْ تُبْقِهِ اليوم عَلَى هذا لم تَعدم في غدٍ من يستحقُ بهِ ما ليس لَهُ.

فقال عمرُ: صدقتني ونصحتني ، ثم قطَّعَهُ وقسَّمه بين النَّاسِ.

ثم أصدر عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ أمراً إدارياً بولايةِ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ على العراقِ ، وجعل له رجلين يعاوناه في الخراج هُما النعمانُ بنِ مقرنٍ على ما سَقَتْ دِجلة ، وأخوهُ سويد على ما سقت الفراتُ.

**د ـ نهاوند:**

وتعتبر نهاوندُ «فتحَ الفتوحِ» وقد وقعتْ سنة (١٩) هجرية ويقال إنها وقعت سنة (٢٠) أو (٢١) هجرية، ويبدُو أنَّ نهاوندَ كانت آخرَ محاولةٍ جديةٍ للفرسِ ولملكهم يزدجردَ، فقد جَمَعَ لها جموعاً، يرى بعضُ المؤرخين أنها وصلتْ مئةَ ألفِ جنديّ[1]، وَوُلِّي قيادتها قائدٌ عظيمٌ يسمى «الفيرزانَ» وَحَرصَ على ألاّ يهربَ المحاربون فقيَّدهُمْ بالسلاسِلِ.

وكان قائدَ المسلمين في هذهِ المعركةِ النعمانُ بنُ مقرنٍ، الَّذي وَلاَّهُ عُمَرُ بعدَ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ، وقد سَقَطَ النعمانُ في مطلع المعركةِ شهيداً، فتولَّى مكانه حذيفةُ بنُ اليمانِ وتمَّ على يدِهِ النصرُ.

وانتهت نهاوندُ وانطلقَ المسلمون في عهدِ عمرَ رضي اللهُ عنهُ يضربونَ في الأرض، مجاهدين، فاستولوْا على الأهوازِ، ثم استولوْا على قُمّ وكاشانَ، ودانت لهم أذربيجانُ، وظل يزدجرد يهربُ ويفرُّ من موقعٍ حتى قُتِلَ بخراسانَ في سنة (٣١) هجرية في عهدِ عثمانَ، وانتهتْ دولةُ الفرسِ وأصبحَ الأذانُ يسمعُ في كلِّ مكانٍ من هذهِ البلادِ.

وفي اليرموك انتصرَ جيشُ الإسلام، وهربَ عشراتُ الألوفِ من جندِ هرقلَ قائدِ الرومِ، ففرَّ من أنطاكيةَ إلَى القسطنطينية، وودعَ سورية وداعاً حزيناً، وتمّ للمسلمين بعد ذلك السيطرةُ على كلِّ بلادِ الشامِ، فاستولى أبو عبيدةَ وخالدٌ على حمصَ وحماةَ وقِنَّسرينَ واللاذقيةَ وحلب، أمَّا عمْرو بنُ العاصِ ومعهُ شرحبيلُ بن حسنةَ فقد استوليا على عكا وحيفا ويافا وغزةَ، ولم يبقَ غير بيتِ المقدسِ، الذي دافعَ عنهُ الرومُ دفاعاً مستميتاً، ولكنَّهُ سقطَ في أيدي المسلمينَ، وهربَ «أرطبونُ» قائدُ الرومِ المدافعُ عن بيت المقدسِ إلى مصرَ.

ومن فلسطينَ انطلق عمْرو بنُ العاصِ إلى مصرَ وتمَّ لهُ النصرُ في حصنِ

(١) «فتوح البلدان» للبلاذري.

بابليونَ بعدَ حصارٍ دامَ ستةَ أشهرٍ ، ثم اتجهَ إلى الإسكندريةِ ، وبتشجيعٍ من عمرَ بنِ الخطابِ استطاعَ عمْروٌ التسللَ داخلَ أسوارِ الإسكندريةِ ، وأجرى صلحاً مع المقوقسِ في عام (٢١) هجرية وتمّ فيها دفعُ الجزيةِ؛ مقابلَ حريةِ العبادةِ ورحل الروم من الإسكندريةِ[١] .

وأصبحتْ مصرُ تابعةً للخلافةِ الإسلاميةِ .

وهكذا حقق المسلمون وأميرهم عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ أكبرَ نصرٍ على أقوى الجيوش في ذلكَ العصرِ .

## وداعاً أمير المؤمنين

هذهِ الانتصاراتُ كانت كلُّها في عهدِ الفاروقِ رضيَ اللهُ عنهُ ، ملأت قلوبَ الأعداءِ بالحقدِ وعلى الأخصِ الفرس واليهود .

ولذلكَ دُبّرتْ مؤامرةٌ لقتلِ عمَر رضيَ اللهُ عنهُ ، ونفذها رجلٌ فارسيٌّ اسمهُ أبو لُؤلُؤةَ .

وقد تسلل القاتلُ إلى المسجدِ وعُمرُ يبدأ في صلاة الفجرِ ، ولم ينتشرِ الضوءُ بعدُ ، فطعَنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ بخنجرِهِ عدةَ طعناتٍ قاتلة .

والتفت المسلمون ، وحاولوا القبض على القاتل إلاّ أَنه طعنَ بعضَهم وحاولَ الهربَ ، ولما أخفق في الهربِ قتلَ نفسَه منتحراً .

وماتَ عمرُ بعدَ أنْ عيَّن ستةً للشورى لاختيارِ الخليفةِ بعدَهُ ، وكان على رأسهم عبدُ الرحمنِ بن عوفٍ ، وبويعَ عثمانُ بنُ عفانَ خليفةً للمسلمينَ بعد عمَر رضي اللهُ عنهُ .

وقد مضى عمرُ وتركَ وراءَهُ دولةً إسلاميةً قويّة تخضَعُ لهَا كبرى القوى على أرضِ المعمورةِ . رضيَ اللهُ عنهُ وجزاهُ عن المسلمين خيراً .

* * *

---

(١) المصدر السابق .

# (٣)
# عثمـان بـن عـفّـان

قال تعالى في سورة الزمر:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

## كلمات في البداية

قال رسول الله ﷺ: «ألا أَسْتَحيي مِن رَجُلٍ تَسْتَحي مِنْهُ الملائكةُ؟»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «ما ضرَّ عثمانَ ما عَمِلَ بعد هذا اليوم». ثم رفعَ يديْهِ بالدعاءِ لعثمان فقال: «اللهم ارضَ عنْ عثمانَ فإنِّي راضٍ عنْهُ»[(٢)].

هذه الكلماتُ قالَها رسولُ اللهِ ﷺ يومَ تجهيزِ جيشِ العُسْرَةِ في غزوةِ تَبوك، فلقدْ أنفَقَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ في هذا اليومِ على تجهيزِ جيشِ العُسْرَةِ في غزوةِ تبوك عشرةَ آلافِ دينارٍ، وثلاثمئةَ بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها، وخمسينَ فرساً، وجهز عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ ثلاثمئَة من فقهاءِ الصحابةِ ليكونوا في الجيشِ.

ويقولُ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ: اشترى عثمانُ بنُ عفانَ منْ رسولِ اللهِ ﷺ الجنَّةَ مرتينِ، حينَ حفرَ بئرَ رومةَ، وحينَ جهزَ جيشَ العسرةِ[(٣)].

أما بئرُ رومةَ فقد كانتْ بالمدينةِ، اشتراها عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ بخمسةٍ وثلاثينَ ألفَ درهمٍ، وجعلها وقفاً للهِ عزَّ وجلّ يستسقي منها الناسُ جميعاً.

وقد صدَّرنا هذهِ السطورَ لسيرةِ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ بالآيةِ الكريمة ﴿ أَمَّنْ

(١) رواه مسلم (٢٤٠١).
(٢) رواه الحاكم (٣/ ١٠٢) و صححه ووافقه الذهبي.
(٣) انظر الحلية لأبي نعيم (١/ ٥٨).

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

لأن عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ قانتاً، كثيرَ السجودِ، يرجو رحمةَ ربِّهِ، فعندَما سمعَ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ هذهِ الآياتِ قال: ... هوَ عثمانُ بنُ عفانَ...

ولا ندري أيّ الكلماتِ والمآثرِ نسجّلُ في مطلع سيرةِ عثمانَ، فقد ازدحمتْ شمائِلهُ، وتزاحمتْ صفاتُه العظيمةُ لوفرتها، وكثرةِ ما رُويَ عنْ جودهِ وكرمهِ، وحيائهِ وتقواهُ، فالأجدرُ بنا إذاً أَن نصحبَ السيرةَ خطوةً خطوةً، وموقفاً يعقبُه موقفٌ حتى نقدمَ ما يتناسبُ مع جلالِ هذه السيرةِ.

## من هو عثمان؟

في بيتٍ جميلٍ، فسيحٍ، يدلُّ على ثراءِ أهلهِ، يقعُ في مدينةِ الطائفِ، جنّةِ الحجازِ وروضتهِ النضرةِ، وُلِدَ عثمانُ بنُ عفانَ بن أبي العاصِ بن أميّةَ بنِ عبدِ شمسٍ بن عبدِ منافِ بن قُصَيٍّ بن كلابِ بن مُرّةَ بن كعبِ بن لؤيٍّ بن غالبٍ، القرشيُّ الأمويُّ[١].

وُلِدَ في السنةِ السادسةِ من عامِ الفيلِ.

أمهُ أروى ابنةُ كريزِ بن ربيعة بنِ حبيبِ بن عبدِ شمس بنِ عبدِ منافٍ، أسلمتْ. وجدتُهُ لأُمِّهِ: البيضاءُ ـ أمُّ حكيمٍ ـ بنتُ عبدِ المطلبِ عمةُ رسولِ اللهِ ﷺ.

ولم يزلْ اسمهُ في الجاهليةِ والإسلام عثمانَ، ويُكنى أبا عبد اللهِ وأبا عمْروٍ، كنيتانِ مشهورتانِ، إلاّ أَن أبا عمْروٍ أشهرُ[٢].

هاجرَ الهجرتينِ، الأولى إلى الحبشةِ، والثانية إلى المدينةِ، وسُميَ

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص (١٤٧).
(٢) الرياض النضرة (٣/ ٥ ـ ٦).

بذي النورين رضي اللهُ عنهُ لأنّه تزوجَ رُقَيَّةَ بنتَ رسولِ اللهِ ، فماتتْ عندهُ فزوَّجهُ رسولُ اللهِ ﷺ بعدها أختَها أم كلثوم.

ويقولُ السيوطيُّ رحمهُ اللهُ في تاريخ الخلفاءِ[1] عن هذهِ التسميةِ:

قالَ العلماءُ:

ولا يعرفُ أحدٌ تَزَوَّجَ بنتَيْ نبيٍّ غيرَهُ ، ولذلك سُمِّيَ ذا النُّورَيْنِ ، فهوَ منَ السابقينَ الأوَّلينَ ، وأوّلُ المهاجرينَ ، وأحدُ العشرةِ المشهود لهم بالجنةِ ، وأحدُ الستةِ الذينَ توفيَ رسولُ اللهِ ﷺ ، وهوَ عنهمْ راضٍ ، وأحدُ الصحابةِ الذينَ جَمَعُوا القرآنَ. بل قال ابنُ عباد: لم يَجْمعِ[2] القرآنَ مِنَ الخلفاءِ إلاَّ هوَ والمأمونُ.

نشأَ عثمانُ في الطائفِ وترعرعَ تحتَ سمائِها ، وتمتَّعَ بنسيمها الهادىء ، فأصبحَ هادىءَ الطبع ، لطيفَ السمات.

ولحبِّ الناسِ لعثمانَ كانتْ النسوةُ في مكةَ يغنينَ لأبنائهنَّ أهزوجةً جميلةً تقولُ:

أُحبُّكَ والرحمن. . .

حُبَّ قريشٍ عثمان. .

إلى هذا الحدِّ كان عثمانُ محبوباً لعامةِ النَّاسِ مِنْ قريشٍ في مكةَ ، فكان اسمهُ يقرنُ بأحبِّ إنسانٍ لإنسانٍ آخر ، إِنَّهُ حبُّ الأم لوليدِها. !!.

## صفاته

وإذا أردنا أنْ نكملَ الصورةَ عنْ صفاتِ هذا الرجلِ العظيمِ ذي النُّورَينِ

(١) ص (١٤٨).
(٢) المراد: لم يجمعه حفظاً عن ظهر قلب ، أو لم يجمعه في مصحف ، وإلاَّ فإن السابق إلى جمع القرآن هو أبو بكر الصديق الخليفة الأول.

عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ؛ فلا بدّ أَنْ نثبتَ ما جاءَ في وصفهِ على لسانِ أحد الرواة.

يقولُ المحبُّ الطبريُّ[1]: كان رضيَ الله عنهُ رجلاً ربعةَ، ليسَ بالقصيرِ ولا بالطويلِ، حسنَ الوجهِ.

ويقولُ السيوطيُّ[2]:

كان رجلاً رَبْعَةً ، ليسَ بالقصيرِ ، ولا بالطويلِ ، حسنَ الوجهِ ، أبيض ، مُشْرَباً حُمْرةً ، بوجههِ نُكتاتُ جُدَريٍّ ، كثيرَ اللحيةِ ، عظيمَ الكَرَاديسِ ، بَعيدَ ما بينَ المنكبَيْنِ ، خَدْلَ الساقين ، طويلَ الذّراعينِ ، شَعْرهُ قد كَسَا ذراعَيْهِ ، جَعْدَ الرأسِ ، أَصلَعَ ، أحسنَ النَّاسِ ثغراً ، جُمَّتهُ أسفَلُ منْ أُذنيْهِ ، يخضُبُ بالصّفرةِ ، وكانَ قدْ شدَّ أسْنَانهُ بالذَّهبِ.

ونكتفي بهاتين الروايتين لكثرةِ ما جاءَ عن صفتهِ في كتبِ السيرِ ، وننتقلُ مِنْ هذا الإطارِ عن صفاتهِ ، وكنيتهِ ومولدهِ إلى يوم إسلامهِ المباركِ. فلقد كانَ عثمانُ من السابقينَ ، فهو خامسُ خمسة دخلوا الإسلامَ.

## إسـلامـه

كانَ عثمانُ في الجاهليةِ رجُلاً عصامياً ناجحاً في تجارتِه حتى امتلأتْ طرقاتُ رحلةِ الشتاءِ والصيفِ بقوافلهِ الّتي تحملُ البضائعَ من كلِّ حَدَبٍ وصوبٍ ، وقد امتلأتْ خزائنهُ بالمالِ ، ففاضَ بهِ على مَنْ حولَهُ مِن أصحابِ الحاجةِ فازدادَ حُبهُ في قلوبِ النَّاسِ.

وإلى جانبِ كلِّ هذا فقدِ التزمَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ بالخُلُقِ القويمِ ، فابتعدَ عنْ مجالسِ اللهوِ والخمرِ ، ولما حانَ الموعدُ الحقُّ ، وبزغَ نورُ

---

(١) الرياض النضرة (٣/ ٦).

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٥٠.

الدعوةِ كانَ خامس خمسةٍ أسلموا ، ويتحدثُ عثمانُ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ في شأنِ إسلامهِ فيقولُ[1]:

كنتُ رجلاً مستهتراً بالنساءِ ، وإني ذات ليلةٍ بفناء الكعبة قاعد في رهطٍ من قريش ، إذ أُتينا؛ فقيلَ لنا: إنَّ محمداً قد أَنكحَ عتبةَ بن أبي لهبٍ رُقَيّة ، ابنته ، وكانتْ رقيةُ ذاتَ جمالٍ رائعٍ.

وأضافَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ قائلاً: فدخلتني الحسرةُ ، لم لا أكونُ أَنا سبقتُ إلى ذلكَ! فلم ألبثْ أَنِ انصرفتُ إلى منزلي؛ فوجدتُ خالةً لي جالسةً ، وهيَ سعدى بنتُ كريزٍ ، وكانتْ قد طرقتْ وتكهّنتْ عند قومها ، فلما رأتني قالتْ:

أبشِرْ وحيّيتَ ثَلاثاً تَتْرَى ... أتاكَ خيرٌ وَوُقِيتَ شرّا
أُنْكِحْتَ واللهِ حَصَاناً زهراً ... وأَنْتَ بِكْرٌ ولَقِيتَ بِكْرا
وافيتَها بنتَ عظيمٍ قَدْرا ... بنت امرىءٍ قد أشادَ ذِكْرا

قال عثمان: فعجبت من قولها ، فقلت: يا خالةُ ما تقولينَ؟ فقالتْ:

يا عثمانُ لكَ الجمالُ ولك اللسانُ ... هذا نبيٌّ معهُ البُرْهانُ
أَرْسَلَهُ بحقِّهِ الدَّيَّانُ ... فاتبعْهُ لا تغتالُكَ الأوثانُ

قالَ عثمانُ: يا خالةُ إِنَّك لتذكرينَ شيئاً ما وقعَ ذكرهُ في بلدِنا ، فأبينيهِ لي.

قالتْ: محمدُ بنُ عبد الله ، رسولٌ من عندِ اللهِ ، جاء بتنزيلِ اللهِ ، يدعو إلى اللهِ.

ثم قالتْ: مصباحهُ مصباحٌ ، ودينهُ فَلَاحٌ ، وأمرُهُ نجاحٌ ، وقرنه نطاح ، دانت لهُ البطاحُ . . .

قالَ عثمانُ: ثم انصرفتْ ، ووقعَ كلامُها في قلبي ، فجعلتُ أفكِّرُ فيهِ ، وكان لي مجلسٌ عندَ أبي بكرٍ ، فأتيتهُ وليسَ عندَهُ أحدٌ ، فجلستُ إليهِ ، فرآني مفكراً ، فسألني عنْ أمري ، وكانَ رجلاً متأنّياً ، فأخبرتُهُ بما سمعتُ

---

(١) وردت القصة في الرياض النضرة (٣/ ٧ ـ ٩).

منْ خالتي ، فقال: ويحكَ يا عثمانُ! إنَّك لرجلٌ حازمٌ ما يخفى عليكَ الحقُّ من الباطلِ ، ما هذهِ الأوثانُ الَّتي يعبدها قومُنا أليستْ من حجارةٍ صُمٍّ لا تسمعُ ولا تبصرُ؟

قلتُ: بلى واللهِ إنها كذاكَ!

فقالَ أبو بكرٍ: واللهِ لقد صَدَقَتْكَ خالتُكَ ، هذا رسولُ اللهِ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ قدْ بعثهُ اللهُ تعالى برسالتِه إلى خَلْقِهِ ، فهلْ لكَ أَن تأتيَهُ فتسمعَ منهُ؟

قلتُ: بلى!! فواللهِ ما كانَ أسرع منْ أَن مَرَّ رسولُ اللهِ ﷺ ومعهُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ يحملُ ثوباً ، فلما رآهُ أبو بكر قام إليهِ فسارّه في أذنه ، فجاء رسول الله ﷺ فقعد ، ثمَّ أقبلَ عليّ فقالَ:

«يا عثمانُ ، أجِب اللهَ إلى جنتهِ ، فإنِّي رسولُ الله إليكَ وإلى خلقهِ».

قال عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ: فواللهِ ما تمالكتُ حينَ سمعتُ قولَهُ أَنْ أسلمتُ ، وشهدتُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ، ثم لم ألبثْ أَن تزوَّجتُ رُقَيَّةَ بنت رسولِ اللهِ ﷺ.

ولما علمتْ سُعدى بنتُ كريز خالةُ عُثمانَ بإسلامهِ أنشدتْ تقولُ:

هَدَى اللهُ عُثماناً بقولي إلى الهُدى ... وأرشَدَهُ واللهُ يهدي إلى الحقِّ
فتابعَ بالرأي السَّديدِ محمداً ... وكان برأي لا يُصدُّ عن الصِّدْقِ
وأنكحهُ المبعوثُ بالحقِّ بنتَهُ ... فكان كَبَدْرٍ مازجَ الشمسَ في الأفْقِ
فدىً لك يا بن الهاشميين مُهْجَتي ... وأَنْتَ أمينُ الله أرْسلتَ للخلقِ

هكذا انضمَ عثمانُ إلى قافلةِ الإيمانِ في مكةَ وبدأ يجاهدُ في معركةِ الدعوةِ ، دعوةِ الحقِ والعدلِ.

ولم ينتهِ الأمرُ عند إسلامهِ وإعلانِ ذلكَ أمامَ رسولِ اللهِ ﷺ والالتزام بهِ ، وإنما كانتِ البدايةُ بدايةَ جهادِ عثمانَ معَ عمِّهِ الحكمِ بنِ أبي العاصِ بنِ أميةَ ، فقدْ كانَ رجلاً عنيفاً فظّاً غليظَ القلبِ ، فعندما علمَ بإسلام عثمانَ بنِ عفانَ أخذهُ فأوثقهُ رِباطاً ، وقالَ لهُ في عنفٍ وغلظةٍ: أترغبُ عن ملَّةِ آبائك وأجدادِكَ إلى دين مُحْدَثٍ؟

واللهِ لا أَحُلُّ رباطك أبداً حتَّى تَدَعَ ما أنتَ عليهِ منْ هذا الدِّينِ.

فقالَ عثمانُ في إصرارٍ وتحدٍّ واضحٍ: يا عمُّ، واللهِ لا أدَعُهُ أبداً ولا أُفارِقُهُ[1].

رأى الحكمُ صلابةَ ابن أخيهِ، وإصرارَهُ على رأيهِ، فلمْ يشأ أَنْ يتمادَى في مواجهته وقد كان محبوباً لَدَى أعمامِهِ وأهلِهِ وذويهِ، بل وأهلِ مكةَ جميعاً، ورأى أَنَّ من الحكمةِ أن يتركَ الفتى وشأنَهُ فإنهُ في هذا العمرِ قادرٌ على التحدِّي، وكلما اشتدَّ الضغطُ عليهِ، زادَ إصرارُهُ وعنادُهُ، وتمسَّكَ بهذا الأمرِ، ولو كلفَهُ حياتَهُ، فتركَهُ وشأنَهُ ولكنّ إيمانَ عثمانَ كان أكبرَ منْ عنادِ فت وإصرارِ شابٍّ جامحٍ، وإنَّما هيَ تقوى القلوب.

## الهجرة الأولى إلى الحبشة

لما رأى رسولُ اللهِ ﷺ ما نزلَ بالمسلمينَ منْ توالي الأذى عليهمْ من كفارِ قريشٍ مع عدمِ قدرتِهِ ﷺ على إنقاذهمْ والذودِ عنهم، قالَ لهمْ ﷺ:

«اخرجوا إلى جهةِ أرضِ الحبشةِ، فإنّ بها ملِكاً لا يُظلمُ عندهُ أحدٌ. وهيَ أرضُ صدقٍ، حتى يجعلَ اللهُ لكمْ فَرَجاً مما أَنتم فيهِ»[2].

فهاجر النَّاسُ خوفاً من الفتنةِ، وفراراً إلى اللهِ تعالى بدينهمْ.

وكان عثمانُ بنُ عفانَ، رضيَ اللهُ عنهُ ممن هاجرَ فارّاً إلى اللهِ تعالى بدينهِ، هاجرَ ومعهُ زوجتهُ رقيَّةُ بنتُ النبي ﷺ.

وكانتْ رُقَيَّة رضيَ اللهُ تعالى عنها ذاتَ جمالٍ بارع وكذا عثمانُ رضيَ اللهُ تعالى عنهما، ومنْ ثَمَّ كان النساءُ يغنّينها بقولهنَّ:

أحسنُ شيءٍ قد يرى إنسانُ ... رُقَيَّةُ وبعدها عثمانُ

وقد خرجَ عثمانُ ورقيةُ رضيَ الله عنهما ومعهما عددٌ كبيرٌ مثل أبي سلمةَ

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٥٥).

(٢) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٣) ـ ط دار المعرفة.

ومعه زوجتُهُ أمُّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنها ، وقد ذكرتْ بعضُ الرواياتِ أَن عددَهم كان فوقَ الثمانينَ[1] ما بينَ رجالٍ ونساءٍ.

ويروي ابنُ سعدٍ في طبقاتِهِ عن خروجهمْ إلى الحبشةِ فيقولُ:

«فخرجوا متسللينَ سِرّاً وكانوا أَحَد عشرَ رجلاً وأربعَ نسوةٍ حتى انتهوْا إلى الشعيبةِ ، منهم الراكبُ والماشي ، ووفَّقَ اللهُ تعالى للمسلمينَ ساعة جاؤوا سفينتينِ للتّجار حملوهم فيها إلى أرضِ الحبشةِ»[2].

وكان مخرجُهُمْ في رجب من السنةِ الخامسةِ من حين نُبِّىءَ رسولُ اللهِ ﷺ.

وخرجتْ قريشٌ في آثارهمْ حتى جاؤوا البحرَ ، حيث ركبَ المهاجرونَ السفينتين ، فلمْ يدركوا منهم أَحَداً.

وقد قال الناسُ فيما بعدُ عن هجرتهمْ إلى الحبشةِ: قدمنا أَرضَ الحبشةِ فجاورنَا بها خيرَ جارٍ أمِنّا على ديننا وعَبَدْنَا الله لا نُؤذى ولا نسمعُ شيئاً نكرهُهُ.

## هجـرة الـحبشـة الـثـانـيـة

أقامَ المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشةِ ثلاثة أشهرٍ أسلمَ أثناءها عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ ، وقد بلغَ مهاجري الحبشةَ ما حدثَ على أثرِ إسلامهِ رضوانُ اللهِ عليهِ ، فعاد بعضهم بعد أنْ أسلمَ عمرُ ونصر الإسلامَ بمثلِ الحميّةِ والشجاعة التي كانَ يحاربُ بها المسلمينَ قبل إسلامهِ.

ولكنهم حينما عادوا وجدوا أَنَّ قريشاً قد ازدادتْ في عنادها وبطشها بل واتّجهت إليهم بصفةٍ خاصةٍ ، فاشتدت عليهم وسلطت بهم عشائرهم ، فلقوْا منهمْ أذىً شديداً ، فأذنَ لهم الرسولُ ﷺ في الخروجِ إلى أرضِ الحبشةِ مرّةً

(١) هذا العدد ورد في السيرة الحلبية ، لكن ابن سعد قال: أحد عشر رجلاً وأربع نسوة ، ولم يذكر من النسوة أم أيمن حاضنة الرسول ﷺ.

(٢) الطبقات (١/ ٢٠٤) ط دار صادر.

ثانيةً ، فكانتْ خرجتهم الثانيةُ أعظم مشقةً من الأولى ، فقد لقوْا من قريشٍ تعنيفاً شديداً ، ونالوهم بالأذى ، واشتدَّ على قريشٍ ما بلغهم عن النجاشيّ من حُسْنِ جوارِهِ.

فلمَّا أمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ عثمانَ بالهجرةِ قال عثمانُ رضيَ الله عنهُ: يا رسولَ الله فهجرتنا الأُولى وهذه الآخِرة إلى النجاشيِّ ولستَ معنا.

فقال عليه الصلاة والسلامُ: أنتم مهاجرونَ إلى الله وإليَّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً[١].

فقالَ عثمانُ : فحسبنا يا رسولَ الله. وخرج مهاجراً هجرتَه الثانيةَ إلى الحبشةِ.

## مع الرسول في المدينة

لما أَذِنَ رسولُ اللهِ ﷺ للمسلمينَ بالهجرةِ إلى يثربَ ، هاجر عثمانُ رضيَ اللهُ عنه إلى المدينةِ ، وتركَ مالَه الكثيرَ في مكةَ ، غَيْرَ نادمٍ على ما فقدَ ، فقدِ امتلأَ قلبُهُ بنورِ الإيمانِ ، ووحدانيّةِ الخالِقِ.

ولم تتوقفْ تجارتُهُ ولا بيعهُ وشراؤه؛ بل جاهدَ في سبيلِ اللهِ بأموالِهِ كما جاهَد بنفسهِ وهاجرَ إلى اللهِ ورسولِه ، وقد استطاعَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ رغمَ ما تركَ في مكةَ من أموالٍ أن يعيدَ عجلةَ البيعِ والشراءِ ، وقد تسلحَ بالصدقِ والأمانةِ فكانَ لهُ الفلاحُ والنجاحُ.

وفي العامِ الثاني لهجرةِ رسول اللهِ ﷺ خرجَ الرسولُ إلى بدرٍ بينما كانت رُقَيَّةُ مريضةً ، واشتدَّ عليها المرضُ فأذِنَ الرسولُ ﷺ لعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ أن يبقى بالمدينةِ لتمريضِ رُقَيَّةَ رضيَ اللهُ عنها.

وما إنْ عادَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ معركةِ بدرٍ منتصراً مستبشراً بما أفاءَ اللهُ عليهِ من نصرٍ لدعوتهِ ، وذلٍّ لأشرافِ قريشٍ الذينَ كفروا وضلوا ، ما إنْ عادَ عليهِ

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٧).

الصلاة والسلامُ إِلى المدينةِ حتى عَلِمَ أن رُقَيَّةَ قد ماتتْ ، فتألّمَ لفقدها وحزن عليها.

وجاء عثمانُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ باكياً ، وهو يقولُ: يا رسولَ اللهِ خفتُ أَن ينقطعَ صهري منكَ.

فقال عليه الصلاة والسلامُ: «هذا جبريلُ يأمرني بأمرِ الله عزَّ وجلَّ أن أزوِّجك أختها أمَّ كلثوم»(١).

سكنَ عثمانُ وذهبَ عنهُ الهمُّ والغمُّ ، وتزوجَ أمَّ كلثومٍ على صداقِ أختها ، وعلى مثلِ صحبتها رضيَ اللهُ عنهما.

## شمائله

عاشَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنه بصحبةِ رسولِ اللهِ في المدينةِ يذود عن دينهِ بمالهِ ونفسهِ ، وكانَ لهُ مِنَ الخصالِ والشمائلِ الكثيرُ الكثيرُ الذي لا يُحصى ولا يعدُّ ، فقد كانَ عثمانُ رجلاً رفيعَ الخُلُقِ ، لطيفاً ، يمتلىءُ وجههُ بالحياءِ ، وقدْ كانَ لحيائه قصةٌ معَ رسولِ اللهِ تتحدثُ عنها عائشةُ فتقولُ:

كانَ رسولُ اللهِ ﷺ مضطجعاً في بيتِهِ كاشفاً عنْ فخذيهِ أو عن ساقيهِ ، فاستأذنَ أبو بكرٍ فأذِنَ لهُ وهو على تلكَ الحالِ فتحدَّثَ ، ثم استأذنَ عمرُ فأذنَ لهُ وهوَ على تلك الحالِ فتحدَّثَ ، ثم استأذَنَ عثمانُ فجلسَ رسولُ اللهِ ﷺ وسوَّى ثيابَهُ فدخلَ فتحدثَ. فلمَّا خرجَ قالت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها:

يا رسولَ اللهِ دخل أبو بكرٍ فلم تهشّ لهُ ولم تبالِ بهِ..

ثم دخلَ عمرُ فلمَ تهشَّ لهُ ولم تبالِ بهِ..

ثم دخلَ عثمانُ فجلستَ وسويتَ ثيابَكَ.!

فقال النبيُّ ﷺ: «ألا أَستحي مِن رجلٍ تستحي منهُ الملائكةُ»(٢).

---

(١) الرياض النضرة (٣/ ١١).

(٢) انظر الرياض النضرة (٣/ ١٣) ، وذكره المحب الطبري عن أحمد ومسلم.

## بئر رُومةَ

عندما قدِمَ المهاجرونَ من مكةَ إلى المدينةِ وجدوا أنَّ الماءَ يكاد يكونُ المشكلةَ الأُولى الَّتي تواجههم ، وكان لرجلٍ من بني غِفارٍ عينٌ يقالُ لها بئرُ رُومةَ ، وكان يبيعُ منها القِرْبةَ بدراهمَ للناسِ ، فقال لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «تبيعها بعينٍ في الجنةِ؟» ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ ليسَ لي ولا لعيالي عينٌ غيرُها ، لا أستطيعُ ذلك.

بلغَ ذلكَ عثمانَ فاشتراها بخمسةٍ وثلاثينَ ألفَ درهمٍ ، ثم أتَى النبيَّ ﷺ ، فقالَ: اجعل لي مثلَ الذي جعلْتَ لهُ عيناً في الجنةِ. فقال: نعمْ.. قال عثمانُ: قد اشتريتُها وجعلتُها للمسلمينَ.

وفي رواية أخرى إنها كانت ليهوديٍّ فساومهُ عثمانُ ، فرفضَ البيعَ فاشترى عثمانُ نصفَها فجعلهُ للمسلمين ، واتفقَ على أن يكون لليهوديِّ يومٌ ولعثمانَ يومٌ يُشربُ فيه المسلمين.

فكان إذا جاءَ يومُ عثمانَ استقى المسلمونَ ما يكفيهم يومَيْنِ.

فاحتجَّ اليهوديُّ الَّذي كانَ يرغبُ جمعَ المالِ من وراءِ البئر كي يُرضي رغبتَهُ الجامحةَ في الاستحواذِ على أموالِ المسلمين ، وتخزينها واستغلالِ حاجَتهمْ ، قالَ الرجلُ لعثمانَ: أفسدتَ عليَّ ركيتي!!

فاشترى عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ النصفَ الثاني من اليهوديِّ ووهَبها كلَّها للمسلمينَ[1].

كل ما هنالِكَ أَنَّ الرواياتِ أجمعتْ على شراءِ عثمانَ هذهِ البئر وإهدائها للمسلمينَ ، فكانت فيضاً من غيثٍ ، فاضَ بهِ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ على إخوانِهِ في الدعوةِ ، الذينَ سبقَتْ كلمتُهم ، فكانوا مِنَ المهاجرينَ الذينَ رضيَ اللهُ عنهمْ ورضوا عنهُ.

---

(١) الروايتان أوردهما المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٨ ـ ١٩).

## يـوم الـعُسْـرة

ومآثر عثمانَ أضواءٌ تنيرُ الطريقَ ، وقدوةٌ حسنةٌ تفوحُ بعطرها على مرِّ الزمانِ ، وجهادهُ الأكبرُ تجلّى ووصلَ ذروتهُ يومَ عُسْرةِ المسلمينَ ، فكانَ نعمَ المسلم الغنيّ ، تمثلتْ فيه أمانةُ العبدِ الشكورِ ، فكانَ مالُهُ وسيلةً لنصرةِ الحقِّ ، فلم يحتفظْ به ، بل ودعهُ ، قبلَ أن يودِّعَ منهُ ، فالمالُ يكون أولَ مودعٍ لصاحبهِ بلْ هوَ أَسْرعُ عَرَضٍ من أَعْراض الدنيا يتخلى عنْ صاحبهِ ، ويبقى العملُ الصالحُ في صحبةِ صاحبهِ بدءاً من القبرِ وحتّى البعثِ والنشورِ.

كان يومُ تبوكَ في رجبٍ سنةَ تِسْع من الهجرةِ.

وقد علمَ النبيُّ ﷺ أَنَّ نصارى العرب قد جمعوا مع جندِ الروم لمحارَبتِهِ ، ووصلتْ مقدِّمتُهم إلى البلقاء وهي أرضٌ بالشام ، عندئذٍ أمرَ ﷺ أصحابَهُ بالتهيُّؤ لِغَزْوِهِمْ ، وذلكَ في زمنِ عُسْرةٍ للناسِ ، شَديدِ الحرِّ ، كثيرِ الجدبِ ، قليلِ المالِ.

أمرَ ﷺ الناسَ بالجهازِ ، وأخبرهم مباشرةً أنهُ يريدُ غزوَ الرومِ ، فتجهَّزَ الناسُ ، وقد أصابهم جزعٌ وكراهيةٌ ، لما عرفوهُ من كثرةِ عددهمْ ، وضعف عتادهمْ ، وقد بدا ذلك واضحاً على وجوهِ النَّاس.

وبدأ عليه الصلاة والسلامُ يعرفُ الجوَّ النفسيَّ للناسِ ، فهاهوَ أَحدُ الرجالِ[1] يأتيهِ فيقولُ: يا رسولَ اللهِ ، أو تأذَنْ لا تفتنّي ، فواللهِ لقد عَرَفَ قومي أنَّهُ ما منْ رجلٍ بأشد عجباً بالنساءِ منِّي ، وأَخشى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفر ألاّ أصبرَ! فأعرضَ عنهُ الرسولُ ، وقالَ: «قد أذنتُ لَكَ».

وفيه نزل قول الله عز وجل في سورة التوبة:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) هو الجد بن قيس.

وفي بيتِ رجلٍ يهوديٍّ يسمى «سويلمَ» جلسَ المنافقون يثبطونَ النَّاسَ عن الخروجِ مع رسولِ اللهِ في الغزوِ ويقولونَ لهم: لا تنفِروا في الحرِّ.

فنزل قولُ اللهِ تعالى في سورة التوبة:

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

عندَ ذلِكَ أرسلَ ﷺ طلحةَ بنَ عبيدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ في نفرٍ من أصحابهِ ليخربوا مجلسَ النفاقِ هذا، فنفَّذَ طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ رضِيَ اللهُ عنهُ وأصحابُهُ أمْرَ رسولِ اللهِ ﷺ، وقضى على وكرِ النفاقِ والفسادِ، وتفرغَ الرسولُ ﷺ للتهيؤ للسفرِ؛ وأمرَ الناسَ بالإسراعِ، وحضّ أهلَ الغنى على التبرعِ بالمالِ في سبيلِ اللهِ، وفي هذهِ اللحظةِ كان عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ من السبَّاقين إلى الجهادِ بمالِهِ.

ما إنْ حثَّ النبيُّ ﷺ المسلمينَ على التبرعِ حتى وقفَ عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ قائلاً: يا رسولَ اللهِ عليَّ مئةُ بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيلِ اللهِ.

ثم حضّ النبيُّ ﷺ على التبرُّعِ، فوقفَ عثمانُ قائلاً: عليَّ مئة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل اللهِ.

ثم حضَّ مرةً ثالثةً، فقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ: يا رسولَ الله عليَّ ثلاثمئةِ بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيلِ اللهِ.

واختلفت الرواياتُ في وصفِ هذا المشهدِ مِنْ عظمة ونُدرَةِ هذا العملِ بينَ النَّاسِ في وقتِ العُسْرةِ، فقد قيلَ: جهزَ عثمانُ جيشَ العُسْرةَ بتسعمئةٍ وخمسينَ بعيراً وأتمّ الألفَ بخمسينَ فَرَساً.

وقالَ ابنُ شهابِ الزُّهريُّ: حملَ عثمانُ بنُ عفانَ في غزوةِ تبوك (العسرةِ) على تسعمئة وأربعين بعيراً، وستين فرساً أتمَّ بها الألفَ[1].

---

(١) أورد هذه الروايات المحب الطبري في كتابه «الرياض النضرة» (٣/١٦ ـ ١٨).

وقفَ الرسولُ ﷺ يدعو لعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ ويقولُ: «غفرَ اللهُ لكَ يا عثمانُ ما أسررتَ وما أعلنتَ ، وما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ».

ثم قالَ عليهِ الصلاة والسلامُ: «ما ضرَّ عثمانَ ما عمل بعدَ اليومِ».

رضِيَ اللهُ عن عثمانَ فقد كانَ جواداً سخيّاً ، فقد أقبلَ الأغنياءُ وذوو اليسارِ ، وأنفقوا نفقةً كبيرةً ، وتقدَّم قادرٌ على نفقةِ نفسهِ بعُدّتِهِ وَنَفَقَتِهِ ، وأقبل كثيرونَ من الفقراءِ يريدونَ أَن يحملهمُ النبيُّ معه ، فحملَ منهم مَن استطاعَ ، واعتذَر إلى الباقينَ قائلاً: لا أجدُ ما أحملكمْ علَيهِ ، فتولوا وأعينهم تفيضُ مِن الدمعِ حزناً ألاّ يجدوا ما ينفقونَ ، وقد أُطلق عليهم اسم البكَّائين لبكائهم ، واجتمَع للرسولِ ﷺ في هذا الجيشِ ، الذي سمِّي جيشَ العُسْرَةِ ، لشدةِ ما لاقى في تجهيزِهِ ، ثلاثون أَلْفاً من أبطالِ المسلمينَ.

وانطلقَ جيشُ العُسْرةِ إلى هدفهِ الأسمىٰ محاطاً ببركةِ السماءِ ، وبينَ الصفوفِ مشى عثمانُ بنُ عفانَ يترجّلُ راحلتَهُ ، وقد تصبَّب العرقُ منْ على وجنتيه لشدَّةِ الحرِّ لا يدري أَهوَ هذا اليومُ الذي عرفَ فيهِ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ أنهُ سيكونُ فيه شهيداً ، كما قالَ ﷺ لحراء عندمَا اهتزَّ وتحرَّكَ: «اثبتْ أحد فما عليكَ إلا نبيٌ أو صدّيقٌ أو شهيدان»(١).

وكان معه عمرُ وعثمانُ وأبو بكرٍ.

## يـوم الـبيعـة

رأى النبيُّ ﷺ في النومِ أَنهُ دخل مكةَ هوَ وأصحابُهُ آمنينَ محلِّقينَ رؤوسهم ومقصرينَ ، وطافَ هو وأصحابُهُ واعتمرَ.

ولما كان الصبحُ أخبرَ الصحابةَ بما رأى ففرحوا ، لذلكَ أخبرهمْ أَنَّه يريدُ الخروجَ للعمرةِ فليستعدوا وليتجهزوا للسفرِ.

خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ قاصداً مكةَ لزيارةِ البيتِ ، لا يبغي حرباً ولا قتالاً ،

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٥) وأبو داود (٤٦٥١) والترمذي (٣٦٩٧).

وكان ذلك في السنةِ السادسةِ من هجرتهِ إلى المدينةِ ، وعلى الرغم من أنهُ كانَ لا يريد حرباً ولا قتالاً ، إلاَّ أنهُ استنفرَ المسلمينَ ومَنْ حوله من الأعرابِ أَنْ يخرجوا معهُ ، خشيةَ أَن تَعْرِض له قريشٌ بحربٍ ، أو يصدُّوهُ عن البيتِ ، فتثاقلَ الأعرابُ ، وقالوا: أنذهبُ إلى قومٍ قد غزَوْا محمداً في عقرِ دارهِ بالمدينةِ؟

كان ﷺ قد اغتسلَ قبلَ أنْ يخرجَ من بيتهِ ولبسَ ثوبينِ ، وركب راحلتَهُ القَصواء من عِندِ بابهِ ، وخرجت معه أمُّ سلمةَ وأمُّ عمارةَ وأُمُّ منيع وأمُّ عامرٍ الأشهليةُ رضيَ اللهُ عنهنّ ، ومعه المهاجرون والأنصارُ ومن لحقَ بهم من الأعرابِ ، وساقَ عليه الصلاة والسلامُ معهُ مِنَ الْهدي سبعينَ بدنَةً[١] .

وصحبَ رسولُ اللهِ في هذهِ الرحلةِ المباركةِ عثمانَ بنَ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وعندما وصلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى «عُسْفانَ» وهيَ موضعٌ بينَ مكةَ والمدينةِ ، ولقيهُ رجلٌ[٢] فقال لهُ: يا رسولَ اللهِ هذه قريشٌ قد سمعتْ بمسيركَ ، فخرجوا وقد لبسوا جلودَ النمورِ ، ونزلوا بذي طُوىً ـ وهو موضع قرب مكة ـ وعاهدوا أنفسهمْ ألاَّ تدخلَها عليهم أبداً ، وهذا خالدُ بنُ الوليدِ في خيلهمْ بالقربِ منك بـ «كُراع الغَميم»[٣] .

فقالَ ﷺ: «يَا ويْحَ قريشٍ ، لقد أكلتهمُ الحربُ ، ماذا عليهمْ لو خَلّوا بيني وبين سائرِ العرب ، فإن هم أصابوني كانَ ذلكَ الَّذي أرادوا ، وإن أظهرني اللهُ عليهم دخَلوا في الإسلامِ وافِرينَ ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّةٌ ، فما تظنُّ قريشٌ؟! .

فواللهِ لا أزالُ أُجاهدُ على الَّذي بعثني اللهُ بهِ حتى يظهرَهُ اللهُ أو تنفرِدَ هذه السالفةُ»[٤] .

---

(١) السيرة الحلبية (٢/ ٦٨٩).

(٢) هو بشر بن أبي سفيان.

(٣) كُراع الغميم: هو موضع بين مكة والمدينة ، وهو وادٍ أمام عسفان بثمانية أميال.

(٤) «السالفة»: صفحة العنق ، وهما سالفتان من جانبيه ، وكنّى بانفرادها عن الموت.

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: من رجلٌ يخرجُ بنا على طريقٍ غير طريقهمْ الّتي هُمْ بها؟ فقالَ رجلٌ من أسلمَ: أنا يا رسولَ اللهِ ، ثم سلكَ بهم طريقاً وعراً ، أجرَل[١] بين شعاب.

ونزلَ الرسولُ ﷺ بأقصى الحديبيةِ ، ولما اطمأنَّ بهِ المقامُ جاءهُ بُدَيْلُ بنُ وَرْقاءَ الخُزاعيُّ ، في رجاله من بني خُزاعةَ ، وهم من أهلِ تهامةَ وحلفاء الرسولِ ﷺ ، وممّن يثقُ فيهم ، حتى أصبحوا موضعَ سِرِّهِ.

## يوم الحديبيةَ

قال بديلُ بنُ ورقاءَ الخزاعيُّ: يا رسولَ اللهِ ، إنِّي تركتُ كعبَ بنَ لؤيٍّ وعامرَ بنَ لؤيٍّ قد نزلوا عندَ مياهِ الحديبية ، ومعهم أسلحتهمْ ، وهم مقاتلوكَ وصادُّوكَ عن البيت. فقال عليهِ الصلاة والسلامُ: إنَّا لم نَأْتِ لقتالِ أحدٍ ، ولكن جئنا مُعْتَمرينَ.

ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتَّى بعثت قريشٌ عروةَ بنَ مسعودِ الثقفيَّ إلى رسولِ اللهِ فرجعَ إليهم يقُول: إنَّ محمداً مطاعٌ في أصحابهِ ، ولم يأتِ لقتالٍ.

ثم دعا رسولُ اللهِ عثمانَ بنَ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فبعثهُ إلى أبي سفيانَ وأشرافِ قريشٍ ، يخبرهم أنَّه لم يأتِ لحربٍ ، وأنهُ لم يأتِ إلاَّ زائراً لهذا البيتِ ومعظماً لحرمتهِ ، وأمر ﷺ عثمانَ أن يأتيَ رجالاً مسلمينَ بمكةَ ونساءً مسلماتٍ ويدخلَ عليهم ويبشرهمْ بالفتحِ ويخبرهمْ أَنّ نَصْرَ اللهَ وشيكٌ؛ أي قريبٌ أَن يُظْهِرَ دينَهُ بمكةَ حتَّى لا يستخفى فيها بالإِيمانِ.

انطلقَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ حتَّى أتى أبا سفيانَ وعظماءَ قريشٍ ، فبلغهم عنْ رسولِ اللهِ ما أرسلهُ بهِ ، فقالوا لعثمانَ ، حينَ فرغ من رسالته: إن شئتَ أَن تطوفَ بالبيتِ فطُفْ بهِ[٢].

---

(١) «أجرل»: كثير الحجارة.

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٧١) وسيرة ابن هشام (٣/ ٣٢٩).

قالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ: ما كنتُ لأفعلَ حتى يطوفَ رسولُ اللهِ ﷺ. وكانتْ قريشٌ قد حجزتْ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ واحتبستهُ ثلاثةَ أيامٍ ، فبلغَ رسولَ اللهِ ﷺ أَنَّ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ قد قُتِلَ.

فقال ﷺ: لا نبرحُ حتى نُناجزَ القومَ ، ودعا رسولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إلى البيعةِ بعد أنْ قالَ لهم: إن اللهَ أمرني بالبيعةِ.

ونادى عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ قائلاً: أيُّها الناسُ! البيعةَ البيعةَ. فسارَ الناسُ جميعاً إلى رسولِ اللهِ ﷺ وبايعوهُ تحتَ الشجرةِ ، وقد بايعهُ النَّاسُ على الموت وعدمِ الفرارِ ، وعلى أنهُ إمَّا الفتحُ وإما الشهادةُ[1].

وبايعَ النبيُّ ﷺ عن عثمانَ فوضَعَ يدَهُ على يدهِ الأخرى ، يده اليمنى على يدهِ اليسرى ، وقالَ: اللهم إنَّ عثمانَ ذهبَ في حاجةِ الله وحاجةِ رسولهِ فأنا أبايعُ عنهُ ، فضربَ بيمينهِ على شمالهِ.

ثم جاءت الأخبارُ لرسولِ اللهِ أنَّ الذي علمهُ من أمرِ عثمانَ باطلٌ ولم يحدثْ أبداً.

أحسَّتْ قريشٌ بإصرارِ رسولِ اللهِ ، وبَلَغها ما كانَ تحتَ الشجرةِ من بيعةِ الرجالِ وإصرارهمْ على الجهادِ فأرسلتْ سهيلَ بنَ عمروٍ إلى رسولِ اللهِ ، وقالوا لسهيل: ائت محمداً فصالحْهُ ولا يكنْ من صُلْحِهِ إلا أَنْ يرجعَ عنّا عامَهُ هذا؛ فواللهِ لا تحدِّثُ العربُ أنهُ دخلَها علينا عنوةً أبداً[2].

جاءَ سهيلُ بنُ عمروٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، فلما رآهُ عليهِ السلامُ قالَ: أَرادَ القومُ الصلحَ حين بعثوا هذا الرجلَ.

جرتْ مفاوضاتٌ بينَ سهيلٍ ورسولِ اللهِ ﷺ ، أكثرَ فيها سهيلٌ الكلام ، وفي النهايةِ اتفقَ الجانبانِ على الصلحِ.

وكانت شروطُ الصلحِ مُجحفةً بالنسبةِ إلى المسلمين ، مما أثارَ احتجاجَ

---

(١) السيرة الحلبية (٣/ ٧٠١) وسيرة ابن هشام (٣/ ٣٣٠).
(٢) المصدران السابقان.

الصحابَةِ ، ومن بينهمْ عمرُ ، ونتركُ قصةَ احتجاجِ عمَر الآنَ ، لنقرأَ كتابَ الصلحِ فقدْ دعا رسولُ اللهِ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ، فقالَ: اكْتُبْ بسم اللهِ الرحمَنِ الرحيمِ ، فقال سُهَيلٌ: لا أعرفُ هذا يا محمدُ ، ولكنِ اكتبْ: باسمكِ اللهمَّ؛ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: اكْتُب باسمكَ اللهمَّ ، فكتبها؛ ثم قالَ عليهِ الصلاة والسلامُ: اكتبْ هذا ما صالحَ عليهِ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ سُهيلَ بنَ عمروٍ. واصطلحا على وضعِ الحربِ عنِ الناسِ عشرَ سنينَ ، إلى آخِر شروطِ الصلحِ التي تحدثنا عنها في موضعٍ سابقٍ[1].

وقد كانَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ منَ الذين بايعَ عنهمْ رسولُ اللهِ ﷺ تحتَ الشجرةِ كما ذكرنا ، فنزلَ فيهم قولُه تعالى في سورة الفتح:

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ .

هذهِ المشاهدُ العظيمةُ يومَ صلحِ الحديبيةُ كانتْ شاهدَ صِدْقٍ لعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وهذا اليومُ العظيمُ يُسجِّلُ في تاريخِ الإسلامِ مآثر له عديدةً.

إِنه اليومُ الذي جعل من شخصيةِ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ المجاهد الجريء ، مثلاً عظيماً يُقتدى بهِ ، فتجلت حكمةُ الصحابيِّ الجليل؛ الذي كانَ لشخصهِ مكانةٌ في نفوسِ أهلِ مكةَ كما كانت مكانَتُهُ في صفوف إخوانِهِ المجاهدينَ الصابرينَ.

## مـن مآثـر جـوده وسخائـه

كان عثمان منَ الجودِ والكرم بحراً لا قاعَ لهُ ، وطريقاً لا نهايةَ لعطائهِ ، يعطي بلا حسابٍ مما أفاءَ اللهُ علَيهِ من فضلٍ ، ومن هذا المعنى نسوقُ قصةَ مجيءِ قافلةٍ كبيرةٍ لعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ محملة بالبضائع والخيراتِ ، فاجتمع عليها تجارُ المدينةِ ، وقد كانت المدينةُ تعاني من ضائقةٍ شديدةٍ ، يهبُّ منْ أجلها التاجرُ أينما كان ليفوزَ بما هوَ آتٍ من بضائعَ تَدرُّ ربحاً وفيراً.

---

(١) انظر عمر بن الخطاب في كتابنا هذا.

ويتحدثُ الرواةُ عن هذه القصةِ كثيراً ومنهم ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما الذي يقولُ: قحط النَّاسُ في زَمَانِ أبي بكرٍ ، فقال أبو بكرٍ لهمْ: «إنْ شاءَ اللهُ لا تمسونَ غداً حتى يأتيكمْ فرج اللهِ».

فلما تنفسَ الصبحُ في المدينةِ ، سمع الناسُ هديرَ أقدامِ الجمالِ ، تضربُ الأرض وتنثرُ الرمالَ عليها ، ولما سألوا عن القافلةِ قالوا هيَ لعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ.

ويضيفُ ابنُ عباسٍ قائلاً: فلمّا كانَ الصبحُ قدمتْ قافلةُ عثمانَ ، فغدا عليهِ التّجارُ ، فخرجَ إليهم وعليهِ مُلاءةٌ قد خالفَ بينَ طرفيها على عاتقهِ. وسألوهُ أن يبيعهم القافلةَ وما جاء فيها من بضائعَ.

قال عثمانُ: كم تربحونني؟

قالوا: العشرة اثني عشر.

قال عثمانُ رضي اللهُ عنهُ: قد زادَوني!!

قالوا: فالعشرة خمسةَ عشرَ.

قال: قد زادوني.

قالوا: ومن الّذي زادكَ؟

قال عثمانُ: إنه اللهُ ، زادني بكلِ درهمٍ عشراً ، فهل لديكمْ أنتمْ مزيدٌ؟

فانصرف التجارُ عنهُ.

فنادى في الناسِ قائلاً: اللهمَّ إني وهبتُها لفقراءِ المدينةِ بلا ثمنٍ وبلا حسابٍ.

رحمَ اللهُ عثمانَ فقد كانَ ينفقُ بلا حسابٍ ، وكان منَ الذين ينفقونَ أموالهمُ في سبيلِ اللهِ ، يمنُّ بها على النَّاس ، إنما يطعمهمْ لوجهِ اللهِ ويعطيهم حبّاً في اللهِ لا يريدُ منهمْ جزاءً ولا شكوراً ، فرغمَ مالهِ الوفيرِ كان عثمانُ زاهداً فيه.

## زهـده

كان عثمانُ رضيَ اللهُ عنه زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرةِ، فقد كان يطعمُ النَّاسَ طعامَ الإمارةِ، ويأْكلُ الخلَّ والزيتَ[1].

وقال عبد الله بن شداد: رأيتُ عثمانَ يومَ الجمعةِ يخطبُ وهو يومئذٍ أميرُ المؤمنينَ وعليه ثوبٌ قيمتهُ أربعةُ دراهمَ أو خمسةُ دراهمَ[2].

وقدْ سئلَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ عن ملابس عثمانَ، فذكرَ عنها ما يدلُّ أنها منْ ملابسِ العامةِ، بلْ وأقلّ النَّاسِ امتلاكاً للمالِ.

فمما قالَه السائلُ: ما كانَ رداءُ عثمانَ؟

قالَ الحسنُ: قطريٌّ.

قال الرجلُ: كم ثمنُهُ؟

قال الحسنُ: ثمانيةُ دراهمَ.

ثم أضاف: ما كانَ قميصُه؟

فقال الحسنُ: سنبلانيّ.

قال: كم ثمنهُ؟

قال الحسنُ: ثمانيةُ دراهمَ[3].

وهذهِ أقلُ الملابسِ قيمةً في أسواقِ مكَّةَ آنذاكَ.

## عثمـان والـقـرآن

يعدُّ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ من أكثرِ الصحابةِ ارتباطاً بعمليةِ جمعِ القرآنِ؛ حينَ أكملَ مهمةً قامَ بها عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بعد أنْ أشارَ علىَ أبي بكرٍ

---

(١) الرياض النضرة (٣/ ٤٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص ٤٥.

رضيَ اللهُ عنهُ بعدَ موقعةِ اليمامةِ ومقتلِ عددٍ كبيرٍ من القراءِ ، الذين حفظوا القرآنَ في حياةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وقد اختُصَّ بآياتٍ كريمةٍ نزلتْ فيهِ ، ففي إنفاقهِ نزلت الآيةُ الكريمةُ:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وعن ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ في قولهِ تعالى:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

قال ابنُ عمرَ: نزلتْ في عثمانَ رضيَ اللهُ عنه[1].

هكذا كان لعثمانَ الشرف العظيم ، في آياتِ الكتابِ الكريمِ ، فبُشِّرَ بالجنةِ وكانَ أهْلاً لها.

## أهـل الـشـورى

بعد أَن طُعِنَ عمرُ بنُ الخطابِ في المسجدِ ، اختارَ ستةً هُمْ أهلُ الشورى ، وجعلَ عليهم عبدَ الرحمنِ بنَ عوفٍ أميراً يختارُ منْ بينهم خليفةً. وقد أوصى عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بمنهجِ اختيارِ الخليفةِ عِنْدَما اختارَ الستةَ الذين ماتَ عنهم النبي ﷺ وهوَ راضٍ ، وهم:

عليُّ بنُ أبي طالبٍ ، والزُّبيرُ بنُ العوَّامِ ، وعبد الرحمن بنُ عوفٍ ، وعثمانُ بنُ عفَّانَ ، وطلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ ، وسعدُ بنُ أبي وقاص رضيَ اللهُ عنهمْ أجمعينَ.

قال عمرُ: إني أوصيكمْ بتقوى اللهِ في الحكمِ والعدلِ في القسم.

ثم أضافَ عمرُ لأصحابِ الشورى: تشاوروا في أمركمْ فإن كانَ اثنان واثنانِ فارجعوا في الشورى ، وإن كان أَربعةٌ واثنان فخذوا صفّ الأكثرِ ،

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص (٣٠٥).

وإن اجتمعَ رأيُ ثلاثةٍ وثلاثة فاتبعوا صفّ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ واسمعوا وأطيعوا[1].

وماتَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بعد أنْ قدمَ منهجاً لاختيارِ خليفة المسلمينَ منْ بعدهِ.

## خليفـة رسـول الله ﷺ

وقد جعل أصحاب الشورى أمرَهمْ إلى عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ يختارُ للمسلمينَ منهمْ خليفةً ، ولزمَ أبو طلحةَ الأنصاريُّ بابَ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ بأصحابِهِ حتى تمت البيعةُ.

ويروي السيوطيُّ في «تاريخ الخلفاءِ» عن بيعة عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ فيقولُ: إنّ عبدَ الرحمنِ قالَ لعثمانَ في خلوةٍ: إن لمْ أبايعْكَ فمن تشيرُ عليَّ؟

قال عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ: عليٌّ.

وقالَ لعليّ: إن لم أبايعْك فمن تشيرُ عليَّ؟

قال عليّ رضيَ اللهُ عنهُ: عثمانُ.

ثم دعا الزُّبيرَ وكررَ معه القول نفسَه فقالَ: عليٌّ أو عثمانُ.

ثم دعا سعداً فقال: من تُشيرُ عليّ يا سعدُ؟ أمَّا أنا وأنتَ فلا نريدها.

فقالَ سعدٌ رضيَ اللهُ عنهُ: عثمانُ.

ثم استشارَ عبدُ الرحمنِ بن عوفٍ الأعيانَ من الرعيةِ فرأى هوى أكثرِهم في عثمانَ رضيَ اللهُ عنه[2].

وفي رواية أخرى: خلا الثلاثة عليٌّ وعثمانُ وعبدُ الرحمن ، فقالَ عبدُ الرحمنِ لعليٍّ وعثمانَ رضيَ اللهُ عنهما: أيكما تبرأ منْ هذا الأمرِ ونجعلهُ

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٦١).

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص (١٥٤).

إليهِ ، واللهُ عليهِ والإسلامُ لينظرنّ أفضلهم في نفسهِ وليحرصنَّ على إصلاحِ الأمة؟

فسكتَ عليٌّ وعثمانُ رضيَ اللهُ عنهما.

فقالَ عبدُ الرحمنِ: أفتجعلونَهُ إليَّ؟ وللهِ عليَّ أَن لا آلو عنْ أَفْضلكم؟

قالا: نعم.

فأخذَ بيد عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ: إنَّ لكَ القِدمَ والإسلامَ والقرابةَ ما قدْ علمتُ ، الله عليك ، لئن أمَّرتُكَ لتعدلَنَّ ، ولئنْ أمرتُ إليك لتسمعنَّ ولتطيعنَّ.

ثم خلا بعثمانَ فقال لهُ مثلَ ذلكَ.

فلما أخذَ الميثاقَ قال لعثمان: ارفعْ يدكَ ، فبايعهُ ، ثم بايعهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ ، ثم ولج أهل الدار فَبايعوهُ بعد أنْ بايعَهُ الستةُ أصحابُ الشورى[1].

وقد قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ لما بويعَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ: «أَمَّرنا خَيْرَ منْ بقي ولم نألُ».

ولما بويعَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ خرجَ إلى الناسِ فخطبهمْ فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ ثم قالَ: أيُّها النّاسُ إن أوّلَ مَرْكَبٍ صَعْبٌ ، وإن بعدَ اليوم أياماً وإن أعشْ تأتِكمُ الخطبةُ على وجهها ، وما كُنّا خطباءَ وسيعلِّمنا الله[2].

وكانتْ بيعةُ عثمانَ بنِ عفَّانَ رضيَ اللهُ عنهُ يومَ الإثنينِ لليلةٍ بقيتْ من ذي الحجةِ سنَة ثلاثٍ وعشرينَ من هجرةِ رسولِ اللهِ ﷺ فاستقبَل لخلافتهِ المحرمَ سنة أربعٍ وعشرينَ هجرية[3].

وفيْ أولِ أيام خلافتهِ في العامِ الأوّلِ وجَّهَ عبد الرحمن بن عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ للحجِّ بالناسِ نيابةً عنهُ.

---

(١) الرياض النضرة (٣/ ٥٣ ـ ٥٤).

(٢) انظر الطبقات الكبرى (٣/ ٦٢).

(٣) المصدر السابق.

واستمر عثمانُ في خلافتهِ اثنيْ عشرَ عاماً كانت السنواتُ الستُّ الأولى بمثابةِ سنواتِ خيرٍ ووفاقٍ بينَ المسلمينِ ، نعموا فيها بالأمنِ والاستقرارِ ، فقد اتسعت رقعةُ الدولةِ الإسلاميةِ ، وافتتحتْ تركيا ، وتوغلتْ جيوشُ المسلمينَ في خراسانَ ، وافتتحوا قُبْرُسَ ، فقد كانَ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ يلحُّ على عمرَ بنِ الخطابِ كي يغزوَ قبرسَ ، ومن الطريفِ أنَّ عمرَ كتب إلى عمرو بن العاصِ رضيَ اللهُ عنهما قائدَ جيش معاويةَ وقالَ لهُ: صِفْ لي البحرَ وراكبَهُ ، فكتبَ عمْرو بنُ العاصِ يقولُ:

إنِّي رأيتُ خلْقاً كبيراً يركَبُهُ خَلْقٌ صغيرٌ إن رَكَدَ خَرقَ القلوبَ ، وإن تحرَّكَ أَرَاعَ العقولَ ، تَزْدادُ فيهِ العقولُ قلَّةً؛ والسيئاتُ كثرةً ، وهمْ فيه كدودٍ على عودٍ!! إن مالَ غرقَ ، وإن نجا فرقَ[1]!!

فلما قرأَ عمرُ الكتابَ كتبَ إلى معاويةَ: واللهِ لا أحملُ فيه مسلماً أبداً.

ولمَّا تولَّى عثمانُ الخلافةَ سمحَ لمعاويةَ بغزوِ قبرسَ ، فأنشىء في عهدهِ أولُ أسطولٍ بحريٍّ ، وكان غزو مُعاويةَ لقبرسَ سنةَ سبعٍ وعشرين ، فركبَ البحرَ بالجيوشِ ، وكانَ معهمْ عُبادةُ بنُ الصامتِ وزوجتُه أُمُّ حَرامِ بنتُ ملحانَ الأنصاريةُ.

ويقول الإمام السيوطي في تاريخ الخلفاء[2]: وفي هذهِ السنةِ عزلَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ عمرَو بنَ العاصِ عن مصر ، وولَّى عليها عبدَ اللهِ بنَ سعدِ بن أبي السَّرْح ، فَغَزا إفريقيةَ فافتتحها سهلاً وجبلاً ، ثم فتحتِ الأندلسُ في هذا العامِ.

وتوالتْ انتصاراتُ المسلمينَ في البحرِ ، حتَّى أصبحت الدولةُ الإسلاميةُ دولةً بحريةً ، ففي سنةِ تسعٍ وعشرين فُتحتْ إصطخر عنوةً.

وفي هذا العامِ بالذاتِ زادَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ في مسجدِ رسولِ اللهِ

---

(١) تاريخ الخلفاء ص (١٥٥).

(٢) المصدر السابق.

بالمدينةِ وقامَ بعملِ توسعةٍ فيهِ ، فبناهُ بالحجارةِ المنقوشةِ ، وجعل أعمدتَهُ من حجارةٍ ، وسقفهُ بالساجِ.

وفي سنةِ ثلاثينَ فتحتْ بلادٌ كثيرةٌ أشهرها نيسابورُ ، ومروُ ، وبَيْهَقُ ، ولما فتحتْ هذهِ البلادُ كلُّها كثُرَ الخراجُ ، وجاءَ المالُ وفيراً إلى بيتِ المالِ؛ حتَّى اتخذ عثمان خزائنَ من أجلِ هذا ، وكان يأمر عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ للرجلِ بمئاتِ الألوف من الأموالِ.

وبدأت متاعبُ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ اعتباراً منْ هذا العامِ ، حيث اضطربَ أمرُ المسلمينَ؛ وقد كان عثمانُ رجلاً عطوفاً ليناً حَيياً يستَحي مِنَ النَّاسِ ، عطوفاً على أهلِه وذويهِ ، يعطِي لصلةِ الأرحامِ الاهتمامَ الكبيرَ.

## استشهادُ عثمان

لما وُليَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ كَرِهَ ولايتَهُ نفرٌ من الصحابَةِ ، لأنهُ كانَ يحبُّ قومَهُ كما ذكرنا آنفاً ، ويَرْوِي سعيدُ بنُ المسيبِ أحدُ فقهاءِ المدينةِ السبعةِ عنْ مقتلِ عثمانَ[1] فيقولُ:

ولي عثمانُ اثنتيْ عشرةَ سنةً ، وكانَ كثيراً ما يُولِّي بني أُميَّـةَ ممنْ لمْ يكنْ لهُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ صحبةٌ؛ فكان يجيءُ من أمرائِهِ ما ينكرُهُ أصحابُ محمدٍ ﷺ ، وكانَ عثمانُ رضِيَ اللهُ عنهُ يُسْتَعتَبُ فيهمْ فلا يَعْزلهم ، وذلِك في سنةِ خمسٍ وثلاثين.

ويضيفُ سعيدُ بنُ المسيبِ قائلاً:

فلما كانَ في السِّتِّ الأواخِرِ اسْتَأْثَرَ بني عمِّه فولاَّهمْ ، وما أشركَ معهمْ ، وأمرهمْ بتقوى اللهِ ، فَولَّى عبد الله بنَ أبي السَّرْح مصرَ ، فمكثَ عليها سنينَ ، فجاءَ أهلُ مصرَ يشكونَه ويتظلَّمونَ منهُ ، وقد كانَ قبلَ ذَلك من عثمانَ هناةٌ إلى عبدِ اللهِ بنِ مسعودِ وعمَّارِ بنِ ياسرِ وأبي ذرِّ الغفاريِّ.

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء ص (١٥٧).

وكان أبو ذرٍّ قدْ زارَ الشامَ ، وسمعَ كثيراً من الشكاياتِ على سياسةِ والي الشام معاويةَ بنِ أبي سفيانَ الأمويِّ ، من الناسِ ، فذهبَ إلى معاويةَ عاتباً ، ولما دخلَ عليهِ وجدَ الرفاهيةَ في مجلسِهِ فاشتدَّ بالنصيحةِ لهُ ، وقال: إنْ كنتَ اتخذتَهُ من مالِكَ فهو تبذيرٌ وإسرافٌ واللهُ لا يحبُّ المبذرينَ والمسرفينَ.

أرسلَ معاويةُ إلى عثمانَ رضيَ اللهُ عنهما يشكو منْ أبي ذرٍّ ويحرضُهُ عليهِ ، فدَعا عثمانُ أبا ذرٍّ وعنَّفهُ ونفاهُ إلى الرّبذةِ ، وفي الربذةِ مات أبو ذر رضيَ اللهُ عنهُ.

ويقولُ سعيدُ بنُ المسيبِ: وجاءَ أهلُ مصرَ يشكون من ابنِ أبي السرحِ ، فكتبَ إليهِ يتهددُهُ فيهِ ، فرفَضَ ابنُ أبي السرحِ أن يقبلَ ما نهاهُ عنهُ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ وضربَ بعضَ من أتاهُ من قِبَلِ عثمانَ من أهلِ مصرَ فقتلَ أحدَهُمْ.

فخرجَ منْ أهلِ مصرَ سبعمئةِ رجلٍ ، فنزلوا المسجدَ وشكوْا إلى الصحابةِ في مواقيتِ الصلاةِ ما صنعَ ابنُ أبي السرحِ بهِمْ ، فقامَ طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ فكلَّم عثمانَ رضيَ اللهُ عنهما كلاماً شديداً.

وأرسلتْ السيدةُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها إلى عثمانَ فقالتْ: تقدَّمَ إليكَ أصحابُ محمدٍ ﷺ وسألوكَ عَزْلَ هذا الرَّجُلِ فأَبَيْتَ؟ وقد قتلَ منهمْ رجلاً فأنصِفْهُمْ منْ عامِلِكَ.

ودخل عليهِ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ فقالَ: إنما يسألونَكَ رجلاً مكانَ رجلٍ ، وقد ادَّعوا قبلهُ دماً ، فاعزلْه عنهمْ ، واقضِ بينهم ، فإنْ وَجَبَ عليهِ حقٌّ فأنصِفْهمْ مِنْهُ.

فقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ لهمْ: اختاروا رَجُلاً أولِّيهِ عليكمْ مكانَهُ.

فأشارَ النَّاسُ عليه بمحمدِ بنِ أبي بكرٍ ، فكتَبَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ عهداً وولاهُ ، وخرجَ معهمْ عددٌ منَ المهاجرينَ والأنصارِ ينظرونَ فيما بينَ أهلِ مصرَ وابن أبي السرحِ.

فخرجَ محمدُ بنُ أبي بكرٍ ومَنْ معه ، فلما كانَ على مسيرةِ ثلاثةِ أيامٍ من المدينةِ إذ همْ بغلامٍ أسوَدَ على بعيرٍ يخبطُ البعيرَ خبطاً كأنه رجل يَطْلُبُ أو يُطْلَبُ.

فقالَ لهُ أهلُ مصرَ ومعهم محمدُ بنُ أبي بكرٍ: ما قصتُكَ وما شأنُكَ؟ كأنَّكَ هاربٌ أو طالبٌ!!

فقالَ لهمْ: أنا غُلامُ أميرِ المؤمنينَ ، وجَّهني إلى عاملِ مصرَ!!

فقال له رجلٌ: هذا عاملُ مصرَ ، يقصِدُ مُحَمد بن أبي بكرٍ.

قال الغلامُ: ليسَ هذا أُريدُ. وأُخبِرَ بأمرِهِ محمدُ بنُ أبي بكرٍ.

فلما جاءَ إليه قالَ لهُ: غلامُ من أنتَ؟

فقالَ: أنا غلامُ أميرِ المؤمنينَ ، ومرةً يقولُ: أنا غلامُ مروانَ بنِ الحكمِ ، حتى عرفه رجلُ أنّه لعثمانَ. فقال له محمدُ بن أبي بكرٍ: إلى من أُرْسِلْتَ؟ قال: إلى عاملِ مصرَ[1].

وقاموا بتفتيشهِ وحصلوا معهُ على رسالةِ ، ففضّها محمدُ بنُ أبي بكرٍ أمامَ منْ كانَ معهُ مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ وغيرهمْ ، فإذا فيه ما يلي: «إذا أتاك محمدٌ وفلانٌ وفلانٌ فاحتلْ في قتلهمْ!!.

وأبْطل كِتابهُ، وقرَّ على عَملِكَ حتى يأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله تعالى».

عاد الرجالُ إلى المدينةِ على الفورِ وهمْ في فزعٍ شديد ، وقدموا الكتابَ إلى عددٍ منَ الصحَابَةِ طلحةَ ، والزبيرِ وعليٍّ وسعدٍ ، فلما قُرِىءَ الكتاب على ملأٍ منَ الناسِ ، ثارَ غضب أهلِ المدينةِ ، وقامَ أصحابُ الرسولِ إلى بيوتهمْ وقد أصابهمْ حزنٌ شديدٌ.

ودخلَ عليٌّ ومعهُ الكتابُ إلى عثمانَ رضيَ اللهُ عنهما ، والغلامُ أيضاً فقال عليٌّ: هذا الغلامُ غلامُكَ؟

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٥٨.

قال عثمانُ: نعمْ!

قال عليٌّ: والبعير بعيرُكَ؟

قال عثمانُ: نعمْ!

قال عليٌّ: أأنت كتبتَ هذا الكتابَ؟

قال عثمان: لا، وأقسمَ باللهِ ما كتبتُ هذا الكتابَ. ولا أمرْتُ به، ولا عِلْمَ لي بهِ، ولا وجَّهتُ هذا الغلامَ إلى مصرَ قطُّ.

وعرفَ الناسُ أنَّ الخطَّ هوَ خطُّ مروانَ بنِ الحكمِ، فطلبوا مِنْ عثمانَ أن يسلمَهم مروانَ بنَ الحكمِ فأبى، وكانَ مروان عنده في الدار، فخرجوا منْ عندهِ وقد تملكهم الغضبُ.

ـ وعلمَ الناسُ أنَّ عثمانَ لا يحلفُ بباطلٍ أبداً، وحاصرَ الناسُ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ، وأنذروه إن لمْ يسلمْ لهمْ مروانَ بنَ الحكمِ أن يتحملْ نتيجةَ ما حدثَ، فرفضَ تسليمَهُ إليهم رأفةً بهِ، فاقتحمَ القومُ عليهِ دارَهُ، وكان جالساً يقرأُ في كتابِ اللهِ، والفتنةُ أشعلها نَفَرٌ أشرار، فحركتْ في نفوسهمُ البغيَ والقتلَ، وقُتلَ عثمانُ وسالت الدماءُ الزكيَّةُ على جسدهِ، وسقطتْ على صفحاتِ الكتابِ، وصعدتِ الروحُ الزكيَّةُ إلى بارئها.

وكانَ مقتلُ عثمانَ بدايةَ نكبةٍ وفتنةٍ استمرتْ زمناً طويلاً، قبلَ أن يُكبحَ جماحُها.

وتحضِرني الآنَ كلماتُ رسولِ اللهِ ﷺ. «ما ضرَّ عثمانَ ما فَعَلَ بعدَ اليومِ».

وتحضرني الآياتُ الكريمةُ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ٩].

وقولُه عزَّ وجلَّ:

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨].

ويحضرني أيضاً قولُ عبدِ اللهِ بنِ عمَر عندمَا سمعَ الآيةَ الكريمةَ:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

يومَها قال عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما: إنَّهُ عثمانُ رضيَ اللهُ عنه وأرضاهُ.

وقد قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ عثمانَ: أنَا وطلحةُ وعثمانُ والزُّبيرُ كما قال اللهُ تعالى:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

ويقفُ يوماً في الكوفةِ قائلاً: لعنَ الله قتلةَ عثمانَ. عثمانُ من الذين آمنوا، ثم قرأَ عليٌّ:

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ [المائدة: ٩٣][1].

رحم اللهُ عثمانَ، ما ضرَّهُ ما فعلَ هؤلاءِ فإنَّهُ في الجنةِ مع الصدِّيقينَ والشهداءِ رضيَ الله عنهمْ ورضوا عنهُ.

* * *

---

(١) الرياض النضرة (٣/٤٨).

# (٤)
# علي بن أبي طالب

قال تعالى في سورة الإنسان:

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾.

## في البدء كلمات

عليُّ بنُ أبي طالبٍ، رضيَ اللهُ عنهُ، صِهرُ رسولِ اللهِ ﷺ. زوجُ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها. أصغرُ الرِّجالِ إسلاماً، وأسبقهُمْ إلى الإسلامِ.

عالمٌ ربانيٌّ، وشجاعٌ مشهورٌ، وزاهدٌ مذكورٌ، وخطيبٌ معروفٌ بفصاحتِه وحُسْنِ بيانهِ.

أَحدُ العشرةِ المشهودِ لهمْ بالْجَنَّةِ، أخو رسولِ اللهِ ﷺ بالمؤاخاةِ، كانَ واحداً مِمَّنْ جمعوا القرآنَ، لم يَعْبدِ الأصنامَ قَطُّ، كريماً جواداً، يطعمُ الطعامَ على حبِّهِ.

ومِنْ مَعينِ الآياتِ الكريمةِ الَّتي صدَّرْنا بها هذِه السيرة العطرة نهل عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ القدوة الطيبة فأطعم الطعام على حُبِّه، وجعل توجيه القرآن الكريم نوراً يستضيء به ونهجاً ينتهجه، فقدْ حدَثَ أَنْ مرِضَ الْحَسَنُ والحسينُ رضيَ اللهُ عنهما، ابنا عليٍّ وفاطمَة رضيَ اللهُ عنهما، فشقَّ ذلك على الأبِ والأمِّ، ونذرا للرحمنِ صوْماً، نعمْ نَذرَا صوم ثلاثةِ أيامٍ.

ولما شفاهما اللهُ عزَّ وجلَّ، وفَّيا بنذرِهمَا، وما كانَ في دارِهما سوى طعام اليوم الأولِ، فمرَّ بهما في اليوم الأولِ مسكينٌ فحملاَ عَشاءَهما وأعطياهُ للمسكينِ، وفي اليومِ الثاني مرَّ بهما يتيمٌ، فكانَ لهُ عشاؤهما

أيضاً ، واقتصرَ طعامُهما على الماء طوالَ فترةِ الصيامِ ، حيث يؤثرونَ المحتاجَ على أنفسِهمْ.

هكذا كان عليُّ بنُ أبي طالبِ وزوجُهُ بنتُ رسولِ اللهِ ﷺ ، يُطعمونَ الطعامَ على حُبِّهِ ، مسكيناً ، ويتيماً وأسيراً ، حبّاً في اللهِ ، يخافونَ مشهدَ يوم عظيمٍ ، إِنَّهُ يومُ الحسابِ ، فَوُضِعَتْ تلك الأعمال الصالحة في ميزانهماً فَوقوا أَنفسَهمْ من النار ، فوقاهمُ اللهُ شرَّ ذلكَ اليومِ ، وجزاهمُ اللهُ بما صبروا جَنَّةً وحريراً.

كانَ هذا المشهدُ هو اختيارنا للدخول في هذهِ السيرةِ العطرةِ ، والدعوةِ الطيبةِ ، فإلى مشاهد سيرةِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ نَنْطَلِقُ في رحلةٍ طيبةٍ لها شذاها العبق.

## بطاقة تعريف

نشأ علي بن أبي طالب في بيتٍ فقيرٍ ، تربَّى رضيَ اللهُ عنهُ في حجرِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وقدْ سبقهُ رسولُ اللهِ عندما نشأ في بيتِ أبيه أبي طالبِ ، وكانتْ فاطمةُ بِنْتُ أَسَدِ بنِ هاشمٍ زَوجةُ أبي طالبِ بمثابةِ الأمِّ لرسولِ اللهِ ﷺ، فطالما ناداها عليه الصلاة والسلامُ بقولِهِ: يا أُمَّاهُ!.

وإذا عرّجنا على المصادرِ لنوثقَ تعريفَنَا بالإمام رضيَ اللهُ عنهُ نجدها تُجمعُ على تعريفِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ فتَقولُ:

عليُّ بنُ أبي طالبِ رضيَ اللهُ عنه ، واسم أبي طالبٍ عبدُ منافِ بنِ عبدِ المطلبِ ، واسمهُ شيبةُ بنُ هاشم ، واسمهُ عمْرو بنُ عبدِ منافٍ ، واسمهُ المغيرةُ بنُ قصيّ ، واسمهُ زيدُ بْن كلابِ بنُ مرَّةَ بن كعبِ بن لؤيٍّ بن غالبِ بن فهرِ بن مالِك بن نَضْر بن كنانةَ.

كنيته أبو الحسنِ ، وأبو ترابٍ ، كنَّاهُ بهما النبيُّ ﷺ ، وأُمهُ فاطمةُ بنتُ

أسدِ بن هاشمٍ ، وهيَ أوّلَ هاشميّةٍ ولدتْ هاشمياً ، وقد أسلمتْ وهاجرتْ[1] .

أَحدُ العشرةِ المشهودِ لهمْ بالجنةِ ، وأخو رسولِ اللهِ ﷺ بالمؤاخاةِ ، وصهرهُ على فاطمةَ سيدةِ نساءِ العالمين ، رضيَ اللهُ عنها .

وقد وُلِدَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ في جوفِ الكعبة في السنةِ الثانيةِ والثلاثينَ من ميلادِ رسولِ اللهِ ﷺ .

كان أبوهُ أبو طالبٍ منْ أكبرِ زعماءِ قبيلةِ قريشٍ ، ولهُ فضل في كفِّ أذى قومه منْ قبيلةِ قريشٍ عن النبيِّ ﷺ ، عندما كانتْ دعوتُهُ ما تزال تحبو في المهد .

وكان أبو طالبٍ رجلاً فقيراً ، كثيرَ العيالِ ، ضيِّق الحالِ ، ممَّا جعلَ رسولَ اللهِ ﷺ يضمّ علياً إلى دارهِ ، ويقومُ على تربيتهِ فتربَّى عليٌّ في حجْرِهِ ، ولازمهُ حتى بعثَهُ اللهُ بالرسالةِ .

## صفتــه

«كان عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ أسمرَ اللونِ ، أصلعَ الرأسِ ، ليسَ في رأسهِ شعرٌ إلاَّ منْ خلفهِ ، أبيضَ شعرِ الرأسِ واللحيةِ ، كثيف شعرِ اللحيةِ جداً ، قد ملأتْ ما بينَ مَنْكبيهِ ، بيضاء كأنَّها قُطْنٌ ، آدمَ شديدَ الأُدْمةِ ، أدعجَ العينينِ ، ضخمَ البطنِ ، شديدَ الساعِدِ واليد ، خشنَ الكفينِ ، ربعةً من الرجالِ ، ليسَ بالطويلِ ولا بالقصيرِ ، حسنَ الوجهِ ، ضحوكَ السنِّ ، إذا مشى تكفَّأَ ، وإذا أمسَكَ بذراع رجلٍ أمسكَ بنفسِه فلمْ يستطعْ أَن يتنفَّسَ»[2] .

---

(1) «تاريخ الخلفاء» ص ١٦٦ ، والرياض النضرة (٣/ ١٠٤) ، طبقات ابن سعد (٣/ ١٩). وقد كناه الرسول «أبو تراب» عندما ذهب ذات يوم غاضباً ، وقد غاضب فاطمة رضي الله عنها ، فجاءه عليه الصلاة والسلام ، وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول: «اجلس أبا تراب» «البخاري في الأدب».

(2) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٦ ـ ٢٧) ، وتاريخ الخلفاء ص ١٦٧ .

هذه صفات عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ التي أجمعَ عليها الرّواةُ منْ أَلْسِنةِ منْ عاصروهُ ووصفوهُ في مواضعَ كثيرةٍ.

## إسـلامـهُ

لم يعبدْ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ الأوثانَ قَطُّ لصغرِ سنهِ، وقد رُويَ عنهُ قولُهُ: بُعِثَ رسولُ اللهِ ﷺ يومَ الإثنينِ وأسلمتُ يومَ الثلاثاءِ، وكان عمرُهُ يومَ أسلمَ عشرَ سنينَ، وقيلَ تسع، وقيلَ ثمانٍ[١].

وقد دخلَ عليّ رضيَ اللهُ عنهُ على رسولِ اللهِ ﷺ ومعهُ زوجتُهُ خديجةُ رضيَ اللهُ عنها، فوجدهمَا يصليانِ فقال: ما هذا؟

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «هذا دِينُ اللهِ الَّذي اصْطَفاهُ لنَفْسِهِ وبعثَ بِهِ رسلَهُ، فأدعوكَ إلى اللهِ وحدهُ لا شَريكَ لهُ، وإلى عبادتِهِ»[٢].

أَسْلَمَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ وأَخفى إسلامَهُ عن كلِّ منْ حَوْلَهُ، وكثيراً ما خرجَ مع رسولِ اللهِ ﷺ إلى شِعابِ مكَّةَ مستخفياً من قريشٍ، فيصلِّي معَ رسولِ اللهِ، وفي المساءِ يعودان إلى مكَّةَ.

وقد علمَ أبو طالب بإسلامهِ فقال لهُ: ما هذا الدِّينُ الَّذي أنتَ عليهِ يا بنيّ؟ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ: آمنتُ بما جاءَ بهِ محمدٌ ﷺ آمنتُ باللهِ ورسولهِ، وصلَّيتُ معَ محمدٍ للهِ واتبعتهُ.

فلمَ يعترضْ أبو طالبٍ على إسلام عليٍّ وتركهُ وشأنهُ؛ وقد ذُكِرَ أنَّ أبا طالبٍ رأى النبيَّ ﷺ وعلياً يصليانِ، وكان عَليٌّ على يمينِ النبيِّ ﷺ، فجاءَ ابنُهُ جعفرُ فقالَ لهُ: صِل جناحَ ابنِ عمكَ؟ فصلَّى عنْ يسارهِ، وكان إسلامُ جعفرَ بعدَ عليٍّ بقليلٍ رضيَ اللهُ عنهمَا[٣].

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٦.

(٢) السيرة الحلبية (١/ ٤٣٣).

(٣) المصدر السابق.

مكث عليٌّ يتأمَّلُ في صُنْع الخالقِ ، ويشاركُ ابنَ عمهِ ﷺ الصَّلاةَ وهو صبيٌّ صغيرٌ لم يبلغِ الحلمَ بعدُ ، وشهدَ بداياتِ الدعوةِ بعد أن دعاهُ النبي محمدٌ ﷺ إلى الإسلام فأجابَ ، وتلا عليه ما تيسَّرَ منَ القرآنِ ، فأُخِذَ عليٌّ عنْ نفسِهِ ، وسَحَره جمَالُ الآياتِ وإعجازُها ، ولما استمهلَ عليٌّ الرسولَ ﷺ حتى يشاورَ أباهُ ، قضى ليلَهُ مضطرباً حتى إذا أصبحَ أعلنَ إلى محمدٍ ومعهُ خديجةُ أنهُ اتبعهما مِنْ غيرِ حاجةٍ لرأيِ أبي طالبٍ ، وقال: لقد خلقني اللهُ من غير أَن يشاورَ أبا طالبٍ ، فما حاجتي أَنا إلى مشاورتِه لأعبدَ الله؟ .

وكذلك كان عليٌّ أوّلَ صبيٍّ أسلَمَ ، ومِنْ بعده أسلم زيدُ بنُ حارثَة مولى النبيِّ ﷺ وبقيَ الإسلامُ محصوراً في بيتِ الرسولِ ﷺ ، هو عليه الصلاة والسلامُ وزوجتهُ خديجةُ وابنُ عمّهِ عليٌّ ومولاهُ زيدٌ رضيَ اللهُ عنهمْ.

وشهدَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ الرسولَ ﷺ وهوَ ينذرُ عشيرتَهُ الأقربينَ.

فقد نزلَ قولُ اللهِ سبحانه في سورة الشعراء:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

ودعا محمدٌ ﷺ عشيرتَهُ إلى طعامٍ في بيتهِ ، وحاول عليه الصلاة والسلامُ أَنْ يتحدَّثَ إليهمْ داعياً إياهمْ إلى اللهِ ، فقطعَ عمهُ أبو لهبٍ حديثَهُ واستنفرَ القومَ ليقوموا ، ودعاهمْ محمدٌ في الغداةِ كرَّةً أخرى ، فلما طعموا قال لهمْ: ما أعلمُ إنساناً من العربِ جاءَ قومَهُ بأفضلَ مما جئتُكم بهِ ، قد جئتكمْ بخيرِ الدنيا والآخرةِ ، وقد أمرني ربِّي أَنْ أدعوكمْ إليهِ. فأيُّكمْ يُؤازرُني على هذا الأمرِ؟ فأعرضوا عنهُ وهمُّوا بتركهِ ، لكنَّ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ نهضَ واقفاً وهو ما يزال صبيّاً دون الحلمِ. وقالَ: «أَنا يا رسولَ اللهِ عونُكَ. أَنا حربٌ على مَنْ حاربتَ»[1] .

---

(١) حياة محمد د. هيكل ص ١٥٨ .

فابتسمَ بنو هاشمٍ وقهقه بَعضُهمْ ، وجعل نظرهُم ينتقلُ من أبي طالبٍ إلى ابنهِ ، ثم انصرفوا مستهزئينَ.

## مع الرسول في مكة

ولما انتقلَ النبي محمدٌ ﷺ بعدَ ذلكَ بدعوتهِ من عشيرتهِ الأقربينَ إلى أهلِ مكةَ جميعاً ، صَعِدَ عليهِ الصلاة والسلامُ الصفا يوماً ونادَى: يا معشرَ قريشٍ.

قالت قريشٌ: محمّدٌ على الصفا يهتفُ ، وأقبلوا عليهِ يسألونهُ ما لهُ؟

قال عليهِ الصلاة والسلامُ: أرأيتمْ لو أخبرتكمْ أَنَّ خيلاً بسفحِ هذا الجبلِ ، أكنتمْ تصدقون؟

قالوا: نعمْ! أنتَ عندنَا غيرُ متَّهمٍ وما جرَّبنا عليكَ كذباً قطُّ.

قالَ: فإنِّي نذيرٌ بينَ يدي عذاب شديد ، يا بني عبدِ المطلبِ ، يا بني عبدِ منافٍ ، يا بني زُهرةَ ، يا بني تيم ، يا بني مخزومٍ ، يا بني أَسَدٍ إنَّ اللهَ أمرني أن أُنْذر عشيرتك الأقربين ، وإني لا أملكُ لكُم مِنَ الدنيا منفعةً ولا مِنَ الآخرةِ نصيباً إلاّ أنْ تقولوا: لا إلَهَ إلا اللهُ.

فنهض أبو لهبٍ ، وكان رجُلاً بديناً سريعَ الغضبِ ، فصاح: «تبّاً لك سائرَ هذا اليومِ! ألِهذا جمعتَنا؟!»(١).

عندَ ذلكَ نظر محمدٌ إلى عمهِ أبي لهبٍ ، وقد تضايق من هذا الردِّ الفظِّ. ثم لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى نزل قولُ اللهِ تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [سورة المسد].

بعد هذا الموقفِ أخذتْ قريشٌ تبحثُ عنْ أيِّ سلاحٍ تحاربُ بهِ الدعوةَ وَتَتَفَنَّنُ في إيذاءِ محمّدٍ ﷺ وأصحابهِ الكرامِ كي تثنيَهمْ عنْ هذهِ الدَّعوةِ

---

(١) السيرة لابن هشام.

المباركةِ وتصدَّهمْ عن دينِ اللهِ ، ليتفرقَ جمعهمُ ويبتعدوا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ، ولكن اللهَ لا بدَّ ناصرٌ عبدَهُ والذينَ اتبعوهُ فسبقوا إلى الإسلامِ ، وصدقوا ما عاهدوا اللهَ عليهِ.

وكلما ازدادَ ضغطُ قريشٍ على أصحابِ محمدٍ ﷺ ازدادتْ عقيدتُهمْ وقويَ إيمانهمْ ، وتمسكوا بدعوتهِ الساميةِ الشريفةِ ، والتفُّوا حولَهُ ، وازدادَ عددُهم يوماً بعدَ يومٍ وساعةً بعد ساعةٍ.

عندئذٍ فقدتْ قريشٌ الحيلةَ ، وافتقدت الوسيلةَ التي تصدُّ بها دعوةَ محمدٍ ﷺ وأصحابهِ الكرام ، فكان اجتماعُ دارِ الندوةِ ، الذي كان نتيجة طبيعيةً للتطور السريع في الأحداثِ ، فقدْ بنى محمدٌ ﷺ مع أهلِ المدينةِ من الأوسِ والخزرجِ علاقةً متينةً وجعلَ الإسلامَ يغزو القلوبَ ، وأنشأ سفارةً على رأسها خيرُ سندٍ وهو مصعبُ بنُ عميرٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

لذلكِ أمرَ أصحابَهُ بالهجرة إلى يثربَ ليلحقوا بإخوانهمْ هناكَ من أهلِ المدينةِ أنصارهِ رضوانُ اللهِ عليهمْ ، على أن يتركوا مكةَ متفرِّقينَ حتى لا يثيروا ثائرةَ قريشٍ عليهمْ.

وبدأَ المسلمونُ يهاجرون فرَادَى أو نفراً قليلاً ، لكن قريشاً فطِنتْ للأمر؛ فحاولتْ أَن تردَّ كلَّ ما استطاعت ردَّه إلى مكةَ لتفتنه عن دينهِ ، أو لتعذِّبهُ وتنكِّلَ بهِ ، وقد بلغتْ منْ ذلك أنها كانتْ تحولُ بينَ الزوجِ وزوجهِ إذا كانتْ المرأةُ من قريشٍ فلا تدعها تسيرُ معهُ.

ورغمَ كلِّ هذا؛ فقد تتابعتْ هجرةُ المسلمينَ إلى يثربَ ومحمدٌ مقيمٌ حيث هوَ ، لا يعرفُ أحدٌ هل اعتزمَ الإقامَةَ أَم قرَر الهجرةَ ، وما كانتْ قريشٌ لتعرفَ وقد أذنَ لأصحابهِ في الهجرةِ إلى الحبشةِ من قبلُ ، وظلَّ هوَ بمكةَ يدعو سائر أهلها إلى الإسلامِ ، وبلغَ من ذلك أَنَّ أبا بكرٍ استأذنَه في الهجرةِ إلى يثربَ فقال لهُ: «لا تعجلْ لعلَّ اللهَ يجعلَ لكَ صاحباً».

ولم يزد الرسولُ على ذلكَ ، واكتفى بهذهِ الكلماتِ الهادئةِ الراجية الأمر مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

كل هذهِ الأحداثِ وعليُّ بنُ أبي طالبٍ ، رضيَ اللهُ عنه يقفُ إلى جوارِ ابنِ عمهِ ﷺ ، فقد ماتَ أبوهُ أبو طالب فأصابهُ ورسولَ اللهِ الجزع والحزن ، وماتتْ خديجةُ ، واشتد الأذى بكل أنواعهِ وصنوفهِ.

وقد كانتْ قريش تحسبُ لهجرةِ النَّبيِّ إلى يثربَ ألفَ حسابٍ ، فقد انتشرَ الإسلامُ في المدينةِ وكثُر المسلمونَ كثرةً جعلتهمْ يكادونَ يكونونَ أصحابَ اليدِ العليَا.

وهاهم المهاجرون من مكةَ ينضمونَ إليهمْ فيزيدونهم قوَّةً؛ فإذا لحقَ الرسولُ بهمْ وهوَ على ما يعرفونَ من ثباتٍ وحسنِ رأي وبعدِ نظرٍ ، خشوْا على أنفسهمْ أن يَدْهَمَ «اليثربيونَ» مكة أو يقطعوا عليها طريقَ تجارتهمْ إلى الشامِ وأن يجوّعوها كما حاولوا همْ منْ قبلُ أنْ يجوعوا محمداً وأصحابَهُ حينَ وضعوا الصحيفةَ بمقاطعتهمْ وأكرهوهمْ على أنْ يلزموا الشِّعبَ ، وأنْ يقضوا فيه قرابةَ الثلاثينَ شهراً[1].

وإذا بقيَ عليه الصلاة والسلامُ في مكةَ ، فإنّ قريشاً معرضةٌ للتهديد من جانبِ اليثربيينَ دفاعاً عن نبيهمْ ورسولِهِ ، فلم يبْقَ أمامهم إلاَّ أنْ يقتلوهُ ليستريحوا منْ كلِّ هذهِ المخاوفِ ، ولكنهمْ إن قتلوهُ لنْ يسكتَ عن دمِهِ بنو هاشمٍ وبنو المطلبِ.

واجتمعَ القومُ في دارِ النَّدوةِ ليتدارسوا الأمرَ منْ كلِّ جانبٍ فمنهم منْ قالَ: احبسوهُ وقيدوهُ بالسلاسل وأغلقوا عليهِ باباً وننتهيَ منَ الأمرِ كلِّهِ!!

وقالَ آخرُ: نخرجُه بينِ أظهرِنَا ، وننفيه من بلادنَا ثم لا نبالي بعدَ ذلك مِنْ أمرهِ شيئاً. ولكنَّ هَذا الرأيَ وما سبقهُ لم يلقَ أذناً صاغية.

وانتهوْا إلى أنْ يأخذوا مِنْ كلِّ قبيلة شاباً قوياً ، وأن يعُطوا كلَّ فتىً سيفاً بتّاراً ، فيضربوهُ جميعاً ضربةَ رجلٍ واحدٍ ، فيتفرَّقَ دمهُ بينَ القبائل. وقد بلغَ مُحمداً نبأ ما بيتتْ قريشٌ لقتلهِ مخافةَ هجرتهِ ، وقد أحاطَ ﷺ نبأ هجرتِهِ

(١) حياة محمد ـ د. هيكل.

بكتمانٍ لم يجعلْ لأحدٍ إلى سرّهِ سبيلاً ، حتى أبو بكرٍ الذي علمَ عندَ بدءِ الرحلة منْ وراءِ شجرةٍ تقعُ إلى جوارِ بيتِهِ.

أعدَّ أبو بكرٍ راحلتيهِ ، ودفعهما إلى عبدِ الله بن أريقط يرعاهمَا لموعدِ الهجرةِ ، فلما اعتزمَ الرسولُ وصاحبُهُ مغادرةَ مكةَ ، أسرَّ الرسولُ ﷺ إلى عليِّ بنِ أبي طالبٍ أَنْ يتسجّى بُرْدَهُ الحضرَميَّ الأَخضرَ ، وأن ينامَ في فراشهِ ، وأمره أَن يتخلّفَ بعدهُ بمكةَ حتى يؤدِّيَ عنهُ الودائعَ التي كانتْ عندهُ للنّاسِ[1].

وجعل لهؤلاءِ الفتية مكاناً ينظرونَ منْ فُرجَةٍ إلى مكانَ نومهِ ، فيرونَ في الفراشِ رجلاً وهوَ الفدائيُّ المخلصُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ فتطمئنُّ نفوسهمْ إلى أنهُ لم يفرّ ، وخرجَ النبيُّ ﷺ ، حتى لحقَ بالغارِ ، فلما اقتحمَ الفتيةُ المتآمرونَ البيتَ في السحرِ ، وكادوا يضربون علياً ، رفعوا الغطاءَ فوجدوا عليّاً ، أَصابتهمْ خيبةٌ شديدةٌ ، لم تكنْ في الحسبانِ أبداً.

وسألوا علياً رضيَ اللهُ عنهُ عن النبيِّ فقال: لا علمَ لي بهِ.

فعلموا عندَ ذلكَ أنَّهُ خرجَ ، فركبوا في كلِّ وجهٍ يطلبونهُ ، وبعثوا إلى أهلِ الصحراء يأمرونهمْ ويجعلونَ لهمْ الجُعْلَ العظيم الوفيرَ من المالِ والحلالِ ، وقد تحدثَ القرآنُ عن هذا الموقفِ في سورةِ الأنفالِ فقال عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾.

ومضى رسولُ اللهِ إلى المدينةِ ترعاهُ عنايةُ ربِّهِ ، وتحفُّ بهِ رحمتُهُ ، فلم تستطعْ عيونُ قريشٍ أن تراهُ وهوَ أمامها ، ولم يلحقْ بهِ فُرْسانُها ، وإن لحقتْ بهِ لم تنلْ منهُ أبداً.

واستعدَّ عليٌّ للحاقِ برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابه منَ المهاجرينَ والأنصارِ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١٢٦/٢).

والذينَ اتبعوهمْ مِن قبائِل العربِ في المدينةِ.

## هجـرتـه

ونتركُ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ يتحدثُ عنْ هجرتهِ فيقولُ:

لما خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينةِ في الهجرةِ أمرني أَن أُقيم بَعْدَهُ حتى أُؤدِي ودائعَ كانتْ عندَهُ للناسِ؛ وكذا كانَ؛ ولذا كانَ يسمى الأمينَ، فأَقمتُ ثلاثاً، فَكُنْتُ أظهرُ ما تغيبتُ يوماً واحِداً. ثم خرجتُ فجعلتُ أتبع طريقَ رسولِ اللهِ ﷺ، حتى قدمتُ بني عمرو بنِ عوفٍ ورسولُ اللهِ ﷺ مقيمٌ؛ فنزلتُ على كلثومَ بنِ الهرمِ وهنالكَ منزلُ رسولِ اللهِ ﷺ(١).

لحق عليٌّ برسولِ اللهِ ﷺ، فلما آخى النَّبيُّ بينَ أصْحابهِ منَ المهاجرينَ والأنصارِ أخذ بيدِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ: «هذا أخي»، فصارَ هوَ والرسولُ ﷺ أخوينِ في اللهِ عزَّ وجلَّ.

وبدأتْ حياةُ الجهادِ في المدينةِ الَّتي كانتْ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ فيها مشاهدُ كثيرةٌ.

## يـوم بـدر

في رمضانَ من السنة الثانية مِن الهجرةِ علمَ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ أبا سفيان بنَ حربٍ مقبلٌ مِنَ الشام في عِيْرٍ عظيمةٍ لقريشٍ، فيها أموالٌ وتجارةٌ، فدعا النَّاسَ إليها وقالَ: «هذه عِيرٌ لقريشٍ فيها أموالُهم، فاخْرُجُوا إليها».

فأسرعَ الناسُ وأجابوا دعوةَ رسولِ اللهِ ﷺ، وكان أبو سفيانَ حينَ دنا مِنَ الحجازِ يتحسَّسُ الأخبارَ ويسألُ مَن لقِيَ من الرُّكْبَانِ؛ تَخوُّفاً على أموالِ قريشٍ، حتى أصابَ خبراً من بعضِ الناسِ؛ أَنَّ محمداً قد استنفرَ أصحابَهُ لهُ ولِعيرِه، فحذِرَ عندَ ذلك، واستأجرَ ضمضمَ بنَ عمرو الغِفَاريَّ، وبعثَهُ إلى

(١) طبقات ابن سعد.

مكةَ ، وأمرهُ أَن يأتيَ قريشاً فيستنفرهمْ إِلى أموالِهِمْ ، ويخبرهمْ أَنّ محمداً قد عرضَ لهُ في أصحابهِ ، فخرجَ ضمضمُ مسرعاً إِلى مكةَ.

وتجهزَ الكفارُ سراعاً للخروجِ وقالوا: أيظنُّ محمدٌ وأصحابهُ أنها عيرُ ابنِ الحضرميِّ[1] كلاَّ ليعلمنَّ غيرَ ذلكَ ، وخرجوا للقاءِ الرسولِ ﷺ وقتاله.

وخرج رسولُ الله ﷺ حتى نزلَ ماءَ بَدْرٍ ، وبدأتِ المناوشاتُ بخروجِ رجلٍ مِنَ الكفارِ شرسٍ سيِّيء الخلقِ هو الأسودُ بنُ عبدِ الأسدِ المخزوميُّ فقالَ: أعاهِدُ اللهَ لأشربنَّ منْ حوضهِمْ ، أو لأهدمنَّهُ ، أو لأموتَنَّ دونهُ.

ولما رآهُ المسلمونَ خرجَ إِليه حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ ، فلمَّا التقيا ضربَهُ حَمْزَةُ ضربةً قضتْ عليهِ فسقط في الحوضِ.

وكانتْ هذه البداية ليجيءَ دورُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ في هذا المشهدِ العظيمِ ، وجاءَ دورُ عليٍّ عندما خرجَ عتبةُ بنُ ربيعةَ بينَ أخيهِ شيبةَ وابنِه الوليدِ ، حتى إذا خرجَ من الصفِّ دعا إِلى المبارزةِ قائلاً: من يبارزُ؟ فخرجَ إِليه فتيةٌ ثلاثةٌ من الأنصارِ ، فقالَ: من أنتمْ؟

قالوا: رهطٌ مِنَ الأنصارِ.

قال: ما لنا بكمْ مِن حاجةٍ.

ثم نادى منادٍ مِنَ الكفار قائلاً: يا محمدُ أَخْرِجْ إِلينا أكفاءَنا مِن قومنا[2].

فقالَ رسولُ الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث ، قمْ يا عليُّ ، قمْ يا حمزةُ.

فلمَّا قاموا ودنوا منهم قالوا: من أنتمْ؟ قال عبيدةُ: أنا عُبيدةُ ، وقال

---

(١) سرية عبد الله بن جحش إلى بطن نخلة بين مكة والطائف ، وقد أمره الرسول بالخروج قائلاً في كتاب فتحه عبد الله بعد خروجه من المدينة قال فيه الرسول: «إذا نظرتَ كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة ، فترصد بها قريشاً ، وتَعَلَمْ لنا من أخبارهم» انظر: المغازي للواقدي (١/ ١٣ ـ ١٩).

(٢) رجعنا لمادة بدر إلى تاريخ الطبري (٢/ ٢٦٧). أحداث السنة الثانية من الهجرة.

حمزةُ: أَنا حمزةُ ، وقال عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ: أنا عليٌّ.

فقالوا: نعمْ أكفاءٌ كِرامٌ.

بارز عبيدةُ بنُ الحارثِ وكان أكبر القوم سناً ، بارزَ عتبةَ بنَ ربيعةَ ، أما حمزةُ فبارزَ شيبةَ بنَ ربيعةَ ، وبارز عليٌّ الوليدَ بن عتبةَ.

قضى حمزةُ على شيبةَ مِنْ فورهِ ، ولم يمهلْ عليٌّ الوليدَ بنَ عتبةَ فقتلهُ ، وأصابَ عبيدةُ كلٌّ منهما صاحبَهُ ، فكرَّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافهما على عتبةَ فأجهزا عليه ، واحتملا صاحبَهما عبيدةَ فجاءا بهِ إلى أصحابهِ ، فلما وصلوا بهِ عند رسولِ اللهِ قالَ: ألستُ شهيداً يا رسولَ الله؟ قال عليه الصلاة والسلامُ: بلى.

ومضى عليٌّ بينَ صفوفِ الشركِ يذودُ عنْ دينِ اللهِ بسيفهِ يضربُ يميناً ويساراً ، وينتصرُ لرسالةِ الإسلامِ ، حتى أفاءَ اللهُ على رسولهِ بالنصرِ ، فكانتْ فئةٌ قليلةٌ مؤمنةٌ غلبتْ فئةً كثيرةً كافرةً بأمرِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

وكانَ نصرُ بَدْرٍ هوَ بدايةَ انتصاراتٍ عظيمةٍ ومشاهدَ جهادٍ كبيرةٍ شاركَ فيها عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

## يوم الخندق(١)

وفي السنةِ الخامسةِ منَ هجرةِ رسولِ اللهِ ﷺ خرجَ نفرٌ من اليهودِ ، منهم: سلاَّمُ بنُ الحُقيقِ ، وحييُّ بنُ أخطبَ ، وكنانةُ بنُ الربيعِ ، وهَوْذةُ بنُ قيسٍ ، وأبو عمَّار الوائلي ، ومعهمْ نفرٌ من أهلهمْ وذويهمْ؛ خرجوا حتى قدموا على قريشٍ في مكةَ ، فدعوهمْ إلى حربِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ومن قريشٍ إلى غطفانَ خرجَ هؤلاءِ لدعوةِ قبيلةِ غطفانَ لمحاربة المسلمينَ أيضاً ، وحزَّبوا الأحزابَ ضدَّ رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) رجعنا إلى سيرة ابن هشام (٣/ ٢٣٠) وما بعدها ، وتاريخ الطبري ـ أحداث السنة الخامسة الهجرية.

ولما سمعَ الرسولُ ﷺ بذلكَ حفرَ الخندقَ حولَ المدينةِ ، وأقبل الأحزابُ؛ قريشٌ ومنْ تَحزَّبَ معها في عشرةِ آلافِ مقاتلٍ ويزيدُ ، وفُرِضَ حصارٌ حولَ المدينةِ ، بينما خرج الرَسولُ لمواجهةِ هذا الجيشِ الهائلِ ، وقد أصابَ المسلمين خوفٌ شديدٌ ، فقد أتاهم عدوهمْ من الأمامِ ، ومنَ الخلفِ حيثُ اليهودُ داخلَ المدينةِ ، وكثرَ نفاقُ المنافقينَ ، وأَقبلَ الكفارُ نحوَ الخندقِ ، وحاولوا اختراقَ الخندقِ من ثغرةٍ فيهِ؛ إلا أنّ عليّ بنَ أبي طالبٍ خرجَ في نفرٍ منَ المسلمينَ للتصدّي لهمْ ، فوقفَ عَمرو بنُ وُدٍّ وقالَ: مَن يبارز؟ ـ وكان فارساً معروفاً بفروسيتهِ وبطشهِ ـ برزَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ لعمروِ بنِ ودٍّ قائلاً: إني أدعوكَ إلى النزالِ.

قالَ عمروُ بنُ ودٍّ: ولِمَ يا بْنَ أخي؟ فواللهِ ما أُحب أن أقتلَكَ!!

قال عليٌّ: ولكنّي واللهِ أحبُّ أنْ أقتلَكَ!!

غضِبَ عمروُ بنُ ودٍّ عندَ ذلكَ ونزلَ عن فرسهِ ، وعَقَرهُ ، وأقبلَ عَلى عليٍّ فتنازلاَ وتجاولاَ ، فقتلَهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ.

وكانَ هذا المشهدُ ممَّا سَجَّلَهُ التاريخُ لبطلِ الإسلامِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

## يوم خيبَرَ

كانتْ خيبرُ مدينةً كبيرةً ذاتَ حصونٍ ومزارعَ ونخلٍ كثير ، بينها وبينَ المدينةِ الشريفةِ ثمانيةُ بُرُدٍ[1] «ومعلومٌ أنَّ البريدَ أربعةُ فراسخَ ، وكل فرسخٍ ثلاثةُ أميالٍ»[2].

وعنْ موقفِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ يومَ خيبرَ الذي كان أكبرَ معقلٍ لليهودِ في المدينةِ ، يقولُ بريدةُ الأسلميُّ في البخاريِّ:

---

(١) معجم البلدان (٣/ ٤٩٥).

(٢) السيرة الحلبية (٢/ ٧٢٦).

لما نَزَلَ رسولُ اللهِ بِحِصْنِ أَهْلِ خَيْبَرَ أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الراية عُمَرَ بنَ الْخَطَّابِ ، وَنَهَضَ مَعَهُ مَنْ نَهَضَ من الْمُسلمينَ ، فَلَقُوا أَهْلَ خَيْبَرَ فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لأُعْطِيَنَّ هذه الراية غداً رَجُلاً يفتح الله على يديه ، ويُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ».

فَلَمَّا كَانَ الْغدُ ، دَعَا عَلِيّاً ، وَهُوَ أَرْمَدُ ، فبصق في عينِهِ ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعْطَاهُ الراية ، ونَهَضَ النَّاسُ مَعَهُ ، فَلَقي أَهْلَ خَيْبَرَ[1] .

فلما وصلوا خيبرَ خرجَ ملكهم مرْحبُ يخطرُ بسيفهِ ويقولُ:

لَقَـــد عَلِمَـــتْ خَيْبَـــرُ أَنِّـــي مَـــرْحَـــبُ
شَـــاكـــي السِّـــلاَحِ بَطَـــلٌ مُجَـــرَّبُ
أَطْعَـــنُ أَحْيَـــانـــاً وَحِينـــاً أَضْـــرِبُ
إِذا الحـــــروب أَقبَلَـــــتْ تَلَهَّـــــبُ

فأجابهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ قائلاً :

أَنَـــا الَّـــذي سمَّتْنـــي أُمِّـــي حيـــدره
أكيلُكُـــم بـــالسَّيْـــفِ كَيْـــلَ السَّنْـــدَرَه
ليـــث بغـــابـــاتٍ شَـــديـــدٌ قَسْـــوره

فاختلف مَرحبٌ هو وعليٌّ ضربتينِ ، فضربَ عَلي هامته حتى عَضَّ السَّيفُ منها بأَضْراسِهِ ، وسمع النَّاسُ صوتَ ضَرْبَتِهِ.

وانطلقَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ والرجالُ خلفَهُ يقصدونَ بابَ الحصنِ ، فلقيَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ رجلاً على بابِ الحصنِ ، فضربَ الرجلُ عليّاً ، فاتقى عليٌّ الضربة بالتُّرسِ ، ثم تناولَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ باباً كان عندَ الحصنِ فترَّسَ بهِ عنْ نفسهِ ، فلم يَزَلْ في يدهِ حتَّى فتح اللهُ عليه الحصنَ ، وبعَثَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ رجلاً من أصحابهِ يبشرُ النبيّ ﷺ بفتحِ الحصنِ؛ حِصْنِ مَرْحَب ودخولِهم إيّاه.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٧٦).

ولما فتحَ اللهُ الحصنَ للمؤمنينَ ، ألقى عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ البابَ من يدهِ فاجتمعَ ثمانيةُ نفرٍ على ذلكَ البابِ ، فما استطاعوا أنْ يحرِّكوهُ من مكانهِ لثقلهِ!!

وقد وردَ في أقوالِ الرواةِ أَن الرسولَ ﷺ عندما أعطاهُ الرَّاية قال: «امشِ ولا تلتفتْ حتى يفتحَ اللهُ عليه» فسارَ عليٌّ قليلاً ثم وقفَ وقالَ: يا رسولَ اللهِ ، على ماذا أقاتلُ الناسَ ، قال: «قاتلهمْ حتَى يشهدوا أن لا إلَهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ ، فإذا فعلوا ذلكَ فقدْ منعوا منكَ دماءَهمْ وأموالهمْ إلا بحقِّها ، وحسابهم على اللهِ تعالى»[1].

## الـزواج الـمبـارك

وُلِدَت فاطمةُ بنتُ رسولِ اللهِ ﷺ وقريشٌ تبني البيتَ ، وذلكَ قبلَ النبوَّةِ بخمسِ سنينَ.

ولما كبرتْ وترعرعتْ خطبها أبو بكر إلى النَّبيِّ ﷺ. فقال عليه الصلاة والسَّلام: يا أبا بكرٍ انتظرْ بها القضاءَ ، فذكرَ ذلِكَ أبو بكرٍ لعُمَرَ ، فقال لهُ عُمَرُ: ردَّكَ يا أبا بكر.

فقالَ عمر بن الخطاب: أخطبُ فاطمةَ إلى النبيِّ ﷺ ، فخطبها ، فقالَ لهُ عليه الصلاة والسَّلامُ مثل ما قالَ لأبي بكرٍ: انتظر بها القَضَاءَ ، فجاء عُمر لأبي بكر فَأَخْبَرَهُ ، فقالَ لهُ: ردَّكَ يا عمرُ.

فجاءَ بعَضُ أهلِ عليٍّ ، وبعضُ الأنصارِ وقالوا لعليٍّ: اخْطُبْ فاطمةَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، فخطبها ، فقالَ عليه الصلاة والسلامُ: هي لَكَ يا عليُّ لستُ بدجّالٍ ، ـ يعني لستُ بكذَّابٍ ـ ، وذلك أنَّه قد كانَ وَعَدَ عَلِيّاً بها قَبْلَ أَن يَخْطُبَ إِليهِ أبو بكر وَعُمَرُ ، ولما خطبها عليٌّ قالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ

---

(١) التاج الجامع للأصول (٣/ ٢٩٤).

عَلِيّاً يَذْكُرُكِ ، فَسَكَتَتْ»[1] فَزَوَّجَها ، عليه الصلاة والسلامُ.

ولما تزوَّجَتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ جهزها رسولُ اللهِ ﷺ بخميلةٍ ووسادةٍ منْ أَدْمٍ حَشْوُهَا ليفٌ ، وَرَحْيَيْنِ وسقاءٍ وجرَّتينِ.

وعندما سألَ الرسولُ ﷺ عليّاً حينَ خطبَ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها: ما تصدقها؟

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ: ما عِندِي مَا أُصدقها.

قالَ عليهِ الصلاة والسلامُ: فأينَ درعكَ الحطميةَ التي كنتُ منحتكَ إيّاها؟

قالَ : عندي.

قالَ عليهِ الصلاة والسلامُ: اصدقها إياها.

فأصدقها عليٌّ وتزوَّجها وكان ثمنُ الدرعِ أربعةَ دراهمَ[2].

وقد أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ عائشةَ وأمَّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنها بتجهيز فاطمة ، فتحدثَتا عن ذلكَ فقالتا:

أَمَرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أنْ نجهِّزَ فاطمةَ حتَّى نُدْخِلَها عَلَى عَلِيٍّ ، فَعَمَدْنا إلى البيتِ فَفَرَشْناهُ تراباً لَيِّناً منْ أعْراضِ البَطْحَاءِ ، ثم حَشَوْنَا مِرْفَضَتَيْنِ لِيفاً ، فَنَفَشْناهُ بأَيْدينا ، ثُمَّ أطعمْنا ، تمراً وزبيباً وسقيْنا ماءً عذْباً ، وَعَمَدْنَا إلى عودٍ فَعَرَضْناهُ في جانب البيتِ لِيُلقَى عليه الثوبُ ، وَيُعَلَّقَ عَلَيْهِ السِّقَاءُ ، فما رأينا عُرْساً أَحْسَنَ من عُرْسِ فاطِمَةَ[3].

وتزوَّجَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها وهو في سنِّ الخامسةِ والعشرينَ تقريباً من عُمرهِ ، واختار لهما الرسولُ ﷺ منزلاً بجوار حجراته ، فكان جِواراً هنياً سعيداً.

---

(١) الطبقات (٨/ ١٩ ـ ٢٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٠).
(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩١١).

وقد أنجبَ عليٌّ منْ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها ذريةً طيبةً صالِحةً ، فقد رزقهما اللهُ الحسنَ والحسينَ ، وزينبَ وأُمَّ كلثومٍ.

وقد نالوا جميعاً حُبَّ رسولِ اللهِ ﷺ فهاهو رسولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَى عَلِيٍّ وفاطمةَ وَهمَا يضحكَان ، فَلَمَّا رَأَيَا النبيَّ ﷺ سَكَتَا ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبيُّ ﷺ: مَا لَكُما؟ كُنْتُمَا تضحَكَان فَلَمَّا رَأَيْتمَانِي سَكَتما! فبادرت فَاطِمَةُ فقالت: يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ هٰذَا (مشيرَةً إلى عَلِيٍّ): أَنا أَحَبُّ إلى رسولِ اللهِ مِنْك ، فَقُلْتُ: بَلْ أَنا أَحَبُّ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْك ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «يا بُنَيَّةَ لكِ رِقَّةُ الْوَلَدِ ، وَعَلِيٌّ أَعزُّ عَليَّ مِنْكِ»(١).

## مـواقـف عـظيمـة

### مع القرآن:

كان الإمامُ قريباً من قَلبِ رسولِ اللهِ ﷺ ، قريباً من مجلسهِ ، فكلما نزلتْ آيةٌ من القرآنِ حفظها عليٌّ ، وقد عبَّرَ عنْ هذا الشيء بقولهِ: واللهِ ، ما نزلت آيةٌ إلاَّ وقد عَلِمْتُ فيما نزلتْ وأينَ نزلَتْ ، وعلى مَنْ نزلَتْ ، إن رَبِّي وَهَبَ لي قَلْباً عقولاً ، وَلِسَاناً طَلْقاً(٢).

ثم يضيفُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ قائلاً: سلوني عنْ كتابِ اللهِ ، فإنَّهُ ليسَ مِنْ آيةٍ إلاّ وَقَدْ عَرَفتُ بِلَيْلٍ نَزَلَتْ أم بنهارٍ وفي سَهْلٍ أمْ في جَبَلٍ(٣)!!.

### يومُ تبوك:

وقد كان يومُ تبوكَ وما حَدثَ فيه لعليّ بنِ أبي طالبِ دليلاً على حُبِّ رسولِ اللهِ لعليّ رضيَ اللهُ عنهُ ، فجعلهُ بمنزلةِ الأخِ في اللهِ في هذهِ الغزوةِ.

فعندما خرجَ عليهِ الصلاة والسلامُ يومَ تبوك استعمَل على المدينةِ سِباعَ بنَ

---

(١) قال الهيثمي (٩/ ٢٠٢): رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح.
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣٨).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣٨).

عُرُفُطَةَ وخلّفَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ على أهلِهِ ، وأمرهُ بالإقامةِ فيهم ، فأرجفَ المرجفونَ وقالوا: ما خلّفَهُ إلاّ استثقالاً لهُ وَتَخفُّفاً منهُ ، ووصلَ هذا الحديثُ إلى أسماع عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأخَذَ سلاحَهُ وَخَرَجَ مسرعاً حتى أتى رسولَ اللهِ ﷺ ، وهو نازلٌ بموضع قربَ المدينةِ يقالُ لهُ الجُرْفُ ، فقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ: يا نبيَّ اللهِ؛ زَعَم المنافقونَ أنَّك استثقلتَني وتخففتَ منّي!

فقال عليه الصلاة والسلامُ: كذبوا؛ ولكني خلَّفْتُكَ لما تركتُ ورائي ، فارجعْ فاخلفني في أهلي وأهلِكَ؛ أفلا تَرْضَى أن تكونَ مِنِّي بمنزلةِ هارونَ مِنْ موسى إلا أنَّه لا نبيَّ بعدي؟!

فرجع عليٌّ إلى المدينة ، ومضى الرسولُ ﷺ في سفرِهِ.

## هادمُ الأصنامِ:

كان عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ ينطلقُ مع النبيِّ ﷺ يهشمُ الأصنامَ سرّاً ، فكما أنَّهُ لم يسجدْ لصنمٍ ، فإنه لم يتركْ صنماً أيضاً إلا وقدْ حطَّمَهُ إن كان ذلكَ في مقدورِهِ ، وأولُ مشاهدِ هدمهِ الأصنامِ نتركهُ يسردُ قصّتها رضوانُ اللهِ عليهِ فيقولُ:

انطلقتُ أنا والنبيُّ ﷺ حتى أتينا الكعبة فقالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: «اجْلِسْ» ، وَصَعِدَ على منكبي ، فذهبتُ لأنْهَضَ بهِ ، فرأى مني ضعفاً ، «وكان عليٌّ وقتها ما يزالُ غلاماً صغيراً» ثم يضيفُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ فيقولُ: فَنَزَلَ وَجَلَسَ لي نبيُّ اللهِ ﷺ ، وقالَ: «اصعَدْ على منكبي».

قال عليٌّ: فَصَعِدْتُ على منكبيهِ. فنهضَ بي ، فإنه يُخيل إليَّ أنّي لو شئتُ لَنلْتُ أُفُقَ السَّمَاءِ ، حتى صَعِدْتُ على الْبَيْتِ وعليهِ تمثالُ صُفْرٍ أو نُحَاسٍ.

فجعلتُ أُزَاولُهُ[1] عن يمينهِ وعن شِمالِه ، وبين يَدَيْهِ ومنْ خَلْفِهِ ، حتَّى إذَا استَمكَنْتُ منهُ قال لي رسولُ اللهِ ﷺ «اقذفْ بهِ» فَقَذَفْتُ بهِ فتكسَّرَ ، كما تتكسَّرُ القواريرُ.

---

(١) أزاوله: أعالجه.

ثم نزلْتُ ، فانطلقتُ أَنا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ نستبقُ ، حتى تَوَارَيْنَا بالبُيُوتِ ، خَشْيَةَ أَن يَلْقَانَا أَحَدٌ من النَّاسِ(١).

وعندما هاجرَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ إلى المدينةِ لم يدعْ فيها وثناً إلا كسرَهُ ولا قبراً إلاّ سوَّاهُ ولا صورةً إلاَّ لطخها.

وقد بعثُه رسولُ اللهِ ﷺ في سريةٍ لهدم صنمِ طيءٍ ، يسمى «الفُلْس».

وقد جاءتْ أحداثُ هذهِ السريةِ في كتبِ السيرِ تقولُ(٢):

بعَث رسولُ اللهِ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ في خمسينَ ومئةِ رجلٍ من الأنصارِ على مئةِ بعيرٍ وخمسين فرساً، ولم يكنْ بينهم مهاجرٌ واحدٌ، ومعهُ رايةٌ سوداءُ ولواءٌ أبيضُ إلى هدمِ الفُلْسِ والغارةِ عليهمْ ، فشنوا الغارةَ عليهم معَ الفجرِ ، فهدموا الفلسَ وأحرقوهُ ، واستاقوا النعمَ والشاءَ والسبيَ والغنائمَ الكثيرةَ، ووجدوا في خزانةِ الصنمِ ثلاثة أسيافٍ معروفةٍ عندَ العرب ، وهي: «رسوبُ ، والمخذمُ ، واليمانيُّ» ، وثلاثةَ أدراعٍ ، وجُعِلَ الرسوبُ والمخذمُ لرسولِ اللهِ ﷺ، ثم صارَ إليهِ اليمانيُّ. وكان منْ بين سبايَا هذهِ السرية سفانةُ بنتُ حاتِمِ الطائِيِّ الَّتي أسلمتْ وحَسُنَ إسلامُها ، وأشارتْ على أخيها عديِّ بنَ حاتمِ الطائيِّ بالقدوم على رسولِ اللهِ ﷺ ، فقدمَ عليهِ معَ الوفودِ.

وقدْ قالَت لرسولِ اللهِ ﷺ: إنّ أبي كان يحمي الذمارَ ، ويفكُّ العاني ، ويُشبعُ الجائعَ ، ويكسو العاري ، ويُقري الضيفَ ، ويطعمُ الطعامَ ، ويفشي السلامَ ، ولم يردَّ طالبَ حاجةٍ قطُّ ، أنا ابنة حاتمِ طيءٍ.

فقالَ لها النبيُّ ﷺ: «يا جاريةُ هذهِ صفةُ المؤمنينَ حقّاً ، ولو كانَ أبوك

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٨٤) والحديث برقم (٦٤٤) (ط. شاكر) وإسناده صحيح ، والحديث في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٣) ونسبه لأحمد وأبي يعلى ، ورجال الجميع ثقات.

(٢) المغازي للواقدي (٣/ ٩٨٤) طبعة عالم الكتب ـ بيروت ، والسيرة الحلبية (٣/ ٢٢٣) ط. دار المعرفة بيروت.

مسلماً لترحّمنا عليهِ ، خلّوا عنها فإنَّ أباها كان يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ»[1].

**يؤثرُ الحق:**

وكما كان عليٌّ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ عدوّاً للأصنام ، هادماً لها ، فإنهُ أيضاً كان يؤثرُ الحقَّ. وقد ننتقلُ في هذا الموقِف العظيم سنواتٍ بعيدة بعدَ وفاةِ الرسولِ ﷺ وبعيداً عن المدينةِ أيضاً لنثبتَ في هذهِ السيرةِ العطرةِ موقفاً عادلاً في الكوفةِ ، كان عليٌّ رضيَ اللهُ عنه طرفَ خصومةٍ لذميٍّ نصرانيٍّ ، يقفُ أمامَ القاضي شريح متّهماً ، وينزلُ على رغبةِ القاضي وحكمهِ وهو أميرُ المؤمنين ، يمسكُ السلطانَ بيدهِ ، ويَمْثُلُ أمامَ العدالةِ فقد افتقد عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ درعاً كانتْ أثيرةً عِنْدَهُ غاليةً عَلَيْهِ ، ثم ما لبثَ أن وجدهَا في يدِ رَجُلٍ من أَهلِ الذمةِ يبيعها في سوقِ الكوفةِ ، فلما رآها عَرَفَها ، وقالَ: هذه دِرْعي سَقَطَتْ عَنْ جَمَلٍ لي في لَيْلَة كذا وفي مكانِ كذا.

فقال الذِّميُّ: بل هي دِرْعي وفي يَدي يا أمير المؤمنينَ.

فقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ: إِنَّما هيَ درعي لم أَبعها من أَحَدٍ ، ولم أَهَبْها لأحدٍ حَتَّى تصيرَ إِلَيْكَ.

فقال الذِّميُّ: بيني وبينكَ قاضي المسلمينَ.

فقال عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ: أَنصَفْتَ؛ فَهَلُمَّ إِليهِ.

ثم ذهبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ والذميُّ إلى شريح القاضي ، فلمَّا وصلا عندهَ في مَجْلِسِ القضاءِ ، قال شريحٌ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ: ما تقولُ يا أميرَ المؤمنينَ؟

فقالَ: لقد وَجَدْتُ دِرْعي هذِهِ مَعَ هذا الرَّجُلِ ، وقد سَقَطَتْ مِنِّي في ليلةِ كذا وفي مَكانِ كذا ، وهي لم تَصِلْ إِلَيْهِ لا ببيعٍ لا هديةٍ ، أو هِبَةٍ.

فقال شريحٌ القاضي للذِّميِّ: وما تقول أَنْتَ أَيُّها الرَّجُلُ؟

قال الذميُّ: الدِّرعُ درعي.. ولا أتهمُ أميرَ المؤمنينَ بالكَذِبِ.

---

(١) السيرة الحلبية (٣/ ٢٢٤).

فالْتَفَتَ شُرَيْحُ إلى عليٍّ وقال: لا شكَّ عندي في أنَّكَ صادِقٌ فيما تقولهُ يا أميرَ الْمُؤمنينَ ، وأَنَّ الدرعَ درعكَ ولكنْ لا بُدَّ لَكَ من شاهِدَيْن يشهدان على صحَّةِ ما ادَّعَيْتَ.

فقال عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ: نعمْ، مَوْلاي قنبُر ، وولدي الحسنُ يشهدانِ لي.

فقال شريحٌ القاضي: يا أميرَ المؤمنين ، أنتَ تعرف أن شهادةَ الابْنِ لأبيهِ لا تجوزُ.

فقال عليٌّ: يا سبحانَ اللهِ ، رجل من أهل الجَنَّةِ لا تَجوزُ شهادتُهُ!! أما سمعتَ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «الحَسَنُ والحُسَيْنُ سَيِّدا أَهْلِ الجَنَّةِ»!؟.

فقال شريحُ: بَلَى يا أميرَ المؤمِنينَ... غير أَني لا أُجيزُ شهادة الوَلَدِ لوالدِهِ.

عند ذلكَ نظر عليٌّ رضي اللهُ عنهُ إلى الذِّمي وقال: خذها ، فَلَيْسَ عِنْدي شاهِدٌ غَيْرُهما.

فقال الذِّميُّ: ولكني أَشْهَدُ بأَنَّ الدرْعَ لك يا أميرَ المؤمنينَ.

ثم أَضافَ قائلاً: يا للهِ! أميرُ المؤمنين يُقاضيني أَمامَ قاضِيهِ!! وقاضيهِ يَقْضي لي عليهِ!!

أشهد أَنّ الدينَ الذي يأمُرُ بهذا الحَقُّ ، وأَشْهَدُ أَن لاَ إِلَه إلا اللهُ وأن محمداً عبدُهُ ورسولهُ.

والآن إليكَ الحقيقة سيدي القاضي شريحٌ: إن هذا الدِّرْعَ دِرْعُ أَميرِ المؤمنين ، وإنني اتَّبَعْتُ الجيشَ وهو منطلقٌ إلى صفينَ ، فَسَقَطَت الدِّرعُ عن جَمَلِهِ الأورَق[1] فأخذتُها. فقالَ لهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ: أَمَا وإنَّكَ قد أَسْلَمْتَ فإنِّي وَهَبْتُها لَكَ ، وَوَهَبْتُ لَكَ معها هذا الفَرَسَ أَيْضاً.

وانضمَّ الذمِّيُّ بعدها إلى الإسلامِ بسبب إيثارِ عليٍّ الحقَّ وقبول عدلِ

(١) الجمل الأورق: الذي لونه لون الرماد.

القاضي ، وهو أميرُ المؤمنينَ ، ومن واجبِ الرعيةِ طاعتُهُ. ومضى الذمِّيُّ يحاربُ الخوارجَ في صفوفِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ.

وفي يوم النهروان ، وهوَ اليومُ الذي قاتلَ فيهِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ الخوارج استشهد الذميُّ ، وهو يقاتلُ دفاعاً عن الحق في جيش عليّ رضوانُ اللهِ عليهِ.

وكانَ هذا الموقفُ من المشاهدِ العظيمةِ التي نحسبها قد احتسبتْ في ميزانِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ إنْ شاءَ اللهُ ، فقد هدى اللهُ بهِ ، بمأثرةٍ من مآثرهِ العظيمةِ ، اهتدى الرجلُ ودخلَ الإسلامَ ودافعَ عن الحقِّ عندما اقتنعَ بأنه في جانبِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ . هذهِ مشاهدُ من مآثرِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ تكونُ أمثلةً فقط لا على سبيلِ الحصر.

**علمه وفقهه:**

كان عليٌّ بن أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ من علماء الصحابة ، وأشهرهم فقهاً ، كان صاحب رأي سديدٍ ، ونظرٍ بعيدٍ ، وحكمٍ صائبٍ موفَّقٍ ، وكثيراً ما رجع إليه الصحابة كلما أشكلَ عليهم أمر من أمور دينهم أو مسألة من مسائل الفقه ، ولما كان عليٌّ بن أبي طالب معروفاً بدقّة الفهم ، وسَدَاد الرأي منذ عهد الرسول ﷺ ، فقد أرسله إلى اليمن قاضياً ، وكان مما عُرِضَ عليه ليقضيَ فيه: أنَّ أربعةً وقعوا في حفرة أُعِدَّتْ لاصطياد أسد ، سقط فيها أولاً رجلٌ ، فتعلَّق بآخر ، وتعلَّقَ الآخر بثالث حتى سقط الأربعة ، فهاجمهم الأسد وجرحهم ، فماتوا متأثرين بجراحهم ، وتنازع أولياؤهم حتى وصل النزاع حدَّ القتال والحرب. . . وعند ذلك قال عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ: أنا أقضي بينكم ، فإن رضيتم فهو القضاء!!! وإن أبيتم حجزت بعضكم عن بعضٍ حتى تأتوا رسولَ الله ﷺ ليقضي بينكم ، فَمَنْ عَدا بَعْدَ ذلِكَ فَلاَ حَقَّ لَهُ.

اجْمَعُوا من القبائل الذينَ حفروا البئر رُبُعَ الدِّيَةِ ، وثُلُثَها ، ونصفَ الدِّية ، ودِيَةً كاملَةً.

فَلِلأَوَّلِ الرُّبعُ ، لأنه أَهْلَكَ مَنْ فَوْقَهُ.

وَلِلثَّانِي ثُلُثُ الدِّيَةِ.

وللثَّالِثِ نِصْفُ الدِّيَةِ.

وَللرابعِ الدية كاملة ، فأبوا أن يرضوا.

فأَتَوُا النَّبيَّ ﷺ وهو عند مقام إبراهيم ، فقصوا عليه القصَّةَ فقال: «أنا أَقْضِي بينكم» واجتبى ببردة ، فقالَ رجُلٌ من القومِ: إِنَّ عَلِيّاً قضَى بيننا. فلما قصُّوا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ أجازه رسول الله ﷺ»[1].

ولذلك فقد ورد عن الرسول ﷺ الحديث الشريف: «أَقْضَى أُمتي عليٌّ»[2].

ومن أقضيته التي تدل على ذاكرة عظيمة ، وذكاء وقاد ، وذهن صاف ، وفطنةٍ بعيدة ، أَنَّ رجلين جلسا يتغدَّيان ، ومع أحدهما خمسة أرغفة ، ومع الآخر ثلاثةَ. وجلس إليهما ثالث ، واستأذن في أن يصيب من طعامهما ، فأذنا له ، وأكلوا جميعاً ، ثم ألقى إليهما ثمانية دراهم ، وقال: هذا عوض ما أكلت من طعامكما . . !!

فتنازعا في قسمتها ، فقال صاحب الأرغفة الخمسة: لي خمسةٌ ولك ثلاثةٌ. وقال صاحبه الثاني: بل نقتسم الدراهم بالتساوي بيننا. فرجعا في خلافهما إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه . . .

فقال عليٌّ رضي الله عنه: يا صاحبَ الثلاثة ، أقبل من صاحب الخمسة ما عرضه عليك.

فرفض الرجل وقال: ما أريد إلاَّ الحقَّ.

فقال عليٌّ رضي الله عنه: لك درهم واحد وله سبعة.

قال: وكيف ذاك يا أميرَ المؤمنين!؟ . .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المناقب ، والرياض النضرة (٢/ ١٩٩).

(٢) الرياض النضرة (٢/ ١٩٨).

قال عليٌّ رضي الله عنه: لأن الثمانية أربعة وعشرون ثلثاً؛ لصاحب الخمسة خمسة عشرَ، ولك تسعةٌ، وقد استويتم في الأكل، فأكلت ثمانية وبقي لك واحد!!

وأكل صاحبك ثمانية وبقي له سبعة!!

وأكل الثالث ثمانية، وسبعة لصاحبك وواحد لك.

فقال الرجل: رضيت الآن يا علي[1].

وتمضي الأيام، ويأتي رجل يقال لهُ «أُذينة العبدي» فيقول: أتيت عمر فسألته: من أَيْنَ أعتمر؟

قال: ائت علياً فاسأله[2].

هكذا كان عليٌّ رضي الله عنه بفقهه وباعه الطويل في علوم الدين معروفاً بين الصحابة الأجلاء، فكثيراً ما كانت تُحال إِليه قضايا فقهيّة غاية في الأهمية.

ومن أجلِّ ما نقل الرواة في هذا الجانب: أَنَّ رَجُلاً جاء إلى معاوية بن أبي سفيان فسأله في مسألة، فقال معاوية رضي الله عنه: سل عنهما عليَّ بنَ أبي طالب، فهو أَعلم!!

قال الرجل لمعاوية: يا أميرَ المؤمنين جوابك فيها أحبُّ إِليَّ من جواب عليٍّ.

فقال له معاوية: بئس ما قلت! لقد كرهْتَ رجُلاً كان رسول الله ﷺ يغرزه بالعلم غرزاً[3].

وهاهو عمر رضي الله عنه يخطىء حينما يأَمرُ «برجم» امرأة ولدت لستة

(١) انظر الرياض النضرة (٢/ ١٩٩).
(٢) رواه ابن عبد البر عن أذينة بن مسلمة العبدي.
(٣) الرياض النضرة (٢/ ١٩٥) وأخرجه أحمد في المناقب.

أشهر فيجيء عليٌّ ليقول: لا! أَلَم تسمع قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

ويضيف عليٌّ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

فالحمل ستة أشهر والفِصال في عامين.

عند ذلك ترك عمر رجمها، وقال: لولا عليٌّ لهلك عمر.

ولم تكن هذه المرة الوحيدة بين عليٍّ وعمر رضي الله عنهما، وإنما يروي المحبُّ الطبري في الرياض النضرة[1] موقفاً آخر، يقول فيه: رفع إلى عمر أمر امرأة حامل من الزنى!! وقد اعترفت به..!! فأمر برجمها، فردَّها عليٌّ وقال لعمر رضي الله عنهما: هذا سلطانك عليها، فما سلطانك على ما في بطنها؟ ولعلك انتهرتها أو أخفتها!

قال عمر رضي الله عنه: نعم. قد كان ذلك.

فقال عليٌّ: أو ما سمعتَ رسولَ الله قال: «لا حدَّ على معترفٍ بعد بلاءٍ؟ إنه من قيد أو حُبس أو تهدد، فلا إقرار له» فخلَّى سبيلها.

رضي الله عن عمرَ وعليٍّ فقد ضربا مثلاً عظيماً في الفقه والعلم، والأدب، والخلق الحسن، الذي تمثّل في تواضع العالم، وذكاء المتعلم.

لقد كان عليٌّ رضي الله عنه رجلاً يتمتع بذكاء حادّ، وحسٍّ أدبيّ وفكري عظيمين، أنتج لنا منهجاً عظيماً في البلاغة والفقه، واتَّخذ منابعه من كتاب الله وسنةِ رسوله.

كان رحمه الله دائماً يردد قوله عز وجل في سورة الحجر:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

---

(١) الرياض النضرة (٢/١٩٦).

## الخلافة والفتنة الكبرى

استشهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبدأ أهل النفاق في إيقاظ الفتنة. وبايع كبار الصحابة علياً بالخلافة ، وتحفَّظ الأمويون على هذه البيعة مطالبين عليّاً رضي الله عنه النصرة في دم عثمان رضي الله عنه.

وأيقظ الشيطانُ الفتنة ، فكانت أيامُ خلافته رضوان الله عليه فيها فتن ومعارك صرفت رجال المسلمين عن إكمال مسيرة الفتح العظيم الذي بدأه عمر رضي الله عنه.

ونحن في غنى عن تجديد هذه الجراح ، ونحن أيضاً لا نريد أَن ننكأ جراح المسلمين ، فأهل هذه الحقبة الزمنية بينهم كتَّاب الوحي ، وأصحابُ رسول الله ﷺ. ولنتحدث الآن عن عليٍّ الخليفة رضي الله عنه فقد بدأ الخلافة بخطاب قال فيه:

ذمَّتي بما أقول رهينة ، وأَنا به زعيم ، إنَّ مَن صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات ، أَلا وإنَّ بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعثَ الله نبيكم ﷺ.

ثم أضاف قائلاً: والله ما كتمت شيئاً ، ولا قصَّرت ، ولا كذبت كذبةً ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم ، ألا وإن الخطايا خيل شُمسٌ حمل عليها أهلها وخلصت لُجُمها فتقحمت بهم في النَّار ، ألا وإن التقوى مطايا ذلك حمل عليها أهلها ، وأُعطوا أزمَّتها فأوردتهم الجنَّة.

وتوجَّه عليٌّ رضي الله عنه بهذه الكلمات إلى ولاته وعماله على الأمصار ، يدعوهم فيها إلى العدل بين النَّاس ، ويوصيهم بالرعية خيراً فقال:

أنصفوا النَّاس من أنفسكم ، واصبروا لحوائجهم ، فأنتم خُزّان الرعية ، ولا تحسموا أحداً عن حاجته ، ولا تحبسوه عن طلبته ، ولا تبيعن للنّاس من

الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ، ولا عبداً ، ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم[1] .

وفي رسالة أخرى إلى والٍ[2] من وُلاته يقول له فيها:

انظر في أمور عُمّالك ، فاستعملهم اختباراً ، ولا تولِّهم محاباة وأثرة ، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخَّ منهم أهلَ التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام ، فإنهم أكثر أخلاقاً ، وأصحُّ أعراضاً ، وأقلُّ في المطامع إسرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فإنَّ ذلك قوةٌ لهم ، قوَّةٌ على استصلاح أنفسهم ، وغنىً لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم إن خالفوا أمرَكَ أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيونَ من أهل الصدق والعيون عليهم ، فإنَّ تَعاهدكَ في السرِّ لأمورهم قدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرَّعية[3] .

ولكي لا نترك شيئاً مما ذكره التاريخ الإسلامي ، وسوف يذكره ، من أحداثٍ عند الكتابة عن عثمان ، وعليٍّ رضي الله عنهما ، فإننا نورد مختصراً لأحداث سنوات الفتنة:

فما إن بويع عليٌّ رضي الله عنه بالخلافة حتى كانت أولى الخطوات تتمثل في خروج طلحة والزبير إلى مكة حيث توجد فيها أمّ المؤمنين عائشة ، وقد قال ابنُ سعد: ويقال: إن طلحة والزبير بايعا كارهين غير طائعين نزولاً على إجماع الصحابة على بيعة علي.

ولما وصلا إلى مكة رافقا عائشة رضي الله عنها ، وخرجا بها إلى البصرة يطلبون بدم عثمان ، وبلغ ذلك عليّاً فخرج إلى العراق ، فلقي بالبصرة طلحة والزبير ، وعائشة معهم ، وحدثت وقعة الجمل ، وكانت في جمادى الآخرة

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) هو الأشتر بن مالك النخعي.

(٣) المصدر السابق.

سنة ست وثلاثين ، وقد قُتِل فيها طلحة والزبير ، وغيرهما ، وأقام عليٌّ رضي الله عنه بالبصرة خمس عشرة ليلة بعد أن أرسل السيدة عائشة رضي الله عنها إلى المدينة معزّزة مكرّمة بصحبة أخيها محمد بن أبي بكر.

ثم انصرف عليٌّ رضي الله عنه إلى الكوفة ، وسكن بها.

## صفِّين

كانت في صفر سنة سبع وثلاثين ، وقد حدثت عندما رفض معاوية بن أبي سفيان مبايعة عليٍّ ، وكان والياً على الشام ، فخرج عَلَى عَليٍّ ومن معه من بالشام ، فبلغ عليّاً فسار إليه؛ فالتقوا بِصِفِّين ، وهو موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات[1].

ودام القتال بها أياماً ، فرفع أهل الشام المصاحفَ يدعون إلى ما فيها ، مكيدة من عمرو بن العاص[2] ، فكره الناس الحرب ، وتداعوا إلى الصلح ، وحكَّموا الحكمين ، فحكَّم عليٌّ أبا موسى الأشعري ، وحكَّم معاويةُ عمرو بن العاص ، وكتبوا بينهم كتاباً على أن يوافوا رأسَ الحول بأذْرُحَ[3] ، فينظروا في أمر الأُمة ، فافترق النَّاس وعاد معاوية إلى الشام ورجع عليٌّ رضي الله عنه إلى الكوفة ، فخرجت عليه الخوارجُ من أصحابه ومن كان معه ، وقالوا: لا حكم إلا لله ، وعسكروا بحرُوراء ، فبعث إليهم عبدَ الله بن عباس فخاصمهم وحَجَّهم ، فرجع منهم قوم كثير ، وثبت قوم.

وساروا إلى النهروان ـ وهي كورة واسعة بين بغداد ، وواسط من الجانب الشرقي ـ وراحوا ينشرون الفساد في الأرض ، وحاول عليّ رضي الله عنه أن يردَّهم إلى رشدهم بالحسنى ويعيدهم إلى حظيرة الحق ، فأبوا إلاَّ القتال

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٢٣٥).

(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، وقد نقل عن ابن سعد ، وأثنى عليه لأنه اختصر هذه الأحداث ، ولم يخض فيها.

(٣) مكان بين الكوفة والشام.

فقاتلهم ، وقضى على أكثرهم ، وكان ذلك في سنة ثمان وثلاثين من هجرة رسول الله ﷺ.

واجتمع النَّاس بأذْرُحَ في شعبان من هذه السنة ، وحضرها سعد بن أبي وقاص وابن عمر وغيرهما من الصحابة ، فَقَدَّم عمرو أبا موسى الأشعري ، فتكلَّم فخلع عليّاً ووقع في مكيدة ، وتكلَّم عمرو فأقرّ معاوية وبايع له ، فتفرَّق النَّاس على هذا(١).

وانتهت البيعة إلى معاوية ، وعاد عليٌّ رضي الله عنه إلى الكوفة ، وقد نشأ خلافٌ شديدٌ بينه وبين أصحابه نتيجة ما تم في أذْرُح من تحكيم ، بايع فيه عمرو بن العاص لمعاوية ، وقد بدأت المؤامرات تُحاك في الظلام ضد عليٍّ رضي الله عنه من قبل الخوارج.

## استشهاده

تآمر الخوارج وانتدبوا ثلاثةَ نفرٍ منهم ، هم: عبد الرحمن بن مُلْجَم المرادي ، والبُرَكُ بن عبد الله التيمي ، وعمرو بن بكير التميمي ، فاجتمعوا بمكة وتعاهدوا وتعاقدوا لَيَقْتُلُنَّ هؤلاء الثلاثة: علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص.

فقال ابنُ ملْجَم: أنا لكم بعلي.

وقال البُرَكُ: أنا لكم بمعاوية.

وقال عمرو بن بكير: أَنا أكفيكم عمرو بن العاص.

وتعاهدوا على أن يكون ذلك في ليلة واحدة ليلة حادي عشر أو ليلة سابع عشر من رمضان.

ثم توجَّه كل منهم إلى المِصر الَّذي فيه صاحبه ، فَقَدِمَ ابنُ ملجم الكوفة ، فلقي أصحابه من الخوارج فكاتمهم ما أراد إلى ليلة الجمعة سابع

---

(١) هذه رواية ابن سعد في الطبقات.

عشر رمضان سنة أربعين ، فاستيقظ عليٌّ سحراً ، ليصلّي الفجر ، وخرج من الباب ينادي: أيها النَّاس الصلاة الصلاة ، فاعترضه ابن مُلْجَم ، فضربه بالسيف ، فأصاب جبهته إلى قرنه ، ووصل إلى دماغه ، فشد عليه النَّاس من كل جانب فَأُمْسِك به وأوثق ، وأقام عليّ الجمعة والسبت ليلة الأحد ، وغسَّله الحسن والحسين ، وعبد الله بن جعفر ، ودفن بالكوفة بدار الإمارة ليلاً أما ابنُ ملجم فقد اقْتُصَّ منه وقُتِلَ[1] .

وكان لعلي حين قُتل ثلاث وستون سنة . وقيل أكثر من هذا .

وقد تمثل عفو عليّ بن أبي طالب عمن أساء إليه في أحرج اللحظات ، فعندما أصيبَ قَبض النَّاس على ابن مُلْجم ، وأدخلوه عَلَى عليّ رضي الله عنه ، فقال لهم: «النفس بالنفس ، إن أنا متُّ فاقتلوه كما قتلني ، وإن بقيت رأيت رأيي فيهِ ، ثم ظلَّ بعدها يومين حتى توفي رضي الله عنه سنة (٤٠) من الهجرة»[2] .

رحم الله عليَّ بن أبي طالب فقد استمسك بالعروة الوثقى ، فأقام شرع الله ، وآثر الحقَّ في كلِّ مراحل حياته ، فَضَرَب مثلاً عظيماً للناس ، وكان قدوة لكل من ألقى السمع وهو شهيد .

ونحن نودِّع عليّاً رضي الله عنه نستحضر مجلس معاوية رضي الله عنه ذاتَ يوم عندما قال لرجل يسمّى ضرار الصدائي: صف لي عليّاً ـ وقد كان ذلك بعد استشهاد عليٍّ رضي الله عنه ـ فقال ضرار لمعاوية: اعفني يا أمير المؤمنين .

فأصرَّ معاوية على ذلك ، وأعاد عليه القول .

فقال ضرار: كان والله بعيدَ المدى ، شديدَ القُوى ، يقولُ فَصْلاً ، ويحكم عَدْلاً ، يتفجَّر العلم من جوانبه ، وتنطِقُ الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس إلى الليل ووحشته ، وكان غزير

---

(١) انظر الطبقات لابن سعد ، وتاريخ الخلفاء ص ١٥٦ .

(٢) الرياض النضرة (٢/٢٤٦ ـ ٢٤٨) .

العَبْرة ، طويل الفكرة ، يقلّب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا ، يدنينا إذا أتيناه ويجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه إيانا ، وقُرْبهِ مِنّا ، لا نكاد نكلمه هيبةً له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم. يُعظِّم أهل الدِّين ، ويقرّبُ المساكين ، ولا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليلُ سدولَه وغارت نجومه ، يميل في محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول: يا دنيا! غرِّي غيري ، ألي تعرضتِ؟ أم إليَّ تشوَّفْتِ؟ هيهات هيهات! قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرُك قصيرٌ ، ومجلسك حقيرٌ ، وخطرُك قليلٌ ، آه آه من قلة الزَّاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق!

فبكى معاوية ، وقال: رحم الله أبا الحسن ، وكان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟

قال ضرار: حزن مَن ذُبح وحيدها في حجرها ، لا ترقأ دمعتها ولا يسكن حزنها[1].

هكذا كان عليٌّ رضي الله عنه في عيون معاصريه وفي عيون كل المسلمين ، ولم يكن معاوية في حاجة إلى بكاء وهو يقول: رحم الله أبا الحسن. . . وخاصة أنه في مجلسه مجلس الإمارة ، وكلُّ شيء في يديه من أمر المسلمين ، إلاَّ أنه كان يرى خِلاف المسلمين فيه أكثر من علي ، وكان عَلي يخالفه الرأي ، وفي النهاية فإنهم جميعاً أصحاب رسول الله ﷺ.

## من كلماته الخالدة

ولا يستطيع كاتبٌ أو صاحب قلم أن يترك سيرة أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه دون أن يُعرِّج على بلاغته ووصاياه وكلماته؛ الَّتي

---

(١) الرياض النضرة (٢/ ٢١٢ وما بعدها).

تُعَدُّ تُحْفةً أدبيةً رائعة في المكتبةِ الإسلاميةِ.

يتحدَّث رضوان الله عليهِ عن الدنيا فيقول: ليس الخير أن يكثر مالُك وولدُك، ولكنَّ الْخَيرَ أَن يكْثُرَ عِلْمك ويعظُم حِلْمُك، وأن تباهِي النَّاسَ بعبادةِ ربِّكِ، فإنْ أحسنتَ حمدتَ الله، إن أسأتَ استغفرتَ الله، ولا خير في الدُّنيا إلا لأحد رجلين: رجلٍ أذنب ذنباً فهو يتدارك ذلك بتوبةٍ، أو رجلٍ يسارع في الخيرات، ولا يقل عمل في تقوى، وكيف يقل ما يتقبل؟..[1].

ويتحدث عليٌّ رضي الله عنه عن الصبر فيقول: للصبر أربع شعب: الشوق، والشفقة، والزهادة، والترقب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات. ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات[2].

وكان عليٌّ رضي الله عنه مجاهداً طوال رحلة عمره المباركة، فكم جاهد في بدء الدعوة وفي معاركها الكبرى؛ في بدرٍ، وأحدٍ، وخيبَر، وهدم الفُلْس وغيرها من الأصنام.

وهاهو يتحدث عن الجهاد فيقول: للجهاد أَرْبَعُ شُعب: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن (الثبات في المعارك)، وشنآن الفاسقين (أي معاداتهم).

فمن أمر بالمعروف شدَّ ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق، ومن صدق في المواطن قضى الَّذي عليه وأحرز دينه، ومن شنأ الفاسقين فقد غَضِبَ لله، ومن غَضِبَ للهِ يغضب اللهُ له[3].

وكان رضوان الله عليه كثيراً ما يدعو ربَّهُ قائلاً: اللهم اغفر لي ما أنت أعلم به منِّي، فإن عُدْتُ فعُدْ علي بالمغفرة. اللهم اغفر لي ما وعدت من نفسي ولم تَجِدْ لَهُ وفاءً عندي..!! اللهم اغفر لي ما تقربت به إليك

(١) الحلية لأبي نعيم (١/ ٢٧٩).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق (١/ ٧٤).

بلساني ، ثُمَّ خالَفَهُ قلبي ، اللهم اغفر لي رمزات الألحاظ ، وسقطات الألفاظ ، وسهوات الجنان ، وهفوات اللسان.

يا من يرحم العباد ،

ويا من يقبل من لا يقبله البلاد ،

ويا من لا يحتقر أهل الحاجة إليه ،

يا من لا يجيب بالردِّ أهل الإلحاح عليه ،

يا من يشكر على القليل ، ويجازي بالجليل ،

يا من يدنو إلى مَن دنا منه ،

يا من يدعو إلى نفسه مَن أدبر عنه ،

يا من لا يغيّر النعمة ، ولا يبادر بالنقمة ،

يا من يثمِّر الحسنة حتى ينميها ، ويتجاوز عن السيئة حتى يعفيها ، انصرفتْ دُون مدى كرمك الحاجاتُ ، وامتلأت بفيض جودك أوعيةُ الطلبات ، فاسمع ندائي ، وأكرم عندك منصرفي.

رحم الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ونضَّرَ قبره برياض الجنة ، ونفعنا بسيرته الطاهرة الزكية ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

عصر الصحابة
(٢)

# قادة النبي ﷺ

صلى الله عليه وسلم

القعقاع بن عمرو التميمي — المثنى بن حارثة

شرحبيل بن حسنة الكندي — خالد بن الوليد بن المغيرة

عمرو بن العاص السهمي — أسامة بن زيد بن ثابت

النعمان بن مقرن المزني

# مقدّمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله مِن شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا ، مَن يهده الله فلا مضلَّ له ، ومَن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد: فإن التاريخ الإنساني لم يشهد فترة كتلك الحقبة التي عاش فيها الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ ، فقد كانوا رجالاً سبَّاقين إلى الخير ، متألقين في الإيمان ، والتضحية ، والفداء ، والجهاد ، حتى إن الواصفين ليعجزون عن إعطائهم ما يستحقونه من وصف وتعبير ، وما ذلك إلا لسموّ نفوسهم ، وعلوّ هممهم ، وكمالهم في شمائلهم الحميدة وخصالهم الرفيعة وجهودهم العظيمة؛ التي بذلوها لنصرة الإسلام وإعزاز كلمة الله تعالى في كل بلد نهدوا إلى تحريره من ربقة الباطل والفساد.

ولقد حملوا معهم إيماناً بالله لا ينفد ، وتوكّلاً عليه ـ سبحانه ـ ، فلم ترهبهم كثرة العدو ، ولا اتساع الإمبراطوريات ، ولا صولجانات فارس والروم ، فإذا بالباطل ينهدُّ تحت أقدامهم ، ويتحولَّ إلى كثيب مَهِيلٍ.

وكان الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ أبطالاً في كل ميدان ، وسنقتصر في هذا الكتاب على إبراز نماذج من تاريخ أولئك الرجال ، في جهادهم الطويل ، وعزمهم الذي لا يلين ، فكان منهم قادة لجيوش النبي ﷺ ،

تسلّموا زمام المعارك ، وقادوا الجنود المسلمين من نصرٍ إلى نصر ، ومن تألّق إلى ضياء أشدّ وأوسع انتشاراً.

وسنرى ـ إن شاء الله ـ في هذا الكتاب قبسات عطرة من سيرة قادة النبي ﷺ ، وهم يفتحون القلوب بالإيمان والحكمة والكلمة الطيبة ، ويفتحون البلاد رحمةً بالعباد الذين عانوا مختلف أنواع الذل والإرهاق ، فكانت مسيرةُ أولئك القادة سجلاً حافلاً بالنور الإسلامي الذي فاض بخيراته وأنواره في موكب التحرير على طريق النور.

ويحلو اللقاء بأبطال الفتوحات ، ومنهم: القعقاع بن عمرو ، والمثنى بن حارثة ، وشرحبيل بن حسنة ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وأسامة بن زيد ، والنعمان بن مقرّن.

أجل سنلقي الأضواء الغامرة على حياة هؤلاء الأبطال ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ حيث فتحوا أقطار الأرض ، وخاضت أقدامهم في كل مكان ، تحريراً للإنسان وللفكر وللنفس الإنسانية ، فكانوا صُوى عبر الزمان ، وكل مكان.

وكان الإيمان حاديهم ، فلم ترهبهم مواجهة ، لأنهم حملوا معهم جوهر الرسالة الإسلامية ولباب القضية؛ المتمثلة بإعلاء كلمة التوحيد ، ونشرها خفّاقة في أيّ مكان يصلون إليهم.

ومنهم نتعلّم الثبات على الحق ، والصبر على الأهوال ، وتحمّل الشدائد مهما كانت ، والطاعة ، والنظام ، والاندفاع للجهاد ، والتضحية بالغالي والنفيس ، لإعزاز لواء الحق ، وإزهاق الباطل ، والإيمان بأن الشر سيزول مهما انتفش وتعالى.

من هنا تُومضُ عظمة النبي ﷺ ، وهو يخرّج قادته العسكريين من مدرسته الإسلامية ، موقنين بالله تعالى ربّاً ، متحمّلين لما يلاقونه ، في جهادٍ نبيل ، ودعوة عظيمة ، آتت أكلها على مرّ الزمن.

اللهم علّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً يا أرحم الراحمين.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها ، وزكّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليُّها ومولاها ، والحمد لله رب العالمين.

**عبد المنعم الهاشمي**

# (١)

# القعقاع بن عمرو التَّميمي

## كلمات في البدء

كان من أشجع الفرسان ، يشهدُ ميدان النزال للقعقاع بن عمرو التميمي وأخيه عاصم بن عمرو التميمي.

كان من قادة الإسلام؛ لأنه من قادة النبي ﷺ. قال في حقّه أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «لصوتُ القعقاعِ في الجيش خيرٌ من ألف رَجُل».

وقد أنشد سيف بن عمر أبياتاً في القعقاع قال فيها:

ولقد شهدتُ البرقَ بَرْقَ تهامةٍ يهدي المناقبَ راكباً لعيارِ
في جند سيفِ الله سيف محمد والسَّابقين لسنَّة الأحرار[١]

كان القعقاع شاعراً ، وبطلاً ، وقائداً عظيماً. كان يجيبُ النداء مهما كان الموقف صعباً أو كريهاً ، لذلك فقد قال عن نفسه:

يدفعونَ قعقاعاً لكلّ كريهةٍ فيجيبُ قعقاعُ دعاءَ الهاتِف[٢]

لا يُعرف للقعقاع مشاهد في عهد النبي ﷺ ، وأجمعت الروايات على أنّ له صحبة[٣] ، وقد رجّح المؤرِّخون سببَ ذلك إلى إسلامه الذي جاء متأخّراً ، ولكنه فيما تلا ذلك من مشاهد كان عَلَماً في معركتي القادسية ونهاوند ، وحروب الردة وغيرها.

هذه كلمات قليلة عن القعقاع في البداية؛ سنتبعها بصفحات سيرته المشرقة ، سجل له التاريخ فيها بطولة ما بعدها بطولة.

---

(١) الإصابة (٣/ ٢٣٩).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٤٠).

(٣) الطبري (٢/ ٥٠٢).

# مع وفد تميم

في السنة التاسعة من هجرة رسول الله ﷺ ، وبعد غزوة تبوك توافدت القبائلُ على رسول الله ﷺ ، وقد بعث النبيّ ﷺ بشر بن سفيان[1] ـ رضي الله عنه ـ عاملاً على صدقات بني كعب ، وهم من قبيلة خزاعة ، فكان أن صادفَ ذلك مجيء بني عمرو بن تميم بالقرب منهم ، فجمعت خزاعة مواشيها للصدقة ، فاستنكر ذلك بنو تميم ، وأبوا ، وشهروا سيوفهم في وجه الخزاعيين يمنعونهم عن أداء الصدقات لله ورسوله.

فجاء بشر إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بما حدث.

فقال ﷺ: «من لهؤلاء القوم»؟.. أي من يخرج إليهم؟.

فانتدب لهم عيينة بن بدر الفزاري ـ رضي الله عنه ـ ، فبعثه النبي ﷺ في خمسين فارساً من العرب ، ليس فيهم مهاجري واحد ولا أنصاري. فأغار عليهم واستطاع أن يأسَر أحدَ عَشَرَ رجلاً وعدداً من نسائهم ، وعاد بهم إلى المدينة مع صبيانهم ، فكان فيهم عددٌ من رؤساء بني تميم: عطارد بن حاجب ، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونُعيم بن سعد ، والأقرع بن حابس وغيرهم[2].

كان رسولُ الله ﷺ في المسجد ، وقد أَذَّن بلال للظهر ، وهم ينتظرون خروج رسول الله ﷺ ، فلما استبطؤوه ، عَجَّلوا بالنداء عليه ، فنادى أحدهم وهو الأقرع بن حابس رسول الله ﷺ قائلاً: يا محمد ائذن لي فوالله إنَّ مدحي لزين وإن ذمّي لشين[3].

فقال له رسول الله ﷺ: «كذبت ذلك لله تبارك وتعالى».

---

(١) الطبقات (١/ ٢٩٣).
(٢) الطبقات (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤).
(٣) المصدر السابق.

أنهى رسول الله ﷺ صلاته في تأنّ وخشوع ، وخرج إليهم ، وجلس وهم أمامه ، فخطب خطيبهم وهو عطارد بن حاجب.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: «أَجبه يا ثابت». فوقف ثابت خطيباً وأجابه.

ثم قالوا: يا محمد ائذن لشاعرنا ، فأذن له ، فقام شاعرُهم الزبرقان بن بدر فأنشد حتى فرغ من شعره.

فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «أجِبْهُ» فأجابه بمثل شعرِهِ.

فقالوا: والله لخطيبهُ أبلغ من خطيبنا ، ولشاعرهُ أشعر من شاعرنا ، وَلَهُمْ أحلم منَّا.

وقد نزل في وفد بني تميم عندما نادوا رسول الله ﷺ ، وهو في مسجده قول الله عزَّ وجل في سورة الحجرات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وكانت بدايةُ إسلام بني تميم - قوم القعقاع بن عمرو التميمي - في السنة التاسعة للهجرة[1] بعد غزوة تبوك. وكان القعقاع في وفد قومه آنذاك ، فأسلم معهم.

وقد أخلصَ بنو تميم لدينهم ، وأحبّوا رسول الله ﷺ ، حتى أنه حين نعى لهم راكبٌ رسول الله ﷺ ، فَزِعوا لوفاته وقالوا: «بأبينا وأُمِّنا يا رسول الله».

أنشد شاعرهم قائلاً:

أَلاَ لـي الـويـلُ علـى محمّـدِ    قـد كنـت فـي حيـاتـه بمَقْعَـدِ
وفـي أمـانٍ مـن عـدوٍّ معتـدي

عاش بنو تميم في نعمة الإسلام وأمنه واطمأنوا به ، فلما دعا داعي الجهاد للدفاع عن الإسلام؛ كان القعقاع وأخوه عاصم من فرسان الإسلام.

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ١١٠).

## القائد الإنسان

كان القعقاعُ جندياً شجاعاً ، يقدمُ على الجهاد دون تردّد ، وانتقل من الجندية إلى القيادة؛ فعرف حكمة القائد ، وحزمه ، لا يتردّد في قرار أبداً.

وقد استخلصنا هذه الكلمات من رأي المسلمين في القعقاع عندما أجمعوا على أن الجيش الذي فيه القعقاع لا يُهزم أبداً ، وقد زكَّاه خليفة رسول الله ﷺ ، أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ عندما قال عنه: «لصوتُ القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف رجل»(١) .

كان القعقاعُ مؤمناً شديد الإيمان ، فلما ارتدّتِ النفوسُ المريضة من قومه بني تميم، قبض على دينه ، وقاتل المرتدين قتالاً عنيفاً ، غيرةً على إسلامه.

لم يجمع مالاً من غزوٍ أو ولاية ، وإنما عاش حياته على الكفاف ، على الرغم من مصادر المال التي توافرت له في فتوحاته وغنائمه.

والآن بقي أن نمضيَ معه في رحلة الجهاد.

## المجاهد الأكبر

**الردة:**

كانت المهمة الأُولى التي كلَّفه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بها هي قتال مرتد ظالم لنفسه من بني كلب ، وهذا المرتد هو علقمة بن عُلاثة الكلبي.

أسلم علقمة ولكنَّهُ لم يرتد بعد وفاة رسول الله ﷺ ، بل في حياته ، ومضى هارباً إلى الشام.

ولما مات النبيّ ﷺ عاد مسرعاً ومكث في قومه بني «كلب» ، وجاءت أخبارهُ إلى خليفة رسول الله أبي بكر الصديق ، فبعث إليه القعقاعَ بن عمرو وأمره أن يغيرَ عليه ليأسره أو يقتله(٢) .

---

(١) الإصابة (٣/ ٢٣٩).

(٢) الكامل (٢/ ١٣٣).

خرج القعقاعُ مصطحباً جنوده المسلمين ، ولما وصل إلى بني «كلب» فرَّ علقمة في جنح الظلام على فرسه ، ولما دخل المسلمون على امرأته وأبنائه أعلنوا إسلامهم ، وأنكروا ردَّة أبيهم.

وما إن وصل القعقاع ورجاله المدينة ، حتى جاء علقمة إلى أبي بكر تائباً ، فقُبِلَتْ توبته ، لأنَّ الإسلامَ يجبُّ ماقبله ، وانضم علقمة إلى القافلة بعد أن ضلَّ الطريق.

**ذات السلاسل:**

قال رسول الله ﷺ للقعقاع بن عمرو يوماً: «ما أعددت للجهاد»؟

أجاب القائد البطل قائلاً: طاعة الله ورسوله والخيل.

قال عليه الصلاة والسلام: «تلك الغاية»[1].

وجاء يوم الخيل هذا في «ذات السلاسل» التي كانت في المحرم سنة (١٢) من هجرة النبي ﷺ ، وبعض المؤرخين يسميه يوم «كاظمة».

جاء هذا اليوم بعد أن فرغ خالد بن الوليد من اليمامة ، وكتب إليه أبو بكر ـ رضي الله عنهما ـ أن يتوجَّه إلى العراق ، حتّى يلقى عياض بن غنم ، وكان عياض قد سبق خالداً إلى حدود الشام ممَّا يلي العراق ، بعد أن أمره أبو بكر الصديق أن يدخل العراقَ من أعلاها كي يلقى خالداً هناك.

ولما وصل الكتابُ إلى خالد يأمره بالتوجّه إلى الشام ، كتب إلى أبي بكر الصديق يطلب منه مدداً ، فاختار أبو بكر الصديق القعقاع بن عمرو لهذه المهمة الجليلة.

ولمّا اختار أبو بكر الصديق القعقاع بن عمرو رضي الله عنهما ، جاءه من يقول: أتُمِدُّ رجلاً قد ارفضَ عنه جنودهُ برجل؟!

فقال: لا يُهزم جيشٌ فيهم مثل هذا.

---

(١) انظر: الإصابة (٣/ ٢٣٩).

وكتب أبو بكر الصديق إلى خالد وعياض ـ رضي الله عنهما ـ: أن استنفروا من قاتلَ أهلَ الرِّدَّة ، ومَنْ ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، ولا يَغْزُوَنَّ معكم أحدٌ ارتدَّ حتى أرى رَأيي[1] .

وكان على الجانب الآخر ، جانب العدو ، وفي منطقة «الأُبلَّة» ، يقف هرمز أمير هذه المنطقة من قِبَل فارس ، ويُعدّ «هرمز» أشدّ الفرس كراهية للعرب في ذلك الوقت ، حتى إنه كان مضرب الأمثال عند العرب ، إذ يقول النَّاس: «أخبث من هرمز» .

مضى خالد بن الوليد حتى شارف الأُبُلَّة ، ومن ثَمَّ فقد كتب كتاباً لهرمز ، قائد الفرس قال فيه:

أما بعد فأَسْلِم تَسْلَم ، أو اعتقد لنفسك وقَوْمِك الذمَّة ، وأقرِرْ بالجزية؛ وإلاَّ فلا تلومَنَّ إلاَّ نفسَك ، فقد جئتُك بقوم يحبُّونَ الموت كما تُحبُّونَ الحياة .

لم يستجبْ هرمز ، وجاء بالقرب من كاظمة لقتال خالد ، وقسَّم خالد ـ رضي الله عنه ـ جنده ثلاث فرق ، وجعلهم يمشون في طُرق مختلفة للقاء هرمز ، وجعل على الفرق: المثنى بن حارثة ، وعديّ بن حاتم ، وعاصم بن عمرو شقيق القعقاع .

التزم القعقاعُ بأوامر قائده أخيه عاصم ، ومضى جيشُ المسلمين حتى التقوا الفرس ، وقال خالد لجنده لما وجد الفرس قد استولوا على الماء: «ألا انزلوا ، وحُطُّوا أثقالكم؛ ثم جالدوهم على الماء ، فَلَعَمري ليصيرنّ الماءُ لأَصْبَرِ الفريقين ، وأكرم الجندَيْن»[2] .

فَحُطَّت الأثقال والخيلُ وُقُوفٌ ، ثم زحف خالد لملاقاتهم .

---

(١) الطبري (٣/ ٣٤٧).
(٢) المصدر السابق.

ودار قتالٌ عنيفٌ شارك فيه القعقاع بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ تحت قيادة خالد وشقيقه عاصم بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ.

خرج هرمز منادياً خالداً إلى النزال ، فمشى خالد إليه ، وكان لقاءً بطولياً عظيماً باشر فيه القائدُ بنفسه صراعه مع خصمه ، ولم يُخْرِجْ جندياً غيره.

وقف القعقاعُ وقد توقّدت عيناه وقريحته الفياضة يرقبُ هذا الصراع ، ويهلل كلَّما وجّه خالد ضربةً لخصمه ، حتى اختلفا في ضربتين ، واحتضن خالدٌ هرمز.

وفجأة خرج عددٌ من جنود الفرس يريدون الغدر بخالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ.

عند هذه اللحظة ـ أخذ القعقاعُ ـ رضي الله عنه ـ بعنان فرسه ، وانطلق يسابقُ الريحَ حتى تجاوز المضمار ، وضرب يميناً وشمالاً في وجوه الذين أرادوا بخالد شرّاً ، حتى تراجعوا وتساقطوا ، وأمِنَ خالدٌ شرّ مكرهم.

**الحيرة ، حُصَيْد ، اليرموك:**

لما رأى دهاقينُ وزعماءُ الأقاليم من الفرس ما تمَّ لخالد من الظَّفر بعد يوم الحيرة؛ أتوه فصالحوه على قراهم حتى حدود الفرس ، وكتب لهم خالد ـ رضي الله عنه ـ بذلك كتاباً بيّن لهم فيه حقوقهم وواجباتهم.

ولما تمّ لخالد فتح الحيرة صلّى صلاة الفتح ثماني ركعات لا يُسَلِّمُ فيها ، فلما أتمهُنَّ انصرف إلى أصحابه ، وفيهم القعقاع بن عمرو ، وبادرهم قائلاً لهم: «لقد قاتلت يوم مُـؤْتَـة ، فانقطع في يدي تسعةُ أسياف وما لقيت قوماً كقوم لقيتُهم من أهل فـارس ، وما لقيتُ من أهل فارس قوماً كأهل أُلَّيْس»[1].

ثم أقام خالد بن الوليد بالحيرة وجعلها مركز قيادة. وفي يوم ذات العيون خَلَّفَ خالد ـ رضي الله عنه ـ على الحيرة القعقاع بن عمرو ، وفي خلال

---

(١) الطبري (٣/٣٦٦ـ٣٦٧).

خروج خالد ، لم يترك القعقاع الفرس وشأنهم بل شنَّ عليهم غارات مختلفة ، منها غارة في موضع يُقال حُصَيْد أصابهم فيه بمقتل وقتل قائدهم.

وفي اليرموك قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بعدما سمع بمكر الروم: «والله لأنسينَّ الرومَ وساوسَ الشيطان بخالد بن الوليد»[1].

وكتب إليه كتاباً ، وقد كان خالد في الحيرة مركز قيادته ، أمره فيها أن يمضي للقاء الروم ، وأرسل له مدداً كبيراً ، وكان مع خالد القعقاع بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ.

تحرّك خالد بنصف جيشه في العراق وترك النصف الثاني للمثنى ، ومضى ومعه القعقاع بن عمرو ، يستعينُ به في المهام الشَّاقة ، والتحقت القوات بقوّات المسلمين في الشام.

وقف خالد بعد أن أصبح أميراً على كل الجيوش الإسلامية التي التحقت به ، وقد بلغ قوامها ستاً وثلاثين أو أربعين فرقة ، وجعل خالد على ميمنته عمرو بن العاص ، وعلى ميسرته يزيد بن أبي سفيان ، بينما كان قلب الجيش بقيادة أبي عبيدة أمين الأُمة ، وعلى مجنبتي القلب عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ.

أمر خالد أن يبدأ القتال من مجنبتي القلب ، وكانت البداية ، والتحم الجيشان في قتال لا ينساه التاريخ؛ تلألأ فيه القعقاع وسيفه المبارك ليضرب قوى الشر والكفر حتّى إنه بعد المعركة أنشد يقول ـ وقد كان شاعراً كبيراً ـ:

ألم ترنا على اليرموكِ فزنا ... كما فزنا بأيّام العراق
فتحنا قبلها بُصرى وكانت ... محرمةَ الخبابِ لدى التَّلاقي
وعذراءَ المدائن قد فتحنا ... ومرجَ الصُّفَّرين على العتاقِ
قتلنا مَن أقام لنا وفينا ... بها بُهْمٌ بأسياف رقاقِ
قتلنا الرومَ حتّى ما تساوى ... على اليرموك تفروق الوراق
قصصنا جمعهم لما استحالوا ... على الواقوصة البرّ الرفاق

---

(١) الطبري (٣/ ٣٩٤ وما بعدها).

غـداة تهـافتـوا فيهـا فصـاروا إلـى أمـر يفصـل بـالـزهـاق[1]

هكذا عبَّر القعقاع عن يوم عظيم من أيام جهاده الأكبر ، والذي يُعَدُّ يوم فخار للمسلمين أجمعين.

## فـوق سـور دمـشـق

انتهت اليرموك بنصر مؤزر ، وقسّمت الغنائم ، فكان سهمُ الفارس ألفاً وخمسمئة ، وأصبح أبو عبيدة بن الجراح أميراً على الجيوش بدلاً من خالد بن الوليد ـ رضي الله عنهما ـ ، وكان ذلك بأمر خليفة المسلمين الجديد الذي تولى بعد أبي بكر الصديق.

لقد مات أبو بكر وتولّى بعده عمر ـ رضي الله عنهما ـ وعزل عمر خالداً وجعله جندياً حتى لا يُفْتَنَ النَّاس بانتصاراته ونجاحاته.

قال خالد يومها بعد أن سلّم الكتاب إلى أبي عبيدة بالإمارة: «الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت ، وكان أَحبَّ إليَّ من عُمَر. والحمد لله الذي وَلَّى عُمر وكان أبغض إليّ من أبي بكر ، ثم ألزمني حبَّه».

انتهت اليرموك ، وجاءت أنباء تقول: إن قوات جديدة من الروم دخلت دمشق لتحميها وتمنع عنها المسلمين[2].

علم أبو عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ بذلك فسار إلى دمشق ، والقعقاع جندي من جنوده ، ومعهما خالد ـ رضي الله عنه ـ الذي الْتَزَم بأمر خليفة المسلمين ، ولما وصلت جيوشُ المسلمين وفرقهم إلى دمشق ضربوا حصاراً قويّاً حولها استمرَّ سبعين يوماً دون جدوى ، لذلك قرر الجنديان خالد والقعقاع بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ تسلّق السُّور المرتفع لمدينة دمشق ، وأعدَّا لذلك حبالاً على هيئة سلالم ، فلمّا دخل الظلام وأقبل الليل

---

(١) تهذيب ابن عساكر (١/ ١٧٤).

(٢) الطبري (٣/ ٤٣٤ وما بعدها).

تسوَّر الرجلان بعدما قالا لإخوانهم: «إذا سمعتم تكبيرنا على السّور فارقَوْا إلينا ، وانْهدوا للباب».

تقدَّم القعقاع نحو سور المدينة ، وتقدّم معه خالد بن الوليد ، وألقيا سلالم الحبال ، صعد القعقاع ـ رضي الله عنه ـ ومعه مذعور بن عدي إلى أعلى السور ، وأثبتا بقية الحبال السلالم في شُرَف السور.

تسلَّق القعقاع وصاحبه أحصن مكان في حصن دمشق ، وصعد المسلمون خلفهم ثم هاجم خالد وجنوده ، ومعه القعقاع ، حماةَ الحصن من أعلى ، فقتلوهم ، وفتحوا الأبواب ، وصرخوا: الله أكبر.. الله أكبر ، فانهارت كل مقاومة في المدينة ، ودخل المسلمون دمشق بعد حصار طويل[1].

## القادسية والقعقاع بن عمرو

**أ ـ مشاهد من الميدان:**

قبل أن يأذنَ سعدُ بن أبي وقاص بالقتال في يوم القادسية أرسل أصحابَ الرأي وذوي الفضل والنَّجدة إلى النَّاس ، فكان من ذوي الرأي: المغيرة بن شعبة ، وعاصم بن عمرو التميمي شقيق القعقاع ، وحذيفة بن اليمان.

ومن أهل النجدة: عمرو بن معد يكرب ، وطليحة وقيس الأسدي... وغيرهم.

وقال لهم سعد بن أبي وقاص: انطلقوا فقوموا في النَّاس بما يحقُّ عليكم ، ويحقُّ عليهم عند مواطن البأس فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به ، أنتم شعراءُ الناس ، وخطباؤهم وذوو الرأي فيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا في الناس وذكّروهم وحرّضوهم على القتال[2].

مضت الكتيبة الإعلامية إلى فرق الجيش ترفع من روحه المعنوية ، وتشعل في الجند شرارة النزال ، وتهيّىء لمعارك عنيفة أمام عدو شرس.

---

(١) ابن الأثير (٢/ ١٩٠ وما بعدها).

(٢) الطبري (٣/ ٤٨٠ وما بعدها).

فوقف قيس بن هبيرة الأسدي بين الناس يقول: أيها الناس ، احمدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم يَزِدْكم ، واذكروا آلاء الله وارغبوا إليه ، فإنَّ الجنَّة أو الغنيمة أمامكم ، وإنه ليس وراء هذا القصْد إلا العراء والأرض القَفْر ، والفلوات التي لا تقطعها الأدِلَّة.

وقال بشْر بن أبي رُهم الجُهني: احمدوا الله وصدِّقوا قولكم بفعل ، فقد حمدتم الله على ما هداكم له ، ووحَّدتموه ، ولا إلّه غيرهُ ، وكبّرتموهُ وآمنتم بنبيه ورُسُله ، فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مُسْلِمُون ، ولا يكونّن شيء بأهوَنَ عليكم من الدُّنيا ، فإنها تأتي مَن تهاون بها ، ولا تميلوا إليها ، فتهرُب منكم لتميلَ بكم ، انصُرُوا الله ينصركم.

تُرى أيسمع القعقاع بن عمرو هذه الكلمات وينصت إليها جيداً ويده تقبض على سيفه ، أم تترامى إلى أسماعه كلمات من أخيه عاصم ينشرح لها صدره؟ وخاصةً عندما يعلم أن عاصماً من أصحاب الرأي في قيادة جيش المسلمين؟ وتحدث عاصم بن عمرو وأرهف الناس السمع ، فتكلَّم بعد أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معاشرَ العرب ، إنّكم أعيانُ العرب ، وقد صمدتم[1] الأعيان من العجم ، وإنما تخاطرون بالجنَّة ، ويخاطرون بالدُّنيا ، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحوطَ منكم على آخرتكم؛ لا تُحْدِثوا اليوم أَمْراً تكونونَ به شَيْناً على العرب غداً.

سمع النَّاس كلامَ عاصم وأصحابه الذين قالوا كلهم بنحوٍ من هذا الكلام ، فتواثق الناس وتعاهدوا.

جاء صوت سعد بن أبي وقاص من بعيد مدوياً ، وقد صمت النَّاسُ ، كُلٌّ في مكانه ، قال سعد: «اقرؤوا سورة الجهاد «آل عمران» والزموا مواقفكم ، ولا تحرِّكوا شيئاً حتى تصلُّوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإني مُكَبِّرٌ تكبيرةً فكبِّروا واستعدُّوا ، واعلموا أَنَّ التكبيرَ لم يُعْطَهُ أَحدٌ قبلكم ، واعلموا أنما أُعْطيتُموهُ تأييداً لكم ، ثم إذا سمعتم الثانية فكبّروا ، ولتُسْتَتَمَّ عُدَّتُكُم ، ثم

(١) صمدتم: قصدتم.

إذا كبَّرْتُ الثالثة فكبِّروا ، ولينشّط فُرسانكُم الناس ليَبْرزُوا أو ليطاردوا ، فإذا كبَّرْتُ الرابعةَ فازْحَفوا جميعاً حيث تُخالِطوا عَدُوَّكُم ، وقولوا: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله»[1]!.

وما إن فَرَغ القُرَّاءُ من سورة الجهاد وهي «آل عمران»؛ حتى كَبَّرَ سعد ، فكبَّر النَّاس بعده ، ثم ثَنَّى بالتكبيرة الثانية فاستتمَّ النَّاسُ عُدَّتَهم ، ثم ثلَّثَ فبرز أهل النجدات ، ونشب القتالُ عنيفاً بعدها ، فتداول الناس الطَّعن وتبادلوا الضرب ، وطارد عاصم بن عمرو فرسانَ الفرس ، وراح عمرو بن معد يكرب يحضّ النَّاس بين الصّفين ، فيحثهم على القتال ، ويدعوهم إلى منازلة العدو.

ثم كبَّر سعدٌ التكبيرة الرابعة ، فبدأ الزحفُ العام ، فإذا كل السيوف قواطع ، وكل الرماح طواعن ، وفرسان سعد بن أبي وقاص كتائب تتبعها كتائب.

وعلى جانب الفرس حمل أصحابُ الفيلة منهم حملة ضارية تفرّقت لأجلها كتائب المسلمين وخيولُهم ، واهتزَّ قلبُ المسلمين ، وعلى الرغم من ثبات الرجال من أهل المواقف.

نظر سعد حوله وقد جلس يدير المعركة من أعلى بناء يشرف عليها ، وقد أقعده المرض ، نظر فوجد هذا المشهد الذي عرضناه ، فما استحضر في ذهنه تلك اللحظة إلا عاصم بن عمرو شقيق القعقاع وقومه من بني تميم ، فنادى سعدٌ عاصماً وقال: يا معشرَ بني تميم ، ألستم أصحابَ الإبل والخيل؟! أَمَا عندكم لهذه الفيلة من حِيلَةٍ؟![2].

قال عاصم وأصحابه: بلى والله؛ ثم نادى في رجال من قومه رماة ، فقال

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦.
(٢) الطبري (٣/ ٥٤٠).

لهم: يا معشر الرماة ذبُّوا ركبان الفيلة عنهم بالنَّبْل. وقال: استدبروا الفيلة فقطّعوا وُضُنَها[1].

أقبل أصحابُ عاصم من بني تميم على الفيلة، فأخذوا بأَذْنابها، وقطعوا سيورها، فارتفع صراخ الفيلة؛ حتى قيل يومئذ: ما بقي فيلٌ إلا وقطع ذيله. ومن ثمَّ فقد وقعت الصناديقُ التي تحمل الرماة، فسقطوا جميعاً، وقُتِلوا بسيوف بني تميم، وردَّ المسلمون الفرسَ إلى أماكنهم، واستحرَّ القتالُ حتى غربت الشمسُ، واستمرَّ حتى مضى ثلث الليل، فرجع المسلمون ورجع الفرس، وأصيب من المسلمين خمسمئة، وذلك هو اليوم الأول في القادسية وقد سماه المؤرخون أرماث.

أين القعقاع في هذه المشاهد؟ إنَّه في الشام ينتظر أمر قيادته ليكون مدداً وغوثاً لإخوانه في القادسية.

**ب ـ اليوم الثاني:**

لما بدأ النزالُ بين الفرس والمسلمين في القادسية، وبلغ عمر ـ رضي الله عنه ـ ما بلغه من استعدادات هائلة للفرس عَدَداً وعُدَّةً.

لذلك فقد أرسل عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى أبي عبيدة بن الجراح بعد فتح دمشق أن يردّ الجند الذين جاؤوا من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد.

قال عمر في رسالته لأبي عبيدة: «اصرف جند العراق إلى العراق، وأمرهم بالحثّ إلى سعد بن أبي وقاص»[2].

فكان وصولُهم إلى جيش المسلمين في اليوم الثاني من أيام القادسية وهو يوم أغواث قبل بدء القتال من جديد، وكانوا ستّة آلاف، منهم خمسة آلاف من ربيعة ومضر، وألف من اليمن.

---

(١) «وضنها»: جمع وضين، وهي بطان عريض منسوج من سيور أو شعر.
(٢) الطبري (٣/ ٥٤٢).

أمَّرَ أبو عبيدة على هذا الجيش هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وجعل بطلنا القعقاع بن عمرو على مقدمة هذا الجيش ، وعلى مجنبتيه قيس بن هبيرة والهزهاز بن عمرو العِجْلي.

تعجَّل القعقاع المسير ، فقد خشي على إخوانه في القادسية ، فمضى مسرعاً حتى قدم على المسلمين هناك صبيحة اليوم الثاني يوم أغواث ، وكان هذا اليوم هو يوم القعقاع القائد ، الفارس ، المبارز ، الثائر لإخوانه ممن قُتِلوا يوم الجسر.

فكَّر القعقاع القائد في خطة رائعة يوقع الرعب من خلالها في قلوب الفرس ، فقد عهد إلى أصحابه أن يتقطعوا أعشاراً ، فقسّموا أنفسهم أقساماً ، كل قسم عشرة رجال ، فكلما بلغ عشرةٌ سرَّحوا في آثارهم عشرة ، وقدِم القعقاع في العشرة الأولى[1].

فلما أتى القعقاعُ النَّاسَ سلَّم عليهم وبشَّرهم بالجنود ، ثم قال: يا أيها الناس ، إني قد جئتكم في قوم؛ والله إنهم لو كانوا بمكانكم ، ثم أَحَسُّوكم حسدوكم حُظْوَتَها ، وحاولوا أنْ يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع[2].

تقدَّم القعقاعُ الفارسُ ، ونادى بأعلى صوته: مَنْ يُبارِزُ؟

أيُّ نوع من القادة يكون القعقاع؟ فما إن وصل من الشام حتى أشاع البهجة والبشرى في نفوس فرسان القادسية بعد خروجهم من يوم عصيبٍ كان بالأمس القريب ، ثم ينادي حتى يوقع الرعبَ في نفوس أعدائه ، ويؤكّد معنى النصر في نفوس إخوانه!!.

نادى القعقاع القائد الفذ: مَن يبارز؟

فبرز إليه رَجُلٌ من الفرس ، تبدو عليه الفروسية والقتال. قال القعقاع لخصمه في صوت حاسم حازم: مَن أنت؟.

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٥٢).

(٢) الطبري (٣/ ٥٤٣).

فقال: أنا بَهْمَن جاذَوَيْه.

فنادى القعقاع بن عمرو قائلاً: يا لِثَارات أبي عُبَيْد وسَليط وأصحاب يوم الجسر[1].

اجتلد الرجلان، وكان ضربة هائلة من القعقاع قَضَتْ على «بهمن جاذويه».

جعلت خيلُ القعقاع تَرِدُ قِطعاً، وجماعات، وما زالت ترِدُ إلى الليل، مما أثار في الناس اطمئناناً شديداً، وحفزهم على النشاط والإصرار على النصر، فتنشّط النَّاس، وكأن لم يكن بالأمس مُصيبة.

لم يتوقف القعقاعُ بن عمرو التميمي عن هذا الشحن المعنوي لجيش المسلمين الذي واجه بالأمس موقفاً عصيباً ارتفع فيه عدد قتلاهم، لذلك فقد نادى مرّةً أُخرى بعد أن قتل بهمن جاذويه ـ أحد قادة الفرس يوم رأس الجسر ـ نادى القعقاعُ ـ رضي الله عنه ـ: من يبارز؟

فخرج إلَيْه رجلان، أحدهما البِيرُزان، والآخر البِنْدوان، وكانا مِن خيرة فرسان الفرس؛ فلما خرج اثنين لا واحداً، انضم إلى القعقاع الحارث بن ظَبْيان، فبارز القعقاع ـ رضي الله عنه ـ البيرزان، فقتله بعد ضربة أطارت رأسه، وبارز ابنُ ظَبْيان البِندوان، فضربه فأذرى رأسَه أيضاً، ونادى القعقاع بأعلى صوته:

يا معاشِرَ المسلمين؛ باشروهم بالسيوف، فإنما يُحْصَدُ الناسُ بها!.

وحمل بنو عمّ القعقاع بجماعات مؤلفة كلّ منها من عشرة رجال على إبل قد ألبسوها وهي مجلّلة مبرقعة، هاجموا بها خيل الفرس؛ وخافت خيول الفرس، وجعلت تفرّ منها، مما أدّى إلى تفوّق خيل المسلمين.

فرح الناسُ بحملة رجال بني تميم أشدّ الفرح، فقد انتقموا بإبلهم المباركة هذه من فعل فيلة الفرس في اليوم الأول، ولقي أهلُ فارس من

---

(١) الطبري (٣/٥٤٣).

الإبل يوم أغواث أعظم ممّا لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث وهو اليوم الأول.

هدأ القعقاعُ بعد يوم عظيم حمل فيه ثلاثين حملة كلما طلعت جماعة من جماعاته حمل معهم فيها، فقتل وحده يومها من الفرس ثلاثين رجلاً[1]، وبات ليلته يستعدّ للغد القريب.

**جـ ـ اليوم الثالث:**

قضى القعقاعُ بن عمرو التميمي ليلته يُعدّ عُدَّته للغد، فالتقى بأصحابه وقضى ليلته كلها يُسَرِّبهم إلى المكان الذي فارقهم فيه من الأمس وقال لهم: إذا طلعتْ لكم الشمسُ، فأقبلوا مئة مئة، كلّما توارى عنكم مئة فليتبعها مئة.

وقال ـ رضي الله عنه ـ: إن أدرككم هاشم بن عتبة (وجاء بمن معه يشارك في المعركة) فَذَاك، وإلاّ فجددوا للنَّاس (رجاءً في المدد، فإن الرجاء يزيدُهم إقداماً في الحرب، وإيماناً بالفوز)[2].

أصبح المسلمون في اليوم الثالث وهم على مواقفهم، وأصبحت الأعاجم على ما وقفوا عليه بالأمس، وقد قُتِلَ من المسلمين ألفان، ومن الأعاجم عشرة آلاف، قال سعد بن أبي وقاص: من شاء غَسَّل الشهداء، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم. نفذ المسلمون أمر سعد، ونقلوا جرحاهم إلى النساء.

وتنفس الصبح، وذرّ قرن الشمس، فطلعت نواصي الخيل، وكبَّر القعقاع، وكبّر النَّاس فرحين بالمدد، وبما آتاهم الله من فضله.

وتوافد جنودُ هاشم بن عتبة، على غرار ما نبَّه القعقاع بن عمرو أصحابه، فقد أمر هاشمٌ رجاله أن يتلاحقوا مئة مئة، وسار على رأس الفرقة

---

(١) الإصابة (٣/ ٢٣٩)، والطبري (٣/ ٥٤٥).
(٢) الطبري (٣/ ٥٥١).

الأُولى ، فوصل القادسية لحظة استعداد النَّاس للقتال ، فلما رآه الناس كبَّروا ، ونشب القتال ، واشتدّ ، فاختلفوا في الضرب والطعن بينما مدد هاشم بن عتبة متتابع متواصل.

لم يهتزّ الفرس ، ولم يؤثر المددُ الذي جاء المسلمين فيهم ، فقد أصلحوا صناديق الفيلة وأعادوها ، وأقبلت يصحبها جنودٌ مشاة يحمونها خوفاً من قطع أحزمتها ، ومع المشاة أيضاً فرسان يحمونهم.

ودار قتال شديد حتى قال الناس: إن يوم عماس كان شديداً من أوله إلى آخره على العرب والعجم سواء بسواء.

عادت الفيلة إلى فتكها بالمسلمين مثلما فعلت يوم أرماث ، ورآها سعد بن أبي وقاص من عريشه تفرِّقُ بين كتائب المسلمين ، فاستشار سعدٌ ـ رضي الله عنه ـ جماعةً ممّن أسلموا من فارس ، فلما دخلوا عليه سألهم عن مقاتل الفيلة فقالوا: المشافر والعيون.

فأرسل سعد إلى القعقاع وأخيه عاصم ابني عمرو وقال لهما: اكفياني الفيل الأبيض ـ وكان على مقربة منهم ـ ، وأرسل إلى حَمَّال الأسدي والرِّبِّيل الأسدي وقالا لهما: اكفياني الفيل الأجرب. وكانت الفيلة كلها آلفة لهما ، تتبعهما حيثما ذهبا.

أخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمَّين ليِّنين ودبَّا في خيل ورجل ، فقالا: اكتنِفوه لتحيّروه ، ثم حملا على الفيل ، فوضعا رمحيهما معاً في عيني الفيل الأبيض ، فتراجع الفيل من الألم وطرح سائسه ، ودلَّى مشفره ، فضربه القعقاعُ بسيفه فقطع مشفره[1].

وحمل حمّال ، وقال لصاحبه الرَّبيل الأسدي: اختَرْ ، إمّا أن تضرب المشفر وأَطْعن في عينه ، أو تطعن في عينه وأضرب مشفرَه ، فاختار

---

(١) الإصابة (٣/ ٢٣٠) والطبري (٣/ ٥٥٥).

الضَّرْب ، فحمل عليه حمّال وطعنه في عينه فأصابه ، وضربه الرِّبيل ، فأبان مشفره.

فرَّت الفيلة ، وهاجت ، وعادت صارخة بأحمالها ، فتبعتها بقية الفيلة فخرَقَتْ صفوفَ الفرس ، وألفت مَن عليها ، وعبرت العتيق في أثر الأجرب حتى أتت المدائن.

ظل الفريقان يقتتلان حتى الليل ، وقد ملأ الغبارُ الآفاق ، فلم يعلم سعدٌ ولا رستم على مَن تدورُ الدائرة.

هدأ القتالُ مع أوّل الليل ، وظنَّ سعد أنَّ الجيشين سيقضيان ليلتهما دون قتال ، وأن يوماً رابعاً سيبدأ ، وخشي أن يأتيه الفرسُ من مخاضةٍ خلف جنوده ، فأرسل طُليحة وعمراً في جماعة وقال لهما: إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانْزِلاَ بحيالهم ، وإن لم تجداهم عَلموا بهما؛ فأقيما حتى يأتيكما أمري. لم يجد الرجالُ أحداً على المخاضة فسوّلت لهما نفساهما أن يخوضاها ، وأن يأتيا الأعاجم من الخلف ففعلوا ، وفاجؤوا الفرس من الخلف ، فقدم الفرسُ صفوفهم زاحفين نحوهم.

لما رأى البطلُ القعقاع بن عمرو زَحْفَ الفرس نحو إخوانه المسلمين زاحفهم وقاتلهم من غير أن يستأذنَ سعد بن أبي وقاص.

أطلَّ سعد من عريشه فرأى القعقاع يزاحفهم فقال: «اللهم اغفرْها له ، وانصرْه ، فقد أذنتُ له إذْ لم يستأذنّي».

تبع النَّاسُ القعقاعَ ، فاشتدَّ القتالُ ، وزادت ضراوتهُ كلَّما تقدّم الليل ، وجلجل صوتُ القعقاع عند منتصف الليل يهدر يميناً ويساراً مرتجزاً ، فكان صوتهُ أول ما استدلَّ به على الفتح والنصر(١).

واقترب الصبحُ بعد ليلةٍ عصيبة دامية ، فسار القعقاعُ بين صفوف أصحابه

(١) الطبري (٣/ ٥٥٧ ـ ٥٦٢).

يقول: إن الدائرة بعد ساعةٍ لمن بدأ القومَ ، فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصرَ مع الصبر[1].

زحف البطلُ إلى عريش هرمز ، حتى وصلَ وأصحابهُ إليه ، فلم يجدوه فاندفعوا صَوْبَ النهر ، فرآه أحد المسلمين الأبطال وهو هلال بن علقمة ، فاقتحم النهر وراءه وقتله ، فانهزم الفرس ، بعد أن أخذ هلال بِرِجْلِ رستم ، وخرج به من النهر ، وضرب جبينه بالسيف ، ثم جاء به حتى رمىٰ به بين أرجل الدواب وصَعِد منادياً: قتلتُ رستم وربِّ الكعبة ، قتلتُ رستم وربِّ الكعبة.

وكانت الهزيمةُ الكبرى ، فطاردهم القعقاع وأوقع بهم خسائر كبيرة ، وأنشد يقول في القادسية:

حَضَّضَ قومي مَضرَحِيُّ بنُ يَعْمرٍ ... فَلِلَّهِ قومي حين هَزُّوا العَواليا
وما خام عنها يومَ سارت جموعُنا ... لأهل قُدَيسٍ يمنعون المواليا
فإنْ كنتُ قاتلتُ العدوَّ فللتُه ... فإنِّي لألقَى في الحروب الدَّواهِيا
فلولاً أراها كالبيوت مُغيرةً ... أُسمِّلُ أعياناً لها ومآقيا[2]

وقد سمعه سعدُ بن أبي وقاص في الليلة الحاسمة يقول بعد منتصف الليل:

نحن قتلْنا مَعْشَراً وزائدا ... أربعةً وخمسةً ووحِدا
نُحْسَبُ فوق اللِّبَد الأساودا ... حتَّى إذا ماتوا دعوتُ جاهِدا
اللهُ ربي واحترزتُ عامِدا[3]

ويطلبُ عمر بن الخطاب بعد أن وصلته أخبار القادسية وانتصاراتها تقريراً عن أفرس الفرسان في القادسية ، فيكتب لسعد بن أبي وقاص: أي فارس كان أفرس في القادسية؟.

---

(١) الطبري (٣/ ٥٦٣).
(٢) الطبري (٣/ ٥٥٧).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٥٦٢).

فكتب سعد ـ رضي الله عنه ـ: «إني لم أر مثل القعقاع بن عمرو، حمل في يوم ثلاثين حملة يقتل في كل حملةٍ بطلاً»[1].

وقد شعرنا من قراءاتنا في سيرة القعقاع أنه كان شاعراً معبّراً، وقد أخرجت هذه المواقف العظيمة في القادسية شعراً جميلاً فيه من الفروسية ما يثلجُ صدر كلّ فارس وشاعر، ومن هذا الشعر ما قاله يوم القادسية وقد حمي وطيس المعركة فقال:

أُزْعِجُهُم عَمْداً بها إِزْعاجا ... أطعنُ طَعْناً صائباً ثَجّاجا
أَرْجُو به من جنّةٍ أفواجا[2]

وعن اليوم الثاني في القادسية يوم النجدة قال القعقاع ـ رضي الله عنه ـ:

حَبَوْتُهُ جيَّاشةً بالنَّفسِ ... هَدَّارةً مثلَ شُعاعِ الشمسِ
في يوم أغواثٍ، فَليلِ الفُرْسِ ... أَنْخُسُ بالقوم أشَدَّ النَّخْس
حتَّى تَفِيضَ مَعْشَرِي وَنَفْسي[3]

ويضيف عن هذا اليوم قائلاً:

لم تعرِف الخيلُ العِرابُ سواءَنا ... عَشيَّةَ أغْواثٍ بجَنْبِ القَوادِس
عشيَّةَ رُحْنا بالرِّماح كأنَّها ... على القوم ألوانُ الطُّيورِ الرَّسَارِسِ[4]

## انتصارات

### أ ـ المدائن:

قال سعد بن أبي وقاص مُخاطباً رجالَه، طالباً منهم تأمين قوّاته وحمايتهم في أثناء عبوره النهر إلى المدائن. قال: مَن يبدأ ويحمي لنا الفِراض، حتى تتلاحقَ به الناسُ لكيلا يمنعوهم من الخروج؟.

---

(١) الإصابة (٣/ ٢٣٩).
(٢) الطبري (٣/ ٥٤٦).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٥٤٧).
(٤) المصدر السابق (٣/ ٥٤٥).

جاء صوت فارس من بعيد يقول: أنا أيها الأمير.

إنه صوتُ عاصم بن عمرو، سبق والله صوت شقيقه القعقاع بن عمرو، ولكن رأي سعد في عاصم هو الرأي نفسه في القعقاع، فهما فارسا بني تميم بلا منازع، وهما بطلا القادسية القويّان.

أمَّر سعد بن أبي وقاص عاصم بن عمرو قيادة كتيبة الأهوال، وكانت تعدّ من كتائب القوات الخاصة في جيش المسلمين(١).

وأمَّر القعقاع على «الكتيبة الخرساء»، هكذا كان اسمُها لصمت رجالها الكثير وفعلهم الكبير.

ومضت كتيبة الأهوال، فعبرت النهر، وصنعت رأس جسرٍ على الجانب الآخر، وحمت عبور الجيش الإسلامي البطل ومضت كتيبةُ القعقاع في أثر أختها الأهوال، وأثناء عبورها سقط فارس من المسلمين عن فرسه في النهر، فعاد القعقاعُ إليه، يأخذ بيده حتى لا يغرقَ، ويسحبه إلى البرّ الثاني، وشكر الفارسُ الجنديُّ قائدَه القعقاع، ومضى بنفس عاليةٍ وروح طيبة.

إيه يا قعقاع! أعجزت النساء أن يلدن مثلك؟!

إيه يا فارسَ القوم، ويا غائثَ الجمع، ألا يُكرِّر التاريخُ قعقاعاً يَذُبُّ عن حقوق الإسلام، وديارهم، ويعيد لهم مجدهم الغابر؟!.

إيه يا قعقاعُ، نستمدُّ من روحك ألف قعقاع، مليوناً لو كان التاريخ كريماً، فنجدُ سيوفهم تضربُ الباطل الذي عَمَّ وانتشر.

هذه الآهاتُ التي نطلقها، ونستلهم من خلالها قعقاعاً للمسلمين لا نستعرضها لغة، لكننا والحق يقال في زمن أحوج ما نكون فيه إلى هذا التميمي، وأخيه عاصم، فكثيرٌ من الفيلة في عصرنا هذا تودُّ ضرب مرابض المسلمين، فلا تجدُ من يقعقع في وجهها، ويقطع أشفارها، ويدمي

---

(١) الطبري (٤/٩ وما بعدها).

عيونها ، لذلك فقد استجدينا قعقاعاً ، وألف قعقاع ، ومليون فارس مثل القعقاع ـ رضي الله عنه ـ.

ويمضي القعقاعُ مسرعاً على رأس كتيبته ، وحسبي أنه تبسَّم قليلاً عندما دخل عاصم المدائن قبله ، إلا أنه سَعِد بالقائد سعدٍ وهو يصولُ ويجولُ في «القصر الأبيض» ـ قصر كسرى ـ بعد فتح المدائن ، يسمع الأمير والقائد سعداً يردّد قول الله عزَّ وجل في سورة الدخان:

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ .

وتمضي كتائبُ الرحمن والقعقاع جندي فيها ، وقائد على بعضها حتى كان يوم جلولاء.

**ب ـ جلولاء:**

في اثني عشر ألفاً من الرجال تقدَّم القعقاعُ إلى جلولاء[1] ، وهي بلدة في طريق خراسان ، تقع على بعد أربعين ميلاً شمال المدائن.

كانت جلولاء في صفر من السنة السادسة عشرة لهجرة رسول الله ﷺ[2] .

هرب الأعاجمُ من المدائن إلى جلولاء ، وقد كانت حكمتُهم من التّمركز في جلولاء أنها على مفترق الطرق المؤدّية إلى بلاد فارس ، ممّا يجعلها موقعاً استراتيجياً لهم.

وقد قال بعضهم لبعض: إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً ، وهذا مكان يفرِّق بيننا ، فهلمّوا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الذي نريد ، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا ، وأبلَيْنا عُذْراً[3] .

أقام يزدجر في حلوان ، وأرسل مِهران الرازي في جيش كبير ، وأقام هو

---

(١) معجم البلدان (٢/ ١٥٦).
(٢) الطبري (٤/ ٢٥).
(٣) الطبري (٤/ ٢٤).

بحلوان يمدّهم بالرجال والعتاد ، وتوطّنوا في جلولاء ، فحفروا خندقاً كبيراً حولها.

وصلت كلُّ هذه الأخبار إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في المدينة عن طريق سعد ، فكتب إليه عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن سَرِّح هاشم بن عُتْبة إلى جَلُولاء في اثني عشر ألْفاً ، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعيِّن له من يكون على الميمنة والميسرة والساقَةِ بأسمائهم(١).

حاصر القعقاعُ جلولاءَ ، وتحصَّن أهلُ فارس بالمدينة ، وجعلوا لا يخرجون إليهم إلا إذا أرادوا؛ فوقف هاشم يحثُّ المسلمين على القتال ويقول: «أَبْلُوا في الله بلاءً حسناً، يتمّ لكم عليه الأَجْر والمغنَم ، واعملوا لله».

سمع القعقاعُ كلمات قائده ، فاندفع ، واندفع الناسُ معه ، واقتتلوا مع الفرس قتالاً شديداً ، ومضى القعقاعُ إلى باب الخندق ، فدخله وسيطر على جزء منه وصاح منادياً: يا معشر المسلمين: هذا أميرُكم قد دَخَل خندق القوم ، وأخذ به ، فأقبِلوا إليه ، ولا يمنعنَّكم مَن بينكم وبينه من دخوله(٢).

ظنَّ المسلمون أنَّ هاشماً بالخندق فاندفعوا إليه فإذا بالقعقاع قد سبقهم ، فطاولوا الفرس وطالوهم ، وقتلوهم ، فانهزم منهم من انهزم ، فطاردهم القعقاعُ إلى داخل بلادهم ، فتساقطت أمامه الحصونُ في خانقين ، وقصر شيرين ، وحلوان ، وكلها مدن وقرى فارسية ، واستقر القعقاع في النهاية بحلوان.

## نهاوَنْد وقيادة الخيل

كانت «نهَاوَند» بمثابة فتح الفتوح للمسلمين ، ولذلك سُمِّيت بفتح الفتوح ، وكان القعقاعُ ، رجل نهاوند البطل ، وقائد الخيل الحكيم.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٦).

وقد اشتدَّ الموقفُ على المسلمين يوم نهاوند عندما تحصَّن الفرسُ بخنادقهم ، وحصرهم المسلمون ، فأقام الفرسُ في خنادقهم زَمَناً طويلاً لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج.

ولما طال الأمر ، جمع النعمانُ بن مقرن قادته ، وشاورهم في الأمر ، وكان من بين القادة الذين اجتمع بهم النعمان بن مقرن: عمرو بن بثي ، وعمرو بن معد يكرب ، وطليحة بن خويلد الأسدي ، الذي رأى رأياً صائباً عندما قال: نبعث إليهم خيلاً قوية ، فيحدقوا بهم ويرموهم لينشبوا القتال ، ويغضبوهم ، فإذا غضبوا خرجوا للقتال ، فإذا خرجوا للقتال رجعت خيلُنا منسحبة ، وطاردوهم ، وبذلك نقاتلهم ، ويقضي الله فينا وفيهم ما أَحَبَّ[1].

اختار النعمان بن مقرن المزني القعقاع بن عمرو ، وكان على الخيل ، فأنشب القتال بعد أن نفَّذ خطَّة النعمان في استثارتهم وجرَّهم للقتال ، فعندما اندفعوا نكص أمامهم ، وتراجع ، وفعلوا كما ظنَّ طليحة الأسدي ، وثبت المسلمون ، وأمسكوا عن القتال وقد راقبوهم وهم يطاردون القعقاع ورجاله ، ثم قال النَّاس للنعمان لما تأخَّر عليهم في أمر القتال: ألا تَرى ما نحن فيه؟ ألا تَرى إلى ما لقي النَّاس؟ فما تنتظر بهم ، ائذن للناس في قتالهم.

وتمهَّل النعمان حتى تململَ المسلمون وقال أحدهم: لم أرَ كاليوم فشلاً. وبعد وقت ليس بالقليل كبَّر النعمان ، وحمل على الفُرْس والناس معه ، فدار قتالٌ شديدٌ استمرَّ وقتاً طويلاً ، حتى فتَح الله على المسلمين.

وفي هذا اليوم فرَّ الفيرزان قائد الفرس فتعقَّبه القعقاعُ ومعه نعيم بن مقرن المزني ، فأدرك القعقاعُ الفيرزانَ وقد بدأ يصعد جبلاً ، فصعِد خلفه حتى أدركه فقتله ، ومضىٰ جيش المسلمين حتى فتح همذان.

---

(١) المصدر السابق.

## القعقاع مجاهداً

جاء في كتب السِّير والروايات أنَّ القعقاعَ كان مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ في الجمل وصفّين ، ولكنه لم يكنْ مقاتلاً بسيفه بل كان يقوم بمهمة السفير بين علي بن أبي طالب وخصومه ، ولم نجدْ في صفين والجمل مشاهد تتحدَّث عن القعقاع.

ولم تكن سيرته في هذه السنوات العجاف في بريقها كما كانت في القادسية ونهاوند ، والمدائن وغيرها ، بل كان الجهاد وكفى.

## وداعاً أيها القعقاع

وفي الكوفة عاش القعقاعُ أيَّامه الأخيرة ، وبعد حياةٍ حافلةٍ بالجهاد ، فيَّاضة بالبطولة والغَيْرَة على دين الله عزَّ وجل ، انتهت حياةُ قائدٍ من قادة الإسلام ، ومضت رحلةٌ طويلةٌ حمل فيها أحدُ قادة النبي ﷺ سيفه في سبيل نشر كلمة الحق ، والقضاء على الشر والباطل على وجه الأرض.

رضي الله عن القعقاع القائد ، البطل ، رجل المهمات والمدد في عُسْرة المسلمين.



# (٢)

# المثنى بن حارثة الشيباني

قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

## تحية للرجل

امْتدت الأيادي، وصافحت العيون؛ سيرة المثنى بن حارثة الشيباني، فكان الشعورُ بدفء الإيمان وجمال الموقف لهذا الصحابي الجليل وسيرته؛ خيرَ حافزٍ للمضي قُدُماً في الحديث عن رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا قصير العِماد.

هذا المثنى هزّ أبوابَ الجاهلية بعنف، فبدأت حصونُها تتساقط هنا وهناك.

كان أول من دقّ أبواب العراق وبلاد فارس، ليُسمعهم ولأوّل مرّة صوتَ الإسلام عالياً، فدوّت كلمةُ لا إله إلا الله في البحرين وعلى الحدود الجنوبية؛ فسمعها كسرى هناك في إيوانه، واهتزّت فرائصُ قادته من هذا الدويّ الهائل، الذي تجاوز الآفاق، حتى وصل إلى القصر الأبيض في المدائن.

هذا الشَّيباني البطل، العريق النسب، العربي الأصل والأرومة، ينهل من فروسيةٍ كانت في الجاهلية بشهادة يوم «ذي قار» أَعْرَق فروسية، إنها فروسية بني شيبان التي تعلَّم منها المثنى بن حارثة إقدامَ الفارس، ليس فيها فرار، ولكن كلها كَرٌّ وإقدام.

وعلى مضمار فروسية بني شيبان بأطراف اليمامة ، بين البحرين وسواد العراق ، تعلَّم المثنى البطولة والفروسيةَ على يد أهله وذويه من بني شيبان؛ الذين كانوا من هامات «ربيعة» ، وكان لهم قبل الإسلام أيام وأمجاد ، وخبروا الفرس وقهروهم في يوم ذي قار، ولما أقبل عليهم النبي محمدﷺ ، كان العهد على الجهاد ، وسطّر المثنى ـ رضوان الله عليه ـ فصولاً من الجهاد نرفع لها اليُمنى بالتحية ، ونشيرُ لها بالتقدير ، لتكون أول لقائنا ، تحية للرجل ، فتحية للمثنى البطل في مطلع سيرته العطرة.

## من هو المثنى؟

### أ ـ بنو شيبان:

ليس في العرب أعزّ من شيبان داراً ، ولا أكثر حليفاً[1] ، وبنو شيبان أصحابُ مجدٍ عظيم قبل الإسلام ، كانوا من هامات «ربيعة»فهم بطن من بكر بن وائل ، وبنو بكر بن وائل بطن من ربيعة[2].

سكنوا أطراف اليمامة ، بين البحرين وسواد العراق ، وقد كانت هذه المناطقُ ترزح تحت نفوذ الدولة الساسانية الفارسية[3].

وقد قيل في بني شيبان الكثير مما يدلّ على عراقة أصلهم ، وشجاعة رجالهم ، وأشهر من تحدّث عنهم خليفةُ رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق فقال: «ليس بعد هؤلاء من عزّ في قومهم».

ونخلص إلى عروبة شيبان ، فهم من أصل عدناني وفرع من قبيلة بكر بن وائل ونسبهم هو: شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أقصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

---

(١) الكامل (٣/ ١٢٧).

(٢) معجم البلدان (٣/ ٣٧٨).

(٣) سبائك الذهب (٥٥).

وقد كان لبني شيبان أيامٌ خالدةٌ في الجاهلية ، منها يوم ذي قار فهم أبطالُ هذا اليوم، الذي انتصف العربُ فيه من العجم لأول مرة في التاريخ[١] .

ولهم أيّامٌ أُخرى في الجاهلية مثل يوم خراز ، ويوم البسوس ، وهي أيامٌ تشهد لبطولتهم وفروسيتهم التي امتدت إلى ما بعد الجاهلية ، وتجلَّت في لقائهم مع الفرس ، فهم طلائعُ الفتح الإسلامي بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني ، الذي يعدّ أول قائد إسلامي يدق أبواب الإمبراطورية الفارسية ، ومعه أبطالٌ من شيبان من بينهم شقيقه المعنّى بن حارثة أحد أبطال القادسية.

ب ـ نسبه:

هو المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضمة بن سعد بن مرة بن ذهل بن سنان الربعي الشيباني[٢] .

قال عنه القرطبي المالكي في «الاستيعاب»[٣]: كان المثنى بطلاً ميمون النقيبة ، حسن الرأي والإمارة ، أبلى في حروب العراق بلاءً لم يبلغه أحد.

## اللقاء الأول

وقد بدأت علاقة «بني شيبان» قوم المثنى بالإسلام عندما عرض النبي ﷺ الدعوة على القبائل قبل الهجرة إلى المدينة المنورة ، فلقي صلوات الله وسلامه عليه جماعةً من بني شيبان ، فتلا عليهم قول الله تعالى:

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقد كانت بداية قصة هذا اللقاء على لسان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال:

لما أَمر الله رسولَه أن يعرضَ نفسه على قبائل العرب ، خرجَ وأنا معه

(١) العقد الفريد (٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٩).
(٢) الإصابة (٣/ ٣٦١).
(٣) الاستيعاب (٣/ ٥٢٢) على هامش الإصابة.

وأبو بكر إلى منىً ، حتى دفعنا إلى مجلسٍ من مجالس العرب ، فتقدَّم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ، فسلَّم ، وكان أبو بكر مقدّماً في كل خير ، وكان رجلاً نسّابة ، فقال: ممّن القوم؟ قالوا: من بني شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي ، ليس بعد هؤلاء من عزّ في قومهم.

وكان في القوم من بني شيبان: مفروق بن عمرو ، وهانىء بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك.

وفي هذا المجلس تفوّق مفروق بن عمرو على أقرانة في الردّ والإجابة وفصاحة اللسان ، فعندما بادره أبو بكر بالسؤال: كيف العدد فيكم؟

فقال مفروق: إنّا لنزيدُ على الألف ، ولن تُغلب ألف من قلّة.

قال أبو بكر: فكيف المنعة فيكم؟.

قال مفروق: علينا الجهد ولكل قوم جدّ ـ أي حظّ ـ.

قال أبو بكر: فكيف الحربُ بينكم وبين عدوكم؟

قال مفروق: إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثُر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله؛ يديلنا مرة ، ويديل علينا مرّة.

ثم بادر مفروق رسول الله ﷺ قائلاً: إلامَ تدعو يا أخا قريش؟.

فقال ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة: أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، وأني رسول الله ، وأن تؤووني ، وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحقّ ، والله هو الغني الحميد».

قال مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟

فتلا رسول الله ﷺ قول الله تعالى من سورة الأنعام:

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ

﴿إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

إلى قوله تعالى:

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

فقال له مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه.

فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى من سورة النحل:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

فقال مفروق: دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أُفِك قوم كذَّبوك، وظاهروا عليك.

ثم أضاف مفروق: وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال هانىء ـ بعد أن أشركه مفروق في الحديث ـ: قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش، وصدَّقتُ قولك، وإني أرى أنَّ تركنا ديننا واتباعك على دينك لمجلسٍ جلسته إلينا، ليس له أول ولا آخر، لم نتفكر في أمرك، وننظر في عاقبة ما تدعو إليه زلة في الرأي، وطيشة في العقل، وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلّةُ مع العجلة. وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر.

ثم أضاف قائلاً: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا.

وقد تبيَّن من مقالته فروسية المثنى، فهو صاحبُ حربهم أي فارسهم الأول، وقائد جيشهم.

فقال المثنى بن حارثة: قد سمعتُ مقالتك واستحسنتُ قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلمتَ به... إنما نزلنا بين صَرَيين.

قال عليه الصلاة والسلام: وما هذان الصَّريان؟.

فقال المثنى: أما أحدهما فططفوف البر[1] وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى، وإنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي مُحدِثاً، ولعلَّ هذا الأمر الذي تدعو إليه ممّا تكرهه الملوك، فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول. وأما ما كان ممّا يلي بلاد فارس، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، فإن أردتَ أن ننصرك ممّا يلي العرب فعلنا.

فقال ﷺ: «ما أسأتم إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه بجميع جوانبه».

ثم قال ﷺ: «أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ويفرشكم نباتهم، أتسبحون الله وتقدِّسونه؟».

فقال له النعمان بن شريك: اللهم وإن لك ذلك يا أخا قريش!.

فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى من سورة الأحزاب:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

ثم نهض رسول الله ﷺ قابضاً على يدي أبي بكر ـ رضي الله عنه[2] ـ.

وقد بشَّرهم رسول الله ﷺ لما وجد فيهم من صدق الحديث والنيّة.

وقد يقول القائل إنّ بشارة النبي لهم جاءت قبل يوم ذي قار، فانتصروا فيه على الفرس، وهذا ما تحدّث عنه ابن الأثير في تاريخه من أن النبي ﷺ لمّا بلغه ما كان من ظفر قبيلة بني شيبان «ربيعة» في يوم «ذي قار» قال: «هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم، وبي نُصروا».

على أنّ هذا اللقاء الأول لا يعتبر بداية إسلام المثنى بن حارثة، وذلك

(١) الطفّ: الجانب والشاطىء وسفح الجبل (المعجم الوسيط، الطفّ).

(٢) البداية والنهاية (٣/ ١٤١ ـ ١٤٢) وقال ابن كثير: هذا حديث غريب جداً، كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم وفصاحة العرب. =

لأنه كان قبل هجرة رسول الله ﷺ ، ولكن لعلّها بشارة لبني شيبان كي يكونوا مسلمين ، ويصبحوا في طليعة المجاهدين الأبطال.

## اللقاء الثاني: إسلام المثنى

ممّا لا شك فيه أن للمثنى صحبة مع رسول الله ﷺ؛ فقد أجمعت كتبُ السير على إسلام المثنى في سنة تسع على الرغم من أنه صدَّقَ بكلام الرسول ﷺ في اللقاء الأول. ولقد كانت المغازي هي المنهل الكبير الذي أخذ منه المؤرخون سير الصحابة وتراجمهم ، ومسائل فقهية كثيرة ، ولتأخّر المثنى في إسلامه ، وعدم ظهوره في مواقف بارزة في المغازي دور في اضطراب عبارات ثقات المؤرخين عنه ، وقد لاحظنا هذا الاضطراب عند ابن حجر في الإصابة[1] إذ يقول: «قال ابن حبان: له صحبة» ، ثم يضيف عبارة قد توحي بجهل الناس لشخصية المثنى يقول فيها: «وقال عمرو بن شبة: كان المثنى ابن حارثة يغير على السواد ، فبلغ أبا بكر خبره ، فقال: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه».

ويضيف المصدر نفسه بقوله: كان إسلامه وقدومه على النبي ﷺ سنة تسع هجرية ويقال سنة عشر!!. وكيف يقدم على رسول الله ﷺ ولا يكون له صحبة؟ ويقول عنه أبو بكر إنه مجهول النسب؟!.

ويؤكد تاريخَ إسلامه القرطبيُّ في استيعابه عندما يقول: «المثنى بن حارثة الشيباني كان إسلامهُ وقدومُه في وفد قومه على النبي ﷺ سنة تسع وقد قيل سنة عشر»[2].

وقد خلت كلمة سنة تسع في كل المراجع التي نظرنا فيه من تحديد أي سنة تسع أهي بعد الهجرة أم بعد تسع سنوات من بعثة النبي ﷺ ، وبذلك يكون إسلام المثنى قبل الهجرة ، ولهذا مال بعض المؤرخين إلى أن إسلامَ

---

(١) الإصابة (٣/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).

(٢) الاستيعاب (٣/ ٥٢٢) على هامش الإصابة.

المثنى كان مبكّراً وقبل البعثة ، وقد تمّ إسلامهُ في اللقاء الأول الذي تحدّثنا عنه .

ومهما كان التحقيقُ فإن الأهم في نظرنا أنَّ للمثنى صحبة مع الرسول ﷺ ، وأنه شارك وفد شيبان في لقائه بالرسول ﷺ ، وقد أجمعت كل المصادر على ذلك .

## في حروب الردة

وجّه أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ كتاباً حمَّله لقادته؛ الذين حمَّلهم مسؤولية قتال المرتدين ، وقد كان القادة على النحو التالي :

اللواء الأول : لخالد بن الوليد ، وأمره بطليحة بن خويلد الأسدي .

اللواء الثاني : لعِكْرمة بن أبي جهل ، وأمره بمسيلمة الكذَّاب في اليمامة .

اللواء الثالث : للمهاجر بن أبي أمية ، وأمره بقتال الأسود العنسي بصنعاء .

اللواء الرابع : لخالد بن سعيد بن العاص ، وبعثه إلى الحَمْقَتَيْن من مشارف الشام .

اللواء الخامس : لعمرو بن العاص ، ووجهه إلى قُضاعة .

اللواء السادس : لحذيفة بن مِحْصَن الغلفاني وأمره بالتوجه إلى أهل دَبَا بعُمان .

اللواء السابع : لعرفجة بن هرثمة ووجهه إلى أهل مَهْرة .

اللواء الثامن : لسُويد بن مقرّن ، وأمره بتِهامة اليمن .

اللواء التاسع : للعلاء بن الحضرمي ، وأمره بالبحرين .

اللواء العاشر : لطُريفَة بن حاجز ، وأمره ببني سُليم ومَن معهم من هَوازن .

اللواء الحادي عشر: لشرحبيل بن حَسَنة، وبعثه في أثر عكرمة بن أبي جهل[1].

وعلى حدود البحرين ـ بين اليمامة وحدود الفرس ـ كانت تقيمُ «شيبان» قبيلة المثنى بن حارثة، ولذلك فقد كان طبيعياً أن يلتقي المثنى بالعلاء بن الحضرمي.

وكتب أبو بكر كتابه للمرتدين حمَّله للعلاء بن الحضرمي وإخوانه قادة الألوية، كلٌّ في وجهته قال فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم:

من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى مَن بَلَغه كتابي هذا من عامَّة وخاصَّة، أقام على إسلامه أو رجع عنه. سلامٌ على مَن اتبع الهدى...

ثم مضى أبو بكر في رسالته يبيّن للنَّاس أن محمداً ﷺ قد مات وأنّ الله حيٌّ لا يموت.

وفي النهاية قال مخاطباً المرتدين وغيرهم من أهل البحرين:

وإني بعثتُ إليكم العلاء بن الحضرمي في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألاَّ يقاتل أحداً ولا يقتله، حتى يدعوَه إلى داعية الله؛ فمن استجابَ له وأقرّ وكفّ وعمل صالحاً قبلَ منه، وأعانه عليه؛ ومَن أبى أمَرْتُ أن يقاتلَه على ذلك؛ ثم لا يبقى على أحد منهم قَدَر عليه، وقد أمرتُ رسولي أن يقرأ كتابي في مجمع لكم؛ والداعية الأذان...[2] إلى آخر الرسالة.

ارتدت ربيعةُ مع مَن ارتدَّ من القبائل في البحرين، ولكن المثنى بن حارثة ثبت مع مَن ثبت من قومه بني شيبان، فكتب إليه العلاءُ بن الحضرمي

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٤٩).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥١).

يطلبُ العون على قتال المرتدين حتى يعودوا إلى صوابهم ، ويرجعوا عن رِدَّتهم[١] .

استجاب المثنى لدعوة العلاء ، وقاتل المرتدين ، وقطع الطريق عليهم ، وضرب معاونيهم من الفرس في شمال الخليج العربي .

وكانت عملياتُ المثنى في البحرين خيرَ عون للعلاء بن الحضرمي ، إلاّ أن المثنى ـ رضي الله عنه ـ لم يكتفِ بهذا القدر ، وإنما انطلق شمالاً فضرب الفرس ومن معهم من المرتدين وسيطر على أهم المدن في البحرين منها : القطيف ، وهجر . واستمر تقدّم المثنى حتى أقصى شمال الخليج عند مصبّ دجلة والفرات ، وأثار هذا التقدّم ردود فعل في المدينة حيث قيادة المسلمين ، وتساءل الناس : «من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه»[٢] .

فجاءت إجابةُ قيس بن عاصم المنقري التميمي «سيد أهل الوبر» وصاحب رسول الله العاقل المشهور بالحلم تجيب عن هذا التساؤل فقال قيس : «هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة»[٣] .

ولم يكتف المثنى بهذا القدر من العمل الذي أثار مشاعر القيادة في المدينة ، ولقي استحسانها ، بل ذهب إلى المدينة بنفسه يستأذن القائد العام أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فلما قدم عليه قال : «يا خليفة رسول الله ابعثني على قومي ، فإنّ فيهم إسلاماً ، أقاتل بهم أهل فارس ، وأقتل أهل ناحيتي من العدو»[٤] .

كتب أبو بكر الصديق عهداً بذلك للمثنى ، بعد أن أطمعه في الفرس وهوّن أمرهم عند المسلمين ، وكان هذا التكليفُ بداية العمل ضد الفرس .

---

(١) الطبري (٣/ ٣٠١ وما بعدها) .
(٢) الإصابة (٣/ ٣٦١) .
(٣) (فتوح البلدان ٢٤٢) .
(٤) الإصابة (٣/ ٣٦١) .

وقد كانوا أقوياء يخشاهم الناس ، إلاّ أن المثنى يُعَدُّ أول قائد إسلامي جرّأ العرب والمسلمين على مهاجمة الفرس تمهيداً لفتح العراق ، وكانت له مشاهد كثيرة في هذا المضمار.

## يوم ذات السلاسل

كان خالد بن الوليد في اليمامة حينما جاءت انتصارات المثنى على أهل السواد من أرض العراق الخصبة.

وفي أثناء قتال المثنى للفرس طلب مدداً من أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حيث أرسل إليه أخاه مسعوداً ، فأمدَّه بخالد بن الوليد المخزومي ، على أن يتولّى خالد القيادة العامة ويكون المثنى بإمرته.

وقد كتب أبو بكر لخالد بن الوليد وهو في اليمامة يأمره بالتوجه إلى العراق ، حتى يلقى عياض بن غُنم.

وقال أبو بكر في رسالته لخالد وعياض ـ رضي الله عنهما ـ: «استنصرا المثنى بن حارثة ، فلم يشهد الأيام بالعراق مرتد»[١].

وصل خالد إلى حدود العراق ، وكتب إلى هرمز قائلاً: أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومِك الذِّمَّة ، وأقرّ بالجزية ، وإلا فلا تلومَنَّ إلا نفسَك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

ثم فرّق خالد جنده ثلاث فرق ، ولم يحملهم على طريقٍ واحد ، فأمر المثنى أن يمضي قبله بيومين.

ولما قدم كتابُ خالد إلى هُرْمُز كتب بالخبر لقادته يطلب العون والمدد ، وعند كاظمة ـ وهي مدينة على شطّ العرب بالقرب من البصرة ـ دَارَ نزالٌ بطوليّ شارك فيه المثنى بن حارثة ورجاله من شيبان ، حتى انهزم الفرسُ فطاردهم المثنى والمسلمون حتى الليل[٢].

---

(١) الطبري (٣/ ٣٤٣ وما بعدها).
(٢) المصدر السابق.

وقد غنم المسلمون في هذا اليوم غنائم كثيرة ، بلغ سهم الفارس فيها ألف درهم بخلاف السلاح ، وأخذ المثنى سهمه شأنه شأن أي جندي ، ولم تكن سعادته بالمال قدر سعادته بالنصر المؤزَّر على هؤلاء الذين أرادوا بالإسلام شرّاً فأصابهم الله بشرّ هزيمة لحقت بهم.

## يوم الثّني

اجتمع الفرسُ بعد هزيمة ذات السلاسل ، عند منطقة المذار على نهر الثني. وجاؤوا بمددٍ آخر ، وقد كان المثنى في جولة استطلاعية يصحبه فيها أخوه المعنّى بن حارثة الشيباني ـ رضي الله عنهما ـ فلاحظا تجمّع الفرس عند الثني. فرجعا إلى خالد ، وقالا له: إن القوم اجتمعوا بالثني ، المغيث والمغاث[1].

وقد كان النزالُ الشديدُ ، وكللت جهود المثنى بن حارثة وأخيه المعنّى تحت قيادة خالد بن الوليد بالنصر.

وقد زاد سهمُ الفارس من المسلمين يوم الثني عن سهمه في يوم ذات السلاسل ، وبعث خالد بن الوليد الأخماس إلى أبي بكر في المدينة ، ثم أقام ومعه جنده الأبطال بالمزار.

وبدأ يتطلع إلى لقاء آخر مع الفرس يحطم فيه باطلهم ، ويقضي على الوثنية التي سيطرت على عقولهم ، وأعمتهم عن طريق الصواب.

## يوم الحيرة

ظلّ خالد يستعين بالمثنى بن حارثة في كل موقعٍ ومكان ، ويستخلفه على مدن ومواضع إذا غاب عنها.

وفي يوم الحيرة وصل خالد وأصحابه ، فلم يلقوا أحداً من الفرس ،

---

(١) يقصد بالمغاث الذي هرب من ذات السلاسل و يحتاج للمدد. والمغيث هو الذي هبّ لنجدة إخوانه.

فأقاموا بين الغَرِيَّيْنِ والقصر الأبيض ، فقد تحصَّن أهل الحيرة والأحجال لقتالهم وهم داخل الحصون .

ضمَّ خالد بن الوليد الخيل إلى عسكره ، وأمر بكل قصر رجلاً من قادته يحاصره ويقاتل أهلهُ ومن فيه ، وقد حاصر المثنى بن حارثة قصر ابن بُقيلة ، وحاصر ضرار بن الأزور القصر الأبيض ، وغيره من القادة حاصروا قصوراً مختلفة ، منهم ضرار بن الخطاب ، وحاصر قَصْرَ العيريين وفيه عدي بن عديّ[1] .

نعود إلى المثنى الذي حاصر قصر عمرو بن بُقيلة ، وكان فيه عمرو بن عبد المسيح .

وقد أصدر إليهم خالداً أمراً يعهد إليهم البدء بدعوتهم للدين ، فإن أجابوا قَبِلوا منهم ، وإن أَبَوْا أَجَّلُوهم يوماً ، ثم قاتلوهم وقتلوهم .

ولما وجد هؤلاء الخونة الذين ساعدوا الفرس ، وتحصَّنوا بقصورهم أن قوّات المسلمين قد همَّت بالفتك بهم؛ استسلموا ، وصالحوا خالداً على جزية مقدارها مئة ألف وتسعين ألف درهم. وقد وافق خالد على الصلح بعدما كتب إلى أبي بكر يستشيره في الأمر فجاءه الردّ من المدينة يقول: «أن احْسِبْ لهم هديتهم من الجزية ، إلا أن تكون الجزية ، وخذ بقية ما عليهم ، فقَوِّ بها أصحابك»[2] .

ثم انتهى يوم الحيرة بكتاب بينهم وبين خالد ورجاله يقول فيه: «هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عَديّاً وعَمْراً ابني عدي ، وعمرو بن عبد المسيح ، وإياس بن قُبيصة ، وحيري بن أكّال وهم رؤساء أهل الحيرة ، ورضي بذلك أهل الحيرة ، وأمروهم به؛ عاهدوهم على مئة ألف وتسعين ألف درهم ، تُقبل في كلّ سنة جزاءً عن أيديهم في الدنيا ، رهبانهم وقِسِّيسيهم ، إلاّ من كان منهم على غير ذي يَدٍ ، حبيساً عن الدنيا ، تاركاً

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣٥٠).
(٢) المصدر السابق.

لها؛ وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم فلا شيءَ عليهم حتى يمنعهم ، وإن غَدروا بفعل أو قول فالذِّمة منهم بَريئة»[1].

## بين المثنى وخالد

كان هرقل الرومي قد جمع جمعة للمسلمين في الشام وانتهز فرصة انشغال المسلمين مع الفرس كي يحقّق هدفه ، ويملك ما شاء أن يملك.

ولما علم أبو بكر بذلك قال: والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ، وكتب إليه كتاباً قال فيه: «سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك».

وختم أبو بكر رسالته قائلاً: «فليهنئك أبا سليمان النيّة والحظْوة ، فأتممْ يُتمم الله لك ، ولا يَدخلنَّك عُجْبٌ فتخسر وتُخذَل ، وإياك أن تُدِلّ بعمل ، فإن الله له المنّ وهو ولي الجزاء»[2].

ثم أمره أبو بكر أن يخرجَ في شطرٍ من النَّاس ، وأن يخلّف على الشطر الباقي المثنى بن حارثة ، وقال أبو بكر في ختام كتابه لخالد: «فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم؛ ثم أنت على عملك».

فأحضر خالد أصحاب رسول الله ﷺ واستأثر بهم على المثنى ، وترك للمثنى مثل عددهم ممن لم يكن له مع الرسول صحبة ، ثم نظر فيمن بقي؛ فاختار مَن كان قدم على النبي ﷺ وافداً أو غير وَافِد ، وترك للمثنى مثل عددهم من أهل القناعة ثم قسَّمَ الجند نصفين.

غضب المثنى وقال: والله لا أُقيم إلاَّ على إنفاذ أمر أبي بكر كلّه؛ في استصحاب نصف الصحابة ، أو بعض النصف؛ وبالله ما أرجو من النصر إلا بهم ، فكيف تُعرِّيني منهم.

---

(١) الوثائق السياسية (٣٧٩ ـ ٣٨٠).

(٢) المصدر السابق (٣٩٠).

تلكّأ خالد قليلاً ، ثم عذر المثنى وأرضاه ، وأخذ حاجته ، وذهب ماضياً لوجهه. فخرج المثنى في وداعه ، ولما حانت لحظة الفراق ودع خالد المثنى قائلاً: «ارجع ـ رحمك الله ـ إلى سلطانك غير مقصّر ولا وانٍ»[1].

## في مواجهة الخطر

غادر خالد بجيشه الجرَّار أرض العراق ، بعد أن رحّل النساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة[2].

وما أن علم كسرى بذلك حتّى حشد آلاف الجنود بقيادة «هرمز جاذوَيْه» وكتب للمثنى يهدّد ويتوعّد فقال: «إني قد بعثت إليكم جنداً من وحش أهل فارس ، وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم».

أجابه المثنى بعقلٍ وفطنة ، ولم ينسَ شجاعته في الردّ على هذا المجوسي ، فكتب يقول في رسالة لكسرى: «إنما أنت أحد رجلين؛ إما باغ ، فذلك شرّ لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وعند الناس الملوك. وأما الذي يدلّنا عليه الرأي ، فإنكم إنما اضطررتم إليهم، فالحمد لله الذي ردَّ كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير»[3].

ودار على أثر هذه الرسائل قتال شديد ، انهزم على أثره الفرس ، فطاردهم المثنى حتى أبواب المدائن.

## يوم النمارق

طارد المثنى أعداء الله ، حتى بلغ أبواب المدائن ، ثم كتب إلى أبي بكر بانتصاره على الفرس ، واستأذنه في الاستعانة بمن تابوا من أهل الردّة ، لكن انتظاره طال ، وأبطأ عليه أبو بكر في الردّ لمرضه ، فانسحب في الجيش إلى

---

(١) فتوح البلدان ص(٢٥١).
(٢) الطبري (٣/ ٤٠٦) وما بعدها.
(٣) الكامل (٢/ ١٦٠) والطبري (٣/ ٤١٢).

أدنى العراق من حدود البادية ، واستخلف بشير بن الخصاصيَّة على مَن بالعراق من المسلمين ، وذهب بنفسه إلى المدينة ليقنع أبا بكر برأيه .

فلما وصل إلى المدينة وجد أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ على فراش المرض وقد شارف الموت ، واستقبله أبو بكر واستمع إليه ، واقتنع برأيه ، ثم طلب عمر بن الخطاب فجاءه فقال له: «اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به؛ إني لأرجو أن أموتَ من يومي هذا ، فإن أنا مِتّ فلا تمسينّ حتى تندُب النَّاس مع المثنّى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تُصْبحنّ حتى تندب النَّاس مع المثنَّى ، ولا تشغلنَّكم مصيبة وإن عَظُمت عن أمرِ دينكم ووصية ربِّكم ، وقد رأيتَني متوفَّى رسول الله ﷺ وما صنعتُ ولم يُصَب الخلق بمثله. . . وإن فتح الله على أُمراء الشام فارددْ أصحابَ خالد إلى العراق ، فإنهم أهلهُ وولاة أمره وحدّه؛ وهم أهلُ الضراوَة بهم والجراءة عليهم»[1] .

مات أبو بكر ، وندب عمرُ الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر ، ثم أصبح فبايعه النَّاس خليفةً لأبي بكر ، فدعا الناسَ إلى فارس ، ولكن مضى ثلاثة أيام ولم يخرج أحدٌ لكراهيتهم قتال الفرس ، فوقف المثنى في النَّاس خطيباً ليقول: «أيها النَّاس ، لا يَعْظُمَنَّ عليكم هذا الوجه؛ فإنا قد تبحبحنا ريفَ فارس ، وغلبناهم على خير شِقَّي السَّواد ، وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأ مَن قِبلَنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها»[2] .

وتحدّث عمر ـ رضي الله عنه ـ ، فكان أوَّلُ مَن خرج من الناس أبو عبيد بن مسعود وخرج بمن معه ، وعَجَّلَ المثنى العودة إلى جنده ، والتقى المسلمون والفرس عند موضع قرب الكوفة من أرض العراق يقال له النمارق ، ونزل المثنى بموضع قرب الكوفة يقال له الخفان ودار قتال شديد ، بعد أن التحم الجيشان واقتتلوا قتالاً شديداً ، انهزم على أثره الفرس ، وأُسِرَ قائدهم جابان وولّت البقية هاربة ، وغنم المسلمون غنائم

---

(١) الطبري (٣/ ٤١٤).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٤٤٥).

كثيرة. وقسم أبو عُبيد الغنائم بين المسلمين، وبعث بالأخماس إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ في المدينة.

قد عبَّر المثنى بن حارثة الشاعر عن مشاعره يوم النمارق، فأنشد يقول:

غَلَبنا على خَفَّانَ بيداً مشيحةً ... إلى النّخلات السُّمر فوق النمارق

وإنا لَنَرْجُو أن تجولَ خيولنا ... بشاطىء الفرات بالسيوفِ البوارق[1]

وقد تحقَّق رجاءُ المثنى بن حارثة الشيباني فيا بعد؛ فجالت خيولُ المسلمين بشاطىء الفرات يميناً ويساراً، تضرب قوى الشرك والوثنية في كل مكان، ومهما كانت هذه القوة.

وسنتابع سماع انتصارات وانتصارات جال فيها المثنى بسيفه البتّار على شاطىء دجلة والفرات.

وسنتابع أخبار انتصاراته يوماً يعد يوم من النمارق إلى السقاطية، ومن السقاطية إلى الجسر، ومن الجسر إلى البُوَيْب؛ حتى آخر يوم في حياته الحافلة بالبطولات.

## يوم السّقاطية

لما انهزم الفرسُ يوم النمارق قال رستم القائد العام للفرس لنَرْسِي ابن خالة كسرى، وحاكم مقاطعة كَسْكَر التي تحتوي على عدَّة قرى منها «واسط» بالعراق الآن: اشْخَصْ إلى قطيعتك فاحْمِها من عدوّك وعدوّنا، وكُنْ رَجُلاً.

وقد كان نَرْسي ابن خالة كسرى وحاكم كَسْكَر يتمتع بأجود أنواع التمر التي اشتهرت به كسكر.

وقد رأى أبو عبيد بن مسعود القائد العام لقوات المسلمين، رأى المنهزمين من يوم النمارق متوجّهين نحو نَرْسي حيث معقله في كَسْكَر، فقال

---

(١) معجم البلدان (٥/ ٣٠٤).

للمثنى ومعه جنده ـ وقد كان على تعبئته الماضية ، أي في حالة طوارىء قصوى ، ولم يسترح بعد من يوم النمارق ـ قال لهم: اتبعوهم[١].

هجم المثنى هجوماً شديداً ، ومعه أبو عبيد بجنود آخرين ، وكان النزال بالسقّاطية ، ـ وهي ناحية بأرض كَسْكَر بالقرب من واسط ـ فانهزم الفرسُ على أثر هذا الهجوم المباغت لأبي عبيد والمثنى بن حارثة الشيباني.

هرب نَرْسي بعد الهزيمة ، وسيطر المسلمون على أرضه وتمره وعسكره؛ الذين سقطوا في أيديهم أسرى.

وقد خرَّب أبو عبيد ما كان حول معسكرهم ، وجمع الغنائم ، فرأى ومعه المثنى من الأطعمة شيئاً عظيماً ، فبعثا فيمن يليهما من العرب ، وأُخِذت خزائن نرسي ، وقد امتلأت خزائنه بأجود أنواع التمر الذي أطلقوا عليه اسم «النَّرسِيان» ، فأكل منه العرب ، وجعلوا يطعمونه للفلاحين ، وبعثوا بالخمس إلى عمر ، وكتبوا إليه: «إنَّ الله أطعمنا مطاعم كانت للأكاسرة يَحْمُونها ، وأحببنا أن تَرَوْها ، لتذكروا إنعام الله وأفضاله»[٢].

أقام أبو عبيد في كسكر ، بينما مضى المثنى وأصحابه يغيرون على النواحي ، ويطاردون بقايا الجنود الفارّة منهم المتفرّقة هنا وهناك.

قد جاء بعضُهم ممّن خاف من جنود المثنى بن حارثة إلى أبي عبيد وصالحه ، وجاء الدهاقين من رؤساء الفلاحين والعجم وقد حملوا معهم آنية الطعام فيها أطعمة تختصُّ بأهل فارس وقالوا لأبي عبيد: هذه كرامة أكرمناك بها.

فقال: أأكرمتم الجند وقريتُموهم مثله؟.

قالوا: لم يتيسَّر ، ونحن فاعلون.

قالوا: لا حاجة لنا فيه ، بئس المرءُ أبو عُبيد إنْ صَحِب قوماً من بلادهم

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٥٠ وما بعدها).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٤٥١).

أهراقوا دماءهم دونه أو لم يُهريقوا ، فاستأثر عليهم بشيء يُصيبهُ! لا والله لا يأكل ممّا أفاءَ الله عليهم إلا مثْل ما يأكل أوْساطُهم.

ولم يأكل من طعام أتى به الدَّهاقين غَدَاةَ ذلكَ اليوم حتى علم أنّهم قرَّبوا مثله لأصحابه[١].

ترك أبو عبيد كسكر ، وقدَّم أمامه المثنى بن حارثة الشيباني ومعه رجاله حتى استقروا بالحيرة.

## يوم الجسر

ما خسر المسلمون يوماً بقدر ما خَسِروا يوم الجسر أو يوم «قس النَّاطِف» كما كان يُطلق عليه من بعضهم.

فعندما رجع الفرسُ منهزمين يوم السقاطية ، قال رستم: أي العجم أشدّ على العرب فيما ترون؟.

قالوا: بهمن جاذوَيْه ، وقد كان يلقب بذي الحاجب؛ لأنه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبراً.

وجّه رستم «بهمن جاذويه» ومعه الفيلة ، فسار إلى المدائن بقصد مواجهة المسلمين والقضاء عليهم ، ومعه راية كسرى.

وأقبل أبو عبيد ومعه جيش المسلمين ، وفيهم المثنى بن حارثة ، وعسكر بمنطقة تسمى «المروحة» على شاطىء الفرات ، وعلى الشاطىء الآخر وقف بهمن يقول: إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم[٢].

سمع أبو عبيد أصواتاً من خلفه تقول: لا نعبر إليهم يا أبا عبيد ، دعهم يعبرون.

---

(١) الطبري (٣/ ٤٥٢).

(٢) الطبري (٣/ ٤٥٤).

فلم يُعِرْ أبو عبيد اهتماماً لأصوات المسلمين خلفه ، وحلف ليقطعنّ الفرات إليهم ، ونسي في غمرة غيرته على دينه ، وإثارة عدوّه له ، نسي فنون القتال وتروّي القيادة!

فناشده سَلِيْط بن قيس وبعض النَّاس ، وقالوا: إنَّ العرب لَم تَلْقَ مثل جنودِ فارس مذ كانوا ، وإنهم قد حَفَلوا لنا واستقبلونا من الزُّهاء والعُدّة بما لم يلقنا به أحدٌ منهم ، وقد نزلت منزلاً لنا فيه مجال وملجأ ومَرْجع ، من فَرَّةٍ إلى كرَّةٍ.

فقال أبو عبيد بن مسعود: لا أَفْعَلُ ، جَبُنتَ والله!.

قال سَلِيط: أنا والله أجْرَأ منك نفساً ، وقد أشَرْنا عليك بالرأي فستعلم! فَلَجَّ أبو عبيد ، وترك الرأي ، وقال: لا يكونوا أَجْرأ على الموت منّا؛ بل نعبر إليهم[1].

أمر أبو عبيد جنودَهُ بالعبور ، فعبروا من المَرْوَحة ، حيث أقام الفرس ، وعبر سَلِيْط بن قيس في مقدمة العابرين ، ليثبت لصاحبه أنّه لم يقل ما قاله لأنَّه جَبُن ، لا والله ما جَبُن وهذا الفعل أمام مرأى من صاحبه ـ رضي الله عنه ـ.

تحدَّث الدكتور هيكل في كتابه (الفاروق عمر) عن هذا اليوم فقال: «وكان جند المسلمين دون عشرة آلاف ، ومع ذلك ضاق بهم المكان الذي تركه لهم الفرسُ وراء الجسر ، فلم يكن لهم فيه مَرْجِع من فَرَّةٍ إلى كرَّةٍ ، ولم يمهلهم بَهْمَن حين تمّ عبورهم فأمر جنوده فحملوا عليهم ، وفي مقدمتهم الفيلة عليها الجلاجل. ونظرت خيولُ المسلمين إلى هذه الفيلة ، وسمعت رنينَ جَلاجلها ، فأنكرتْ ما رأتْ وما سَمِعَتْ ، وفَرَّتْ ، فلم يثبت منها إلاّ القليلُ على كُرْهٍ ، ورشق الفرسُ المسلمينَ بالنَّبْل؛ فقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٥٦).

والتحم الجيشان ، واشتد الأمر ، وضاقت الأرض بما رحبت ، فنزل أبو عبيد والناس من على خيولهم ، ومشوا إلى الفرس وصافحوهم بالسيوف ، فحملت الفيلة بشدة على المسلمين ، ونادى أبو عبيد بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قائلاً : احتوِشوا[1] الفيلة ، وقطّعوا بُطُنَها[2] ، واقلبوا عنها أهلها.

أطاع الناسُ نداء أبي عبيد ، فما تركوا فيلاً إلا حطّوا عنه رحله ، وقتلوا مَن عليه من الفرس. ووثب أبو عبيد على الفيل الأبيض فقطع بِطَانه ، وضرب خرطومه بالسيف ، لكن الفيل تقدَّم وضرب أبا عبيد برجله الضخمة ، فسقط على الأرض ، ثم وقف الفيل فوقه فأزهق روحه ، واستشهد أبو عبيد ـ رضي الله عنه ـ.

نظر أصحابُ أبي عبيد بن مسعود فوجدوه تحت الفيل ، فخشعت أنفسُهم ، وأخذَ اللواء الأميرُ بعده ، وحمل المسلمون على الفيل حتى قتلوهُ.

وتتابع على حمل اللواء سبعة من المسلمين كلهم من ثقيف ، يُقْتَلُ الواحد فيمسك أخوه باللواء حتى قُتِلُوا جميعاً.

وينظر المثنى إلى الموقف فيرى صورة قاتمة ، ويزيد الموقف تعقيداً أحدُ أبطال هذا اليوم الذي دعا أصحابه إلى دخول نار هذه المحرقة ، التي اتَّضح فيها تماماً مدى خسارة المسلمين واستشهاد عدد كبير منهم.

اندفع عبد الله بن مرثَد الثقفي يقول للناس: يا أيها الناس ، موتوا على ما مات عليه أمراؤكم ، أو تظفروا[3].

وقد تضايق المثنى بن حارثة الشيباني لهذا الموقف ، وخاصة عندما تواثب بعضهم في نهر الفرات وتعرّض للغرق وغرق بعضهم بالفعل ،

---

(١) في اللسان: «يقال: احتوش القومُ الصيد؛ إذا نفره بعضهم على بعض».
(٢) البُطُن: جمع بطان؛ وهو حزام القتب.
(٣) الطبري (٣/ ٤٥٧).

فأمسك المثنى بالراية سريعاً ، ووقف ينادي على الناس محذّراً إيَّاهم من الهلاك .

نادى المثنى بأعلى صوته واللواء في يده : «يا أيها الناس ، أنا دونكم فاعبروا على هِينتكم[1] ولا تُدْهَشُوا ، فإنّا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ، ولا تُغْرِقُوا أنفسكم» .

التأم شملُ النَّاس ، وتجمَّعوا قبل أن تَعُم الفوضى ، وبدؤوا عبور الجسر ، وعبد الله بن مَرثد يمنعهم وهو قائم على الجسر ، فأخذوه معهم ، وأتوا به المثنى الذي عاقبه على موقفه المتهوّر في مثل هذه اللحظات .

قال له : ما حملك على الذي صنعت؟ .

فقال عبد الله بن مرثد : ليقاتلوا .

تركه المثنى وكرّر النداء قائلاً : أيها النَّاس ، من عبر نجا .

ثم قام المثنى بإصلاح الجسر ، فعبر النّاس ، وكان آخر من عبر ، ومضى إلى منطقة المَرْوَحة وهو جريح ، وهام بعضهم في البوادي استحياءً من الهزيمة .

وأرسل المثنى إلى عمر أخبار الهزيمة مع عبد الله بن زيد ، فلمّا انتهى إليه قال عمر ـ رضي الله عنه ـ : ما عندك يا عبد الله؟

فأخبره خبر النَّاس ، وما كان من أمر الهزيمة .

ولما قدم جمع الناس المنهزمين منهم ، ورأى عمر جزع المسلمين من المهاجرين والأنصار من الفرار ، قال ـ رضوان الله عليه ـ : لا تجزعوا يا معشر المسلمين ، أنا فئتكم ، إنما انحزتم إليّ . اللَّهم كلّ مسلم في حِلّ مني ، أنا فئة كل مسلم ، مَن لَقِيَ العدو فَفَظِعَ بشيء من أمره فأنا له فِئَةٌ! .

وأضاف عمر ـ رضي الله عنه ـ ، وصوته يحمل نيران الحزن : يرحم الله أبا عبيد ، لو كان انحاز إليّ لكنت له فئة .

---

(١) هينتكم : أي متمهِّلين .

وجاء صوت القارىء يتلو من سورة الأنفال:

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

بكى مُعاذ بن جبل بكاءً مُرّاً لما سَمِعَ الآية ، فقال له عمر: لا تبك يا مُعاذ ، أنا فِئَتُكَ ، وإنما انحزت إليّ.

وتجاوز المسلمون هزيمة يوم رأس الجسر ومضوا إلى نصر آخر ، وثان وثالث ، والمثنى بن حارثة معهم في انتصاراتهم الكثيرة.

## يـوم الـبُـويْـب

سُمّي يوم البُويْب بهذا الاسم لأن أحداثه جرت على نهر يُسمّى البُوَيْب بالعراق يأخذ ماءه من الفرات ، وسمّي يوم الأعشار ، لأنَّ مئة رجل من المسلمين قتل كل واحدٍ منهم عشرةً من الفرس. وسماه بعض الرواة يوم «مهران» ، لأن قائد الفرس في هذا اليوم هو «مهران الهمذاني» ، وكان هذا اليوم في سنة ١٣ هجرية.

لما ذهب النّاس إلى المدينة ، وبقي المثنى في عدد قليل منهم ، أرسل إلى عمر يطلب المدد ، وقد مكث المثنى بأُلَيْس يدعو الناس للجهاد ، واستجاب عمر بن الخطاب لطلب المثنى بعد طول انتظار لشدّة حزنه على شهداء يوم الجسر ، فأمر الناسَ بالخروج إلى المثنى ، وكان فيمن خرج جرير بن عبد الله في قومه من بَجِيلة ، وعصمة بن الحارث فيمن تَبِعَه من ضَبَّة ، وغيرهم وغيرهم ، فتتابعت الإمدادات على المثنى من المدينة ، وحشد المثنى ـ رضي الله عنه ـ جيشه في البُوَيْب.

ولقد لقي عمر بن الخطاب متاعب جَمَّة في إرسال هذا المدد إلى المثنى ، فقد تثاقل الناسُ ، حتى هَمَّ أن يغزو بنفسه ، وفيما هو كذلك حتى

قدم قومٌ من الأزد يريدون غزو الشام ، فدعاهم إلى العراق ورغّبهم في غنائم آل كسرى[1].

وعلى الجانب الآخر علم الفرس بالمدد القادم إلى المثنى ، فقد تواردت هذه الأخبارُ على رستم والفيرزان ، فأعدّا جيشاً ضخماً جعلا عليه القائد مهران الهمذاني ، وأَمَرَاهُ أن يسرع السير لِلقَاءِ المسلمين.

علم المثنى أيضاً بمسير الفرس ، فجمَّع قواته وحشدها في البُوَيْب ، ووقف المثنى على الضفة ، بينما وقف مهران أمامه من وراء الفرات ، وأرسل مهران إلى المثنى من يقول له: إما أن تَعْبُرَ إلَيْنا ، وإما أن نعبُرَ إليك.

فقال المثنى: اعْبُروا؛ فعبر مهران ، ونزل مع جنده على شاطىء الفرات.

عندئد عَبَّأ المثنى أصحابه ، وقد كانوا في رمضان ، فوقف فيهم خطيباً وقال: «إنكم صُوَّام ، والصَّوْمُ مَرَقَّةٌ ومَضْعَفة؛ وإني أرى من الرأي أن تُفْطِروا ثم تَقَوَوْا بالطعام على قتال عدوّكم» فقالوا: نعم ، فأفطروا.

سمع المثنى بعد هذه الكلمات ضجيجاً هناك عند أحد الصفوف ، فنظر ودَقَّقَ النظر فإذا برجل يتهيأ للانقضاض على العدو ويتقّدم نحوه!!.

فقال لأصحابه: من هذا؟ وما باله؟.

قالوا: هو رجل مِمّن فرّ يوم الزَّحف يَوْم الجسر ، وهو يريد أن يستقتِل.

فهتف المثنى: لا أبالك! الزم موقفك؛ فإذا أتاك قِرنُك فأغْنِه عن صاحبك ولا تستقتل.

بهت الرجل ووقف للحظة صامتاً ، ثم قال: إني بذلك لجدير. واستَقَرَّ وَلَزِمَ الصَّفَّ[2].

عندئذ أقبل الفرس في ثلاثة صفوف ، مع كل صف فيل ، وجنودهم أمام فيلهم. وأخذ المثنى يطوف بين رجاله ، يشدّ من أزرهم ، ويعهد إليهم

---

(١) هكذا في فتوح البلدان للبلاذري ص(٢٥٣).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٤٦٢).

بِعَهْدِه ، وقد امتطى فرسه «الشموس» ، وتفقَّد الرَّايات رايةً رايةً ، يحضّهم على القتال ، ويأمرهم بأمره ويَهُزَّهم بأحسن ما فيهم ، تشجيعاً لهم فيقول: «إني لأرجو ألاّ تؤتى العربُ اليوم من قِبَلكم ، والله ما يسرّني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرّ لعامتكم» فيجيبونه بمثل ذلك.

وظل على هذه الحال مبيناً لهم إيمان المؤمنين وجهاد المجاهدين ، وخلط الناس في المكروه والمحبوب ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قَوْلاً ولا عَمَلاً.

ثم قال المثنى: إني مكبِّرٌ ثلاثاً ، فتهيؤوا ، ثم احمِلوا مع الرابعة.

فلما كبَّر أوّل تكبيرة هجم أهل فارس وأعجلوهم ، فخالطوهم مع أول تكبيرة ، فمالت صفوفُ الفرس على صفوف المسلمين ميلةً شديدة ، اختلّت على أثرها صفوفُ المؤمنين.

فجاء صوت المثنى يشقّ الآفاق: أيها الناس ، إن الأمير يقرأ عليكم السلام ، ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم.

فجاء ردّهم جميعاً: نعم ، واعتدلت صفوفهم ، واستطالت سيوفُهم تحزّ رؤوس المجوس.

وحمل المثنى على مِهران قائد الفرس ، فكسر قلب ميمنته ، فتراجع مِهران ، وخالطه المسلمون ، وارتفع الغبارُ فملأ الآفاق ، فانعدمت الرؤية من كثافته ، حتى لم تعد الصورة واضحةً أين الجلاد ، وفي أيّ منهم مسلمون أم فرس.

وقد أُصيب مسعودُ بن حارثةَ الشيباني شقيق المثنى وبعضُ وجوه المسلمين. ولما أصيب مسعودُ ـ رضوان الله عليه ـ نادى قائلاً: يا معاشر بكر ـ وهم قومه ـ ارفعوا رايتكم رفعكم الله ، ولا يَهُولَنَّكم مصرعي.

وقال المثنى: إذ رأيْتُمونا أُصِبْنا فلا تَدَعوا ما أنتم فيه؛ الزمُوا مصافَّكم ، وأغنوا غَناء من يليكم.

وقُتِلَ مِهران على يد غلام عربي نصراني ، شدَّ لعروبته فقاتل في

الصفوف ، بينما يأتِي صوتُ المثنى قائلاً: انصروا الله ينصركم ، انصروا الله ينصركم.

انهـزم الفُـرس ، وفـرّوا ، فلحقهـم المثنـى وجنـوده ، وملـؤوا الآفـاق بجثثهم ، وما إن استراح المجاهد المثنى استراحة البطل المحارب حتى قال يحدّث أصحابه: قد قاتلتُ العربَ والعَجَم في الجاهلية والإسلام ، والله لمئة من العجم في الجاهلية كانوا أشدَّ عليّ من أَلْفٍ من العرب ، ولمئة اليومَ من العرب أشدُّ عليَّ من ألف من العجم؛ إنّ الله أذهب مصداقهم ، ووهَّن كَيْدهم ، فلا يروَعنّكم زُهّاء[1] تَـرَوْنَـه ولا سواد ، ولا قِسِيٌّ فُجٌّ[2] ، ولا نِبال طوال ، فإنهم إذا أُعْجِلُوا عنها أو فقدوها ، كالبهائم أيْنما وجَّهتموها اتَّجهَتْ[3].

وللمثنى مواقف ومشاهد عظيمة توحي إلى المطّلع عليها بحكمة القائد العسكري ، إذ يعترف بخطئه يوم الجسر ويحذّر إخوانه من تكرار الخطأ ، ويتحدّث عن هذه الواقعة فيقول بعد أن نَدِم على هذا الموقف: لقد عجزتُ عَجْزَة وقى الله شرَّها بمسابقتي إيَّاهم إلى الجسر وَقَطْعِهِ ، حَتّى أَحْرَجْتُهم ، فإني غَيْرُ عائد؛ فلا تعودُوا ولا تقتدوا بي أيُّها الناس ، فإنها كانت مني زلَّة لا ينبغي إحراج أحدٍ إلا مَن لا يَقْوَى على امتناع.

وقد استشهد أناس من جرحى المسلمين في هذا اليوم منهم شقيق المثنى مسعود بن حارثة الشيباني ، وخالد بن هلال ، وقد صلَّى عليهم المثنى ، ثم قال: والله لَيهوِّنُ عليّ وَجْدي أن شهدوا البُوَيب ، أقدَموا وصَبَرُوا ، ولم يجزَعوا ولم يَنْكِلوا.

في هذا اليوم أنشد الشعر يقول:

أَزْمَانَ سار المُـثَـنَّى بالخيول لَهُمْ فَقَتَّـلَ القـومُ مـن فُـرْسٍ وَجِيـلانَـا

---

(١) الزُهّاء: العدو.

(٢) يُقال: قوس فجّاء و منفجة: بان وترها عن كبدها.

(٣) الطبري (٣/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨).

سَمَـا لأجْنَـادِ مِهـرانٍ وشيعتِـهِ حتـى أَبـادَهُـم مَثْنـى ووُحْـدَانـا
مـا إن رأَيْنـا أَميـراً بـالعـراق مَضَـى مِثْـل المثَنَّـى الـذي مِـنْ آلِ شَيْبـانَـا
إنَّ المثَنَّـى الأميـرُ القَـرْمُ لا كـذِبٌ في الحرب أَشْجَعُ من ليثٍ بخَفَّانا[1]

وقد أَرْسَلَ المثنى غنائم من الغنم والبقر والدقيق إلى أبناء المجاهدين في المدينة.

## اليوم الأخير

في السنة الرابعة عشرة وبعد معركة البويب وانتصارات المثنى وجيش المسلمين التي غَسَلَتْ خسائر يوم الجسر، بعد هذه الأحداث، اجتمع الفرسُ لردّ هزيمتهم، وبلغ ذلك المثنى بن حارثة، فكتب هذه الأخبارَ إلى عمر.

وانشغل عمرُ ـ رضي الله عنه ـ عن المثنى في إعداد مددٍ عظيم لملاحقة الفرس، حتى خرجَ ذاتَ يومٍ يُريد أنْ يقودَ المسلمين بنفسه في القادسية، ولكنّ أهلَ الرأي منعه من ذلكَ.

واشتد على المثنى بن حارثة جُرْحُهُ الذي أَصَابَهُ يوم الجسر، وأصبحت الأيام قليلة في هذا العمر المبارك، فاستعدَّ المثنى لِلّقاء العظيم الَّذي طالما جاهد، ورفع راية الإسلام من أجله، إنَّهُ يوم اللقاء في دار الآخرة الذي طالما اشتاقت نفس المثنى له كلما سمع قوله تعالى في سورة القصص:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وقبل أن تسلم روح المثنى إلى بارئها، كتب وصيته وخلاصة خبرته إلى من يليه من قادة المسلمين.

لقد طلب قلماً وقرطاساً كتب فيه إلى سعد بن أبي وقاص؛ الذي تحدثت الأخبار عن قدومه لقيادة الجيش ضد الفرس في القادسية.

---

(١) الطبري (٣/ ٤٧١).

كتب المثنى يقول ـ بينما جلست زوجته سَلْمى بنت خَصَفَة التيمية ـ: «ألا تقاتل عدوّك من أهل فارس إذا استجمع أمرُهم في عُقْر دارِهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حَجَر من أرض العرب ، وأدنى قرية في أرض العَجم ، فإنْ يُظْهِر الله المسلمين عليهم فلَهُمْ ما وراءَهم؛ وإن تكن الأخرى فاؤوا إلى فئة ، ثم يكونون أعلَمَ بسبيلهم وأَجْرأَ على أرضهم إلى أن يردَّ الله الكرَّة عليهم».

بكت سلمى بكاءً مُرّاً بعد أن سمعت وصيّة زوجها ، وأخلد المثنى جسده للراحة ، وصمت هذا الصوت الذي ملأ الدنيا جهاداً وبطولة.

صمت صوت المثنى ، فلم يَعُدْ يجلجل في الآفاق.

لقد بكت عليه سلمى ، وبكت بغداد والبحرين ، والبويب ، وسمع الناس نشيجَ سلمى فاسترجعوا ، وتوقف شيء مهمّ في هذه اللحظة ، توقف فعل عظيم ، طَرَقَ أبواب المجوس ، وزلزل أركان الباطل على الأرض.

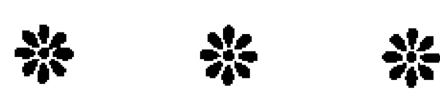
صمت كلّ شيء في بيت المثنى إلاَّ نشيج سلمى الباكية تودُّ لو صرخت لتقول: وامثنَّاه ، وامثنَّاه.

المسلمون في حاجة إلى رأي قائدهم الذي مضى ولكن لا بديلَ عن التسليم لأمر الله ، وردَّد المؤمنون من بني شيبان: «إنَّا لله وإنا إليه راجعون».

ومضى الجثمان الطاهر إلى مثواه الأخير ، واستراح المحاربُ البطل المجاهد العظيم المثنى بن حارثة الشيباني.

وبعد أن وُدعَ الوداع الأخير عاد الشيبانيون إلى ديارهم ، والحزن يعصر قلوبهم.

رحم الله المثنى ، ونضَّر قبره برياض الجنة.



# (٣)
# شرحبيل بن حسنة

## كلمات في البداية

يذكر المؤرخون أنَّ شرحبيل بن حسنة جاهد مع رسول الله ﷺ في حياته وأيامه الأولى.

وأنه أوّل من دقَّ أبوابَ الأردن في الفتح الإسلامي الكبير.

وكان لبطلنا شرحبيل بن حسنة دور عظيمٌ وأثر كبير في ردّ الروم عن بلاد العرب والمسلمين، ونشر الإسلام في ربوع هذه البلاد الواسعة.

وقد تعلَّم شرحبيل بن حسنة من يوم اليمامة دروساً في تنظيم المعارك وإعدادها ممّا جعله من القادة الذين حرصوا على إعداد قواتهم إعداداً جيداً قبل دخول المعركة.

وبفضل هذا الدرس الذي تعلّمه قاد رجاله من نصر إلى نصر، ومن معركة إلى أخرى، من عهد النبي محمد ﷺ وإلى عهد خليفته أبي بكر، إلى عمر ـ رضي الله عنهما ـ، حتى لقي ربه.

وقد تقلَّد وسام الجهاد، فنعم أجر العالمين المجاهدين.

هذا هو الإطارُ إلى تفاصيل الصورة نبني هذه السيرة العطرة في سطور قليلة.

## بطاقة تعريف

**هو:** شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عمرو بن كِنْدة، حليف بني زُهرة، ويُكنى أبا عبد الله(١).

**أبوه:** مات، وهو صغير، فبقي في حجر أمه حتى بعد زواجها، وقد تزوّجت من سفيان بن معمر الأنصاري(٢).

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ١٢٧).

(٢) الإصابة (٢/ ١٤٣).

**أمه:** وقد ذكر الرواة أن أُم شرحبيل، واسمها حسنة، ويُنسب إليها وهي امرأة عدولية، وهي من أهل عدولى من ناحية البحرين[١].

ولحسنة العدولية صحبة، وقد هاجرت مع ابنها شرحبيل إلى أرض الحبشة[٢].

كان شرحبيل شريفاً في قومه، من عِلْيَة أصحاب رسول الله ﷺ، وقد بدأ جهاده معه عليه الصلاة والسلام، عندما شارك في غزواته، وكانت هذه الغزوات بداية لجهاد طويل امتدّ أكثر من عشرين عاماً، هي عمر شرحبيل الإسلامي.

## الإسـلام والـهجـرة

عندما بُعِثَ رسول الله ﷺ كان شرحبيلُ في العقد الرابع من عمره، وقد نشأ شرحبيلُ يتيماً في بيت أبي سفيان بن معمر بن حبيب الجمحي، الذي تزوّج أمه حسنة بعد وفاة والده، وكان شرحبيلُ مع ولدي سفيان بن معمر، وهما جابر بن سفيان وجنادة بن سفيان أخاهما لأمهما[٣].

وما إن بعث عليه الصلاة والسلام حتى سارع شرحبيل للدخول في دين الإسلام، ولم يكن وحده؛ بل كانت الأسرة بأكملها: سفيان وأبناؤه وحسنة وشرحبيل.

وفي مكة تحمَّل المسلمون ـ ومعهم النبي ﷺ ـ ألواناً من الأذى الشديد، فكان التحمّل كبيراً، والآلام على النفس والجسد عظيمة، وفوق هذا وذلك تحمّل المسلمون قسوة الارتحال عن الوطن، وعداوة الأهل والولد.

وقد كان النبي محمد ﷺ يزدادُ حباً لأهله وأصحابه، ورغبة في تخليصهم من عنت قريش وعذابها، كلما ازداد الإيذاء واشتدت الإساءة.

---

(١) الاستيعاب (٢/ ١٣٩).
(٢) الإصابة (٢/ ١٤٣).
(٣) الإصابة (٢/ ١٤٣) والاستيعاب (٢/ ١٤٠).

ورغم أن الوحي أنذرهم من أهوال يوم الحساب لتعنّتهم وعنادهم ، إلا أنهم أشعلوا نار الحرب ضد النبي وأصحابه ، وطرحوا بعضهم على بطحاء مكة رغم حرّ الهاجرة ، وشدّة القيظ ، والرمل الملتهب حرارةً.

وقد اعتبرت هذه الحقبة الزمنية من أخطر فترات الدعوة الإسلامية إذ «قرّر المشركون ألا يألوا جهداً في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه ، والتعرّض لهم بألوان النكال والإيلام. ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله ، وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم انفجرت مكة بمشاعر الغضب ، وظلت عشرة أعوام تعدّ المسلمين عُصاة ثائرين ، فزلزلت الأرضَ من تحت أقدامهم ، واستباحت في الحرم الآمن من دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعلت مقامهم تحمّلاً للضيم وتوقّعاً للويل»[1].

ولما ازداد ما ينزل بالمسلمين من الأذى ، وبلغ منهم القتل والتعذيب والتمثيل ، مبلغاً كبيراً ، حينئذٍ أشار عليهم ﷺ أن يهاجروا في الأرض. ولما جاء استفسارهم إلى أين؟ قال: «إلى بلاد الحبشة ، فإنَّ فيها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ ، وهي أرضُ صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

فخرج فريقٌ من المسلمين عند ذلك إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم.

وخرج المسلمون في هجرتين ، كانوا في الأولى أحد عشر رجلاً وأربع نساء ، تسلّلوا من مكة خفيةً وتحت جُنح الظلام ، ثم أقاموا في خير جوارٍ من النجاشي؛ حتى ترامى إليهم أن المسلمين بمكة أصبحوا بمأمنٍ من أذى قريش فعادوا ، فوجدوا قريشاً أشدّ عنتاً ، وأكثر أذى عن ذي قبل.

ولما لقوا هذا العنت عادوا إلى الحبشة في ثمانين رجلاً غير نسائهم وأطفالهم.

وكان شرحبيل بن حسنة ضمن أسرة سفيان الجمحي التي هاجرت إلى

---

(١) فقه السيرة للغزالي ص(١٠١ ـ ١٠٢).

الحبشة الهجرة الثانية ، وقد أقاموا بالحبشة حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة[1].

وفي المدينة نزل شرحبيل بن حسنة وأُسرة سفيان الجمحي على بني زريق وهم من قومهم أو من ربعهم[2].

وقد لزم شرحبيل بن حسنة رسول الله ﷺ منذ أن هاجر إلى المدينة. وفيما بعد أصبح شرحبيلِ بن حسنة أحد كُتَّاب الوحي[3].

## ثـوب مـبـارك

كان شرحبيلُ بعد قيامه بكتابة الوحي لرسول الله ﷺ واحداً من خيار صحابته رضوان الله تعالى عليهم ، حتى كان رسول الله ﷺ يستعيرُ منه ثوبه.

وقد روت الشفاء بنت عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قالت : أتيتُ رسول الله ﷺ أسأله[4]؛ فجعل يعتذر إليَّ وأنا ألومُه! فحضرت الصلاة فخرجتُ ، فَدَخلْتُ على ابنتي ، وهي تحت شرحبيل بن حسنة ـ رضي الله عنه ـ ، فوجدت شرحبيل في البيت!! . فقلت: قد حضرتِ الصلاةُ وأنت في البيت!! وجعلت ألومه ، فقال: يا خالة! لا تلوميني فإنه كان لي ثوبٌ فاستعاره النبي ﷺ. فقلت: بأبي وأُمي. . كنت ألومُه هذا اليوم وهذه حاله وأنا لا أشعر. فقال شرحبيلُ: ما كان إلا درع رقعناه[5].

هكذا كان بين شرحبيل بن حسنة ـ رضي الله عنه ـ وصاحبه خير البشر ، الرحمة المهداة ، رسول الله ﷺ ، فقد وصل مستوى الصحبة بينهما إلى أن

---

(١) البلاذري ص ١١٥.
(٢) الفصول في سيرة الرسول لابن كثير ص(٢٢٩).
(٣) المصدر السابق.
(٤) كانت فقيرة فسألته الصدقة والمساعدة.
(٥) روى هذه القصة الطبراني والبيهقي وابن عساكر وأبي عاصم وابن منده والحاكم ، كما في (حياة الصحابة ١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

يتبادلا ثوباً قد رقعاه ، وقد تحلَّى رسول الله بخلق عظيم لمّا ألحت عليه الشفاء بنت عبد الله بالصدقة تطلبها منه ، فيعتذر ، ثم تلومه ، وحينما تخرج من عنده تجده يستعير ثوبَ صاحبه ، صلى الله عليك وسلم يا رسول الله ، يا خَيرَ مَن صاحَبَ الناس ، وهنيئاً لكل أصحابه ومن اتبع دعوته.

## سفيـر رسـول الله

في العام التاسع من هجرة رسول الله ﷺ ، كان الرسولُ ﷺ في الطريق إلى تبوك ، فبعث عليه الصلاة والسلام خالدَ بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ من تبوك على رأس أربعمئة وعشرين فارساً إلى أُكيدر بن عبد الملك بدومة الجَنْدَل ، وكان أكيدرُ ملكاً على كِنْدَة ، وكان نصرانياً.

فقال خالد: يا رسول الله كيف لي به ، وإنما أنا في أُناس يسير؟!.

فقال ﷺ: «ستجده يصيد البقرَ فتأخذه».

خرج خالد حتى إذا كان على مقربة من حصنه يراه بالعين ، في ليلة مقمرةٍ صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته الرباب بنت أُنيف بن عامر من كِنْدَة ، وصعد على ظهر الحصن من الحرّ ، ثم دعا بشراب فشرب ، فأقبلتِ البقرُ تحكّ بقرونها باب الحصن[1].

فنزل فأَمر بفرَسِه فأُسْرِج ، وأمر بخيل فأُسرِجت ، وركِبَ معه نفر من أهل بيته ، منهم أخوه حسان ومملوكان.

وخرج أكيدر ومعه شقيقه حسان ، وقد انتضوا رماحهم ، فلما خرجوا تلقفتهم خَيْلُ رسول الله فأخذتهم ، وقتلوا أخاه ، ثم أَسَرَ خالدٌ أكيدر ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، وقد كان عليه الصلاة والسلام قد نبّه خالداً إلى أنه سيجده يصيد البقر ، وأَمَرَهُ ألاّ يقتله قائلاً: «إن ظَفِرتَ بأُكيدر فلا تقتله وائت به إليّ ، فإن أبى فاقتلوه».

---

(١) المغازي (٣/ ١٠٢٥ ـ ١٠٢٦).

وتذكر شاعرهم قول رسول الله: «إنك تجده يصيد البقر» وما صنع البقر تلك الليلة بباب الحصن تصديق قول رسول الله ﷺ، فقال شعراً:

تبارك سائقُ البقرات إنِّي رأيتُ الله يهدي كُلَّ هادِ
ومن يكُ عائداً عن ذي تبوكٍ فإنَّا قد أُمِرْنا بالجهاد[1]

ولما قدم أكيدر على رسول الله، صالحه على الجزية وحقن له دمه، ثم خلَّى سبيله، فرجع إلى قريته، وقد ذكرت قصة أكيدر لما يتصل بسيرة شرحبيل بن حسنة منها.

أخذت قبائلُ الحدود ما بين الجزيرة العربية وبلاد الشام تشعرُ بالخوف لما رأوا العرب قد أسلمت. ومن هذه القبائل «أَيْلَة» التي كان أهلوها يسكنون ساحل بحر القلزم مما يلي الشام[2].

ومن هذه القبائل أيضاً «تيماء» وهي على ثماني مراحل من المدينة بينها وبين الشام[3]، وأيضاً جرباء وأذرح، وهما قريتان بينهما مسيرة ثلاثة أيام.

شاور ملك «أَيْلَة» ـ يُحنّة بن رُؤْبَة ـ القساوسة من أهله في أمر دعوة النبي، فاستقر رأيه على القدوم إلى محمد ﷺ في وفدٍ كبير من «أيلة»، ومعهم أهل جرباء وأَذرُح، بدلاً من أن يُرْسل إليه من قبل المسلمين من يجبره على الجزية وهو صاغر.

أقبل «يُحنّة بن رُؤْبَة» ومعه أهل جرباء وَأَذْرُح، وقد ذكر الرواة هذا المشهد، فراحوا يصفون مجيء هذا النصراني، فقال عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه قال[4]: «رأيت يُحَنَّة بن رُؤْبَة يوم أُتي به إلى النبي ﷺ عليه صليبٌ من ذَهَب، وهو معقود الناصية، فلما رأى النبي ﷺ أومأ برأسه وانحنى أمامه، فأَوْمَأ إليه النبي ﷺ: «ارفعْ رأسك»!.

---

(١) المغازي (٣/ ١٠٢٧).
(٢) انظر معجم البلدان (١/ ٣٩١).
(٣) وفاء الوفا (٢/ ٢٧٢).
(٤) انظر المغازي للواقدي.

صالح النبي ﷺ «يُحنَّة بن رُؤبَة» ومن معه ، وقطع عليهم الجزية ، وكتب كتابين أحدهما «ليُحنّة بن رؤبة» ، قال فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: «هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليُحَنَّة بن رُؤْبَة وأَهل أَيْلَة ، سفنهم وسيّارتهم في البرّ والبحر. لهم ذِمة الله وذِمَّة محمّدٍ النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. ممن أحدثَ منهم حَدَثاً فإنّه لا يَحول مالهُ دون نَفْسه ، وإنَّه طيّبٌ لمَن أخذه من النّاس ، وإنَّه لا يحلُّ أن يُمْنَعوا ماءً يَرِدونه ، ولا طريقاً يُريدونه من برٍّ أو بحر».

ثم ختم ﷺ كتابه بتعيين شرحبيل بن حسنة سفيراً له في هذه المهمة فقال: «هذا كتاب جُهيم بن الصَّلْت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله»[١].

وقد وضع رسول الله ﷺ الجزية على أهل أَيْلَة ، ثلاثمئة دينار كلّ سنة ، وكانوا ثلاثمئة رجل.

هذا الموقف الذي أوردناه كان دور شرحبيل فيه دوراً صغيراً ، لا يتعدى الظلّ البعيد ، ولكن الحقيقة تقول: إن صحبة شرحبيل كانت عميقة وأعمق ما فيها هو كتابته للوحي ، وتكليفه بمهام من الرسول ﷺ.

## مع أبي بكر رضي الله عنه

### أ ـ في حروب الرِّدَة:

مات رسول الله ﷺ ، واستخلف المسلمون بعده أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ، الذي بَعَثَ أسامة بن زيد، الذي أوصى به رسول الله ﷺ ، ولما قَدِمَ أُسامَةُ بن زَيْد استراح شهرين من متاعب غزوته التي بلغ فيها البلقاء شمالاً ، وبثّ خيوله في قبائل قضاعة ، وعاد ظافراً.

استخلف أبو بكر أُسامة على المدينة ، وقال له ولجنده: أريحوا ، وأريحوا ظهْركم. ثم خرج إلى ذي القصة ، وقد ارتدُّوا.

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (١١٧ ـ ١١٨) والمغازي (١٠٣١).

فقال له المسلمون: نَنْشُدُكَ الله يا خليفة رسول الله ألا تُعَرِّض نفسك! فإنَّكَ إن تُصَبْ لم يكن للنَّاس نِظَامٌ، ومقامُك أَشدُّ على العدوّ، فابعث رجلاً، فإن أُصيب أمَّرتْ آخر.

فقال أبو بكر: لا والله لا أفعلُ، ولأُواسينَّكم بنفسي[1].

ومضى أبو بكر حتى انتهى إلى موضع قرب المدينة يقال له الرّبذَة فلقي بني عبس وذبيان وجماعة من بني عبد مناة بن كنانة، فقاتلهم وهزمهم، وأجلاهم عن مواقعهم، ثم رجع إلى المدينة.

ولكن لم يتَّعظ الناس، ولم يرجعوا للإيمان، وانحاز كثيرٌ منهم إلى طليحة ابن خويلد الأسدي الذي ادّعى النبوة، وقد اعتصم ببراحة يدعو الناس إليه.

ولما اطمأن أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى أن أُسامة استراح مع جنده خرج بهم إلى ذي القصة، وجعل يوزّع الجند، ويجعل على كل لواء أميراً. فعقد أحد عشر لواءً على رأسهم خالد بن الوليد، وعقد لعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة الكذاب باليمامة. فمضى كلُّ أمير مع جيشه. وبعث أبو بكر في أثر كل منهم مدداً يؤازرهم، فكان في أثر عكرمة بن أبي جهل المخزومي شرحبيل بن حسنة[2].

وقال أبو بكر لشرحبيل: «إذا فُرِغ من اليمامة فالحق بقُضاعة وأنت على خيلك تقاتل أهل الرّدة».

وقد حمل شرحبيل بن حسنة ـ رضي الله عنه ـ المهمة الموكلة إليه بأمانة، شأنه في ذلك شأن إخوانه أُمراء الألوية وهم: خالد بن الوليد، عكرمة بن أبي جهل، المهاجر بن أبي أمية، خالد بن سعيد بن العاص، عمرو بن العاص، حذيفة بن مِحْصَن الغلفاني، العلاء بن الحضرمي، طُرَيفة بن حاجز، سُوَيْد بن مقرّن.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٤٧).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٤٩).

وحمل شرحبيل عهداً مكتوباً تعاهد فيه مع أبي بكر الصديق ، قال أبو بكر في نص هذا الكتاب: «هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لشرحبيل ابن حَسْنة حين بعثه فيمن بَعَثه لقتال مَن رجع عن الإسلام؛ وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كلِّه ، سِرِّه وعلانيته ، وأمره بالجِدِّ في أمر الله ، ومجاهدة مَنْ تولّى عنه ، ورجع عن الإسلام إلى أمانيّ الشيطان بعد أن يُعْذِر إليهم فيدعوَهم بداعية الإسلام؛ فإن أجابوه أمسَكَ عنهم ، وإن لَمْ يجيبوه شَنَّ غارته عليهم حتى يُقِرُّوا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم والَّذي لَهُم ، فيأخذُ ما عليهم ، ويعطيهم الذي لهم؛ لا يُنْظِرهم ، ولا يردُّ المسلمين عن قِتال عدوّهم؛ فَمَنْ أجاب إلى أمر الله عز وجل ، وأَقَرّ له قَبِلَ ذلك منه ، وأعانه عليه بالمعروف؛ وإنما يقاتلِ مَن كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله؛ فإذا أجاب الدَّعوة لم يكن عَلَيه سبيل ، وكان الله حسيبَه بعد فيما استسر به.

ومن لم يجب داعية الله قُتِلَ وقُوتِل حيث كان ، وحيث بلغ مراغمَهُ ، لا يقبل من أحدٍ شيئاً أعطاه إلا الإسلام؛ فمن أجابه وأقرَّ قَبل منه وعَلّمه ، ومَن أبىٰ قاتَلَهُ؛ فإن أظهره الله قتل منهم كلّ قِتْلَة بالسلاح والنيران ، ثم قسَّم ما أفاء الله عليه إلاَّ الخُمس فإنه يُبَلِّغنَاه؛ وأنْ يَمْنَعَ أصحابه العجلة والفساد ، وألاَّ يُدخل فيهم حَشْواً حتى يعرفهم ويَعْلَم ما هم؛ لا يكونوا عُيوناً ، ولئلاّ يُؤْتَىٰ المسلمون مِنْ قِبَلهم؛ وأن يَقْتَصِد بالمسلمين ويرفُق بهم في السَّيْر والمنزِلِ ، ويتفقَّدهم ، ولا يعجل بعضَهم عن بعض ، ويَسْتَوْصِيَ بالمسلمين في حُسْن الصُّحْبَةِ ولِينِ القول»[1].

سار عكرمة بن أبي جهل إلى اليمامة ، ولم يَر أن ينتظرَ شرحبيل ، وتعجَّل لقاء عدوه مسيلمة الكذاب الذي التفّ حوله أربعون ألفاً من الجنود.

وقد عجَّل عكرمة لقاء عدوه قبل أن يلحقه شرحبيل بن حسنة لكي يكون له وحده فخر القضاء على مسيلمة ، وكان عِكْرمة بطلاً مجرِّباً ، وفارساً مغواراً ، وقد اجتمع في لوائه أبطالٌ لهم في الحروب بَلاَء ، ولكنه لم يثبت

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

لقوّتهم ، ونكَبه بنو حنيفة أتباع مسيلمة ، فكان نصيبَه الفشلُ من جرّاء تعجله هذا[1].

ولما كَتَب عكرمة لأبي بكر بالذي أصابه وأصاب جُنْدَه ، غضب وكتب إليه عاتباً على تعجّله وعدم انتظار أخيه شرحبيل ورجاله فقال: «يا بْنَ أُمِّ عِكْرِمَة لا أرينّك ولا تراني على حالها؛ لا تَرْجِعَنَّ فَتُوهِنَ الناس؛ امضِ على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عُمان ومَهْرَة ، فإن شغلا فامضِ أنت ، ثم تسير وتسيّر وجندك تستبرئون مَنْ مررتم به؛ حتَّى تلتقوا أَنتم والمهاجر بن أبي أمية . . باليمن وحضرموت[2].

كتب أبو بكر إلى شرحبيل بن حسنة يأمره بالمقام حتى يأتيه أمْرُهُ.

وقال أبو بكر الصديق لشرحبيل بن حسنة أيضاً: «إذا قَدِم عليك خالدٌ ، ثم فرغتم إن شاء الله ، فالْحَقْ بقُضَاعة ، حتى تكونَ أنت وعمرو بن العاص على مَنْ أبىٰ منهم وخَالَف».

قَدِم خالد على شرحبيل الذي انتظره وقد هيّأ رجاله للقتال ، وسار خالد نحو مسيلمة ، وتولّى هو بنفسه قيادة المقدمة ومعه شرحبيل بن حسنة ، والتقى الناسُ واقتتلوا قتالاً شديداً ، واصطدم شرحبيلُ بقوات مسيلمة من بني حنيفة وحلفائهم في عَقْرَبَاء ، حيث أبلى في هذه المعركة أعظم البلاء.

وجعل الصحابة يتواصون بينهم ، ويقولون: يا أصحابَ سورة البقرة ، بطل السحر اليوم!!.

وقال أبو حذيفة: يا أهلَ القرآن؛ زيّنوا القرآن بالفعال[3].

وقال زيد بن الخطاب: أيها النَّاس ، عَضُّوا على أضْرَاسكم ، واضربوا عدوَّكم ، وامضوا قُدُماً ، والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله ، وألقى الله فأكلمه بحجَّتي. وكان زيدٌ من شهداء هذا اليوم العظيم.

---

(١) الطبري (٣/ ٢٣٤).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٨١).
(٣) المصدر السابق.

أما شرحبيل فقد صمت لسانه ، وبرق سيفه ، واستطال رمحه ، فأخذ من نحور الكفار ما أخذ.

وقد اخترق أبطالُ المسلمين حصونَ مسيلمة ، حين دخلوا الحديقة من حيطانها ، ونظروا فإذا بمسيلمة واقف في ظل جدار ، كأنه جمل أورق ، وهو لا يعقل من الغيظ ، فتقدم إليه وحشيّ بن حرب ، مولى جبير بن مطعم فأصابه ، وسارع أبو دجانة ، فضربه بالسيف فسقط ، فنادت امرأةٌ من القصر: واأمير الوضّاء ، قتله العبدُ الأسود[1]!!.

وما أعجب التاريخ والأيام فأين مسيلمة الكذاب الكافر من حمزة بطل الإسلام وسيفه الطويل ، الاثنان قُتِلا على يد وحشي بن حرب ، لكنّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، فلقد جاهد وحشي لعل الله يغفر له ما تقدّم منه ، وقد بشَّره رسول الله بالمغفرة عندما قال حين إسلامه: «إن الإسلام يجبُّ ما قبله».

وبموت مسيلمة ، انتهت وقعه اليمامة بنصر المسلمين.

ووقف شرحبيل يدعو الله الذي منح جنده النصر المبين وشرَّف سيفه بقتال أهل الكفر والنفاق والكذب.

ومضى يشهد بقية الأحداث عن قرب من قائده وأمير جيشه خالد بن الوليد.

ولم تكن اليمامةُ آخر سيوف الجهاد التي قاتل بها شرحبيل بن حسنة ، وإنما تعدّ سيفه الأول ، وضربته الأولى في نحور الظلم والظالمين.

لم يكن يعلم أنَّ الجهادَ ينتظره هناك في الشام ، أو أن إمارته للجيوش قادمة في مشاهد يتحدَّث عنها التاريخُ الإسلامي. وتطلعتْ عيونُ القيادة الإسلامية إلى حدود الجزيرة مع الشام ، ولم ينس أبو بكر سفارة شرحبيل يوم «أيلة» ومجيء «يوحَنَّة بن رؤبة» إلى رسول الله متمسكاً بالصليب على

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٩٤).

صدره ، وتطلعت القيادة إلى حدود الإسلام ، فلم تتوقّف في الأفق عند هذه الحدود ، لأن الإسلام حدوده الدنيا كلها ومن عليها.

## انتصارات في الشام

**أ ـ اليرموك:**

انشغلت قيادةُ المسلمين بعد انتصارات خالد والمثنى ، وشرحبيل في العراق على الفرس ، وضرب المرتدين في قضاعة والبحرين وغيرها ، والقضاء على مسيلمة الكذاب ، انشغلت بتجمّعات الروم على حدود الجزيرة.

وكان ليوم اليرموك استعدادات كبيرة فقد أقرت القيادة في المدينة تعبئة شاملة لحرب قاسية مع عدو شرس. وقد جَدَّت قيادة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في العمل واتخذت قرارات تعبوية حاسمة عندما جاءت الأنباء تقول:

١ ـ سيرت الروم عسكراً بقيادة «ماهان» بطريق الروم وقائد من قادتهم ، تحت يديه عشرة آلاف رجل.

٢ ـ اجتمعت الروم باليرموك ونزلوا به وقالوا: والله لنشغلن أبا بكر في نفسه عن تورّد بلادنا بخيوله[1].

٣ ـ استنفرت الروم بعض قبائل شمال الجزيرة. مثل: بهراء وكلب ، وسليح ، وتنوخ ولخْم وجُذام وغسّان.

وبعد تدارس القيادة الإسلامية للأمر كله جاءت القرارات على النحو التالي:

١ ـ كتب أبو بكر إلى خالد بن سعيد بن العاص: انزل تيماء ولا تبرحها ، وادعُ من حولك من العرب للانضمام إليك ، ولا تقبل من ارتد ولا تقاتل إلاّ من قاتلك ، واستنصر الله ، وأقدم ولا تحجم.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٤٠٨).

٢ ـ كتاب إلى عمرو بن العاص وكان على صدقات سعدٍ وعذرة وجذام ، قال فيه أبو بكر: قد أحببتُ أبا عبد الله ، أن أفرّغك لما هو خيرٌ لك في حياتك ومعادك من ولايتك على سعدٍ وعذرة وجذام إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبّ إليك.

فأجاب عمرو على الفور: إني سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامي بها ، والجامع لها[١].

٣ ـ كتاب من أبي بكر إلى الوليد بن عقبة ، وكان على صدقات قضاعة قال له فيه: استخلف على عملك ، واندب من يليك.

فاستخلف من يليه ، وندب الناس ، فانضمَّ إليه جمعٌ غفيرٌ من المجاهدين ، وانتظر أمر أبي بكر شأنه شأن عمرو بن العاص.

فجاء الأمر لعمرو بن العاص: أمّرتك على فلسطين فَسِرْ إليها عن طريق كذا.

وأمّر الوليد بن عقبة على الأردن ، وأمدّه برجال من عنده.

وأمَّر يزيد بن سفيان ، وجعله على جمهور كبير جاء إليه ، وجعل في جنده سهيل بن عمرو ، وشيّعه ماشياً.

وقد استعجل الوليد بن عقبة بقوات ماهان ، ولحق بخالد بن سعيد الذي أراد الحظوة لنفسه ، فعجَّل لقاءهم وكانوا في كثرةٍ من العدد ، وخدعه ماهان عندما تراجع خديعة ومكراً ليقتحم ، فحاصره ماهان ، وأخذوا عليه الطريق ، وقتلوا عدداً من رجاله ، ولما علم أبو بكر استدعى خالداً والوليد بن عقبة إلى المدينة ، ولم يظهر لهما غضباً لكي لا يوهن عزم المجاهدين في هذه الأيام الحرجة.

وبينما انشغل أبو بكر بالتفكير فيمن يخلفهما على هذه القوات قدم عليه شرحبيل بن حسنة وافداً من عند خالد بن الوليد في العراق ، فما إن دخل

---

(١) المصدر السابق.

عليه وَجَد أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بديله المنشود وقائده المنتظر فولاّه قيادةَ الجيش ، فخرج في ثلاثة آلاف جندي هم أحد جيوش المسلمين ليوم اليرموك. وسلك بهم شرحبيل بن حسنة طريق اليرموك[1].

خرج القادة بالناس إلى الشام ، وظل عكرمة بن أبي جهل رِدْءاً واحتياطاً لهم ، وتوجّهت الجيوش الأربعة إلى الشام على النحو التالي:

١ ـ الجيش الأول بقيادة شرحبيل بن حسنة.

٢ ـ الجيش الثاني بقيادة عمرو بن العاص.

٣ ـ الجيش الثالث بقيادة يزيد بن أبي سفيان.

٤ ـ الجيش الرابع بقيادة أبي عبيدة بن الجراح.

وبلغ الروم خروج المسلمين إليهم ، فكتبوا إلى ملكهم هِرَقْل ، فخرج هرقل حتى جاء حِمْص ، فأعدَّ لهم الجنودَ ، وعبّأ لهم العساكر وأراد إشغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده ورجاله ، فخطط على محاربة كل منهم على حدة ، أي بمعزلٍ عن إخوانه كي يهزم كلّ جيش منفرداً ، مستعيناً بعدد كبير من القوات التي توافرت لديه.

فأرسل إلى عمرو بن العاص أخاه تذراق «تيودوريك» في تسعين ألفاً من الجنود.

وأرسل «هِرَقْل» إلى يزيد بن أبي سفيان بقيادة جَرَجَة الذي عسكر أمامه.

وبعث «الدراقص» في جيش ضخم ، فجاء ووقف في اتجاه بطلنا الكبير شرحبيل بن حسنة ـ رضي الله عنه ـ.

وبعث «الفيقار بن نسطوس» في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة بن الجراح أمين الأُمَّة ـ رضوان الله عليه ـ.

وقد أصاب هذا العدد الهائل المسلمين بالدهشة ، إذ هالهم هذا الجيش

---

(١) البلاذري ص(١١٦).

الكثيف ، ولم يكن جمعهم يومئذٍ يزيد على عشرين ألفاً ، سوى الاحتياط العام وقدره ستة آلاف مع عكرمة بن أبي جهل فتشاوروا ، وأجمعت مشورتهم على توحيد القيادة ، وقالوا: إن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة. واتفقوا على الاجتماع في اليرموك ، وكتبوا لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ.

وعندما وصلت الأنباء لأبي بكر ، استعان بجيشه البطل الذي واجه فارس بقيادة خالد بن الوليد ، فجاء مسرعاً مخترقاً الطرق الوعرة في وقت قياسيّ ، وترك قيادة قوات العراق للمثنى.

وقال أبو بكر يومها: والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد[1].

وصلت الإمدادات ، واجتمع قادة الجيوش الإسلامية ، بعد أن أصبح خالد قائداً عاماً وأميراً عليهم ، وتشاوروا ، وكان القتال العظيم الذي أبلى فيه شرحبيل بلاءً حسناً.

وفي هذه المعركة بالذات ، كان شرحبيلُ بن حسنة ـ رضي الله عنه ـ أحد أفراد القوات الخاصة؛ التي تقوم بالعمليات الصعبة ، والغارات الشديدة.

كان شرحبيل بن حسنة ـ رضي الله عنه ـ واحداً من مئة من أبطال المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين وقع عليهم اختيار أميرهم خالد وجعلهم من فدائيي الإسلام ، كل فارس منهم يردّ جيشاً[2]!.

وقف شرحبيل بن حسنة خلف قائد الميمنة عمرو بن العاص ، وكان يقود كردوساً من الكراديس ، والكردوس هو فرقة من الخيل.

كان في قلب الجيش أبو عبيدة وعلى مجنبتيه عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ، اللذان أمرهما خالد بالبدء في القتال ، فأنشبا القتال ، والتحم الفريقان ، وتطارد الفرسان. وكان شرحبيل بن حسنة في وسط

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٠٨).

(٢) فتوح الشام للواقدي (١/ ١٢٠).

المعركة يضرب قوى الشرك يميناً ويساراً ، حتى تحقَّق النصر على أيدي الرجال الأشاوس.

وفي أثناء معركة اليرموك انتقل أبو بكر إلى رحمة الله ، إلى الدار الآخرة ، وانتقلت الخلافة إلى عمر ، وعُزِل خالد عن قيادة الجيوش وتولى أبو عبيدة بن الجراح.

**ب ـ الطريق إلى دمشق:**

مضى القائدُ الجديدُ للجيوش الإسلامية مجتمعة أبو عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ في طريقه تاركاً اليرموك ، بعد أن حقق صناديدُ المسلمين نصرهم المؤزر.

وتبعه الرجال كراديس يتبعها كراديس ، وكتائب تتبعها كتائب ، وكان للجيش الإسلامي رجال في كل مكان يمدّونه بالأخبار عن عدوه ، فبلغ أبا عبيدة أنَّ الرومَ قد عسكروا بحمص ، وأنه قد اجتمعت منهم طائفة كبيرة بِفحْل وهي موضع بأرض الشام في ناحية الأردن.

واستشار عمرَ في الأمرِ ، فجاء ردّ أمير المؤمنين يقول: «ابدأ بدمشق ، فإنها حصنُ الشام وبيت مملكتهم ، فانهد[1] لها ، وأشغلوا عنكم أهل «فحل» بخيول تكون تلقاءهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الَّذي نحبّ ، وإن فتحت دمشق قبلها فسِرْ أنت ومن معك ، واستخلف على دمشق ، فإذا فتح الله عليكم فحل فسر أنت وخالد إلى حمص ، واترك عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة على الأردن وفلسطين»[2].

فأرسل أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ إلى «فِحل» أبطال المسلمين كي يحاصروها ، وتمت محاصرة «فِحل» ولحق أبو عبيدة برجاله كي يجهز على أي مقاومة فيها ، وكان على مقدمة جيشه خالد بن الوليد ، وعلى النَّاس شرحبيل بن حسنة ، وكان على المجنبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص.

---

(١) انهد: نَهَد: نهض.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٩ ـ ٢٠) و(تاريخ الطبري ٣/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨).

وعندما شعر أهلُ «فِحل» بالخطورة خرجوا إلى «بيسان» ، وهي مدينة بالأردن بالغور الشمالي(١) ، وملؤوا المنطقة بالمياه ، فأصبحت الأرض موحلة ، لشدّة ما غُمِرت بالماء ، مما أطال حصار المسلمين لهم ، فاقتتلوا قتال ليلة وبعدها يوم ، فلما أقبل الليلُ استطاع المسلمون السيطرةَ على الموقف ، وهزموهم شرّ هزيمة ، فضلّوا الطريق ، فأسلمتهم الهزيمةُ إلى الوحل ، فلم يُفْلت منهم إلاّ الشريد(٢) .

وكان يوم «فِحل» هو يوم القائد الحكيم شرحبيل بن حسنة ، المستعدّ لكل طارىء.

وتنفيذاً لأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الذي جاء فيه: «فإن فتح الله عليكم «فِحل» فذلك الذي نحب ، وإن فتحت دمشق قبلها فسر أنت ومن معك» . . . إلى آخر كتابه. سار أبو عبيدة من «فِحل» ، قاصداً دمشق ، وقد جعل خالد بن الوليد في القلب ، وركِبَ أبو عبيدة وعمرو بن العاص في المجنبتين ، وعلى الخيل عياض بن غُنم ، وعلى الرجّالة شرحبيل بن حسنة ـ رضي الله عنهم ـ.

فقدموا دمشق في المحرم من السنة الرابعة عشرة للهجرة ، فسيطروا على غوطتها وما بها من كنائس ، وتحصن أهل المدينة ، وأغلقوا أبوابها. ويصف ابن كثير في تاريخه(٣) الموقف فيقول:

فنزل خالد بن الوليد على بابها الشرقي ، في زهاء خمسة آلاف ضمهم إليه أبو عبيدة ، ونزل عمرو بن العاص على «باب توما» ونزل شرحبيل على «باب الفراديس» ، ونزل أبو عبيدة على باب «الجابية» ويزيد بن أبي سفيان على «الباب الصغير».

ودام الحصار طويلاً ، ولم يكن متوقّعاً من المسلمين ، حتى إنّ بعض

---

(١) معجم البلدان (١/ ٥٢٧).
(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٤٣٤ وما بعدها).
(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٠) بتصرّف.

الروايات عدَّته بما يزيد عن العشرة أشهر ، وأهل دمشق ممتنعون غاية الامتناع[1] .

ولما أراد الله عزّ وجلّ الفتح على جنده المغاوير ، اقتحم الجنودُ دمشق ، وكبَّر القعقاع على أسوارها ، ودخلها خالد عنوة .

إلاَّ أن أبا عبيدة كتب لأهل دمشق كتاب صلح حدّد فيه حقوقهم على المسلمين وواجباتهم نحوهم ، ومن ذلك اليوم أصبحت دمشق الفيحاء إحدى عواصم المسلمين ، ومنارة عالية من مناراتها يشع فيها نورُ الإسلام .

وتنتهي ملحمة دمشق ، وتبدأ مهمة جديدة لبطل الإسلام شرحبيل بن حسنة ـ رضي الله عنه ـ كي يؤدِّيَ دوره في الخطّة المرسومة ، والتي حددتها رسالةُ القائد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في المدينة ، فتطلّع شرحبيلُ عبر جبال دمشق جنوباً وفي الجنوب الغربي ، كي يبدأ انطلاقته الجديدة في اتجاه الأردن وفلسطين .

## مـن بـيسـان إلـى طـبـريـة

مضى شرحبيل بن حسنة على رأس قوات كبيرة فهاجم «بيسان» ، فتحصّن أهلها ، فحاصرهم أياماً معدودات ، ولكن أهلها خرجوا للقتال ، ودار بينهم وبين شرحبيل ورجاله قتالٌ ضارٍ ، شهدت له الآفاق ، ولكن شرحبيل وجنده دحروهم في النهاية ، لأنهم جند الله ، فلا بد أنهم منتصرون .

وفي نهاية معارك بطولية صالح أهل بيسان شرحبيل بن حسنة ، فكتب لهم كتاب صلح علىٰ مثل صلح «دمشق» .

وبلغت انتصاراتُ شرحبيل بن حسنة أهل طبرية، فتهيَّؤوا للصلح ، وتركوا فكرة القتال أمام هذا السيل الجرار والنور الساطع الذي انتشر في بلاد

---

(١) المصدر السابق .

الشام كلها ، فانهزم أمامه الظلام ، وانهزم منسحباً شمالاً وغرباً في اتجاه البحر.

ولما وصل شرحبيل بن حسنة إلى «طبرية» التقى أهلها الذين ألقوا سيوفهم ، وخرجوا إليه بطلب واحد وهو: «الصلح على شرط أن يشاطروا المسلمين المنازل في المدائن وما أحاط بها مما يصلها ، فيدع لهم المسلمون النصف ويجتمعون في النصف الآخر»(١).

وكان صلحُ شرحبيل بن حسنة مع أهل طبرية بمثابة فتح للأردن. وتمضي الخطّة كما هي لا تغيير فيها ، فقد استخلف شرحبيل بن حسنة «أبا الأعور السلمي» على الأردن ، ومضى لمهام جديدة.

وما إن شدَّ الرحال وغذَّ السير حتى جاءت الأنباءُ تقول: إن جموع الروم عسكرت وتجمعت في مناطق قريبة من الرملة ، وأجنادين ، وكان على رأس كل هذه القوات «أرطبون» ، وهو قائد رومي ، وجاءت الأنباءُ تقول أيضاً: إن «الأرطبون» وضع جنداً عظيماً بالقدس.

وعلى الفور نقل شرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص الأنباء إلى عمر بن الخطاب في المدينة ، فعلّق الفاروق عمر على هذه الأنباء قائلاً: «قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عمّا تنفرج»(٢).

فقال الناس: من أرطبون العرب يا ترى؟.

فجاءت الإجابة: عمرو بن العاص.

## إلى القدس

ودار قتال شديداً عند أجنادين ، تفوّق فيه أرطبون العرب رغم شدّة القتال ، وكثرة القتلى في ميدان المعركة ، وتراجع أرطبون الروم أمام صلابة

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٦).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٥٥).

رجال أرطبون العرب ، ومضى المسلمون يطاردون فلول هذا الأرطبون ، لا يخيفهم أيّ أرطبون مثله.

ويستمر كَرُّ المسلمين خلف فرار الروم ، حتى يحاصر المسلمون القدس ، وبعدها غزة لتصبح إسلامية عربية ، ويُسْمَعُ في طرقاتها صدى كلمة لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ، وترفرف في آفاقها راية التوحيد ، وكلمة التسامح ونعمة الرحمة ، وعفو الإسلام ، الذي هزم الرهبانية والرهبنة.

علم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بمحاصرة جيوشه للقدس والأرطبون بداخلها ، فخرج من المدينة قاصداً القدس ، واستخلف عليها علياً بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ، وكتب إلى قادة جيوشه الأربعة: أبي عبيدة بن الجراح ، وكان قد فتح الله عليه بحمص ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، وخالد بن الوليد ـ رضي الله عنهم ـ. وكان أبو عبيدة أميراً عليهم جميعاً.

كتب إليهم أنه قرَّر عقد اجتماع لأركان القيادة في منطقة «الجابية» ، وحدَّد يوم اللقاء ، وطوى الرسالة وسلّمها لفارس طوى الأرض طيّاً كي تصل الرسالة في موعدها المحدّد.

اجتمعت قيادةُ الجيوش الإسلامية بالجابية ، وتدارسوا الموقف ، وقرَّر عمر بن الخطاب أن يشاركهم هذا الفتح العظيم لأولى القبلتين وثاني الحرمين الشريفين. وسار المركب الشريف ودار قتال على أطراف الجابية ، ودخلت الجيوشُ الإسلامية القدس، وهرب أرطبون الروم ومن هرب معه إلى مصر[١].

## الطاعون الخبيث

انتشر الطاعون ببلاد الشام في السنة الثامنة عشرة من الهجرة ، وعمّ

---

(١) الكامل (٢/٣٤٩).

الحجاز الجدب ، فكان عام الجدب والطاعون ، هو عام الرمادة ، فقد ندر المطر ، واسودّت الأرض فعاد لونُها كالرماد ، وما إن تأتي عليها الريح حتى تحمل تراباً كالرماد.

في هذا العام أبلى عمر بن الخطاب بلاءً حسناً في قيادة رعيته ، فضرب المثل في الصَّبر والتقشّف.

وممّا يروى في ذلك ما قال عبد الرحمن بن غَنم في رواية جاءت في تاريخ ابن كثير[1] قال فيها:

وقع الطاعون بالشام فقال عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: إن هذا الطاعون عذاب ، ففروا إلى الأودية والشعاب.

فبلغ ذلك شرحبيل بن حسنة فقال: لا والله ما هو بعذابٍ ، إن هذا الطاعون دعوة نبيكم ، ورحمة بكم ، ووفاة الصالحين قبلكم.

هكذا استقبل شرحبيل بن حسنة المحنة بشجاعة عظيمة ، ليتمثل معه هذا المعنى صاحبه معاذ بن جبل الذي أصاب الطاعون ابنه الوحيد.

ودخل معاذ على ابنه جزعاً ، خائفاً ، قلقاً ، فقال ابنه يذكره: يا أبتِ...

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧].

فأجابه معاذ ـ رضي الله عنه ـ قائلاً:

﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ويُطعن عدد من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بالطاعون منهم: شرحبيل بن حسنة ، ومعه معاذ ، وأبو عبيدة ، وأبو مالك الأشعري ، ويزيد بن أبي سفيان.

---

(١) (٧/ ٩٢ وما بعدها).

أمّا عمر فقد جعل معاوية أميراً على دمشق بدلاً من أخيه يزيد ، وأمَّر شرحبيل بن حسنة على الأردن.

ولم تدم الإمارة طويلاً فقد عاجل الطاعون شرحبيل فسقط شهيداً.

رحمة الله على شرحبيل ، فقد فارق الدنيا في السنة الثامنة عشرة للهجرة ، وقد بلغ من العمر سبعة وستين عاماً.

نضّر الله قبره برياض الجنة.

* * *

# (٤)

# خـالد بـن الـولـيــد

قال تعالى في سورة المدثّر:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ
تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ
وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ
وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا
سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾.

## كلمات في البداية

اتفق المفسرون على أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، الذي أنجب خالد بن الوليد، وهم كذلك لا يختلفون على أسباب نزولها.

لكن الله عزَّ وجلَّ يقول:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨].

ويقول عزَّ وجل:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

هذا الخالد البطل، عجزت النساء أن يلدن مِثْلَهُ.

هذا الخالد شهد جميع الوقائع، مواقع الجهاد الكبرى، وقاتل في مئة حربٍ، وما في جسده موضع إلا وفيه: ضربة سيف، أو طعنة رمح، أو رمية سهم، ولكنه مات على فراشه، حتف أَنْفهُ، بعد أن ردَّد مقولته المشهورة: «فلا نامت أعينُ الجبناء».

ولم يكن خلودُ خالد في جسده؛ لأن الجسد فانٍ، إنما هو خلوده جاء من خلود سيرته على مَرِّ الزمان.

فكم بات «أبو سليمان» ـ رضي الله عنه ـ وقد أقرسه البرد، والسماء تنهلُّ عليه بالمطر، وهو ينتظر حتى يُغيرَ على الكفار.

لقد كان ـ رضي الله عنه ـ داعيةً من دعاة الجهاد، وكانت آخر كلماته: «عليكم بالجهاد».

اقتدى الناسُ بدعوته، وكان خير سلفٍ لخير خلف ـ رضوان الله عليه ـ وأحسبُ أنَّ القليلَ من سيرة خالد يحتاج لأوسع الصفحات؛ لأن رياضَ هذه السيرة مترامية الأطراف والفروع، كثيرة الزهور والورود، فالمثال من سيرة خالد منهجنا، والزهرة نغمتها؛ لنصنع منها ومن مثيلاتها طاقةً نُقدِّمها للقلوب المجاهدة؛ التي أحبَّتْ سيرة «سيف الله: خالد بن الوليد»... أحبَّته في فروسيته وبطولته... أحبته في حزمه وعزمه، وصبره، ومثابرته، فلنطوِ هذه الصفحة لنفتح صفحات ناصعة، ونقطف طاقات فوَّاحة من سيرة خالد البطل، المجاهد، الداعية، القائد، الجندي ـ رضوان الله عليه ـ.

## في بني مخزوم

### ١ ـ المولد والنشأة:

زفّت العصماء بنت الحارث إلى الوليد بن المغيرة، أحد سادة قريش ومن أشراف بني مخزوم في مكة، زفت إليه خبر وليدها «خالد»، فخرج على أثر سماعه للنبأ مبشّراً أقرانه ومعارفه.

أضاء المخزوميون المشاعل في ساحات دورهم في مكة، تحيّةً لشيخهم الوقور، ودقّوا الطبول: طبول الفرح، وتناثرت مجالسُ الطعام والشراب في بهو الدار العامرة، وتجمّع النَّاسُ عليها، كلّ منهم يُصيب من طعام الوليد بن المغيرة، بينما وقف على موائدهم خدم الوليد، وشاركهم البهجة أشقّاء الوليد، وما أكثرهم!.

وجاءت النسوة يباركن للعصماء بوليدها الجميل، الواضح القسمات، وكان من بينهن لبابة بنت الحارث شقيقتها وزوجة العبَّاس بن عبد المطلب، وميمونة بنت الحارث أم المؤمنين فيما بعد.

عمَّ الفرحُ حيّ بني مخزوم، وتبادل الأشرافُ التهاني مع الوليد،

وانصرفوا متمنين له حياةً سعيدةً ، كحياة إخوانه الذين كَثُر عددهم ، وحَظُوا بحياة فسيحة مريحة ، لكثرة مال الوليد بن المغيرة ، ولذلك فقد نشأ خالد بن الوليد نشأةً كريمةً في بيت واسع ، وافر الخير والمال.

**٢ ـ نسبه وأسرته:**

هو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب القرشي المخزومي[١].

يجتمع نسبه مع نسب رسول الله في مُرَّة بن كعب[٢].

وقد وصفه الذهبي ـ رضي الله عنه ـ قائلاً: «سيف الله تعالى ، وفارس الإسلام ، وليثُ المشاهد ، السيد الإمام الأمير الكبير ، قائد المجاهدين ، أبو سليمان القرشي المخزوميُّ المكيُّ ، وابنُ أُخت أُم المؤمنين ميمونة بنت الحارث»[٣].

أبوه الوليد بن المغيرة من سادة قريش وأعلامها ، كان يلقّب بالوحيد. وقد جعلت قريش يوم وفاته تاريخاً لإجلالها إيّاه. . ذكر الرواة أن الوليد بن المغيرة قال لجمع من قريش عندما همّوا بهدم الكعبة وإعادة بنائها:

«يا معشر قريش لا تُدخلوا في بنائها من كَسْبكم إلاَّ طيِّباً ، ولا تجعلوا في نفقة هذا البيت شيئاً أصبتموه غَصْباً ولا قطعتم فيه رحماً ، ولا أنهكتم فيه ذمة أحد بينكم وبين أحد من النَّاس ، ولا يدخل فيه مَهْر بغي ولا بيع رِباً ، ولا مظلمة أحد من النَّاس»[٤].

ومع ما تقدم مما يدل على رجاحة عقله ، وفطنته وذكائه ، فقد وقف من رسول الله ﷺ ودعوته وقفة عدائية شديدة العداء ، تمثلت في مشاهد

---

(١) الطبقات (٧/ ٣٩٤).
(٢) جوامع السيرة لابن حزم ص(٣) وسيرة ابن هشام (١/ ١٤٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ١٦٦).
(٤) سيرة ابن هشام (١/ ٢٠٦).

مختلفة ، كان أحدها مشاركته في اجتماع دار الندوة وتآمره مع قريش على إيذاء النبي ﷺ ، بعد أن أنذر أبا طالب قائلاً مع من قال: «إما أن تكفّ محمداً عنّا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه»[1] .

**والمشهد الثاني**: كان في مكة أيضاً ، فقد مرّ محمد ﷺ به وهو جالس مع أُمية بن خلف ، وأبي جهل الحكم بن هشام ، فغمزوه واستهزؤوا به؛ مما أغضب الرسول ﷺ ، فنزل قول الله تعالى عزَّ وجلَّ في سورة الأنعام:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .

**والمشهد الثالث**: عندما ازداد المغيرة فجوراً وإيذاءً لمحمد ﷺ نزل قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة المدثر[2] :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ .

وقد ذكر المفسرون أنَّ سببَ نزول الآيات السابقة؛ أن الوليد بن المغيرة عندما سمع النبي ﷺ يتلو القرآن مضى إلى قوله قائلاً :

«والله لقد سمعتُ من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن!! إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وأسفله لمغدق ، وإنه ليعلو وما يُعلى»[3] .

عندما سمعت قريش هذا الكلام قالوا: «صبأ والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كلها» .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٤) .

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٦٩ وما بعدها) .

(٣) انظر: أسباب النزول للواحدي ص(٣٦٣) ، وسيرة ابن هشام (١/ ٢٨٩) .

فقال لهم أبو جهل: اتركوا الوليد ـ «أنا أكفيكموه». وما زال به حتى صدَّه عن الإسلام.

والموقف الأخير الَّذي نسجله هنا للوليد بن المغيرة، هو تصديه للرسول ﷺ عندما كان يدعو الحاجّ من مختلف القبائل إلى عبادة الله والدخول في الإسلام، فقد اقترح على قريش أن يقولوا للحاجّ عنه ﷺ: إنه ساحر البيان، وإن ما يقوله سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فانصرفوا للعمل باقتراحه.

وأم خالد: عصماء بنت الحارث بن حرب، وهي أخت أم الفضل بنت الحارث؛ زوجة العباس بن عبد المطلب وأخت ميمونة زوج النبي ﷺ[١].

وفي سيرة ابن هشام[٢] أن بني مخزوم قوم خالد بن الوليد، هم بطن من عشرة أبطن من قريش انتهى إليها الشرف والمكانة قبل الإسلام، والبطون العشرة هي:

| | |
|---|---|
| ١ ـ بنو هاشم. | ٢ ـ بنو نوفل. |
| ٣ ـ بنو أمية. | ٤ ـ بنو عبد الدار. |
| ٥ ـ بنو تميم. | ٦ ـ بنو أسد. |
| ٧ ـ بنو مخزوم. | ٨ ـ بنو عدي. |
| ٩ ـ بنو جمح. | ١٠ ـ بنو سهم. |

وكما جُعِلَ لبني هاشم السقاية والرفادة، فقد كان جُعْلُ بني مخزوم يتمثّل في أمرين هما:

* القبة ومعناها جمع ما يجهزون به الجيش.
* الأعنّة ومعناها قيادة الفرسان في الحروب[٣].

---

(١) الإصابة (١/ ٤١٣) والاستيعاب (١/ ٤٠٦) على هامش الإصابة.
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٤٤).
(٣) أسد الغابة (٢/ ٩٣).

في هذا المجتمع نشأ خالد بن الوليد وترعرع ، فقومه أشراف استطاعوا بناء ربع الكعبة ، وبقية البطون العشرة قامت ببناء بقية الكعبة(١)؛ مما يدلُّ على مكانة هؤلاء الذين انتسب إليهم خالد في الجاهلية ، وزادهم شرفاً دخولهم في الإسلام؟ وتكتمل النفوس إيماناً إذا تحلت بالشرف العظيم والنسب الطيب.

## من الطفولة إلى قيادة خيل أُحد

لم تمنع حياة الرفاهية التي عاشها خالد في كنف أبيه الموفور المال والنفوذ والسلطان ، لم تمنعه هذه الحياةُ من الخروج إلى الصحراء والبادية ، فاستقام عُوده ، واشتدَّ ساعده ، وكان أكثر ما أحب الفتى بعدما يفعَ وانتظمت فتوَّته الخيل وركوبها. فلم يكن يسعده شيء قدر أن يمتطيَ هذا الجواد أو ذاك؛ وتتردد كلماتُ الوليد شاكية هذا الفتى لمن حوله فيقول: هذا الغلام لا يريد أن ينزل من فوق صَهْوة الفرس!.

نشأ خالد شغوفاً بالخيل والفروسية ، فارساً يمسكُ بالسيف الخشبي ليبارز أقرانه ، ونما في كوكبة من أصحابه يصارعهم فيصرعهم ، يصنع معارك وهمية ، ويأخذ فريقاً ضدَّ فريق فلا بُدَّ أن ينتصر مهما كان السبب.

كان خالد سريع النمو لا يُبقي على طعام أُتـي أمامه: «فقد دخل يوماً على خالته ميمونة بنت الحارث مع رسول الله ﷺ ، فوَجد عندها ضبّاً مَحْنُوذاً ، قدمت به أُختها حُفَيْدة بنت الحارث من نجد ، فقدَّمت الضبَّ لرسول الله ﷺ ، وكان قلّما يقدِّم يده لطعام حتى يُحدَّث به ويُسمَّى له ، فأهوى رسول الله ﷺ يده إلى الضب ، فقالت امرأة من النسوة الحضور: هو الضبُّ يا رسول الله. فرفع رسول الله ﷺ يده ، فقال خالد بن الوليد: أَحرامٌ الضبُّ يا رسول الله! قال: لا ، ولكن لم يكن بأرض قومي فأجِدُني أعافه».

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٢٠٧).

قال خالد: فاجتررتُه فأكلته، ورسول الله ﷺ ينظرُ إليَّ»[1].

لذلك فقد نما جسمُ خالد نموّاً سريعاً، وآتاه الله بسطةً في الجسم فاق فيها أقرانه، وأضحى أضخم، وقد حاول أن يثبتَ لهم أنّه الأقوى؛ بكثرة تصارعه معهم، وكانت له جولة مصارعة مع عمر بن الخطاب رغم أن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يكبره بسنوات... لكن التحدّي جعل كلاًّ منهما يمسك بالآخر، ويريد أن تكونَ له الغلبة عليه، بينما وقف الصّبية والفتيان فريقين كلّ يشجع صاحبه.

وما إن التحما حتى ثار الغبارُ والتراب، فحجب الرؤية، وانجلت سحابةُ الغبار، وانتهت المعركةُ، فإذا بساق عمر مكسورة، فأحسّ خالدُ بالأسى، وجلس على ركبتيه، وانحنى على تلك الساق يربطها، ويخفّف آلامَ صاحبه، ويعتذر عمّا بدر منه، وما كان يودّ أن يكونَ الصراعُ عنيفاً إلى هذا الحدّ من الألم.

وقد استمرت صلات عمر بخالد ـ رضي الله عنهما ـ ما طالت رحلة العمر، حتى قال عمر ـ رضي الله عنه ـ ذات يوم قولاً لا يُنسى: «عجزت النساء أن يلدن مثل خالد».

وحضر خالد بناءَ الكعبة، وشهد خلاف آبائه وأهله من بني مخزوم وهم يقومون على البناء، فيقترح عمّه المخزومي أبو أمية بتحكيم أول داخل إلى البيت، وكان محمد ﷺ أول من دخله؛ فاستبشر القومُ بدخوله، وقال بعضهم: جاء الأمين، ويشير عليهم النبي ﷺ بأن يأتوا بثوب، فيضع فيه الحجر الأسود، ويأخذ أربعة منهم بأطرافه، لينال الجميع ذلك الشرف الذي يفوق كلّ سعي لأي شرف في الدنيا، وممّن حملوا الحجر وأخذوا بأطراف الثوب أحد أعمام خالد، وشارك في وضعه في مكانه.

---

(1) رواه البخاري (٥٣٩١) في الأطعمة، باب: ما كان النبي ﷺ لا يأكل حتى يُسمّى له فيعلم ما هو، ومسلم (١٩٤٦) في الصيد والذبائح، باب: إباحة الضب.
«محنوذ»: أي مشوي. وقيل: المشوي على الرضف، وهي الحجارة المحمّاة.
«أعافه»: قال أهل اللغة: معنى أعافه: أكرهه تقذّراً.

وقد شهد خالد ـ رضي الله عنه ـ هذه المشاهد ، وشارك في البناء المبارك.

إلاَّ أنَّ الخيلَ والفروسية كانت حبّه الأكبر ، يسعى إليها تاركاً كلّ شيء من أجلها ، فأصبحت لها الأولويةُ في ضرورات حياته.

ولم تمض سنوات قليلة حتى تولّى خالد منصباً عسكرياً رفيعاً في قبيلته ، لقد تولى عنهم القبَّة والأعنة ، وهي مهمة شاقة ، فالقبة كما ذكرنا هي إعداد الجيوش وتجهيزها، والثانية وهي الأعنة تحتمل مسؤولية قيادة الفرسان ، وقد كانت بمثابة القوة الأساسية في جيوش القبائل؛ التي ما إن يكثر عددها حتى تتفوّق القبيلة ويكتب لها النصر ، لذلك فقد كان العربُ في الجاهلية ، يولون للفارس أهمية كبيرة، ويعدونه السلاح الرئيس الذي من خلاله تحسمُ المعارك.

**يوم أحد:**

خرج النبي ﷺ للقاء قريش التي جمعت رجالها ومواليها من الأحابيش وغيرهم ، بعد أن شاور أصحابه ، فأشاروا عليه بالخروج.

ومضى رسول الله ﷺ على وَجهِهِ حتى نزل الشِّعب في حافة الوادي المطلّ على جبل أحد ، فجعل ظهره وعسكره إلى جبل أُحد ، وقال: «لا يقاتِلنَّ أحَدٌ منكم حتى نأمره بقتال».

وأمّر عبد الله بن جبير الأنصاري على الرُّماة لحماية ظهور المسلمين خوفاً من أن يضربهم المشركون من الخلف ، وقال له: «انضح عنّا الخيل بالنَّبْل لا يأتونا من خَلْفنا إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك ، لا نُؤْتينَّ من قِبَلِكَ»(١).

أمّا قريشٌ فقد عَبَّأَتْ ثلاثة آلاف رجل ، معهم مئتا فرس ، وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وكان في الجاهلية لمّا يدخل الإسلام بعد ، ووضعت على ميسرتها عكرمة بن أبي جهل.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٠٧).
«انضح الخيل» : أي ادفعهم.

كان خالد بن الوليد يتبع رجالات قريش مع بني مخزوم في معاداتهم للإسلام ، لذلك فقد حَرص أشَدَّ الحرص على قتال المسلمين والانتصار عليهم.

وكان وجوده على ميمنة الخيل أول عمل قيادي يقوم به ، لذلك فقد كان شديد الرغبة في إثبات وجوده من خلال النكاية بالمسلمين في معركتهم هذه. ولما بدأ القتالُ ، هُزِم المشركون ، ورآهم الذين كانوا وراء المسلمين في الجبل من رجال عبد الله بن جبير الأنصاري. فقال بعضُهم لبعض:

«الغنيمة الغنيمة» فقال عبد الله: مهلاً ، أمّا علمتم ما عهد إليكم رسول الله ﷺ: فأَبَوْا ، فانطلقوا ، وتركوا أماكنهم ، فخلَّوا ظهورَ المسلمين للخيل.

لكن قائدهم عبد الله بن جبير الأنصاري ثبت مكانه في نفرٍ يسير دون العشرة.

نظر خالد بن الوليد فرأى قلّة الرماة على الجبل ، فكرّ بالخيل وحمل على مَن بقي من الرماة ، فقتلهم.

واستطاع خالد بن الوليد أن يضرب جيش رسول الله ﷺ من الخلف ، وأقبلت قريش تهاجمُ وتكِرُّ بعد أن أدبرت وفرَّت ، واستطاع المشركون تطويقَ جيش المسلمين.

إلاَّ أنَّ النبي ﷺ اخترق الحصار ، والتجأ إلى الجبل بعد قتال شديد مرير ، ولكن خالداً صعد وراءه وأراد أن يقضي على المسلمين ، غير أنَّ المسلمين استماتوا في القتال حتى أجبروا خالداً ورجاله على الانسحاب[(١)].

هكذا كانت قيادته في الجاهلية ، وفي أول منصب عسكري قيادي له.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٠ وما بعدها).

## فـي غـزوة الأحـزاب (الـخنـدق)

بعد هزيمة أُحد وقف أبو سفيان على الجبل وصاح بأعلى صوته فقال: أفي القوم محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه»؛ مرتين.

ثم قال: أفي القوم ابن أبي قُحافَة؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه».

ثم قال: أفي القوم ابنُ الخطاب؟ ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه».

عندئذ التفت أبو سفيان إلى أصحابه وقال: لو كانوا في الأحياء لأجابوا. فلم يملك عمرُ بنُ الخطاب نفسَه أن قال: كذبتَ يا عدوَّ الله! قد أَبْقى الله لك ما يخزيك!

فقال أبو سفيان: اعْلُ هُبَل!.

فقال رسول الله ﷺ: «أجيبوه».

قال: ما نقول؟

قال عليه الصلاة والسلام: «الله أَعْلَىٰ وأجلُّ».

قال أبو سفيان: ألا إِنَّ لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم!.

فقال رسول الله ﷺ: «أجيبوه».

قالوا: ما نقول؟

قال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مَوْلَىٰ لكم»!.

قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بَدْر، والحرب سِجَال؛ إنَّ موعدكم بَدْرٌ للعام المقبل.

فقال رسول الله لرجل من أصحابه: قل: «نعم؛ هي بيننا وبينكَ مَوْعِد»(١).

في الخندق أو يوم الأحزاب كان اللقاء والموعد، فقد قصد نفرٌ من يهود

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٢٧).

المدينة مكة ، ودعوا قريشاً لحرب رسول الله ﷺ ، ثم قصدوا قبائل أخرى مثل غطفان وغيرها.

واجتمع لقتال رسول الله ﷺ عشرةُ آلاف مقاتل ، منهم أربعة آلاف من قريش وأحابيشهم ، وألف من فزارة ، وعدد آخر من أشجع ، وبني مرة ، وبني سليم وغيرهم[1].

وقاد خالد بن الوليد كتيبةً من كتائب الجيش الجرار ، وحفر المسلمون خندقاً عميقاً حول المدينة حتى لا يتمكن الأحزاب من اجتيازه.

حاول خالد بن الوليد اختراق الخندق ، وناوش المسلمين فرماهم بالسهام؛ إلا أن الخندق كان حاجزاً عظيماً. وقالوا عنه: «إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تصنعها»[2].

وهاجم خالد المسلمين حتى أشغلهم نهاراً كاملاً ، مما حدا بالنبي ﷺ إلى تأخير صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء عن موعدها.

وقد انسحب الأحزابُ من حول المدينة بعد عجزهم عن اختراق الخندق ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وخرج خالد من الحصار خلف جيش الكفار يحمي مؤخرتهم في مئتي فارس.

وكان لخالد دورٌ في يوم الخندق ، فقد هاجم كثيراً ، وقدم رجاله من الرماة يرمون المسلمين ، هاجم المسلمين ليلاً ليأخذهم على حين غرَّة ، لكنه لم يفلح كما سيفلح بعد إسلامه في معارك عدة ستأتي فيما بعد.

وشارك خالد في غزوة الحديبية ، وحاول مهاجمة المسلمين وقت الصلاة فلم يفلح. وفي عمرة القضاء خرج من مكة شأنه شأن أهلها حين دخلها رسول الله ﷺ وأصحابه للعمرة ، ولكن إلى متى؟ أما آن لخالد أن يدخل الإسلام؟!.

---

(١) الطبقات (٢/٦٦).

(٢) المصدر السابق (٢/٦٨).

## إسـلامـه

أسلم الوليد بن الوليد بن المغيرة ـ أخو خالد بن الوليد عندما وقع أسيراً في معركة بعد ، فافتداه أخواه خالد وهشام بأربعة آلاف درهم ، فأعلن إسلامه ، فقال له خالد: «هلاّ أسلمت قبل أن تُفْتَدى»!.

فقال الوليد لخالد ـ رضي الله عنهما ـ: كرهتُ أن تظنُّوا بي أني جزعت من الإسار.

وحُبِسَ الوليد في مكة حتى كانت شروط الحديبية حينذاك نافذة المفعول وفيها: لا يقبل المسلمون أحداً من قريش يلتجىء إليهم.

ولكن الوليد فرّ من السجن الذي سجنه فيه أشقاؤه ، ومضى إلى المدينة ، ولحق رسول الله ﷺ.

ثم كتب إلى أخيه خالد ، فوقع الإسلام في قلب خالد ، وكان سبب هجرته[1].

كان هذا الرجل مع رسول الله ﷺ في عمرة القضاء ، وفيما هو مع رسول الله ﷺ يؤدي العمرة. وسأله عليه الصلاة والسلام عن أخيه خالد ، ثم قال: «لو أتانا خالد لأكرمناه ، وما مثله سقط عليه الإسلام في عقله».

فكتب الوليد بذلك إلى خالد؛ فكان ذلك سبب هجرته وإسلامه[2].

لم تكن الرسالة هي الإرهاص الوحيد الذي دفع بخالد للإسلام ، وإنما استقامة دعوة محمد وشموخها أمامه ، جعلت خالداً يتساءل ذات يوم ويقول: حتى متى؟!

وقد زادت كلماتُ رسول الله ﷺ للوليد رغبة خالد في الإسلام ، فمثله لا يجب أن يكون جاهلاً بما جاء به الإسلام.

---

(١) الاستيعاب (٣/ ٦٢٩) على هامش الإصابة.

(٢) الإصابة (٣/ ٦٣٩) ، والاستيعاب (٣/ ٦٣٠) ترجمة الوليد بن الوليد.

أجمع خالد أمره على الخروج مهاجراً إلى رسول الله ﷺ؛ لينير بصيرته بهذا الدين الحنيف ، وينضمّ إلى قافلة الإيمان ، ولكنه كان ينشد الصحبة في هذا المسلك الجديد ، والمنعطف الخطير في حياته.

وفي ذلك يقول خالد: «فطلبت من أُصاحِبُ فَلَقِيتُ عثمان بن طلحة ، فذكرتُ له الَّذي أريد فأسرع الإجابة.

وأضاف خالد: فخرجنا جميعاً ، فلما كُنّا بالهَدَّة ـ (وهو موضع على طريق مكة ـ المدينة) إذا عمرو بن العاص قال: مرحباً بالقوم! قلنا: وبك ، قال: أين مسيركم؟ فأخبرناه ، وأخبرنا أيضاً أنه يريد النبي ﷺ[1].

وقد دار حوار بين خالد وعمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال فيه خالد لعمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ: والله لقد استقام المنسم ، إن الرجل لنبي ، أَذهب والله أُسلم ، فحتى متى؟![2].

ويكمل ابن سعد في طبقاته[3] حديث خالد فيقول: فاصطحبنا جميعاً حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ ، أوّل صفر سنة ثمان ، فلما طلعتُ على رسول الله ﷺ سلَّمت عليه بالنبوّة ، فرد عليّ السلام بوَجْه طَلْقٍ ، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحقّ.

فقال رسول الله ﷺ: «قد كنت أرى لك عقلاً رجوتُ ألا يسلمك إلاّ إلى خير». وبايعتُ رسول الله ﷺ[4].

قال خالد ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ﷺ: استغفر لي كلَّ ما أوْضَعْتُ فيه من صَدّ عن سبيل الله ، فقال: «إن الإسلام يجبُّ ما كان قبله».

قال خالد: يا رسول الله عَليَّ ذلك.

---

(١) الطبقات (٧/ ٣٩٤).
(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ٨٨).
(٣) الطبقات (٧/ ٣٩٥).
(٤) المصدر السابق.

فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صَدّ عن سبيلك».

ويستطرد خالد قائلاً: وتقدَّمتُ وتقدَّم عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة فأسلما، وبايعا رسول الله ﷺ، فوالله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمتُ يعدلُ بي أحَداً من أصحابه فيما يُجْزِئُه[1].

اكتسب المسلمون خبرةً بإسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ هذه الخبرة تتعلق بفن قيادة الجيش والفروسية العسكرية.

وقد حدَّث خالد ـ رضي الله عنه ـ كثيراً عن قصة إسلامه، موضحاً أن رسالة أخيه الوليد لم تكن هي الفيصل في الأمر، وإنما ثمة مواضع أخرى، فلنعد ولنستمع إلى خالد في موضع آخر من حديثه[2]، يقول خالد ـ رضي الله عنه ـ:

«لما أراد الله بي ما أراد من الخيرِ قذف في قلبي الإسلام، وحضرني رشدي، فقلتُ: قد شهدتُ هذه المواطن كلها على محمد ﷺ، فليس في موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين فلقيتُ رسول الله ﷺ في أصحابه بعسفان، فقمتُ بإزائه، وتعرّضت له فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغيرَ عليهم، ثم لم يعزم لنا ـ وكانت فيه خيرة ـ فاطّلع على ما في أنفسنا من الهمّ به، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، ووقع ذلك مِنّا موقعاً، وقلت: الرجل ممنوع فاعتزلنا، وعدل عن سير خيلنا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية، ودافعته قريش بالرواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين أذهب إلى النجاشي! فقد اتبع محمداً وأصحابه عنده آمنون، فأخرج إلى هرقل

(١) الطبقات (٧/ ٣٩٥).
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٣٨ وما بعدها).

فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية ، فأقيم في عجم ، فأقيم في داري بمن بقي.

فأنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ مكّة في عمرة القضية (القضاء) فتغيبت ولم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ ، فطلبني فلم يجدني ، فكتب إليَّ كتاباً فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد؛ فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك ، وقال: «أين خالد»؟ فقلت: يأتي الله به ، فقال: «مثله جهل الإسلام؟! ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيراً له ، ولقدّمناه على غيره». فاستدرك يا أخي ما فاتك من مواطن صالحة».

يقول خالد: فلما جاء إليَّ كتابه نشطتُ للخروج رغبةً في الإسلام ، وسرّني سؤال رسول الله ﷺ عني ، وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة مجدبة فخرجتُ في بلاد خضراء واسعة ، فقلت: إنَّ هذه لرؤيا ، فلما قدمتُ إلى المدينة قلت لأذكرنها لأبي بكر. فقال: مَخْرجُكَ الَّذي هداك الله للإسلام ، والضيق الذي كنت فيه من الشرك[١].

وقد أوردنا هذه الرواية بالإضافة إلى الرواية الأولى التي ذكرها ابن سعد؛ كي نغطي كلّ جوانب إسلام خالد ، من إحساس بأنه في شيء مخالف معوجّ ، غير صحيح ، لا بُدَّ من استقامته وتصحيح خطئه بعد تعديل منهجه؛ وقد لمسنا ذلك المعنى من حديث خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ في الرسالة الثانية ، وعرفنا أن الرسالة جاءت من أخيه الوليد بن الوليد بن المغيرة لكي تقضي على أي تردّد في النفس ، وما كان في النفس والفؤاد من ميل لدعوة محمد ﷺ كان كافياً لأن يحسم بهذه الكلمات الرقيقة التي أرسلها إليه أخوه الوليد بن المغيرة ـ رضي الله عنهما ـ وهكذا دخل خالد قافلة الإيمان.

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٣٩).

إلاَّ أن إسلام خالد ـ رضي الله عنه ـ لم يمرّ مرور الكرام عند قريش ، فقد كان له ردّ فعل عنيف اهتزت له مكّة كلها.

كان خالد شجاعاً في الجاهلية ، بطلاً في إسلامه ، فقد وقف شامخاً في جمع من قريش بعد إسلامه يقول: «لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحقَّ على كل ذي لُبٍّ أن يتّبعه».

ويدور حديثٌ بين خالد وعكرمة بن أبي جهل الذي لا يزال على دين الجاهلية ، وكلاهما صار بطلاً من أبطال الإسلام فيما بعد.

فزع عكرمة بن أبي جهل لِمَا سمع ، فردّ قائلاً: لقد صبأت يا خالد!.

فقال خالد في تحدّ واضح: لم أصبأ ، ولكني أسلمت.

قال عكرمة: والله إن كان أحقّ قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت.

خالد: ولِمَ؟

عكرمة: لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جُرح ، وقتل عمك وابن عمك ببدر ، فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلّم بكلامك يا خالد ، أما رأيت قريشاً يريدون قتاله[1]!؟

قال خالد: هذا أمر الجاهليّة وحميَّتها، لكن والله أسلمتُ حين تبيَّن لي الحق.

وصلت أخبار الحوار الساخن بين الفارسين خالد وعكرمة إلى مسامع أبي سفيان ، فبعث في طلبه ، فلمّا مَثُل أمامه قال: أحقّ ما بلغني عنك؟.

قال خالد: نعم إنّه حق.

فغضب أبو سفيان وقال: واللاَّت والعُزَّى لو أعلمُ أن الَّذي تقول حقٌّ لبدأت بك قبل محمد.

قال خالد في تحدّ واضح: فوالله إنه لحقّ على رغْم مَن رَغِم.

---

(١) حياة محمد. د. هيكل ص(٤٠٨).

فاندفع أبو سفيان غاضباً يريد أن يطولَ خالداً ـ رضي الله عنه ـ ، فحجزه عنه عكرمة ، وكان حاضراً وقال: «مهلاً يا أبا سفيان ، فوالله لقد خِفْتُ أن أقولَ مثل ما قال خالد وأكون على دينه. أنتم تقتلون خالداً على رأيٍ رآه وقريش كلها تبايعت عليه! والله لقد خفتُ ألاَّ يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم»[1].

هكذا كان لإسلام خالد ضربة عنيفة أصابت قريشاً في مقتلها ، فاهتزت له كلها.

## سيف الإسلام المسلول

وما إن أسلم خالد بن الوليد حي أخذ مكانه بين كوكبة الصحابة وجَمْعهم المجاهد ، ولم يكن جندياً عادياً ، وإنما تميّز بفكر القائد العسكري الفذّ فاندفع إلى الصفوف الأولى رافعاً الراية ، ممسكاً بالسيف في يده ، حاملاً في رأسه فكر قيادة ، وذكاءً حاداً فقد كان يعرف كيف يدير المعارك ، وله دراية عظيمة بفنون الكرّ والفرّ ، وما إلى ذلك من فنون الحرب.

**في مؤتة:**

وذات يوم من أيام السنة الثامنة من هجرة رسول الله ﷺ دعا عليه الصلاة والسلام الحارث بن عمير الأزدي ، أحد صحابته المجاهدين وحمَّله رسالةً إلى أمير بُصرى ـ وهي مدينة قريبة من دمشق ـ.

فانطلق الحارث بن عمير ـ رضي الله عنه ـ حيث أمرَهُ رسول الله ﷺ ، فعرض له رجل في مؤتة يسمى شرحبيل بن عمرو الغساني.

فقال له: إلى أين تريد؟

قال الحارث: إلى الشام؟

فقال شرحبيل: لعلك من رسل محمد!

---

(١) المصدر السابق.

قال: نعم ، أنا رسول محمد إلى ملك بُصرى.

فأمسك به شرحبيل وأوثقه بمصاحبة رجاله ، ثم ضرب عنقه وقتله في مؤتة[1] ، ولعله كان الرسول الوحيد الذي قُتِلَ من بين رسل رسول الله ﷺ.

ولما عَلِمَ رسول الله ﷺ بذلك أمر الناس فتجهزوا وتهيؤوا للخروج ، وأمَّر عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة قائداً لهذا الجيش ثم قال:

«عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب فجعفرُ بن أبي طالب ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل عبد الله بن رواحة فليرتضِ المسلمون بينهم رجلاً ، فيجعلوه عليهم»[2].

انطلق زيد بن حارثة على رأس جيشه بعد أن عَسْكَرَ «بالجُرف» ، وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة باتجاه الشام.

انطلق على رأس ثلاثة آلاف مقاتل ، بعد أن ودعهم رسول الله ﷺ وأوصاهم.

ثم مضى الجيش ، ومضى معه خالد بن الوليد؛ حتى نزلوا مؤتة ، فلقيتهم جموعُ هرقل من الروم؛ وكانوا قرابة مئة ألف ، وكيف السبيل إلى هؤلاء وعدد المسلمين لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل؟

لذلك فكَّر بعضُ المسلمين في الكتابة إلى رسول الله ليخبروه بِعَدَدِهم وعُددِهم ، كي يمدّهم بالرجال أو يأمرهم بأمره فيمضوا على السمع والطاعة.

ولكنهم في النهاية اختاروا طريق الشهادة ، والتقى الجيشان: جيش الروم يملأ الأفق مئة ألف مقاتل على رأسهم هرقل ، وجيش المسلمين ثلاثة آلاف مجاهد.

وبينما كانت المعاركُ تدورُ على أشدّها فوق أرض البلقاء بالشام ، كان

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٢/ ١٧٣).

(٢) الطبقات (٢/ ١٢٨) وسيرة ابن هشام (٤/ ١٥ وما بعدها).

النبيُّ في مجلسه بالمدينة مع كوكبة من أصحابه ، وقد اطمأنت نفوسهم ، وجلسوا يسمعون حديثه المبارك ، وفجأة والمجلس مشمولٌ بالطمأنينة والحديث مسترسل عذب ، صمت رسول الله ﷺ وأسبل جفنيه ، ثم لاحت في عينيه علاماتُ أسىً ، جعلت الصحابة يتطلّعون إليه في دهشة وأسى وقلق يكاد ينطق من بين الشفاه.

وتحدّث رسول الله ﷺ فقال: «أخذ الراية زيدٌ فأصيب ، ثم أخذ جعفرٌ فأصيب ، ثم أخذ ابنُ رواحة فأصيب ، حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[(١)].

ولننتقل إلى أرض المعركة لنرى الصورة عن كَثَب. فما أن سقط آخر الأبطال الثلاثة وهو عبد الله بن رواحة؛ حتى سارع إلى اللواء ثابت بن أقرم وهو صحابي شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

وقال: يا معشر المسلمين؟ اصطلحوا على رجلٍ منكم.

فقالوا: أنت.

فقال: ما أنا بفاعل ، فاتفق الناس على خالد بن الوليد ، فمضى ثابت إليه قائلاً: خذا اللواء يا أبا سليمان.

فقال خالد ـ رضي الله عنه ـ في تواضعٍ وصدق: لا ، لا آخذ اللواء أنت أحق به.. لك سِنٌّ وقد شهدت بدراً.

فقال ثابت: أنت أدرى مني بالقتال ، والله ما أخذته إلا لك[(٢)].

فنزل القائد الفذّ سيف الإسلام على رغبة صاحبه وبيعة الناس له ، واعتلى جواده ونظر نظرةً سريعة ، فوجد للعدو كثرة وغلبة ، سقط على أثرها الكثيرُ الكثيرُ من أبطال المسلمين. ولم يجدْ بين يديه ما يجعله يفكّر في

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥١٢) في المغازي ، باب: غزوة مؤتة من أرض الشام.

(٢) أورد الطبراني هذه القصة من حديث أبي اليسر الأنصاري كما في فتح الباري (٧/ ٥١٢) ، وقد ذكرناها بتصرف وتوسّع.

استمرار المعركة حتى النصر ، فإن هذا الجمع المبارك لا بُدَّ وأنه هالك أمام هذا الجيش الجرّار الذي يأتي موجةً بعد موجةً ، وكل موجة قوامها خمسة آلاف ، فقرر مواجهة هذا الاندفاع ، والمحافظة على أرواح الرجال لموقع آخر. . لم يفرّ ، ولم يأمر بالفرار وإنما عالج الأمر باستمرار المناوشة والقتال حتى وجد ثغرة في صفوف عدوه اندفع من خلالها منسحباً ، ومعه جيشه سليماً معافىً . . ويعود أدراجه إلى المدينة.

ويتحدث عن هذا اليوم فيقول: «لقد اندق في يدي تسعةُ أسياف فما بقي في يدي إلا صفحة يمانية»[١].

ولما عادوا إلى المدينة وتلقّاهم الرسولُ ﷺ ، ولقيهم الصبيان يشتدُّون ، ورسول الله ﷺ على دابته ، وجعل الناس يلقون التراب على الجيش ، ويقولون: يا فُرَّار ، فررتم من سبيل الله!!.

فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «ليسوا فرّاراً ولكنهم الكُرَّار».

وقد خسر خالد ـ رضي الله عنه ـ في هذه المعركة ثلاثة عشر شهيداً. وهي خسائر قليلة بالمقارنة إلى ما كان في مواجهة هؤلاء الأبطال ، ومنذ ذلك اليوم أصبح خالد بن الوليد: «سيف الإسلام ، فقد أطلق عليه رسول الله لقب: سيف الله. فمضى هذا السيف يضرب الشرك في مواطن كثيرة.

**قائد الميمنة:**

تشاء إرادةُ الله عزَّ وجلَّ أن يكون خالد بن الوليد أحد قادة جيوش الإسلام يوم فتح مكة ، بعد أن كان قائداً من قادة جيوش الشرك والكفر ، يخرج على رأسها لمحاربة النبي محمد ﷺ.

وها هو اليوم ، يوم فتح مكة ، يصبح خالد على ميمنة جيش المسلمين ، وكانت الميمنة مؤلفة من: أسلم وغِفَار ومُزَيْنَة وجُهَينة ، وكلّها قبائل عربية ، وقد كُلِّف خالد مع صاحبية الزبير بن العوام قائد الميسرة ، وأبو عبيدة بن

---

(١) رواه البخاري كما في حياة الصحابة (١/ ٥٠٩).

الجراح قائد المقدمة ، كُلِّفَ بدخول مكة. وقد حُدِّدَ لكل قائد مكانه الذي يدخل منه مكة ، وكان موقع خالد ـ رضي الله عنه ـ في موضع بأسفل مكة يُسمَّى «اللِّيط»[1].

ورغم أن رسول الله ﷺ أمر خالداً والزبير ـ رضي الله عنهما ـ بعدم القتال ، وعهد إليهما ألاّ يقاتلا أحداً إلاّ من قاتلهم[2]. إلا أن أناساً من قريش أجبروا خالداً على القتال ، فقد جمعوا أنفسهم بموضع يسمى «الخندمة» وهو جبل بأسفل مكة ليصدوه عن الفتح فقاتلهم ، وقتل منهم ثمانية وعشرين رجلاً ثم فروا منهزمين[3].

واستشهد من المسلمين يوم الخندمة رجلان[4].

ولما قال رسول الله ﷺ: «ألم أَنْه عن القتال»؟

فقيل له: يا رسول الله ، خالد قوتِلَ فقاتل[5].

ويعدّ يوم فتح مكة هو المشهد الأول الذي جاهد فيه خالد تحت لواء رسول الله ﷺ ، وكُلِّفَ خالد ـ رضي الله عنه ـ بعد فتح مكة بأيام أن يقوم بهدم «العُزى» ، فلمّا وصل إليها مع أصحابه من الفرسان هدمها وهو يقول:

كفـرانـك اليـوم لا سبحـانـك    إنـي رأيـتُ الله قـد أهـانـك[6]

وأصبح خالد ـ رضي الله عنه ـ موضع ثقة رسول الله ﷺ ، فبعثه عليه الصلاة والسلام في كثيرٍ من البعوث والمهام.

**مهمة بني جذيمة:**

خرج خالد بن الوليد إلى بني جذيمة في هذه المهمة ، داعياً إلى الإسلام

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٧).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٥٨).
(٣) المصدر السابق.
(٤) فتح الباري (٨/ ٦).
(٥) البداية والنهاية (٤/ ٢٩٦).
(٦) الاستيعاب (١/ ٤٠٧) على هامش الإصابة.

بأمرٍ من الرسول ﷺ ، فدعاهم إلى الإيمان فقالوا: صَبأنا ، صَبأنا . فحمل ـ رضوان الله عليه ـ معنى هذه الكلمة على أنهم خرجوا من دين إلى دين فقاتلهم ، وأسر منهم ، وجعل كل أسير مع رجل وأمر بقتل الأسرى ، فقتل بعض المسلمين أسراهم ، فلما علم النبي ﷺ قال: «اللهم إني أَبْرَأُ إليك مِمَّا صَنَعَ خالد» وكررها مرتين[1] .

## يوم حنين

كان يوم حنين يوماً مشهوداً تحدّث عنه القرآن فقال الله عزّو جلّ في سورة التوبة :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ .

وفي هذا اليوم كان خالد ـ رضي الله عنه ـ في مقدمة جيش المسلمين على رأس مئة فرس هي خيل بني سليم .

وعلى الناحية الأخرى كان مالك بن عوف النضري قائد المشركين يوم حنين ، وكان قد نجح في مباغتة جيش المسلمين ـ فقد انحدر المسلمون مع خيوط الصبح الأولى في وادي حنين الأجوف المنحدر بشدّة ، فهاجمهم مالك ورجاله من كل مكان ، فانكشفت الخيل ، فهرب مَن هرب ، وتفرّق المسلمون ، ولكن النبي ﷺ ثبت ، وثبت معه نفر قليل من أصحابه وأهل بيته ، وقاتلوا معه قتالاً شديداً[2] .

وكان خالد من الذين ثبتوا ودافعوا عن رسول الله ﷺ حتى جُرِحَ ، وعاده الرسول ﷺ[3] .

---

(١) فتح الباري (٨/ ٥٧).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٢).
(٣) الاستيعاب (١/ ٤٠٧) على هامش الإصابة.

هكذا كان خالد بن الوليد إلى جوار رسول الله ﷺ في كل موقع. وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ويجيء أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، وتبدأ حروبُ الردة، ويكون لخالد الدور الأكبر في هذه الحروب وأيامها العصيبة، فيضرب بيدٍ من حديد على الفتنة والمرتدين، ولنر معاً مشاهد لخالد في حروب الردة.

## خالد وحروب الردة

ما أن فرغ المسلمون من دفن رسول الله ﷺ في مثواه الأخير، واختاروا أبا بكر الصديق خليفة له، حتى ارتدَّ كثيرٌ من العرب، وظهر النفاقُ، وتحفَّز اليهود والنّصارى، واتجهت أنظارُ قوى الشَّرِّ إلى المدينة تريد الانقضاض عليها والقضاء على دعوة محمد ﷺ... لذلك أصرَّ أبو بكر على إنفاذ جيش أسامة بن زيد؛ كي يعلم الذين في قلوبهم مرضٌ أنَّ المسلمين ما تزالُ لهم اليدُ الطُولى في ضرب قوى الشر.

وما أن عاد أسامة إلى المدينة حتى أعلن أبو بكر على الملأ دستوره ومنهجه ردّاً على ما جاءت به الأخبار من ارتداد هؤلاء وهؤلاء.

فقد اجتمعت أسدُ وغطفانُ وبعضُ حلفائهم، وقرَّروا أمراً بعثوا به إلى خليفة رسول الله ﷺ، فنزل وفدهم على وجوه الناس في المدينة، ثم ذهبوا بهم إلى أبي بكر ليبلغوه أنهم سيقيمون الصلاة، وبقية شعائر الدين، على ألا يؤتوا الزكاةَ، فقال الصديق قولته المشهورة وأعلن دستوره الواضح: «والله لو منعوني عِقالاً لجاهدتهم عليه»[1].

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٤٤).
«عِقالاً»: أراد بالعِقال: الحبل الذي يُعقل به البعير الذي كان يُؤخذ في الصدقة، وقيل: أراد ما يُساوي عقالاً من حقوق الصدقة. وفي أكثر الروايات: «لو منعوني عَنَاقاً» وهي أنثى المعز، وفي رواية أخرى «لو منعوني جدياً».

عندئذ رجع الوفدُ إلى أهلهم بذي القصّة ، وهي موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرين ميلاً في طريق نجد.

ولم يُتْرَكْ هذا الأمر ، وإنما أعدَّ أبو بكر جيشاً ، وعبّأَ النَّاس ، وهاجم هذه النفوس المريضة في مواقعها ، وقَاتلَهم حتى ولّوا مدبرين. ثم عاد إلى المدينة. ولم تمض أيام قلائل حتى خرج على رأس جيش أيضاً إلى موضع بالقرب من المدينة يسمى الرَّبَذَة ، فلقي بني عبس وذبيان و جماعة مِمَّن حالفوهم فقاتلهم وهزمهم ، ثم عاد إلى المدينة أيضاً. وما إن استراح حتى عاد جيشُ أسامة بن زيد منتصراً.

وتوالت على أبي بكر أنباءُ المرتدين ، فبدأ يُعدّ جيشاً ثانياً للخروج إليهم ، ولكن الصحابة اعترضوا على خروج خليفة رسول الله أبي بكر الصديق على رأس الجيوش ، ورأوا أن يبقى في المدينة.

لذلك وقف علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في طريق راحلة أبي بكر وأخذ بزمامها ، وقال: إلى أين ، يا خليفة رسول الله؟.

ثم أضاف قائلاً: إني أقول لك ما قاله رسول الله يوم أُحُد: «لُمَّ سيفك يا أبا بكر ، ولا تفجعنا في نفسك».

نزل أبو بكر على رغبة أصحابه وإجماعهم على بقائه في المدينة ، وبدلاً من خروجه عقد اللواء لعددٍ من أبطال المسلمين ، من بينهم خالد بن الوليد الَّذي أمره بالتوجه إلى طلحة بن خويلد الأسدي الذي ارتدّ ، فخرج إليه خالد وأدَّبه أحسن تأديب ، ومضى إلى مالك بن نويرة الذي ارتد أيضاً ، واستطاع أن يبثَّ الرعبَ في نفس كلّ مرتد أو منافق حدثته نفسه بالسوء. حتى كان اليوم الفاصل يوم اليمامة.

## يوم اليمامة

في السنة العاشرة من هجرة رسول الله ﷺ قَدِمَ وفد بني حنيفة على النبي ﷺ ، فلما أسلموا وهمّوا بالرجوع أمر رسول الله ﷺ لهم بمتاع

وجوائز ، فقالوا: يا رسول الله ، إنا قد خَلَّفنا صاحباً لنا وفي ركابنا ، يحفظها لنا ، فأمر له الرسول ﷺ بمثل ما أمر لأصحابه وقال: «ليس بشرِّكم مكاناً ، لحفظه ركابكم ورحالكم».

هذا الرجل هو مسيلمة بن حبيب الكذاب ، فلما رجع القوم إلى مسيلمة ذكروا له ذلك وهم في الطريق إلى اليمامة قال مسيلمة: إني قد أشركت معه في الأمر ، لذلك قال لكم عني: ليس بشرِّكم مكاناً. لقد عرف أن الأمر إليّ مَن بعده[1]!!.

وما أن وصل مسيلمة إلى اليمامة حتى كتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً يقول فيه: «من مُسَيْلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلامٌ عليك. أما بعدُ: فإنّي قد أُشْرِكْتُ في الأمر معك ، وإنَّ لنا نصفَ الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قومٌ يعتدون».

وقدم على النبي ﷺ رجلان بهذا الكتاب!!.

فقال لهما عليه الصلاة والسلام حين قرأ كتاب مسيلمة : «فما تقولان أنتما»؟ قالا: نقول مثل ما قال ، فقال: «أما والله لولا أن الرُّسُلَ لا تُقْتَل لضربتُ أعناقكما».

ثم كتب عليه الصلاة والسلام: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. سلامٌ على مَن اتَّبَع الهدى ، أما بعدُ: فإنَّ الأرض لله يُورِثُها مَنْ يشاءُ من عبادِه والعاقبةُ للمتقينَ».

وبالرغم من ذلك فقد ادَّعى مسيلمة النبوة ، فافتتن الناس به[2].

ومات النبي ﷺ ، وبدأ أبوبكر في بعث السرايا إلى المرتدين ، وكان خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ أحد القادة الذين حسموا موقف اليمامة ،

---

(١) الطبقات (٢/٣١٧).

(٢) الطبقات (٢/٣١٦) والطبري (٣/١٤٦) والوثائق السياسية ص(٣٠٥) وسيرة ابن هشام (٤/٢٤٧).

وتمكن ببطولة عظيمة وقيادة حكيمة من القضاء على مسيلمة الكذاب بعد قتال عنيف؛ في مواجهة جيش قوامه أربعون ألف رجل، وقد قُتِلَ من الصحابة الكثير في هذا اليوم، مما جعل أبا بكر يفكر في جمع القرآن لاستشهاد عدد كبير من القرّاء والحفّاظ في اليمامة.

## صراع مع الفرس

كانت جبهةُ الفرس من أشقّ الجبهات الَّتي تعامل فيها المسلمون مع عدو صلب عنيد، ولما رأت القيادة الإسلامية في المدينة خطورة هذه الجبهة استعرضت أسماء قادة الجيوش، وكان اسم خالد بن الوليد على رأس القائمة التي كان يمكن تكليفها بالعمل على هذه الجبهة.

وقد فَرَغَ خالد لتوّه من حرب اليمامة، ولم ينتظر طويلاً القائد العام أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، وإنما كتب لخالد كتاباً يأمره أن يتوجَّه إلى العراق بعد الفتح.

ولم يكتف أبو بكر بهذا التكليف، وإنما كتب إلى رجل قريش فهريّ، هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة، وشهد بدراً وأُحداً والخندق، هو عِيَاض بن غَنْم[1] كتب إليه أبو بكر يقول: أَن سِرْ حتى تأتي المُصَيَّخ[2]، فابْدَأ بها، ثم ادخل العراق من أعْلاَها، وعارق حتى تَلْقَى خالداً، وأْذَنَا لِمَنْ شاء بالرُّجوع، ولا تَسْتَفتِحا بمتكارهٍ[3].

كانت الرسالة بمثابة الأمر الأول في معركة عظيمة تسمى «ذات السلاسل»، وقد سميت بهذا الاسم لأنَّ الفرس قرنوا جنودهم في السلاسل حتى لا يفروا.

---

(١) هو عياض بن غَنْم الفهري من شجعان الصحابة وغزاتهم، نزل الشام وفتح بلاد الجزيرة في أيام عمر، وهو أول من اجتاز الدرب إلى الروم غازياً، وكان يقال له: زاد الراكب، لكرمه. توفي بالشام أو بالمدينة المنورة عن ستين سنة. (الأعلام ٥/ ٩٩).

(٢) وهي موضع على حدود الشام والعراق.

(٣) الطبري (٣/ ٣٤٦).

## ذات السلاسل

قَدِمَ كتابُ أبي بكر على خالد ـ رضي الله عنه ـ واستلم عياض كتابَ أبي بكر ، وما أن قرأ كلّ منهما رسالته حتى طلب المدد من خليفة رسول الله ﷺ ، فأَمدَّ أبو بكر خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي ، وهو صحابي جليل ، وفارس عربي شجاع .

عندما أمدّ أبو بكر خالداً بالقعقاع قيل له: أتمدّ رجلاً قد ارفضّ عنه جنودُه برجل! .

فقال أبو بكر: لا يُهزم جيشٌ فيهم مثل هذا[1] .

ثم أمدّ عِياضاً بعبد بن عوف الحِميريّ ، وكتب إليهما أبو بكر يقول:

«استنفِرا مَن قاتل أهل الرِّدَّة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، ولا يغزوَنَّ معكم أحدٌ ارتدَّ حتى أرى رَأْيي ، واستنصرا بالمثنى بن حارثة ، فلم تشهد الأيّام بالعراق مرتد»[2] .

وكان المثنى قد بدأ يناوش أهل فارس فيما بين الكوفة والبصرة بناحية كسكر وفي أسفل الفرات أيضاً .

مضى خالد بن الوليد إلى حيث أمره أبو بكر حتى نزل بمكان يسمى النَّبَاح ، فكتب إلى المثنى يستقدمه فجاءه على الفور ، ثم مضى في طريقه إلى «الأُبلَّة» ، حيث طريق التجارة إلى الهند والسِّنْد، وكانت الأُبُلّة أعظم ثغورِ فارس شأناً ، وأشدّها قوةً ، وقد أَمَّرَ الفرسُ عليها «هُرمز» أكثر قادتهم كرهاً للعرب .

وصل خالد «الأُبُلّة» وكتب رسالة عاجلة . ولم يشأ أن يضيع وقته ، بل

---

(١) ابن الأثير (٣/ ١٨٧) والطبري (٣/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧) .
(٢) المصدر السابق .

سعى إلى تهديد عدوه العنيد ، وكبح جماح غطرسته ، فكتب إلى هرمز يقول:

«أما بعد فأَسْلِم تَسْلَمْ ، أو اعْتَقِد لنفسك وقومك الذِّمَّة[1] ، وأقررْ بالجزية؛ وإلا فلا تلومَنَّ إلاَّ نفسك ، فقد جئتُك بقومٍ يحبُّون الموتَ كما تُحِبُّونَ الحياة»[2] .

ولم ينتظر خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ ردَّ هرمز على رسالته بل جَدَّ في تنظيم قواته ، فهو على علم بعدوّه الذي أمامه ، ففرَّقَ جنده ثلاث فرق ، ولم يدفع بهم في طريقٍ واحد ، ولا في زَمَنٍ واحدٍ ، وإنما مضى يضع خطة قيادية محكمة ، تجلَّت فيها فنون القيادة والحرب ، وجعل الفرقة الأولى بقيادة المثنى بن حارثة ، وطلب منه التحرك قبله بيومين كاملين ، وأعطاه دليلاً يدله الطريق وكان اسمه ظَفَر .

ثم جعل الفرقة الثانية بقيادة عدي بن حاتم الطائي وعاصم بن عمرو ودليلاهما مالك بن عبَّاد وسالم بن نصر ، وجعل أحدهما يمضي قبل صاحبه بيوم .

ثم خرج خالد بعد أن واعدهم جميعاً باللقاء في موضع بين مكة والبصرة يسمى الحفير[3] ليجتمعوا به ويلاقوا فيه عدوهم .

وعلى الجانب الآخر وصلت رسالة خالد إلى هرمز فكتب إلى قادته وجمع جموعه ، ومضى إلى «كاظمة» القريبة من البصرة ، وبَلَغَهُ أن خالداً نزل بجيشه الحفير ، فمضى إليها وجعل على مقدمتي جيشه أخويه «قُبَاذ وأنوشجان» .

ولما بلغ خالد ذلك عاد إلى كاظمة بجيشه . وإذ التقى الجيشان ، نادى هرمز خالداً للنزول ، فخرج إليه ودارت بينهما مبارزة شجاعة ، واختلفا في

---

(١) «اعتقد لنفسك الذِّمَّة»: أي أقرّ بها .

(٢) الطبري (٣/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨) .

(٣) فتوح البلدان ص(٢٤٢) .

ضربتين فاحتضنه خالد ، فهمّ رجال بقتل خالد ـ رضي الله عنه ـ واستخلاص هرمز من يده ، ولكن القعقاع بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ لم يمهلهم وحمل عليهم ، ثم دارت المعركة عنيفة بين الفرس والمسلمين ، فانهزم الفرس ، فطاردهم المسلمون ، وتابعوهم حتى المساء. وجمع خالد في هذه المعركة غنائم كثيرة ، حتى بلغ نصيب الفارس في هذا اليوم ألفي درهم عدا السلاح.

وما بقي من الغنائم أرسله خالد إلى أبي بكر ، وكان من بين الغنائم قلنسوة هرمز المفصّصة بالجوهر ، والتي بلغت قيمتها مئة ألف درهم.

وكان من أطرف ما غنم المسلمون في ذات السلاسل: فيل ضخم ، أرسله خالد إلى المدينة ، ولم يكن أهل المدينة المنورة رأوا فيلاً من قبل ، بل لم تر بلاد العرب فيلاً إلاّ فيل أبرهة حين حاول هدم الكعبة.

فلما طاف قائدُ الفيل به في المدينة عجب أهلها لمنظر الحيوان الضخم ، وقالت ضعيفات النساء: ـ يا سبحان الله ـ أمن خلق الله هذا!!.

ورأى أبو بكر عجب الناس وافتتانهم به ، مع عدم منفعته لأهل المدينة بشيء ، فردّه إلى العراق مرة أخرى.

ومضى خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ إلى موضع آخر مع الفرس لكي يطهر البلاد من وثنيتهم وجاهليتهم.

## يوم الثِّني

تسمى هذه الوقعة وقعةَ الثني نسبة إلى نهر بالقرب من البصرة ، فقد كتب هرمز إلى ملكه «أردشير بن شيرى بن كسرى» بأمر خالد وما نال منه ، فأرسل إليه مدداً بقيادة فارس معروف لديهم يسمى «قَارِن بن قريانس».

خرج قارن من المدائن ، وفي الطريق بلغته هزيمة ذات السلاسل ولقيه المنهزمون الفارّون ، فاستوقفهم ، وتحدّث إليهم ، ثم بعث في نفوسهم الطمأنينة ، وضمّهم إلى جيشه ، ثم قال بعضهم لبعض: إن افترقتم اليوم

لم‌تجتمعوا بَعْدَها أبداً ، لعل الله يُديلُنا ويشفينا من عدونا ، ونُدرك بعض ما أصابوا مِنّا[1].

ثم مضوا إلى «الثِّني» وعسكروا فيها ، فلما رآهم المثنى بن حارثة الشيباني وأخوه المعنّى رجعا إلى خالد بن الوليد وقالا له: إنَّ القوم قد اجتمعوا بالثني ، المنهزمون منهم والمدد القادم إليهم من المدائن.

خرج خالد سائراً للقاء قارن وجيشه الذي جعل على مجنبتيه قُبَاذ وأنوشَجان ، ولما التقى الجيشان خرج قارِن يدعو إلى المبارزة ، فبرز له خالدٌ وقتله ، ثم قُتِلَ قُبَاذ ، وهَزَمَ المسلمون جَيْشَ الفرس هزيمةً عظيمة.

قسَّم خالد الغنائم على جنوده ، وبعث ببقية الأخماس مع سعيد بن النعمان إلى أبي بكر الصديق في المدينة.

ثم أقام خالد بالمَذار ، وهي بلد إلى الشمال من البصرة قريبة من واسط ، فجمع الخراج من الفلاحين وأقرّهم على أرضهم ، وولّى العمال على جباية الخراج.

وجعل ينتظر الأخبار القادمة من جهة الفرس استعداداً لموقعة أخرى ، كانت من نوع آخر ، استعان فيها الفرس على خالد ببعض قبائل العرب ممن اطمأنوا إلى ولائهم إليهم ، ومن بين هذه القبائل بكر بن وائل. تُرى ماذا حدث في هذه الموقعة؟.

## يوم الولَجة

اتجه تفكيرُ أردشير بعد هزيمة يوم الثِّني إلى الاستعانة على العرب بالعرب ، فاستعان ببني بكر بن وائل ، وكان يطمئن إليهم ، فجعل عليهم قائداً منهم ، ووجَّههم إلى الوَلَجة ، وأرسل «بهْمَن بن جاذَوَيْه» في أثرهم في جيش عظيم ، والتقى بكر مع بهمن وجيشه في الوَلَجة ، وعسكروا فيها.

---

(١) الطبري (٣/ ٣٥١).

خرج خالد بن الوليد مع رجاله للقاء «بهمن» ومن معه في الولجة ، وقبل خروجه حذَّر رجاله من الاغترار ، وأمر بعضَ رجاله أن ينفصلوا أثناء السير عنه ، وأن يكمنوا وراء العدو ، فيأخذوه أثناء القتال على غِرَّة.

والتفت جنودُ المسلمين بجنود الأعاجم وجهاً لوجه ، واشتدَّ القتال ، وظنَّ الفريقان أن الصبر قد نفد ، وأن المعركة لن تنتهي إلى غاية ، وبينما هم كذلك خرج الكمين في وجهين ، فانهزمت صفوفُ الأعاجم وولّوا مدبرين ، إلا أن خالداً تابع هجومه من الأمام ، والكمين من الخلف حتى قضوا عليهم.

وقف خالد في الناس خطيباً فقال: ألا تروْن إلى الطعام كرفْغ التراب[1]! وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عزَّ وجل ولم يكن إلا المعاش ، لكان الرأي أن نقارعَ على هذا الرِّيف ، حتى نكونَ أولى به ، ونوَلِّيَ الجوعَ والإقلال مَن تولاّه ، مِمَّن اثَّاقَلَ عمّا أنتم عليه»[2].

وكان خالد ذكياً في خطته ، فَطِناً في التعامل مع أعدائه ، يحسب لكل خطوة حسابها ، يقدم لا يحجم ، لم يغامر بغير حساب ، ولم يكن مستبداً في قرارٍ ، أو خيالياً في تصوره.

وقد جمع الفرسُ لخالد جمعاً في أُلَّيْس[3] وهي قرية من قرى الأنبار ، في منتصف الطريق بين الحرَّة والأُبُلَّة ، فانتصر عليهم ومضى إلى الحيرة ليتابع زحفه المقدَّس.

## يوم الحيرة[4]

تقدم خالد ـ رضي الله عنه ـ بخطوات ثابتة ، فتجاوز يوم «أُلَّيْس» ، وفي

---

(١) «الرفغ»: مجتمع التراب.
(٢) الطبري (٣/ ٣٥٤).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٣٥٥).
(٤) تاريخ الطبري (٣/ ٣٥٨ وما بعدها).

الطريق مرَّ ببلدة تسمى أَمغيشيا وهي مِصر من الأمصار وأُلَّيْس من ثغورها ، فوجد أهلها قد جلوا عنها وتفرَّقوا في البلاد ، فأمر بهدمها ، وأصاب منها غنائم وفيرة.

علم رئيس قطاع الحيرة الفارسي بأخبار خالد وانتصاراته ، فقدّر أن خالداً قادم إليه لا محالة ، وأنه سيركب النهر لملاقاته ، فأمر رجاله بسدّ قناطر الفرات ليعوق سير السفن إليه ، ثم عسكر خارج الحيرة بانتظار خالد.

ولما ركب خالد ورجاله البحر ، وسار إلى الشمال صوب الحيرة ارتطمت السفن بقاع النهر ، فغضب خالد لفعلته هذه. فانطلق إليه وفاجأه مع جنوده وقد اطمأنَّ في مكانه ، ودار قتالٌ شديدٌ هُزِم الفرسُ على أثره ، وعاد الماء يجري في النهر ، وسارت السفنُ ، ومضى خالد ورجاله إلى «النَّجف» ، ثم أقام بالقرب من القصر الأبيض فوجد أهل الحيرة قد تحصنوا في قصورهم، فما كان منه إلا أن عيَّن لكل قصر رجلاً من قُوَّاده يحاصر أهله ويقاتِلهم:

فكلَّف ضرار بن الأزور بمحاصرة القصر الأبيض ، وكان فيه إياس بن قَبِيصة الطائي.

ثم كلَّف ضرار بن الخطاب بمحاصرة قصر العَدَسِيِّين وفيه عديّ بن عديّ.

ثم كلّف ضرار بن مُقَرِّن بمحاصرة قصر بني مازن وكان فيه ابن أَكَّال.

ثم كلّف المثنى بن حارثة بمحاصرة قصر ابن بُقَيْلة وفيه عمرو بن عبد المسيح.

وقد عهد إليهم خالد ـ رضي الله عنه ـ بأن يدعوهم أولاً إلى الإسلام فإن أجابوا قَبِلوا استجابتهم وإن أَبَوْا أجَّلوهم يوماً ، ثم قاتلوهم.

وقد بدأ القتالَ ضرارُ بن الأزور ، بعد أن دعاهم إلى إحدى ثلاث هي:

الإسلام أو الجزية أو القتال ، فاختاروا القتال ، ثم تنادوا بينهم: عليكم الخزازيف[1] .

فطلب ضرار بن الأزور من رجاله أن يحتاطوا للأمر ، ويختبئوا قليلاً حتى لا يصيبهم الرمي ، وقد امتلأت أسطحُ القصر بهم ، وقد علقوا في أعناقهم المخالي ، وعكفوا على رمي المسلمين. فأمر ضرار رجاله أن يرشقوهم بالنّبل ، فاستسلموا وطلبوا لقاء خالد.

وتكرّر هذا المشهد في كل قصر من القصور ، فاجتمع بهم خالد ، وخلا بكلِ قصر منهم دون الآخرين ، وتفاوضوا كثيراً ، حتى كتب لهم خالد ـ رضوان الله عليه ـ كتاباً قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم:

هذا ما عاهد عليه خالدُ بن الوليد عَدِيّاً وعَمْراً ابنيْ عديّ ، وعمرو بنَ عبد المسيح ، وإياس بنَ قبيصة ، وحيريّ بن أكّال. وهم نقباء أهل الحيرة. ورضيَ بذلك أهلُ الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على تسعين ومئة ألف درهم ، تُقْبَلُ في كُلِّ سنة جزاءً عن أيديهم في الدنيا ، رُهْبانهم وقِسّيسيهم ، إلاّ مَن كان منهم على غير ذي يَدٍ ، حَبيساً عن الدنيا ، تاركاً لها؛ أو سائحاً تاركاً الدُّنيا ، وعلى المَنَعة ، فإن لم يمنعهم فلا شيءَ عليهم حتى نمنَعهم ، وإن غَدَرُوا بفعل أو قول فالذِّمة منهم بريئة.

وكتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة»[2] .

وكان «صلوبا بن نِسطونا» يحكم أمصاراً حول الحيرة تسمى قسّ الناطف ، بَانِقْيَا ، بَسْما.

فلمّا استقرَّ خالد في الحيرة خرج إليه هذا الرجل فصالحه على ما تحت يده ، وضَمِن له ما عليها وعلى أرضها من شاطىء الفرات على عشرة آلاف ، وكتب له خالد ـ رضي الله عنه ـ كتاباً قال فيه:

---

(١) «الخزازيف»: المَداحي من الخَزَف.

(٢) الطبري (٣/ ٣٦٤).

«بسم الله الرحمن الرحيم:

هذا كتابٌ من خالد بن الوليد لصَلُوبَا بن نسطونا وقومه، إني عاهدتكم على الجِزْيَة والمَنَعة، على كل ذي يد، بانقيا وبَسْما جميعاً، على عشرة آلاف دينار سوى الخَرَزة[1]، القوي على قدر قوّته، والمُقِلُّ على قَدْرِ إقلاله، في كل سنة. وإنك قد نُقِّبْتَ على قومك، وإنَّ قومك قد رضُوا بك، وقد قبلتُ ومَن معي من المسلمين، ورضيتُ ورضيَ قومُك؛ فلك الذِّمَّة والمَنَعة، فإن منعناكم فلنا الجِزْية؛ وإلاَّ فلا حتى نمنعكم»[2].

هكذا استطاع خالد أن يؤمن الحيرة وما حولها من قرى وكور وأمصار ودانت كلها للمسلمين، ويواصل القائد رحلته العظيمة في صراعه مع الفرس.

## دومة الجندل

مضى خالد إلى الأنبار مارّاً بكربلاء فوجد أهلها قد ضربوا حولها خندقاً كبيراً، فأمر جنوده أن يرموا عيون أهلها الواقفين خلف الخندق، فأصابتهم السهام في عيونهم، وذهبت عيون أهل الأنبار، بعدها عرضوا الصلح، ووضعوا شروطاً ثقيلة لا تعجب قيادة المسلمين، فاقتحم خالدٌ ورجاله الخندقَ بعد أن أقام عليه جسراً، واستسلمت الأنبار في هذا اليوم الذي سمي «يوم ذات العيون».

وعلى الطريق لقي خالد أيضاً عرباً يقاتلونه من بني تغلب وإياد وكانوا حلفاء للفرس، لذلك قالوا لهم: اتركونا نقاتل العرب القادمين، العرب أعلم بقتال العرب!!.

(١) «الخَرزة»: نوع من جزية الرؤوس، كانت معروفة في زمن الأكاسرة، يؤديها كل من لم يدخل في جند الحكومة.

(٢) الطبري (٣/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

قاد العربَ حلفاء الفرس رجلٌ يسمى «عَقَّة بن أبي عقَّة» ، واندفع خالد يواجه هذه الحالة الغريبة ، فهزمهم هزيمة منكرة ، وتحصّن مَن هرب منهم بحصن عين التمر ، وأُسِرَ عَقَّة ، وجاء به خالد أمام أسوار الحصن ، وأَمَرَ بضرب عنقه حتى يعطي درساً للخائنين والمنافقين ، فكان ضرب عنقه نهاية لهؤلاء الذين اندسوا تحت لواء الفرس ومجوسيتهم.

## اليرموك

بعد يوم عين التمر واستقرار الحيرة في يد خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ ، رغب هذا القائد الجسور أن يؤدي فريضة الحج ، ويمتّع النفس بالطواف حول البيت المعمور ، وأن يصلي ركعتين في مقام إبراهيم ، وقد اشتاقت قدماه للسعي بين الصفا والمروة.

ولم يرغب أن يُعْلِمَ أحداً بذلك ، وذهب إلى مكة حاجّاً دون أن يأذنَ له أبو بكر الصديق ، أو دون أن يستأذنه في ذلك ، وفي طوافه لمحته عيونُ الناس ، واندهش كلُّ من رآه ، وسمع عن انتصارات جيشه على الفرس ، وكلما لمحته عينٌ في وسط الجموع الطائفة الساعية الملبيّة مضى غائباً عنها في زحام هذا الجمع المبارك.

أنهى القائد البطل حجّته ، وقد تواترت إلى المدينة أنباءٌ من جبهة الروم تقول: إنَّ الروم اجتمعت باليرموك ونزلوا به ، وقالوا: والله لَنَشْغَلَنَّ أبا بكر في نفسه عن تَوَرُّد بلادنا بخيوله[1].

فكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص يوجّهه إلى الروم، فسمع عمرو وأطاع، وقال في رسالة لأبي بكر كتبها له من ولايته في «عُذْرة وجذام» قال عمرو:

«إني سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامي بها ، والجامع لها ،

---

(١) الطبري (٣/ ٣٩٤ وما بعدها).

فانظر أشدَّها وأخشاها وأفضلَها ، فارْمِ به شيئاً إن جاءك من ناحيةٍ من النواحي».

كتب أبو بكر إلى الوليد بن عقبة ، وكان على صدقات قضاعة ، فأجابه بإيثار الجهاد. ودعا يزيد بن أبي سفيان ، فأمّره على جند عظيم ، وشيَّعه ماشياً. واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على جند كثير ، وأمَّره على حِمْص ، وشيَّعه ماشياً أيضاً.

ولكن الروم حشدوا حشداً عظيماً ، وجعلوا أمام كل قائد مسلم جيشاً كبيراً ، فأرسل هرقل إلى عمرو بن العاص جيشاً قوامه تسعون ألفاً ، وإلى يزيد جيشاً مثله ، وإلى أبي عبيدة جيشاً قوامه تسعون ألفاً وعندئذٍ هاب المسلمون الروم ، ولم يَكُنْ جمعهم يزيدُ على واحدٍ وعشرين ألْفاً ، سوى ستة آلاف مع عكرمة بن أبي جهل ، ففزعوا ، وكتبوا لعمرو بن العاص يطلبون المشورة ، فأجابهم قائلاً: الرأي الاجتماع ، إن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قِلَّة.

وكتبوا لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فأشار بما أشار به عمرو بن العاص ، لكنه لم يترك الأمر هكذا ، فقد هدأت جبهةُ الفرس ، وأصبح الخطر واضحاً بارزاً في جهة الروم ، ففكر قليلاً وقال لأصحابه: «والله لأنسينَّ الرومَ وساوسَ الشيطان بخالد بن الوليد».

وكان أبو بكر على علمٍ بأن خالداً جاء إلى مكة حاجّاً دون إذن منه فعاتبه عندما كَتَبَ إليه بالحيرة كتاباً قال فيه:

«أن سِرْ حتّى تأتيَ جموعَ المسلمين باليَرْموك ، فإنهم قد شَجُوا وأشجوْا ، وإياك أن تعودَ لمثل ما فَعَلْتَ؛ فإنه لم يُشْجِ الجموعَ من النَّاس بعون الله شجاك ، ولم ينزع الشَّجى من النَّاس نَزْعَك ، فليهنئك ـ أبا سليمان ـ النِّيّة والحُظْوة؛ فأتمم يتمم الله لك ، ولا يدخلنَّك عُجبٌ

فتخسر وتُخْذَل ، وإياك أن تُدلَّ بعَمَل ، فإن الله له المَنُّ ، وهو وليُّ الجزاء»[1].

وكان لا بُدَّ لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أن يتمم أمْرَهُ لخالد ـ رضي الله عنه ـ بالصورة الصحيحة، لذلك أمره في نهاية الرسالة أن ينفذ المهام التالية:

ـ الخروج في شطرٍ من النَّاس.

ـ أن يخلِّف على الشطر الباقي المثنى بن حارثة الشيباني.

ـ إذا فتح الله عليه وعلى المسلمين فإنه يردهم إلى العراق وخالد معهم ، وعلى عمله كما كان.

جمع خالد أصحابَ رسول الله ﷺ يستأثر بهم على المثنى بين قواته نظراً لأهمية المهمة الجليلة الَّتي كُلِّف بها من قيادته في المدينة المنورة ، ثم ترك للمثنى مثل عددهم ممن لم يكن فيه صُحْبةٌ مع الرسول ﷺ ، وقسم الجند نصفين.

غضب المثنى وقال لقائده خالد ـ رضي الله عنهما ـ: والله لا أُقيم إلاَّ على إنفاذِ أمرِ أبي بكر كله ، في استصحاب نصف الصحابة ، أو بعض النصف؛ وبالله ما أرجو من النّصر إلا بهم ، فكيف تُعرِّيني منهم!!.

تلكأ خالد ـ رضي الله عنه ـ قليلاً ، وتبسم حتى هشَّ وبشَّ ، وعَذَرَ صاحبه المثنى وأرضاه ، وأخذ حاجته وأعطاه ، ومضى بعد أن شيعه المثنى إلى حيث يريد.

## طريق النهاية

ما أن طعن خالد بجيشه في البر والفيافي حتى قال في نفسه: كيف لي بطريقٍ أَخْرُجُ فيه من وراء الجموع ، جموع الروم! فإني إن استقبلت جيوشهم منعوني عن غياث المسلمين ونجدتهم.

---

(١) الطبري (٣/ ٣٨٥).

ولما عرض سؤاله هذا على قادة جيشه قالوا: لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش ، وإنما يأخذُهُ الراكب الفذ فإياك أن تُغَرِّر بالمسلمين.

التمس خالد بين النَّاس دليلاً ، فدله النّاس على دليل يسمى «رافع بن عُمَيرة الطائي» ، فدار بينهما الحوار التالي:

خالد: انطلق بالنَّاس يا رافع.

رافع: إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال.

خالد: وما العمل إذاً؟.

رافع: والله ، إن الراكب المفردَ ليخافها على نفسه ، وما يسلكها إلا مُغَرَّراً ، إنها لخمس ليالٍ ، لا يصابُ فيها ماء ، مع مضلتها.

خالد في حزم: ويحك! إنه والله لا بُدَّ من ذلك.

ثم ترك خالد دليله رافعاً ، واتجه بالحديث إلى عامة المسلمين.

فقال ـ رضوان الله عليه ـ: لا يختلفنَّ هَدْيُكم ، ولا يضعفنَّ يقينكم ، واعلموا أنَّ المعونة تأتي على قدر النِّية ، والأجر على قدر الحِسْبَة ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له[1].

أصابت هذه الكلماتُ هدفها في نفوس جموع المسلمين جنوداً وقادة ، واشرأبت أعناق الرجال ، وقالوا لخالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ: أنْتَ رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك.

بعدها نظر خالد لدليله رافع بن عُمَيْرة الطائي وقال: إنه قد أتتني من الأمير عزمة بذلك؛ فمر بأمرك.

توجَّه رافع بالحديث إلى النَّاس وقال: استكثروا من الماءِ؛ من استطاع منكم أن يَصُرَّ أُذُنَ ناقته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك إلا ما دفع الله.

ثم نظر قائلاً: أعطني عشرين جزوراً عِظاماً سماناً.

---

(١) الكامل (٢/ ٢٠١).

فأتاه خالد بهن ، فمنع عنها الماء حتى أصابها عطش شديد ، ثم روّاها الشربة الأولى فنهلت من الماء نهلاً ، ثم الشربة الثانية ، وبعدها قطع مشافرها حتى لا تجتر.

وهكذا أعدَّ رافعٌ عدّته للسفر ، ثم قال كلمة واحدة لخالد بعدها بدأ طريق المغامرة التي ساهمت في عزل خالد من قيادة الجيش ، قال رافع: سِرْ يا خالد.

مضى خالد يسيرُ ليله ونهاره ، ومعه خيوله وأثقاله أربعة أيام ، وكلما نزل منزلاً شقّ بطن بعض الإبل ليشرب الخيل ماءها ، وشرب الناس ما حملوا من الماء.

نفذ الماء وخشي خالد على أصحابه مشقَّة العطش والهلاك فقال لرافع: ويحك يا رافع ما عندك؟.

قال رافع: أدركت الريّ إن شاء الله.

ظنَّ النَّاس أنهم هلكوا لندرة الماء ، وقال بعضهم: إنا لله وإنّا إليه راجعون ، ولكن رافعاً جاء إلى مكان وقال: احفروا فحفروا حتى نبع الماء ، فكبر المسلمون ونظر رافع إلى خالد قائلاً: أيها الأمير ، والله ما وردت هذا الماء منذ ثلاثين سنة ، وما وردته إلا مَرّة واحدة وأنا غلام مع أبي.

وقال الشاعر معبّراً عن هذا الموقف:

لله عَيْنا رافعٍ أنّى اهْتَدَى  فَوّزَ من قُراقرٍ إلى سُوَى!
خمْساً إذا ما سارَها الجيشُ بكى  ما سارها قبلك إنسيّ يُرَى[1]

شعرت القيادة في المدينة أنّ هذه مغامرة خطيرة ، وكان عمر بن الخطاب مِمنَّ تحفَّظوا على هذه المغامرة الجريئة ، والتي لم يُسبق لها مثيل ، ولم يذكر التاريخ بعدها إلا جيشاً يقاتل في الشام لقي مدداً من العراق في خمسة أيام أو ستة سعياً بين الجبال واختصاراً لطريق طويل.

---

(١) الطبري (٣/ ٤١٦).

## اللقاء والقتال

وما إن اقترب خالد من اليرموك حتى لقيه رجل ممن بثهم الروم في الطرقات فقال لخالد: إن الروم في جَمْعٍ كثير، مئتا ألف ويزيدون، فإني رأيتُ أن تجمع على حاميتكَ فارجع!!.

فقال خالد: أبالرُّوم تخوفني!! والله لوددت أن «حِصاني» الأشقر براءٌ من تَوَجِّيه (آلام قدمه) وأنهم أضعفوا ضعْفَهم.

واصل خالدٌ طريقة حتى وصل إلى اليرموك، فوجد جند المسلمين متجاورة، فعسكر بعيداً عنهم، ونظر فوجد المسلمين في شدّة، لما وصل الروم من مدد كبير جعل قيادة المسلمين في قلق، ودارت المعاركُ حامية، والرومُ في الخنادق لا يخرجون، وخطط المسلمون على إثارتهم وإخراجهم من الخنادق، فلما نجحت الخطة، واستعد المسلمون للهجوم عليهم، وقف خالد في جمعهم خطيباً يقول: إن تأمير بعضكم لا يَنْقُصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ، هَلُمُّوا، فإن هؤلاء قد تهيَّؤوا، وهذا يومٌ له ما بَعْدَهُ، وإن ردَدْناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلُمَّوا فلنَتَعاوَر الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد، حتى تَتَأَمَّروا كُلُّكُم، ودعوني إليكم اليوم.

أمّر النّاس خالداً، وأصبح خالد أمير المسلمين في هذا اليوم، وخرجت الروم في جيش لم يُسبق له مثيل، وخرج خالد في تجهيز وإعداد لم يعهده العرب قبل ذاك اليوم.

جعل أبو عبيدة على القلب، وعلى الميمنة عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة بقيادة يزيد بن أبي سفيان، وجعل للجيش قاصّاً يذكّرهم، ويوجّههم معنوياً.

وأصدر خالد الأمر الأول لجناحي القلب أن يُنشِبَا القتال، فتحرك اثنان من قادته هما عكرمة بن أبي جهل، والقعقاع بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ،

وأنشأا القتال ، والتحم الجيشان ، وكرَّ الفرسان وفرّوا ، وتطاول القتال بشدة لم يعهدها الجيشان ، وفي هذه الأثناء حملت أخبار المدينة وفاة أبي بكر الصديق ، وتولّى الخلافة الفاروق عمر بن الخطاب ، وكان حامل هذه الأخبار «مَحْمِيَة بن زُنَيم» وأمر بكتمان الخبر ، فكتم بعض الأخبار عن الجند وأذاع بعضها ، فقد أذاع خبر وفاة أبي بكر وتولّي عمر ـ رضي الله عنهما ـ وأخفى تأمير أبي عبيدة وعزل خالد ، فلما لقيه أبو عبيدة قال له: أحسنت ، وقِف. وأخذ الكتاب وأخفاه في كنانته.

في هذه الأثناء خرج قائد الروم جَرَجَة ، ونادى: ليخرج لي خالد بن الوليد ، فخرج له خالد ، ومشى إليه حتى تلاقت أعناق دابتيهما ، وقد أمّن كل منهما صاحبه. . . فقال جَرَجَة: اصدقني يا خالد ولا تكذبني بالله هل أنْزَلَ الله على نبيكم سيفاً من السماء، فأعطاكه فلا تسلّه على قوم إلاّ هزمتهم؟.

قال خالد: لا.

فقال جَرَجَة: فبم سُميت سيف الله؟

فقال خالد: إن الله عزَّ وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذَّبه ، فكنت فيمن كذَّبه وباعده وقاتله؛ ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابَعْنَاه ، فقال لي: «أنت سيف من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين» ودعا لي بالنصر ، فسميتُ سيف الله بذلك ، فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين[1].

فقال جَرَجَة: صدقتني.

ثم قال جَرَجَة: إلام تدعوني يا خالد؟

قال خالد: إلى شهادة أن لا إلَه إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله والإقرار بما جاء من عند الله.

فقال جَرَجَة: فمن لم يجبكم؟

---

(١) الكامل (٢/ ٢٠٢).

قال خالد: فالجزية ونمنعُهم.

قال جَرَجَة: فإن لم يُعطها؟

قال خالد: نُؤذِنُه بحرب ثم نقاتِلهُ.

قال جَرَجَة: فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟.

قال خالد: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفُنا ووضيعنا، وأوّلنا وآخرنا.

قال جَرَجَة: هل لمن فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر؟

قال خالد: نعم وأفضل.

قال جَرَجَة: وكيف يساويكم وقد سبقتُمُوه؟.

قال خالد: إنا دخلنا في هذا الأمر، وبايعنا نبينا ﷺ وهو حيٌّ بين أظهرنا تأتيه أخبارُ، ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات، وحُقّ لمن يرى ما رأينا، ويسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر تحيقيقاً ونيّة كان أفضل منا.

قال جَرَجَة قائد الروم وقد دخل الإيمانُ قلبه: بالله لقد صدقتني، ولم تخادعني.

فقال خالد: بالله لقد صدقْتُكَ وما بي إليك ولا إلى أحدٍ منكم وحشة وإن الله لوليّ ما سألت عنه.

صاح جَرَجَة مرَّة أخرى وقال: صدقتني، علِّمني الإسلام!!.

فَأخذه خالد إلى خيمته وصبَّ عليه ماء، وصلى ركعتين. عندئذ هجم الروم هجوماً شديداً على المسلمين حتَّى تراجعوا إلى الخلف عن مواقعهم، فخرج خالد وجَرَجَة، وحملوا المسلمين على الروم، فتراجعوا وزحف خالد ورجاله عليهم، ودار قتالٌ ضارٍ حتى غروب الشمس وأُصيب جَرَجَة.

وهجم خالد ـ رضي الله عنه ـ هجومه الفاصل على الروم ، ووقف عكرمة بن أبي جهل ـ أحد قادة جيشه ـ يقول: من يبايع على الموت ، فبايعه أربعمئة من وجوه المسلمين بينهم: الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور ، واشتد القتالُ ، وكثرت خيل الروم الخالية من فرسانها لضيق المهرب ، فأفسح لها المسلمون الطريق في الصحراء ، وتفرَّق الفرس وانهزموا ، وأصيب عكرمة بن أبي جهل بجراح.

ويقول الرواة عن بعض مشاهد اليرموك:

وأقبل خالد والمسلمون على الرُّجَّل (المشاة) ففضّوهم ، فكأنما هدم حائطاً ، فاقتحموا في خندقهم ، فاقتحمه عليهم ، وقاتلوهم حتى الليل ، حيث وقعت الهزيمة على الروم. وقد قتل من الروم معظمهم ومن بينهم أخو هرقل.

وفي ذلك اليوم أبلى المسلمون بلاءً حسناً ، وقاتلت النساء ، وقُمن بسقاية الجند وتمريضهم ، ومداوة الجرحى ، وأُصيب من وجوه المسلمين وفرسانهم الكثير.

وقسّمت الغنائم ، فكان سهمُ الفارس يزيد عن الألف ، وسلَّم خالد الإمارة إلى أبي عبيدة نزولاً على أمر عمر ـ رضي الله عنه ـ.

وقال عن عمر: الحمد لله الذي وُلِّيَ عُمر وألزمني حُبَّه.

وبعد تقسيم الغنائم ، وتسليم القيادة لأمين الأمّة أبي عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ؛ مضى أبو عبيدة بالمسلمين حتى وصلوا موضعاً يسمى مرج صُفَّر ، أقام فيه أبو عبيدة وقال: «لا أبرح حتى يأتي أمرُ عمر».

## وداعاً أيها البطل

أثير بين المسلمين نقاشٌ طويلٌ حول عزل خالد ـ رضي الله عنه ـ هذا السيف الذي لم يُهزم ، والقائد الفذّ الذي كثيراً ما قاتل غيره من أجل دينه.

ولما سُئل عمر عن سبب عزل خالد قال: خفت أن يفتنَ النَّاسُ به ، ويظنوا أن الإسلام قد انتصر به ، وليس بإذن الله.

ولكن: هل ينتصر خالد ـ رضي الله عنه ـ إلا بإذن الله؟.

كل هذه التساؤلات كانت تتردد وخالد صامت لا يتكلم ، يحمل سيفه ويقاتل كجندي في جيش أبي عبيدة ـ رضي الله عنه ـ.

وقد ذكرت الرواياتُ أن خالداً عُزل من منصبه لأنه أجاز شاعراً مدحه بعشرة آلاف درهم ، وأن مجلساً عسكرياً شُكِلَ لمحاسبة خالد، فيه بلال بن رباح ـ رضي الله عنه ـ الذي سأل خالداً قائلاً: أمن مالك أم من مال المسلمين؟

قال خالد: من مالي.

ويقتنع بلال ـ رضي الله عنه ـ بصدق خالد في أنه أجاز من ماله ، ويطلقه ، فيقول خالد وقد ملأ الإيمان قلبه: نسمعُ ونطيع لولاتنا ، يقصد عمر بن الخطاب ، ونخدم موالينا ، يقصد بلال بن رباح.

ويمضي خالدٌ إلى المدينة ، ويقدم ماله إلى بيت المال بعد أن صادره عمر ـ رضي الله عنه ـ.

ويقول له عمر: يا خالد والله إنّك عَلَيّ كريمٌ ، وإنك إليّ حبيب ، ولن تعاتبني بَعْدُ على شيء.

ويكتب عمر بن الخطاب رسالة للناس يقول فيها: إنني لم أعزل خالداً عن سخط أو خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا وألا يكون بعَرَض فتنة.

ويحين وقتُ الرحيل ، وينامُ خالد في فراشه ، ويردّد كلماته الخالدة:

لقد شهدت مواقع كثيرة... وقاتلت في مائة حرب... وما من جسدي موضع إلا وفيه ضربةُ سيف ، أو طعنةُ رمح ، أو رمية سهم ، ثم ها أنذا

أموت على فراشي حتف أنفي . . . كما يموت البعير ، فلا نامت أعينُ الجبناء . ولقد طلبتُ القتل في مكانه فلم يقدّر لي إلا أن أموت على فراشي ، وما من شيء أرضى عندي بعد لا إلَه إلا الله ، من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين بِتُّـها وأنا مقترس ، والسماء تنهلّ عليَّ ، وأنا أنتظر حتى أغيرَ على الكفار ، فعليكم بالجهاد[1] .

ومضت روحه الطاهرة إلى بارئها ، وبكاه الناس ، وصمت السيف المسلول ، وصهل جواده الأشقر صهيل الوداع .

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ، ترجمة خالد بن الوليد .

(٥)

# عمرو بن العاص

قال تعالى في سورة آل عمران:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «أسلمَ النَّاسُ وآمن عمرو بن العاص»[1].

## كلمات في البداية

يذكر التاريخُ لقادة الجيوش على مرّ العصور مجدهم، ولا ينسى عمرو بن العاص.

إن براعة القيادة، وحكمة القرار، وحيلة الأذكياء، تجعلُ أسماءَ قادة المعارك الكبرى تقفز إلى السطور الأولى في صفحات هذا التاريخ، وواحدة من الثلاث كافية لتجعل من اسم عمرو بن العاص أول اسم في أول سطر، لأدقّ كتاب تاريخ ورواية سيرة عرفها المؤرخون والكتّاب؛ الذين درسوا فتوحات المسلمين وانتصاراتهم.

كان أميراً في هيئته، مهاباً في مشيته، بليغاً في حديثه، كلُّ شيء فيه يدلُّ على أنه أمير، وهذا ما جعل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول عنه عندما رآه قادماً من بعيد: «ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميراً».

والذكاء سلاحُ القادة وأولي الأمر، فلا تعجز لهم حيلة، وكان عمرو بن العاص ذكياً كثير الحيلة، تُرجم ذكاؤه على أنه دهاء، والدهاء عنصر من

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٥٥).

عناصر الحكمة إذا خلا من الأذى، وكان لنفع النَّاس، ونصرة الحق وهزيمة الباطل.

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يضرب كفّيه عجباً إذا رأى من رجل غباءً وقلة حيلة، ثم يقول: سبحان الله!! إنَّ خالق هذا... وخالق عمرو بن العاص إله واحد.

إن القراءة في سيرة الصحابي الجليل عمرو بن العاص سفر ممتع، حرصنا على أن نقطف منه طرافة الموقف، وذكاء الحيلة، وإقدام الرجل، ولنقترب من البطل قليلاً لنعرف عن قرب صفحاتٍ من حياته الجليلة، نبدؤها ببطاقة تعريف.

## نسبه

سَهْميٌ من بني سهم، يكنى أبا عبد الله[1] وأبا محمد[2]، وهو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سُعَيْد بن سهم[3].

أمه سلمى بنت حرملة، تُلَقَّب النابغة، من بني عنزة، سُبيت وبيعت بعكاظ، ثم اشتراها عبد الله بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل فأنجبت عمراً[4].

أبوه العاص بن وائل، أحد أشراف قريش في الجاهلية. كان زعيم السَّهْميين وقائدهم في يوم الفجار الثاني، قبل بعثة النبي ﷺ.

أدرك العاص بن وائل الإسلام ولم يُسلم، وكان له مواقف غريبة من الإسلام نوجز منها على سبيل المثال ما يلي:

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٩٣).
(٢) الإصابة (٣/ ٢).
(٣) المصدر السابق.
(٤) أسد الغابة (٤/ ١١٦).

كان أحد المستهزئين بالنبي ﷺ ، فكان إذا ذُكِرَ رسول الله ﷺ قال: «دعوهُ فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو مات انقطع ذكره واسترحتم منه»[1].

فأنزل الله سبحانه عزّ وجل قوله في سورة الكوثر:

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾.

وأنزل الله تعالى قوله في سورة الأنعام:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾.

لأنَّ العاص بن وائل قال للنبي ﷺ: لو جُعل معك ملك يا محمد يحدّث معك ويرى معك[2].

والغريب أنه اعترض على إيذاء عمر بن الخطاب ، ونهى الناس عن ذلك عندما أسلم عمر بن الخطاب. فصرخ فيهم قائلاً: رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خَلّوا عن الرجل[3].

وكان بنو سهم بطناً من عشرة أبطن من قريش نالت شرف القضاء بين الناس قبل الإسلام ، وكانت بطون قريش العشرة هي: هاشم ولهم السقاية ، ثم أمية ونوفل وعبد الدار وتيم وأسد ومخزوم وعدي وجُمح وسهم[4].

وقد قام بنو سهم بواجبهم خير قيام ، فحكموا بين القبائل ممن يفد على مكة ، وفضّوا الخصومات بينهم.

---

(١) أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص(٣٧٧).
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٣).
(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٢١٤ ـ ٢١٥).
(٤) المصدر السابق (١/ ١٤٣).

كان لهم فوق ذلك فضل الشعر والكرم ، وفصل الخصومات.

هذه إطلالة سريعة ، وبطاقة أوجزنا فيها نسب عمرو بن العاص السهمي ، وألقينا ضوءاً على طفولة هذا الفتى.

## مشاهد في الجاهلية

ما من قرشي شريف مثل عمرو بن العاص إلا وقد امتهن التجارة ، وشارك في رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام؛ كان محبّاً للسفر والتجارة ، ولم يقتصر على الشام واليمن وإنما مضى إلى الحبشة تاجراً.

وقد اختارته قريش ليذهب إلى النجاشي ملك الحبشة ليسلمه جعفر بن أبي طالب ومن هاجر معه من المسلمين. ولنقف قليلاً في إيوان النجاشي وبين كهنته وخدمه لنشهد أصعب مناظرة جرت في تلك الأيام[1].

وصل عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص وهما رسولا قريش إلى النجاشي وقد حملا الهدايا للنجاشي ، وما إن وصلا حتى دفعا للنجاشي وإلى بطارقته بالهدايا كي يرد المهاجرين من أهل مكة إليها. ثم قال للنجاشي: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غِلمانٌ سُفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوه لا نَعْرفه نحن ولا أنت ، وقد بَعَثَنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

رغم محاولة البطارقة إعادة المهاجرين قبل أن يستمع إليهم النجاشي بإيعاز من عمرو بن العاص وهداياه ، رغم ذلك فقد بعث النجاشي في طلب المهاجرين فلما جاؤوا سألهم قائلاً: ما هذا الدينُ الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ، ولا دين أحد من هذه الملل؟.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٣٥٨ وما بعدها).

فوقف جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وشيخ المهاجرين ليجيب عن هذا السؤال ، فقال: أيها الملك ، كنا قوماً أهلَ جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجِوار ، ويأكل القويُّ منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأَمَانَتَهُ وعفافَه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده.

ومضى جعفر يقول للنجاشي ما جاء به محمد ﷺ حتى قال:

فعبدنا الله وَحْدَه فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرَّم علينا ، وأَحْللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومُنا ، فعذَّبونا وفَتنونا عن ديننا؛ ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلُّ من الخبائث ، فلما قَهرونا وظَلَمُونا وضيَّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين دِيننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَن سواك؛ ورَغِبْنا إلى جوارك ، ورَجَوْنا ألا نُظلم عندك.

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

قال جعفر: نعم.

فقال النجاشي: فاقرأه عليّ. فتلا عليه سورة مريم من أولها إلى قوله تعالى:

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

وسمع بطارقةُ النجاشي هذا القول وسمعه الملك النجاشي فقال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة[1] واحدة.

---

(١) «مشكاة»: أي كوّة غير نافذة ، وقيل: هي الحديدة التي يُعلّق عليها القنديل. أراد أنَّ القرآن والإنجيل كلام الله تعالى ، وأنهما من شيء واحد.

ثم نظر إلى عمرو بن العاص وصاحبه عبد الله بن أبي ربيعة وقال: انطلقا والله لا أُسلمهم إليكما.

مضى عمرو بن العاص وصاحبه إلى مكان إيوائهما في قصر النجاشي، وجعل عمرو يفكّر، حتى وَصَل إلى حيلة ظنَّ أنها تُوقع بين النجاشي والمسلمين، فلما كان الغد عاد ابن العاص إلى النجاشي فقال له: إن المسلمين يقولون في عيسىٰ ابن مريم قولاً عظيماً.

قال النجاشي: وما يقولون في عيسى؟

قال عمرو: يقولون إنه عبد..!! فأرسل إليهم فسَلْهم عما يقولون.

أرسل النجاشي إلى المسلمين وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب، فلما دخلوا عليه وسألهم، قال جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: نقول فيه الَّذي جاءنا به نبينا ﷺ.

قال النجاشي: وما الذي قال فيه نبيكم؟

قال جعفر: يقول: هو عبدُ الله ورسوله ورُوحُه وكلمتهُ ألقاها إلى مَرْيَمَ العذراء البَتُول.

عندئذ أخذ النجاشيُّ عوداً وخطَّ به على الأرض وقال ـ وقد بلغت منه المسرّة أكبر مبلغ ـ: ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخطّ.

وكذلك تبيَّنَ للنجاشي بعد سماع الفريقين أن هؤلاء المسلمين يعترفون بنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام ويقرُّون بدين النصرانية، ويعبدون الله وحده.

ووجد المسلمون في جوار النجاشي أمناً، أما عمرو بن العاص فقد أخفق في مهمته هذه وعاد إلى مكة.

وقد شهد عمرو بن العاص غزوة «أُحد» مع المشركين، وكان من أشد الناس على رسول الله ﷺ[1].

---

(١) الاستيعاب (٢/٥٠٨).

كان عمرو فارساً من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية ، وكان معروفاً بالدهاء وحسن التصرف بين رجالات قريش.

وقد كان لذكاء عمرو وحُسْن فهمه أثرٌ في إسلامه ، فلم يخرج عمرو من وقفته أمام النجاشي وهذا الحوار الذي دار في إيوانه ، لم يخرج منه عمرو خالي الوفاض ، وإنما كانت لبنة الخير في هذا الموقف ، ووضعت بذرة الإيمان في قلبه.

## إسلامه

أقبل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة على رسول الله ﷺ ، فلمّا رآهم الرسول ﷺ قال لأصحابه: «قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها»[(١)] ـ يعني أشرافها وسادتها ـ.

وقد ذكر الرواة[(٢)] أن عمرو بن العاص فكَّر بالإسلام قبل إعلان إسلامه ، وقد أسلم على يد النجاشي ، وهمَّ بالذهاب إلى رسول الله ﷺ حين انصرافه من الحبشة ، وظلَّ هذا الموقف يُؤَجَّل حتى السنة الثامنة من الهجرة.

ولقد سُئل عمرو بن العاص ذات يوم فقيل له: ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك؟!.

قال عمرو: إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدّم ، وكانوا مِمَّن توازي حلومهم الجبال ، فلما بُعِث النبي ﷺ فأنكروا عليه فلذنا بهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا ، نظرنا وتدبّرنا ، فإذا هو حقٌّ بيّن ، فوقع في قلبي الإسلام ، فعرفتْ قريش ذلك مني من إبطائي عما كنتُ أُسرع فيه من عونهم عليه ، فبعثوا إلى فتى منهم فناظرني في ذلك فقلت: أنشدك الله ربك ورب من قبلك ومن بعدك أنحن أهدى أم فارس والروم؟.

---

(١) الاستيعاب (٢/ ٥٠٩).

(٢) الإصابة (٣/ ٢) وابن الأثير (٢/ ٨٨).

قال الفتى: نحن أهدى.

فقال عمرو: فنحن أوسع عيشاً أم هم؟

قال: هم!.

قال عمرو: فما ينفعنا فضلنا عليهم إن لم يكن لنا فضل إلا في الدنيا وهم أعظم منا فيهم أمراً في كل شيء، وقد وقع في نفسي أنَّ الذي يقوله محمد من أنَّ البعثَ بعد الموت ليجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته حق، ولا خير في التمادي في الباطل[١].

ويمضي عمرو في رواية أخرى فيقول: ثم جُعل الإسلام في قلبي، فأتيتُ رسول الله ﷺ لأبايعه، فقلت: ابسط يمينك أبايعك يا رسول الله. فبسط يده! ثم إني قبضتُ يدي فقال: «مالك يا عمرو»!؟.

فقلت: أردتُ أن أشترطَ!

فقال عليه الصلاة والسلام: «تشترط ماذا»؟.

فقلت: أشترط أن يُغفر لي.

فقال عليه الصلاة والسلام: «أما علمت يا عمرو أنَّ الإسلامَ يهدُم ما كان قبله»؟.

فقال عمرو ـ رضي الله عنه ـ: فقد رأيتني ما من أحد أحبّ إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه، ولو سُئلتُ أن أنعته ما أطقتُ، لأني لم أكن أطيقُ أن أملأ عيني منه، إجلالاً له[٢].

هكذا كان إسلامُ عمرو بن العاص عظيماً، امتلأ رحمة وحبّاً وإجلالاً لرسول الله ﷺ ودعوته العظيمة، وأصبح عمرو جندياً من جنود الإسلام.

---

(١) الإصابة (٣/ ٢).
(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٥٩).

أ ـ ذات السلاسل:

سُمِّيت هذه السرية بذات السلاسل لأن أحداثها جرت بالقرب من ماء سلسال، عذب المذاق.

وقد بعث النبي ﷺ بمن يجيئه بعمرو بن العاص، فلما مَثُلَ أمامه قال له: «يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك»(١).

فقال عمرو ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله، إني لم أُسلم رغبة في المال.

فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم المال الصالح للمرء الصالح».

ثم عقد عليه الصلاة والسلام اللواء لعمرو بن العاص، فجعله لواءً أبيضَ، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمئة رجل من أشراف المهاجرين والأنصار، لصدّ جمع قضاعة، ومعهم ثلاثون فرساً وذلك لبعد المسافة بين المدينة وموقع ذات السلاسل، فقد ذُكِرَ أنّه يبعد عن المدينة عشرة أيام سيراً على الأقدام، وهو وراء وادي القرى الذي يقع شمال المدينة المنورة(٢).

انطلق ركبُ الإيمان، بقيادة حكيمة، وبخبرة القائد وحكمته، وأمر عمرو ـ رضي الله عنه ـ رجاله بأن يستريحوا نهاراً ويواصلوا المسير ليلاً؛ وذلك لتحقيق المفاجأة على العدو، وحتى إن رآه عدوُّه ليلاً فلا يستطيع أن يرصد عدد جنوده، ويحصي مدى قوته.

ولما اقترب عمرو بن العاص من ذات السلاسل أرسل عيونه ليقف على ما جاء به عدوّه من قوة، فجاءت المعلومات تقول: إن العدو أعدَّ عُدَّةً هائلة وجمعاً كبيراً، وعدداً كثيراً لا طاقة لقوّته بهم.

لذلك أرسل عمرو بن العاص أحد رجاله وهو «رافع بن مكيث الجهني»

---

(١) سيرة ابن زيني دُحْلان على هامش السيرة الحلبية (٢/ ٢٣٢).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٣٣) وزاد المعاد (٢/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

إلى رسول الله ﷺ في المدينة يطلب منه المدد والعون كي يستطيع المواجهة بقوات كافية.

وصل «رافع» إلى المدينة مبكّراً، ودخل المسجد، فإذا بالرسول ﷺ يؤدِّي صلاة الفجر بمسجده المبارك، فلحق بصلاة الجماعة وأدَّاها خلف الرسول ﷺ، ولما فرغ من الصلاة اقترب من الرسول قليلاً، وبلَّغه رسالة عمرو بن العاص بطلب المدد من الرجال، فدعا الرسولُ ﷺ أبا عبيدة بن الجراح، وعقد له لِواءً وبعث معه مئتين من أبطال المهاجرين والأنصار بينهم أبو بكر وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ.

وعندما ودَّع الرسول ﷺ أبا عبيدة ومعه رجاله الأبطال قال له: «يا أبا عبيدة، لا تختلفا».

انطلق أبو عبيدة بجيشه فلحق بصاحبه، ولما وصل إلى هناك، وحان وقت الصلاة أراد أبو عبيدة أن يكون إماماً للنَّاس فاعترض عمرو بن العاص قائلاً: إنما قدمتَ على مددٍ لي معيناً ومقوّياً، وأنا الأمير ولا إمارة لك حتى تؤمّ الناس.

فقال أبو عبيدة: يا عمرو، إن رسول الله ﷺ قال لي: «لا تختلفا»، وإنك إن عصيتني أطعتك!!.

هكذا كانت الأمورُ تُدار بين صحابة رسول الله ﷺ، طاعةٌ لأبي عبيدة، وتميـزٌ بالحزم والعزم لعمرو بن العاص، وأمَّ عمرو بن العاص القوات الكبيرة في الصلاة، ووقف أبو عبيدة خلفه مؤتمّاً، طائعاً، لا شيء في نفسه.

وقد أمر عمرو بن العاص المسلمين ألا يوقدوا ناراً وقد كان البرد شديداً، ورغبة الجنود بالدفء غالبة إلا أن حزم القائد منعهم من ذلك، وقد استغربوا هذا الأمر منه، حتى وقف أحد جنوده وهو عمر بن الخطاب معترضاً على هذا الإجراء، فقال أبو بكر الصديق لعمر ـ رضي الله عنهما ـ:

«دعه يا عمر فإن رسول الله ﷺ لم يبعثه علينا إلا لعلمه بالحرب»[1].

أدَّى المسلمون الصلاة، ثم أعدوا العدَّة لمهاجمة عدوهم، وبدأ القتال، فقاتل الرجالُ جيشاً ضخماً مجتمعاً كثير العدد والعدة، فاستطاعوا ببطولتهم تفريق «قضاعة» والقضاء عليهم، لأنَّ الله تعالى استجاب دعاء رسوله لعمر بن العاص عندما قال: «فَيُغنمك الله ويسلمك».

عاد الجيشُ منتصراً، وسبق عوف بن مالك بفرسه إلى المدينة ليبشِّر الرسول ﷺ، فلما وصل إليه قال عليه الصلاة والسلام لعوف بن مالك: «أخبرني يا عوف».

فقال عوف بن مالك: فأخبرته عليه الصلاة والسلام بما كان بين أبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص، وما كان من طاعة أبي عبيدة لعمرو بن العاص. فقال عليه الصلاة والسلام: «يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح» وأخبرته أيضاً بمنع عمرو إيقاد النار، واتباع العدو.

وصل جيشُ المسلمين إلى المدينة، فأقبل عمرو بن العاص على رسول الله ﷺ، وألقى عليه تحية الإسلام، فردّها بأحسن منها.

ثم قال له رسول الله: «لِمَ منعت المسلمين أن يتبعوا عدوهم أو يوقدوا ناراً»؟.

فأجاب عمرو قائلاً: «كَرِهت أن يوقدوا ناراً فيرى عددهم وقِلَّتهُمْ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفون عليهم»[2].

فأثنى رسول الله ﷺ على تصرُّف قائده.

وكانت ذات السلاسل بمثابة ميلاد قائد إسلامي جديد، فذّ، هو عمرو بن العاص.

---

(١) السيرة الحلبية (٢/ ٢٣٢).

(٢) السيرة الحلبية (٣/ ١٩١).

ولم تمض أيامٌ كثيرةٌ حتى كُلِّفَ عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ بمهمة جديدة ، تُرى ما هي؟ إنها صنم سواع.

## هدم سواع

صنم سواع كان في أرض ينبع ، وسُمِّي باسم سواع بن نوح عليه السلام ، وكان على صورة امرأة[١].

كان لقوم نوح ثم صار لهُذيل ، وكان النَّاس يحجُّون إليه قبل فتح مكة ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث عمرو بن العاص لهدم سُواع ، فمضى إلى هناك كي يهدم الصنم ومعه كوكبة من أصحابه ، قال عمرو بن العاص: فانتهيتُ إليه وعنده السادن أو الكاهن.

فقال السادن: ما تريدُ؟.

قال عمرو: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمَ هذا الصنم.

قال السادن: لا تقدر على ذلك.

فقال عمرو: لِمَ؟.

فقال السادن: تُمْنع!!.

فقال عمرو: حتى الآن أنت في الباطل؟ ويحك هل يَسْمع أو يُبْصر!.

اقترب عمرو وأصحابه من الصنم وكسروه ، وأمر أصحابه فهدموا خزانته ، فلم يجدوا فيه شيئاً.

ثم قال عمرو بن العاص للسادن: كيف رأيت؟

فقال : أسلمت لله[٢].

---

(١) السيرة الحلبية (٣/١٩٦).

(٢) المصدر السابق ، وطبقات ابن سعد (٢/١٤٦).

# بعثه إلى عُمان

أصبح عمرو بن العاص واحداً من قادة النبي الذين حصلوا على ثقته ، لذلك فقد بعثه النبي ﷺ إلى عُمان ، وكان عليها ملك يسمى جَيْفَر بن الجُلَنْدَى ، يشاركه في الحكم شقيقه عبد بن الجلندى ، ولما عرف عمرو بن العاص أنَّ الثاني يتحلَّى بالحلم والخلق بدأ به أولاً فذهب إليه قائلاً: «إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك وإلى أخيك».

فقال عبد: أخي هو الملك ومقدّماً عليَّ بالسن.

قال عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: فمكثت أياماً ببابه حتى دعاني ، فدفعت إليه الكتاب ففضّه وقرأه حتى انتهى إلى آخره ، ودفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلاَّ أني رأيت أخاه أرقّ منه ، فقال: دعني يومي هذا ، وارجع إليَّ غداً ، فلما كان الغد رجعت إليه. فقال: إني فكّرت فيما دعوتني إليه[1].

ثم أكمل جيفر ملك عمان قائلاً: فإذا أنا أضعف العرب إذا ملكتُ رجلاً ما في يدي.

قال عمرو بن العاص: فإني خارج غداً.

فلما أيقن الملك بخروجه أصبح فأرسل إليه ، فلما دخل عليه عمرو بن العاص قال: أجبتُك إلى الإسلام ، وأجاب أخوه أيضاً إلى الإسلام وصدّقا بالنبي ﷺ وخليا بين عمرو بن العاص وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم.

ويقول عمرو بن العاص: وكانا لي عوناً على مَن خالفني ، فأخذتُ الصدقةُ من أغنيائهم فرددتها إلى فقرائهم[2].

ولم يزل عمرو بن العاص مقيماً بينهم وفيهم حتى بَلَغَهُ وفاة النبي ﷺ ،

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٢٦٢ وما بعدها).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٦٣).

وكانت هذه المهمة الأخيرة التي كَلَّف بها النبي ﷺ عمرو بن العاص ، بعدها تفرّغ لمهام كبرى في عهد أبي بكر .

## حـروب الــردّة

لما مات رسول الله ﷺ ، كان عمرو بن العاص بعُمان كما ذكرنا ، فخرج منها إلى البحرين ، ثم نزل أرض بني عامر فلقيه رجل يسمى قرة بن هبيرة ، وهو أحد الوجوه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه فأسلم ، وارتد لما مات النبي .

فلما قدم عمرو ـ رضي الله عنه ـ على قُرَّة بن هبيرة أكرمه حتى عزم على الرحيل ، فلما شعر قرة برحيله خلا به قائلاً : «يا هذا إن العرب لا تطيب لكم بالإتاوة فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فتسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم» .

فقال عمرو بن العاص : أكفرت يا قرة؟ أتخوفنا بالعرب؟! .

ثم قال متوعّداً قرة : فوالله لأوطئن عليك الخيل ، في حِفْش أمك[1] . (الحِفْش بيت تنفرد فيه النفساء) .

وينتقل عمرو بن العاص بعد هذا التهديد لرجل حاول الارتداد عن دينه ، إلى مسيلمة الكذاب ، فسمع منه بعد أن أعطاه الأمان ، لكنه هدّد مسيلمة قائلاً : والله إنك لمن الكاذبين .

ومضى إلى المدينة بعدما توعّدَهُ مسيلمة الكذاب ، ولما وصل إليها عقد له أبو بكر لواءً لكي يمضي إلى قُضاعة الذين حاربهم في حياة النبي ﷺ كما ذكرنا في ذات السلاسل ، فهو على دراية بهم وكيفية الوصول إليهم .

ولما ارتدوا خرج إليهم على رأس جيش كبير ، ومضى في طريق معروفٍ

---

(١) ابن الأثير (٢/ ١٣٤) .

لديه ، واستطاع أن ينتصرَ عليهم ، حتى عادوا إلى الإسلام ، وقضى على كُلّ مرتد فيهم.

وما أن انتهى من مهمته ووطّد أركان الإسلام في «قضاعة» ، حتى عاد إلى المدينة منتصراً.

وقد انتظر عمرو بن العاص أوامر قيادته في المدينة ، وقد حمل خبرة حربية عظيمة ، واكتسب فناً في القيادة على مدى سنوات في عهد الرسول وأوائل هذا العهد البكري العظيم ، وتهيّأ للفتوحات الكبرى.

## الفاتح العظيم

### ١ ـ في الشام:

سَمَّى أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لكل أمير من أُمراء الشام مكاناً يُؤَمَّر عليه بعد أن يفتحه ويؤمنه للإسلام.

فسمَّى لأبي عبيدة بن الجراح حمص ، وليزيد بن أبي سفيان دمشق ، ولشرحبيل بن حسنة الأردن ، ولعمرو بن العاص ومعه علقمة بن مُحَزّر فلسطين ومصر.

فلما شارفوا الشام ، دَهَمَ كلَّ أمير منهم قومٌ كثير ، فأجمع رأيهم أن يجتمعوا بمكانٍ واحدٍ ، وأن يلقوا جمع المشركين بجمع المسلمين[1].

وكان عمرو بن العاص قبل أن يمضي إلى الشام والياً على عُمان ؛ وقد استدعاه أبو بكر برسالة قال فيها:

«إني كنت قد رددتُك على العمل الذي ولاّك رسول الله ﷺ مرة ووعدك به أُخرى ، إنجازاً لمواعيد رسول الله وقد وليته ، وقد أحببتُ أن أفرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبّ إليك».

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٤).

فكتب إليه عمرو رداً على هذه الرسالة يقول:

«إني سهمٌ من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامي بها والجامعُ لها ، فانظر أشدَّها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي»[1].

وعلى هذا الأساس المشترك الذي تعامل به أبو بكر الصديق أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ وقائده الفذ عمرو بن العاص ، كان اشتراك القائد في معركة اليرموك.

وقد أمر أبو بكر قائده عمرو أن يسلك طريق «أَيْلَة» عائداً إلى فلسطين ، وأيلة هذه على ساحل بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) مما يلي الحجاز ، وهي آخر الحجاز وأول الشام[2].

## يـوم الـيـرمـوك

ترامى إلى سمع أبي بكر أن الروم اجتمعت باليرموك ، ونزلوا به ، وقالوا: والله لنشغلنَّ أبا بكر في نفسه عن تَوَرُّدنا بخيوله.

فكتب إلى كل رجاله وقادته كي يجتمعوا ويؤازروا عمرو بن العاص.

كتب إلى خالد بن الوليد أن ينزل إلى تيماء ، وهي بلد في أطراف الشام ، وكتب إلى خالد بن سعيد وقال له: أقدم ولا تحجم واستنصر الله. وأمر عكرمة بن أبي جهل بالسير لنصرة خالد بن سعيد وإخوانه ، وكتب إلى الوليد بن عقبة وكان على صدقات قضاعة ، فهبَّ رجاله للجهاد.

وقام أبو بكر خطيباً في النَّاس بالمسجد فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ، وقال:

---

(١) الطبري (٣/ ٣٨٩).

(٢) معجم البلدان (١/ ٣٩٠).

«ألاَ إنَّ لكل أمرٍ جوامعَ ، فمن بَلَغَها فهي حَسْبه؛ ومن عمل لله كفاه الله. عليكم بالجد والقصد؛ فإنَّ القصد أبلَغ ، ألا إنَّه لا دِينَ لأحد لا إيمان له ، ولا أجرَ لمن لا حِسْبَةَ له ، ولا عمل لمن لا نيّة له. ألاَ وإنَّ في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لَمَا ينبغي للمسلم أن يحبّ أن يُخَصَّ به ، هي التجارة التي دَلَّ الله عليها ، ونجّى بها من الخزي ، وألحقَ بها الكرامة في الدنيا والآخرة[١].

ثم أمدَّ عَمْراً مَن جاء للجهاد من النّاس ، وأمَّره على فلسطين ، ولما وصلت جيوشُ المسلمين يتلو بعضها بعضاً إلى أرض الشام ، وأحس «هرقل» قائد الروم بوصولها أرسل جيشاً ضخماً قوامه تسعون ألفاً بقيادة شقيقه «تذراق» لكي يضربَ به كلّ جيشٍ من جيوش المسلمين على انفراد ، لذلك أرسل قادةُ الجيوش الإسلامية رسائل إلى عمرو بن العاص يطلبون منه المشورة.

فقال لهم: إنَّ الرأيَ الاجتماعُ ، وذلك أنَّ مِثْلَنا إذا اجتمع لم يُغْلَب من قِلَّة ، وإذا نحن تفرَّقْنَا لم يَبْقَ الرجلُ منا في عدد يُقْرِن[٢] فيه لأحدٍ ممّن استقبلنا وأعدّ لنا لكل طائفة منا.

والتقى الجيشان المسلمون والروم ، وقد نزل الرومُ وادياً يسمى الواقوصة في أرض حوران بالشام ، والواقوصة على ضفة نهر اليرموك ، وصار الوادي خندقاً لهم ، وجاء المسلمون أمامهم كي يحاصر وهم خلف اليرموك ، لذلك سعد عمرو بن العاص وقال لقواته ، وقد كان على ميمنة جيش المسلمين: أيها الناس ، أبشروا ، حُصِرَنْ والله الرُّوم ، وقلَّما جاء محصور بخير!.

وفي هذا اليوم أبلى عمرو بن العاص وجُنْدهُ بلاءً حسناً ، وقاتلوا قتالاً

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٠).
(٢) يقال: أقرن له: إذا غلب عليه.

مُشرِّفاً ، وأصيب من وجوه المسلمين الكثير وقتل منهم الكثير ، لكن انتصر المسلمون على الروم انتصاراً حاسماً ، مما جعلهم يدخلون دمشق.

وقد شهد عمرو بن العاص مع شُرَحْبِيل بن حسنة فتح بِيْسَان ، وطَبَرَية وعقد الصلح مع أهل الأردن.

ولم ينته دورُ عمرو بن العاص في فتوحات الشام بفتح دمشق وبيسان وطبرية ، وإنما هيّأ نفسه لصراع طويل مرير مع هؤلاء الذين ملأ الكُفر رؤوسهم ، وأخذتهم نشوة الجاهلية واستبدادها ، وظنوا أن الرماح هي كل شيء ، وكانوا على جهل بنوع الرجال الذين نذروا أنفسهم للموت والشهادة في سبيل إعلاء كلمة الحق ، وكان اللقاء المهمّ في أجْنَادِين.

## أجـنـاديـن

كانت هذه الموقعة في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الذي كان يَعْرِفُ قبل غيره مواهبَ قائده عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ ، ويقدّرها حقَّ قدرها.

وقد جاء من الشام من يقول لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «إنَّ على رأس جيش الروم بالشام «أرطبون» وهو قائد شجاع وداهية كبير في الذكاء والجراءة.

فتبسم عمر بن الخطاب وقد ظهرت على أساريره علاماتُ الثقة المطلقة في ذكاء قائده وقال: لقد رَمَيْنَا أرطبون الروم بأرطبون العرب فلننظر عَمَّ تنفرج الأمور.

سار عمرو بن العاص ومعه شُرحبيل بن حَسَنَة واستخلف على الأردن أبا الأعور السُّلَمي ، ولما كان الأرطبون الرومي من أدهى رجال الروم ، فقد عسكر بالرّملة بفلسطين ، وجمع فيها جنداً عظيماً ، وحشداً كبيراً من الرجال.

وفي أجنادين تلاقى الجيشان ، جيش الروم بقيادة أرطبون ، وجيش

المسلمين بقيادة عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أرطبون العرب كما سماه عمر بن الخطاب.

ولما كان القائدُ العربيّ المسلم يجب أن يعرف عن عدوه كلّ شيء قبل أن يضرب ضربته، لذلك حاول من خلال الرسل والمناوشات أن يكتشفَ نقاط الضعف عند أرطبون الرومي، ولكن دون جدوى، لذلك فقد اتّخذ قراراً خطيراً، لقد قرر أن يذهبَ إليه بنفسه، ودخل عليه وكأنه أحد رسل قائد المسلمين، فلما رآه أرطبون داخلاً عليه قال: «لا شكَّ أن هذا هو الأمير أو من يأخذ الأمير برأيه».

فاتَّخذ قراراً بقتله وأمر رجلاً أن يتربَّص به لقتله، وفطن عمرو بن العاص لغدر أرطبون الروم، فقال له بعد أن تحدثا: «قد سمعتُ منك وسمعتَ مني، وقد وقع قولك مني موقعاً، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه[1] ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا في الذي عرضتُ مثلَ الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروْه رددتَهم إلى مأمنهم، وكنتَ على رأس أمرك».

فقال أرطبون: نعم. وطمع في قتل عشرة بدلاً من واحد، وردّ الرجل الذي أمره بقتل عمرو.

خرج عمرو بن العاص من عِند أرطبون، ومضى إلى قيادته بعد أن خدعه، وعرف نقاط ضعف قيادة عدوه.

ولما علم أرطبون بخدعة عمرو قال: «خدعني الرجلُ... هذا أدهى الخلق!!».

وبلغت خديعته عمر بن الخطاب فقال باسماً: غلبه عمرو، لله عمرو[2]!!

---

(١) «لنكاتفه»: أي لنعاونه.
(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦).

هاجم عمرو بن العاص أعداءه ، ودار بين الفريقين قتال شديد ، سقط فيه عدد كبير من القتلى دخل على أثره عمرو بن العاص أجنادين ، وهرب أرطبون إلى إيلياء ، وانطلق عمرو بن العاص ففتح معظم بلاد فلسطين: غزة ، ونابلس ، واللّد ، ويُبْنَى ، ويافا ، ورفح.

ثم جاءه أمر جديد من المدينة يكلفه بالتوجّه إلى مصر.

## في مصر

استكمل المسلمون فتحَ الشام ، وأصبح مركزُ الروم ضعيفاً في المنطقة ، وانهارت كلُّ القوى المتردّدة أمام انهيار جيوش الروم الكثيرة العدد والعُدّة ، أمام المسلمين.

سار عمرو بن العاص إلى مصر فاتحاً في السنة التاسعة عشرة[1] فنزل العريش ، ثم أتى الفَرَما (فاء مفتوحة وراء مفتوحة) ، وبها قوم مستعدون للقتال فحاربهم ، ودارت معارك هائلة بين المسلمين والروم في منطقة الفَرَمَا ، واستطاع عمرو بن العاص أن يهزمهم ويقتل عسكرهم.

ولم ينتهِ القتالُ في الفَرَما حتى بدأ في «أُم دُنَين» ، وأدرك عمرو بن العاص قائد جيش المسلمين صعوبة التقدُّم وتحقيق النصر؛ بما معه من قوات ، وكان عددهم ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف ، وهو عدد غير كافٍ لمتابعة مسيرة الفتح العظيم ، فقد كان لِزاماً عليه أن يترك في كلّ مكانٍ يفتحه حامية عسكريةً تحميه وتوطّد أركان الإسلام فيه.

استنجد عمرو بن العاص بقيادته في المدينة ، وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يطلب النجدة وإرسال المزيد من القوات.

فاستجاب عمر بن الخطاب على الفور ، وأرسل الزبير بن العوام بن

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص(٢١٤).

خويلد في عشرة آلاف ، ويقال: في اثني عشر ألفاً؛ كي يواصل رحلة الفتح العظيم ، ومعارك الجهاد الأكبر.

وقد كان في هذا المدد المبارك كوكبة من أجلّاء الصحابة ، هم: المِقْداد بن الأسود ، وعُبَادة بن الصَّامت ، ومَسْلَمَة بن مُخَلَّد ، وخَارِجة بن حُذافة.

وكتب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رسالة لعمرو بن العاص يقول فيها: «أمددتك بآلافٍ فيهم رجالٌ ، الواحد منهم بألفِ رجلٍ».

وفي لحظة خروج الزبير بقواته من المدينة ، كي يساعد عمرو بن العاص ، قال له عمر بن الخطاب: يا أبا عبد الله هل لك في ولاية مصر[1]!.

فقال الزبير: لا حاجة لي فيها ، ولكني أخرج مجاهداً ، وللمسلمين معاوناً ، فإن وجدتُ عمراً قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به ، وإن وجدته في جهاد كنتُ معه.

سار الزبير على ذلك إلى مصر ، فلما وصلها وجد عمرو بن العاص يحاصر أهل الفسطاط ، وهم متحصنون بحصنهم ، فقاتل الزبير في جهة ، وكان عمرو بن العاص يقاتل في جهة أخرى ، فتحدَّث مع راهبين بعثهما المقوقس في الإسكندرية ، فوقف عمرو بن العاص يفاوضهما ويقول:

أنتما راهبا هذه البلاد فاسمعا ، إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق ، وأمره به وأمرنا به وأدَّى إلينا كلّ الذي أمر به ، ثم مضى وتركنا على الواضحة ، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى النَّاس ، فنحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية ، وبذلنا له المنعة ، وقد أعْلَمَنا أَنا مفتتحوكم ، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا منكم ، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمّة إلى ذمة ، ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا

---

(١) البلاذري ص(٢١٤).

بالقبطيين خيراً ، فإن رسول الله ﷺ أوصانا بهم خيراً ، لأن لهم رحماً وذمة[١].

فقالا لعمرو: قرابة بعيدة لا يصل إلى مثلها إلا الأنبياء ، معروفة شريفة ، كانت ابنة ملكنا ، وكانت من أهل منف والملك فيهم ، فأديل عليهم أهل عين شمس فقتلوهم وسلبوهم وملكهم واغتربوا ، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام ، مرحباً به وأهلاً وسهلاً.

ثم قال أحدهما لعمرو: آمِنّا حتى نرجع إليك.

فقال عمرو بن العاص: إنّ مثلي لا يُخدع ولكن أؤجّلكما ثلاثاً لتنظرا ولتناظرا قومكما وإلا ناجزناكم.

قالا: زدنا يا عمرو. فزادهم يوماً. ثم يوماً آخر.

ولكنهما تشاورا مع المقوقس وأرطبون الحصن الرومي فرفضا ، وبيّتوا للمسلمين السوء ، فحاصر عمرو الحصن وشدّد الزبير بن العوام الحصار ، وفي ليلة مباركة ، احتمل الزبير من جهة مع بعض جنده الأشاوس سُلَّماً أسنده إلى سور الحصن من منطقة لا يتوقّعها الروم ، وهي منطقة شوق الحمام[٢] ثم صعد بهدوء وخفة حتى لا يشعر به عدوّه ، وما إن وصل ورجاله قمة الحصن حتى تعالت الحناجر بهتافٍ عظيم يقول: الله أكبر ، الله أكبر.

ارتعد الرومُ من أصوات المسلمين ، وانهارت مقاومتهم ودفاعاتهم ، وتراجعوا إلى داخل الحصن ، حتى استسلموا في النهاية ، وخرجوا من الباب الآخر لمفاوضة عمرو على الصلح ، فأمضوا الصلح وكتب لهم عمرو كتاب أمان قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم:

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملّتهم

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٠٠) ، والطبري (٤/ ١٠٧).

(٢) الطبري (٤/ ١٠٨).

وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم ، وبرِّهم وبحرهم ، لا يدخَل عليهم شيء من ذلك ، ولا يُنتقص ولا يساكنهم النّوب ، وعلى أهل مصر أن يُعْطُوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصُّلْح . . . فإن أبى أحدٌ منهم أن يجيب رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمّتنا ممن أبى بريئة»[١] .

ومضى في كتابه يحدّد حقوقه وواجباته نحو أهل هذه البلاد الجديدة .

ولما فتح عمرو بن العاص مصر ، وصعيدها؛ مثل الفيوم والأُشْمُونين[٢] وإخْميم ، وكلها بلاد صعيد مصر ، أقام عمرو بمصر ، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره في الزحف إلى الإسكندرية ، فكتب إليه يأمره بذلك ، فسار إليها في سنة إحدى وعشرين واستخلف على مصر خارجة بن حذافة بن غانم .

## فتح الإسكندرية

لم يكن فتحُ الإسكندرية سهلاً أو مفروشاً بالورود ، وإنما تجمّع الروم ومعهم القبط وقالوا: «نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا ويروم الإسكندرية» .

فلقيهم عمرو بمنطقة تسمى «الكِرْيَوْن» فهزمهم وقتلَ منهم مقتلة عظيمة[٣] ثم سار عمرو حتى وصل إلى الإسكندرية فوجد أهلها مستعدين لقتاله إلاّ أن القبط مع ذلك يحبون الموادعة والمهادنة ، فأرسل إليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة فأبى عمرو ذلك ، فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجوهن إلى داخل السور!!

وأقام الرجال في السلاح مقبلين بوجوههم إلى المسلمين ليرهبهم بذلك ، فهم عمرو حيلة المقوقس ورجاله فأرسل إليه قائلاً: إنّا قد رأينا

---

(١) الطبري (٤/ ١٠٩) والبداية والنهاية (٧/ ١٠٠ ـ ١٠١) .
(٢) انظر البلاذري ص(٢١٤ ـ ٢١٩) .
(٣) البلاذري ص(٢٢٢) .

ما صنعت وما بالكثرة غلبنا من غلبنا ، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان[1].

فقال المقوقس لأصحابه: «قد صدق. . هؤلاء القوم أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية فمن أولى بالإذعان».

اعترض القوم على المقوقس ، وأبوا إلاَّ محاربة المسلمين وقتالهم ، ودار بينهم وبين المسلمين قتال شديد ، وحاصروهم ثلاثة أشهر ، حتى فتحت الإسكندرية بالسيف وغنم المسلمون ما فيها ، وكتب عمرو إلى عمر وأرسل له الخمس مع معاوية بن خَدِيج الكندي ، واستخلف على الإسكندرية عبد الله بن حُذافة ، وانصرف عائداً إلى الفسطاط.

وقد أمّن عمرو مصر من الجنوب بإرساله عقبة بن نافع إلى النوبة ، فدخلها ولم يحسم أمرها إلا بعد سنوات.

وقد اتَّجه عمرو لتأمين الحدود الغربية ، فاخترق الصحراء ، وافتتح «بَرْقَة» ، وصالح أهلها على الجزية ، وبذلك أصبحت مصرُ محرّرة من الروم تنعم بالإسلام.

## وجاءت الفتنة الكبرى

ما أن بويع علي بن أبي طالب حتى كانت نفوس كثيرة من رعية المسلمين قد تمكن منها الهوى ، فَرُفِعَ شعارُ المطالبة بدم عثمان ، وكثر الحديثُ عن سوء إدارة الولايات الإسلامية.

وقد كان عمرو بن العاص طرفاً في أحداث هذه الحقبة في التاريخ الإسلامي.

ولقد قُبِضَ رسول الله ﷺ وهو راضٍ عن عمرو بن العاص ، ومات الشيخان أبو بكر وعمر وهما راضيان.

---

(١) البلاذري ص(٢٢٢).

وقد أقره عثمان بن عفان على مصر أربع سنوات وقيل سنتين[1] ، ثم عزله عثمان ، وولّى على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ، وكان ذلك بدءُ الخلاف بين عمرو وعثمان ، فقد جاء عمرو من مصر غاضباً ، حتى إنّه مشى بين الناس يحرِّضهم على الثورة ضد عثمان بن عفان! .

ولما تولّى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فرّق عماله على الأمصار والولايات فلم يكن عمرو بينهم ، وأرسل معاوية كتاباً لعمرو يقول فيه: أقدم على بركة الله تعالى ، ويطلب إليه أن يكون رجلاً من رجاله. فدعا ابنيه محمداً وعبد الله واستشارهما في أمر البيعة قائلاً: أمَّا عليٌّ فلا خير عنده ، وهو رجل يُدِلّ بسابقته ، وهو غير مُشرِكي في شيء من أمره[2] .

فقال عبد الله بن عمرو: توفي النبي ﷺ وهو عنك راضٍ ، وتوفي أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو عنك راض ، وتوفي عمر ـ رضي الله عنه ـ وهو عنك راض ، أرى أن تكفَّ يدك ، وتجلس في بيتك ، حتى يجتمعَ النَّاسُ على إمام فتبايعه.

وقال محمد بن عمرو: أنت نابٌ من أنياب العرب ، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوتٌ ولا ذِكْر.

قال عمرو لابنيه: أما أنت يا عبد الله فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي. وأسلم في ديني.

وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي أنبهُ لي في دنياي ، وشرٌّ لي في آخرتي. ثم خرج ومعه ابناه حتى قدم على معاوية ، فوجد أهل الشام يحضّون على الطلب بدم عثمان.

فقال عمرو بن العاص: أنتم على الحق ، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم. ـ ومعاوية لا يلتفت إلى قول عمرو ـ.

---

(١) الطبري (٣/ ١٨٥).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٥٦٠).

فقال له ابناه: ألا ترى أنَّ معاوية لا يلتفت إلى قولك! انصرِف إلى غيره.

فدخل عمرو على معاوية فقال: والله لَعَجبٌ لك! إني أرفدك بما أرفِدك وأنتَ معرضٌ عني! أما والله إن قاتلْنا معكَ نطلب بدمِ الخليفة إن في النفس من ذلك ما فيها، حيث تقاتل من تعلم سابقتَه وفضلَه وقرابته، ولكنّا إنما أردنا هذه الدنيا!!.

فصالحه معاويةُ، وعَطَفَ عليه[1].

بايع عمرو بن العاص معاوية بن أبي سفيان على الطلب بدم عثمان، ولم تكن البيعةُ كلاماً أو يداً في يد فقط، بل كتبا بينهما كتاباً جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم:

هذا ما تعاهد عليه معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ببيت المقدس من بعد قتل عثمان بن عفان، وحمل كلّ واحد صاحبه الأمانة، إن بيننا عهد الله على التناصر والتخالص والتناصح في أمر الله والإسلام، ولا يخذل أحدنا صاحبه بشيء، ولا يتّخذ من دونه وليجةً، ولا يحول بيننا ولد ولا والد أبداً ما حيينا فيما استطعنا؛ فإذا فُتحت مصر، فإن عمراً على أرضها، وإمارته التي أمّره عليها أمير المؤمنين، وبيننا التناصح والتوازر والتعاون على ما نابنا من الأمور، ومعاوية أمير على عمرو بن العاص في النّاس وفي عامة الأمر، حتى يجمع الله الأُمة، فإذا اجتمعت الأمة فإنهما يدخلان في أحسن أمرهما على أحسن الذي بينهما من أمر الله الذي بينهما من الشرط في هذه الصحيفة»[2].

وفي معركة صفين ـ أولى هذه المعارك ـ اشتدَّ القتال، وكاد النصرُ يكون لعلي بن أبي طالب وفرقته، فقال عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة؟.

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٥٦٠ ـ ٥٦١).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٥٤).

فقال معاوية: نعم.

أمر عمرو بن العاص رجاله برفع المصاحف وقالوا: هذا حكم كتاب الله عزَّ وجل بيننا وبينكم. من لثغور الشام بعد أهله؟ ومن لثغور العراق بعد أهله؟.

دبَّ الخلافُ بين أصحاب علي، فقال علي: والله ما رفعوها إلاّ خديعة ووهناً ومكيدةً.

لكن بعض أصحابه أصرَّ على قبول التحكيم.

فقال علي لمعاوية: قد قبلنا كتاب الله، فمن يحكم بكتاب الله بيننا وبينك؟.

فقال معاوية: نأخذ رجلاً منا نختاره وتأخذ منكم رجلاً تختاره.

فاختار معاوية عمرو بن العاص، واختار علي أبا موسى الأشعري[1].

وبدهاءٍ كبيرٍ دارت المباحثاتُ، أقنع فيها عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري بخلع علي ومعاوية، واتخاذ الأمر شورى بينهم، ولما أذيعَ البيانُ على النَّاس قال عمرو بن العاص: «إنَّ هذا قد قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه، إني أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبتُ صاحبي معاوية فإنه وليّ ابن عفان والطالب بدمه وأحقّ الناس بمقامه»[2].

وينتصر معاويةُ بفضل دهاء عمرو بن العاص، ويصبح عمرو بن العاص أميراً على مصر ووالياً عليها بعد أن أخذها من محمد بن أبي بكر عامل علي بن أبي طالب عليها.

## مآثر ومشاهد

**الدهاء:**

إن أهم ما تميزت به شخصية عمرو هو الدهاء حتى قال عنه الشعبي:

---

(١) الطبقات لابن سعد (٤/٢٥٦).

(٢) المصدر السابق (٤/٢٥٨ ـ ٢٦٠).

«دهاة العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شُعبة، وزياد.

فأما معاوية فللحلم والأناة، أما عمرو بن العاص فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللكبير وللصغير»[1].

**الإمارة:**

والأمر الثاني هو حبّه للإمارة، فقد قال عنه عمر بن الخطاب: لا يصلح إلاّ أميراً.

**المحدِّث:**

وكان عمرو بن العاص محدِّثاً عن رسول الله، فقد روى عنه تسعة وثلاثين حديثاً[2].

وكان فقيهاً؛ يقول عن فقهه أحدُ معاصريه: صحبت عمرو بن العاص، فما رأيت رجلاً أبين قرآناً ولا أكرم خلقاً ولا أشبه سريرة بعلانية منه[3].

وقد روى عن رسول الله ﷺ قوله: «إذا حكم الحاكم فاجتهدَ فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر»[4].

**الحليم:**

ومن مآثر حلمه أنَّ بعضَ الناس جعلوا ألف درهم لمن يسأله عن أمه وهو على المنبر، فسأله رجل عن أمه وهو على المنبر فقال: أمي سلمى بنت حرملة، تُلقَّب النابغة من بني عنزة، أصابتها رماح العرب، فبيعت بعكاظ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جُدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل السهمي، فولدتْ له، فأنجبت.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص(١٣٦).

(٢) انظر المسند للإمام أحمد (٤/ ٢٠٥).

(٣) الإصابة (٣/ ٢).

(٤) رواه أحمد (٤/ ٢٠٤).

ثم نظر إلى الرجل وقال: فإن جُعِلَ لك شيء فخذه[1].

**الإيمان:**

كان عمرو رجلاً مؤمناً، كثيراً ما كان يشعر بالحزن والندم على ما فرَّط في جنب الله.

وقد ذكرنا حديث رسول الله عنه في مطلع السيرة حيث يقول: «أسلمَ الناسُ وآمن عمرو بن العاص»[2].

ها هو يقف ذات يوم على المنبر فيقول: «لقد أصبحتم وأمسيتم ترغبون فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه: أصبحتم ترغبون في الدنيا وكان رسول الله ﷺ يزهد فيها. والله ما أتت على رسول الله ﷺ ليلة من دهره إلا كان الذي عليه أكثر مما له»[3].

كان عمرو بن العاص مؤمناً شجاعاً، يؤنِّب نفسه أمام الناس، وقوفاً منه على حقيقة نفسه.

وقد انطلق لسانهُ في اللحظات الأخيرة من حياته بصراحة مطلقة، يؤنّب نفسه ويخاطبها بكل ما بَدَرَ منها من سوء، نادماً على ذلك طالباً المغفرة من الله تعالى.

## وداعاً أمير الجيوش

جاءه الموت كما يجيءُ بني آدم، فحوّل وجهه إلى الحائط وبكى بكاءً مرّاً، فقال له أحد أبنائه: ما يبكيك؟ أما بشّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشّرك بكذا؟.

---

(١) الاستيعاب (٣/ ٥٠٦).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٥٥).

(٣) مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٠٤).

فقـال: إن أفضـل مـا تَعُـد علـيّ شهـادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمـداً رسول الله ﷺ ، ولكني كنتُ على أطباق ثلاث:

ـ قد رأيتني ما من النّاس من أحد أبغض إليّ من رسول الله ولا أحب إليّ من أن أستمكن منه فأقتله ، فلو متّ على تلك الحالة لكنتُ من أهل النار.

ـ ثم جعل الله الإسلامَ في قلبي ، فأتيتُ رسول الله ﷺ لأبايعه ، فقلت: ابسط يمينك أبايعك يا رسول الله ، فبسط يده ، ثم إني قبضتُ يدي ، فقال: «مالك يا عمرو»؟.

فقلت: أردت أن أشترط! فقال: تشترط ماذا؟

فقلت: أشترط أن يُغفرَ لي.

فقال: «أما علمتَ يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟». فقد رأيتني ما من الناس أحب إليَّ من رسول الله ، ولا أجلَّ في عيني منه ، فلو متُّ على تلك الحالة رجوتُ أن أكون من أهل الجنة.

ثم ولينا أشياء بعد ، فلست أدري ما أنا فيها أو ما مالي فيها. فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني فسُنُّوا عليّ التراب سناً.

فإذا فرغتم من قبري فامكثوا عند قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها ، فإني أستأنسُ بكم ، حتى أعلم ماذا أراجعُ رُسُلَ ربي.

ثم قال مبتهلاً: اللهم لا بريء فأعتذر ، ولا عزيزٌ فأنتصر وإلاَّ تدركني برحمة أكن من الهالكين[1].

وظلَّ يُردِّدُ الشهادة حتى لقيَ ربه يوم الفطر بمصر سنة ثلاث وأربعين للهجرة (٦٦٤ م)[2] ، في خلافة معاوية ، وقد بلغ من العمر تسعين سنة.

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٥١).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٦١).

رحم الله عمرو بن العاص ، القائد الفذ.
رحم الله عمرو بن العاص ، القائد الذكي.
رحم الله عمرو بن العاص ، محرِّر مصر من الروم.
رحم الله عمرو بن العاص ، الصحابي الجليل ، القائد العظيم.

* * *

# (٦)

# أسـامـة بـن زيــد

## كلمات خالدة

خرج رسولُ الله ﷺ في مَرَضه الذي توفي فيه ، عاصباً رأسه ثم جلس على المنبر وقال: «أيها النَّاس ، أنفذوا بعث أُسامة ، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليقٌ للإِمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها»(١) .

وقال الفاروق عمر لابنه: إن أبا أُسامة كان أَحبَّ إلى رسول الله من أبيك ، وكان هو أحب إلى رسول الله منك.

وقال أبو بكر لعمر ـ رضي الله عنهما ـ عندما أرسله الأنصار ليولي إمارة الجيش رجلاً منهم غير أُسامة بن زيد: ثكلتك أمك يا عمر وعدمتك يا بنَ الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه؟! والله لا يكون ذلك.

في هذه الكلمات القليلة ذكرنا ثلاثة مشاهد:

**المشهد الأول**: يأتي في زمن متأخر من مشاهد أسامة مع الرسول ﷺ حينما أحس عليه الصلاة والسلام أن من النَّاس من لا يقرّ إمارة أُسامة وعمره لم يبلغ العشرين بعد.

**والمشهد الثاني**: كان بين عمر وابنه عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ ، عندما جلس يقسم أموال بيت المال على المسلمين وجاء دورُ عبد الله فأعطاه نصيبه ، ولما جاء دور أُسامة بعده أعطاه عمر أكثر مما أعطى ولده عبد الله ، فنشد عبد الله العدل عند عمر وقال: لقد فضَّلت عليَّ أُسامة ، وقد شهدت مع رسول الله ما لم يشهد؟ .

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٦٨) ، وفتح الباري (٨/ ١٥٢).

فكانت كلمات عمر: إن أُسامة كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ منك، وأبوه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك.

**والمشهد الثالث:** تحدثنا عن سببه في حينه.

هذه الكلمات الخالدة، زهرات قليلة من روضة فسيحة في سيرة «الحِبّ بن الحِبّ» أُسامة بن زيد، كما كان يلقّبه الصحابة، نستهل بها سيرته العطرة في مشاهد ومواقف متعدّدة، بعد أن نتعرف عليه عن قرب.

## الحِبّ بن الحِب

في السنة السابعة قبل هجرة رسول الله ﷺ وضعت أمُّ أيمن غلاماً لزوجها زيد بن حارثة، وجاء أسامة والرسول ﷺ يعاني من أذى قريش له ولأصحابه أشدَّ المعاناة، فقد انتابه ضيقٌ شديدٌ من عناد قريش وأذاها، فكان ميلادُ أسامة بمثابة بسمة على وجوه حزينة مهمومة استقبلته بالفرح والسرور.

وأُمه هي: بركة الحبشية المُكَنَّاةُ بأُمِّ أَيْمَن، وقد كانت مملوكة لآمنة بنت وَهْبٍ أُم الرسول ﷺ، فربّتْهُ في حياتها وحضنته بَعْدَ وَفَاتِها، فَفَتَح عينيه على الدنيا وهو لا يعرف لنفسه أُمّاً غيرها، فأحبها حُبّاً شديداً، حتى كان يقول عنها: هي أُمّي بَعْدَ أُمِّي، وبقية أهل بيتي[1].

أما أبوه فهو زيد بن حارثة بن شَراحيل بن عبد العزى، حِبّ رسول الله ﷺ، أول الناس إسلاماً! ولم يفارق الرسول ﷺ، وكان زيد ابن رسول الله ﷺ بالتبني قبل الإسلام، وصاحبه وموضع سرِّه، كواحد من أهله.

وقد اغتبط المسلمون وسُرُّوا سُروراً بالغاً بمولِد أُسامة بن زيد؛ لأنه ابن حب رسول الله زيد، ومجيء أسامة أدخل السرورَ على نفس رسول الله ﷺ وكل ما يسرّه يسرُّ المسلمين ويُسعدهم.

---

(١) الطبقات (٤/ ٦١).

لذلك أطلق المسلمون على أُسامة بن زيد بن حارثة اسم: الحِبّ بن الحِبّ.

ولم يطلق المسلمون هذا الاسم على أسامة بن زيد بن حارثة من فراغ؛ بل لأن رسول الله ﷺ أحبَّ أسامة حبّاً لا يفوقه حبّه لأحد غيره من أهل البيت أنفسهم.

وقد كان أسامة بن زيد قريباً في السن من الحسن بن علي سبط رسول الله، وكان أسامة أسود البشرة أفطس الأنف شديد الشَّبه بأُمِّهِ الحبشية، وكان الحسن أبيضَ أزهر رائع الحسن شديد الشبه بجده ﷺ، لكنه عليه الصلاة والسلام ما كان يفرق بينهما في المعاملة والحُبِّ، فيأخذ الحسن ويضعه على إحدى فخذيه وأُسامة بن زيد على الأخرى، ثم يضمّهما معاً إلى صدره الحنون.

وقد بلغ حُبُّ رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد مبلغاً عظيماً، حتى إنّ أُسامة بن زيد عثر ذات يوم بعتبة الباب فجرحت جبهته، وأصيب إصابة شديدة سال الدم على أثرها من وجهه، فأشار صلوات الله وسلامه عليه لعائشة ـ رضوان الله عليها ـ أن تزيل الدم عن جُرْحِه، فلم تَطِب نفسها لذلك. فجعل رسول الله ﷺ يمصّ شجّته من الدماء، ويفيض عليه عذوبةً وحناناً وهو يقول: «لو كان أُسامة جاريةً لكسوتهُ وحَلَّيْتُه حتى أُنفِقَهُ»(١).

كان شكله الأسود الأفطس لا يؤهله لقيادة!! لكن الإسلام لا يعبأ بالشكل والمظهر، وإنما يهتم بالفعل، وقد قال رسول الله ﷺ: «ألا رُبَّ أشعثَ أَغْبَرَ، ذي طِمْرَين لا يُؤبه له، لو أقسم على الله لأبره».

هذه كلمات عن أسامة بن زيد الحِبّ بن الحِبّ.

---

(١) الطبقات (٤/ ٦٢).

**من الطفولة إلى الشباب:**

ذكرنا طفولة أُسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ مع النبي ﷺ، وها هو زيد بن حارثة قد هاجر إلى المدينة يحمل طفله أسامة ومعه زوجه أم أيمن، وتبدأ المعاركُ الكبرى والمشاهد العظيمة، ولم يكن لأسامة دور فيها بعد، ومكث في بيت النبي ﷺ ينمو يوماً بعد يوم والنبي ﷺ يقول للناس: «إن أسامة ابن زيد لأحب الناس إليّ ـ أو من أحب الناس إليّ ـ وأنا أرجو أن يكونَ من صالحيكم فاستوصوا به خيراً»(١).

**هـديـة جميـلـة:**

وكما أحبَّ النبي ﷺ أسامة في طفولته فقد أحبه في شبابه، وها هو حكيم بن حزام شريف من أشراف قريش يهدي لرسول الله ﷺ هديّة جميلة، هي حُلَّة ثمينة اشتراها من اليمن وكان حكيمُ بن حزام على دين الجاهلية فقال له رسول الله: «إنا لا نقبل هدية من مشرك ولكن إذا بعثت بها فنحن نأخذها بثمنها. بكم أخذتها؟».

قال حكيم: بخمسين ديناراً.

فدفع الرسولُ ﷺ الثمن، ثم لبسها، وقد كانت هذه الحلة لذي يزن أحد ملوك اليمن، فلبسها ﷺ مرّة واحدة ثم خلعها، وأهداها لأسامة ـ رضي الله عنه ـ، فكان يروح ويغدو بها بين أصحابه.

**يـوم المخـزوميـة:**

وقد بلغ حُبّ النبي ﷺ لأسامة مَبْلغاً عظيماً، حتى إن امرأة من بني مخزوم سرقت فقال الناس: من يكلّم فيها النبي ﷺ؟.

---

(١) الاستيعاب (١/ ٣٥).

ولم يجرؤ أحد أن يكلم النبي ﷺ في قضيتها غير أسامة ، فمضى ـ رضوان الله عليه ـ إلى النبي ، وكلَّمه فيها ، فقال ﷺ: «إنَّ بني إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريفُ تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ قطعوه! لو كانت فاطمة لقطعت يدها»(١) .

هكذا كان أُسامة موضع حبّ وتقدير للرسول ﷺ يكلمه في أي شيء يريد .

**يوم أُحد :**

خرج رسول الله ﷺ للقاء المشركين في يوم أحد ، وخرج معه فيمن خرج من الغلمان : سمرة بن جُندب الفزاري ، ورافع بن خديج من بني حارثة ، ولهما خمسة عشرة عاماً ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد .

ردّ رسول الله ﷺ سمرة بن جندب ، وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر لأنه استصغرهم في السن ، فمضوا والدمع يفيض من أعينهم ، وعرج سمرة بن جندب على مُرَيّ بن سنان(٢) . وقال : يا أبت ، أجاز رسول الله ﷺ رافع بن خديج ، وردّني وأنا أصرع رافع بن خديج .

فقال مُريّ بن سنان : يا رسول الله ، رددتَ ابني ، وأجزتَ رافع بن خديج ، وابني سمرة يصرعه! .

فقال النبي ﷺ لرافع وسمرة : تصارعا ، فَصرع سمرةُ بن جندب رافعَ بن خديج ، فأجازه ﷺ مع صاحبه وردّ أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر(٣) .

**يوم الخندق :**

قدم سلام بن أبي الحقيق ، وحُيي بن أخطب ، وكِنانة بن الربيع ،

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٨٧ ـ ٨٨) .

(٢) مري بن سنان كان زوج أُم سمرة ، وقد قام على تربيته لذلك كان يقول له منادياً : يا أبت .

(٣) الطبري (٢/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦) .

وهَوْذَة بن قيس ، وهم من أشراف اليهود في المدينة ، قدِموا على قريش في مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا لهم: إنّا سنكون معكم حتى نستَأْصِلَه .

فقالت لهم قريش: يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه[1]؟ .

قالوا: بل دينكم خيرٌ من دينه .

فرحت قريش بما قاله شيوخُ اليهود ، واجتمعوا لحرب رسول الله ﷺ ، ولم يعد اليهودُ إلى المدينة ، وإنّما مروا بالقبائل لإثارتها ضد النبي ﷺ ، وخرجت قريش وقائدُها أبو سفيان ، ومعهما غطفان بقيادة عُيينة بن حِصْن ، وسمع الرسول بذلك ، فاستشار أصحابه ، وتم الاتّفاق على حفر الخندق .

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف جعلوا ظهورهم إلى موضعٍ بالقرب من المدينة يقال له «سَلْع» ، وضربوا عسكرهم هناك وأقبلت قريشٌ وحدها في عشرة آلاف . تبعتها غطفان ، وأهل نجد .

ونقض يهودُ المدينة عهدهم مع محمد ﷺ وعظم عند ذلك البلاءُ على المسلمين ، واشتدَّ الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظنَّ المؤمنون كلّ ظن ، وظهر نفاقُ المنافقين .

في هذه الساعات الحرجة ، كان أسامةُ بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، فجاء إلى رسول الله ﷺ ومعه نَفَرٌ من فتيان الصَّحابةِ ، وجعل يشُدُّ قامَتَهُ إليه ليجيزه ، ويأذنَ له رسول الله ﷺ. نظر إليه النبيُّ ﷺ نظرةً حانية فيها عطف شديد ، ورق له ، ثم أجازه وأذن له .

ملأت الفرحةُ نفسَ البطل أُسامة بن زيد ، فحمل السيفَ جهاداً في سبيل الله وهو ابن خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً .

## يـوم فـتح مـكـة:

---

(١) الطبري (٣/ ٥٦٢ وما بعدها) .

لمّا كان صلحُ الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، وكان فيما شرطوا على رسول الله ﷺ ، وشرط لهم أنّه من أحبّ أن يدخل في عهد محمد وعقده دخل فيه ، ومن أحبَّ أن يدخلَ في عهد قريش وعقدهم دخل فيه .

فدخلت بنو بكر في عقد قريش ، ودخلت خزاعةُ في عَقْدِ رسول الله ﷺ .

فلما كانت الهدنةُ اغتنمتها بنو بكر ، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ، فلما اشتبكوا في القتال انحازت قريش لحلفائها البكريين ، فقتلوا منهم عدداً كبيراً بفضل مساعدة قريش ، وإعانتها لهم ، عند ذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعي؛ حتى قدمَ على رسول الله ﷺ ، فوقف عنده وهو جالس في المسجد بين أصحابه وأنشد يقول:

لاهُمَّ إني ناشدٌ محمدا حِلْفَ أبينا وأبيه الأتْلَدا[1]
إنَّ قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكَّدا
وجعلوا لي في كَدَاءٍ[2] رَصَدَا وزعموا أن لستُ أدْعُو أحَدَا
وهُمْ أذلُّ وأقلُّ عَدَدَا هم بيَّتُونا بالوَتير هُجَّدا
فقتلونا رُكَّعاً وسُجّدا[3]

بهذه الأبيات استنجد سالم بن عمرو الخزاعي بحليفه رسول الله ﷺ ، فأجابه رسول الله وأسامة بن زيد يُصغي للحديث فقال عليه الصلاة والسلام: «قد نُصرت يا عمرو بن سالم».

أمر رسول الله بالاستعداد للخروج إلى مكة ، فقد وعده الله الفتح المبين عندما أنزل عليه قوله في سورة الفتح:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

خرج رسولُ الله ﷺ من المدينة ، واستخلف عليها أبا رُهْمْ كلثوم بن

---

(١) «الأتلد»: القديم.
(٢) «كداء»: موضع بمكة.
(٣) الطبري (٣/ ٤٥).

حُصين ، ومضى عليه الصلاة والسلام لسفره في عشرة آلاف من المسلمين ، ولم تصل قريشاً أيُّ أخبار عن خروج رسول الله إلى مكة.

ونترك العباس بن عبد المطلب ، يتحدث عن هذا المشهد العظيم الذي انضم إليه فتى يافعٌ هو أسامة بن زيد ، يقول العباس:

ولمّا نزل رسول الله ﷺ مَرَّ الظهران (واد قرب مكة) قلت: يا صباحَ قريش[1]! والله لئن بَغَتَها رسولُ الله في بلادها ، فدخل مكة عَنْوة؛ إنَّه لهلاكُ قريش آخرَ الدهر!.

وجلس على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وقال: أَخْرُجُ إلى الأَراك لعلي أرى حَطَّاباً أو صاحب لَبَن ، أو داخلاً يدخل مكة؛ فيخبِرهم بمكان رسول الله ، فيأتونه فيستأمنونه.

ويضيف العباسُ عم النبي ﷺ قائلاً:

فخرجتُ؛ فوالله إني لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له؛ إذ سمعتُ صوتَ أبي سفيان بن حَرْب وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء ، وقد خرجوا يتحسَّسون الخبر عن رسول الله ﷺ[2].

فسمعتُ أبا سفيان يقول: والله ما رأيتُ كاليوم قطُّ نيراناً!.

فقال بُديل: هذه والله نيران خزاعةُ ، حَمَشَتْها[3].

فقال أبو سفيان: خُزاعة ألأم من ذلك وأذلّ!. فعرفتُ صوته فقلت: يا أبا حنظلة.

فقال: أبو الفضل!

فقلتُ: نعم.

---

(١) يا صباح كذا ، ويا صباحاه ، ممَّا يُستعمل من الألفاظ عند الإنذار بالغارة.

(٢) السيرة الحلبية (٣/ ٧٦) والطبري (٣/ ٥٢).

(٣) حمش فلاناً: هيّجه.

والتقى العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان، ثم أسلم أبو سفيان وأعطى له النبي ﷺ شيئاً من الفخر الذي يحبُّه عندما أمر المنادي يقول عند دخوله مكة: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وقد دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، ورديفه[1] أُسامة بن زيد فأناخ في ظل الكعبة.

وفي هذا يقول عبد الله بن عمر: فسبقتُ الناس، فدخل النبي ﷺ، وبلال، وأسامة بن زيد الكعبة، فقلت لبلال وهو وراء الباب: أين صلى النبي؟ قال: بحيالك بين الساريتين[2].

قام رسول الله ﷺ وإلى جواره أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ ثم قال:

«لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وَحْدَه، ألا كل مأثرة أو دم أو مالٍ يُدَّعى فهو تحت قدمي هاتين إلاَّ سدانَة البيت وسقاية الحاج، ألاَ وقتيل الخطأ شِبْهِ العَمْد بالسوط والعصا ففيه الديةَ مُغلَّظةً مئة من الإبل، وأربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش: إن الله أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية وتعظُّمها بالآباء، النَّاس من آدم، وآدمُ من تراب.

ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعلٌ بكم؟.

قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أَخٍ كريم.

قال: اذهبوا فأنتم الطلَقَاء.

هكذا نال أسامةُ بن زيد ـ رضي الله عنه ـ شرف هذا اليوم العظيم، فكان رِدْف النبي ﷺ.

---

(١) رديفه: أي يركب خلف، وفي القاموس المحيط: الرِّدْفُ: الراكب خلف الراكب.

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٦٤).

**يوم حنين:**

لما خرج النبي ﷺ لفتح مكة ، سمعت قبيلةُ هوازن بخروجه ، وظَنَّتْ أنه يريدهم ، فاجتمعوا له ، فلما تحقَّقَ الخبرُ لديهم أنَّ خروجه إنما كان لفتح مكة وقد فتح الله عليه بالنصر ، لذلك ساورهم الشك ، وسيطر عليهم الخوف من أن يسيرَ إليهم ﷺ ، ويغزوهم ، وانتقل الأشراف من هوازن وثقيف بعضهم لبعض وقالوا: إن محمداً قد فرغ لنا ، ولا مانع له دوننا ، فالرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا.

واجتمع الناس حول مالك بن عوف النَّضيري مع أموالهم ونسائهم وأبنائهم.

بعث الرسولُ ﷺ عبد الله بن أبي حَدْرد الأسلميّ ، لكي يستطلع أخبارهم ، فانطلق إليهم ، ثم أتى النبي ﷺ وأخبره خبرهم فقال: انتهيت إلى خباء مالك بن عوف ، وعنده رؤساء هوازن ، فسمعتُه يقول: إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة ، وإنما كان أغماراً[1] لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم ، فإذا كان السَّحَر فَصُفُّوا مواشيكم ونساءَكم وأبناءَكم من ورائكم ، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا أغْمادَ سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف، واحملوا حَملة رجل واحدٍ ، واعلموا أن الغلبة لمن حَمَل أولاً.

خرج النبي ومعه ألفان من أهل مكة بخلاف عشرة آلاف من أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة ، وفتح الله بهم مكَّة ، فكانوا اثني عشر ألفاً. واستعمل صلوات الله وسلامه عليه عَتَّاب بن أُسَيْد أميراً على مكة ، ثم مضى للقاء هوازن.

نزل المسلمون وادي «حنين» ، وكانت هوازن وحلفاؤها قد سبقوهم إلى هذا الوادي ، فَكَمنُوا لهم واختبؤوا في شعابه ومنحنياته وطُرقه ، بعد أن تهيؤوا لمفاجأة محمد وأصحابه ، وما أن ظهر جيش المسلمين حتى انقضُّوا

---

(١) الأغمار: جمع غُمر وهو الجاهل ، القليل التجارب.

عليه من كل جانب ، وانهالت النبل والسهام كأنها جراد منتشر[١].

وانهزم الناسُ أجمعون ، فتراجعوا؛ لا يلوي أحدٌ على أحدٍ ، وعدل الرسولُ ﷺ وانحاز ذات اليمين ، ثم قال:

«أين أيُّها الناس! هلموا إليّ ، أنا محمد بن عبد الله».

انطلق الناس ، إلاَّ أنَّه قد بقي مع رسول نفرٌ من المهاجرين والأنصار ، وأهل بيته.

وقد ثبت أُسامة بن زيد حين انهزم المسلمون في حنين ، ثبت مع العباس بن عبد المطلب عمّ الرسول ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ ، وستة نفرٍ آخرين من كرام الصحابة ، فاستطاع الرسولُ عليه الصلاة والسَّلام بهذه الفئة القليلة المؤمنة الباسلة ، أن يُحوِّل هزيمة أصحابه إلى نصر ، وأن يحمي المسلمين من فتك المشركين ، وكان يوم حنين يوم نصر عظيم.

**يوم مؤتة:**

أعدَّ رسول الله ﷺ العُدَّة لتأديب شرحبيل بن عمرو الغساني؛ الذي ضرب عنق رسول النبي ﷺ إلى بلدٍ بالشام يُقال له «بُصرى» ، وكان رسولُ النبي ﷺ الصحابي الجليل: الحارث بن عمير الأزدي.

وقد استعمل صلواتُ الله وسلامه عليه على جيش المسلمين في هذا اليوم - يوم مؤتة - زيد بن حارثة ، ودعا القوم للخروج وقال: «إن أُصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيبَ جعفر فعبد الله بن رَوَاحَةَ على الناس».

وأمرهم صلوات الله وسلامه عليه أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٧٣ - ٧٤).

الأزدي ، وأن يَدْعُوا من هناك إلى الإسلام[١] ، فإن أجابوا وإلاّ فليستعينوا عليهم بالله ويقاتلوهم .

وفي موكب مهيب خرج الناسُ وكانوا ثلاثة آلاف رجل وكان معهم أسامة بن زيد بن حارثة ، ابن أمير الجيش وقائدهم ، وخرج الرسولُ يشيِّعهم ويودِّعهم[٢] .

مضى أسامة وقد ودَّعه رسول الله ﷺ كما ودَّع الجنود ، وقد راحت عيناه ترقب القائد الوالد زيد بن حارثة ، وتذكر أياماً مضت يوم دخل عليه رسول الله ﷺ وهو نائم بجوار أبيه وقد غطى كلٌّ منهما وجهه ، وبدت أقدامهما فدخل عليهما رجل فقال: هذه الأقدام بعضها من بعض، وفسَّر رسول الله ﷺ أنه يُشْبِه أُسامة زيداً. نعم سُرَّ من التشابه بين الحِبّ وأبيه الحِبّ.

مضى الجيشُ في طريق طويل وعر ، لا يسمعُ أسامةُ غير حوافر الخيل تدقُّ الأرض في هدوء وصوت منتظم ، وصهيل هنا وهناك ، بينما تسابق الأبطالُ في تلاوة القرآن على ظهور الإبل والخيل ، وقد قطع هذه الابتهالات والتسابيح صوتٌ قادمٌ من الشام يقول: إنّ هرقل قد نزل مآب ـ وهي من أرض البلقاء ـ في جيش قوامه مئة ألف من الروم.

توقف زيد بن حارثة عن المسير في معان ، وبات ليلتين يُفكِّر في أمر هؤلاء الذين جاؤوا بعشرات الألوف؛ وتشاور الناس وقال قائل منهم: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدَدِ عدوِّنا ، فإما أن يمدَّنا بالرجال ، وإمَّا أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

نظر أسامة بن زيد في وجه القائد الوالد زيد بن حارثة ليرى أثر هذا الرأي على وجهه فقرأ في ملامحه إصراراً على القتال ، وبينما هو كذلك إذا به يسمع صوت قائدٍ من قادة الجيش الذين هم تحت إمرة أبيه ، وصحابي جليل هو عبد الله بن رواحة يقول:

---

(١) السيرة الحلبية (٣/ ٧٦).

(٢) الطبري (٢/ ٣٦ وما بعدها).

يا قوم ما نقاتل النَّاس بعدد ولا قوةٍ ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدّين الذي أكرَمَنا الله به ، فانطلِقوا فإنما هي إحْدَى الحسنيين. إما ظهورٌ وإما شهادة[1].

فتردد صوت أسامة بن زيد وضاع في زحام الضجيج يقول: صدقتَ يا بن رواحة ، قد صدق والله ابن رواحة.

تهيأ الجيشُ كله للقتال ، لا بل تهيأ للشهادة في سبيل الله ثلاثة آلاف في مواجهة مئة ألف ، إذاً لا بُدَّ من الجهاد في سبيل الله.

ما هي إلا لحظات حتى التقى الجمعان عند مؤتة ، يحمل الرايةَ زيدُ بن حارثة ، على ميمنة جيشه قُطْبَة بن قتادة من بني عذرة ، وعلى ميسرته عُبَاية بن مالك الأنصاري.

رفع أسامةُ سيفه ، وأخذ يقاتل طلباً للشهادة شأنه شأن ثلاثة آلاف نذروا أنفسهم لذلك.

كانت عين أسامة على الراية يحملها القائد الوالد زيد بن حارثة؛ الذين اندفع يقاتل ويقاتل ، ويضرب يميناً ويساراً؛ حتى دخل غابةً من السيوف والرماح فشاط فيها وسالت دماؤه ونال الشهادة.

وقبل أن تنهارَ الراية أمسك بها جعفرُ بن أبي طالب الذي ارتجز يقول:

يـا حَبَّـذا الجنَّـةُ واقتِـرابُهـا ... طَيِّبَـةً وبـارداً شـرابُهـا

والـرومُ رومٌ قـد دَنَـا عـذابُهـا ... كـافـرةٌ بعيـدةٌ أنسـابُهـا

عليَّ إذ لاقيتُها ضِرابُها[2]

ثم لم يلبث أن قُتِل ، وأخذ الراية عبد الله بن رواحة ، ومضى يشقُّ الصفوف ، ويضرب يميناً ويساراً ، وهو يقول:

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٧).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٠).

يـا نفـس إلاَّ تُقْتَلـي تمـوتـي          هـذا حِمـامُ المـوت قـد صَلِيـتِ
ومـا تمنَّيـتِ فقـد أُعطيـتِ          إن تفعلـي فِعْلَهـا هُـدِيـتِ

وقاتل عبد الله حتى نال ما تمنى.

اختلط المسلمون بالمشركين ، وأراد بعضُ المسلمين الانهزامَ فصاح عقبةُ بن عامر قائلاً: يقتل الإنسانُ مقبلاً خَيرُ من أن يقتل مدبراً.

ثم أخذ الرايةَ ثابتُ بن أقْرم ، حتى اصطلحَ الناسُ على قيادة خالد بن الوليد ، وأسامة في كل هذا يقاتل ويبحث عن فرس أبيه الشهيد.

وتراجع الجيشان ، وعاد خالد بالمسلمين إلى المدينة ، وعاد أيضاً أسامة إلى المدينة محتسباً أباهُ عند الله تعالى ، تاركاً جسده الطاهر في أرض الشام ، وقد وجد فرسه فركبه ، ليستعدَّ لجهادٍ آخر في موقع آخر ، حاملاً رسالة أبيه ومكمّلاً لها.

## الأمـيـر الـشجـاع

### جيش الروم:

كانت الرومُ في عصر النبي ﷺ ذات دولة قوية لها شوكة وسلطان شديد ، كما كان الفرس أعداؤهم القوة الثانية المناهضة لهم على أرض المعمورة ، وقد بلغت قوّتُهم وانشغال الناس بنزاعهم أن نزل القرآن يتحدَّث عن صراعهم ونتائجه في المستقبل القريب ، يقول تعالى في سورة الروم:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ولو نظرنا لجغرافية شبه جزيرة العرب في عصر هذه السيرة التي نقوم بكتابة سطور منها؛ نجد الفرس على يمين الجزيرة ، والروم إلى الشمال ،

وعلى شمال جزيرة العرب أيضاً ، وكلاهما (الفرس والروم) يكنّ للإسلام عداوة شديدة ، وقد اشتبك المسلمون بالروم في عهد رسول الله ﷺ.

وفي السنة الحادية عشرة من هجرة الرسول ﷺ أمرَ عليه الصلاة والسلام بالتهيؤ لغزو الروم ، فقد تمّت حجّةُ الوداع ، وعادت الألوفُ المؤلّفة ، مِمَّن صحبوا النبي فيها إلى ديارهم ، وسار النبي وأصحابه مُيَمِّمين المدينة حتى إذا بلغوها أقاموا بها في أمنٍ من شبه الجزيرة كلها ، وفي تفكير متواصل من جانب محمد ﷺ في أمر البلاد الخاضعة للروم والفرس بالشام ومصر والعراق.

فقد أمِن ﷺ من ناحية شبه جزيرة العرب جمعاء بعد أن دخل الناسُ في دين الله أفواجاً ، وبعد أن أقبلت الوفودُ تَتْرَى إلى المدينة تُعلن الطاعة والانضمام للواء الإسلام.

لذلك كان تفكيرُ الرسول ﷺ وعنايته متجهين إلى الشمال بعد عودته من حجة الوداع ، وكان من ناحية الجنوب آمناً.

وقد حُسِب حسابٌ كبيرٌ للروم بعد غزوة مؤتة وما كان فيها من انسحاب المسلمين بمهارةٍ من خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ.

وكان صلوات الله وسلامه عليه يرى ضرورةَ توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام حتى لا يعودَ إليها الذين جَلَوْا عن شبه الجزيرة إلى فلسطين يناوئون أهلها.

ألم يخرج صلوات الله وسلامه عليه بجيشٍ كبير إلى تبوك حين بَلَغهُ تفكير الروم في مهاجمة حدود شبة الجزيرة؟ فانسحب الروم إلى داخل بلادهم وحصونهم من هيبته.

إلاَّ أنه ظلَّ يُولي اهتمامه لتأمين الجناح الشمالي للمسلمين؛ خشيةَ أن يفكِّر الروم في إعلان الحرب؛ لاسترداد حصونهم وإعادة النصرانية إلى نجران وغيرها من بلاد العرب.

لذلك لم يَطُلْ مقامُ المسلمين بالمدينة بعد عودتهم من حِجَّة الوداع ، فقد

أمر النبي ﷺ بتجهيز جيشٍ قوي ليسيرَ إلى الشام ، جعل فيه المهاجرين الأولين ، ومنهم : أبو بكر ، وعمر ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وغيرهم من جِلَّةِ الصحابة ، وأمَّر على الجيش أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ .

وكان أسامةُ بن زيد يومئذٍ لا يكادُ يبلغ العشرين من عمره؛ فكان لإمارته على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ما أثار دهشة الناس وحفيظة بعضهم؛ لولا إيمانهم الصادق بالله تعالى ، وحكمة رسول الله ﷺ.

والنبي ﷺ إنما أراد بتأمير أسامة بن زيد على جيش المسلمين أن يقيمَه مقام أبيه الذي استشهد في غزوة مؤتة ، وأن يجعل له من فخار النصر ما يجزي به ذلك الاستشهاد.

وفي يوم من أيام شهر صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة دعا النبي ﷺ أسامة بن زيد ليفضي إليه بأمر تأميره قيادة الجيش وقال له :

«سر إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل ، فقد ولَّيتك هذا الجيش ، فاغزُ صباحاً على أهل أُبْنَىٰ ، وحَرِّق عليهم ، وأسرع السير لتسبق الأخبار ، فإن ظفَّرك الله عليهم فأقلّ اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاَّء ، وقدّم العيون والطلائع منك».

قال أسامة : السمع والطاعة يا رسول الله ، وهكذا كانت بيعةُ أسامة بن زيد ، شأنه شأن كل مَن أسلم وعاهد على الطاعة في ذلك الوقت.

خرج القائـدُ الحديثُ السن ، وقد تسلّم أمر القتال من قائده ﷺ ، ومضى يجهّز جيشه ويعدّ العُدَّة خارج المدينة بمنطقة تُسمَّى «الجُرْف». وعندما علم بعضُ الصحابة من المهاجرين والأنصار بإمارة زيد شقَّ عليهم ذلك ، وتكلم بعضهم فقال : يُستعمل هذا الغُلام على المهاجرين الأولين والأنصار؟!!.

ولما بلغ رسولَ الله ﷺ مقالتُهم ، خرج للنَّاس وقد بدأ المرض يغزو جسمه ، لذلك فقد خرج عاصِباً رأسه بعصابةٍ من شدة ما أصابه من

المرض ، وصعد على المنبر بعد أن اجتمع الناسُ له فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

«أما بعد أيُّها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أُسامة ، ولئن طعنتم في تأميري أُسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله ، وأيم الله إنه كان خليقاً بالإمارة ، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة»(١).

ثم نزل عليه الصلاة والسلام من على المنبر ، ودخل بيته ، وجاء النَّاس أفواجاً وجماعات يعودونه في مرضه قبل الخروج مع أسامة بن زيد.

ولما ثقل المرض على رسول الله ﷺ قال: «أرسلوا بعث أسامة» ثم استثنى أبا بكر للصلاة بالنّاس.

وجاء أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ ، ودخل على قائده ﷺ وقد اشتدَّ عليه المرض ، ولما دخل عليه انحنى يُقبِّلُ رسول الله ﷺ ، فجعل عليه الصلاة والسلام يرفع يديه إلى السماء يدعو لأسامة. وقد قال أسامةُ ـ رضي الله عنه ـ:

ولما ثَـقُـلَ على نبي الله المَرَضُ ، أقبلتُ عليه وأقبل النَّاس معي ، فدخلتُ عليه فوجدته قد صَمَتَ؛ فما يَـتَـكلَّمُ من وَطْأَةِ الداءِ ، فجعل يرفع يدَهُ إلى السماء ثم يَضَعُها عَلَيَّ ، فعرفتُ أنَّه يدعو لي(٢).

وما إن خرج أسامة وعاد إلى الجُرْف حتى فارق رسول الله ﷺ الحياة.

تمَّت البيعةُ لأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فكان أوّل قرارٍ اتَّخذه بعد أن تمت البيعة هو إنفاذ جيش أسامة.

ألاّ أن أسامة طلب من عمر بن الخطاب أن يبلّغ أمير المؤمنين وخليفة رسول الله أبا بكر رسالةً قال له فيها:

ارجع يا عمر إلى خليفة رسول الله فاستأذنه أن يأذن لي أن أرجع

(١) السيرة الحلبية (٣/ ٢٢٨).

(٢) السيرة الحلبية (٣/ ٢٢٨) وما بعدها ، وطبقات ابن سعد (٤/ ٦٨).

بالنَّاس، فإنَّ معي وجوه النَّاس وحدَّهم، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله يتخطّفهم المشركون.

ولما أبلغ عمر ـ رضي الله عنه ـ رسالة أسامة، ثارت ثائرته وقال: لا أرد قضاءً قضى به رسول الله ﷺ.

وقال بعض الأنصار لعمر: فإنْ أبى إلاَّ أن نمضي، فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سِنّاً من أُسامة.

وما إن سمع أبو بكر هذه الكلمات من عمر ـ رضي الله عنه ـ حتى هبَّ، وأمسك بعمر قائلاً:

ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه؟!.

رجع عمرُ إلى الأنصار، فما إن سألوه عما صنع حتَّى قال غاضباً: امضوا ثكلتكم أمهاتكم! ما لقيت بسببكم من خليفة رسول الله[1].

ولما انتقد بعض الصحابة هذا الموقف من أبي بكر وقالوا له: لا ينبغي أن تفرّق جماعة المسلمين عنك.

أجاب قائلاً: والذي نفسي بيده، لو ظننتُ أنَّ السباع تخطفني لأنفذت جيش أُسامة كما أمرني النبي ﷺ[2].

ولم ينته الأمر عند هذا الحد إذ استغلّ أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ مجيء أبي بكر لوداعه في الجُرف فقال له مُلِحّاً: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ بعثني وأنا على غير حالكم هذه، وأنا أتخوف أن تكفر العرب، فإن كفرت كانوا أول من يقاتل، وإن لم تكفر مضيت، فإن معي سروات الناس وخيارهم.

كرَّر خليفةُ رسول الله إصراره على بعث أسامة وقال له: «والله لأن

---

(١) الطبري (٣/٢٢٦).

(٢) ابن الأثير (٢/١٢٨).

تخطفني الطير أحب إليّ من أن أبدأ بشيء قبل أمر رسول الله ﷺ»[1].

قُضي الأمر، ومضى أسامة بجيشه، ومشى أبو بكر في وداعه، فلما رآه أسامة ماشياً قال: يا خليفة رسول الله والله لتركبنّ أو لأنزلنّ!.

فرفض أبو بكر قائلاً: والله لا تنزل ووالله لا أركب! وما عليّ أن أغبّر قدمَيّ في سبيل الله ساعةً.

وآن لأبي بكر أن يتركَ الجيش ليمضي إلى سبيله، فهمس راجياً أسامة: «إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل»[2].

أذن أسامةُ لعمر كي يبقى مع أبي بكر يعينه على شؤون الخلافة.

ووقف أبو بكر خطيباً في جيش أسامة يقول: يا أيها النَّاس قفوا أوصِكُم بعشر فاحفظوها عني:

لا تَخُونوا، ولا تُغِلُّوا، ولا تَغْدِروا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرّغوا أنفسَهم في الصوامع؛ فدَعُوهم وما فرَّغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوانُ الطعام، فإذا أكلتم شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوساهم وتركوا حولها مثل العصائب! فاخفقوهم بالسيف خَفْقاً. اندفعوا باسم الله.

ثم نظر مودِّعاً أسامة فقال له: اصنع ما أمرك به نبيُّ الله ﷺ.

ابدأ ببلاد قُضاعة، ثم ائت «آبِلَ»[3]، ولا تقصّرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ، ولا تعجلنّ لما خلّفتَ عن عهده[4].

---

(١) الطبقات لابن سعد (٤/ ٦٧).

(٢) الطبري (٣/ ٢٢٦).

(٣) مدينة على مشارف الشام، انظر معجم البلدان (١/ ٥٤).

(٤) الطبري (٣/ ٢٢٧).

سار أسامةُ بعد كل هذه الوصايا على رأس ثلاثة آلاف ، حتى وصل آبِل ، وبثّ خيوله في قبائل قُضاعة ، ومن ظاهر الروم على المسلمين من القبائل ، وقد وجد أسامة من هؤلاء مقاومة إلا أنّه انتصر عليهم في النهاية.

لقد نفّذ أسامةُ كُلَّ ما أمَرَهُ به رسول الله ﷺ ، فَأَوْطَأَ خيل المسلمين «تخوم البلقاء» وقلعة الدَّاروم من أرض فلسطين ، ونزع هيبة الروم من نفوس المسلمين ، ممَّا أدَّى إلى تمهيد الطريق لفتح الشام ومصر.

ثم عاد أُسامة بعد أن أدَّى مهمته خير أداء ، وقد امتطى صهوة الجواد الذي استشهد عليه أبوه زيد بن حارثة ، وحمل معه الغنائم الكثير فقال الناس: «ما رُئي جيشٌ أَسْلَمُ وأغنمُ من جيش أسامة بن زيد»!.

## وداعاً أيها البطل

وتمضي رحلةُ الجهاد طويلة مع أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين ، فيلقاه عمر ـ رضي الله عنه ـ ذات يوم فيقول: مرحباً بأميري.

فيرى في عيون الناس مَن يعجب منه لهذا القول فيعقِّب قائلاً: لقد أَمَّرَه عليَّ رسول الله ﷺ.

وعثمان ـ رضي الله عنه ـ يُكرِّم أسامة فيرسله إلى الكوفة ليخمد فتنة أصابت رعيّة المسلمين هناك.

ويعتزل أسامة الفتنة بعد مقتل عثمان ، ثم يسكن المزة قرب دمشق ، ثم وادي القرى.

ومن العجب العجاب أن يموتَ أسامة بن زيد «بالجُرْف» وهو المكان الذي انطلق منه مجاهداً وأميراً، ويُدفن في المدينة في العام الرابع والخمسين هجرية.

رحم الله أسامة بن زيد حِبّ رسول الله ، وقائد جيوش المسلمين ، وطيب ثراه.

* * *

# (٧)
# النعمان بن مُقرِّن

قال تعالى في سورة التوبة:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

## كلمات في البداية

بعد وفاة رسول الله ﷺ ارتد كثير من قبائل العرب عن الإسلام، وثبتت بعض القبائل، ومنها «مزينة» قبيلة النعمان بن مقرن المزني؛ فقد ثبتت، وتماسكت، وقبضت على دينها قبضةً مؤمنةً، فإيمانها راسخ كالجبال، فها هي تؤدي زكاتها، وتقيم الصلاةَ المكتوبَة، وتتمسك بسُنَّة رسول الله ﷺ، وتفي بالعهد، وتَضْرِبُ مثلاً في صلابة الإيمان ودوام الجهاد في سبيل الله عزَّ وجل.

وقد كانت قبيلة «مزينة» تتَّخِذُ منازلها قريباً من يثرب، وعلى مشارف الطريق بين مكة والمدينة.

وصلت إلى أسماعها أخبارُ هذا الدين الجديد، حيث بدء الدعوة ومحاربة قريش لها، وبعد ذلك هجرة الرسول وأصحابه إلى المدينة، ولما كانت مضاربُ «مزينة» على الطريق بين مكة والمدينة[1]، فقد وصلت أخبار الرسول ﷺ إليهم تباعاً مع الغادين والرائحين، وقد وصل «مزينة» من أخبار الرسول ﷺ ما يحملها على السعي إليه والقدوم عليه.

فالخيرُ كلُّ الخير فيما جاء به، وما حصل عليه من انتصارات عظيمة

(١) انظر «فتوح البلدان» للبلاذري ص(٣٠٠) وما بعدها.

جعل هذا الجمع العظيم من النفوس الخيِّرة يلتفُّ حول دعوته المباركة ، وهم من كل جانب وملّة ، فهم أوس وخزرج ، فقراء وأغنياء ، أشراف وسُوْقة ، كلُّهم انتظم في جسم واحدٍ وبنيان مرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، يردُّ كيدَ العدو ويشدُّ أزر الصديق.

لهذا كلّه ، كان لا بُدَّ لمزينة ورجالها من موقف معروف ، فلم تكن هذه القبيلة ورجالها في يوم من الأيام نكرة ، بل يُحسب لموقفها ألف حساب ، بل هي على دراية بصدق الرواية عن محمد ودعوته ، وما جاء به ، وهي على درايةٍ أيضاً بما في الجاهلية من منكر ، لذلك كان مجلساً مباركاً ذلك الذي جمع القبيلة وشيخها النعمان بن مقرن المزني ، شريف قومه وسيد عشيرته للتشاور في هذا الأمر.

## إسـلامـه

جلس النعمانُ بن مقرن المزني ، شيخ قبيلة مزينة ، وحوله أشقاؤه العشرة: سنان وسويد وعبد الله وعبد الرحمن وعقيل ومعقِل والنّعمان ونعيم وضرار ومرضي.

جميعهم أبناءُ رجل واحد ، وحولهم أربعمئةُ رجلٍ من قبيلة مزينة ، وقد بدأ النعمانُ حديثه بالقول: أسمعتم عن محمد إلاّ خيراً؟.

قالوا: لا. . لم نسمع عنه إلاّ خيراً.

فأضاف النعمان: ولم أسمعْ من دعوته إلاّ الرحمة والإحسان والعدل ، إذاً فما بالنا نبطىءُ عنه ، وقد أسرعتِ القبائلُ إليه؟!.

ثم صَمَتَ برهةً قصيرةً وقال: وها أنا قد عزمتُ على أن أذهبَ إليه مع طلوع الشمس ، فمن شاء منكم أن يذهب معي فليُعدَّ نفسه.

وما إن تنفَّسَ الصبحُ حتى وجد النعمان نفسه وسط إخوته العشرة وأربعمئة فارس ، استعدوا جميعاً للخروج معه إلى رسول الله ﷺ.

كان هذا العام عام وفود مُزينة بقيادة شيخها النعمان بن مقرن على

رسول الله ﷺ عام قحط ، فلم ينزل مطره ولم ينمُ عشبُه ، فجفَّ الضّرع وقلَّ الزرع.

وبالرغم من كل ذلك لم يشأ النعمان أن يغدوَ على رسول الله ﷺ دون أن يحملَ إليه من الهَدي والهدايا ما ينمُّ عن صدق نواياه ، وحُسْن إسلام «مزينة» كلها.

جمع النعمانُ ما تيسَّر له من الهدي وساقه أمامه ، وانطلق مع إخوته العشرة ورجال «مزينة» كلهم ، وما إن وصل المدينة حتى امتلأت طرقاتها برجال مزينة وشيخهم الوقور النعمان بن مقرن المزني ، وقد وصل النبأ إلى رسول الله ﷺ فاستُقْبِلَ النعمان بن مقرن وإخوته العشرة وجمهرة المزنيين الأفاضل أحسنَ استقبال، وسُرَّ رسول الله ﷺ بقدومهم سروراً عظيماً، وبُورك هذا اللقاء بتقبُّلٍ من الله عزَّ وجل لغُنيمات النعمان، وأنزل فيهم الآية الكريمة:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٩].

## جهاده الأكبر

شارك النعمان بن مقرن المزني ـ رضي الله عنه ـ المسلمين جهادهم في مراحله المختلفة.

ففي عهد النبي ﷺ كان صاحب لواء «مزينة» في فتح مكة ، بعد أن شارك في غزوة الخندق وباقي الغزوات الأخرى.

وقد يعجبُ القارىء إذا علم أن عُشر قوات المسلمين يوم فتح مكة كان من قبيلة مزينة ، فقد بلغ مجموع جيش المسلمين عشرة آلاف ، من بينهم ألف وثلاثة نفر من قبيلة مزينة وحدها ، يتقدَّمهم النعمانُ بعدما عاهدوا الرسولَ على السمع والطاعة في المنشط والمكره. ومن الطَّبيعي أن يظلَّ هذا الوفاءُ حتى بعد انتقال محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى وعلى امتداد عصر الفتوحات العظيم.

ويذكر المؤرخون أنّ النعمان بن مقرن قائد مزينة ورئيسها كان صاحب دور كبير وأثر حاسم في إقدام مزينة على الإسلام في عهد النبي صلوات الله وسلامه عليه.

وكان له أثر حاسم في تمسّكها به وبدينه بعد وفاته، ومن ثَم كان جهادُ هؤلاء ملحوظاً في التاريخ، مشهوداً في كل المشاهد العظيمة على امتداد معارك الفتح.

وكانت البدايةُ في حرب الردة وما صاحبها من إرجاف المرجفين ونفاق المنافقين.

## في حروب الردة

ما إن مات رسولُ الله ﷺ حتى اجتمعت قبائلُ أسد وغَطَفَان وطيّىء على طليحة بن خويلد الأسدي؛ الذي كان في وفد بني تميم عندما قدموا على النبي ﷺ؛ وأسلموا. واجتمعت أسد بموضع في طريق مكة يسمى «سَمِيْراء» وغطفان بجنوب المدينة، وطيّىء على حدود أرضهم. واجتمعت قبيلةُ ثعلب ابن سعد ومَن حولهم من قبائل مُرَّة وعَبْس بالأَبْرق من الرَّبَذَة، وهي موضع قرب المدينة، وكان جمع هائل تجمّع من هنا وهناك[1].

انطلق الجمعُ الهائل، فأقام منه جزء بالرَّبَذَة والفريق الآخر مضى إلى ذي القصَّة، وهو موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، وهناك أرسل المجتمعون وفداً إلى المدينة، فنزل على وجوه الناس، وأخذوهم إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، وطلبوا منه أن ينزل لهم عن الزكاة على أن يقيموا شعائر الإسلام كلها.

إلاَّ أن موقف خليفة رسول الله ﷺ كان حازماً لا تردُّد فيه وقال: «والله لو منعوني عقالاً مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»[2].

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٤٤).

(٢) ابن الأثير (٣/ ١١٨) والطبري (٣/ ٢٤٤).

رجع الوفدُ إلى أقوامهم الذين عسكروا على مقربة من المدينة بذي القَصَّة ، وأخبروهم برأي أبي بكر وردّه الحازم وما قاله فيمن يمنع الزكاة المفروضة.

وتحدَّث رجالُ الوفد عن ضعف المسلمين ، وقلّة عددهم بالمدينة حديثاً أثار في نفوس المجتمعين طمعاً شديداً.

وكان لا بُدَّ لأمير المؤمنين أن يُرتِّب أمره بعد أن ردَّ ردّاً حازماً ، فقد توجَّس منهم شرّاً ، فأعَدَّ العُدَّةَ لصدّهم؛ فاتخذ حيطة القائد في عسكره ، فكان أوّل إجراء صنعه أن جعل على طرقات المدينة ومداخلها عدداً من أبطال المسلمين يحرسونها ، ويمنعون مفاجأة العدو لأهلها الآمنين.

وفي مسجد رسول الله ﷺ بداخل المدينة ، اجتمع أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بالمسلمين وقال لهم:

إن الأرض كافرة[1]؛ وقد رأى وفدهم منكم قلّة؛ وإنكم لا تدرون أَلَيْلاً تُؤتَوْن أم نهاراً! وأدناهم منكم على بريد[2]. وقد كان القوم يأمُلون أن نقبلَ منهم ونوادِعهم، وقد أبينا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعِدُّوا وأعِدُّوا[3].

ثم لم يلبث أهل الردة إلى ثلاثة أيام حتى طرقوا المدينة بغارة شعواء مع حلول الليل ، وخلّفوا بعضهم بذي حُسىً ، ليكونوا لهم رِدْءاً.

ولكن الأبطال المسلمين في المدينة انتبهوا لهذه الغارة ، وأوصلوا الخبر لأبي بكر الصديق ـ خليفة المسلمين ـ فأرسل إليهم أن الزموا أماكنكم ، ففعلوا.

وخرج أبو بكر في أهل المسجد على النواضح لردّ غارة المرتدين ، فانهزم العدو ، فاتّبعهم المسلمون على إبلهم ، حتى بلغوا ذا حُسىً ، فخرج

(١) كافرة: أي مظلمة.
(٢) البريد: اثنا عشر ميلاً.
(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٢٤٥).

عليهم الرّدء بأوعيةٍ من الجلود قد نفخوها وربطوها بالحبال ، ثم ضربوها في وجوه الجمال الّتي امتطاها المسلمون ، فنفرت الجمالُ براكبيها وشردت بهم عائدةً إلى المدينة ، وهم عليها ، لا يملكون السيطرة عليها ، حتى دخلت بهم المدينة ، من غير أن يُصابَ أحَدٌ من المسلمين بسوء.

عند ذلك ظنَّ هؤلاء المرتدة بالمسلمين الظنون ، فتمثل لهم وَهْنُ المسلمين في فرارهم حتى أنشد شاعرهم يقول في صَلَفٍ وغرور:

أطَعْنا رسولَ الله ما كان بَيْنَنا ... فيا لعبادِ الله ما لأَبِي بَكْرِ
أيُورثها بَكْراً إذا مات بَعْدَهُ ... وتلك لعمرُ الله قاصِمةُ الظَّهرِ!
فهلاَّ رددتم وَفْدَنا بزَمَانِهِ ... وهلاَّ خَشِيتم حِسَّ راغيةِ البَكْرِ!
وإنَّ الَّتي سألُوكُم فمنعْتُمُ ... لكالتَّمْر أو أحْلَى إليَّ من التَّمْرِ

أرسل هؤلاء المرتدة إلى قومهم بما حَدَث.

أما أبو بكر فإنه بات ليلته في إعداد قواته يتهيَّأُ لهم ، ويُعبِّىء الناس ، ثم خرج وعلى ميمنته النعمان بن مقرّن بطل هذه السيرة الطيبة ، وعلى ميسرته شقيقة عبد الله بن مقرِّن المزني ، وعلى ساقة الجيش ومؤخرته شقيقه الثالث سويد بن مقرِّن المزني.

ويصف ابن جرير الطبري هذا الموقف بقوله:

«فما طَلَعَ الفجرُ إلا وهم والعدوُّ في صعيد واحد ، فما سمعوا للمسلمين هَمْساً ولا حِسّاً حتى وضعوا فيهم السيوفَ ، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم؛ فما ذَرَّ قَرْن الشمس حتى ولَّوْهم الأدبارَ ، وغلبوهم على عامّة ظهرهم؛ وقُتل حِبال بن خويلد الأسدي ، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصَّة»[(١)].

ووضع أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حامية في ذي القصَّة جعل قيادتها للنعمان بن مقرّن ـ رضي الله عنه ـ وعاد إلى المدينة[(٢)].

---

(١) الطبري (٣/٢٤٦).
(٢) المصدر السابق.

وما إن عاد أسامة بن زيد إلى المدينة ، حتى خرج أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بنفسه لقتال المرتدين؛ من القبائل مثل عبس وبني بكر وذبيان في منطقة الرَّبَذَة ، على مقربة من المدينة ، وكان النعمانُ على ميمنته أيضاً ، واستطاع أن يهزمَ العدو.

## القادسية

كان سعدُ بن أبي وقاص عاملاً لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على صدقات هوازن ، ولما جمع الفرسُ جمعهم لقتال المسلمين في القادسية ، وأصيب المثنى بن حارثة الشيباني بجراح. غضب عمر ـ رضي الله عنه ـ وفكَّر في الخروج على رأس جيوش المسلمين لمقاتلة الفرس ، ولكن الصحابة أشاروا عليه باختيار قائد غيره وبقائه هو بالمدينة.

كان عبدُ الرحمن بن عوف ممّن نهاه عن ذلك ، وأشار عليه بسعد بن أبي وقاص ، فقد قال عبد الرحمن بن عوف لعمر ـ رضي الله عنهما ـ:

فما فديتُ أحداً بأبي وأُمي بعد النبي ﷺ قبل يومئذ لا بعده؛ فقلت: بأبي وأُمي؛ اجعل عَجْزها لي وأقِم وابعث جنداً؛ فقد رأيتُ قضاء الله لك في جُنُودِك قبل وبعدُ؛ فإنَّهُ إن يُهزم جَيْشُك ليس كهزيمتك؛ وإنك إن تُقْتل أو تُهزم في أول الأمر خشيتُ أَلاَّ يُكَبِّر المسلمون ، وألاَّ يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً.

عندئذ قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: فأشيروا عليَّ برجل.

فقال عبد الرحمن بن عوف: وجدتهُ.

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: مَنْ هو؟.

قال عبد الرحمن ـ رضي الله عنه ـ: الأسدُ في براثنه ، سعد بن أبي وقاص[1].

عندئذ وافق أولو الرأي والشورى عبدَ الرحمن بن عوف في اختياره ،

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٨١ ـ ٤٨٢).

وأرسل عمرُ إلى سعد بن أبي وقاص فولّاه ، وخرج بجيشه قاصداً العراق لقتال الفرس بعد أن انضم إليه أبطال المسلمين ، فأمَّر منهم الأمراء مثل المثنى بن حارثة والمغيرة بن شعبة ، وكان من بين رجاله النعمان بن مقرن المزني .

وبعث سعدُ بن أبي وقاص عيوناً إلى أهل الحيرة ليعلموا خبر أهل فارس فرجعوا إليه بكل خبر مفيد ، فأرسل سعدٌ بكل ما جمعه من الأخبار إلى قيادته في المدينة ، وعلى رأسها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، الذي قال له في رسالة بليغة: لا يكربنك ما يأتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله ، وتوكّل عليه[1] .

ثم أمره عمر أن يرسلَ إلى كسرى ملك الفرس من يدعوه إلى الإسلام ، وقال عمر: وابعث إليه رجالاً من أهل المنظرة ، أي أصحاب الهيئة والوسامة ، إذا نظر الناظرُ إلى أحدهم أعجبه .

ثم أضاف عمر قائلاً: وابعث إليهم رجالاً من أهل الرأي والجَلَد يدعونه ، فإن الله جاعلٌ دعاءَهم توهيناً لهم ، ونصراً عليهم .

ولما جاء أمر عمر إلى سعد ، اختار وفداً كبيراً من بين رجاله النعمان بن مقرِّن الذي اجتمعت فيه شيم أهل الرأي والجلد وهيئة المنظرة والمهابة .

وكان الوفد كبيراً جامعاً للرجال من بينهم: عاصم بن عمرو ، وعمرو بن معد يكرب ، وبشر بن أبي رهم ، وحنظلة بن ربيع التميمي .

أرسل سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ وفداً إلى كسرى يزدجرد ، وكان على رأسه النعمان بن مقرن المزني ليدعوه إلى الإسلام ، ولما بلغوا عاصمة كسرى في المدائن استأذنوا بالدُّخولِ عليه فأذِنَ لهم ، ثم دعا الترجمان فقال له: سلهم؛ ما الذي جاء بكم إلى ديارنا وأغراكم بغَزْونا والولوع ببلادنا[2]؟ .

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (٣/ ٤٩٨ وما بعدها).

ثم قال في غرور وكبرياء: لعلكم طمعتم بنا واجترأتُم علينا لأننا تشاغلنا عنكم ، ولم نشأ أن نبطش بكم؟ .

امتلأ جو القاعة بالتوتر ، وانفعل كلُّ المجلس في حاشية كسرى ، وتوتر القادة الذين حضروا هذا الموقف ، وراحت نظراتُ قادة الفرس وأشرافهم ووجوههم تتفحّص هؤلاء الفتيَة والرجال ، فوجدوا وجوههم تشرق بالهدوء والسكينة ، ولم يظهر أيّ منهم ارتباكٌ أو خوف ، وكان ما أثار نفوس هؤلاء برود أعصاب الرجال ، وهدوءهم الطبيعي غير المصطنع ، وبدأ الرجالُ في مجلس كسرى ينظرون إلى القناديل وزخارف الحوائط حتى يشغلوا النفس عن هذا الجمع القادم بهدوءٍ مثير عجيب ، ينذر ملكهم ، ويدعوه إلى دينهم الذي اقتنعوا به وبما جاءهم فيه ، فخرجوا من بطن الصحراء يدقُّون أبواب هذه القصور ليدْعوا ساكنيها إلى عبادة الله عزَّ وجل ، ولا يخشوا في دعوته هذه لومة لائم أو عظمة ملك مهما كان له من سلطان أو حاشية حوله ، أو أي شيء يبهر النَّاس.

ومضت لحظات صمت وترقب وكلُّ أنظار المجلس: الملك والحاشية تتطلَّع إلى ردّ هؤلاء الرجال.

التفت الرجالُ بعضهم إلى بعض في هدوء ، ونظر النعمان بن مُقَرِّن المزني إلى أصحابه قائلاً: إن شئتم أجبتُ عنكم ، من شاء آثرتُه[1] .

فقالوا: بل تكلَّم ، ثم التفتوا إلى كِسْرَى وقالوا: هذا الرجل يتكلّم بالنيابة عنا فاستَمعْ إلى ما يقول!! .

ليت كسرى اتَّعظ بهؤلاء الرجال بتشاورهم ، بهذا التآلف والحب؛ الذي ينمُّ عن تشريع عظيم، وإيمان نادر ، ودين قيِّم، لكنه استمع متململاً في غيظ، وأصابت الدهشةُ وجوهَ مجلسه ، فجلسوا صامتين وصدح صوت النعمان بن مُقرن المزني يقول: نحمد الله ونثني عليه ونصلّي ونُسلّم على نبيه وبعد:

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٩٨).

إن الله رَحِمنَا فأرسل إلينا رسولاً يَدُلُّنا على الخير ، ويأمُرنا به ، ويُعَرِّفُنا الشرَّ وينهانا عنه ، وَوَعدنا على إجابته خيرَ الدنيا والآخرة ، فلم يدعُ إلى ذلك قبيلةً إلاَّ صاروا فرقتَيْن: فِرقة تُقاربه ، وفرقة تباعده؛ ولا يدخل معه في دينه إلاَّ الخواصّ ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثُمَّ أُمِرَ أن ينبذ إلى مَن خالفه من العرب؛ وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعاً في وجْهين: مُكْرَهُ عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد.

فعرفنا جميعاً فَضْل ما جاء به على الذي كُنَّا عليه من العَداوة والضِّيق؛ ثم أمرَنا أن نَبْدَأَ بمَن يلينا من الأمم ، فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعُوكم إلى ديننا؛ وهو دين حَسَّن الحَسَنَ ، وقبَّحَ القبيحَ كُلَّهُ ، فإن أبيتم فأمْرٌ من الشرّ ، وهو أهونُ مِن آخَرَ شَرّ منه الجزاء؛ فإن أَبَيْتُم فالمناجزة؛ فإن أجبتم إلى ديننا خلَّفْنا فيكم كتابَ الله؛ وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونَرْجِع عنكم وشَأْنكم وبلادكم؛ وإن اتَّقيتمونا بالجزاء قَبِلْنا ومنعناكم؛ وإلاَّ قاتلناكم[1].

اشتعل يزدجرد غضباً وغيظاً ممّا سمع من النعمان بن مقرن وقال:

إني لا أعلمُ في الأرض أمَّة كانت أشقى منكم ولا أقلّ عدداً ، ولا أسْوَأَ ذات بَيْنٍ منكم ، وقد كُنَّا نُوَكِّل بكم قُرَى الضواحي فيكفونا أمركم لا تغزون فارس ، ولا تطمعون أن تَقوموا لهم ، فإن كان عددٌ لحق ، فلا يغرَّنكم منَّا.

ثم خفَّف يزدجرد شيئاً من غضبه وحدَّة حديثه وقال: وإن كان الجَهْد دعاكم فَرَضْنَا لكم قوتاً إلى خِصْبِكم ، وأكْرمناكم ، وكسوناكم ، وملَّكنا عليكم مَلِكاً يرفُق بكم.

ساد صمتٌ في المجلس وأعطى النعمان بنُ مقرِّن الكلمة لصاحبه المغيرة بن زُرارة ـ رضي الله عنه ـ فوقف يقول في تحدّ لملكهم:

أيها الملك ـ إن هؤلاء رؤوس العرب ووجُوهُهم ، وهم أشراف يستحيون

(١) ابن الأثير (٢/ ٧٦) والطبري (٣/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩).

من الأشراف ، وإنما يُكرِمُ الأشرافَ الأشرافُ. . . وليس كلّ ما أرسلوا به جمعوه لك ، ولا كلّ ما تكلّمتَ به أجابوك عليه. . . فجاوبني لأكونَ الذي أُبلِّغُك ، ويشهدون على ذلك؛ إنك قد وصفتنا صفةً لم تكن عالماً بها.

ثم مضى المغيرةُ في حديث طويل وشرح مستفيض حتى قال في النهاية ليزدجرد: فاختر إن شئت الجزيَة عن يَدٍ وأنتَ صاغِرٌ ، وإن شئتَ فالسيف ، أو تُسلم فتُنجي نفسك.

فقام يزدجرد عن كرسيه الوثير غاضباً وقال: «أتستقبلني بمثل هذا!! لولا أن الرسلَ لا تُقتلَ لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي»[1].

ثم نادى حرسه ورجاله قائلاً: ائتوني بوِقْرٍ من تراب ، واحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرجَ من باب المدائن.

وقال موجهاً حديثه للنعمان بن مقرِّن والمغيرة: ارجعوا إلى صاحبكم ، فأعلموه أني مرسلٌ إليكم رستم يُدفيكم[2] ويدفيه في خندق القادسية ، وينعَلَ به وبكم من بعد ، ثم أورِده بلادكم ، حتى أشغلكم في أنفسكم بأشدَّ ممّا نالكم من سابور.

ثم قال يزدجرد: مَنْ أشرفُكم؟ فسكت القوم ، فخرج عاصم بن عمرو وادَّعى أنه أشرفُهم ليأخذ التراب فقال: أنا سَيِّد هؤلاء فحمّلْنيه[3]!!.

نظر النعمان إلى صاحبه المغيرة يستغرب فعلة صاحبهم عاصم ـ رضي الله عنه ـ.

فقال يزدجرد: أكذاك هو؟.

قالوا: نعم هو أشرفنا.

---

(١) فتوح البلدان ص(٢٥٥) ، وتاريخ الطبري (٣/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠).

(٢) «يدفيكم»: أدفى الجريح: أجهز عليه.

(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٥٠١).

فحمَّله على عُنُقه ، فخرج من الإيوان والدار حتى أتى راحلته ، فحمله عليها ، ومضى للقاء قائد القادسية سعد بن أبي وقاص.

استقبل القائدُ الكبير رجاله بالبشرى ، وقال لهم: لا تحزنوا. وأبشروا فإن الله سيفتح على المسلمين ديار الفرس ، ويُمَلِّكُهم تُرَابَ أرضهم. ودار القتالُ البطولي في القادسية ، وامتلأ الخندقُ الكبير بآلاف القتلى من جند الفرس ، وانهارت قيادةُ كسرى انهياراً شديداً ، ومضى النعمان بن مقرّن يقاتل كجندي وقائد لهذه النفوس الطاهرة.

ولم يكن انتصارُ المسلمين في القادسية نتيجة صليل السيوف فحسب ، ولكن كانت القيادةُ الحكيمةُ ، والرجال أصحاب الرأي والحكمة ممّن وقفوا أمام ملك الفرس ، فقد تركوا مجلس الملك ، وقد بثُّوا في نفوسهم الرعب ملكاً وحاشيةً ، حتى إن ملك الفرس نظر إلى قائد جيوش رستم قائلاً:

«ما كنت أرى أنَّ في العرب مثل هؤلاء! ما أنتم بأحسن جواباً منهم ، ولقد صدقني القوم ، لقد وُعِدوا أمراً ليدركُنَّهُ أو ليموتُنَّ عليه»[1].

ولما نشب القتالُ كان النعمان بن مقرن من أبطال القادسية الذين نالوا شرف هذا اليوم ، وسجّل التاريخُ أنهم جنود هذا اليوم العظيم لهول معاركه وعظمة انتصاره ، وروعة الإيمان الذي ساد روح المقاتلين.

وكان للنعمان شرفُ البشرى لعمر بن الخطاب ، بما حقَّق سعد بن أبي وقاص ورجاله ، فمضى إليه في المدينة يبشّره بنعمة الله على رجاله وأنصار رسوله ﷺ.

## الأهـــواز

انتصرت الجيوشُ الإسلاميةُ يوم القادسية وطردت القوات الفارسية من المدائن ، ودخل سعدٌ القصرَ الأبيض قصر كسرى ، وسجد لله عزَّ وجلَّ

(١) ابن الأثير (٢/١٧٦).

حمداً وشكراً ، وتأمَّل مع صحبه الأبطال وجنوده الأشاوس هذه الحدائق الغنّاء ، والقصور الفخمة التي تركها كسرى وحاشيته. وتلا قول الله عزَّ وجلَّ في سورة الدخان:

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ .

تلا سعدٌ هذه الآيات في إيوان كسرى ، وصلّى فيه صلاة الصبح ثماني ركعات؛ لم يفصل بينهن ، واتَّخذ هذا الإيوان مسجداً ، وفيه تماثيل الجصّ ، ولم يهتمّ لذلك هو ولا المسلمون ، وتركوها على حالها ، وأتمَّ الصلاة في المدائن ، إذ نوى المقام بها ، وكانت أول جمعة بالعراق ، في صفر سنة ست عشرة من هجرة الرسول ﷺ.

شهد النعمان بن مقرن المزني كُلَّ هذه المشاهد ، وهرب كسرى إلى مدينة «مرو» وبدأ يثيرُ أهلَ فارس كي يسترجعوا المدائن وغيرها من المدن ، وقد استطاع أن يجمعَ الناس حوله ويوحِّد صفوفهم.

وكانت الأهوازُ إقليماً واسعاً من سبع مقاطعات بين البصرة وفارس[1] ، ثم أصبحتْ بعد هزيمة الفرس يوم القادسية ملاذاً لهم ، أقام فيها «الهرمزان» ـ وهو أحد قادة الفرس ـ وغلب عليه وتغلَّب على مَن كان بها ، وأصبح يغيرُ بجنوده على من حوله مثل أهل مَيْسَان ودَسْتُمِيسَان ، وهما موضعان قرب البصرة.

وكان عتبة بن غزوان أميراً على البصرة ، بينما كان سعد بن أبي وقاص أميراً على الكوفة ، فلما علموا بحركة الفرس بالأهواز نقلوا الخبر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالمدينة ، فما كان من عمر ـ رضي الله عنه ـ إلا أن كتب إلى سعد بن أبي وقاص كتاباً يقول فيه:

---

(١) معجم البلدان (١/ ٢٨٤).

«ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرِّن وعجِّل ، فلينزلوا بإزاء الهرمزان ويتحققوا أمره»[1].

امتثل النعمان بن مقرِّن لأوامر قائده سعد بن أبي وقاص وخرج من الكوفة على رأس قوة هائلة إلى الأهواز ، وهاجم الفرس عندما وصل المدينة ، واستطاع أن يحقِّقَ نصراً عظيماً عليهم ، وطردهم شرَّ طردة منها ، وهرب الهرمزان إلى مدينة تُسْتَر.

## يوم تُسْتَر

تعدّ تُسْتَر أعظم مدينة بخوزستان ، فجاء إليها «يزدجرد» و«الهرمزان» وتحصنا فيها ، فواصل القائدُ العظيم النعمان بن مقرن المزني الزحفَ إليها ، فأخذ وسط السَّواد حتى قطع دِجْلَة بحيال مَيْسان ، ثم أخذ البرَّ إلى الأهواز حتى انتهى إلى نهر «تِيْرىٰ» فاجتازه ، ثم سار نحو الهرمزان[2].

فالتقى جيشُ النعمان وجيش الهرمزان بإحدى مدن الأهواز وهي «أَرْبُك» ، واقتتلوا قتالاً شديداً هرب بعده الهرمزان ، وتحصَّن بتُسْتَر. وأمده عمر ـ رضي الله عنه ـ بقوات جديدة ، على رأسها أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ فحاصروا الفرس زمناً طويلاً ، وأكثروا فيهم القتل وقُتِل البراء بن مالك ثم اقتحموا المدينة وأصابوا من الفرس مقتلةً عظيمة ، وهرب الهرمزان إلى قلعةٍ وتحصَّن فيها ، فحاصرته قواتُ المسلمين بقيادة النعمان ، واستطاعوا أسره بعد أن أَخَذَ منهم الأمان وأُرْسِلَ الهرمزان إلى المدينة ، فلما رآه عمر قال:

«هيه يا هرمزان! كيف رأيتَ وبال الغدر وعاقبة أمر الله!؟».

فقال: إنا كنَّا وإياكم في الجاهلية ، كان الله قد خلَّى بينا وبينكم ، فغلبناكم إذْ لم يكن معنا ولا معكم ، فلمّا كان معكم غلبتمونا.

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٣١١).
(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٧٧).

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرّقنا.

ثم قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: ما عذرك وما حجَّتك في انتقاضِك مرّة بعد مرة؟.

فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أُخبرك.

قال عمر: لا تخف ذلك.

واستمر حوارٌ رائع بين عمر والهرمزان حتى أسلم، ففرض له عمر ألفين وأنزله المدينة[١].

## نـهـاونـد

اضطرب يزدجرد ملك الفرس منذ فرَّ من المدائن، ثم استقر في «مرو» وهي مدينة من مدن بلاد فارس.

وما أن استقرَّ في «مرو» حتى جمع الناسَ حوله، فرأى في اجتماعهم شدَّةً وحماسة، فانتعش في نفسه الأملُ، وتبدّل يأسُه رجاءً، واطمأن كثيراً، وكاتب سائر الولايات والبلاد في مملكته، فتحركوا وتكاتبوا، وأجمعوا على تلبية نداء ملكهم، وبعث كلُّ أمير جندَه إلى نهاوند، حتى بلغ عدد الجند مئة وخمسين ألفاً، وقد اجتمعوا تحت قيادة «الفيرزان».

فلما مثلوا أمامه جميعاً، ونظر في حشدهم الهائل، خاطبهم قائلاً:

إن عمر لَمَّا طالَ مُلكهُ انتهك حرمتَنا وأخذَ بلادَنا، ولم يَكْفه ذلك حتى غزَانا في عُقْرِ دارنا، وأَخذ بيت المملكة، وهو آتيكم إن لم تأْتُوه، وليس بمُنْتَهٍ حتى تُخرِجوا من في بلادكم من جُنْدِه. ونقل الأمراء حديثه إلى جنودهم فاشتعلتْ حماستهم[٢].

وصلت رسائل إلى عمر بالمدينة تخبره بهذا الحشد الكبير وتقول له:

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٨٧ ـ ٨٨).

(٢) المصدر السابق.

إن أهل فارس قد تجمّعوا ، فإن جاؤونا قبل أن نُبادِرَهم الشدَّة ازدادوا جُرْأَةً وقوّة ، وإن نَحْنُ عاجلناهم كان لنا ذلك عليهم.

فنظر عمر حوله فوجد الهرمزان أسيرَهُ الفارسي فقال له: انصح لي ، فإنك أعلمُ بأهل فارس.

فقال الهرمزان: نعم! إن فارسَ اليوم رأس وجناحان.

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: فأَين الرَّأسُ؟.

قال الهرمزان: بنهاوند ، ثم ذكر موضع الجناحين وقال: الرأي عندي يا أمير المؤمنين إنّك إن تقطع الجناحين يَهِنِ الرأسُ.

فتعجّب عمر ـ رضي الله عنه ـ ونظر إليه نظرة طويلة ثم قال: كذبتَ يا عدو الله! بل أَعْمِد إلى الرأس فأقطعه فإذا قطعه الله لم يَعْصِ الجناحان[1].

رأى عمر أن يستشير المسلمين في جمع عامٍ ، ونودي في المسلمين: الصلاة جامعة! فاجتمع النَّاس ، واستشارهم في خروجه على رأس جيش لملاقاة هؤلاء ، فاعترض الصحابة ومن بينهم علي بن أبي طالب الذي قال له: إنَّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أميرُ العرب ، وأصل العرب؛ فيكون ذلك أشد لِكَلَبهم ، وألّبْتَهم على نفسك.

وأَمَّا ما ذكرتَ من مَسير القوم ، فإنَّ الله هو أكرَه لمسيرهم منك ، وهو أَقْدَرُ على تغيير ما يكره؛ وأما ما ذكرت من عددهم؛ فإنا لم نقاتلْ فيما مضى بالكَثْرَةِ؛ ولكنا كُنَّا نقاتل بالصبر.

عندئذ قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أشيروا عليّ به ، واجعلوه عِرَاقيّاً.

قالوا: يا أمير المؤمنين ، أنتَ أعلمُ بأهل العراق ، وجُنْدك قد وفدوا عليك ، ورأيتَهم وكلَّمتهم.

فقال: أما والله لأُوَلِّين أمْرَهُم رجلاً ليكونن أول الأسنّة إذا لَقِيَها غداً[2].

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١١٧).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

فقالوا: من يا أمير المؤمنين؟.

قال: النعمان بن مُقَرِّن المُزني.

قالوا: هُوَ لها يا أمير المؤمنين.

هكذا عرف عمر ـ رضي الله عنه ـ كيف يختارُ الرجال، فقد عرف النعمان حقَّ المعرفة وما إن بيَّن رغبته، وحدَّد اختياره حتى انطلقت الشفاه تقول: هو لها يا أمير المؤمنين!.

كان النعمانُ في هذه اللحظة والياً على الخراج في منطقة تسمى «كَسْكَر» القريبة من واسط بالعراق، فكتب إليه عمر يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله.. عُمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى النعمان بن مُقَرِّن، سلامٌ عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنه بَلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جُمِعُوا لكم بمدينة نَهَاوَنْد، فإذا أتاكَ كتابي هذا فسِرْ بأمر الله وبعون الله، وبنصر الله بمن معك من المسلمين[1].

ثم مضى عمر في رسالته للنعمان بن مقرن يقول:

ولا تُوَطِّئَنَّهم وَعْراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقّهم فتكفرهم، ولا تدخلنهم غيضةً، فإن رجلاً من المسلمين أحبُّ إليّ من مئة ألف دينار، والسلام عليك.

لم يكتفِ عمرُ برسالته للقائد النعمان بن مقرِّن، وما جاء بها من توجيهات، وإنما أرسل كُتُبه ورسائله إلى أهل الكوفة أن يوافوا النعمان بن مقرن وعلى رأسهم حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ.

وكتب لأبي موسى الأشعري أن يسير بأهل البصرة.

وأرسل إليه جموعاً من المدينة على رأسهم عبد الله بن عمر.

---

(١) الطبري (٤/ ١٢٣).

وكأن عمر ـ رضي الله عنه ـ تذكر يوم مؤتة ، وما حدث فيها يوم أن قال رسول الله ﷺ: «على الناس زيد ، فإن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة على النَّاس» .

فكتب للنعمان كتاباً يقول فيه :

إن حَدَث بك حَدَث فعلى الناس حذيفة بن اليمان ، فإن حَدَث بحذيفة حَدَث فعلى الناس نُعَيم بن مُقَرِّن.

هكذا حدد القائد العام عمر ـ رضي الله عنه ـ معالم العمل في المعركة ودور كل جندي فيها .

حتى إنه في النهاية كتب إلى قادة الجيوش كافة يقول: إذا التقيتم فأميركم النعمان بن مُقرن المزني .

ولما أراد أن يقطع الإمدادات عن الفرس كتب عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى أُمراء الأجناد في الأهواز يقول: أَن اشغلوا أهل فارس عن إخوانكم ، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم ، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري .

وبدأ عمل القائد ، فكان أول إجراء اتّخذه أن أرسل جماعات استطلاعية لمعرفة أخبار الفرس ، فوصل طليحة بن خويلد الأسدي «نهاوند» ، فلما رجع أخبر النعمان بعدم وجود قوات فارسية معادية في طريقه إلى نهاوند ، عند ذلك تحرَّك النعمانُ بن مقرن بقواته حتى نزل قريباً من حصون الفرس .

كان على ميمنة جيشه الأشعث بن قيس الكندي ـ رضي الله عنه ـ ، وعلى ميسرته المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه[1] ـ .

واجتمعت جموعُ الفرس ، وأرسل بندار ، وهو أحد قادة الفرس يقول: أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه ، فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبة قائد الميسرة ، ونترك المغيرة يحدّثنا عن هذا الموقف الطريف! .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص(٣٠٢) .

يقول المغيرة: لما دخلتُ على بندار علمتُ أنه استشار أصحابه، فقال: بأي شيء نأذن لهذا العربي؟ بِشارتنا وبهجتنا ومُلكِنا، أَم نتقشف له فيما قبلنا حتى يزهَد؟.

قالوا: بل بأفضل ما تكون الشَّارَة، والعُدَّة، فتهيّؤوا بها.

ثم يضيف المغيرة: فلما أتيتهم رأيتُ حُرَّاسَه بحرابهم التي تلمع، كأنَّهم الشياطين، وإذا هو على سريرٍ من ذهب، على رأسه التاج.

قال: فمضيتُ كما أَنَا، ثم دُفِعْت ونُهْنِهْت، فقلت: الرسل لا يفعل بهم هذا.

فقالوا: إنما أنت كَلْبٌ.

فقلت: معاذ الله! لأنا أشرفُ في قومي من هذا في قومه، فانتهروني ثم قالوا: اجلس فجلست، فقال لي بندار والترجمان بيننا(١):

«إنكم معشر العرب أبعد الناس من كل خير، وأطول الناس جوعاً، وأشقى الناس... فإن تذهبوا نُخَلّ عنكم، وإن تأتوا نُرِكم مصارعَكم.

أجاب المغيرة قائلاً: والله ما أخطأتَ من صفتنا شيئاً... حتى بعث الله عز وجل إلينا رسوله ﷺ، فوعدنا النصر في الدنيا، والجنّة في الآخرة، فوالله ما زلنا نتعرّف من ربّنا منذ جاءنا رسوله الفتحَ والنصر؛ حتى أتيناكُم؛ وإنا والله لا نرجعُ إلى ذلك الشَّقاء أبداً حتى نغلبكم على ما في أيديكم؛ أو نُقْتَل بأرضكم.

ويضيف المغيرة قائلاً: ثم قمتُ وقد أرعبتُ بندار قائدهم.

عاد المغيرةُ إلى قيادته وأمسك بزمامها على ميسرة جيش القائد البطل النعمان بن مقرِّن، وأمر القائدُ بالتعبئة، فسارت الجيوش - جيوش المسلمين - حتى التقوا بالفرس وجهاً لوجه.

---

(١) تاريخ الطبري (٤/١١٨).

فلما رآهم النعمان كَبّر قائلاً: الله أكبر... الله أكبر.

فردَّد الناس معه: الله أكبر... الله أكبر.

فوصلت أصواتُهم عنان السماء، وتردّدت في الآفاق، ممّا أوقع الرعبَ في قلوب الأعاجم، فأمر النعمان بحطِّ الأثقال وبضرب الفسطاط، فَضُرِبَ وهو واقف، وتعاون على بنائه أشراف أهل الكوفة.

وبدأ القتالُ عنيفاً، وكان القتال سجالاً بين العرب والفرس، فاقتتلوا يومين كاملين، فدخل الأعاجمُ في خنادقهم، وحصرهم المسلمون، فأقاموا فيها ما شاء الله، لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج، عندئذ خاف المسلمون أن يطولَ أمدُ القتال، حتى إذا كان ذات يوم في جُمْعة من الجمع، تَجمَّع أهلُ الرأي من المسلمين، فتكلموا وقالوا: نراهم علينا بالخيار.

وأتوا النعمان في ذلك، فوافوه وهو يفكّر، فقال لهم: قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن، وأنهم لا يخرجون إلاّ إذا شاؤوا، ولا يقدر المسلمون على إنقاضهم، وانبعاثهم قبل مشيئتهم، وقد ترون الذي فيه المسلمون من الضيق، فما الرأي الَّذي به نستخرجهم إلى المناجزة وترك التطويل[1].

فتكلم عمر بن ثُبي ـ أكبر الناس سناً ـ فقال: التحصُّن عليهم أشدُّ من المطاولة عليكم، فدعهم ولا تُحْرِجهم وطاوِلهم، وقابل مَن أتاك منهم.

فرد الجمع النفير من أهل الرأي كلام الرجل وقالوا: إنَّا على يقين من إنجازَ ربِّنا موعدَه لنا.

وتكلم رجل آخر فقال: ناهدهم وكاثِرْهم ولا تَخَفْهُمْ.

فقالوا: إنما تُناطح بنا الجدران، والجدرانُ لهم أعوان علينا.

عندئذ وقف طُليحة الأسدي قائلاً: قد قالا ولم يُصيبا، وأما أنا فأرى أن

---

(١) ابن الأثير ج ٣ (نهاوند).

تبعث خيلاً مؤديةً ، فيُحدِقوا بهم ، ثم يرموا ليُنشبوا القتال ، ويحمِشوهم ـ أي يُغضبوهم ـ فإذا استحمَشُوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا ـ أي رجعوا ـ استطراداً ، ونحن لم نستطردْ لهم في طول ما قاتلناهم ، وإنّا إذا فعلنا ذلك ورأوْا ذلك مّنا طَمعوا في هزيمتنا ولم يشكُّوا فيها ، فخرجوا فجادُّونا وجادَدْناهم ، حتى يقضيَ الله فينا وفيهم ما أُحب[١].

أمر النعمان بن مقرّن المزني أحد قادته الأكفاء ليقوم بهذه المهمة ، وكان خير مَن يقوم بها القعقاع بن عمرو التميمي ، وكان على المجرَّدة ، وهي بمثابة قوات خاصة أو للمهام الخاصة بتسمية أيامنا هذه.

مضى القعقاع ينفّذ المهمة على رأس الخيل ، فأنشب القتال ، فلما خرجوا من خنادقهم ، نكص وتراجع ، وعند ذلك اغتنم الأعاجم الفرصة ، ففعلوا كما ظنَّ طلحة ، وظنوا أن ذلك يعني هزيمة المسلمين وفرارهم ، فانطلقوا خلفهم ، والقعقاع ورجاله في تراجع تنفيذاً لأوامر القيادة ، بينما عهد النعمان إلى الناس عهده ، وأمرهم أن يلزموا أماكنهم في الأرض ، ولا يقاتلوهم حتى يأذن لَهُم ، ففعلوا ، وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات ، وشكا بعضُ النَّاس ذلك إلى بعض ، حتى قالوا للنعمان: ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما لقي الناس؟ فما تنتظر بهم! ائذَن للناس في قتالهم[٢].

فقال لهم النعمان: انتظروا قليلاً ، رويداً رويداً ، حتى إن المغيرة بن شعبة قائد ميمنة الجيش قال غاضباً: لم أر كاليوم فشلاً؛ لو أن هذا الأمر إليَّ علمتُ ما أصنع.

فقال النعمان في لين ولُطف: رويداً يا مغيرة ، رويداً تَرَ أمرك ، وقد كنت تَلِي الأمر فَتُحْسِن؛ فلا يخذلنا الله وإياك ونحن نرجو في المكث مثل الذي ترجو في الحثّ.

---

(١) الطبري (٤/ ١٣٠).

(٢) المصدر السابق.

انتظر النعمانُ كثيراً ، وتروّى؛ حتى تمَّ خروج قوات الفرس من حصونهم ، ثم رَكِبَ فرسه وسار في النَّاس ووقف على كل راية يُذكِّر الناس ويحرّضهم ، ثم قال لهم خطته التي اعتزمها ، قال:

كلُّ رجل مُسَلَّطٌ على ما يليه؛ فإذا قضيتُ أمري فاستعدُّوا فإني مُكَبِّرٌ ثلاثاً ، فإذا كبَّرت التكبيرة فلْيَتَهَيَّأْ من لم يكن تهيَّأَ ، فإذا كَبرت الثانية فليشدّ عليه سلاحه ، وليتأهب للنهوض؛ فإذا كَبَّرت الثالثة؛ فإني حامل إن شاء الله ، فاحملوا معاً ، اللهم أعِزَّ دينكَ ، وانصر عبادك ، واجعل النعمانَ أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونَصْرِ عبادك(١).

فلمّا فرغ النعمانُ من إصدار أوامره ، وإفهامها لجنده ، وأتمَّ استعداده وهيأ جنوده كبَّرَ الأولى ، وكبّر الثانية ، والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال والمناهضة ، وكبَّر الثالثة وحمل على عدوه وحمل الناس معه ، وقد كانت رايتهُ تنقَضُّ نحوهم انقضاض الأسد ، وكان النعمان مُعْلَماً ببياض القباء والقلنسوة ، فاقتتل النَّاس بالسيوف قتالاً شديداً ، لم يسمع به الناس من قبل.

## الشهيد

ويستجابُ دعاءُ الأبطال ، وتفتح السماءُ أبوابها للمجاهدين في سبيل الله عزَّ وجلَّ ، فقد سالت الدماءُ أنهاراً على أرض المعركة ، حتى قال الرواة: إن المسلمين قتلوا في نهاوند من أهل فارس بين الزوال والإعتام ، ما طبَّق أرض المعركة دماً يزلَقُ الناسُ والدوابُّ فيه ، وأصيب من المسلمين فرسانٌ لانزلاقهم في بحر الدماء ، وزلق فرس النعمان فصرعه ، وجاءه سهم أصابه في خاصرته فقتله(٢).

لم تكد تمضي لحظات على صعود روح الشهيد الفاتح ، النعمان بن

---

(١) الطبري (٤/ ١٣١ ـ ١٣٢).

(٢) انظر ابن الأثير ج ٣ ، (نهاوند) ، والطبري (٤/ ١٣٢).

مقرن ، إلى السماء يوم فتح الفتوحِ حتى تمزَّقَ جيش الفرسِ شَرَّ مُمَزَّق ، ومَلأت قتلاهُ السهل والجبل ، وسالَتْ دماؤه في الممرات والدروب ، فَزَلِقَ جوادُ النعمان كما ذكرنا لكثرة الدماء.

ولمّا قتل ، تناول الراية نُعيم بن مقرّن شقيقه قبل أن تسقط ، وأتى بها إلى حذيفة بن اليمان وناوله إياها؛ تنفيذاً لأمر القيادة في المدينة المنورة ، وسَجَّاه نُعيم ببردةٍ كانت معه ، وكتم أمرَ مصرعه عن المسلمين ، ولما رآه المغيرةُ بن شعبة قائد الميمنة قال: اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يَصْنَعُ الله فينا وفيهم لكيلا يَهِنَ النَّاسُ.

وطال القتال حتى أظلَّهم الليل ، فانكشف المشركون ، ومات منهم مئة ألف أو يزيدون ، ولم يفلت منهم إلاَّ الشريد ونجا «الفيرزان» وهرب إلى همذان ، ولكنه قُتِلَ في الطريق.

ومضت فلول المهزومين من الفرس حتى دخلوا همذان ، وخيل المسلمين في آثارهم ، لم يتركوهم أبداً ، بينما دخل الأبطالُ «نهاوند» بعد هزيمة المشركين.

ولما تمَّ النصرُ الكبيرُ الذي سماه المسلمون «فتح الفتوح» سأل الجنود المنتصرون عن قائدهم البطل ليقدموا له التهنئة بالنصر وحُسن القيادة.

عندئذ رفع أخوه البردة وقال: هذا أميرُكم ، قد أقرَّ الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة.

استرجع منهم مَن استرجع ، وذرف بعضهم عبراته ، وقد تقطعت كلمات الاسترجاع بين شفتيه من شدة البكاء ، لكن روح هذا المزني البطل صعدت لتأخذ مكانها بين الصديقين والشهداء.

إنه النعمان ، وَعَدَ رسولَ الله ﷺ فصدق وعده وعاهده ، فكان للعهد وفيّاً ، جاد بماله وآمن بالله واليوم الآخر ، وقد اتَّخذ ما ينفق قرباتٍ عند الله فكان وعد الله له:

﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

## عمر وأخبار النصر

بعد أن دخل المسلمون نهاوند ، وأتم الله عليهم نصره بفتح الفتوح في نهاوند ، قسّم حذيفة بن اليمان بين الناس غنائمهم ، فكان للفارس ستة آلاف ، وللراجل ألفان ، ونَفَّلَ من شاء من أصحاب الإصابات والبلاء ، ورفع ما بقي من الأخماس ، وأرسلها مع رسولٍ ليبلغها إلى عمر بن الخطاب في المدينة ويبشّره بالفتح.

فلما وصل الرسولُ إلى المدينة بادره عمر بالسؤال: ما وراءك يا رجل؟. وقد كان عمر ينتظر أخبار المسلمين بقلقٍ لا يكاد بسببه يذوق النوم إلا القليل ، فأجابه رسولُ حذيفة قائلاً:

خيراً يا أمير المؤمنين ، فتح الله عليك بأعظم الفتح ، واستشهد النعمان بن مقرن ـ رحمه الله ـ.

فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم بكى حتى نشج ، ثم قام ليدخل داره ، فقال الرجل: إنَّ معي مالاً عظيماً ، فقال عمر: أدخله بيت المال والحق بجندك.

رحم الله النعمان بن مقرن ، بطل نهاوند فتح الفتوح ، وطيَّب ثراه ، وجمعنا به في موكب الصديقين والشهداء.

* * *

عصر الصحابة

(٣)

# العبادلة

عبد الله بن عباس

عبد الله بن عمر

عبد الله بن عمرو

عبد الله بن الزبير

# المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلَّم تسليماً كثيراً.

وبعد: فإنَّ الله تعالى خلق الإنسان ، وميَّزه بالعقل ، ووهب له الإرادة ، وجعله مُسْتَخْلَفاً في الأرض ، وأول شيء ينبغي أن يعرفه هذا الإنسان حق المعرفة هو الرب عز وجل ، فيعبده مطيعاً أوامره مجتنباً نواهيه. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والعبادة في الإسلام تعني الطاعة والخضوع لله سبحانه ، وهذه الطاعة تعني التزام شرع الخالق ، واتباع سُنَّة النبي ﷺ ، وهذا ما فعله الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ حين عبدوا الله الذي خلقهم فسوَّاهم ، وأسبغ عليهم نعمه ، فكانت طاعتهم عبادةً تشمل الحياة ، وتتضمن نواحي الإنسان كلها في أقواله وأفعاله وأحواله.

وقد نبغ من بين الصحابة الأجلَّاء بعض العبادلة الذين اشتهروا بهذه الخاصية ، وعُرِفُوا بمزية الخشية لله والإنابة إليه ، حتى تفوَّقوا في هذا المضمار على سائر الناس ، وكل منهم يبدأ اسمه بعبد الله ، فهم: عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير.

وقد حاولتُ في هذا الكتاب أن أعرض سِيَرَهم عرضاً مُوجزاً ، نقف فيه

عند العناوين البارزة في حياتهم ، فنقتبس من روضات علمهم وخشيتهم وأدبهم وعبادتهم ، ما يكون لنا قدوة في هذه الحياة.

وهؤلاء الأعلام فهموا العبادة: أداء الفرائض ، وحبّ الله ورسوله ، والتعبد التطوعي ، وحسن المعاملة ، والأخلاق ، والفضائل الإنسانية ، وسائر العلاقات التي تسع الحياة بأفقها الرحب ومجالاتها الواسعة.

وما العبادة في نظر الإسلام إلا غذاء للروح ، وشعور بالحاجة إلى الله تبارك وتعالى ، وتخلُّص من رقّ المخلوقين إلى عبادة مَن بيده ملكوت كلّ شيء ، فالعبادةُ حقُّ الخالِق على الخَلْق.

وكانت رحلتُنا مع كُلِّ عَلَم من هؤلاء الأعلام من ولادته وحتى وفاته ، مروراً بالنقاط الأساسية في حياته الطاهرة ، وإبراز مكانة كل عابد منهم ، وجعله في المقام الأسمى بين رجال الرَّعيل الأول ، وحقّ لهم ذلك؛ فهم منارات للعابدين ، ودلائل تهدي السَّائرين إلى الله.

* * *

اللهم اجعلنا من الذين يسمعون الحق فيتبعونه ، ويمرُّون باللغو فيتجاوزونه.

اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، يا أرحم الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

**عبد المنعم الهاشمي**

# (١)

# عبد الله بن عباس بن عبد المطلب

# إطـار عـــام

دعا رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس قائلاً:

«اللَّهم علّمه الكتاب»[1].

«اللَّهم فقّهه في الدِّين»[2].

«اللَّهم علّمه الحكمة»[3].

«اللَّهم فقّهه في الدين، وعلّمه التأويل»[4].

«اللَّهم علّمه الحكمة وتأويل الكتاب»[5].

هو الشيخ الكريم، الصحابي الجليل عبد الله بن عباس، تمتّع يوم ميلاده بدعوة مباركة من رسول الله ﷺ، فلازمته طوال حياته في الدنيا.

كان رضوان الله عليه ملازماً لأكابر الصحابة الأجلّاء بعد وفاة النبي ﷺ، يأخذ عنهم ويروي لهم.

كان يعرف مواطن نزول القرآن، وتواريخ التشريع.

نشأ في بيت النبوّة، ولازم الرسول ﷺ، وسمع الكثير، وشهد الكثير.

من أجل هذا نتقدّم الآن لنقترب من سيرته في خشوع؛ لما فيها من نفحات الكتاب وسُنَّة رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١/ ١٦٩)، وفي فضائل الصحابة (٧/ ١٠٠)، وأحمد (١/ ٣٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (١/ ٢٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٧/ ١٠٠).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦).

(٥) أخرجه ابن ماجه رقم (١٦٦).

نبحر الآن في سيرة رجل مجتهد ، شجاع في بيان ما يعتقد أنَّه الحق ، ولا يخشى في الحق لومةَ لائم ، حتى إنَّه نال من ابن عمر نقداً كثيراً لجرأته في تفسير القرآن.

نتقدَّم الآن نحو سيرة رجل ، فيه حلم أهل بيت رسول الله ﷺ ، فقد تربّى في ربوع هذا البيت ، فكان إذا جاءه من يقصده بشرّ قال:

إن ترد شرّاً لا نسبقك إليه.

وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه.

هذه كلمة نثبتها قبل أن نبحر في سيرة أحد العبادلة الأجلاَّء.

## المولد والصفات

قبل الهجرة بثلاث سنوات ولدتْ لبابةُ بنت الحارث بن حزن الهلالية ، ابنها عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ، حيث ولد بِشعْبِ بني هاشم(١).

وكانت لبابة شقيقة السيدة ميمونة بنت الحارث (الحرث) الهلالية أم المؤمنين وزوجة رسول الله ﷺ ، فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام الطفل الجميل ، دعا له دعاءً مباركاً ذكرناه في صدر هذه الكلمات.

وسُرَّ الرسول ﷺ بذلك سروراً كبيراً ، وشارك عمه العباس فرحه بالوليد الصغير ، فقد كان يوم مولد هذا الفتى من أيام العسرة في تاريخ الدعوة ، فقد خرج النبي محمد ﷺ ومَن معه من المستضعفين وفقراء المسلمين ، وزوجه خديجة ، وأهل بيته ، خرجوا جميعاً إلى شعاب مكة ، لما أصابهم من مقاطعة أهلها ، ومحاربتهم لهذه الدعوة.

---

(١) شِعْبُ بني هاشم: هو الشِّعْبُ الذي أوى إليه رسول الله ﷺ وبنو هاشم لمّا تحالفت قريش ضدَّهم ، وكتبوا صحيفة تنص على مقاطعتهم ، وهي مشهورة. انظر سير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٣٢ ترجمة ٥١.

وقضى عبد الله بن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ طفولته قريباً من الرسول ﷺ ، فلم تمضِ ثلاث سنوات على ميلاده إلاّ وقد أسلم أبوه العباس بن عبد المطّلب بعد غزوة بدر ، وأصبح مكسباً عظيماً للإسلام.

فقد شارك العباس بن عبد المطَّلب المشركين في غزوة بدر ، وأُسر في هذه المعركة ، وسيق أسيراً إلى رسول الله ﷺ ، وقد أصبح صلوات الله وسلامه عليه بنعمة الله كبير المنزلة بين أتباعه ، سيداً ، مطاعاً ، مُكَرَّماً.

وبينما هو في الأسر وقد آلمه ما أصاب سليل عبد المطلب بن هاشم أكرم رجال العرب ، وجدّه هاشم ، الذي سميّ باسم هاشم لأنه كان يضرب الخبز الجاف فيهشِّمه ، ويقدِّمه طعاماً للجياع من زوّار بيت الله في مكة ، وتشرَّف بالسقاية والرّفادة في الكعبة ، فأطعم الطعام على حبّه ، وأصبح شريفاً في قومه بعد عِزٍّ سابق. أَيُعْقَل أن يكون ابن الأكرمين أسيراً ذليلاً؟.

بينما هو يحدّث نفسه بكل هذه الفضائل جاء رجل من المسلمين ، وقد آلمه ما أصاب عمَّ النبي ، ومدَّ يده يخفّف قيوده التي وُثِّقَ جسمه بها ، إلاّ أنَّ رسول الله ﷺ ، أبَى أن يفوز عمُّه بميزة يتميّز بها عن أسرى بدر ، وأمر بالمساواة بين الجميع فكلّهم أسرى. وبدأ عليه الصلاة والسلام يضرب المثل للناس ليريهم كيف يكون العدل في الإسلام ، فلا تؤثر نفس على نفس ، ولا فضل لرجل على آخر إلاّ بالتقوى.

ولم ينتظر العباس طويلاً ، ولم يترك لنفسه العنان في تعصّب الجاهلية الأولى ، وإنما انصرف إلى السعي للدين الجديد ، وأعلن إسلامه فأكمل بذلك دوره في يوم العقبة ، ومؤازرته لابن أخيه لم تكن عصبية قبلية؛ بل أصبحت اليوم مدفوعة بالإيمان ، مغمورة بالتقوى ، فبارَكَ اللهُ له في الذرية ، ومَنَّ الله تعالى عليه بولده عبد الله على كهولة ، فقد بلغ من العمر دهراً طويلاً ، وها هو وليده الصغير عبد الله يكبر ويترعرع ، وقد توفيّ رسول الله ﷺ بَعْد أنْ بَلَغَ عبد الله بن العباس ثلاث عشرة سنة أو تزيد قليلاً.

ويتحدّث ابنُ عباس عن لقائه بالرسول ﷺ فيقول: مسح النبيّ رأسي، ودعا لي بالحكمة.

ويقول أيضاً: «أقبلت على أَتَانٍ، وقد ناهَزْتُ الاحتلام، ورسول الله ﷺ يصلّي بالناس بمِنى فمررت بين يدي الصف، فنزلتُ فأرسلتُ الأتانَ ترتعُ، ودخلتُ في الصف. فلم ينكر ذلك عليَّ أحد»[1].

وكان هذا الموقف الذي ذكره عبد الله بن عباس في حجّة الوداع قبل وفاة الرسول ﷺ.

كان عبد الله بن عباس فتىً، أبيضَ، طويلاً، مُشْرباً حُمرة، جسيماً، مملوء الجسم، وسيماً في هيئته، صبيح الوجه، أطلق لحيته، ومَن يراه ينطبع في نفسه وقار وهيبة[2].

ويصفه تلميذه عطاء بن أبي رباح شيخ مكة وفقيهها، فيقول في مجلس صَحْبِهِ، وقد تذاكر الجمعُ ابنَ عباس، يقول عطاء: ما رأيتُ القمر أربعَ عشرة إلاّ ذكرتُ وجهَ ابنِ عباس.

نال عبد الله شَرَفَ الصلاة خلف رسول الله ﷺ، وكان يضع له وضوءه، يقول الفتى عبد الله بن عباس: وضعت لرسول الله ﷺ وضوءاً فقال: «اللَّهمّ فقّهه في الدِّين، وعلِّمه التأويل»[3].

ونغبط حبر هذه الأمة وعالمها الكبير عندما نسمع هذا الحديث الشريف الطيب على لسانه الطيب. يقول عبد الله بن عباس: كنتُ مع أبي عند النبيّ ﷺ، وكان كالمُعْرِض عن أبي، فخرجنا من عنده فقال:

ألم تر ابن عمّك كالمعرض عني؟.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (١/ ٥٧١)، ومسلم في الصلاة (٥٠٤)، والموطأ (١/ ١٥٥) في قصر الصلاة.

(٢) هذا الوصف أورده الذهبي من رواية عبد الله بن منده، سير أعلام النبلاء ج٣ ص ٣٣٦.

(٣) المصدر السابق ص ٣٣٦.

فقلت: إنَّه كان عنده رجلٌ يناجيه.

قال أبي: أو كان عنده أحدٌ؟.

قلت: نعم، فرجع إليه، فقال: يا رسول الله، هل كان عندك أحدٌ؟.

فقال لي: «هل رأيته يا عبد الله؟».

قال أبي: نعم رآه يا رسول الله.

قال عليه الصلاة والسلام: «ذاك جبريل شغلني عنك»[1].

## مكانته عند عمر بن الخطاب

كان ابن عباس رضي الله عنه كثير التعظيم لحرمات الله، وكان ـ رحمه الله ـ يلقّب بالحبر والبحر لكثرة علمه، وقد كان على درجة عظيمة من الاجتهاد، عارفاً بمعاني كتاب الله تعالى، ولذا انتهت إليه الرئاسة في الفتوى، حتى إنّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يُجلسه في مجالس كبار الصحابة، ويقرِّبه منه، وكان دائم الحديث عنه، والثناء على علمه وفقهه. حتى إنه قال ذات مرة لابن عباس:

يا عبد الله، إنّك لأصبح فتياننا وَجْهاً، وأحسنهم خُلُقاً، وأفقههم في كتاب الله.

ثم يضيف عمر وقد نظر إلى مَن حوله:

ذاكم فتى الكهول، إنَّ له لساناً سؤولاً، وقلباً عقولاً.

ولم يكن هذا الحكم الذي أورده عمر من فراغ، وإنما بناه على رؤية نافذة وفراسة اشتهر بها أمير المؤمنين الفاروق عمر، فابن عباس شديد الأدب جمّه، حتى إنَّه من فرط أدبه وشدّة حيائه، سأله عمر ذات مرة في مجلس الصحابة، فبادره قائلاً: لا أتكلّم حتى يتكلَّموا.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٩٣، ٢٩٤)، وانظر البلاذري (٣/ ٢٨).

وكان عمر رضي الله عنه يأخذ برأي ابن عباس مع حداثة سِنّه ، وكان إذا جاءته الأقضية الصعبة قال لابن عباس: إنّها قد طرأت علينا أقضية معضلة[1]؛ فأنت لها ولأمثالها[2].

وقد تحفَّظ بعض المهاجرون الأجلاَّء من إدناء عمر وتقريبه لابن عباس منه دونهم ، فلما رأى عمر ذلك في وجوههم قال لهم:

أمّا إنِّي سأُريكم اليوم منه ما تَعرفُون فضلَه ، وبادرهم بالسؤال قائلاً: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟.

فقال بعضهم: أمر اللهُ نبيَّهُ إذا رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً أنْ يحمده ويستغفره.

فقال عمر: يا بن عبَّاس ، تكلّم.

فقال ابـن عباس: أَعْلَمَه متى يموت ، فهو أَجَلُ رسول الله ﷺ ، أعلمه الله له.

ثمّ أضاف: إذا جاءَ نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك ، فسبِّح بحمد ربّك واستغفره إنه كان توّاباً.

فقال عمر: ما أعلم منها إلاَّ ما تعلم[3].

هكذا كان ابن عباس يفسّر ويفتي وهو شاب في مقتبل العمر ، يُدنيه خليفةُ رسولِ الله عمر الفاروق ، وهو المشهور بعدله واجتهاده ، وحبّه لله ولرسوله وللمسلمين أجمعين.

---

(١) «معضلة»: أي صعبة ومعقّدة.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ، سيرة عبد الله بن عباس.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي رقم (٤٢٩٤) و(٤٤٣٠) ، وفي التفسير رقم (٤٩٦٩) و(٤٩٧٠).

## آراء الصحابة والفقهاء في ابن عباس

أثنى الفقهاء من صحابة رسول الله وتابعيهم بإحسان على نبوغ هذا الفتى الهاشمي عبد الله بن عباس ، فيقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «نِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس»[1] .

ويثني عليه تلميذُه عطاء بن أبي رباح واصفاً مجلسه فيقول: «ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس ، أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم من واد واسع».

ويصف رجل آخر حديث عطاء عن شيخه ابن عباس فيقول:

«يأذن ابن عباس في منزله بالدخول على مراحل؛ يبدأ بالسائلين عن القرآن وحروفه ، ثم يأذن بعد ذلك للسائلين عن تفسير القرآن وتأويله ، ثم للسائلين عن الحلال والحرام وأحكام الفقه ، ثم يأذن للسائلين عن الفرائض ، فالسائلين عن اللغة والشعر والغريب من الكلام».

وفي نهاية الجلسة: «يأذن للسائلين عن أشياء أخرى متفرقة ، يدخلون جماعات وفُرادى ، حتى يمتلىء البيت عن آخره بالناس . حتى أصبح هذا الأمر عجباً ، لم يُرَ مثله من قبلُ لصحابي أو فقيه ، في عصره الذي عاش فيه».

وقد قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ـ أحد فقهاء المدينة السبعة ـ عن ابن عباس: كان ابن عباس قد فاق الناس بخصال تتمثّل بعلم مَنْ سبقه ، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه ، وحلم ونسب ، وتأويل ، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أفقه في رأي منه ، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه ، ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلَّا الفقه ، ويوماً التأويل ، ويوماً

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ ص ٣٦٦ .

المغازي ، ويوماً الشعر ، ويوماً أيام العرب ، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلاَّ خضع له ، وما رأيت سائلاً قط سأله إلاَّ وجد عنده علماً[1].

وجاء يوماً مَن يقول لطاووس بن كيسان ـ وهو أحد الموالي ممن تعلَّموا وتخرَّجوا من مدرسة ابن عباس في مكة ـ: لزمتَ هذا الغلام ـ يعني ابن عباس ـ ، وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ؟!.

قال طاووس: إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارؤوا[2] في أمر صاروا إلى قول ابن عباس.

وقد بُني هذا الرأي على علم واسع لابن عباس؛ فقد كانت حياته حياة علمية ، متعمِّقة. يقول هو عن ذلك الأمر: إن كنتُ لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ[3].

ونترك الحسن بن عليّ يتحدّث عن ابن عباس فيقول:

«كان ابن عباس من الإسلام بمنزل ، وكان من القرآن بمنزل ، وكان يقوم على منبرنا هذا فيقرأ البقرة وآل عمران ، ويفسرّهما آيةً آية»[4].

إنه صاحب لسان طليق ، وقلب عاقل تقيّ.

وقد أجمل العلماءُ المفسرون[5] أسبابَ نبوغ ابن عباس وشهرته العلمية إلى أسباب عديدة ، منها:

١ ـ دعاءُ النبي ﷺ له بقوله: «اللَّهم علِّمه الكتاب والحكمة» ، وقد استجاب الله تعالى لهذه الدعوة فيما جاء من علم ابن عباس في تفسيره للقرآن.

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي (١/ ٦٦).
(٢) «تدارؤوا»: أي اختلفوا.
(٣) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٤٤ ترجمة ٥١ ابن عباس.
(٤) الحلية ج١ ص٣١٨.
(٥) انظر: التفسير والمفسرون ، د. محمد حسين الذهبي ج١ ، ص٦٦ ، ٦٨.

٢ ـ أنَّه كان ملازماً لكبار الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بعد وفاة النبيّ ﷺ ، فأخذ عنهم ، وروى ، وعَرفَ مواطن نزول القرآن ، وأدرك بداية التشريع وأسباب النزول.

٣ ـ أن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنه ـ نشأ في بيت النبوّة ، ولازم النبيّ ﷺ ؛ فكان يسمع منه الكثير ، وقد أصبح يدرك ما يسمع ، وشهد كثيراً من الحوادث والظروف التي نزلت فيها بعض آيات القرآن.

٤ ـ أن ابن عباس حدَّث عن نفسه وأسباب نبوغه ، ومن ذلك علاقته الطيّبة بالأنصار ، وغزارة ما حفظوه من حديث الرسول ﷺ ، فيقول:

«وجدتُ عامة حديث رسول الله ﷺ عند الأنصار ، فإني كنت لآتي الرجل فأجده نائماً ، ولو شئتُ أن يُوقَظَ لي لأوقظ ، فأجلس على بابه تسفي الريحُ على وجهي الترابَ[1] ، حتى يستيقظ متى ما استيقظ ، فأسأله عما أريد ثم انصرف».

٥ ـ وكان من أسباب نبوغ ابن عباس حفظه لقواعد لغته وفهمه لها ، ومعرفة آدابها ، وخصائصها ، وأساليبها ، وكثيراً ما كان يستشهد للمعنى الذي يفهمه من لفظ القرآن بأبيات من الشعر العربي.

٦ ـ لقد بلغ ابنُ عباس مكانةً عظيمة في الاجتهاد ، وتميّز بجرأة الرأي وشجاعة في الحق ، وقد أثارت جرأته هذه نقاشاً بينه وبين أصحابه من أصحاب رسول الله ، كانت تنتهي دائماً بالاعتراف بمبلغ علمه ، وقد تكون شهادة صاحبه عبد الله بن عمر مثالاً نورده هنا في هذا الصدد ، فقد روي أن رجلاً أتى عبد الله بن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[2].

فقال عبد الله بن عمر للسائل: اذهب إلى ابن عباس ثم تعال أخبرني ،

---

(١) «تسفي الريح التراب»: تذروه وتحمله.

(٢) من الآية ٣٠ من سورة الأنبياء.

فذهب الرجل وطرح السؤال على حبر الأمة وفقيهها عبد الله بن عباس فأجابه قائلاً: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه[1] بالمطر، وهذه[2] بالنبات.

فرجع الرجل إلى عبد الله بن عمر فأخبره بإجابة ابن عباس فقال ابن عمر:

كنت أقول دائماً: ما تعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنّه أُوتي علماً.

هكذا شهد له حتى مَن اختلفوا معه في الرأي من علماء الصحابة الأجلّاء، الذي كانوا على رأس الفقه والتفسير في عصره، وكيف لا يكون ابن عباس حبر الأمة وهو من أهل بيت رسول الله ﷺ؛ الذي تفتّحت عيناه على رؤيا الحبيب المصطفى والسماع منه ومن أصحابه الأجلّاء ـ رضوان الله عليهم ـ.

## صفاته وشمائله

تربّى ابنُ عباس تربيةً هاشمية فاضلة، في بيت فاضل، ففي بيت النبوّة ترعرع، وتحت رعاية أب مسلم شريف في قومه، عزيز على رسول الله ﷺ، وفي أحضان أمّ الفضل زوجة العباس الفاضلة الراوية صاحبة المآثر المعروفة.

من كل هذه المشارب الرطبة بالإيمان، النضرة بالتقوى والصلاح، تشكّلت الشمائل والصفات، وصَقَلها الإيمان العظيم، والخشوع الصادق المسبِّح بحمد الله سبحانه.

ولنسمع العباس بن عبد المطلب ينصح فتاه فيقول:

«يا بني، إنَّ عُمر يُدنيك، فاحفظ عني ثلاثاً:

(١) أي: السموات.

(٢) أي: الأرض.

* لا تفشين له سِرّاً ،

* ولا تَغْتابَنَّ عنده أحداً ،

* ولا يُجرِّبَنَّ عليك كذباً»[1].

وقد تحدّث الرواة عن نتائج هذا التوجيه ، وتلك الشمائل فاستفاضوا ، وأكثروا من ذلك.

وممّا يروى عن خُلُقه الرفيع ، أنَّه رأى زيد بن ثابت الأنصاري أحد الصحابة الأجلَّاء ، وكاتب الوحي لرسول الله ﷺ ، رآه يهمُّ بالركوب ، فأمسك فَرَسه تكريماً له ، واحتراماً لِقَدْرِهِ ، وإجلالاً لعلمه.

فجاءت كلمات زيد بَرْداً وسلاماً ، تواضعاً وإكراماً ، قال زيد رضي الله عنه: تنحَّ يا بن عمِّ رسول الله[2]!.

فقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: هكذا أُمِرنا أن نفعل بعُلمائِنا وكُبَرائنا.

لقد تبادل العالمان الجليلان والصحابيان الكريمان أدب الصحبة ، ووقار العلم والعلماء.

كان ابنُ عباس كريماً جواداً ، حتى قال أحد أصحابه: ما رأيت بيتاً أكثر خبزاً ولحماً من بيت ابن عباس.

وها هي الأيام تدور دورتها ، ويُـرَدُّ العمل الطيب بمثله عملاً طيّبـاً ، فكل المسلمين يعلمون تمام العلم ما فعل أبو أيوب الأنصاري عند دخول رسـول الله ﷺ المـدينـة المنـوّرة يـوم الهجـرة ، وكيـف فتـح بيتـه مـرحّبـاً برسول الله ﷺ ، وفي عهد معاوية يشكو الصحابي الجليل أبو أيوب ديناً ، فيطلبه من معاوية ، فلا يجد لطلبه إجابةً سريعةً ، فنزل البصرة وقد كان ابن عباس يسكنها ، وشكا له دَينه ، فقال ابن عباس لأبي أيوب الأنصاري: لأصنعنَّ بك كما صنعتَ برسول الله ﷺ ، ثم بادره قائلاً: كم دَينك؟.

---

(١) الحلية لأبي نعيم ج١ ص ٣١٨ ، وسير أعلام النبلاء ج٣ ص ٣٤٦.

(٢) أي: اترك هذا عنك.

قال أبو أيوب: عشرون ألفاً.

فأعطاه ابن عباس أربعين ألفاً، وكل ما في البيت(١).

وكان أحد أصحابه يقول: إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا نطق وتكلّم قلت: أفصح الناس، فإذا حدَّث بعلم قلت: أعلمُ الناس(٢).

كان ابن عباس يسعى في حاجة الناس عملاً بسُنَّةِ الرسول ﷺ، وممّا رُوي في ذلك أنه كان يعتكف في مسجد رسول الله ﷺ يتعبّد، ويختلي بذاته، فجاءه رجل فسلّم عليه، ثم جلس إلى جواره مكتئباً حزيناً!!.

فبادره ابن عباس بالسؤال: لِمَ أراك حزيناً مهموماً؟.

قال الرجل: إنني مدين، ولا أستطيع الوفاء بديني.

فقال ابن عباس: أتريد أن أُحدِّث الدائن حتى يمهلك حتى تخرج من عسرتك إلى يُسر إن شاء الله.

فأطرق الرجل خجلاً وقال: إن أحببت.

فخرج ابنُ عباس يمشي في حاجة صاحبه، تاركاً اعتكافه وتعبّده.

فقال له الرجل: يا بن عم رسول الله، أنسيتَ ما كنتَ فيه من اعتكاف وتعبُّد؟.

فقال ابن عباس رضي الله عنه: لا، لم أَنْسَ واجبي، وإنما سمعتُ صاحب هذا القبر ﷺ يقول: «مَن مشى في حاجة أخيه، وبلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين».

رحم الله ابن عباس، فليس في وسع أوراقنا أن تحصر شمائله، وصفاته الجليلة، إنما نذكر صاحباً له في سَفَر من مكة إلى المدينة يقول: «صحبتُ ابنَ عباس من مكة إلى المدينة، فكان يصلِّي ركعتين، فإذا نزل قام شطر

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٥٢.

(٢) القائل مسروق بن الأجدع، وانظر أنساب الأشراف للبلاذري ص ٣٠.

الليل ، ورتَّل القرآن حرفاً حرفاً ، وأكثر في ذلك من البكاء والنشيج والنحيب»[1] .

كان صوَّاماً ، ولمَّا سُئلَ: كيف صومك؟ قال: أصوم الإثنين والخميس قيل: ولِمَ؟ قال: لأن الأعمال كلّها تُرفع فيهما ، فأُحب أن يُرفع عملي وأنا صائم.

## شيخ المفسِّرين

«إذا فسرَّ ابن عباس الشيء رأيت عليه نوراً».

هذه الكلمة الرقيقة قالها أحد تلاميذ ابن عباس ، وهو مجاهد ، وهي تدلّ على قيمة ابن عباس في تفسير القرآن .

ونذكر قولاً آخر على سبيل المثال لخليفة رسول الله علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يتحدّث عن ابن عباس المفسِّر فيقول: «كأنَّما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق».

وقد رجع بعض الصحابة وكثير من التابعين إلى عبد الله بن عباس في فهم ما أُشكل عليهم من كتاب الله ، وكثيراً ما ذهب إليه الناس ليزيل شكوكهم ، ويوضّح لهم ما صَعُبَ عليهم فهمه من كتاب الله عزَّ وجلَّ.

وقد ضرب في هذا الشأن مثلاً من قصة موسى مع شعيب ، حينما تساءل الناس: أي الأجلين قضى موسى؟ هل كان ثماني سنين؟ أو أنّه أتمّ عشراً؟ وذهب الناس إلى ابن عباس حبر الأمة ، وترجمان القرآن كما وصفه ابن عمر ، ولنترك سعيد بن جبير يقصُّ لنا هذا الحوار ، قال ابن جبير: قال يهودي بالكوفة وأنا أتجهّز للحج: إني أراك رجلاً تتبع العلم ، فأخبرني أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم ، وأنا الآن قادم على حبر العرب

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٥٢.

ـ يقصد ابن عباس ـ. وفي مكة سأله سعيد بن جبير عن ذلك فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن النبي إذا وعد لم يخلف ، فقال سعيد بن جبير: فقدمت العراق فلقيت اليهودي فأخبرته فقال: صدق وما أنزل على موسى ، هذا والله العالم(١).

ونتقل الآن إلى مجلس عمر بن الخطاب لنلقي الضوء على مدرسة ابن عباس في التفسير ، هذا عمر بن الخطاب يسأل عن معنى آية كريمة هي: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾(٢).

فما وجد عمر إجابة شافية له عند أحد ، فتقدّم ابن عباس من خليفة رسول الله عمر وقال:

يا أمير المؤمنين؛ إني أجد في نفسي منها شيئاً ، فتلفّت إليه فقال: تعال هنا ، لِمَ تحقّر نفسك؟.

قال ابنُ عباس: هذا مَثَلٌ ضربه الله عزَّ وجلّ فقال: أيودّ أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة ، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فني عمره واقترب أَجَلَهُ ، ختم ذلك من عمل أهل الشقاء فأفسده كله ، فخرقه أحوج ما كان إليه؟(٣).

هكذا كان ابن عباس يغوص ويتعمّق في المعاني ، فقد آتاه الله بصيرة العالم ، وحكمة البصير ، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ الآية.

وقد ذكرنا آنفاً تفسيره لسورة النصر ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ بأنها تحديد لدنو أجل الرسول ، فعليه أن يستغفر الله كثيراً ، وقد كان لهذا المعنى دلالة عميقة في نفوس مَن سمع هذا التفسير.

ومن أطرف ما قاله حبر الأمة ابن عباس ، معانٍ نعيشها في عصرنا هذا ، عندما قال: في القرآن معانٍ سوف يفسّرها الزمان ، وها نحن نرى في

---

(١) تفسير الطبري ج٢ ص ٤٣.
(٢) الآية ٢٦٦ من سورة البقرة.
(٣) تفسير الطبري ج٢ ص١٨٣.

زماننا ، من آيات الله في الآفاق ، ما أثبته العلم ولم يكتشفه؛ لأنه موجود ومثبت في الكون ، ولكن الأمر يتعلّق بإيمان الناس وتقواهم.

وممّا يذكر عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يرجع إلى الشعر الجاهلي في فهم غريب القرآن ، وهذا دليل على تمكّنه من اللغة ، وقد نهج هذا المنهج بعض الصحابة أيضاً.

وهذا هو عمر بن الخطّاب يسأل أصحابه عن معنى قول الله تعالى في سورة النحل: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[1]. فيجيبه أحد شيوخ مجلسه قائلاً: هذه لغتنا ، فالتخوّف: التنقص.

فيقول له عمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟.

فيقول الرجل: نعم يا أمير المؤمنين ، ويروي قول الشّاعر ابن مقبل:

تَخَـوَّفَ الـرَّحْـلُ منهـا تـامِكـاً قَـرِدَاً ... كَما تَخَوَّفَ عُود النَّبْعةِ السَّفَنُ[2]

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلّوا.

قالوا: ما ديواننا؟.

قال: شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ، ومعاني كلامكم[3].

وقد يكون المقصود بالرجوع إلى الشعر الألفاظ وتراكيبها اللغوية لا المعاني بصفة خاصة ، وأحسب أن قصّتنا هذه تطالب المفسّر بلغة عربية عميقة رصينة ، ليس لها حدٌّ يذكر ، ولا مدى يقف المفسّر عنده.

وامتاز حبر الأمة ابن عباس بهذه الصّفة ، واشتهر بها ، فكثيراً ما كان يجيب عن سؤال في التفسير بأبيات شعرية ، وروي عنه الكثير من ذلك؛

---

(١) الآية ٤٧.

(٢) «السَّفَن»: الحديدة ، التي تُبْرَدُ بها القِسيُّ ، أي تَنقّص كما تأكل هذه الحديدة خَشَب القِسِيّ ، وكذلك التَّخْويف.

(٣) هذه الرواية أوردها الذهبي في التفسير والمفسرون ج١ ص٧٤ ، وقد نقلها عن الموافقات ج٢ ص٨٨.

حتى ذكر أنها بلغت مئتي مسألة ، ومنها على سبيل المثال: سؤال نافع بن الأزرق عن الآية ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾[١].

قال ابن عباس: العزون: حِلَق الرفاق.

فقال نافع: وهل تعرف العرب ذلك؟.

قال ابن عباس: نعم ، أما سمعت قول الشاعر:

فجاؤوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا؟

فقال نافع: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾[٢].

قال ابن عباس: الوسيلة: الحاجة.

قال نافع: وهل تعرف العرب ذلك؟.

قال ابن عباس: نعم ، أما سمعت قول عنترة:

إنَّ الرجالَ لهم إليكِ وسيلة إن يأخذوكِ تكحّلي وتخضّبي

هذه هي اللغة في التفسير ، ومكانتها لدى المفسرين وقد دلّت هذه الشواهد على قوة فهم حبر الأمة ، وشيخ المفسّرين فيها ، وإلمامه بكل أسرارها؛ لأن القرآن نزل عربياً ، وقد أُرجعَ له الفضل في الطريقة اللغوية لتفسير القرآن[٣].

ونحن نثبت هذا كجزء من سيرة حبر الأمة ، ولا شأن لنا باختلاف بعضهم مع ابن عباس في هذا الشأن ، ولكن ما يجب أن نثبته هنا أن ابن عباس كان من شيوخ المفسرين وقد نسب إليه جزء كبير من تفسير القرآن ، وله الفضل في علوم التفسير والرواية والحديث ، وقد تميّز تفسيره بقيمة علمية أثنى عليه معاصروه ، وعلماء التفسير فيما بعد.

---

(١) الآية ٣٧ من سورة المعارج.

(٢) الآية ٣٥ من سورة المائدة.

(٣) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ، تعريب علي حسن عبد القادر ص ٦٩.

## في وداع حبر الأمة

أنشد ابن عباس قائلاً:

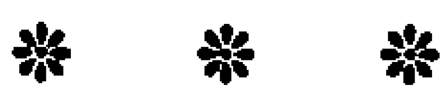
إن يأخذِ اللهُ من عينيَّ نُورَهُما ... ففي لساني وقلبي منهما نُورُ
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دَخَلٍ ... وفي فمي صارِمٌ كالسيف مأثورُ(1)

فَقَد ابن عباس بصره في أواخر حياته، وقال الأبيات السابقة. ويذكر الناس أنه في أواخر أيامه، ترك ولاية البصرة التي ولاّه عليها علي بن أبي طالب، وعاد إلى الحجاز، ونزل الطائف حيث كانت له بساتين عنب تركها له والده.

وكان كلّما مرَّ الناس ببيته في أواخر حياته رأوا أفواجاً من طلاب العلم وقد امتلأت بهم داره عن آخرها، وبجانبه دار أخيه عبيد الله بن العباس وقد ازدحمت بالناس الجياع طالبي الطعام، وقد جلسوا حول الموائد يتناولون الطعام، فيقول الناس: هذان ابنا عباس، أحدهما يفقّه الناس، وهو عبد الله شيخنا، والآخر يُطْعِم الناس، وهل بعد عملهما هذا في الدنيا عمل طيّب يذكر لأحد؟!.

ومات ابن عباس في العام الثامن والستين للهجرة، وقد حزن الناس وآلمهم موت فقيدهم حبر الأمة وشيخها، وقد احتوى مسنده ألفاً وستمئة وستين حديثاً، منها في الصحيحين خمسة وسبعون حديثاً، وتفرّد البخاري له بمئة وعشرين حديثاً، وتفرّد مسلم بتسعة أحاديث.

رحم الله حبر الأمة، ونضَّر الله قبره برياض الجنة، وجمعنا وإيّاه في رحاب الصدّيقين والشهداء.



---

(1) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٥٧، وابن عبد البر (٢/٣٥٦).

# (٢)

# عبـد الله بـن عـمـر بـن الـخطـاب

## فـي الـبـدء كـلـمـة

قال رسول الله ﷺ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عبد الله لو كان يُصَلِّي مِنَ الليل»(١).

هو الإمام، القدوة، شيخ الإسلام، عبد الله بن عمر، سمع هذا الحديث من رسول الله ﷺ، فكان بعد هذا لا ينام من الليل إلاّ القليل.

عبد الله بن عمر هذا مِمَّن بايع الرسول ﷺ تحت الشجرة، فكان من زمرة طيبة نزل فيها قولُ الله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(٢).

وتعاهد عبد الله الشجرة المباركة بعد وفاة رسول الله ﷺ بالري؛ فكان يصبُّ في أصلها الماء لكيلا تجفّ وتموت.

رَوَى ابنُ عمر علماً نافعاً كثيراً عن النبي ﷺ، وأصحابه الأجلاّء، وأصبح فقيهَ المسلمين، أسلم غلاماً صغيراً، وحاول أن يحمل سلاح الجهاد وهو غلام صغير، إلاّ أن رسول الله ﷺ منعه حتى يشتدّ عوده ويصبح فارساً بحق، ولم تمضِ سنوات حتى شارك عبد الله بن عمر المسلمين في جهادهم، ولم يقتصر جهاده على السيف، وإنما جاهد بالقلم أيضاً، ولنبحر في سيرته بعد هذه الكلمات.

## بـطـاقـة تـعـريـف

**نسبه:**

هو عبد الله بن عُمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزّى بن رباح بن

---

(١) أخرجه البخاري ٣/٦ في التهجد، باب: فضل قيام الليل، ومسلم ٢٤٧٩.

(٢) سورة الفتح الآيات ١٨، ١٩.

قُرط بن رزاح ، ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب. أبو عبد الرحمن القرشي العدوي المكي ، ثم المدني. الإمام القدوة ، وشيخ المسلمين[1].

أمّه زينب بنت مظعون ، أخت عثمان بن مظعون الجمحي ، وهي أم السيدة حفصة بنت عمر أم المؤمنين وزوج رسول الله ﷺ ، وُلِدَ سنة ثلاث من المبعث النبوي.

**نشـأتـه:**

كان عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ منذ مطلع شبابه تَقِيّاً وَرِعاً ، فيه عفّة الفاروق عمر بن الخطاب ، وعزّ بيوت قريش.

أسلم ابنُ عمر طفلاً صغيراً ، وشارك في الهجرة وقد بلغ من العمر عشر سنين ، وكان ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ أملك شباب قريش في الدنيا.

نشأ الفتى القرشي على تتبّع آثار رسول الله ﷺ في كل مكان يصلي فيه ، حتى تتبّع أثر الشجرة التي بايع تحتها الرسول ﷺ ، فحافظ عليها بالري حتى لا تجف أوراقها.

حَسُنَ إسلامُ الإمام ، وضرب مثلاً في التّقوى ، فكان بحق عالم الأمة وفقيهها الخيِّر الخاشع ، كان القرآنُ يملكُ كلّ فؤاده ، حتى إنّه كلّما تُليت آياته عليه بكى من خشية الله ، فها هو يسمع آية كريمة يتلوها عليه أحد شيوخ المسلمين ، تقول الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾[2].

كان ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ كلّما سمع هذه الآيات بكى بكاءً شديداً حتى ابتلّت لحيته من كثرة الدموع ، فراح رجل يقول للقارىء: أقْصِرْ ، فقد آذيت الشيخ[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢٠٤.

(٢) الآية ٤١ ، ٤٢ من سورة النساء.

(٣) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢١٤ ، والقارىء هو عبيد بن عمير ، والراوي ابنه عبد الله.

ومع القرآن كان يعيش ، وبه كان يشقّ طريقه ، فكان ليله الخاشع ويومه المودّع ، ونترك نافع مولى ابن عمر يتحدّث عن سيّده فيقول :

كان ابن عمر إذا قرأ : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[١] بكى حتى يغلبه البكاء .

ويقال لنافع : ما كان يصنع ابن عُمر في منزله؟

فيجيب قائلاً : لا تطيقونه[٢] ، لا تطيقونه! ! ترى ماذا يقصد نافع من هذه الكلمة؟ .

يقول : الوضوء لكل صلاة ، والمصحف فيما بينها[٣] .

ثمّ يضيف نافع قائلاً : كان إذا فاتته العشاء في جماعة ، أحيا بقية ليلته ، وكان لا يصوم في السفر ، ولا يكاد يفطر في الحضر .

هكذا كان ابن عمر على لسان أحد مواليه ، والذي يعدّ أكثر الرواة عنه .

## من صفاته

كان كريماً جواداً ، ومن قصص جوده ومواقف كرمه الكثير ، أنه كان يبيع أرضاً يملكها بمئتي ناقة ، فيهَب مئة منها لرجال جاهدوا في سبيل الله عزّ وجلّ؛ لأن السخاء في طبعه ، والكرم متأصّل في نفسه .

وممّا روي عن كرمه أيضاً ، أنّهُ ـ رضوان الله عليه ـ كان مريضاً ، فاشتهى عِنباً يأكله فطلب من غلامه «نافع» أن يبتاع له عنقوداً بدرهم ، ولما اشترى نافع العنب ، وهمَّ عبد الله أن يأكله ، جاءه سائل مسكين يسأله .

---

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد .
«ألم يأنِ» : ألم يَحِنْ وقت . «أن تخشع» : أن تخضع وترقّ وتلين .
«الأمد» : الأجَل أو الزَّمان .

(٢) «لا تطيقونه» : أي لا طاقةَ لكم باحتمال ما يصنعه .

(٣) ابن سعد ج٤ ص١٧٠ .

فقال ابن عمر: أعطوه عنقود العنب.

فأخذ السائل عنقود العنب وباعه بدرهم، ثم اشتراه نافع مرة أخرى من الشاري بدرهم.

ويعود السائل يسأل ابنَ عمر حاجةً، فيعطيه عنقود العنب.

وتكرّر المشهد مرات ومرات، فغضب نافع وبادر الرجل قائلاً: وَيْحَكَ أما تَستَحي؟ واشترى نافع العنقود للمرّة الأخيرة وقدّمه إلى ابن عمر، فأكله دون أن يعرف ما حدث مع السائل، وما دار بينه وبين نافع مولاه.

ولم يكن الكرم في الطعام والشراب هو منهج ابن عمر، وإنما ضرب مثلاً في قيام الليل وصلاة النوافل والتهجد.

فكان كلَّما تذكر حديث رسول الله ﷺ «نِعْمَ الرَّجلُ عَبْدُ الله لَوْ كان يُصَلِّي مِن اللَّيْل»[1]؛ انطلق يجتهد في قيامه وصلاته.

ويروي أحد معاصريه قصة جهاده هذه في قيامه الليل فيقول: «إنّ ابنَ عُمر كان له مكان فسيح فيه ماء، فيصلي فيه ما قُدِّر له، ثم يصير إلى الفراش، فيغفو إغفاءة الطائر، ثم يقوم فيتوضّأ ويصلي، يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمساً»[2].

وقد استفاد من غيره كثيراً؛ علماً وتبحراً، وسمع الأشباه والنظائر ووعاها، في تواضع جمّ، وأدب عظيم، وذلك أنه كان في يوم من الأيام إذ خرج عبد الله بن دينار مع ابن عمر إلى مكة، فمكثا هناك فترة من الزمن، وجارهم راعٍ من الجبل، فبادره ابن عمر بالسؤال: أراعٍ أَنت؟

قال الراعي: نعم.

فقال ابن عمر: بِعْني شاةً مِن الغَنَم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ج٣ ص٢١٥ ترجمة رقم ٤٥.

قال الراعي: إني مملوك[1].

فقال ابن عمر: قُلْ لسيدك أكلها الذئب.

قال الراعي: فأينَ الله عزّ وجلّ؟.

قال ابن عمر في حسرة وندم على ما قال: فأين الله؟ فأين الله! ثم راح ينشج في بكاء مؤلم، ونحيب طويل، وبعد هذه اللحظات الخاشعة، اشترى ابن عمر رضي الله عنه الراعي من سيّده، ثم أعتقه، واشترى له الغنم الَّتي كان يرعاها[2].

ومن صفات ابن عمر أيضاً تواضعه كعالم وفقيه، وتأنّيه، وعدم تسرّعه في الفتوى؛ لإحساسه بقيمة مسؤولية ما يخرج من لسانه، فيأخذه الناس عنه.

ففي ذات يوم جاءه رجل، وعرض عليه مسألة، فأطرق ينظر إلى الأرض، صامتاً، ولمّا طالت هذه الحالة ظنّه سائله أنّه لم يسمع مسألته؛ فكرّر سؤاله عليه، قائلاً: يرحمك الله يا بن عمر أما سمعتَ كلامي؟.

فأجاب عبد الله بن عمر في تأنٍّ ورويّة قائلاً: بل سمعت ما قلت، ولكنكم كأنكم ترون أن الله ليس بسائلنا عمّا تسألونا عنه، اتركنا ـ يرحمك الله ـ حتّى نتفهم في مسألتك.

وكان عندما يخرج من داره لا يترك كبيراً ولا صغيراً حتى يصافحه، فأحبَّه الناس وحمدوا فيه صفة التواضع.

ومن مواقف ابن عمر التي تدلّ على تواضعه ما رواه أحد معاصريه عندما قال: رأيتُ على ابن عمر ثياباً خشنة، فقلت له: إني قد أتيتُكَ بثوبٍ لَيِّن مما يُصنع بخراسان، وتقرّ عيناي أن أراه عليك.

فقال ابن عمر: أَرِنيه، فجاء به الرجل فلمسه ابن عمر وقال: أحريرٌ هذا؟.

---

(١) أي أعمل أجيراً عند صاحب الغنم.

(٢) المصدر السابق ج٣ ص٢١٦.

قال الرجل: لا ، إنّه من قُطْن.

قال ابن عمر: أخاف أنْ أَلْبَسَه ، أَخاف أن أكون مختالاً فخوراً ، والله لا يحب كل مختال فخور[1].

هكذا كان يخاف أن يرتدي ملابس رقيقة ناعمة ، فيأخذه غرور واختيال ، فانصرف عن هذا وذاك.

## زهده في الدنيا ومتاعها

قال أحدُ أصحابه ذات يوم: «ما من أحد منّا أدرك الدنيا إلاّ مالت به ومال بها؛ غير عبد الله بن عمر».

ويقول آخر: «رأيت نفراً من الصحابة كانوا يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التي فارق عليها النبي ﷺ إلاّ ابن عمر»[2].

هكذا عاش حياته يُضرب به المثل في الخير والصلاح ، ويثبت أنها من ذرّية طيبة اتّسمت بالتقوى والعدل.

وها هو نافع أحد مواليه يقول: ما أعجبَ ابنَ عُمر شيءٌ من ماله إلاّ قدَّمه ، فبينما هو يسير على ناقته ، إذ أعجبته ، فأناخها وقال: حطّ عنها الرَّحل ، ثم تصدّق بها[3].

وذات مرة كاتَبَ ابنُ عمر غلاماً له على أربعين ألفاً إذا جمعها يعتقه ، وكتب على ذلك صحيفة بينهما ، فخرج الغلام إلى الكوفة وراح يعمل ويعمل لجمع المال؛ حتى أدَّى خمسة عشر ألفاً ، ولمّا كان ابن عمر كريماً جواداً لا يُبقي مالاً عنده ، ذهب إلى الغلام في الكوفة مَن يقول له: أمجنون أنت يا غلام؟ أنت ها هنا تعذّب نفسك ، وابن عمر يشتري الرقيق يميناً

(١) الحلية ج ١/ ٣٠٢ وسير أعلام النبلاء ج٣ ص٢١٣ ترجمة ٤٤٥.
(٢) الإصابة ج٢ ص٣٣٩ ترجمة ٤٨٣٤.
(٣) طبقات ابن سعد ج٤ ص١٦٦.

وشمالاً ، ثم يعتقهم ، ارجع إليه فقل: عجزت عن سداد ما كاتبتني عليه. فجاء الغلام على الفور لابن عمر وقال: يا أبا عبد الرحمن ، قد عجزتُ وهذه صحيفتي التي كاتبتني عليها ، أريد أن تمحها أو تمزّقها ، فقال ابن عمر: لا يا غلام امحها أنت إن شئت ، فمحا الكلام ، ففاضت عينا عبد الله بن عمر وقال له:

أنتَ حرّ لوجه الله.

فقال الغلام: أصلحك الله ، أحسن إلى ابنيَّ.

فقال: هما حُرَّان!!.

فقال الغلام: أصلحك الله ، أحسن إلى زوجتيَّ[1] وأُمِّي.

فقال ابن عمر: هنَّ أحرار[2].

كانت الآية الكريمة التي تقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[3] تتراءى للصحابة الأجلَّاء ، فعندما نزلت على الرسول في المدينة دخل أبو طلحة الأنصاري على رسول الله ﷺ ليتصدّق بأحسن ماله عنده وأحبّه إليه ، وهو بئر ماء ، فقال له الرسول ﷺ: «اجعلها في الأقربين» فقسّمها على أبناء عمومته.

وها هو ابنُ عمر في المدينة ، وقد كان بالمدينة سوق كبير يُباع فيه كلُّ صنوف البضاعة والسلع حتى علف الدابة ، وذات يوم ورد إلى ابن عمر أربعة آلاف درهم من قبل أمير المؤمنين معاوية ، وما إن ترك رسولُ معاوية بيتَ عبد الله حتى أقبل شخص آخر يحمل أربعة آلاف أخرى لابن عمر ، وفي اليوم نفسه جاء مَن يعطي ابن عمر ألفان آخران حتى بلغ ما دخل دار ابن عمر في ذلك اليوم عشرة آلاف بالتمام والكمال.

---

(١) كان للرجل زوجتان.
(٢) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢١٧ ترجمة ٤٤٥.
(٣) سورة آل عمران الآية ٩٢.

وقد علم كثير من التجار في المدينة بما أفاض الله به على ابن عمر ، وفي اليوم التالي ذهب ابن عمر إلى السوق ، واقترب من أحد تجار علف الماشية وطلب منه أن يعطيه علفاً بمقدار درهم ، ولكن دَيناً ، لأنه لا يملك الدرهم على أن يوفيه الثمن فيما بعد!!.

استغرب التاجر الأمر ، وتعجّب وراح يراقب ابن عمر وينظر إليه نظرات دهشة ، أحقاً ما يقول ابن عمر؟.

عشرة آلاف درهم ، لم يُبق منها دِرْهَماً واحداً ، ولم يترك التاجر الأمر على ما هو عليه ، وإنما انصرف يتثبّت الأخبار ، فذهب إلى جارية لعبد الله بن عمر وسألها عن حقيقة الأمر ، فأجابته قائلة: والله ما استطاع أن ينام ليلته قبل أن يوزّع هذه الأموال بكاملها على مَنْ يحتاج إليها.

أخذت هذه الكلمات من نفس التاجر ما أخذت ، وازداد إعجابه بالفقيه القدوة ، وانصرف إلى السوق يقول للناس: ما تصنعون بالدنيا ، ما تصنعون بها وبأموالها ، انظروا ماذا فعل ابن عمر ، جاءته بالأمس عشرة آلاف ، فأصبح من يومه يطلب علفاً لراحلته دَيناً[1].

هكذا كان ابنُ عمر زاهداً في مال الدنيا ومتاعها. وتتكرّر المواقف فتصبح متشابهة. فيجيء ذات يوم عبد الله بن جعفر ، ويعرض عشرة آلاف درهم مقابل شراء نافع مولى عبد الله بن عمر. فيدخل ابن عمر على امرأته صفية ويقول لها: ما رأيك عبد الله بن جعفر يعرض عشرة آلاف ليشتري نافعاً؟!.

فقالت صفية: فما تنتظر يا أبا عبد الرحمن؟.

قال: فهلاّ ما هو خير من ذلك ؟

قالت: ما هو؟.

قال: هو حرٌّ لوجه الله[2].

---

(١) الحلية ج١ ص٢٩٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢١٨ ، وورد في الحلية ج١/٢٩٦ من طريق الإمام أحمد.

ويخيّل إلينا أنه كان ينوي قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

وظلّ ابن عمر على هذا الحال حتى قال نافع ذات مرة: «ما مات ابن عمر حتى أعتق ألفَ إنسان أو زاد»[2].

وقد اشتهر ابنُ عمر أنه نادراً ما يأكل، إلا يشاركه في مائدته يتيم أو مسكين؛ فلا يأكل دونهم؛ حتى رقَّ جسده ونحل من حرمانه لنفسه، وشدّة بأسه عليها، فجاء إليه صاحبٌ ينصحه ويقول: يا أبا عبد الرحمن، لو اتخذتَ طعاماً، فيرجع إليك جسدك.

فيقول: إنَّه ليأتي علي ثماني سنين ما أشبع فيها شبعة واحدة، والآن تريد أن أشبع ولم يبقَ من عمري إلاَّ القليل!!!.

ويضرب مثلاً آخر في الزهد عندما كانت له جارية مُعْجِبة؛ فاشتدّ عجبه بها فأعتقها وزوَّجها لأحد مواليه[3]، وانصرف يؤدِّب نفسه ويملك زمامها عن كل متاع يحلو له في الدنيا، عازفاً عنه، راغباً رضا ربّه ومغفرته، منصرفاً للاجتهاد وجهاد نفسه، متمسّكاً بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ.

وفي مجلس علمه يأتيه المال فلا يشغله عنه، ولا يقف له وإنّما كان يفرِّقه في المجلس على أصحابه ومريديه، ويقول نافع ـ أكثر الرواة عنه ـ لأنه كان أحد مواليه وأصبح فيما بعد من كبار التابعين الفقهاء. يقول نافع: «كان ابن عمر يفرِّق في المجلس ثلاثين ألفاً، ثم يأتي الشهر ما يأكل قطعة يسيرة من اللحم»[4].

رضي الله عن ابن عمر فقد قدّم للمسلمين دروساً عظيمة هي قدوة لكل أجيالهم، ونوراً يهدي به الله مَن يشاء.

---

(١) آل عمران الآية ٩٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الإصابة ج٢ ص٣٤٠ ترجمة ٤٨٣٤.

(٤) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢١٨.

# مع الحجّاج

كان الحجّاج بن يوسف الثقفي والياً على العراق ، وكان أكثر الولاة عنفاً ، وقد كان ما كان بين الحجاج وابن الزبير من قضايا كثيرة ، فوقف الحجاج على المنبر ، وقد كان خطيباً بليغاً بارعاً ، يسوق الحجج الواهية ، فيستولي على عقول الناس بتعاليه بالحجّة على خصمه ابن الزبير ، وما إن سمعه ابن عمر يدَّعي على ابن الزبير ما ليس فيه؛ وقف يقول للحجاج: اصمت أيها الكاذب ، لقد كذبت وكذبت وكذبت. وتردّد صوته في أرجاء المسجد علانية وأمام جموع الناس وفي وجه رجل لا يرحم مخالفيه في الرأي ، ولم يخشَ ابنُ عمر في الحق لومة لائم.

ولم تكن المرة الأولى التي يقف فيها في وجه الحجاج ، وإنما يأتي يوم آخر يطيل فيه الحجاج خطبته ويعجب ببلاغته ، فيمرّ الوقت دون حساب ، ويتململ ابنُ عمر وينظر حوله ، فلا يجد مَن يوقف هذا العبث فينادي بأعلى صوته: الصلاة يا رجل الصلاة الصلاة ، . . فلم يجد آذاناً صاغية فوقف يقول: الصلاة يا رجل ، الصلاة في وقتها. والحجاج لا يلقي بالاً لصيحاته ، وانصرف يتدفّق في خطبته يهدّد ويتوعَّد كلّ مَن خالفه ، فنظر عبد الله بن عمر للمصلّين وقال: إن نهضت للصلاة ، أَتنهضون معي؟ .

فقال الناس: نعم.

فقال ـ رضي الله عنه ـ : هيّا انهضوا ، فنهض وتبعه الناس ، وقال للحجاج: الصلاة الصلاة ، فإني أرى أنه لا حاجة لكل ما تقوله الآن.

عندئذٍ نهض الناس وأُحرِجَ الحجاج ، ونزل عن المنبر وصلّى بالناس.

ولكنّه لم ينسَ هذا الموقف لعبد الله بن عمر ، وإنما استدعاه وبادره قائلاً:

ما الذي حملك على ما صنعت؟ .

فقال عبد الله: يجيء الناسُ إلى المسجد للصلاة ، فإذا حضرت

الصلاة ، وحان وقتها فَصَلِّ بالناس لوقتها ، ثم ثرثر بعد ذلك ما شئت من ثرثرة! عند ذلك صمت الحجاج وقد كتم غيظه لأنَّه يعلم مكانة ابن عمر في قلوب الناس ، ولا يجرؤ على إيذائه أو النيل منه.

وتمضي الأيام والحجاج يضمرها في نفسه ، فيكتب إلى عبد الله بن عمر قاصداً الإساءة إليه فكتب يقول: بلغني أنَّكَ طلبتَ الخلافة وإنها لا تصلح لعييٍّ «يقصد أنه ضعيف» ولا بخيل ولا غيور.

فأجابه عبد الله بن عمر بكتاب يقول فيه: «أمَّا ما ذكرت من الخلافة فما طلبتُها ، وما هي في بالي ، وأمَّا ما ذكرت من العيّ ، فمن جمع كتاب الله ، فليس بعييٍّ ، ومَن أدَّى زكاته فليس ببخيل ، وإن أحقَّ فيه ولدي أن يشركني فيه غيري»(١).

هكذا كان ردّه قاطعاً لا مجاملة فيه ، ولا خشية من أحد أيّاً كان سلطانه.

## رأيه في الخلافة

كثيراً ما عُرض على ابن عمر أن يكون خليفة المسلمين ، لما عُرف عنه من الاستقامة والصدق والزهد فيما في أيدي الناس وما على وجه الأرض كلّه ، ورغبته في دينه ورضاء ربّه ، وما ورثه من عدل أبيه ، وحزمه ، وحتى هيئته المهيبة ، فكان يراه الناس في الكعبة جسيماً يظنه الرائي راكباً وهو يمشي من طول قامته ، وجاءه كثيراً من يقول: يا بن خليفة رسول الله ، لو أقمتَ للناس أمرهم وأصلحت شؤونهم ، بتولّيك خلافة المسلمين ، فما من أحد منهم يرفض بيعتك.

ولكنَّه كان دائماً يقول: أخبروني ، إن خالف رجلٌ بالمشرق؟

فيجيبه الناس: إن خالف رجلٌ قُتل ، وما قَتْلُ رجل في سبيل إصلاح رعية بأكملها وأُمة بأسرها؟

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢١٩ ت٤٥.

فيقول ابن عمر: ما أحب هذا، ما أحب أن يُقْتَل رجل من المسلمين، ولو أُعطيت الدنيا وما فيها.

لله ما يقول ابن عمر! فقد كانت الفتنة وما صاحبها من أحداث جرحاً في نَفْس كل مسلم عاشها، أو سمع عنها.

وها هو علي بن أبي طالب يبعث إليه قائلاً: يا أبا عبد الرحمن! إنك رجل مُطاع في أهل الشام، فسِرْ إليهم فقد أمَّرْتُكَ عليهم.

فقال عبد الله بن عمر: أُذكِّرك الله، وقرابتي من رسول الله ﷺ، وصحبتي إيّاه، إلاّ ما أَعْفَيْتَني.

رفض علي بن أبي طالب اعتذار ابن عمر عن توليه الشام، فاستعان عبد الله بن عمر بأخته حفصة بنت عمر أم المؤمنين وزوج رسول الله ﷺ، فرفض علي أيضاً. وعن ذلك يقول ابن عمر: فخرجت ليلاً إلى مكة، فقيل له: إنَّه خرج إلى الشام. فبعث في أثري. فجعل الرجل يأتي المربد، فيخطم بعيره بعمامته حتى يدركني.

فأرسلت حفصة لعلي بن أبي طالب: «إنَّه لم يَخْرُجْ إلى الشام، إنَّما خرج إلى مكة»[1] فسكن علي ـ رضي الله عنه ـ وتوقّف عن ملاحقته.

هكذا هرب عبد الله بن عمر من منصب رفيع، هو خلافة المسلمين في الشام، هرب من سلطان وشأن عظيم عرضه عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

وجاءه ذات يوم عمرو بن العاص يقول: إنا نُريد أن نبايعك، فهل لك أن تُعطى مالاً عظيماً على أن تدَع هذا الأمر لمن هو أحرصُ عليه منك؟

فغضب عبد الله بن عمر، وقام منصرفاً، فلحق رجل بالمجلس يقول له: يا أبا عبد الرحمن إنّما قال: تُعطى مالاً على أن أبايعك.

فقال: لا والله لا أُعطي عليها، ولا أُعطى، ولا أقبلها إلاّ لمن رضي من

(١) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢٢٤.

المسلمين[1]. وقد قال بعض الرواة[2]: «كاد أن تنعقد البيعة له يومئذ، مع وجود مثل الإمام علي وسعد بن أبي وقاص، ولو بويع، لما اختلف عليه اثنان، ولكن الله حماه، وخار له».

ولكن ابن عمر كان يقول دائماً: أمنع نفسي عن الخلافة أن الله حرَّم دَم أخي.

ولنسمع هذا الحوار أيضاً بين مروان وابن عمر:

يقول مروان: ألا تخرج إلى الشام فيبايعوك؟

قال ابن عمر: فكيف أصنع بأهل العراق؟

قال مروان: تقاتلهم بأهل الشام.

قال ابن عمر: والله ما يَسُرُّني أن يُبايعني الناس كُلُّهم إلاَّ أهل فَدك، وأن أقاتِلَهم، فيقتلَ منهم رجلٌ.

فقال مروان:

إنـي أرى فِتْنَـةً تَغْلِـي مَـرَاجِلُهـا          والملك بعد أبي ليلى لمن غَلَبَا[3]

لقد حاول ابن عمر طوال حياته أن يتجنّب طريقَ الفتنة والخلاف بين المسلمين. ولمّا اشتعلت الفتنة بين فصائل المسلمين بسبب الخلافة جاء لابن عمر مَن يحاول إقناعه، فقال: ألم يقل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾[4].

فأجاب ابن عمر قائلاً: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله!

أمَّا أنتم فتُريدونَ أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغيره.

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢٢٧ ت ٤٥.

(٢) هذا قول الذهبي في كتابه السابق.

(٣) طبقات ابن سعد ج٤ ص١٦٩، سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢٢٧ ت٤٥.

(٤) البقرة: ١٩٣.

إلى هذا الحدّ تفهّم ابن عمر مجريات الأحداث في عصره ، وتنبّأ المأساة في مهدها ، فانصرف بعيداً عنها؛ يقيم شعائر الله وينهى النَّاسَ عن الفتنة ، وقد فاز بالبعد عنها ولم ينسب له أن قاتل مسلماً ، أو تعصّب لشيء غير الحق وشرع الله عزّ وجلّ.

## في بيته

كان كريماً جواداً كما ذكرنا ، ولكن امرأته صفية عاشت معه سنوات عظيمة ، كان يؤثر غيره على نفسه ولو كان به خصاصة ، يؤثر اليتامى والمساكين فقط ، ولا يؤثر غيرهم.

فكلّما أعدّت زوجته طعاماً طيباً دعا إليه مَن يأكله أو يشاركه في أَكْله من هؤلاء المساكين ، فلمّا رآه الناس وقد ضعف جسمه ونحل ذهبوا إلى امرأته يعاتبونها ويقولون لها:

أما ترحمين هذا الشيخ وتلطفين بحاله؟!

فقالت: إنَّه يُحرِمُ نفسه ليطعم هؤلاء الفقراء والمساكين ، وإذا مرَّ به رجل غني له هيئته ومكانه بين الناس ، وكان جالساً لطعامه ، لم يدعه ، حتى يدعه أبناؤه أو بنو أخيه.

وإذا مرَّ به مسكين ، يسارع إلى دعوته ، ويحبِّب له الجلوس ، رغم ضجر أبنائه وأبناء أخيه ، فينظر إليهم ويقول:

أتدعون مَن لا يشتهي الطعام ، وتتركون مَن يشتهيه؟

وهذا يدلّ على أنّ عبد الله بن عمر يشعر بشعور الفقراء والمحرومين ، ويرأف بهم ، ويشفق عليهم ، ولا يبالي بما يقال في بيته وعلى لسان أهله وذويه. كان متقشّفاً زاهداً ، شديد الزهد ، لباسه متواضع ، قيل: لا يكاد يصل إلى نصف ساقه ، فلا يلبس ثياباً تجرّ خلفه أذيالاً ، خوفاً من الشعور بالغرور والكبرياء.

كان كثيراً ما يستغني عن عشائه إذا لم يحضره فقير أو يتيم ، فلم تغيِّره

الدنيا ، كغيره من الناس ، كان ـ رحمه الله ـ نموذجاً لوالده الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ أخذ منه الكثير ، بل كان مثله! .

ها هو عبد الله بن عمر يطوف حول الكعبة ، وقد شَرَعَ الطائفون بالبيت من بقايا صحابة رسول الله ﷺ ، وكبار التابعين يعطّرون الأجواء بالتهليل والتكبير ، ويملؤون الأرجاء بصالح الدعاء.

وأخذ الناس يجلسون جماعات ، جماعات ، في حلقات حول الكعبة المعظّمة المستقرّة وسط مكة مهابة وجلالاً .

وقد ملأ عبد الله بن عمر ومَن معه من صحابة رسول الله ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين عيونهم من جلال وبهاء الكعبة المشرفة ، وأخذوا يتبادلون حديثاً لا يشوبه لغوٌ ولا تأثيم إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً .

وبالقرب من الركن اليماني كان عبد الله بن عمر يكمل طوافه ، فاقترب منه عروة بن الزبير بن العوام أحد فقهاء المدينة السبعة ، ومن تابعي صحابة رسول الله الثقة ، الفقهاء. اقترب من ابن عمر على استحياء يخطب منه ابنته. ونترك عروة يقصُّ قصته مع ابن عمر ، يقول عروة: خطبتُ إلى ابن عمر ابنته ، ونحن في الطواف ، فسكت ولم يجبني بكلمة ، فقلتُ : لو رضي لأجابني ، والله لا أراجعه بكلمة ، فقُدِّر له أنه عاد إلى المدينة قبلي ، ثم قدّمتُ ، فدخلت مسجد الرسول ﷺ ، فسلَّمْتُ عليه ، وأدّيتُ إليه حقَّه ، فرحَّب بي ، وقال: متى قدمت؟

قلت: الآن.

فقال: كنت ذكرتَ لي سَوْدَةَ ونحن في الطواف ، نتخايل الله بين أعيننا ، وكنت قادراً أن تلقاني في غير ذلك الموطن ، كأن أمراً قُدِّر.

قال: فما رأيك اليوم؟

قلت: أَحْرَصُ ما كنتُ عليه قطُّ[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢٣٦ ، ت٤٥ .

عند ذلك دعا عبد الله بن عمر ابنيه سالماً وعبد الله ، وزوَّجه ابنته سودة ، وعمل بقول رسول الله ﷺ: «إذا جاءكم مَن ترضون دينه» وقد جاءهم رجل معروف بتقواه وعُدَّ من كبار التابعين الثقات ، وانضمّ إلى قائمة الفقهاء السبعة الأوائل في المدينة.

هكذا كان عبد الله بن عمر في بيته ، يعمل بكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ.

وذات يوم يجيئه رجل يمدحه فيقول: يا خير الناس ، يا بن خير الناس. فأجابه قائلاً: «ما أنا بخير الناس ، ولا ابن خير الناس ، ولكني عبدٌ من عباد الله أرجو الله وأخافه ، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه»[(١)].

يقضي ليله قائماً يصلّي ، وينادي مولاه نافع فيقول: يا نافع أسحَرْنا؟[(٢)].

فيقول نافع: لا لم يأتِ وقت السحر بعد ، فيعاود الصلاة إلى أن يقول نافع: نعم جاء وقت السحر.

فيقعد ابنُ عمر يستغفر الله ويدعوه ، ويكرّر استغفاره حتى يحين وقت صلاة الصبح ، فيؤدي المكتوبة ، بعد أن يُسنّ قبلها ، ثم يستريح من مشقة القيام طوال الليل. هكذا كانت حياة ابن عمر في بيته ، قيام دائم ، وصيام مستديم ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر.

## موقفه من الفتنة

كان موقفه واضحاً من الفتنة ، لا يقاتل مسلماً ، ولا يرفع في وجهه سيفاً ، وها هو معاوية بذكائه المعهود يدسُّ له عمرو بن العاص يريد أن يعلم ما في نفس ابن عمر فيجيء عمرو بن العاص إليه قائلاً: يا أبا عبد الرحمن ، ما يمنعك أن تخرج يبايعك الناس ، أنت صاحب رسول الله ﷺ ، وابن أمير المؤمنين ، وأنت أحقُّ الناس بهذا الأمر.

---

(١) جاء هذا الخبر في الحلية من طريق نافع مولاه ج١/٣٠٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ج٣ ص ٢٣٥ ت٤٥.

فقال عبد الله بن عمر: قد اجتمع الناس كلُّهم على ما تقول؟

قال عمرو بن العاص: نعم، إلاَّ نفر يسير.

قال ابن عمر: لو لم يبق إلاَّ ثلاثة أفراد بهجر[1]، لم يكن لي فيها حاجة.

فعرف عمرو أنه لا يريد الخروج للقتال، فعرض عليه أموالاً، كما سبق أن ذكرنا، فغضب عبد الله بن عمر وقال له: «أُفٍّ لك! اخرجْ من عندي، إنَّ ديني ليس بديناركم ولا درهمكم، وإني أرجو أن أخرج من الدنيا على بيضاء نقية»[2].

وانتهج منهجاً حيادياً أثناء الفتنة، حتى إنه كان يصافح كل مَن يلقاه من الطوائف وهم يقتتلون، وقال عندما سُئِل في ذلك: «مَن قال: حي على الصلاة أجبته، ومَن قال: حيّ على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله فلا»[3].

يقصد أنه لا شأن له به، لا شأن له بمَن يقتل المسلمين أو يقاتلهم، ـ رضي الله عنه ـ فقد كان يتّقي الله في دماء المسلمين، ويخاف الله في أمرهم. ولم تتوقف الروايات عن موقفه من الفتنة، وها هو نافع مولاه وأكثر الرواة عنه يقول: أتى رجلٌ ابن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن! ما يحملك على أن تَحُجَّ عاماً وتعتمر عاماً وتترك الجهاد؟

فقال: بُني الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، وصلاة الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحجّ البيت.

فقال الرجل: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾[4].

---

(١) مدينة في العراق.

(٢) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢٢٨ ت٤٥، طبقات ابن سعد ج٤ ص١٦٦.

(٣) أخرجه ابن سعد ج٤ ص١٦٩: ١٧٠، وأبو نعيم في الحلية ١/٣٠٨.

(٤) الحجرات الآية ٨.

فقال: لأن أعتبر بهذه الآية فلا أُقاتل أحبّ إليَّ من أن أعتبر بالآية التي يقول تعالى فيها: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾[1].

فقال الرجل: ألا ترى أنَّ الله يقول: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[2].

قال ـ رضي الله عنه ـ: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه، إمَّا أَنْ يَقْتُلُوه، وإمَّا أَنْ يَسترِقُّوه، حتى كثر الإسلام، فلم تكن فتنة.

فلمَّا رأى الرجل أنه لا يوافقه الرأي قال له: فما قولك في عثمان وعليٍّ؟

قال ابن عمر: «أمَّا عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفو الله عنه، وأمَّا علي فابنُ عمّ رسول الله ﷺ وختَنُه وأشار بيده، هذا بيته حيث ترون»[3].

وظلّ عبد الله بن عمر على موقفه هذا يقول معبِّراً عما يجول في نفسه فيقول: ما وجدت في نفسي شيئاً من أمر هذه الأمة، ما وجدت في نفسي من أن أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عزّ وجلّ[4].

## في وداع ابن عمر

في أيام ابن عمر الأخيرة كان يقول: ما آسى على شيءٍ من الدنيا إلاَّ على ثلاث: ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، وأني لم أُقاتل الفئة الباغية التي نزلت بنا[5].

وقصد بالفئة الباغية الحجاج بن يوسف الثقفي لما أشاعه بين الناس من ظلم.

---

(١) النساء الآية: ٩٢.
(٢) البقرة: ١٩٣.
(٣) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

كان في أواخر أيامه كلّما قرأ الآية الكريمة: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

وعندما يصل إلى الآية الأخيرة يبكي حتى تبتل لحيته، ومن شدّة البكاء يتوقف عن القراءة لما بعدها من الآيات.

وها هو يوصي ابنه سالماً أن يدفنه خارج الحرم، فيقول سالم بن عبد الله بن عمر: «مات أبي بمكة، ودُفن بفخٍّ[2] سنة أربع وسبعين، وهو ابن أربع وثمانين، وأوصاني أن أدفنه خارج الحرم، فلم نقدر، فدفناه بفخ في الحرم في مقبرة المهاجرين»[3].

ويترك ابن عمر للمسلمين كافة ثروة هائلة من الأقوال والفتاوى، وقد انفرد البخاري له برواية واحد وثمانين حديثاً، ومسلم بواحد وثلاثين حديثاً. واتفقا له على ثمانية وستين حديثاً، وله في مسند «بقي» ألفان وستمئة وثلاثون حديثاً بالمكرر.

رحم الله الإمام القدوة، الصحابي الفذ، الفقيه، الثّبت، الملتزم، ونضَّر الله قبره برياحين الجنة.

* * *

---

(١) سورة المطففين الآيات من ٤ ـ ٦.

(٢) «فخ»: واد بمكة يسمّى وادي الزاهر.

(٣) طبقات ابن سعد ج٤ ص١٨٧.

# (٣)

# عبد الله بن عمرو بن العاص

# إطـار عــام

قال عبد الله بن عمرو بن العاص:

قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في كلّ شهر».

قال عبد الله: قلت إني أجد قوة.

قال عليه الصلاة والسلام: «فاقرأه في عشرين ليلة».

قال عبد الله: قلت إني أجد قوة.

قال عليه الصلاة والسلام: «فاقرأه في سبع، ولا تزد على ذلك»[1].

وصحّ أن رسول الله ﷺ خفض الرقم إلى ثلاث ليال، ونهى عبد الله بن عمرو أن يقرأه في أقل من خمس[2].

وتؤكد السنّة الشريفة في حديث رسول الله ﷺ هذا المعنى العظيم، بل ويجيء التأويل لنهي المسلم المؤمن عبد الله بن عمرو بن العاص عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث ليال بقول النبيّ ﷺ: «لم يفقه مَن قرأ القرآن في أقلّ من ثلاث»[3].

بهذه الكلمات نستهلّ هذه السيرة المباركة، سيرة قارئ القرآن، الإمام الحبر العابد صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه.

---

(١) البخاري ٩/ ٩٥ في فضائل القرآن، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٩٤) في الصلاة، باب: تحزيب القرآن، والترمذي (٢٩٤٦) في القراءات، باب (١٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، لكن الحديث روي من غير وجه أن النبي ﷺ قال: «لم يفقه مَن قرأ القرآن في أقلّ من ثلاث»، ورواية ابن ماجه (١٣٤٦): «فاقرأه في سبع».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٤٩) في القراءات، باب (١٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١٣٤٧) في إقامة الصلاة، باب: في كم يستحب أن يختم القرآن.

إنّ فضائل عبد الله بن عمرو بن العاص تُعَدُّ راسخة في العلم والعمل، فقد حمل عن النبي ﷺ علماً جَمّاً، وهذا إطار صغير، أردنا أن نصافح به هذه السيرة المباركة قبل أن نخطو في هذا السفر البعيد، فتختصر المسافات، ولا نتخطى المشاهد العظيمة.

## بطاقة تعريف

هو الإمام عبد الله بن عمرو بن العاص، الحَبر العابد، الصوَّام القوَّام، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه.

**اسمه ونسبه:**

هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم، ينتهي نسبه بكعب بن لُؤي بن غالب(١).

وأُمّه هي رائطة بنت الحجاج بن مُنبه السَّهمية.

أبوه عمرو بن العاص أكبر منه بإحدى عشرة سنة!!

وقد أسلم عبد الله بن عمرو بن العاص قبل أبيه، وقد كان اسمه العاص، فلمّا أسلم ودخل في دين الله، سمَّاهُ النبي ﷺ بعبد الله(٢).

وقد كان لهذا الحبر الجليل، والصحابي الفذّ مناقب وفضائل يفوح عطرها في سلوكه ومواقفه، فأصبحت قدوة طيبة، وشمائل يستزيد منها كلّ مسلم ومسلمة.

وقد كان لعبد الله بن عمرو بن العاص مقام راسخ في العلم والعمل، عندما حمل عن النبي ﷺ علماً جَمّاً، نَقَلَهُ بأمانة الكاتب، وخشوع العابد الناسك الذي أحبّ رسول الله ﷺ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٧٩ ت١٧.

(٢) انظر تاريخ ابن عساكر ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص.

وقد بلغ ما أسند لعبد الله بن عمرو بن العاص سبعمئة حديث[1]. واتّفق الصحيحان ـ بخاري ومسلم ـ له على سبعة أحاديث، وانفرد البخاري له بثمانية أحاديث، بينما انفرد مسلم بعشرين حديثاً، وتناثرت أحاديثه الباقية في كتب المسانيد ـ رضوان الله عليه ـ.

## مع رسول الله ﷺ

كان رسول الله ﷺ يحبُّ عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد أذن له بالكتابة بعد أن نهى عنها؛ لتتوفر هممُ الصحابة على القرآن وحده، وليمتاز القرآن بالكتابة عمّا سواه من السُّنن النبوية، ولما نزل القرآن لا يشتبه بكلام الناس أذن عليه الصلاة والسلام في كتابة علم السنّة[2].

وقد أحبَّ الرسولُ صلوات الله وسلامه عليه عبد الله بن عمرو بن العاص وأباه وأهل بيته، وها هو أحد الصحابة يقول للناس: ألا أحدّثكم عن رسول الله ﷺ بشيء؟ إني سمعته يقول: «عمرو بن العاص من صالحي قريش، نِعْمَ أهلُ البيت أبو عبد الله، وأُمُّ عبد الله، وعبد الله»[3].

ومن حُبِّ ابن عمرو بن العاص ـ رضوان الله عليه ـ لرسول الله ﷺ قال ذات يوم: حفظت عن رسول الله ﷺ ألف مَثَل[4].

هكذا كان عبد الله رجلاً حافظاً، مجتهداً في سماع نبيّه عليه الصلاة والسلام، عاملاً بسُنّته، قائماً عليها، وممّا ذكر له من أحاديث ندرك كيف لزم هذا الحبر الكبير والشيخ الجليل الرسول ﷺ.

## صفاته وشمائله

كان رجلاً طويلاً، أحمر الوجه والجسم، عظيم الوجه، وكان عابداً

---

(١) أحاديثه في مسند الإمام أحمد ج٢ ص١٥٨، ٢٢٦.

(٢) انظر تعليق الذهبي في سير أعلام النبلاء ج٣ ص٨١ ترجمة ١٧.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ج١/ ١٦١، والصحابي هو طلحة.

(٤) تاريخ ابن عساكر.

صوّاماً ، وها هو يروي حديثاً دار بينه وبين رسول الله ﷺ في الصيام فيقول: دخل رسول الله ﷺ بيتي هذا ، فقال: «يا عبد الله ، ألم أخبر أنك تكلّفت قيام الليل وصيام النهار؟».

قلت: إني لأفعل.

فقال عليه الصلاة والسلام: «إنْ حسبك ، ولا أقول افعل ، أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، الحسنة عشر أمثالها ، فكأنّك قد صمت الدَّهر كُلَّه».

قلت: يا رسول الله ، إني أجد قوة ، وإني أحب أن تزيد فيّ.

فقال عليه الصلاة والسلام: «فخمسة أيام».

قال عبد الله بن عمرو: إني أجد قوة يا رسول الله.

قال عليه الصلاة والسلام: «سبعة أيام».

وظل عبد الله بن عمرو يستزيده ويقول: أجد قوة يا رسول الله ، أستطيع الصيام أكثر من هذا، والرسول ﷺ يزيده حتى بلغ نصف الشهر، وبهذا يصوم نصف الدهر، ثم توقّف الرسول لمّا طلب عبد الله الزيادة ، وقال عليه الصلاة والسلام: «يا عبد الله: إنَّ لأهلكَ عليك حَقّاً ، وإن لضيفك عليك حقاً»[1].

كان عبد الله ـ رضي الله عنه ـ من المسلمين المخلصين لدينهم ، فقد أسلم وهاجر إلى المدينة بعد سنة سبع ، وشهد بعض مغازي رسول الله ﷺ ، وامتدّت يده للمشاركة في الدفاع عن قضايا الإسلام الحقيقية ، ولم يشارك في قتال مسلم قط.

وممّا يذكر له أنه حينما كانت الفتنة بين المسلمين ، وكان القتال بين معاوية وخصومه قد اشتدّ ، وقتل فيه مَن قُتِلَ من المسلمين ، وبينما عبد الله يجلس في مجلس معاوية بن أبي سفيان إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس صاحب رسول الله ﷺ عمار بن ياسر ـ رضوان الله عليه ـ ، فقال كل واحد منهما: أنا قتلته.

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج٢ ص٢٠٠.

فقال عبد الله بن عمرو: ليَطِبْ به أحدكما نفساً لصاحبه ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول عن عمار: «تقتله الفئة الباغية». فقال معاوية لصاحبه عمرو بن العاص يشتكي له ابنه عبد الله:

يا عمرو! ألا تغني عنا ابنك ، فما بالُكَ معنا؟ أنت معنا أم علينا يا عبد الله؟!.

فقال عبد الله بن عمرو بن العاص لمعاوية: إنَّ أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال لي عليه الصلاة والسلام: «أطع أباك ما دمت حيًّا». فأنا معكم ، ولست أُقاتل[1].

وها هو يطيع أباه ، ويضرب مثلاً في الطاعة لكل شباب المسلمين وفتيانهم.

وشمائل عبد الله بن عمرو لا تنتهي ، فهذا رجل من البصرة يسمّى سليمان بن ربيعة الغنوي يحدثنا عن كرم ابن الأكرمين فيقول: كنت أؤدي فريضة الحج في زمن معاوية بن أبي سفيان ، ومعي صُحبة من جُلَّة قرّاء البصرة وعلمائها ، فجاء مَن يحدّثنا أن عبد الله بن عمرو يقطن في جنوب مكة ، ويصفه بتواضع ما بعده تواضع ، وكرم معروف في أصول العرب وأنسابهم ، فما إن وصلنا حتى وجدنا مئة بعير قوي نجيب قادرة على الأسفار والأحمال ، وغيرهم مئتا بعير ممن يحملون متاع الرجال.

فقلنا ونحن عنده: ما هذا؟

فقالوا: لإخوانه وأصحابه يحملهم عليها ، ولمَن ينزل ضيفاً عليه[2].

ويجيء عبد الله بن عمرو من المسجد ، ويكرم ضيوفه ، ويحسن إليهم مما آتاه الله من فضله.

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٢ ص١٦٤.
(٢) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٩٣.

## زهــده

كان زاهداً في متاع الحياة الدنيا حتى سمعه أحد أصحابه يقول: «لأن أكون عاشر عشرة مساكين يوم القيامة ، أحبُّ إليَّ من أن أكون عاشر عشرة أغنياء ، فإن الأكثرين هم الأقلّون يوم القيامة».

كان يتصدّق يميناً وشمالاً ، وقد ورث عبد الله من أبيه قناطير مقنطرة من الذهب ، فكان من ملوك الصحابة في الثراء ، ورغم ذلك فقد زهد فيه.

وها هو يسرد ما كان في حياته من زهد فيقول: «زوَّجني أبي امرأة من قريش ، فلمّا دَخَلَتْ عليَّ ، جعلتُ لا أنحاش لها مما بي من القوة على العبادة ، فجاء أبي إلى زوجتي ، فقال: كيف وجدت بعلك؟».

قالت: خيرُ رجلٍ لم يُفَتِّش لنا كنفاً ، ولم يقرب لنا فراشاً ، فأقبل عليه أبوه عمرو بن العاص ، وقال غاضباً: «أنكحتك امرأة ذات حسب ، فعضلتها وفعلتَ».

ثمّ انطلق عمرو بن العاص إلى النبي ﷺ شاكياً له فعل ابنه عبد الله ، فأرسل إليه الرسول ﷺ ، وقال له: «أتصوم النّهار وتقوم الليل؟».

فقال عبد الله: نعم يا رسول الله.

فقال عليه الصلاة والسلام: «لكني أصوم وأفطر ، وأُصلّي وأنام ، وأَمَسُّ النساء ، فمَن رغب عن سنّتي فليس مني»(١).

فعاد عبد الله ـ رضوان الله عليه ـ إلى داره وزوجه أم محمد بنت محمية بن جَزء الزبيدي ، وعمل بسُنّة رسول الله ﷺ.

## مع القرآن

إذا تلا المسلمُ القرآنَ ورتّله ، ولازم في ذلك أسبوعاً أو شهراً ، كان عملاً فاضلاً ، فالدين يسرٌ ، فو اللهِ إنَّ ترتيل القرآن في تهجد قيام الليل مع

---

(١) أخرجه أحمد ج٢ ص١٥٨.

المحافظة على النوافل الراتبة، والضحى ، وتحية المسجد ، مع الأذكار المأثورة الثابتة عند النوم واليقظة، ودبر الصلاة والسحر ، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به مخلصاً لله، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الجاهل وتفهيمه ، وزجر الفاسق ، ونحو ذلك ، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسارٍ وإيمان، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء والاستغفار ، والصدقة وصلة الرحم ، والتواضع والإخلاص في جميع ذلك ، لَشُغْلٌ عظيم جسيم ، وإنه لمقام أصحاب اليمين ، وأولياء الله المتقين.

كل هذه الصفات ، وخاصة تلاوة القرآن ، كانت من شمائل عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضوان الله عليه ـ ، ففي تلاوة القرآن يقول عبد الله: جمعتُ القرآن ، فقرأته كلَّه في ليلة ، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأْه في شهر».

قلت: يا رسول الله ، دعني أستمتع من قوتي وشبابي.

فقال عليه الصلاة والسلام: «اقرأه في عشرين ليلة».

قلت: يا رسول الله ، دعني أستمتع بقوتي وشبابي.

قال: «يا عبد الله اقرأ القرآن في سبع ولا تزد على ذلك»(١).

وكان عبد الله بن عمرو يجتهد في قراءة القرآن كثيراً ، حتى إنه كان يقول عندما تقدَّمت به السنون: ليتني قبلت رخصة رسول الله ، لأن أكون قبلتُ الثلاثة أيام التي قال رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي.

ولم يكن الصيام أقلّ أداء من تلاوة القرآن عند هذا السيد العابد صاحب رسول الله ﷺ ، فها هو ـ رضوان الله عليه ـ يسمع من رسول الله وصية أخرى وحديثاً آخر لما اجتهد عبد الله ـ رضوان الله عليه ـ في الصوم ، قال عليه الصلاة والسلام:

«صُمْ يوماً وأفطر يوماً ، وذلك صيام داود عليه السلام ، وهو أعدل الصيام»(٢).

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٩/ ٩٤) ، ومسلم (١١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٢) ، ومسلم (١١٥٩) ، والرواية لمسلم.

وفي ذلك يتحدّث الإمام الذهبي[1] تعليقاً على شمائل عبد الله بن عمرو بن العاص أنّ النبي ﷺ نهى عن صيام الدهر ، وقال: «لا صام مَن صام الأبد»[2].

وكلّ مَن لم يلزم نفسه في تعبّده وأوراده بالسُنَّة النبوية الشريفة يندم ، ويترهَّبُ ، ويسوء مزاجه ، ويفوته خير كثير من متابعة سُنَّة نبيّه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ، الحريص على نفعهم.

وما زال ﷺ معلّماً للأمة أفضل الأعمال ، وآمراً بهجر التَّبتُّل والرهبانية التي لم يُبعث بها ، فنهى عن سرد الصوم ، وعن قيام أكثر الليل إلاَّ في العشر الأخير من شهر رمضان ، ونهى عن العُزبة وتأخير الزواج للمستطيع ، ونهى عن ترك حلال الطعام مثل اللحم وغيره من الأوامر والنواهي. فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور ، والعابد العالم بالآثار المحمدية ، المتجاوز لها معضول مغرور ، وأحبُّ الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلَّ.

وكان عبد الله بن عمرو ـ رضوان الله عليه ـ يكتب ما يسمع من رسول الله ولما ذكر ذلك لرسول الله أجازه له قائلاً: «نعم ، فإني لا أقول إلاَّ حقاً»[3].

واعترف له بهذه الفضيلة أبو هريرة ـ رضوان الله عليه ـ أكثر رواة حديث رسول الله ﷺ عندما قال: «ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلاَّ ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب»[4].

ولم يكن يكتب فقط ولكنه كان حافظاً للسُنَّة والقرآن ، ويروي في ذلك أحد أصحابه فيقول: دخلت على عبد الله بن عمرو بن العاص ، فتناولت صحيفة تحت رأسه ، فتمنَّع عليّ ورفض ذلك.

---

(١) في كتابه سير أعلام النبلاء ج٣ ص٨٥.
(٢) أخرجه البخاري ٤/٢٢١ في الصوم باب: حق الأهل في الصوم ، ومسلم (١١٥٩) في الصيام باب: النهي عن صوم الدهر.
(٣) أخرجه أحمد ج٢ ص٢٠٧ ، ٢١٥.
(٤) أخرجه البخاري (١/٢٠٦) في العلم ، باب: كتابة العلم.

فقلت: تمنعُني شيئاً من كتبك؟

فقال ـ رضوان الله عليه ـ: إن هذه الصحيفة الصادقة الَّتي سمعتها من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه أحد ، فإذا سَلِمَ لي كتابُ الله وهذه الصحيفة والوَهط[1] ، لم أبال ما ضيّعت الدُّنيا[2].

كان حريصاً على كتاب الله ، حريصاً على كتابة وتسجيل كل ما يسمعه من حبيبه ﷺ.

وكان يُضرب به المثل في طاعة الوالدين ، فيقيم سُنَّة رسول الله ، ويعمل بنصحه طوال حياته ، فلم يُذْكَرْ يوماً أن خالف أَمْراً ـ رضوان الله عليه ـ أَمَرَهُ به أبوه.

كان حريصاً على كلمة الحق أينما كان ، ومهما كان الموقف صعباً وعسيراً ، فقد يسَّر اللهُ له صدقَ اللسان ، وتوفيقاً ما بعده توفيق ، فآتاه حكمةً وفصاحةً في اللسان ، ومَنْ يُؤْتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

ويجيء زمنُ الفتنة ، وتكون لعبد الله شواهد ومواقف عظيمة؛ يطيع الله من خلال طاعة أبيه ، لإثبات كلمة الحق ، وأشهر هذه المواقف يوم صفّين.

## يوم صفّين

اشتدّ الخلاف بين عليّ ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ ، ولمكانة عمرو بن العاص الإسلامية والعسكرية ، فقد رغب كل طرف في دعوة هذا الرجل إلى صفٍّ من صفوفه. وأرسل علي بن أبي طالب إلى عمرو بن العاص يدعوه للبَيْعة على أن يبايعه بَيْعة طاعة ، وينتظم جندياً بينْ جنوده ، ولا أكثر من هذا. وأرسل له معاوية يدعوه إلى صفوف جيشه قائداً ووالياً على مصر؛ إذا تمّت البَيْعة له ، وحدث إجماع على ذلك.

---

(١) «الوهط»: بستان عظيم بالطائف؛ كان يضرب به المثل لاتّساعه وعظيم قيمته المادية.
(٢) طبقات ابن سعد ج٢ ص٢٧٣.

فجمع عمرو بن العاص ابنَيْه: عبد الله ومحمد، وعرض عليهما الأمر وطلب مشورتهما ورأيهما، فأجابه محمد قائلاً: يا أبي بايع معاوية فإنه يعرض عليك سلطاناً، فأنت عنده قائد للجيش ووالٍ على مصر!! وليس هناك أفضل من هذا.

فنظر عمرو بن العاص إلى عبد الله وقال له: وأنت ما تقول يا عبد الله؟

فقال: بايع عليّاً يا أبي، فهو رجل تقي، وله السبق في الإسلام والجهاد، وكن جندياً للإسلام.

فتبسّم عمرو قائلاً: أنت يا عبد الله آخرتي، أمّا أنت يا محمد فأنت دنياي.

يقصد أن عبد الله بايع التقوى والصلاح في عليّ، ومحمد بايع أسباب الدنيا وسلطانها[١].

ويجيء يوم صفّين ويدخل عمرو بن العاص على ابنه ويقول له:

هيّا اخرج فقاتل.

فيقول عبد الله: يا أبتِ! كيف تأمرني أن أخرج فأُقاتل، وقد سمعت من عهد رسول الله ﷺ إلي ما سمعت؟

فقال أبوه عمرو: نشدتك الله! نشدتك الله!

تعلمُ أنَّ آخر ما كان من رسول الله ﷺ إليك أن أخَذَ بيدك، فوضعها في يدي، ثم قال:

«أطع عمرو بن العاص ما دام حيّاً».

قال عبد الله: نعم.

قال عمرو: فإني آمرك أن تقاتل.

فخرج عبد الله لكنه لم يقاتل كما طُلِب منه؛ لقد حمل الراية بيده فقط.

---

(١) انظر «معاوية» للعقاد ص٦٢: ٦٥.

وتمرّ السنون ويقول عبد الله معاتباً نفسه: «مالي ولصفّين ، مالي ولقتال المسلمين ، لوددت أني مِتُّ قبلها بعشر سنين ، أما والله على ذلك ما ضربت بسيف ولا رميت بسهم» وذكر أن الراية كانت بيده[1] .

هكذا كان رجلاً كيِّساً فطناً، يسعى دائماً إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

وفي أحداث الفتنة تأثّر عبد الله ـ رضوان الله عليه ـ كثيراً ، فها هو ذات يوم يدخل المسجد الحرام ، والكعبة محترقة حين أدْبر جيش حُصين بن نمير ، والكعبة تتناثر حجارتها ، فيقف عبد الله ويبكي بكاءً مُرَّاً ، ونظر إلى الناس وقال مخاطباً لهم ودُموعه تسيل على وجنتيه:

«أيها الناس! والله لو أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ أخبركم أنكم قاتلو ابن نبيّكم ، ومحرقو بيت ربّكم لقلتم: ما أحدٌ أكذب من أبي هريرة!! وها أنتم قد فعلتم! فانتظروا نقمة الله ، فليلبسنكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأس بعض».

وانصرف عبد الله بعد أن أدّى صلاته ، وقد تملّكه الحزن ، فعالجه بالبكاء المرّ على ما شاهده من أحداث داخل أول بيت وأطهر بيت وضع للناس على الأرض ، إنّه بيت الله الحرام؛ الذي شرّف الله أرضه به وطهّره ، وجعل أفئدة الناس تهوي إليه من كل فجّ عميق ، وعلى كل ضامر يمتطيه الناس حُبَّاً ورغبة في طاعة صاحب البيت سبحانه وتعالى.

## وفـاتــه

وبعد حياة حافلة لأحد العبادلة الأجلّاء ، وبعد صوم الدهر ، وتلاوة القرآن ، والعمل بسُنّة الرسول ﷺ ، ودَّع عبد الله هذه البسيطة ، وانصرف إلى دار القرار ، وترك أبناء آدم وقد ظنّوا دوام هذه الدنيا.

وقد اختلف الرواة في زمان ومكان وفاة عبد الله بن عمرو بن العاص؛

(١) انظر طبقات ابن سعد ج٤ ص٢٦٦.

فقال الواقدي: مات بالشام سنة خمس وستين وهو يومئذ ابن اثنين وسبعين عاماً.

وقال بعضهم: مات بمكة، وقيل: بالطائف، وقيل: توفّي ودُفِن في مصر في داره؛ لوجود شغب بين جند عبد الملك بن مروان؛ فلم تشيع جنازته، ودُفن في داره لهذا السبب.

وذكر البخاري قولاً آخر أنّه مات سنة تسع وستين.

رحم الله عبد الله بن عمرو بن العاص، صاحب رسول الله وحبيبه، وأكثر الناس عملاً بسُنَّة رسوله ﷺ.

* * *

# (٤)

# عبد الله بن الزُّبير بن العوّام

## بطاقة تعريف

**اسمه ونسبه:**

هو عبد الله بن الزُّبير بن العَوَّام بن خُويلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ بن كِلاب بن مُرَّة ، أبو بكر ، وأبو خُبَيْب ، القُرشي الأَسَديّ المكّي ثم المدني[1] ، أحدُ الأعلام المشهورين في دنيا الصحابة ومَن بعدهم.

**ولادته:**

حملتْ أسماء بنت أبي بكر الصديق بابنها عبد الله حَمْلاً مباركاً ، ومضت تسع شهور ، وجاءها المخاض ، ويسَّر الله تعالى الولادة ، فكان مولوداً ذَكَراً جميلاً.

فرحَ المسلمون بهذا المولود ، إذ كان أول مولود للمسلمين في المدينة ، وقد كان اليهود قالوا: قد سَحَرْنا محمداً وأصحابه ، فليس يُولد لهم بأرضنا ، قال زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب: فكان أول مولود عبد الله بن الزُّبير.

وقد ارتجّت أرجاء المدينة المنورة بالتكبير ، فَرَحاً بمولد عبد الله.

وجاءت أسماء بنت أبي بكر بولدِها إلى رسول الله ﷺ ليحنّكه ، فأخذه رسول الله ﷺ منها؛ فَوَضَعْهُ في حجْره ، ثم دَعَا بتمرة. قالت عائشة: فمكثنا ساعةً نلتمسُها قبل أن نجدَها ، فمضغها ، ثم بَصَقَها في فِيه ، فإنَّ أوّل شيء دَخَل بَطْنَهُ لَرِيقُ رسول الله ﷺ. قالت أسماء: ثم مَسَحَهُ وصَلَّى عليه وسمّاه عبد الله[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢١٤٦) في الآداب ، باب: استحباب تحنيك المولود.

وأَمَرَ رسول الله ﷺ أبا بكر ، فأذَّنَ في أُذُنَيْهِ بالصلاة[١] .

وعن محمد بن كعب القرظي أنَّ رسول الله ﷺ دخل على أسماء بنت أبي بكر الصّدّيق حين ولد عبد الله بن الزُّبير فقال: «أَهو هو؟» فتركت أسماء رضاع عبد الله بن الزُّبير لما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أهو هو» ، فقيل لرسول الله ﷺ: إنَّ أسماء تركت رضاع عبد الله بن الزُّبير لما سمعتك تقول: «أهو هو» ، فقال: «أرضعيه ولو بماء عينيك»[٢] .

وبدأ الطفل عبد الله يدرج في رحاب الحياة ، فبدأ يناغي ، ويحبو ، ويُصدر حركات مُعجبة للأسرة المباركة[٣] ، فَيُقْبِل عليه الكبير والصغير مداعباً ملاعباً مناغياً ، وها هو الوالد الزبيرُ يُقبِّل ابنه وهو صغير ، ويقول له:

أبيضُ من آلِ أبي عتيقِ أحبُّه كما أحبُّ ريقي

## يشرب الدم!

وذات يوم أقبل عبد الله بن الزُّبير نحو النبي ﷺ فرآه يحتجم ، فلما فرغ قال النبي: «يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد».

قال عبد الله: فلما برزتُ عن رسول الله ﷺ عمدتُ إلى الدم فحسوته ، فلمّا رجعتُ إلى النبي ﷺ قال: «ما صنعت يا عبد الله؟».

قلتُ: جعلته في مكانٍ ظننتُ أنه خافٍ عن الناس.

قال: «فلعلّك شربته؟».

قلتُ: نعم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٣).

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (١٢/ ١٧٣).

(٣) هذه الأسرة المباركة هي: أمّه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وأبوه الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ ، وجدّه أبو بكر الصديق ، وعمّته خديجة ، وخالته عائشة ، وجدَّته صفية. فأكرم بها من أسرة!.

قال: «ومن أمرك أن تشرب الدم ، ويلٌ لك من الناس ، وويلٌ للناس منك»(١) .

وكانوا يرون أن القوّة التي به من ذلك الدم .

وقد بشّره رسول الله ﷺ بعدم مسّ النار له ، بعد أن احتسى من دمه الشريف ، إذ قال له النبي ﷺ: «لم شربته؟» قال: أحببتُ أن يكون دم رسول الله ﷺ في جوفي ، فقال بيده على رأس ابن الزبير ، وقال: «لا تمسّك النارُ إلاّ قسم اليمين»(٢) .

## عبادته

عُرِف عبد الله بن الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ بالعبادة ، فقد كان يتوق إلى صفّ قدميه في محراب العبادة والتبتُّل والتضرع إلى الله عز وجل ، فما أُحيلى وقفة المؤمن بين يدي ربّه يدعوه ويناجيه ويستنصره آملاً تحقيق مبتغاه؛ من لدن رب كريم رحيم .

أ ـ صلاته :

وقد عُرِف ابن الزبير بصلاته؛ وتحدَّث عنه الناس في هذا المجال ، فبلغ شأواً عالياً ، ومنزلة رفيعة .

قال عمرو بن دينار :

ما رأيتُ مصلّياً أحسن صلاةً من ابن الزبير .

وقال مجاهد :

كان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنّه عود .

وقال يحيى بن وثّاب :

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٣٠) والمستدرك (٣/ ٥٥٤) وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٧٢) .

(٢) الحلية (١/ ٣٣٠) .

كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره ، تصعد وتنزل ، لا تراه إلا جِذْم[1] حائط.

وقال وهب بن كيسان:

أوّل مَن صفّ رجليه في الصلاة عبد الله بن الزّبير؛ فاقتدى به كثيرٌ من العبّاد ، وكان مجتهداً.

وكان كثير القراءة في الصلاة ، يستعذب أن يطول صلاته وهو يتلو كتاب الله تعالى.

قال مسلم المكّي:

ركع ابن الزبير يوماً ركعة فقرأتُ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ، وما رفع رأسه.

وذات يوم قال عمر بن عبد العزيز لابن أبي مُليكة: صف لنا عبد الله بن الزبير ، فإذا بابن أبي مُليكة يقول:

.... ولقد قام يوماً إلى الصَّلاة فمرّ حجرٌ من حجارة المنجنيق بلبنةٍ مطبوخة من شرافات المسجد ، فمرَّت بين لحيته وصدره ، فو الله ما خَشَع لها بصره ، ولا قطع لها قراءته ، ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع. إنّ ابنَّ الزبير كان إذا دخل في الصلاة خرج من كل شيء إليها ، ولقد كان يركعُ فتكاد تقع الرّخم[2] على ظهره ، ويسجد فكأنه ثوب مطروح[3].

وعن أبي إسحاق قال:

ما رأيتُ أحداً أعظم سجدةً بين عينيه من ابنِ الزبير[4].

---

(١) «الجذم»: الأصل.

(٢) «الرخم»: طائر.

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر (١٢/ ١٧٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠).

ب ـ صومه:

وكان عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ يسرد الصوم ، فقد ذكره العلماء مع الصحابة الساردين للصوم ، وقد ورد ذلك على لسان عدد من الأجلاَّء ، قال هشام بن حسان:

كان عبد الله بن الزبير يصوم عشرة أيام لا يفطر فيها.

وقال عمار بن أبي عمار:

كان عبد الله بن الزبير يواصل سبعة أيام ، فإذا كان ليلة السابعة دعا بإناء من سمن فشربه ، ثم أُتي بثريدة في صحفة عليها عَرقان ، ويُؤتى الناس بالجفان فتُوضع بين أيديهم ، فيقول: أيها الناس؛ هذا من خالص مالي ، وهذا من بيت مالكم[1].

وقال مَيْمُون بن مِهران:

رأيتُ ابنُ الزبير يُواصِل من الجمعة إلى الجمعة ، فإذا أفطر استعان بالسمن حتى يلين[2].

وروى حبيب بن الشهيد عن ابن أبي مليكة قال:

كان ابن الزُّبير يُواصِل سبعةَ أيام ، ويُصْبِحُ في اليوم السابع وهو أَلْيَثُنا[3].

ج ـ حجّه:

حجَّ ابن الزبير ثماني حجج متتابعة ، من سنة أربع وستين إلى سنة إحدى وسبعين ، ثم حضر الموسم سنة اثنتين وسبعين؛ فحج ابن الزبير بالناس ولم يقفوا الموقف.

وكان يتطيب كثيراً في حجّه.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٧٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٠).

(٣) الحلية (١/ ٣٣٥) ، والحاكم (٣/ ٥٤٩).

«أليثنا»: أشدنا وأجْلَدُنا كأنه ليث.

قال أبو الضَّحى:

رأيتُ في مفرق ابن الزبير عشية عَرَفة من الطيب ما لو كان لرجلٍ كان رأس مال[١].

وقال هشام بن عُرْوة:

أوّل من كسا الكعبة الديباجَ ابنُ الزُّبير، وكان يُطيِّبها حتى يُوجد ريحُها من طَرَف الحَرَم، وكانت كسوتها قبله الأنطاع[٢].

وقال عبد الله بن شُعَيْب الحَجَبي:

إنَّ المهدي لما جرَّد الكعبةَ، كان فيما نُزِع عنها كسوةُ ابنِ الزبير من ديباج، مكتوب عليها: «لعبد الله أبي بكر أمير المؤمنين»[٣].

وهكذا نجد اهتمام ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ بالحج وبالكعبة.

وقد شهد له ابنُ عمر بعبادته، فقال:

إن كنتَ والله ما علمتُ صوّاماً، قوّاماً، تحبُّ الله ورسوله[٤].

وعن أم جعفر بنت النعمان: أنها سلَّمتْ على أسماء بنت أبي بكر، وعندها ابنُ الزبير، فقالت: قَوَّام الليل، صَوَّام النهار، وكان يُسمَّى حَمَامَةَ المسجد[٥].

## علمه

وعُرِفَ عبد الله بن الزبير بالعلم أيضاً، فقد كان يتردّد إلى بيت النبي ﷺ، ويسمع منه الأحاديث الطيبة، ويحفظها، ويُحدِّث بها.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٩٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٤).

(٣) المصدر السابق.

(٤) مختصر وتاريخ ابن عساكر (١٢/٢٠٨).

(٥) حلية الأولياء (١/ ٣٣٥).

وكان يتردّد كثيراً إلى بيت عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ ، ومن كثرة محبّتها له ـ وهي خالته ـ كنّيت به ، فكان يُقال لها: أم عبد الله.

وناهيك بعائشة رائدة من روّاد العلم ، ومدرسةً في الفقه ، ومعهداً لتخريج المعلمين الهُداة.

ولا شكَّ أن عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ حفظ الكثير من القرآن الكريم ، وفهم مغزى آياته ، كيف لا ، وهو الفَطِن الذّكي ، صاحب الفكر اللمّاع ، والقلب الوقّاد بنور العقيدة وسراج الإيمان.

وقد عدَّ السيوطي ـ رحمه الله ـ عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ من جملة الذين حفظوا كتاب الله تعالى في صدورهم ، وعرضوه على النبي ﷺ[1].

وقد حفظ عبدُ الله بن الزبير القرآنَ لتلقّي أوامره ، والعمل بها ، وهذا ديدنُ الصحابة ، وطريقتهم التي ساروا عليها ، وانتهجوا سبيلها.

أما روايته للحديث النبوي الشريف ، فقد ضَرَبَ فيها بحظ وافر ، وقد ذكر له أبو نعيم عدة أحاديث في حلية الأولياء[2].

وقد انعكس علمه هذا على أقواله وبلاغته ، فكان خطيباً مصقعاً ، وواعظاً وَرِعاً ، فقد كتب ذات يوم إلى وهب بن كيسان:

أمَّا بعد؛ فإن لأهل التقوى علامات يُعْرَفُون بها ، ويعرفونها من أنفسهم ، مِن صَبْرٍ على البلاء ، ورِضا بالقضاء ، وشُكْرِ النعماء ، وذُلٍّ لِحُكْمِ القرآن. وإنما الإمامُ كالسوق: ما نَفَق فيها حُمِل إليها ، إن نَفَق الحقّ عنده حُمِل إليه وجاءه أهل الحق ، وإن نَفَق عنده الباطل جاءه أهل الباطل[3].

أترى بعد هذا من وعظ وإرشاد؟!

لقد تذكَّر من ألقى السمع وهو شهيد.

---

(١) مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح ص (١٧٠).
(٢) (٣/ ٣٣٧).
(٣) صفة الصفوة (١/ ٧٦٨ ـ ٧٦٩).

## شجاعته

أصبح ابنُ الزبير قوياً في الحق ، شجاعاً ، لا يهاب شيئاً من الدنيا بما فيها ، ولقد عُرِف بشجاعته حتى خافه الأقران ، وهابته الخصوم.

أُتي قلباً كالصخر ، ونفساً قوية في الحق ، يُقْدِم على المواجهة غير هيَّاب ولا وَجِل ، يقتحم الأهوال والمخاطر بقلبٍ كالحديد، وقوة وعزيمة لا تنثني.

قال هشام بن عروة:

رأيتُ ابن الزبير يُرْمى بالمنجنيق فلا يلتفت ، ولا يرعد صوته.

وكان ابن الزبير يحملُ على خصومه حتى يُخْرِجهم من أبواب المسجد الحرام وهو يقول:

لو كان قَرْني واحداً كفيتُه

ثم يقول:

ولسنا على الأعقابِ تَدْمَى كلومُنا ولكنْ على أقدامنا يقطُرُ الدمُ

## خلافته

في عصرٍ ماج بالفتن ، واشتد فيه الهرج ، وكثرت الخلافات والعصبيات ، وتكوّنت الأحزاب السياسية ، كلٌّ يدعو إلى وجهة معينة يرى فيها الحق والصواب.

فالأمويون هم حكّام البلاد.

والخوارج قد خاصموا الإمام علي ومعاوية.

والشيعة رأوا أن الإمامة تنحصر في علي رضي الله عنه.

أما الزبيريون فهم أتباع عبد الله بن الزبير ، الذي كان من أشدّ الدعاة إلى حرب علي ، وكان يرنو إلى الخلافة والاستقلال بها.

وقد اعتمد الحزب الزبيري على عدة مرتكزات، هي:

**أولاً:** الخلافة حقّ لقريش وحدها، ويجب قَصْرها على الأكفاء، وعبد الله بن الزبير هو أكفأ قريش بعد موت معاوية.

**ثانياً:** في فتنة عثمان بن عفّان أمّره الخليفة المحاصَر على داره حين طوّقها الثوار، فاستُدِلّ بذلك على الإيحاء بخلافته.

**ثالثاً:** ينتسب عبد الله بن الزبير إلى رسول الله ﷺ بعدة صلات قريبة؛ فأبوه ابن عمّة النبي صفية بنت عبد المطلب.

وهو أيضاً ابن أخي خديجة أم المؤمنين.

وهو من السابقين إلى الإيمان بدعوة الإسلام.

وهو من المشهورين بالبأس والشجاعة والإقدام.

وأمّه أسماء بنت أبي بكر، ذات النطاقين، وأخت عائشة.

**رابعاً:** عُرِف عبد الله بن الزبير بالتقوى والصلاح والعلم والعبادة، على حين أن يزيد بن معاوية لم يبلغ شأوه ولم يحظَ بمرتبته.

**خامساً:** إن جمهورَ المسلمين ساخطٌ على بني أمية لأنهم قتلوا الحسين وآل بيته، ولأنهم استباحوا المدينة المنورة ومكة المكرّمة. ولأن الأمويين قلبوا نظام الحكم من الشورى إلى الوراثة.

ولما بدأ معاوية بأخذ البيعة لابنه يزيد، برزت معارضةُ عبد الله بن الزبير، ثم اضطر إلى البيعة.

ولما مات معاوية نقضَ عبدُ الله بن الزبير بيعة يزيد، وقام يدعو إلى نفسه، ووصل إلى مكة وسمّى نفسه عائذ الله.

واشتدَّ أمرُ عبد الله بعد مقتل الحسين، وقال أتباعُه: أمّا إذا مات الحسين فليس أحدٌ ينازعُك[1].

---

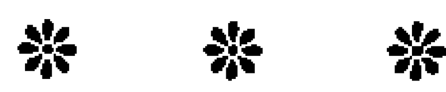
(١) الطبري (٦/١٨٨ ـ ١٩٤).

ثار أهلُ المدينة على واليهم عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، فطردوه ، وطردوا مروان بن الحكم وسائر بني أمية ، فأرسل يزيد جيشاً إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المري ، وحدث قتال شديد بالحرَّة قرب المدينة سنة (٦٣)هـ. وانتصر مسلم بن عقبة ونهب المدينة واستباح جنده نساءها ، وأجبر النَّاسَ على البيعة ليزيد[١] .

ثم اتجه مسلم بن عقبة إلى مكة لِيُوقعَ بابن الزبير ، وطوّقها ، وعاذ ابن الزبير بالبيت الحرام .

ثم نصبت المجانيق على مكة والمسجد الحرام ، ورميت البلدة بالنار والنفط مع الأحجار، وانهدمت الكعبة، واشتد الأمر على أهل مكة وابن الزبير .

وكان ذلك قبل وفاة يزيد بنحو أحد عشر يوماً[٢] ، فلما مات يزيد ارتدّ جيشُه إلى الشام .



وقد كادت الخلافة تؤول إلى ابن الزبير ، إذ استجابت له الحجاز والعراق واليمن ومصر والشام ما عدا الأردن ، وآزرته قيس وسائر مضر ونزار ، ودلَّت بوادر الأمور على أن النصر بات وشيكاً .

نهض مروان بن الحكم للحفاظ على مجد معاوية ، فاستمال القبائل اليمنية ، ولقي جيشُ مروان جيشَ ابن الزبير في مرج راهط سنة ٦٤ ـ ٦٥ هـ) فانهزم جيش ابن الزبير في الشام[٣] .

ولمّا خلف عبد الملك أباه حارب مصعب بن الزبير بالعراق وقتله ، ودخل الكوفة ، وولّي عليها .

---

(١) الطبري (٧/ ٥ ـ ١٢) ومروج الذهب (٣/ ٧٨) ومعجم البلدان لياقوت مادة (حرّة) وذكر ياقوت أن (٨٠٠) امرأة حملن وولدن ، وكان يُقال لأبنائهن أولاد الحرّة.

(٢) مروج الذهب (٢/ ٩٥ ـ ٩٧).

(٣) الطبري (٧/ ٣٦).

ثم بعث الحجاج إلى عبد الله بن الزبير[1] ، فحاصر مكة ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة ، وضرب الكعبة بالمنجنيقات؛ فاحترقت سنة (٧٣هـ) ، فاضطر المكيّون إلى طلب الأمان ، وتخلّى عن ابن الزبير كثيرٌ من أقاربه وأنصاره ، ولم يبقَ معه إلا قلّة منهم ، لكنه ثبت في بطولة نادرة يكاد ينقطع مثالها ، وانتهى الأمر بمقتله سنة (٧٣هـ) وصلبه الحجاج بمكة.

## اللحظات الأخيرة في حياته

دخل عبد الله بن الزبير على أمه حين رأى من الناس ما رأى من خذلانهم إياه ، فقال: يا أُمّه؛ خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، فلم يبقَ معي إلا مَن ليس عنده من الدفع أكثر من صَبر ساعة ، والقوم يعطوني ما أردتُ من الدنيا ، فما رأيُكِ؟

فقالت أمه: أنتَ والله يا بني أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامضِ له ، فقد قُتِل عليه أصحابُك ، ولا تمكِّن من رقبتك ، فيلعب بك غلمانُ بني أمية. وإن كنتَ أردتَ الدنيا فبئسَ العبدُ أنت ، أهلكتَ نفسَك ، وأهلكتَ مَن قُتِل معك.

فدنا ابنُ الزبير فقبَّل رأسَ أمه ، وقال: هذا والله رأيي ، والذي قمتُ به داعياً إلى يومي هذا ، ما رَكَنْتُ إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله ، ولكني أحببتُ أن أعلم رأيك ، فتزيدينني قوة وبصيرة مع بصيرتي ، فانظري يا أُمّه فإني مقتولٌ من يومي هذا ، لا يشتدّ جزعك علي ، سلّمي لأمر الله؛ فإن ابنك لم يتعمّد إتيان منكر ، ولا عمل فاحشة ، ولم يَجُرْ في حكم ، ولم يغدرْ في أمان ، ولم يتعمّد ظُلْمَ مسلم ، ولا معاهد ، ولم يبلغني عن عمّالي فرضيته بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي.

---

(١) مروج الذهب (٢/١٠٦ ، ١٢٥ ، ١٤٧) ، والطبري (٧/٢٠٢) ، وابن الأثير (٤/١٤٨).

اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي ، أنتَ أعلم بي ، ولكني أقوله تعزية لأمي لتسلو به عني.

فقالت أمه: اللهم إني سلّمتُ فيه لأمرك ، ورضيتُ فيه بما قضيت ، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين[١].

وفي اليوم التالي قاتل عبد الله حتى قُتِل ، ثم صُلِب ، ومرَّت به أمه العجوز أسماء ذات النطاقين ، فقالت قولتها المشهورة:

أَمَا آن لهذا الفارس أن يترجَّل؟!

رحم الله أبا خُبَيْب ، عبد الله بن الزبير.

وأثاب الله الجميع بنياتهم الحسنة وفعلهم الجميل.

* * *

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٢/١٩٨ ـ ١٩٩).

عصر الصحابة

(٤)

# البكاؤون

العرباض بن سارية علبة بن زيد

عبد الله بن مغفل سالم بن عمير

سلمة بن صخر

# المقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، أحمدك يا رب لا أُحصي ثناءً عليك ، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك ، وأسألك أن تُصلِّي وتُسلِّم على رسولك الذي اصطفَيْته من بريّتِكَ ، وختمتَ به رُسُلَكَ ، وجعلتَ له السعادة الكبرى على ولد آدم ، وخصصته بالشفاعة العظمى في يوم الجمع الأكبر ، وعلى آله الأجِلّة ، وصحبه نجوم الملّة .

وبعد : فإن للصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ من المزايا والسجايا الحميدة ما يعجز المرء عن وصفه ، ويكلّ القلم عن تدوينه ، فهم الشمس في صفاتهم العُلى ، وهم الجبال الشامخة في مناقبهم الخاصّة والعامّة :

وإذا استطـالَ الشـيءُ قـامَ بنفسه     وصِفَاتُ ضوءِ الشمسِ تَذْهَبُ بَاطِلا

وقد مدحَ رسولُ الله ﷺ صحابته الأجلاء فقال :

«خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» .

رواه البخاري ومسلم .

ومن مناقبهم ـ رضي الله عنهم ـ بكاؤهم من خشية الله تعالى ، وخوفهم من ناره يوم الحساب ، قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴾ [الإسراء : ١٠٨ ـ ١٠٩] .

ومن مناقبهم كذلك حبُّهم للجهاد ، ورغبتهم الصادقة في مقارعة أعداء الدين ، ونشر التوحيد . ففي غزوة تبوك ، أيام العسرة والمشقة ، جاء بعض الصحابة الفقراء يطلبون الراحلة والزاد من رسول الله ﷺ ، ولكنه عليه الصلاة والسلام اعتذر لهم بأنه لا يجد ما يحملهم عليه ، فتولّوا وأعينهم تفيض

بالدمع ، وقلوبهم تعتصر بالحزن والأسى ، لعدم قدرتهم على المشاركة في الجهاد في سبيل الله.

وكتابنا هذا يتحدَّث عن تراجم أولئك البكّائين ، وفضح نفاق المنافقين ، وتوضيح موقف المعذورين ، وتوبة الله تعالى على الذين تخلّفوا عن اللحاق برسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

فالكتاب مشاهد متلاحقة ، ومواقف متعددة لما حَدَثَ آنذاك ، راجين من القارىء الكريم أن يصحبنا في هذه الرحلة ، ليرى الصراع بين الحق والباطل ، بين الإيمان والنفاق ، بين الصدق والكذب ، ليكون على بيِّنة من الأمر ، وجلاء لما حدث.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، يا أرحم الراحمين.

اللهم اجعل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم.

والحمد لله رب العالمين.

**عبد المنعم الهاشمي**

# الفصل الأول

# البكّاؤون في العسر

* كلمات في البداية .
* من هم البكاؤون؟
* تبوك : الزمان والمكان والأسباب .
* إنّ مع العسر يسراً .

قال تعالى في سورة التوبة:

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ
عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾.

## كلمات في البداية

هؤلاء البكاؤون جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ليحملهم ويصحبوه في غزوة تبوك، فلم يجدوا عنده من الدواب ما يحملهم عليه، إذ قال لهم ﷺ: ﴿ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾، فرجعوا وهم يبكون تأسفاً على ما فاتهم من الجهاد في سبيل الله.

وفي يوم شديد الحرّ، يستظل فيه النّاس من لظى الشمس وحرارتها، ذهبوا إلى رسول الله ﷺ، يطلبون المشاركة ولا يمنعهم هذا الحرّ الشّديد.

في هذا اليوم، يوم تبوك، أو يوم العسرة؛ لأنه كان يوماً شديد الحرّ، عسير المال، جاء سبعة من الرجال يطلبون المشاركة في الجهاد. وقد سُمِّي يوم الفضيحة؛ لأن الله عزَّ وجل فضح في هذا اليوم المنافقين والمقصرين، فأنزل فيهم قرآناً يُتلى، وبيَّن أمرهم في سورة التوبة، وأمر المؤمنين في هذا اليوم بالنَّفر على كل حال، فقال تعالى في سورة التوبة:

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ
ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴾.

وكان يوم تبوك يوم العزائم ، تبيَّنَ فيه بحق أهل العزم ـ والبكاؤون منهم ـ وكان إلى جانب هؤلاء؛ المخلفون ، وهم ثلاثة.

وكان إلى جانب هؤلاء القاعدون الذين ﴿بعدت عليهم الشقّة﴾ لأن سفر تبوك من المدينة بَلَغَ عشرين ليلة[1].

وكان إلى جانب هؤلاء من قال: ﴿ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩]. ومنهم الجدّ بن قيس.

سنتحدث عن كُلّ هذه الأحداث في مشاهد ومواقف شتى ، فنفرد الأحداث للتأمل ، ولتكن مواقف الرجال المختلفة.

## من هم البكّاؤون؟

ذكرت أغلب المصادر أنَّ البكائين سبعة من الأنصار ، وأجمعت الروايات على ذلك تقريباً ، لكن العلماء اختلفوا في أسمائهم؛ فقد ذكر الواقدي في المغازي[2] أنهم:

١ ـ أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب.

٢ ـ سلمة بن صخر المازني.

٣ ـ ثعلبة بن غَنَمة الأسلمي.

٤ ـ العِرْباض بن سارية السّلمي.

٥ ـ عُلْبة بن زيد.

٦ ـ عبد الله بن المغَفّل المزني.

٧ ـ سالم بن عمير بن عوف.

أما ابن كثير الدمشقي فقد ذكر في تاريخه أنهم[3]:

١ ـ أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار.

---

(١) المغازي للواقدي (٣/ ١٠٦١).

(٢) المغازي (٣/ ١٠٣٠) وما بعدها.

(٣) البداية والنهاية (٥/ ٥).

٢ ـ علبة بن زيد.
٣ ـ سالم بن عمير.
٤ ـ عمرو بن الحمام بن الجموح.
٥ ـ عبد الله بن المغفل المزني.
٦ ـ هَرَميّ بن عبدالله أخو بني واقف.
٧ ـ عِرْباض بن سارية الفزاري.

وقد اتفق ابن جرير الطبري في تاريخه[١] مع الحافظ ابن كثير، وأورد الأسماء نفسها.

بقي بعد هذا التحقيق أن ننتقل إلى مكان الأحداث ذاتها وأسبابها، وما تمّ فيها من حوار اتَّسم بالحرارة الشديدة؛ التي انعكست عليه حرارة الجو أيضاً!

ولكن يبقى عزمُ الرجال الراغبين في الجهاد في سبيل الله، الذين يرجون الدار الآخرة، ويخشون ربهم، ويرغبون في جنّة عرضها السموات والأرض.

## تبوك الزمان والمكان والأسباب

كانت أخبار الشام في الجاهلية نادرة لقلة النفر القادمين من جهته إلا في رحلة الصيف، وهي كل عام، وبعد أن دَخَلَ الإسلام، كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة مَن يقدم عليهم من الأنباط والتجَّار، فذكروا أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد دفع أجراً لجنوده ورزقهم لِسَنَةٍ كاملة، وقد ضمَّ معه من قبائل الشام المتنصرين والمتحالفين معهم مثل لَخْمٌ، وجُذام، وغَسّان، وعامِلة[٢].

وقد زحفت كُلُّ هذه الجموع، وقدمت مُقَدِّماتهم إلى البلقاء وعسكروا فيها، وتخلَّف هرقل بحِمْص.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٤٢).
(٢) المغازي (٣/ ٩٩٠).

كل هذه الأخبار تواردت إلى المدينة ، ووصلت إلى رسول الله ﷺ أيضاً وذلك في الربع الأخير من العام الهجري التاسع[1] .

أمر الرسول ﷺ النَّاس بالجهاز وأخبرهم على غير عادته أنه يريد غزو الروم، فتجهّز الناس امتثالاً لأوامر الرسول ﷺ ، وجاء تصريحه عليه الصلاة والسلام بغزو الروم بالتحديد على غير عادته ، فقلّما كان يخرج ﷺ للغزو ويخبر عن وجهته ، إذ كان ﷺ يكتم أمره لئلا تذهب الأخبار لعدوّه فتخفق خطته .

وقد غزا رسول الله ﷺ تبوك في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل عدداً كثيراً من الناس يريدون الغزو ، «فجلَّى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أُهْبَةَ غزوهم ، وأخبر بالوجه الذي يُريد»[2] .

وبعث ﷺ إلى القبائل وإلى مكّة يستنفرهم إلى غزوهم ، وبعث عليه الصلاة والسلام «أبا رهم الغفاري» إلى قومه غفار يطلبهم ببلادهم ، وبعث نعيم بن مسعود إلى قبيلة أشجع ، وجندب بن مكيث إلى جهينة ، وأرسل لكل حلفائه رُسُلاً يستحضرهم للجهاد ومصاحبته للخروج إلى قتال الروم.

## إنَّ مع العسر يسراً

حضَّ رسول الله ﷺ المسلمين على القتال والجهاد ، ورغَّبهم فيه ، وأمرهم بالصَّدَقَة ، فحملوا صدقات كثيرة.

وكان أول من حمل الصدقات أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، جاء بماله كلّه : أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل أبقيت شيئاً»؟ قال: الله ورسوله أعلم[3] .

وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٤٢) وما بعدها.
(٢) المغازي (٣/ ٩٩٠).
(٣) المغازي (٣/ ٩٩١).

أبقيت شيئاً»؟ قال عمر: نعم نصف ما جئتُ به. وبلغ عمرَ ما جاء به أبو بكر فقال: ما استبقنا إلى الخير قط، إلا سَبَقَني أبو بكر إليه.

وحمل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ مالاً.

وحمل سعد بن عبادة إليه مالاً، كذلك محمّد بن مَسْلَمة.

وتصدق عاصم بن عدي بتسعين وسقاً[1] تمراً.

ويأتي دور عثمان بن عفان رضي الله عنه فيجهز ثلث ذلك الجيش، فكان أكثر النَّاس نفقة، حتى كفى مؤونة هذا الجيش.

وقد قال الحافظ ابن كثير في تاريخه[2] من حديث عبد الرحمن بن حباب السلمي: «خطب النبي ﷺ، فحث على جيش العسرة، فقال عثمان رضي الله عنه: عليَّ مئة بعير بأحلاسها وأقتابها[3]، ثم نزل مرقاةً[4] من المنبر، ثم حثّ فقال عثمان: عليَّ مئة أُخرى بأحلاسها وأقتابها».

ويمضي عثمان في سخائه وكرمه هذا اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد هذا اليوم»[5].

ورغِب أهل الغنى في الخير والمعروف، واحتسبوا في ذلك الخير وتسابقوا إلى التبرُّع والتصدُّق حتى يخرج الجيش مكتفياً بالمؤونة.

حتَّى إنَّ الرجل ليأْتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول:

«هذا البعير بينكما تتعاقبانه» ويأتي الرجل بالنَّفَقَة فيعطيها بعض من يخرج، حتى أَنَّ النساء كُنَّ يُعِنَّ بكل ما قدرنَ عليه[6].

---

(١) «وَسْقاً»: الوَسْق: حِمْل البعير.

(٢) البداية والنهاية (٥/ ٥).

(٣) «أحلاسها»: جمع حلس، وهو كل شيء يُوضَع على ظهر الدابة تحت الرَّحْل. «أقتابها»: جمع قتب، وهو رَحْل صغير على قدر السّنام.

(٤) «مرقاة»: درجة.

(٥) رواه أحمد (٥/ ٦٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٠٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٩).

(٦) المغازي (٣/ ٩٩٢).

وهاهي أم سنان الأسلمية تقول في مشاركة النساء عُسْرة هذا اليوم: لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها فيه مَسَكٌ[1] ومعاضد وخَلاخِل وأَقْرِطَة وخَواتيم، مما يبعث به النساء يُعِنَّ به المسلمين في جهازهم[2].

خلاصة الأمر فإن تبوك جاءت والنَّاس في عُسرةٍ شديدةٍ، وجاءت أيضاً في موعد طابت فيه الثمار، وأحب النّاس فِيه الظلال، فهم يُحبون المقام ويكرهون الخروج، وبعد هذا العسر جاء اليسر وخرج النبي محمد ﷺ في أصحابه وأخذ الناس بالإسراع والجدّ، حتى نزل ثنية الوداع.



(١) «مَسَك»: أي أساور وخلاخيل من القرون أو العاج ونحوها.

(٢) المصدر السابق.

# الفصل الثاني

# عصاة مذنبون

- مواقف فاضحة.
  أ - الجد بن قيس ونساء بني الأصفر.
  ب - رهط المنافقين.
  ج - اليهود كعهدهم.
  ١ - سويلم والفتنة.
  ٢ - عبد الله بن أُبّي.
  د - النفاق يمشي على الأرض.
  ١ - المعذورون.
  ٢ - الذين همُّوا بما لم ينالوا.

## مواقف فاضحة

مامن موضع افتضح فيه أمرُ المنافقين إلاَّ وكان يوم تبوك هو أكثر المواضع والمشاهد افتضاحاً لهؤلاء ، فقد كان الخروج للجهاد في هذا اليوم بمثابة اختبار عظيم لإيمان المؤمنين وتقوى المتقين ، ونحن إذ نعرضُ لمواقف النفاق ومشاهده المتمثلة في شخصيات تمشي على الأرض ، وتقول لا إله إلاّ الله باللسان لا بالقلب ، إنَّما نستعرضُ عزم المؤمنين ، وضعف المنافق. . . جهاد المجاهد ، وتقاعس الذين في قلوبهم مرض. فلنستعرض المواقف لنرى صنوف الرجال:

**أ ـ الجد بن قيس ونساء بني الأصفر:**

كان الجد بن قيس رجلاً منافقاً وهو من بني سلمة ، ويكنى أبا وهب ، وبينما الرسول ﷺ في جهازه ، وجد الجَدّ بن قيس ، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا جد ، هل لك العام في جِلاد[1] بني الأصفر»؟ فقال الجد بن قيس: أوتأْذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنّه ما رجل بأشدّ عجباً بالنساء مني!! وإن أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر.

لهذا الحد كان الرجل يظهر الخوف من الفتنة ، ويتَّخذها حجة لكي يجد عذراً في عدم الخروج مع رسول الله ﷺ في يوم عظيم كهذا؛ اشتد فيه الجهاد ، وتصاعدت حسناته.

أعرض رسول الله ﷺ عن الجد بن قيس وقال له: «قد أَذنتُ لك»[2]!!.

ومن عجائب الأمور أن ابن هذا الرجل المنافق كان بَدْريّاً من الذين اطّلع عليهم ربهم فغفر لهم.

---

(١) «جلاد»: قتال ومنازل.

(٢) البداية والنهاية (٥/ ٤) والمغازي (٣/ ٩٩٢).

كان عبد الله بن الجدّ بن قيس بَدْريّاً من أبطال بدر، وهو أخو مُعاذ بن جبل لأُمّه، لذلك فقد جاء لأبيه وقال: لِمَ ترد على رسول الله ﷺ مقالته؟ فوالله ما في بني سَلِمَة أكثر منك مالاً، ولا تخرج ولا تحمل أَحداً!!

انفعل الابن وتحفّظ على موقف أبيه المتخاذل، وسعى إلى إسداء النصح إليه، كي يَحْسُنَ إيمانه، وتقبل صدقاته.

فقال الجد بن قيس لابنه: يا بُنَيّ، مالي وللخروج في الحر والعسرة إلى بني الأصفر[1]؟

تبيَّن ضعفُ الرجل وتخاذله من كلماته السابقة فهو يخشى الحر، والفقر. ولم تكن قضيته هي بنات بني الأصفر، أو بنات الروم، على حد تعبيره، ولم يكتفِ بذلك بل قال: إني والله يا بُنَيّ عالِمٌ بالدوائر.

ووالله يا بني، ما آمن خوفاً من بني الأصفر، وإنِّي في منزلي بخُرْبَى، فأذهب إليهم فأغزوهم.

غضب عبد الله بن الجد بن قيس من أبيه، وأغلَظَ له القول، فقال له: لا واللهِ، ولكنّه النفاق!! والله لينزلنَّ الله على رسول الله ﷺ فيك قرآناً يقرؤونه.

عندئذ شاط الجد بن قيس غضباً، فرفع نَعْله فضرب بها وجه ابنه عبد الله، فانصرف عبد الله ولم يُكلِّمه، ولم يكتفِ المنافق بما قال وفعل، ولم يتَّعظْ لنصيحة ابنه المجاهد البدري، وإنَّما خرج يُثبِّط همم قومه من العازمين على الجهاد الخارجين مع رسول الله ﷺ، وجعل يقول لجبار بن صخر ونفر معه من بني سلمة: يا بني سَلمةَ، لا تنفروا في الحر[2]. لا تخرجوا في الحرِّ زهادةً في الجهاد، وشكّاً في الحق.

وقد أراد الجد بن قيس الإرجاف برسول الله ﷺ، فأنزل الله سبحانه

---

(١) المغازي (٣/ ٩٩٣).

(٢) المصدر السابق.

وتعالى في موقفِهِ الأول الذي قال فيه: ﴿ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ ﴾ أنزل الآيات من سورة التوبة:

﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴾.

وفي موقفه الثاني نزل قول الله تعالى يفضح مقولته لجبار بن صخر وما كان معه من بني سَلمة: يا بني سَلمَة، لا تنفروا في الحر. ويحثّهم على عدم الخروج مع رسول الله ﷺ ففضح القرآن موقفه هذا، ونزل قول الله تعالى في سورة التوبة:

﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾.

وفي الحالة الأولى تعذَّر الجدّ بن قيس بالباطل عندما قال: أخشى فتنة بنات الأصفر، وليس ذلك صحيحاً، فما سقط فيه من الفتنة كان أكثر، بتخلفه عن رسول الله ﷺ، ورغبته بنفسه عن نفسه، وأوعده القرآن بجهنم، فهي محيطة بالكافرين، وهي مآله يوم القيامة، وبئس المصير.

نزلت الآيات السابقة وفضحت الجد بن قيس، وانهار كذبه ونفاقه إذ لا يقوم على أساس ثابت. وجاء الابن البدري عبد الله إلى أبيه وقال: ألم أقل لَكَ سوف ينزل الله فيك قرآناً يقرؤه المسلمون[1]؟

غضب الجد بن قيس، وأشاح عن ابنه وقال له: اسكت يا لُكع!! والله لا أنفعك بنافعة أبداً!! والله لأنت أشدّ عليَّ من محمد!!.

سبحان الله، ألم يدعوه رسول الله ﷺ للجهاد وهو يعرف تمام المعرفة ثواب المجاهدين عند الله عزّ وجل؟

---

(١) الواقدي (٣/ ٩٩٣).

ألم يعطه الله عزَّ وجل من المال الكثير ، لكي يجود به على عباده ، وينال ثواب المنفقين في سبيل الله عز وجل؟

ألم ينهه ابنه البدري عبد الله عن هذا التصرف الأحمق ، الذي هوى به إلى قاع جهنم وبئس المصير؟

فكأنَّ نصيحة عبد الله لا ردَّ عليها إلاّ سحب النعال وضربه بها ، هل هذا جزاء النصح والإحسان حتى لو كان من الأبناء؟

بئس ما فعل الجد بن قيس.

**ب ـ رهط المنافقين:**

مشى النفاق على الأرض ، ومضى رهط المنافقين يسيرون مع النبي ﷺ منهم:

وديعة بن ثابت ، أحد بني عمرو بن عوف ، والجُلاس بن سويد بن الصامت ، ومَخْشى بن حُمَيِّر من أشجع ، حليف لبني سَلَمَةَ ، وثعلبة بن حاطب.

في الطريق رفع ثعلبة رأسه وقال: تحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؟ والله لكأنا بكم غداً مُقرَّنين في الحبال..!!

بهذه النفس المريضة ، مشى النفاق على الأرض ، وأراد إرجافاً برسول الله ﷺ ، وترهيباً للمؤمنين الذين مضوا للجهاد في سبيل الله لا يحسبون حساباً لبني الأصفر ولا لغيرهم.

أمسك وديعة بن ثابت أحد رجال هذا الرهط المنافق بخيط الحديث وقال: مالي أرى قُراءَنا هؤلاء أرعبنا بُطوناً وأكذبنا ألْسِنةً ، وأجبَننا عند اللقاء[1]؟!

ولم يتوقف هذا الحوار الخبيث ، وإنما مضى طرف الحديث إلى رجل

---

(١) المغازي (٣/ ١٠٠٣).

آخر هو الجُلاس بن سويد الذي قال: هؤلاء سادتنا وأهل الفضل منا!! والله ، لئن كان محمّد صادقاً لنحن شر من الحمير!! والله ، لوددتُ أَنِّي أموت على أَنْ يُضْرَب كلُّ رجلٍ منا مئة جلدة ، وأنا ننفلت من أن ينزل فينَا القرآن بما قلتم[1]. . . !!

تذكَّر الجُلاس بن سويد عندما جاء إلى رسول الله ﷺ في المدينة ، وقد كان فقيراً ، فأعطاه مالاً من الصدقة لحاجته.

صمت الجُلاس قليلاً وقد كان زوجاً لأُم عمير ، وكان عُمير يتيماً في حجره ولا مال له ، فكفله وأحسن إليه ، إلا أنَّ عميراً على الرغم من فضل هذا الرجل عليه ، لم يقبل على إيمان هذا النفاق ، وردَّ كلمة الباطل بكلمة حق فقال: يا جُلاس ، قد كنت أحبَّ النَّاس إليَّ ، وأحسنهم عندي أثراً ، وأعزهم على أَن يدخل عليه شيءٌ نكرهه؛ والله؛ لقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتَفْضَحنَّك ، ولئن كتمتُها لأهلكنَّ ، وإحداهما أَصعب عليَّ من الأخرى.

ومضى عُمير[2] إلى رسول الله ﷺ ، فذكر له مقالة الجُلاس ، فبعث النبي ﷺ إلى الجُلاس فسأله عمّا قال عُمَير ، فحلف الجُلاس بالله ما تكلَّم به قط ، وأنَّ عُمَيراً كاذب.

وقف عُمير صامتاً بعد أن سمع هذا الكلام ، ولم ينسَ أن دعوة المظلوم لابُدَّ أن تستجاب ، فنظر إلى النبي ﷺ ومضى إلى سبيله وهو يقول: اللَّهمّ أَنْزل على رسولك بيان ما تكلّمت به[3]!!

استجاب الله عزّ وجل دعوة هذا المظلوم؛ الذي ظنَّ النَّاس به الظنون ، وهو بَعْدُ فتى يافع لم يبلغ سنّ الشباب.

نزل قول الله عزَّ وجل يفضح كذب المنافق ، ويؤكّد صدق الغلام الصغير المؤمن ، فقال تعالى في سورة التوبة:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هو عُمير بن سعيد.

(٣) المغازي (٣/ ١٠٠٥).

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

سمع رهطُ النفاق ما نزل فيهم من القرآن ، فأتَوْا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه .

فقال وديعة بن ثابت لرسول الله ﷺ وهو على ناقته ، وقد أمسك بحقب(١) ناقته ورجلاه تضرب الحجارة : يارسول الله ، إنما كُنّا نخوض ونَلعب!

لم يلتفت إليه الرسول ﷺ ، ومضى في طريقه ، فأنزل الله سبحانه وتعالى آياته كي يفضح هذا الموقف مرة أُخرى ، ويبين لهم أنَّ الله عزّ وجلّ لابد وأنه ناصر الحق ، مهما تآمر في الظلام رهط النفاق ، ومهما سوَّلت لهم أنفسهم أنَّ هناك سِرّاً على رسول الله ﷺ ، فنزلت الآيات تفضح الموقف وتقول في سورة التوبة :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ .

مضى رهط الكفر يجرُّ أذيال الخيبة ، لكن منهم من تاب ، حتى قال الجُلاس عندما سمع الآيات : الله قد عرض عليّ التوبة ، والله لقد قُلْتُ ما قال عمير؟

ولما اعترف بذنبه وَحَسُنَتْ تَوْبَتُه ، لم يمتنع عن خَيْرٍ كان يَصْنَعُهُ إلى غلامه عُمير بن سعيد ، إذ عُرِفَ عنه الرغبة في التوبة ، وانفضح أمر النفاق ، لأنَّ الله عليمٌ بكلّ شيء ، سميع بصير ، توّاب رحيم بمن حدَّثته نفسه بالتوبة .

ولم يكن هذا الموقف آخر المواقف الفاضحة في هذا اليوم المجيد يوم تبوك!

---

(١) «حَقَب» : أي الحزام الذي يلي حَقْوَ البعير .

### ج ـ اليهـود كعهدهـم:

### ١ ـ سويلـم والفتـنـة:

اليهـودي سويلـم؛ شأنـه شـأن يهود المدينـة ، خائـن مخادع ، فقد بلغ رسول الله ﷺ أنَّ ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، يثبّطون الناس عن الخروج للغزو ، ويحاولون إقناع النَّـاس بأنَّ الخروجَ في الحرّ لا جدوى منه ، وأن الروم أعدوا عُـدَّةً لا قوة لمحمد كي يواجهها ، وبلغ هذا الحديث محمداً ﷺ؛ لذلك فقد أراد الرسول ﷺ أن يقضيَ على الفتنة في مهدها ، ويطفىء جذوة الشَّرِّ قبل أن تستفحلَ نارُها ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفرٍ من أصحابه ، وأمَرهُ أن يحرق عليهم البيت.

فاستطاع طلحة بن عبيد الله وأصحابه رضي الله عنهم أن يحرقوا وكر النفاق ، ويستأصلوا شأفته[١].

وكان اليهودُ على عهدهم دائماً في الخيانة والغدر ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف ، لكن الله عزَّ وجل كان لهم بالمرصاد ، لا يدع لهم فرصةً ينالوا فيها غرضهم من عباده المؤمنين.

### ٢ ـ عبد الله بن أُبي:

ظلَّ عبد الله بن أبي منافقاً شديد النفاق حتى آخر يوم في عمره ، وقد أقبل عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول بعسكره ، ووقف مع الناس في ثنيّة الوداع ، معه حلفاؤه من اليهود والمنافقين مِمَّن اجتمع إليه ، حتى أن بعضهم قال: ليس عسكر ابن أبي بأقل العسكَرَيْن ، وأقام عبد الله بن أبي ما أقام الرسول ﷺ ، فلما أجمع الرسول ﷺ على المسير ، واستخلَفَ على المدينة محمد بن مَسْلَمة ، وقال ﷺ: «استكثروا من النِّعال ، فإن الرجل لا يزال راكباً ما دام منتعلاً»[٢].

فلمَّا سار ﷺ تخلّف عبد الله بن أُبي عن رسول الله ﷺ فيمن تخلَّف من

---

(١) «يستأصلوا شأفته»: يزيلوه من أصله.

(٢) المغازي (٣/ ٩٩٥). والحديث رواه أحمد في مسنده (٣/ ٣٦٠).

المنافقين وقال: يغزو محمّدٌ بني الأصفر، مع جَهد الحال والحرّ، والبلد البعيد، إلا ما لا قِبَلَ به!! يحسب محمد أنَّ قتال بني الأصفر اللَّعِب؟

ثم أضاف قائلاً: والله لكأني أنظُرُ إلى أصحابه غداً مُقرَّنين في الحبال(١)!

هذا ما صنعه خيالُه المنافق، كأنّه يتخيّل أنَّ هؤلاء المجاهدين عندما يلتقون بالروم ـ أو ببني الأصفر على حدّ تعبيره ـ سيقعون في الأسر على الفور. وفي الحقيقة هذه أمنية لدى الرجل، فقد امتلأ حقداً على رسول الله ﷺ، لأنه ظَنَّ في يوم من الأيام أنه ملك على المدينة، وقال الرواة: لقد همَّ النَّاس بتتويجه ملكاً علىٰ المدينة إلاَّ أن دين الحق أزهق الباطل، وبيَّن للنَّاس أَن الملك لله لا شريك له فيه، لذلك فقد تعثرت جماعات النفاق، وانطلقت رايات الإسلام تضربُ في الأرض، ويُسبِّح حاملوها بحمد الله عزَّ وجل.

**د ـ النفاق يمشي على الأرض:**

**١ ـ المعذورون**: لم تتوقف مسيرةُ الإيمان مهما جَدَّت خطوات النفاق في المسير، ولم يهدأ المنافقون أبداً ما دام لهم شيطان يحدّثهم بالشر، ويضعف نفوسهم، ويحطم ذرّات الإيمان المتبقية في قلوبهم المريضة.

جاء أُناس من المنافقين يَسْتأْذنون رسول الله ﷺ من غير عِلَّةٍ فأذن لهم، وقد قدَّرت المصادر عددهم ببضعة وثمانين رجلاً(٢).

وجاء نفر من بني غفار على رأسِهم رجل يُسمَّى خُفاف بن إيماء بن رَحْضَة، وكانوا اثنين وثمانين رجلاً، فاعتذروا لرسول الله ﷺ، فلم يعذرهم الله عزَّ وجل وقال في سورة التوبة:

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٩٩٦) والسيرة الحلبية (٣/ ١٠٢).
(٢) البداية والنهاية (٥/ ٦ وما بعدها) والمغازي (٣/ ٩٩٥).

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ .

**٢ ـ الذين همّوا بما لم ينالوا**[١] : خرج رسول الله ﷺ يوم تبوك يقاتل عدوّاً شرساً ، وبين صفوف جيشه كانت طائفة من المنافقين تريد السوء ، وتهمُّ به ، فلم تنله .

وقد كان يوم تبوك من أشدّ أيام الله شدَّة وبأساً كشَّر فيه النفاق عن أنيابه المسمومة ، لكن الله تعالى قدَّر ما لم يكونوا يتوقّعونه ، فكان يوم سوء للمنافقين ، وخزي لهذا النفاق الذي مشى على الأرض سريعاً خبيثاً .

وفي هذا المشهد ، كان رسول الله ﷺ ببعض الطريق ، ولما رآه أُناسٌ من المناقين ائتمروا به ، وأضمروا في نفوسهم أَن يطرحوهُ من عقبةٍ في الطريق ، أو يلقوه من أعلى ربوة فيصيبه السوء . . . !! لقد نسوا أن الله يعصمه من الناس .

بَلَغ رسول الله ﷺ العقبة التي أرادوا أن يسلكوها معه ويؤذوه فيها ، وعلى الفور أُخبر رسول الله ﷺ خبرهم فقال ﷺ للناس : «اسلكوا بَطْنَ الوادي ، فإنه أسهل لكم وأوسع» !

سلك الناسُ بطنَ الوادي ، وسلك رسول الله ﷺ العقبة ، وأَمَرَ صاحبه عمار بن ياسر أَنْ يأْخذ بزمام الناقة يقودها ، وأمر صاحبه حذيفة بن اليمان أن يسوق الناقة من خلفه ، فبينما رسول الله ﷺ يسيرُ في العقبة إذ سمع حِسّ القومّ قد غَشوه ، واقتربوا منه .

فغضب ﷺ وأمر حذيفة أن يردّهم ، فرجع حذيفة إليهم وقد رأَوا غضب رسول الله ﷺ ، فجعل حذيفة يضرب وجوه رواحلهم بمحجنٍ[٢] في يَدِهِ ، وظنَّ القوم أَنَّ رسول الله ﷺ قد أُطلِع على مكرهم ، فانحطّوا ونزلوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادي حتى خالطوا الناس .

---

(١) انظر البداية والنهاية (٥/ ١٩ ـ ٢٠) والمغازي (٣/ ١٠٤٢) .

(٢) «محجن» : عصا معوجّة الرأس .

وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله ﷺ فساق الناقة به، فلما خرج رسول الله ﷺ من العقبة نزل الناس، فقال النبي ﷺ:

«يا حذيفة، هل عرفت أحداً من الرَّكب الذين رددتهم»؟

قال حذيفة: يا رسول الله، عرفت راحلة فلان وفلان وكان القوم مُلثَّمين فلم أُبصرهم.

ويروي حذيفةُ المشهد كلّه في رواية أُخرى فيقول: كنت آخذاً بخطام[1] ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة، حتى إذا كُنّا بالعقبة إذا باثني عشر رجلاً قد اعترضوه فيها.

قال: فأنبهت رسول الله، فصرخ بهم فولّوا مدبرين.

فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم»؟.

قلنا: لا يا رسول الله، قد كانوا مُلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب.

قال: «هؤلاء المنافقون إلى يومِ القيامةِ، وهل تدرون ما أرادوا»؟

قلنا: لا.

قال عليه الصلاة والسلام: «أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة فيلقوه منها».

قلنا: أولا نَبْعثُ إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كلّ قوم برأس صاحبهم؟

قال عليه الصلاة والسلام: «لا، أكره أن يتحدَّثَ العربُ بينهم أن محمداً قاتل لقومه، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم»[2].

وفي رواية أخرى: أن رسول الله سماهم لعمار وحذيفة فقالا: يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) «خطام»: هو الحبل الذي يُقاد به البعير.

(٢) رواه البيهقي كما في البداية والنهاية (٥/١٨).

«أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[١].

ويصبح أُسيد بن الحضير فيذهب إلى رسول الله ﷺ ليسأله فيقول: ما منعك البارحة من سلوك الوادي، فقد كان أسهل من العقبة؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «يا أبا يحيى، أتدري ما أراد البارحة المنافقون وما اهتموا به؟ قالوا: نتبعه في العقبة، فإذا أظلم الليل عليه قطعوا أنساع[٢] راحلتي ونخسوها حتى يطرحوني من راحلتي».

فقال أسيد: يا رسول الله، فقد اجتمع الناس ونزلوا، فمرْ كل بطن أن يقتل الرجل الّذي همّ بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإن أحببتَ، والذي بعثك بالحقّ، فنبئني بهم فلا تبرح حتى آتيكم برؤوسهم، وإن كانوا في النَّبيت[٣] فكفيتك، وأَمرتَ سيد الخزرج فكفاك من في ناحيته، فإن مثل هؤلاء يتركون يا رسول الله؟ حتَّى متى نداهنهم وقد صاروا اليوم في القلّة والذّلّة، وضَرَب الإسلام بجرانه أي قرَّ قراره واستقام فما يُسْتبقى من هؤلاء؟

قال رسول الله ﷺ لأُسيد: «إني أكره أن يقول النَّاس: إن محمداً لما انقضت الحربُ بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه»!

فقال أسيد: يا رسول الله، فهؤلاء ليسوا بأصحاب!

قال رسول الله ﷺ: «أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله»؟

قال: بلى، ولا شهادة لهم!

قال: «أليس يُظهرون أني رسول الله»؟

قال: بلى ولا شهادة لهم..!

---

(١) المصدر السابق.
(٢) «أنساع»: جمع نِسْع، وهو سيرٌ عريض طويل تُشَدّ به الحقائب أو الرّحال أو نحوها.
(٣) يقصد مكاناً بعيداً.

قال: «فقد نُهيت عن قَتْل أولئك»[1].

وقد ذكر الرواة أنهم كانوا ثلاثة عشر رجلاً ، وقد سمَّاهم الرسول لحذيفة وعمار رضي الله عنهما.

وهكذا فقد مشى النفاق على الأرض كثيراً ، إلا أن الله كان خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين.

* * *

(١) المغازي (٣/ ١٠٤٤).

# الفصل الثالث

# المعذورون

- عصاة تائبون.
  ١ ـ الثلاثة الذين خلّفوا.
  ٢ ـ خلطوا صالحاً وسيئاً.
  ٣ ـ كن أبا خيثمة.
- جهاد المقلِّين.
  أ ـ أبو ذر على الطريق.
  ب ـ أبو رهم الغفاري.

## عصاة تائبون

### ١ ـ الثلاثة الذين خُلِّفوا[1]:

ما إن اندفع الغزاةُ المجاهدون من أصحاب الرسول ﷺ حتى لانت لهم الأودية والجبال، ولم يستعصِ على إيمانهم حرٌّ شديد، أو عسرة من المال، أو بلد بعيد.

لم يخيفهم حديث النّاس عن قوة وجبروت عدوّهم الرومي، ولم يخافوا الفتنة من بنات بني الأصفر؛ لأن إيمانهم أَشد من كُلِّ متاع الحياة الدنيا.

امتلأت الصحراءُ بالخيل والبغال والدواب، تحمل أسفار المجاهدين في سبيل الله، وأخذ كل مؤمن مكانه في هذا الجمع المبارك، إلاّ ثلاثة لم ينتظموا في الصفوف، وكان عدم انتظامهم مثار دهشة القافلة كلها؛ إذ يتمتع كلّ منهم بغنى ويسار يمكّنه من ارتحال أشدّ الإبل وأحسن الخيل، وهم أيضاً على إيمان لاشكَّ فيه.

تخَلَّف الثلاثةُ عن الجمع المبارك، جَمْع رسول الله ﷺ وجنده الميامين، ومضى الركب وغاب عن الأعين، وتقاعست هممهم في أول الأمر فلم يلحقوا بالركب.

ولم يلبثوا أن استشعروا الندم على ما اقترفوا من ذنب، وأَحسّوا أن فعلتهم هذه ليست من الإيمان في شيء، فهمُّوا باللحاق بموكب رسول الله ﷺ، ولكن سهم التردُّد في نفوسهم أخذ مأخذه كما ينفذ السكين في الزُّبد. ومضت الأيام وتوالت، بعد أن صرفهم التردُّد عن اللحاق

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٧ وما بعدها) والمغازي (٣/ ٩٩٥ وما بعدها).

برسول الله ﷺ ، فمضى عليه الصلاة والسلام وأمعن في الغزو ، وانقطع لديهم أمل اللحاق به ، وقعدوا في بيوتهم.

كان الثلاثة الذين خُلِّفوا هم: كعب بن مالك أخو بني سلمة ، ومرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف ، وهلال بن مُرَّة أخو بني واقف.

كانوا على قدر من الغنى واليسار ، والصحة والقوّة ، مما يتيح لهم الخروج مع إخوانهم ، فما إن مكثوا في المدينة حتى أظلتهم بها ليال طويلة قاسية ، وساعات صعبة ، فما في المدينة من اعتادوا الجلوس إليهم والتمتع بمجالستهم؛ ونبيهّم محمد ﷺ مضى ، ولم ينعم أحدٌ منهم بصحبته ، فكانوا يخرجون نهارهم يروحون ويغدون ، فلا يرون إلاّ منافقاً ضَعُفَ دينُه ، وقلَّت همَّتُه ، مطعون في إيمانه بالنفاق والرياء ، أو يرون مرضى ضعفاء مِمَّن عذرهم الله عزَّ وجل.

ضاقت صدورُهم ، وتساقطت دموعهم ، وتصاعدت أحزانهم ، إذ لم يكونوا منافقين ولا ممن يطعن في إيمانهم ، وكان الجهاد أحب الأعمال إلى قلوبهم ، فلم يكونوا أقل حُبّاً للجهاد ممن سبقهم ، ولا أرغب في الموت في سبيل الله ممن تخلَّفوا عنهم وتركوهم يمضون دون صحبتهم.

أصبح موعد عودة رسول الله ﷺ للمدينة موعداً مخيفاً بالنسبة لهم ، فكانوا كلما اقترب هذا الموعد ضاقت عليهم الدنيا ، وتوالت عليهم الهموم ، وأُقِضَّت مضاجعهم ، فكيف يلقونه؟ وماذا يعتذرون به؟ وقد تعرّوا تماماً من أي حجّة يمكن أن يقنعوا بها رسول الله ﷺ.

نظروا حولهم فوجدوا أرزاقاً لا حدود لها يرسلها عليهم ربُّ الأرزاق ، ونظروا في أنفسهم فوجدوا صحة البدن تتراءى لهم ، ولا مجال لإنكارها ، وبينما كانوا في همّهم هذا ، وبؤسهم الشديد ، تناهى إلى الأسماع اقتراب قافلة رسول الله ﷺ عائداً من تبوك.

عاد ﷺ من جهاده ، ومضى إلى مسجده الشريف كما اعتاد لأداء الصلاة قبل أن يلتقي بالنَّاس.

وأقبل أُناس تخلَّفوا عنه وقد أخذوا يبسطون له الحجج والمعاذير، وينتحلون الأسباب، ويقسمون بالله جهد أيمانهم، فبايعهم رسول الله وقبل علانيتهم، أما النيات فوكل أمرها لله عزَّ وجل.

أقبل أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا عن رسول الله ﷺ، وهو كعب بن مالك، يتعثر في مشيته، وترتعد فرائصه من الخوف والخجل، ونظر إلى وجه رسول الله ﷺ، فإذا به على وجهه ابتسامة يُعْرَفُ منها الغضب، وقال له عليه الصلاة والسلام:

«ما خلَّفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك»؟ قال كعب بن مالك في خوف شديد: بلى يا رسول الله، والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطِيتُ جَدَلاً، ولكنِّي والله لقد علمتُ أني لئن حدَّثتك حديثاً فيه كذب ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يُسخِطك عليَّ، ولئن حدَّثتك حديث صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فيه، إني لأرجو عفو الله، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

فقال ﷺ: «أمَّا هذا فقد صدق، فقم حتَّى يقضي الله فيك».

أما مرارة بن الربيع، وهلال بن مرّة، فقد حَضرَا إلى رسول الله ﷺ، فتحدَّثا إليه بمثل ما تحدَّث به صاحبهم كعب بن مالك، فتركهما عليه الصلاة والسلام لقضاء الله وقدره، شأنهما شأن صاحبهما، إن شاء يعذبهم وإن شاء تاب عليهم وغفر لهم.

وما إن انصرف عليه الصلاة والسلام عنهم حتى نهى النَّاسَ عن كلامهم والاختلاط بهم، حتى يفصل الله في أمرهم.

ومرت الأيام ثقيلةً على هؤلاء، فقد تقسَّمتهم الهموم، وجالوا في أودية الحزن، وَلَقُوا من جفوةِ رسول الله ﷺ مشقةً وبَلاَءً، وزادت المشقة من عزلة أصحاب رسول الله ﷺ عنهم، فلقوا من كلّ هذا عنتاً وعَناءً.

مكث مرارة بن الربيع في بيته، وكذلك هلال بن مرَّة، وعكفا على البكاء والنحيب في بيتهما، انتظاراً لقضاء الله تعالى.

أمّا كعب بن مالك فكان أحسن حالاً من أصحابه إذ كان يخرج إلى الأسواق ، ويعمل فيما يعمل فيه الناس ، ويشهد الصلاة ، ويغشى الطُّرُقات ، ولكن لا يكلمُهُ أَحَدٌ ، ولا ينظر إليه أحدٌ ، وأحسب أن أشدَّ ما عاناه كعب بن مالك هو هذا الموقف عقب كلّ صلاة يؤدّيها ، فقد كان يُقْبلُ على رسول الله ﷺ بعد أن يَنْفَلِتَ من الصلاة فيُلْقي عليه السلامَ ، ولا يدري من اضطرابه ردّ عليه أم سكت.

ضاقت الدُّنيا على كعب بن مالك رغم اتساعها ، واشتدَّ به الهمُّ من جفوةِ النَّاس فذهب إلى ابن عمه أبي قَتَادَة «الحارث بن ربعي» ، وكان أبو قَتَادَة أَحَب الناس إلى قلبه ، فتسوَّر عليه جدارَ بُستانه ، فسلَّم عليه ، فلم يرد ابنُ العم السَّلام.

فقال وقد كادت الغُصَّةُ في حَلْقِهِ أن تُعْجزَ لسانه:

يا بن العم ، يا أبا قتادة ، أنشدك الله ، هل تعلمني أُحِبُّ الله ورسوله؟

سكت أبو قتادة ، ولم يُعِرْ حديثه اهتماماً.

كرَّر كعب بن مالك قوله لابن عمه ، فقال أبو قتادة في صدٍّ وجَفاء: الله ورسوله أعلم!

فاضت عينا كعب بن مالك ، وتولى عن ابن عمه حزيناً باكياً.

مضى كعب بن مالك في الطريق زائغ البصر ، محطَّم الفؤاد ، موزَّع الفكر ، وإذا برجلٍ من نصارى الشام ، ممن قدم بالطعام ، ليبيعه في المدينة يقول: أين كعب بن مالك؟

فطفق النَّاس يشيرون إليه ، فلما عرفه قدَّم إليه كتاباً من ملك غَسَّان ملفوفاً في حرير ففتحه فإذا فيه: «إلى كعب بن مالك ، أما بعد فقد بلغني أن صاحِبكَ قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هَوَان ولا مَضْيَعَة ، فالحقْ بنا نُوَاسِكَ».

أما كعب فقد هَزَّه من الأعماق هذا الأسلوب الدنيء المتدني ، فبكى

وانتفض جسده وصرخ قائلاً: كعب قد هانَ أمرُه وانحط قَدْره، وأصبح ممن يُطْمَعُ في دينه، وَيُرْجَى تنصرُّه؟ ثم أخذ الرسالة وألقاها في النار.

مضت أربعون يوماً ولم ينزل على النبي في هؤلاء المتخلفين عن الجهاد شيء من الوحي، ولم يفصل في أمرهم بشيء، إلا أنه ﷺ أضاف إليهم أمراً جديداً، إذ أرسل إليهم أن اعتزلوا أهليكم حتى يقضي اللهُ أمره فيكم.

سمعت امرأة هلال بن مرة بذلك، فَدَلَفت إلى النبي ﷺ، وقالت: يا رسول الله، إنَّ هلالاً شيخ ضائع، ليس له خادِمٌ، فهل تكْرَهُ أن أخدمه؟

قال عليه الصلاة والسلام: «لا، ولكن لا يقربك».

قالت: إنه والله ما به مِنْ حركة إلى شيء، وإنه ما زال يبكي منذ كان من أمرِهِ ما كان إلى اليوم.

مضت امرأة هلال بن مرة تقوم على خدمة زوجها بعد أن استأذنت من رسول الله ﷺ، وقد تجلت رأفته، وفاضت رحمته، فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم.

ونعرّج الآن على كعب بن مالك، فإنه لما جاءه رسول الله ﷺ يأمره أن يعتزل امرأته قال: أطلّقها أم ماذا أفعل؟

قال عليه الصلاة والسلام: «بل اعتزلها ولا تقربها».

فقال له بعض أهله: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذِنَ لامرأةِ هلال أن تخدمه؟!

فقال: والله لا أستأذِنُ فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله وأنا رجل شابٌّ؟

ثم سرحها، وظل بعيداً عنها. وأصبح الأمر معلّقاً، والحديث مع الثلاثة محظوراً، حتى مضى على هذه الحال خمسون ليلة، ويأتي فرجُ الله تعالى على عباده الثلاثة ذات يوم عندما تنفس الصبح، وأقبل المصلّون على مسجد رسول الله ﷺ يؤدون الصلاة المكتوبة، وما إن فرغ عليه الصلاة والسلام من

الصلاة ، حتى أَطرق برأسه وغاب بروحه عمّن حوله ، ثم أقبل على صَحْبِهِ الكرام ، مُهَلّلَ الوجه ، منشرح الصدر ، وأعلن فيهم أن الله تعالى قبل توبة كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن مرة ، فاذهبوا إليهم مهنّئين مبشّرين ، قال الله عزَّ وجل في سورة التوبة:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ونترك كعب بن مالك يروي لنا قصة البشرى؛ وكيف بلغه هذا النبأ المفرح ، يقول كعب بن مالك[1]: فلما صلَّيتُ الفجر صُبْح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيتٍ من بيوتنا ، فبينما أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله عزَّ وجل ، قد ضاقت عليَّ نفسي ، وضاقت عَلَيَّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوتَ صارخٍ أوفى على «جبل سلع» يقول بأعلى صوته: يا كعب أبشر ، فخررتُ ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرجٌ ، وأذَّن[2] رسول الله ﷺ الناسَ بتوبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر.

فذهب الناس يبشّروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشّرون ، وركض رجل إليَّ فرساً ، وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزعتُ له ثوبيّ فكسوتُهُ إيّاهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبَيْنِ فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ ، فتلقّاني النَّاسُ فَوْجَاً فوجاً يهنّئوني بالتوبة ، يقولون: ليهنك توبة الله عليك.

ثم مضى كعب يقول: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٢٣).

(٢) «أذَّن»: أعلم.

حوله النَّاس ، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرولُ حتى صافحني وهنَّأني ، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة.

ومضى كعب يصفُ هذا المشهد العظيم ، ونحن إذ نمتع النفس به فلا نقطع هذا الحديث الطيب ، قال كعب بن مالك: فلمَّا سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجههُ من السرور: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك».

فقال كعب لرسول الله ﷺ: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟

قال عليه الصلاة والسلام: «لا بل من عند الله».

فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله.

قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك».

ويمضي كعب قائلاً: قلت فإني أمسكُ سهمي الذي بخير ، وقلت: يا رسول الله إن الله إنَّما نجّاني بالصدق ، وإن من توبتي ألاَّ أتحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله أحسن مما أبلاني ، ما شهدتُ منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيتُ ، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فوالله ما أنعمُ الله عليَّ من نعمةٍ قطّ بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا.

ثم أقبل هلال بن مرة ، ومرارة بن الربيع ، فهنأهما رسول الله ﷺ ، وتلا عليهم الآيات السابق ذكرها.

**٢ ـ خلطوا صالحاً وسيئاً:**

تمضي رحلةُ هذه المشاهد في تباين للأحداث ، وتفاوتٍ في درجات

الإيمان ، وعظمة القرآن الذي فضح نفاقَ المنافقين في المشاهد الأولى التي ذكرناها.

أمّا مشاهد العصيان والتوبة والمغفرة ، فلم تكن للثلاثة الذين خلّفوا فقط ، وإنّما نستعرضها هنا مع هؤلاء الذين تخلّفوا عن رسول الله ﷺ وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وقد اعترفوا بذنوبهم ، وعبّروا عن هذا الاعتراف بشجاعة لا تُوصف ، وتترك آثارها في النفس الإنسانية.

فما إن رجع رسول الله ﷺ من تبوك حتى وجد سبعة من الرجال وقد أوثقوا أنفسهم بسواري المسجد ، فلمّا مرَّ بهم رسول الله ﷺ قال: «من هؤلاء» قالوا: أبو لبابة وأصحاب له تخلَّفوا عنك حتى تطلقهم وتعذرهم.

فقال عليه الصلاة والسلام: «وأنا أقسمُ بالله لا أُطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله عزَّ وجل هو الذي يطلقهم ، رغبوا عني وتخلَّفوا عن الغزو مع المسلمين»[1].

فلما بلغهم قولُ رسول الله ﷺ قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يُطلقنا فأنزل الله عز وجلّ قوله في سورة التوبة:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قال ابنُ كثير: وعسى من الله واجب.

فلما أنزلت الآية أرسل إليهم رسول الله فأطلقهم وعذرهم فجاؤوا بأموالهم وقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدَّق بها عنَّا واستغفر لنا.

فقال عليه الصلاة والسلام: «ما أُمِرْتُ أن آخذ أموالكم».

فأنزل الله عزَّ وجل قوله في سورة التوبة:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٢٤).

أما الذين لم يربطوا أنفسهم في سارية المسجد فقد نزل فيهم قوله عزَّ وجل في سورة التوبة.

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

وقد أرجؤوا حتى نزل قول الله عزَّ وجل في سورة التوبة:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ويمضي موكبُ التائبين في طريقه الذي فاض بالرحمة والمغفرة حتى نصل إلى أبي خيثمة، ترى ما هي قصَّةُ هذا الرجل؟

**٣ ـ كن أبا خيثمة:**

أبو خيثمة صحابي جليل اسمه عبد الله بن خَيْثَمة السالمي[١]، كان رجلاً مؤمناً، وصحابياً جليلاً، لا يُتَّهم في إسلامه ولا يُرتاب في سلوكه.

تخلف أبو خيثمة مع المتخلِّفين في المدينة، ورجع إلى داره بعد أن سار رسول الله ﷺ مسيرة عشرة أيام، حتى دخل على امرأتين له في يوم حارٍّ فوجدهما في عريشين لهما، قد رشت كُلُّ واحدةٍ منهما عَريشَها، وبرّدت له فيه ماءً، وهيَّأت له فيه طعاماً، فلمّا انتهى إليهما قام على العريشين فقال: سبحان الله! رسول الله ﷺ قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر في الضِّحّ[٢] والريح والحرّ، يحمل سلاحه على عُنُقه، وأبو خيثمة في ظلالٍ باردة، وطعامٍ مُهيَّأٍ، وامرأتين حسناوين، مقيم في ماله، ما هذا بالنَّصَف!

شعر أبو خيثمة أنه ظالم لنفسه، وقال بعد محاسبتها: ما هذا بالنَّصَف!!

ثم قال في إصرار: والله، لا أدخل عريشَ واحدةٍ منكما حتى أخرجَ فألحق برسول الله ﷺ.

---

(١) المغازي (٣/٩٩٨).

(٢) «الضِّح»: ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض.

فأناخ بعيره وشدَّ عليه قَتَبه وتزود وارتحل[1].

جعلت امرأَتـاه تكلمانه ، وهو يسمعُ ولا يجيب حديثهما ، ومضى مسرعاً يَجُدُّ السَّيْرَ حتى أَدرك عُمَير بنَ وهب الجُمَحي بوادي القُرَى يريد النبي ﷺ ، فصَحبه ، فترافقا وسارا معاً حتى إذا اقتربا من تبوك قال أبو خيْثَمة: يا عمير! إنَّ لي ذنوباً وأنتَ لا ذنبَ لك ، فلا عليك أن تَخلَّف عني حتى آتي رسول الله ﷺ قبلك ففعل عُمير.

سار أبو خيثمة حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ ، وهو نازِلٌ بتبوك.

عندئذ قال الناس: هذا راكبُ الطريق!

فقال رسول الله ﷺ: «كُنْ أَبا خَيْثَمَة»!

فقال النَّاس: يا رسول الله ، هذا أبو خَيْثَمَة!

فلما أناخ أقبل فسلَّم على النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أَبا خيثمة»!

ثم تحدَّث أبو خيثمة مع رسول الله ﷺ عن خبره وما حدَّث به نفسه في المدينة.

دعا رسول الله ﷺ لأبي خيثمة ، وانضم هذا التائب المؤمن إلى بيته وعرينه. إنه بيت الإيمان.

## جـهـاد الـمقـلِّـين

المقلُّون هم الفقراءُ الذين قلَّ مالهم ، وقد وُصِفَ البكاؤون بالمقلِّين نظراً لفقرهم وقلّة ما لديهم من إبل ومال.

وقبل أن نتحدث عن البكائين فإننا نعرّج قليلاً على أبي ذر الغفاري صاحب رسول الله ﷺ ، والرجل الصادق الذي طالما قال رأيه لا يخشى في الحق لومة لائم.

---

(١) المغازي (٣/٩٩٨).

## أ ـ أبو ذر على الطريق:

مضى رسول الله ﷺ من ثنية الوداع سائراً ، يقصد جهاد الروم ، ومضت معه كوكبةٌ من الصادقين القابضين على دينهم بقوّة.

وتخلف عن رسول الله ﷺ أُناسٌ كثيرون ، منهم منافقون ومنهم مَعْذُورون ، ومنهم من صدق في إيمانه فلحق رسول الله ﷺ ، ومنهم من طلب التخلف بحجَّةٍ واهيةٍ فأذن لهم ، لكن الله لم يأذنْ لهؤلاء أبداً.

جعل الرجالُ يتخلَّفون عن رسول الله ﷺ، فيقول أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله ، تخلَّفَ فُلان!! فيقول ﷺ: «دعوه ، فإن يك فيه خيرٌ فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»!

وقد خرج مع الرسول ﷺ عددٌ كبير من النَّاس ، من بينهم منافقون لم يخرجوا إلاَّ رجاء الغنيمة والمال.

ومن جملة من خرج مع النَّاس الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري ، ومن الأنسب لنا أن نترك أبا ذر الغفاري رضي الله عنه يتحدَّث بلسانه عن هذه الأحداث ، يقول أبو ذر رضي الله عنه: أبطأتُ في غزوة تبوك من أجل بعيري ، فقد كان هزيلاً نضواً من كثرة الأسفار. فقلت: أَعْلِفه أَيّاماً ثم أَلحَقُ برسول الله ﷺ. فعلفته أياماً ثم خرجتُ ، فلمّا كنت بذي المَرْوَةِ ، عَجزَ بي ، فتلوّمتُ عليه يوماً فلم أرَ به حركة ، فأَخذت متاعي فحملتُه على ظَهْري ، ثم خرجتُ أَتبعُ رسول الله ﷺ ماشياً في حرٍّ شديدٍ ، وقد تقطَّع النَّاس فلا أرى أحداً يلحقنا من المسلمين[1] ، فطلعتُ على رسول الله ﷺ نِصْفَ النهار وقد بلغ مني العطش مبلغه ، فنظر ناظرٌ من الطريق فقال: يا رسول الله ﷺ! إنَّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحدَه. فجعل رسول الله ﷺ يقول: «كُنْ أَبا ذرّ»! فلمّا تأمّلني القوم قالوا: يا رسول الله ، هذا أَبو ذرّ! فقام رسول الله ﷺ حتى دنوتُ منه فقال:

---

(١) المغازي (٣/ ١٠٠٠).

«مرحباً بأبي ذرٍّ! يمشي وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويُبْعَث وحدَه»! وقال عليه الصلاة والسلام: «ما خلَّفك يا أبا ذرّ؟». عند ذلك أخبره خبرَ بعيره ، ثم قال: «إن كُنْتَ لَمِنْ أَعزّ أهلي عليَّ تخلُّفاً ، لقد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خُطوة ذَنْباً إلى أن بلغتني»[1].

ووضع أبو ذر متاعه عن ظهره ثم استلقى ، وطلب ماءً فأُتِي بإناءٍ من ماءٍ فشربه ، ثم أكمل طريق الجهاد مع رسول الله ﷺ.

ولما مات أبو ذر لم يكن معه إلاّ امرأته وغلامه فأوصاهما وقال: اغسلاني وكفناني ، ثم ضعاني على قارعة الطريق إذا أنا متُّ.

عندئذ أقبل عبد الله بن مسعود من العراق في رهط من الناس يقصدون أداء العمرة فلما أقبلوا سلّموا على زوجته ، وقال رجل منهم: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ ، فأعينوني عليه[2].

بكى عبد الله بن مسعود يومها وهو يقول: صدق رسول الله ﷺ: «أبو ذر يمشي وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويُبعَث وحدَه» ثم نزل مع أصحابه وواروه التراب.

**ب ـ أبو رُهم الغفاري:**

كان من المبايعين تحت الشجرة في بيعة الرضوان ، فكان فيمن فازوا بقول الله سبحانه وتعالى في سورة الفتح:

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

وأبو رُهم الغفاري هو كلثوم بن الحصين ، رجل من قبيلة غفار المشهود لها بالبأس والشدة ، وكان ممّن رضي الله عنهم مؤمناً مبايعاً غازياً.

وكان من المجاهدين يوم تبوك فلم يتخلّف عن رسول الله ﷺ ، بل كانت

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

خطاه تتبع خطى رسول الله على الطريق ، وقد تحدَّث أبو رُهم عن أحداث هذا اليوم فقال: غزوتُ مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك ، فلما فصل سرى ليلة فسرتُ قريباً منه وأُلقي عَلَيَّ النعاس ، فطفقتُ أستيقظ ، وقد دنت راحلتي من راحلته ﷺ فيفزعني دنوّها منه خَشْيَةَ أَن أُصيب رِجْلَهُ في الغرز ، فأوخِّر راحلتي حتَّى غلبتني عيني نصفَ الليل ، فركبت راحلتي راحلته ﷺ ، ورجل النبي ﷺ في الغَرْز ، فأصابت رجله فلم أستيقظ إلاَّ بقوله: «حِسِّ»[1]. فرفعت رأسي ، فقلت: استغفر لي يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «سل».

فقال: فطفق يسألنِي عمَّن تخلّف من بني غفارٍ ، فأُخبره؛ فإذا هو يسألني: «ما فعل النَّفرُ الحُمْر الطِّوال القِطاط[2]؟ ـ أو قال القصار ، عبد الرزاق يشك ـ الذين لهم نعم بشظية شرخ» قال أبو رُهم: فذكرتهم في بني غفار فلم أذكرهم حتى ذكرت رهطاً من أسلم ، فقلت: يا رسول الله؛ ما يمنع أحدٌ أولئك حين تخلَّف أن يحمل على بعير من إبله امرأ نشيطاً في سبيل الله ممّن يخرج معنا ، فيكون له مثل أجْرِ الخارج!! إن كان لَمِن أَعزِّ أَهلي عليَّ أن يتخلَّف عنِّي! المهاجرون من قريش ، والأنصار ، وغفار ، وأسلم»[3].

مضى أبو رُهم مجاهداً مع رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وفاز بمرتبة الذين صَدَقوا في هذا اليوم العظيم.

* * *

---

(١) «حسّ»: كلمة تقولها العرب عند وجود الألم.

(٢) «القطاط»: جمع قَطَط وهو الشديد الجعودة.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

# الفصل الرابع

# تراجم البكّائين

- البكاؤون في القرآن الكريم.
- تراجم البكائين وسيرهم.

١ ـ العرباض بن سارية.

٢ ـ علبة بن زيد الحارثي.

٣ ـ عبد الله بن مغفل.

٤ ـ سالم بن عمير.

٥ ـ سلمة بن صخر.

## البكاؤون في القرآن الكريم

بعد استعراض مشاهد النَّاس في يوم تبوك ، وإيراد كلّ هذه النماذج من نفاق المنافقين وفضح القرآن لمواقفهم؛ بعدما ظنُّوا أنَّ نفاقَهم سينجح في إخفاء حقيقتهم ، وقوة إيمانهم.

وبعد عرض مشاهد التائبين الذين خُلِّفوا ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فتاب الله عليهم.

وبعد استعراض نماذج من جهاد المقلِّين ومنهم أبو ذر الغفاري ، وأبو رُهم الغفاري «كلثوم بن الحصين».

بعد كُلِّ هذا الاستعراض السريع لمشاهد تبوك ، نأتي إلى أَهم مشهد في هذا اليوم ، وهو المشهد الذي اتخذ وضعاً متميزاً ، فبينما يتخلَّفُ المتخلفون ، ويتعذَّر المُتَعذِّرون بحجج واهية ، نجد من النَّاس من يحرصُ كُلَّ الحرص على الخروج للجهاد في سبيل الله ، ومن العجب العجاب أنَّ بعضَ الذين تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ كانوا يعيشون في وفرةٍ من المال ، ورغدٍ من العيش ، وقد ملكوا ما يحملهم إلى تبوك ويحمل عدداً كبيراً من المسلمين الذين لا يجدون ما يحملهم إلى ساحِ الجهاد ، ورغم كل هذا فإنهم بخلوا أشد البخل ، وسقطوا في الفتنة حائرين.

والبكاؤون كوكبةٌ مؤمنةٌ عبَّرت عن مشاعرها بأشد ما يملك الإنسان من مشاعر ، فكان عجزهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ سبباً في حالة من الحزن الشديد؛ على أثره فاضت أعينُهم من الدمع فتولوا في الطرقات وقد هاموا على وجوههم ، وساحت الدموع على خدودهم الطاهرة ، فكانت كُلّ قطرة بمثابة وسامٍ من أوسمة الإيمان وُضِعَ على جبينهم ، لم يسجلهم تاريخٌ

في سجلّه ، بل سجلهم ما هو أشرف وأنبل من أيّ تاريخ ، فلقد ذكرهم القرآن الكريم إذ قال عزَّ وجل في سورة التوبة:

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾.

وفي الطريق قال رسول الله ﷺ لأصحابه عن هؤلاء: «لقد خلَّفتم بالمدينة أقواماً؛ ما أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم وادياً ، ولا نلتم من عدو نيلاً إلا وقد شركوكم في الأجر»[1]. ثم قرأ:

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾.

قال بعض الصحابة في دهشة: وهم بالمدينة؟

قال عليه الصلاة والسلام: «نعم حبسهم العذر»[2].

وتتلخص قصة البكائين في أنهم يوم العسرة «تبوك» جاؤوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا نبي الله قد ندبتنا للخروج معك ، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة ، نَغْزُ معك.

فقال ﷺ: «لا أجد ما أحملُكُم عليه».

فتولّوا وهم يبكون.

وفي هذا يقول ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب ، وكان الرجل يحتاج إلى بعيرين ، بعير يركبه وبعير يحمل ماءه وزاده لبعد الطريق[3].

مضى البكاؤون وقد فاضت أعينُهم من الدمع حزناً على عدم خروجهم للجهاد مع رسول الله ﷺ ، لم يُلْقِ أحدهم بالاً للحر الشديد ، ولا لبعد

(١) رواه ابن أبي حاتم من حديث الحسن ، كما في (تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٦).
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٢٨).

الطريق ، أو البلد البعيد ، كما تعلَّل المنافقون؛ ومنهم عبد الله بن أبي بن سلول ، أكبر المنافقين وأشدهم عداءً للإسلام.

ولمّا خرج البكاؤون من عند رسول الله ﷺ وقد أعلمهم أنَّه لا يجد ما يحملهم عليه ، لَقِيَ أحد الصحابة وهو يامين بن عُمير بن كعب بن شبل النفري ، عبدَ الرحمن بن أبي ليلى المازني أحد البكائين ، ومعه عبد الله بن مغفل المُزَنّي ، وهما يبكيان فقال: ما يُبكيكما؟

قالا: جئنا إلى رسول الله ﷺ ليحملنا ، فلم نجدْ عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نُنفق به على الخروج ، ونحن نكره أن تفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ.

فأعطاهما ناضِحاً له ، فارتحلاه ، وزوَّد كُلّاً منهما صاعين من تمر ، فخرجا مع رسول الله ﷺ.

وحمل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رَجُلَيْن ، وحمل عثمان رضي الله عنه منهم ثلاثة ، بعد الّذي كان جَهَّز من الجيش[(١)].

رواية أخرى تقول: وقد دعاهم رسول الله ﷺ وأعطاهم خمس ذود غُرِّ الذُّرى[(٢)] ، وقال عليه الصلاة والسلام: «فانطلقوا فإنما حملكم الله»[(٣)].

مضت قافلة الإيمان ، وغسلت دموع المؤمنين وجوههم الطاهرة ، فجعلت حرَّ هذا اليوم برداً وسلاماً ، وعزّاً وإيماناً يسمو فوق كل إيمان.

* * *

---

(١) المغازي للواقدي (٣/ ٩٩٤) وإذا قارنا رواية الواقدي ربما يظنُّ الظَّانُّ عند مقارنته حديث رسول الله السابق: «لقد خلفتم أقواماً» تناقضَ الرواية مع الحديث من أنهم لم يخرجوا. وأقول: إنَّهم لحقوا بالرسول ، وقد قال عليه السلام حديثاً قبل لحاقهم به ، وقد عذرهم القرآن في قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ﴾. والله أعلم.

(٢) «غرّ الذرى»: بيض الأسنمة ، والغرّ: جمع الأغرّ وهو الأبيض ، و«الذّرى»: جمع ذروة ، وذروة كُلّ شيء: أعلاه.

(٣) رواه مسلم.

## تراجم البكائين وسيرهم

لاشك أن البكائين في حاجة إلى إفرادٍ في سيرتهم ، وخاصة بعد هذه المشاهد التي ذكرناها ، ففي حياة كل واحد منهم مشاهد ومواقف رائعة ، ويكفيهم أنهم رجال أُنزل فيهم قرآنٌ ، وكانوا في عسرة الإسلام موضع يُسر يذكر فيه المؤمن أحسن الذكر ، وموضع إقبال لا إدبار ، وخروج لا تخلّف ، رغم أنهم كانوا فقراء وغيرهم غني يملك ما يحمله إلى الجهاد في سبيل الله وهم لا يملكون ، فكان بكاؤهم صادقاً عظيماً.

فقد كان بكاؤهم ودمعهم الفياض «ما يستدل به على قرائن الأحوال»(١) إذ يقول عزَّ وجل في سورة التوبة:

﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ .

ويقول الشاعر في البكاء والتباكي:

إذا اشتبكتْ دموع في خدودٍ    تبيَّنَ من بكى مِمّن تباكى

كان بكاؤهم صادقاً لأنه وليد مشاعر صادقة وإحساس مخلص تحلّوا به ، وإيمان كامل؛ هنيئاً لهم به.

لم يبك أحدهم في جمع من النَّاس وإنما «تولوا» ، ومضوا من عند رسول الله ، وحالة البكاء يجدها النَّاسُ في وجوههم بتميّز ووضوح ، ويثني عليها القرآن الكريمُ.

لقد شعروا بخسارة فادحة ، فانهزمت رغبتهم ، وتعطّلت وسيلة العمل في سبيل الله عندهم، فأملى عليهم الإيمانُ حُزْناً لا يقاوم ، فكانت هذه العبرات الغزيرة تُبلل اللحى ، وَتَغْسِلُ الهمَّ والحزنَ ، الذي ازدحم في نفوسهم.

---

(١) القرطبي (٨/ ٢٢٩).

إنهم لا يرجون عُلوّاً في الدنيا ، ولكنهم راغبون في الآخرة بعمل صالح ، ولقاء مع خالق الكون وواهب النعم سبحانه وتعالى.

لقد ندر هذا العملُ على مرِّ الزمان ، فكرَّمَهُ الله عزَّ وجل ، ووصفه بكلمات واضحة صافية كريمة.

ألا يحقُّ لنا أن نمضي في سير هؤلاء وتراجمهم لنحصي ما تيسر من مواقف ومشاهد عظيمة؟!

## ١ ـ العِرْباض بن سارية السلمي

**أ ـ بطاقة تعريف:** وصفه الذهبي بقوله: «من أعيان أهل الصُّفَّة ، سكن حمص ، وروى أحاديث»[١].

كان يحبُّ العمل على القول ، ولا يُحب أن ينسب إليه عمل هو يؤديه لوجه الله سبحانه وتعالى ، وكان يُكنى العرباض بأبي نجيح ، وفي ذلك قال: «لولا أن يقول الناس فعل أبو نجيح ، فعل أبو نجيح»[٢].

كان العرباض بن سارية السلمي أبو نجيح صحابياً مشهوراً من أهل الصُّفّة.

وقال كل واحد من عمرو بن عبسة والعرباض بن سارية: أنا رابع الإسلام ، لا يدري أيهما قبل صاحبه[٣].

روى العرباض بن سارية السلمي عن رسول الله ﷺ وعن أبي عبيدة بن الجراح ، وروى عنه أبو أُمامة الباهلي ، وعبد الرحمن بن عائذ ، وغيرهم من الصحابة الأجلاء والتابعين من أهل الشام.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤١٩).
(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٧٦).
(٣) الإصابة (٢/ ٤٧٣).

وكان العرباض قديم الإسلام ، وكان شيخاً كبيراً يُعَدُّ من كبار صحابة رسول الله ﷺ.

ب ـ **الداعية:** كان داعية يدعو النَّاس لعبادة الله ، يُرقِّقُ قلوبَ النَّاس برقائقه العظيمة القانعة ، ويذكر عن العرباض بن سارية كداعية ، حديث صاحبَيْه عبد الرحمن بن عمرو السلمي ، وحُجْر بن حجر ، قال الرجلان:

أتينا العِرْبَاضَ بن سارِيَة ، وهو ممن نزل فيه قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾.

فسلمنا عليه وقلنا: أتيناك زائرين وعائدين ومقتَبِسين.

فقال العرباض: صلى بنا رسولُ الله ﷺ الصبح ذات يوم ثم أقبل علينا ، فوعظنا موعظَةً بليغةً ذَرَفَت منها العيون ، وَوجلتْ منها القلوب. فقيل: يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودّع ، فما تعهدُ إلينا؟.

قال عليه الصلاة والسلام: «أُوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإنْ عبداً حبشياً. فإنه مَن يَعشْ منكم بعدي ، فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بسنتي وسُنَّة الخُلفاء الراشدين المهديين ، تمسَّكُوا بها ، وعضُّوا عليها بالنَّواجذ ، وإياكم ومُحْدَثَات الأمور ، فإن كل مُحْدَثَةٍ بِدعةٌ وكُلُّ بدعة ضَلاَلَة»(١).

هكذا كان العرباض داعيةً من دعاة الإسلام ، حدَّث عن رسول الله ﷺ ، ووعظ موعظة بليغة ، من أجلها ذرف بعض الحاضرين الدموع من أَسْر عرضه لحديث رسول الله ﷺ ، مما جعل قلوب مستمعيه وجلةً من خشية الله سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) في السنة ، باب لزوم السنة ، والترمذي (٢٦٧٦) في العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة ، وقال: حسن صحيح ، وابن ماجه (٤٢) في المقدمة. «وإن عبداً حبشياً»: أي وإن كان الأمير عبداً حبشياً. «النواجذ»: الأضراس.

وقد كان مشهدُ تبوك دليلاً على أنَّ العرباض يحمل في جوانحه مشاعر إسلامية ، ومعاني إيمانية رائعة ، تعبّر عن شفافية في القلب وطهارة الإيمان في النفس.

ج ـ سبعة من بني سليم: وفدتْ على النبي ﷺ وفودٌ كثيرة ، ومن بين هذه الوفود كان وفد بني سليم ، أهل العرباض بن سارية الفزاري.

وقد بدأت قصة مجيئهم عندما قَدِم على رسول الله ﷺ رجلٌ من بني سليم يقال له قيس بن نشبة ، فسمع كلامه عليه الصلاة والسلام ، وسأله عن أشياء فأجابه ووعى ذلك كله.

عند ذلك دعاه رسول الله ﷺ للإسلام فأسلم ، ورجع إلى قومه فقال: سمعت ترجمة الروم ، وهينمة فارس ، وأشعار العرب ، وكهانة الكُهّان ، وكلام مقاول حِمْيَر ، فما يشبه كلام محمد ﷺ شيئاً من كلامهم ، فأطيعوني وخذوا بنصيبكم منه.

فلما كان عامُ الفتح ـ فتح مكة ـ ووصلت أنباءُ خروج رسول الله ﷺ من المدينة قاصداً مكة ، خرجت بنو سليم فلقوا رسول الله ﷺ بقديد ، وهم سبعمئة فارس ، ويقال: كانوا ألفاً ، وفيهم العباس بن مرداس وجماعة من فرسانهم وأعيانهم[١].

فقدموا على النبي جماعات وجماعات ، يقول أحدهم وهو عُتْبةُ بن عَبْد السلمي: أتينا النبيَّ ﷺ سبعة من بني سُلَيم أكبرنا العرباض بن سارية السلمي ، فبايعنا.

وقد روى عتبة بن عبد هذه الرواية بمناسبة تحويل اسمه من عَبَلَة إلى عُتْبة بن عبد السلمي فقال: كان النبي ﷺ إذا رأى الاسم لا يُحبُّه ، حَوَّلَه ، لقد أتيناه ، وإنا لتسعةٌ من بني سليم أكبرنا العرباض بن سارية. فبايعناه جميعاً[٢].

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٨٢).

(٢) في الرواية الأولى سبعة وفي الثانية قال تسعة ، انظر سير أعلام النبلاء (٣/ ٤١٦).

وما إن أتم بنو سُلَيم بيعتهم للرسول ﷺ بقديد حتى انضموا إلى جيش الفتح المبين ، وقالوا للرسول ﷺ: يا رسول الله ، اجعلنا في مقدمتك ، واجعل لواءنا أحمر ، وشعارنا مقدماً[١].

فاستجاب النبي ﷺ لرغبة أعيان بني سليم.

مضى الموكبُ المباركُ يضمُّ البكّاء المؤمن العرباض بن سارية السّلمي ، فشارك في هذا اليوم العظيم ، فتح مكة ، وشهد بنو سُليم مع رسول الله ﷺ فتح الطائف وما كان فيه من نصرٍ للمسلمين ، وشهدوا يوم حنين أيضاً.

وإن أطرف ما جاء في روايات الثقات عن رجال بني سُليم قصة راشد بن عبد ربه السُّلمي الذي كان يَعْبُدُ صنماً قبل قدومه على رسول الله مع العرباض بن سارية السُّلمي ، وبينما هو ذات يوم عند صنمه رأى ثعلبَيْن يبولان عليه ، فأنْشَدَ يقول:

أَربٌّ يبــول الثعلبــانُ بــرأســه     لقد ذَلَّ من بالت عليه الثعالب[٢]

ثم شدّ على صنمه فكسرَهُ ، وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فأسلم وقال له رسول الله ﷺ: «ما اسمك»؟

قال: غاوي بن عبد العُزى.

فقال عليه الصلاة والسلام: «بل أنت راشد بن عبد ربه ، وأعطاه رسول الله ﷺ موضعاً يسمى رهاط ، وهي أرض فيها عين تجري يقال لها عين الرسول.

وقد عُرِف عن هذا الرجل بأنه خير بني سليم ، ولذلك فقد عقد له الرسول ﷺ لواء بني سليم يوم الفتح[٣] ، وشهد مشاهد بعدها ، وكان من جنده البكّاء العِرباضُ بن سارية السُّلمي.

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٩٢).
(٢) البداية والنهاية (٥/ ٨٣).
(٣) المصدر السابق.

ومن سياق رواية وفود بني سُليم على رسول الله ﷺ نعرف أنْ العِرباضَ بن سارية السلمي، أسلم في عام الفتح، وهو شيخ ضالع في السن.

وقد حَسُنَ إسلامه، وصدق إيمانه عندما بكى يوم تبوك وفاضت دموعه، وقال عنه رسول الله ﷺ وعن أصحابه البكائين: «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً، ولا نلتم من عدوٍّ نيلاً إلاّ وقد شركوكم في الأجر».

وكان العِرْباضُ زاهداً في الدنيا محبّاً للقاء ربه، راغباً في مغفرته وجنّته.

د ـ **رقائق وحكم:** كان للعِرباض بن سارية السُّلمي كلمات جميلة، ومشاهد مملوءة بالإيمان وكان صوّاماً قوّاماً، وقد سكن حمص بالشام، ومكث بدمشق فترةً من الزمن.

وقد روى عنه معاصروه في حمص ودمشق مشاهد كثيرة؛ نذكر منها على سبيل المثال رواية جاءت على لسان أحدهم، وهو عُروة بن رويم، قال: كان العرباضُ بن سارية يحب أن يُقبض، ويتمنى عجالة الموت، زاهداً في الدنيا، محبّاً للقاء ربه، فجلس ذات يوم يدعو قائلاً: اللهم كَبِرَتْ سني، ووهن عظمي فاقبضني إليك[١].

ثم قال: فبينما أنا يوماً في مسجد دمشق أصلي، وأدعُو أَن أقبض، إذا أنا بفتى من أجمل الرجال، وعليه ثوب أخضر جميل، فقال الفتى: ما هذا الذي تدعو به؟

قلت: وكيف أدعو يا بن أخي؟

قال: قل اللهم حسِّن العمل، وبلِّغ الأجل.

فقلت: ومن أنت يرحمك الله؟

قال: أنا «رتبابيل» الَّذي يَسُلّ الحزنَ من صدور المؤمنين.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٢١).

ثم التفت العِرْباضُ بن سارية السُّلمي ، فلم ير أحداً حوله .

ومن دلائل زهده في متاع هذه الدنيا البسيطة أنه كان يَوُدُّ لو ترك كل ماله ومضى في طريقه إلى وادٍ من الأودية المهجورة؛ ليعبد الله حتى يقبض وينتهي أجله .

وفي ذلك يقول: لولا أن يقال: فعل أبو نجيح ، لألحقتُ مالي سُبْلة ، ثم لحقتُ وادياً من الأودية عبدت الله حتى أموت[١] .

هـ ـ **الأيام الأخيرة**: عاش العِرباضُ بن سارية السُّلمي سنواته الأخيرة بين دمشق وحمص ، وكان له أحاديث وآراء مع أهل الشام ، وقد عاش عصر معاوية كُلَّه ، حتى أنه سمع ذات يوم رجلاً من حمص يقال له أبا حفص ، سمعه يقول: أَعطى مُعاوية المقدادَ حماراً من المَغنم .

فقال له العرباض بن سارية: وما كان لك أن تأخذه ، ولا له أن يعطيك ، كأني بكَ في النار تحمِلُه[٢] .

وما إن سمع الرجل كلماته ، حتى ردَّ الحمار إلى معاوية ، والروايةُ تدلُّ على مدى تأثر مجتمع الشاميين بآرائه .

وقد أجمعت المصادر على أنّه توفي بالشام في خلافة عبد الملك بن مروان ، وكانت وفاته في سنة خمس وسبعين من هجرة رسول الله ﷺ .

وقد مضى البكَّاء للقاء ربه بعد أن كسب دنياه ، ونَعِمَ بآخرته ، رضوان الله عليه .

## ٢ ـ عُلبة بن زيد الحارثي

قال تعالى في سورة التوبة :

---

(١) الطبقات (٤/ ٢٧٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٢٢).

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

**أ ـ من هو عُلبة البكاء؟**

كان كريماً جواداً يتصدَّق بما لديه من مال .

كان فقيراً ، يفيض كَرَماً رغم فقره الشديد .

كان من المطوعين المؤمنين ، ومن الذين لا يجدون إلاَّ جَهْدَهُم ، ورغم هذا فقد سخر منه الكُفَّارُ ، فسخر الله منهم وأوعدهم بعذاب أليم .

علبة بن زيد الحارثي : من المعروفين من أصحاب رسول الله ﷺ أنصاري قال عنه محمد بن سعد صاحب الطبقات : «نظرنا في نسب بني حارثة من الأنصار فلم نجده»[١] .

وقد نظرنا في نسب الصحابة من الأنصار[٢] ، فجاء اسمه في نسب بني حارثة ، فهو : علبة بن زيد بن عمرو بن جشم ، له ولابنه صُحْبة ، قال عنه ابن قدامة : أحدُ البكَّائين الذين تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع .

وقد ضَرَبَ هذا الرجل مثلاً رائعاً في عفة النفس ، وعزَّتها ، وكان قُدوةً لمن قلَّ مالهم فجزعوا من الفقر .

كان لا يسأل الناس إلحافاً ، وإنما يمد يده للعمل فيؤجر على عمله ، يُحِبُّ أن يأكلَ من عمل يده كما كان نبي الله داود عليه السلام .

أحبَّ عُلْبة بن زيد رسول الله ﷺ حُبّاً لا يضارعه وصف ، ولا يدانيه وفاء ، لقد أحبَّه ـ رضوان الله عليه ـ إلى حد الأثرة ، فكان ممن ينطبق عليهم المعنى العظيم للآية من سورة الحشر :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

---

(١) الطبقات الكبرى (٤/ ٣٧٠) .

(٢) انظر (الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار) لابن قدامة المقدسي .

**ب ـ مع اليهودي**: مرَّ علبة بن زيد الحارثي برسول الله ﷺ ، فإذا به يراه خميص البطن جائعاً ، فمضى يفكِّر في حلّ يجدُ من خلاله طعاماً يقدِّمه لرسول الله ﷺ.

وكان اليهود كعادتهم يسيطرون على المال كلّه في المدينة ، فهم أصحابُ آبار يستسقي النَّاس منها بأجرٍ يدفعونه لهم.

مرَّ علبة بن زيد بأحد هذه الآبار التي يملكها يهودي ، ورأى اليهودي جالساً بالقرب من بئره ، فاقترب منه قائلاً: «أُوجِركَ نفسي أجر الجرير»[1] والجرير هو الذي استقى الماء بالحبل.

فقال اليهودي: وماذا تطلب من الأجر لقاء عملك هذا؟

لم يطمع عُلْبَةَ بن زيد الحارثي وإنما قال: أن تعطيني صاعاً من تمر ، لا تعطيني فيه فاسداً أو يابساً.

لقد طلب أجره صحيحاً لا بخس فيه ، طالما أنه سيؤدي عمله على أكمل وجه.

قال اليهودي: نعم ، أوافق على أجرك ، هيّا للعمل.

أقبل عُلْبَة ـ رضوان الله عليه ـ على العمل بجدّ ومثابرة ، يسحبُ الماء من البئر ويسقي النَّاس الذين تزاحموا على الماء من كل مكان في المدينة ، وقد ظنَّ النَّاس أن عُلْبة يعمل من أجل طعامه ، وقد عهدوه فقيراً لا يملك شيئاً.

لكنه في الحقيقة يريد أن يحصلَ على أجره من التمر كي يقدّمه إلى رسول الله ﷺ.

ظلَّ عُلْبة يعمل مع اليهودي إلى العصر ، حتى سَرَّحه اليهودي وأعطاه التمر ، فجاء به إلى النبي ﷺ ، فجعل رجل يدعى عبد الله بن نبتل يقول: انظروا إلى هذا وما يصنع[2]!

---

(١) المغازي (٣/ ١٠٦٩).

(٢) المصدر السابق.

فنظر النَّاس إلى علبة بن زيد الحارثي ، وراح بعضهم يتعجّب ، ثم أضاف عبد الله بن نبتل فقال: ما كان يصنع بهذا؟ أما كان الله غنيّاً عن هذا؟

لذلك نزل قول الله عز وجل في سورة التوبة:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

هكذا كان لعلبة بن زيد شرف عظيم أن يشيرَ إليه القرآن في أكثر من موضع ، فَشَرُفَ حينما كان من الذين فاضت أعينهم يوم تبوك لأنهم لا يجدون ما يحملهم ويهيىء زادهم إلى أشرف ميدان ، إنه ميدان الجهاد.

وفي هذا الموضع يسخر الله ممّن سخروا من المطّوعين من المؤمنين ، الذين لا يملكون إلاّ جهدهم وعملهم وعرقهم ليقدّموا صدقة ، تزكيهم وتطهرهم.

ج ـ **علبة المتصدِّق**: كان علبة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ متصدّقاً ، رغم فقره ، وقد ندرت الروايات عن مشاهد من حياته في كتب السير المشهورة ، إلاّ أن ابنَ سعد أورد رواية عن الصدقات عن عُلْبة بن زيد الحارثي وأصحابه. فقال:

كان عُلْبة بن زيد الحارثي وذَووه قوماً لا مالَ لهم ولا ثمار ، فلما جاء الرَّطب قالوا: يا رسول الله إنَّه لا تمر لنا ولا ذهب عندنا ولا وَرِقَ ، وعندك تمورٌ مما ترسل به إلينا بقيت منه عام الأوّل.

فقال رسولُ الله ﷺ: «فاشتروا به رُطَباً بخَرْصِها».

ففعلوا ، والقوم يحبون أن يُطْعِموا عمالهم التمر[1].

وقد كان علبة بن زيد الحارثي ـ رضي الله عنه ـ فقيراً لا يملك شيئاً يتصرَّف به. فجعل النّاس يتصدَّقون ، فتصدق بعرضِهِ[2] وقال: قد جعلته حِلاًّ. فقال له رسول الله ﷺ:

---

(١) الطبقات (٤/ ٣٧٠).

(٢) العَرْض: المتاع.

«قد قَبِلَ الله صدقتك»[1].

وقد أوجز الواقدي هذه القصة التي ذكرناها عن علبة بن زيد ، فقال في سياق تعريفه بالبكّائين: ومن بني حارثة عُلْبَة بن زيد ، وهو الَّذي تصدَّق بعرْضه ، وذلك أن رسول الله ﷺ أَمر بالصدقة ، فجعل النَّاس يأتون بها ، فجاء علبة فقال: يا رسول الله ، ما عندي ما أتصدَّق به ، وجعلت عرْضي حِلاًّ.

فقال رسول الله ﷺ: «قد قَبل اللهُ صدقتك»[2].

هنيئاً لعلبة أن الله عزَّ وجل قبل صدقته ، وهنيئاً لعلبة أيضاً أن كان فقيراً فتصدَّق بمتاعه ، وهانت عليه الدنيا كاملة ، حتّى متاعه وفراشه الذي كان ينام عليه ، فما بقي إلاّ أن نردد قول الله عزَّ وجل في سورة آل عمران:

﴿ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

## ٣ ـ عبد الله بن مُغْفِلُ المُزني

قال تعالى في سورة الفتح:

﴿ ۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

**١ ـ مُزينة الصادقة المؤمنة:**

يذكر التاريخُ الإسلامي ورواة السيرة أن قبيلة مزينة كانت سبَّاقة في مجيئها إلى رسول الله ﷺ ، ويقول كثير بن عبد الله المزنّي أحد أبناء هذه القبيلة العريقة عن أبيه ، عن جدّه:

كان أولَ من وفد على رسول الله ﷺ ، من مضر ، أربعمئة من مزينة ، وذلك في رجب سنة خمس ، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم

---

(١) المصدر السابق ، وانظر: الإصابة (٢/ ٥٠٠).
(٢) المغازي: ٣/ ٩٩٤).

وقال: «أنتم مهاجرون حيث كُنتم فارجعوا إلى أموالكم، فرجعوا إلى بلادهم»[1].

وكان لرجال مزينة شرف عظيم يوم الفتح، فتح مكة.

٣ ـ بيعة الرضوان:

نتحدَّث عن بيعة الرضوان التي كانت من المشاهد الجليلة للصحابي البكَّاء عبد الله بن مغفل المزني، فقد خرج رسولُ الله ﷺ قاصداً مكة لزيارة البيت، لا يبغي حَرْباً ولا قِتالاً، ولكنه استنصرَ المسلمين ومَن حوله من الأعْراب أن يخرجوا معه، خشيةَ أن تعرضَ له قُريش بحرب، أو يصدُّوه عن البيت، فتثاقل الأعراب وقالوا: أنذهب إلى قوم قد غزوا محمداً في عُقْرِ داره بالمدينة، وقتلوا أَصحابَه، فنقاتلهم معه؟! واعتلوا بشغلهم بأموالهم وأهليهم، ولذلك نزل فيهم قوله عزَّ وجل في سورة الفتح:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾.

مضى رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لَحِقَ به من العرب، ليس معهم من السلاح إلاَّ السيوف في أغمادها، وساق معه الهدي، وأحرم بالعُمْرَة ليأمن النَّاسُ حَرْبَه، وليعلموا أنه جاء زائراً للبيت، مُعظِّماً له.

نزل رسولُ الله ﷺ بأقصى الحديبية ـ وهي موضع بينه وبين مكة مرحلة واحدة ـ ولما اطمأن به المقام جاءه بديلُ بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة[2] رسول الله، وأخبر رسول الله ﷺ أن قريشاً نزلت عند ماء الحديبية وقال له: وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّا لم نأتِ لقتال أحد، ولكنا جِئنا مُعْتَمرين، وإنَّ قريشاً قد

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٥/٣٨).

(٢) «عيبة»: موضع سِرّ.

نهكتْهمُ الحرب ، وأضرَّت بهم ، فإن شاؤوا مادَدْناهم مُدّة؛ ويخلُّوا بيني وبين النّاس ، فإن أَظْهَرُ ، فإن شاؤوا أن يدخلُوا فيما دخل فيه الناس فَعَلوا ، وإلاّ فقد جَمُّوا ، وإن أبَوْا ، فوالذي نفسي بيده لأُقَاتِلَنّهم على أمري حتى تنفرد سالفتي[1] ، أو لينفذن أمر الله»[2].

فقال بُديل: سنبلِّغهم ما تقول.

ودارت مفاوضات بين الطرفين لم تسفر عن شيء ، وعلمت قريش بأنَّ أصحابَ النبي ﷺ سيدافعون عنه وعن دينه حتى الموت.

دعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ، وبعثه إلى أشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً معتمراً.

خرج عثمان إلى مكة ، فلقيه ابن عمه أبان بن سعيد بن العاص ، فنزل عن دابّته وأجاره ، حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ إلى أشراف قريش ، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوفَ بالبيت فطُفْ به.

قال عثمان رضي الله عنه: ما كنت لأفعل حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ.

وحين قال عثمان بن عفان رضي الله عنه كلمته هذه احتبسته قريش عندها ، وتأخَّر عثمانُ في مكة ، وجاءت أخبارٌ تقولُ: إن عثمانَ قد قتل ، فقال رسول الله ﷺ لما سمع الخبر: «لا نبرح حتى نناجزَ القوم» ودعا ﷺ الناس إلى البيعة ، ونادى منادٍ: أيها النَّاس ، البيعةَ البيعةَ[3]!

أقبل النَّاس على رسول الله ﷺ ليبايعوه ، وهو تحت شجرةٍ ، وكان مِمَّن أقبل منهم عبد الله بن مغفل المزني فبايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، وضرب ﷺ كفّيه مبايعاً عثمان.

يقول عبد الله بن مغفل المزني: إني لَمِمَّنْ رفع عن رسول الله ﷺ من

---

(١) «سالفتي»: صفحة العنق ، وهما سالفتان من جانبيه.
(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٦٢٥ ـ ٦٢٦).
(٣) الطبري (٢/ ٦٣١ ـ ٦٣٢).

أغصان الشجرة يومئذ ، وإني لآخذُ بغصن من أغصان الشجرة أظلّ به النبيﷺ وهم يبايعونه فقالوا: نبايعك على الموت؟ قال: «لا ، ولكن لا تفروا»[1].

وبايع عبد الله بن مغفل المزني رسول الله ﷺ ، ولم يبايع النبي محمداً قط وإنما بايع الله عزَّ وجل ـ رضي الله عنه ـ ، فعلم ما في قلبه ، فأنزل السكينة عليه وعلى أصحابه ، ووعدهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة تأتيهم إن شاء الله تعالى.

**٣ ـ يوم الفتح المبين:**

في صلح الحديبية كانت خزاعةُ من القبائل التي حالفت النبي ﷺ ، أما بنو بكر فقد حالفوا قريشاً ، وكان للقبيلتين شوط كبير من القتال والخلافات ، فانتهزت بكر فرصة الهدنة ، وهاجمت خزاعة ، فاستصرخ عمرو بن سالم الخزاعي رسولَ الله ﷺ وحلفاءه من المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ: «قد نُصِرْت يا عمرو».

وجاء بُدَيل بن ورقاء في نفرٍ من خزاعة أيضاً فأخبروه عمن أصيب منهم ، وبمساعدة قريش لبني بكر ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة.

أمر الرسولُ بالجهاز ، وأمر أهله أن يستعدّوا ، لكنه لم يُفصح عن وجهته ، وأرسل ﷺ إلى أهل البادية وإلى مَن حوله من المسلمين يقول لهم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليَحضُر رمضان بالمدينة» ، فبعث رسولاً لكل من: أسلم ، وغِفار ، ومُزَينة ، وجُهينة ، وأشجع ، وبعث إلى بني سليم»[2].

وقد بعث رسول الله ﷺ إلى مزينة بلال بن الحارث ، وعبد الله بن عمرو المزني.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٥٤).
(٢) المغازي (٢/ ٧٩٩).

جاءت مزينةُ في أَلْفٍ من الرجال ، فيها من الخيل مئة فَرَس ومئة درع وفيها ثلاثة ألوية : لواءٌ مع النعمان بن مقرن ، ولواء مع بلال بن الحارث ، ولواء مع عبد الله بن عمرو[1] .

مضى الجيش المُزني بما فيه من أبطال بلغوا الألف جنباً إلى جنب من المهاجرين والأنصار خلف رسول الله ﷺ حتى بلغوا مكّة ، ومعهم عبد الله بن مغفل البكَّاء ، الذي فاضت عينهُ بالدمع يوم تبوك ، لأنه لا يجد ما يحمله إلى الجهاد في سبيل الله ، فنال الدنيا والآخرة .

**٤ ـ مع أبي ليلى المازني :**

ولا نتركُ أحسن المشاهد في سيرة عبد الله بن مُغْفِل المزني ـ رضي الله عنه ـ دون أن نسرد المشهد التالي : فهاهو عائدٌ من عند رسول الله ﷺ ومعه عبد الرحمن بن كعب أبو ليلى ، وقد فاضت أعينهم بالدمع ، فلقيهم يامين بن عمير بن كعب ، فقال للبكّاء عبد الله بن مغفل المزني وصاحبه : ما يبكيكما؟

قال عبد الله ـ رضي الله عنه ـ : جئنا إلى رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عِنْدَه ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما ننفق به على الخروج ، ونحن نكره أَن تفوتنا غزوةٌ مع رسول الله ﷺ[2] .

ويقدم لهما ناضحَيْن كي يحملاهما إلى ميدان الجهاد ، ويعود عبد الله بن مغفل المزني من تبوك وقد كَرَّمَه القرآن بذكر هذا الموقع العظيم ، ويصبح بكّاءً لم تُذْرَفْ دموعٌ أطهر من دموعه لأنها في سبيل الله تعالى .

**٥ ـ المزينيون على العهد :**

يذكر التاريخُ لأهل مزينة ما يثلجُ الصُّدور ، فقد استمسك المُزَينيون بالعروة الوثقى ، وقبضوا على دينهم قبضةً مؤمنة .

---

(١) المغازي (٢/ ٨٠٠).
(٢) المغازي (٣/ ٩٩٤).

ما من قبيلة أسلمت على يد رسول الله ﷺ إلاَّ وقد ظهر من بينها مرتدّ بعد وفاة الرسول ﷺ ، إلاَّ مزينة ، قبيلة عبد الله بن مغفل المزني ، فقد ثبتتْ وحافظتْ على العهد ، وكان من رجالها أبطالها المسلمين غير شيخنا البكّاء رضي الله عنه ، فكان النعمان بن مقرن المزني بطل فتح الفتوح «يوم نهاوند» ، وسويد بن مقرن ، وغيره كثير.

كانت مُزينة تقيم شعائر الله فتؤدي المكتوبة ، وتلتزم بالزكاة المفروضة ، لذلك فقد ضرب المزينيون المثَل في صِدْق العهد ، فهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقد تمسَّكوا بِسُنَّة رسول الله ﷺ.

وعلى بعد تسعة أميال من المدينة كانت تقيمُ مزينة ، فلما دعا داعي الإسلام التزمت هذه القبيلة به ، وأقرَّ عبد الله بن مغفل به ، وراح يصلي ، ويصوم ، ويعكف على قراءة القرآن.

وقد سكن المدينة المنورة ، ثم البصرة.

وقد كان أحدَ العشرة الذين بعثَهم عُمرُ بن الخطاب يفقهون الناس في البصرة(١).

وقد كان صادقاً ، ومما رُوي عن صِدْقِهِ أنه رأى في منامه يوماً أنَّ الساعة قد قامت ، وأن الناس قد حُشِروا ، وظنَّ أنه نجا وعليه عارِض.

فقال له قائل: أتريد أن تنجو وعندك ما عندك؟

فاستيقظ عبد الله بن مغفل المزني من نومه فَزِعاً خائفاً يقول ويتساءل: تُرى ما هذا الذي يقول عني عندي وسيدخلني النار؟

أيقظ عبد الله أهله ، ونادى على زوجته ، الَّتي استيقظت فزِعةً من ندائه هذا ، فقالت: ما بك يا أبا سعيد؟

فقال لها: أين صُرَّة النقود والدنانير التي تخفيها عن ابنَيْنا سعيد وزياد.

---

(١) أسد الغابة (٣/ ٣٩٩).

فقال: وما لك وهذه النقود؟

ولما أصرَّ على أخذها جاءه بها إليه ، فجعل يُعطي منها الفقراء حتى فرَّقها كلها[1] .

وفي العام الستين من هجرة رسول الله ﷺ صعدتْ روحُه إلى بارئها ، ومضى البكَّاءُ الذي فاضت عينُه من خشية الله إلى رحمة الله تعالى.

## ٤ ـ سالم بن عمير

### ١ ـ سالم من الأنصار:

كان الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ عيبة رسول الله ﷺ وموضع سرّه ، وكثيراً ما أثنى عليهم قائلاً: «إنَّ الأنصارَ كَرِشي وعيبتي ، وإن الناسَ سيكثُرون ويَقِلُّون ، فاقبلوا من مُحْسِنِهم ، واعْفُوا عن مسيئهم»[2] .

وقال ﷺ: «لو أنَّ الأنصار سلكوا وادياً أو شِعْباً لسلكتُ واديَ الأنصار أو شِعْبهم ، ولولا الهجرةُ لكنتُ امْرأً من الأنصار»[3] .

وقد علَّق أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ على هذا قائلاً: ما ظُلم بأبي وأُمي ، لقد واسوه ، وآووه ونصروه[4] .

وكان سالم بن عمير البكاء أحد هؤلاء الأنصار فهو: سالم بن عمير بن ثابت بن كُلفة بن ثعلبة بن عمرو بن عوف الأنصاري الأوسي[5]. وقد سُمّوا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٨٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥١٠) في فضائل الصحابة ، باب: من فضائل الأنصار.
«كرشي وعيبتي»: قال العلماء: معناه جماعتي وخاصَّتي الذين أثق بهم وأعتمدهم في أموري.

(٣) رواه البخاري (٧/ ١١٠) في مناقب الأنصار ، والترمذي (٣٩٠١) في المناقب ، وأحمد (٢/ ٣١٥ ، ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤١٩ ، ٤٦٩).

(٤) الاستبصار (ص/ ٢٥).

(٥) الإصابة (٢/ ٥).

أنصاراً لنصرهم الله ورسولـه ، وفي هذا سأل رجلٌ أنس بن مالك فقال: يا أبا حمـزة ، أرأيت اسم الأنصار اسماً سماكم الله بـه ، أم اسم كـنتم تُسَمَّوْنَ به؟

قال أنس بن مالك الأنصاري: بل اسمٌ سمَّانا اللهُ به ، في قوله تعالى في سورة الصف: ﴿ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ .

وقد كانت البداية بحمد الله عزَّ وجل ـ أي بداية الأنصار ـ عندما جاء إلى النبي ﷺ سبعون رَجُلاً فبايعوه عند العقبة ، فنصروه وآووه حتى أظهر اللهُ دينَه ، ولم يكن ذلك بالعمل الهيّن لو اطَّلعنا على قول أنصاري آخر هو جابر بن عبد الله رضي الله عنهما حين قال:

إنَّ رسول الله ﷺ لبث عشر سنين يتبع الحاجّ في منازلهم في المواسم بمجنَّة وعُكاظ[1] ومنازلهم بمنى يقول: من يؤويني وينصرني حتى أبلِّغ رسالات ربي؟! فلا يجد أحداً يؤويه وينصره ، حتى إنَّ الرجلَ من مضر واليمن ، يأتيه قومُه أو ذوو رحمه فيقولون: احذر فتى قريش لا يفتنك ، وهو يمشي بين رجالهم يدعوهم إلى الله عزَّ وجل ، يشيرون إليه بأصابعهم ، حتى بعثنا الله من يثرب ، فيأتيه الرجلُ منّا ، فيؤمن به يقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه ، حتى لم تبقَ دارٌ من دور المدينة إلاَّ فيها رهطٌ من المسلمين. ثم بعثنا الله فائتمرنا واجتمعنا سبعين رجلاً فقلنا: حتى متى نذر رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف[2]؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم ، فوعدنا شعب العقبة (العقبة الأخيرة) فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين ، حتى توافينا فيه عنده.

فقلنا: يا رسول الله؛ علام نبايعك؟

---

(١) «مجنَّة وعُكاظ»: اسمان لسوقَيْن للعرب كانا في الجاهلية. (معجم البلدان ٥/ ٥٨ ـ ٥٩).

(٢) الاستبصار (ص/ ٢٨).

قال عليه الصلاة والسلام: «تبايعوني على السمع والطاعة، في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمتُ عليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

فقمنا إليه رجلاً رجلاً، يأخذ علينا شرطه، ويعطينا على ذلك الجنة[1].

قام سالم بن عمير الأنصاري شأنه شأن أهله وذويه فبايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، في الحرب والسلم... وقد كان وفيّاً في بيعته، فهو من الذين عاهدوا الله، فصدق فيما عاهد الله عليه، وتمثّل هذا الصِّدق يوم تبوك حينما ذهب إلى رسول الله ﷺ يطلب منه ما يحمله إلى الجهاد هو وصحبه، فلما قال عليه الصلاة والسلام: «لا أجد ما أحملكم عليه» تولَّى وقد فاضت عيناه من الدمع فنزل القرآنُ مكرِّماً له ولأصحابه، يعدهم بالمغفرة والأجر الحسن.

ولم تكن تبوك هي البداية وإنما شهد سالم معظم المشاهد إن لم تكن المشاهد كلها، فشهد بدراً وأُحداً، والخندق، ومضى يؤدِّي دوره، لذلك فإننا نستصحب عميراً في معظم المشاهد التي شهدت له.

**٢ ـ المشاهد كلها:**

بعد بيعة العقبة والتي كان فيها سالم بن عمير مبايعاً من السابقين الأولين، بعد هذا اليوم انضمَّ سالمٌ إلى قافلة الإيمان، وجاء رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً، وبدأ الصراعُ بين الحق والباطل، بين الإسلام والوثنية، وشهد سالم بن عمير بدراً، وكان من أبطالها، وشهد أحداً، والخندق، يقول عنه ابن قدامة المقدسي: شهد سالم بن عمير بدراً وسائر المشاهد[2].

---

(١) المصدر السابق (ص/ ٢٨).

(٢) الاستبصار (ص/ ٢٥).

وقال محمد بن سعد عن سالم بن عمير: وشهد سالم بن عُمير أُحُداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو أحد البكّائين الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وهو يريد أن يخرجَ إلى تبوك فقالوا: احْملنا، وكانوا فقراء فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حُزناً ألاّ يجدوا ما ينفقون[1].

على أننا وجدنا أنَّ دورَ سالم بن عمير في كل المشاهد كان يذكر مع الجنود من الأنصار الذين حضروا هذه المعارك، إلاّ في يوم بني قريظة فقد كلّفه الرسولُ بمهمة خطيرة.

### ٣ ـ أسارى بني قريظة:

أصبح النبي ﷺ منصرفاً عن الخندق راجعاً إلى المدينة، ووضع المسلمون السلاح.

خافت بنو قريظة ـ أحد بطون اليهود في المدينة ـ خوفاً شديداً وقالوا: محمد يزحف إلينا!

وكان رسولُ الله ﷺ لم يُؤمَر بقتالهم حتى «أتى جبريل على بغلة عليها رِحاله وعليها قطيفة، فوقف عند موضع الجنائز، ثم نادى: عُذِيرك من مُحارِب!! فخرج رسول الله ﷺ إليه فزعاً، فقال له جبريل: ألا أراك وضعت اللأْمَةَ ولم تضعها الملائكة بعد؟ لقد طردناهم إلى حمراء الأسَد، إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قُرَيظَةَ، فإني عامِدٌ إليهم فمزلزلٌ بهم حصونهم»[2].

وفي هذه الأثناء كان في الجانب اليهودي ما يشير إلى حدوث شيء، فقد رأت امرأة يهودية هي امرأة نبّاش بن قيس رؤيا أثناء حصار الخندق، قالت: أرى الخندق وليس به أحد، وأرى الناس تحوّلوا إلينا ونحن في حصوننا قد ذُبحنا ذَبْحَ الغنم. فذكرت ذلك لزوجها، فخرج مُتَشائماً ليقصّ الرؤيا على

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٤٨٠).

(٢) انظر المغازي (ص/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧).

صاحب له يقال له الزبير بن باطا ، فقال الزبير: ما لها لا نامت عينها ، تُولِّي قريشاً ويحصُرنا محمد!! والتوراة لقد أصبح الحصار أشد مما كان عليه.

خرج الرسول لقتال هؤلاء ، وحاصرهم حصاراً شديداً ، فتشاوروا فيما بينهم ، ولم يصلوا إلى نتيجة ، حتى قال لهم سيِّدُهم كعب بن أَسَد: ما بات رجلٌ منكم منذ ولدته أُمُّه ليلةً من الدهرِ حَازِمَاً!!!

فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر ـ وهو من الأوس ، وقد كان بنو قريظة موالي للأوس ـ فذهب إليهم فقالوا له: يا أبا لُبَابَة أتَرَى أن ننزِلَ على حُكم محمد؟ قال: نعم[١].

خلاصة الأمر؛ فقد نزل بنو قريظة على حكم رسول الله ، فطالب الأوس بهم كما طالب الخزرج ببني قينقاع ، فلما سمع رسول الله مقالتهم ، ولّى عليهم سعد بن معاذ الأوسي. أقبل سعد بن معاذ وبنو قريظة يناشدونه قائلين: يا أبا عمرو ، أحسن في مواليك ، فإن محمداً ولأك لتحسِنَ فيهم ، فلمَّا أكثروا عليه قال: «لقد آن لسَعْدٍ ألاَّ تأخذه في الله لومة لائم»[٢].

فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أنَّ الحكم فيهم ما حكمت؟

قالوا: نعم.

قال سعد: فإن أحكم فيهم أن يُقْتَل الرِّجال ، وتُقسم الأموال ، وتُسْبَى الذراري والنساء.

فقال عليه الصلاة والسلام لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله».

ونأتي لدور سالم بن عمير فقد كان جندياً في كتائب المسلمين التي قامت على تنفيذ حكم الله ، فقد جاء بأسيرٍ منهم ، وهو وهب بن زيد ، وقد

---

(١) انظر تاريخ الطبري (٣/ ٥٢) وقد أشار أبو لبابة إلى حلقه بيده ، فقال: فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، فلم يأتِ رسول الله حتى ارتبط في المسجد بعمودٍ من عُمُدِه وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوبَ الله عليَّ مما صنعت ، وبقي كذلك حتى تاب الله عليه ، وأطلقه رسولُ الله ﷺ.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٥٢).

جمعت يداه إلى عُنُقه ، وتنفيذاً لأمر الله عزَّ وجل ، فقد مضى سيف سالم بن عمير يضرب رقاب الذين خانوا العهد ، وعادوا الله ورسوله.

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة فقد انْتُدِبَ سالم بن عمير في مهمة أُخرى جدُّ خطيرة. ترى ما هي هذه المهمة؟

### ٤ ـ سرية قتل أبي عَفَك:

ما إن قَدِمَ رسولُ الله ﷺ[١] على المدينة حتى تراوحت ردودُ فعل اليهود والمنافقين بين لائم حاقد ، وبين خبيث مهاجم سليط اللسان ، ومن هؤلاء شيخ كبير بلغ من العمر مئة وعشرين سنة حين قدم رسول الله ﷺ المدينة وهو أبو عَفَك من بني عمرو بن عوف ، وكان يحرِّض على عداوة النبي ﷺ ، ولم يدخل الإسلام فلما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ، ونصره الله وأعزَّ جنده ، وأظفرَهُ الله بما أظفرَهُ حسده أبو عَفَك ، وبغى عليه قائلاً:

قـد عِشْـتُ حينـاً ومـا إن أَرى    مـن النَّـاس داراً ولا مَجْمعـا
أَجَـمَّ[٢] عقـولاً وآتـى إلـى    مُنيـبٍ سِـراعـاً إذا مـا دعـا
فَسَلَّبَهُـم أَمْـرَهـم راكِـبٌ    حَـرامـاً حَـلالاً لشتَّـى معـا
فلـو كـان بـالمُلْـكِ صَـدَّقْتُـمُ    وبـالنَّصـر تـابعتُـمُ تُبَّعـا

سمع سالم بن عمير ما قاله الرجل ، وثارت في نفسه ثائرة الغيور على رسول الله ﷺ ، وعلى دين الله عزَّ وجل ، فكيف برجل عجوز كهذا يقلِّل من شأن نصر بدر ، وهو العظيم بكل المعاني؛ سواء في القتال أو في الغنائم ، ما بال هذا الرجل المنافق يؤذي المسلمين في رسولهم ، وقد كان فيهم رحيماً ، عزيزاً عليهم ، وهم أحباء إلى قلبه ، رحماء بينهم؟

جلس سالم بين أصحابه وقال: «عَليَّ نذرٌ أن أقتل أَبا عَفَك أو أموت دونه».

لكنه رأى أنه من الأنسب أن يأخذ هذا الكافر على غرَّةٍ ، وجاءت الغِرَّةُ

---

(١) انظر: المغازي (١/ ١٧٤ وما بعدها) والسيرة الحلبية (٣/ ١٤٦).
(٢) «أجمّ»: أكثر.

في ليلة صيفٍ هادئة ، جعلت أبا عَفَك يخرج من حجرهِ إلى فناء داره في ديار بني عمرو بن عوف ، فأقبل سالم بن عمير بعد أن أذِنَ رسولُ الله ﷺ قائلاً: «من لي بهذا الخبيث؟» يعني أبا عفك[1].

فقال سالم: أنا له يا رسول الله.

مضى سالم بن عمير ـ رضي الله عنه ـ حاملاً سيفه وقد بلغه نوم الكافر في فناء داره ، فأقبل عليه ووقف على رأسه ثم وضع السيف على كبده ، حتى دخل في فراشه.

صاح الخبيث ـ عدو الله ـ: أدركوني. . . أدركوني.

ففزع إليه النَّاس وثابوا إليه ، وقد كانوا على رأيه وقوله ، فحملوه وأدخلوه داره ، فمات ، ولما قبروه قالوا: من قتله؟

فلم يجدوا من يجيب قولهم. فأضاف أحدهم: والله لو نعلم من قتله لقتلناه به!

ولما شاع الخبرُ في المدينة أنشدت شاعرة مسلمة يقال لها النَّهدية فقالت:

تُكَذِّبُ دِينَ اللهِ والمَرءَ أَحْمَدا لعمرُ الَّذي أَمناك إذ بئسَ ما يُمني
حَباك حَنيفٌ آخِرَ اللَّيْلِ طَعْنَةً أبا عَفَكٍ خُذْها على كِبَرِ السِّنِّ
فإني وإنْ أَعْلَم بقاتلك الَّذي أباتك حِلْسَ اللَّيْلِ مِنْ إِنْسٍ أو جِنِّي[2]

هكذا كانت غيرة سالم بن عُمير على دينه إمّا أن يقتل الخائن الكافر أو يقتل دونه.

وقد انتُدِب سالم بن عُمير لقتل أبي عَفَك في شوال على رأس عشرين شهراً من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

ويمضي سالم بن عمير ـ رضوان الله عليه ـ في معيّة رسول الله ﷺ ،

---

(١) السيرة الحلبية (٣/ ١٤٦).
(٢) المغازي (٣/ ١٠٧٥).

لا يترك مشهداً إلا ويشارك فيه ، جندياً لا يرغب في ولاية أو منصب أو جاه ، يعيش فقيراً لا يطلب من النَّاس إلحافاً ، يحسبه الناس غنيَّاً من شدة التعفّف.

وقد طال به العمر بعد تبوك ، إلى ما بعد وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين ، وبقي سالم بن عمير إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان(١) ، ومات في المدينة ومعاوية خليفة على المسلمين.

رحم الله سالماً البكَّاء ، ونضَّر قبره برحمته تعالى.

## ٥ ـ سلمة بن صخر البياضي

### ١ ـ أنصاري بكّاء:

كان خزرجياً حليف بني بياضة.

قال عنه ابن قدامة المقدسي هو: سلمة بن صخر بن سلمان بن الصمة بن حارثة بن الحارث البياضي(٢).

وأضاف ابن قدامة قائلاً: هو الذي ظاهر من زوجته وأمره رسول الله ﷺ بالكفارة. وكان أحد البكّائين حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون ، وكان أبو صخر شاعراً.

قال القرطبي المالكي في استيعابه: هو سلمة بن صخر بن سلمان بن حارثة الأنصاري ثم البياضي: مدني ، ويقال له سلمان بن صخر ، وسلمة أصح ، وهو الذي ظاهر من امرأته ثم وقع عليها ، فأمره رسول الله ﷺ أن يُكفِّر ، وكان أحد البكائين(٣).

---

(١) الطبقات (٣/ ٤٨٠).
(٢) الاستبصار (ص/ ٣٢٥).
(٣) الاستيعاب (٢/ ٨٨).

يذكر المؤرِّخون موقفين: الموقف الأول أنه كان أحد البكَّائين في يوم العسرة، وذهب مع صحبه إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، أعطنا ما يحملنا ويحمل لنا الزاد، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولى مع صحبه الكرام، وأعينهم تفيض من الدمع، وقد اشتد الحزنُ عليهم ألاَّ يجدوا ما ينفقون.

وقد نذكر هذا الموقف وكفى، فليس عدلاً أن يسجّل في سيرة الصحابي الجليل سلمة بن صخر شيئاً من المواقف أشرف من هذه الدموع الطاهرة الحزينة التي فاضت حزناً؛ لأنها لا تجد لأصحابها ما يحملهم إلى الجهاد.

أي شيء أشرف من هذه الدموع! وأي شيء أطهر من هذه الدموع!

سجَّل القرآنُ الكريمُ هذا الموقف لسلمة بن صخر وأصحابه البكَّائين.

وقد كان لسلمة بن صخر وزوجه موقف أنزل الله فيه قرآناً غير موقف البُكَاء، وهو ما وجدناه ثانياً من مشاهد جرت في كتب السير والتراجم.

فقد تصدَّق سلمة بن صخر بعد هذا الموقف، ووجد حلاًّ لدى النبي محمد ﷺ فلم يجده في قريحة الجاهلية الملتوية، فنال بإسلامه علماً وحلماً، فتصدَّق وتطهَّر، واستمتع بالحلال في حِلِّهِ وترحاله، لم يجزع يوماً ولم ييأس من رحمة الله، فكان واثقاً أن الفرج يأتي من السماء، وقد جاء بصدقة تزكيه وتطهر، وتعليم له كيفية كبح جماح النفس، ويربِّيها على الاستقامة والصبر على الملذات، ولابد أن نأتي على الموقف من البداية.

**٢ ـ توبة وكفّارة:**

قال تعالى في سورة المجادلة:

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ ۝ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والظِّهار قول الرجل لامرأته: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمّي.

وقد ظاهر سلمة بن صخر من امرأته، والظهار حرام لا يجوز الإقدام عليه، لأنّه كما أخبر الله تعالى منكراً من القول وزوراً، وكلاهما حرام[١].

حدث هذا من الصحابي الجليل البكّاء في شهر رمضان، فقد ظاهرها طيلة هذا الشهر، ثم واقعها ليلةً قبل انسلاخ رمضان بيوم، فقال له النبي ﷺ: «أنت بذاك يا سلمة».

قال سلمة: أنا بذاك يا رسول الله، أنا بذاك يا رسول الله (مرتين). وأنا صابر لأمر الله فاحكم فيّ بما أراك الله.

قال عليه الصلاة والسلام: «حرِّر رقبة».

قال سلمة بن صخر: والذي بعثك بالحق نبياً ما أملك رقبة، غيرها ـ وضرب صفحة رقبته ـ.

وقال عليه الصلاة والسلام: «فصم شهرين متتابعين».

قال: فهل أصبتُ الذي أصبت إلاّ في الصيام؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «فأطعم وِسْقاً من تمر ستين مسكيناً».

قال سلمة بن صخر: والذي بعثك بالحق لقد بتنا جائعين ما لنا طعام.

قال ﷺ: فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر، وكل أنت وعيالك بقيّتها.

قال: فرحتُ إلى قومي، فقلت: وجدتُ عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدتُ عند رسول الله ﷺ السعة وحسن الرأي، وقد أمر لي بصدقتكم[٢].

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٠١).

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٠٠).

رحم الله سلمة بن صخر البياضي ، فقد كان بكّاءً مخلصاً ، توّاباً ، صوَّاماً ، قوّاماً ، متصدّقاً ، ضَرَبَ المثل في زهد الدنيا ومتاعها ، وكان نسيجاً عظيماً من الإيمان ، تجانست خيوطه ، فقدم لنا قدوة الصحابة الأجلاء ، والبكّائين الأفاضل ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* * *

عصر الصحابة
(٥)

# أرقاء عظماء اعتنقوا الإسلام

بلال الحبشي — عمار بن ياسر
خباب بن الأرت — عامر بن فهيرة
صهيب الرومي — أبو فكيهة
سلمان الفارسي
لبيبة - النهدية - زنيرة - أم عبيس

# المقدّمة

إن الحمد لله نحمده ، ونتوب إليه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، ونصلّي ونسلّم على رسول الله ﷺ.

أما بعد : فإن الحديثَ عن المستضعفين من صحابة رسول الله ﷺ يبلغ من القوة مبلغاً كبيراً ، فإن في استضعافهم قوة كامنة أذهلت أعداء الدِّين ، وضربت مثلاً للإرادة الصلبة ، فقد كان في استضعاف عمار بن ياسر ، وإيذاء الكفّار لأسرته ، وقتل أُمه سمية بنت خباط ؛ قوة هائلة استمدّ منها المسلمون صلابتهم ، فأصبحوا فولاذاً لا تخترقه سهامُ الأعداء ، فتراجع أقوياءُ الجاهلية ، وتقدّم مستضعفو الإسلام.

وكان صهيب من الذين قال الله فيهم : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة : ٢٠٧].

وكان بلال من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام : ٥٢].

وسنجد عامر بن فهيرة يقول وقد طُعِنَ بالرُّمْح في سبيل الله : فزتُ والله.

ومن المستضعفين من تضاءلت أخبارهم في بطون كتب التاريخ رغم قوّتها الهائلة. منهم رجالٌ كأبي فكيهة رضوان الله عليه ، ومنهم نساءٌ كالنهدية ، ولبيبة ، وأم عُبيس ، وزنِّيرة. كل هؤلاء ضمَّهم كتابنا هذا ، وما كتبنا عنهم إلا لنستمدّ منهم قوتنا في عصر ضعفت فيه إرادة كثير من الناس.

نعم كتبنا عنهم لنستمدّ من قوّتهم زاداً نقوّي به ضعفنا ، ثم إنَّ أمّة المسلمين تحتاج إلى إرادتهم الصلبة التي لم تعد متوافرة بينهم الآن ، فقد

أُكْرِه عمار بلهيب رمضاء مكّة ، وضُرِب صهيب حتى فقد وعيه ، وجرَّت خيلُ أمية بن خلف عامر بن فهيرة على بطحاء مكة ، ولكنَّ قلوبهم كانت بالإيمان مطمئنة ، ونفوسهم بالتقوى عامرة.

وقد أضفنا إليهم سلمان الفارسي ابن الدّهقان الذي ترك الضياع والقصور العالية والحدائق الغنّاء؛ ليبحث عن حقيقة أسرتْ قلبه ، ونور أضاء طريقه ، فلقي في رحلته عنتاً ، وأصبح مملوكاً بعد أن كان حُرّاً في قومه.

لذلك فقد ضمّت هذه السيرة من الرجال : بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر ، وخباب بن الأرتّ ، وعامر بن فهيرة ، وصهيب بن سنان ، وسلمان الفارسي ، وأبا فكيهة. ومن النساء المستضعفات: النهدية ، وزنِّيرة ، وأم عبيس ، ولبيبة.

نسأل الله أن يجعل لنا من سيرتهم ميزان حسنات ، وقدوة لا نحيد عنها إن شاء الله تعالى.

عبد المنعم الهاشمي

# (١)

# بلال مؤذِّن الرسول ﷺ

قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

## حديث فيه شجون

بلال خالدُ الذِّكر ما دام الأذانُ يتردَّدُ في جنبات ديار المسلمين . . . بلال سيِّدُ إخوانه وأصحابه عندما أصبح مسلماً ، ذلك ما أكَّده عمر بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما كان يقول: أبو بكر سيِّدُنا ، وأَعْتَقَ سَيِّدَنا .

نعود إلى ذلك الزَّمان في عهد عمر بن الخطاب؛ فقد مضى زمنٌ على مغادرة بلال لمدينة رسول الله ﷺ عقب وفاته عليه الصلاة والسلام ، ولم يعدْ يُسْمع صوتُه مؤذناً بعد وفاة النبي ﷺ ، واشتاقت المدينةُ إلى مَن يعيدُ إليها ولو للحظة أيَّامَ الرسول ﷺ.

كان بلال في الشام ، وفي منامه رأى النبي ﷺ وهو يقولُ له: ما هذه الجفوة يا بلالُ؟ أما آن لك أن تزورني؟

فانتبه بلال ـ رضوان الله عليه ـ انتبه حزيناً ، وأعدَّ راحلته ، ثم رَكِبَ قاصداً المدينةَ ، فأتى قبرَ النبي ﷺ ، فجعل يبكي عِنْدَهُ ، فأقبل الحسنُ والحسينُ ، فجعل بلال يضمُّهما ويقبِّلهُما ، فقالا له: يا بلالُ ، نشتهي أن نسمع الأذان بصوتك ، فعلا سطحَ المسجد ، ووقف يُؤَذِّنُ؛ فما إن قال: الله أكبرُ الله أكبر ، حتى ارتجَّتْ مدينةُ رسول الله ﷺ بمن فيها ، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله ، ازدادت رجَّتُها. فلما قال: أشهدُ أن محمداً رسول الله ،

خرجت العواتِقُ من خُدورهنّ ، وقالوا: بُعِثَ رسول الله ﷺ ، فتعالى بكاءُ الناس ، فما رُؤي يومٌ أكثر الناسُ فيه البكاء ، ولا رُؤي يوم أكثر باكياً أو باكيةً بالمدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ من ذلك اليوم.

هذه كلماتٌ قليلةٌ لحديثٍ كلّه شجون؛ عن مؤذِّنِ رسول الله الأول ، عن صاحب الصَّوت الخالد ، خلود الإسلام على الأرض ، عن بلال بن رباح الحبشي ـ رضوان الله عليه ـ ألا تستحق سيرتُه العطرة أن ننهلَ من جمالها ، كما نهل منها الأوَّلون؟

بلى ورَبِّ الكعبة ، فإنّ لبلال في القلب مكاناً ، وفي العقل أماكن ، فلنتحدث عنه بعقولنا ، ونحتفظ بحبّه في قلوبنا.

## من هو بلال؟

بلال: رجلٌ آدمٌ[١] ، شديدُ الأدمة ، نحيف ، طُوال ، أحدب الظهر ، له شعرٌ كثير ، وخفيفُ العارضين[٢] ، به شَمَطٌ[٣] كثير.

هذا الفتى الأسمر ، الكثيف الشعر ، النحيف الناحل ، هو بلالُ بن رباح مولى أبي بكر ، ويُكنى أبا عبد الله ، أمُّه اسمها حمامةُ إحدى جواري بني جُمَح وإمائها[٤].

كان عبداً يعيشُ عيشةَ الرَّقيق ، لا يملكُ قوتَ يومه ، ولا أمل له غير إرضاء سيِّده ، ذلك في عصر الجاهلية الأولى ، لكنَّ بُزُوغَ النُّور لا يتركُ لِلظَّلام مكاناً ، فما إن أضاءتِ الرسالةُ الخالدة بطحاءَ مكة ، حتى انهزم ظلامُ الجاهلية ليصبح العبدُ حُرَّاً.

---

(١) «آدم»: شديد السُّمْرة.

(٢) «العارضين»: مثنى؛ مفرده العارض وهو صفحة الخَدّ.

(٣) «شَمَط»: أي بياض في الرأس يخالط سواده.

(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٣٢).

## أيّام الذل والهوان

كان أمية بنُ خلف سيِّداً من سادات قريش ، اتَّخذ له العبيدَ والإماءَ فأذلَّهم ، وسخَّرهم لخدمته بالحديد والنَّار.

ومن بين عبيد أُمية كان بلال يعيشُ عيشةَ الرَّقيق ، فعليه أن يطيع فقط ، فهو يقدّم الطعامَ والشَّرابَ لأميّة وضيوفه ، وربما يكون جائعاً لا يجدُ فتاتَ ما يأكلون!.

كان يسافرُ إلى الشام وحده في تجارة أمية بن خلف ، يضرُّ به زمهرير البردِ بالليل ، وتلفحه حرارةُ الشمس بالنهار ، ولا يجد من يذكر دوره أو يثني على جهده وعمله ، بل كلُّ ما يرجوه أن يجدَ مِنَ الطَّعام ما يقوّي عُوده ويجعله قادراً على أداء ما يُطْلَبُ منه.

كان الناس يجتمعون ويتسامرون ، وبلال يقضي وقته منعزلاً في مكان بعيداً عن الناس ، إذ لا حقَّ له كعبدٍ أن يخالطهم أو يشاركهم في الحديث؛ إلاَّ إذا طَلَبَ منه سيِّدُهُ أن يفعلَ هذا.

وعلى هذا العبد الحبشي أن يرعى غنمَ سيِّده أمية ، والأجر: قليلٌ من التمر لا يكفي لوجبة واحدة ، أهكذا تستمرُّ الحياةُ إلى النهاية؟ أيظلُّ بلال تائهاً في رحابها ، حتى يأتيه الموتُ ، فيصبح نسياً منسيّاً؟!

ولا غرابة في ذلك ، فها هو على قيد الحياة ولا يكاد يذكر اسمه إلا إذا احتـاجَ سيِّدُه شيئاً ، لكن بلال بن رباح في جوار الإسلام أصبح رجلاً غير هذا كله.

## المستضعف القوي

تواترتْ إلى أسماع بلال أنباءُ دعوة النبي محمد ﷺ؛ فقد نقل إليه صاحبُه أبو بكر أنباء الدعوة ، وعرف بلال أنَّ الله خالقُ السموات والأرض ،

لا إله إلا هو ، ربّ العرش العظيم ، هو المطَّلعُ على كُلِّ السَّرائر ، وبما انطوت عليه النَّوايا والضمائر.

وعلم بلال أنَّ محمداً بن عبد الله يدعو إلى عبادة الله وحده ، وأن دعوتَه دعوةُ حقّ وعدل ومساواة ، فالنَّاسُ فيها سواسية كأسنان المشط ، لا فضلَ لعربي على عجمي ، ولا لحرّ على عبدٍ إلاَّ بالتقوى.

سمع بلال كُلَّ هذا من أبي بكر - رضي الله عنه - فآمن بالإسلام ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وتواعد الرَّجلان على لقاء محمد ﷺ في الغد القريب إن شاء الله تعالى.

وفي صبيحة يومٍ مباركٍ من أيّام مكة؛ مضى بلال إلى موقفٍ سيخلّد اسمه على مرّ الزمان ، فَلا يُذْكَرُ بلالٌ على مرّ السنين إلا ويذكُرُ الناس الأذانَ ، ومؤذِّنَ رسول الله ﷺ.

مضى بلال بصحبة أبي بكر إلى الرسول ﷺ ، ونطق بالشَّهادتين ، وهو يعلمُ تمامَ العلم أنّ في إسلامه مخاطرةً كُبرى قد تكلفُه حياته ، فهؤلاء الناس من كُفّار مكة لا يعرفون حقَّ الرأي ، أو حقوق الإنسان في الحياة.

وقد أساء بعضُ المستشرقين فهمَ إسلام بلال ، ومن هم على شاكلته من المستضعفين حينما قالوا: إنهم لم يؤمنوا بدعوة محمد إلا لأنهم رأوا فيها مصلحةً لهم ، إذ أنها تسوّي بينهم وبين عليّة القوم وسادة الناس.

والحقُّ يقالُ: أن مسلكَ هؤلاء المستضعفين وإسراعَهم إلى الاستجابة للإسلام إنما جاء لأنهم شعروا بالحقّ يملأُ القلوبَ والنفوسَ ، فيدفعهم للإيمان دفعاً ، فلا العبيدُ آمنوا لأنَّ الإسلامَ يُسوّي بينهم وبين الأحرار ، ولا الأحرارُ آمنوا لأنَّ الإسلام يسوي بينهم وبين العبيد ، لأن قصارى هذه التسوية أنها مصلحةٌ لفريقٍ من الناس ، وما زال الإيمانُ والمصلحةُ شيئين مختلفين ، ومعدنين متباعدين متباينين ، فالمصلحةُ شيء تحتويه حياة الفرد ، وقد تحتويه حصة قليلة من حياته ، أمّا الإيمانُ فهو أبداً شيءٌ يتجاوزُ

الفرد الواحد ، وقد يبذل في سبيله المصلحة والحياة. إذاً فإيمانُهم نهرٌ متدفقٌ تأتي المصلحةُ كقطرة من قطراته.

وفي ذلك يقول الذهبي: أوّل مَن أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سميّة ، وبلال ، وصهيب ، والمقداد.

فأما النبي ﷺ ، وأبو بكر فمنعهما الله بقومهما ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراعَ الحديد ، وصهروهم في الشمس ، فما منهم أحدٌ إلاَّ وأتاهم على ما أرادوا إلاَّ بلال ، فإنه هانت عليه نفسُه في الله ، وهان على قومه فأعطوه الوِلْدان ، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة ، وهو يقول: أحدٌ أحد[1].

ويُعَدُّ بلال من المستضعفين الذين سبقوا إلى الإسلام ، ولا عشائر لهم تمنعهم ، ولا قوّة لهم يمنعون بها أنفسهم ، فأمّا مَن كانت له عشيرةٌ تمنعه فلم يصلِ الكُفَّار إليه ، فلما رأوا امتناعَ مَن له عشيرة وَثَبَتْ كلُّ قبيلة على مَن فيها من مستضعفي المسلمين فجلعوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضرب ، والجوع ، والعطش ، ورمضاء مكة ، والنار ليفتنوهم عن دينهم ، فمنهم من يفتتنُ من شدَّة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان ، ومنه من يتصلّب في دينه ويعصمه الله منهم[2].

وبلال بن رباح الحبشي مولى أبي بكر ، ذلك الذي كان أبوه من سبي الحبشة ، وأمُّه حمامة سبيّة أيضاً ، كان من الذين اطمأن قلبُه بالإيمان ، ومِن الَّذِين تصلَّبُوا في دينهم فعصمهم الله.

ويبلغُ ابنُ سعد صاحب الطبقات مبلغاً عظيماً عندما يتحدَّثُ عن المستضعفين ، فيقول: حتى إذا بلغ الجهد منهم كُلّ مبلغ ، فأعطوهم ما سألوا ، فجاء كُلُّ رجل منهم قومه بالطعام والماء ، إلاَّ بلالاً[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٤٨).
(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ٦٦).
(٣) الطبقات (٣/ ٢٣٣).

لله درُّكَ يا بلال ، فقد كنتَ صابراً مؤمناً ، مطمئنَ القلب ، لم يكن إيمانُك هذا من أجل مساواةِ العبيد بالأحرار ، ولكنْ لله خالصاً طيّباً.

ويستحضر «مجاهد» أحدُ علمـاء التفسير قول الله عزَّ وجلَّ في سورة ص: ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾.

فيقول مجاهد: يقول أبو جهل: أين بلال؟ أين فلان؟ أين فلان؟ كُنّا نعدّهم في الدنيا من الأشرار فلا نراهم في النّار ، أم هم في مكان لا نراهم فيه؟ أم هم في النار لا نرى مكانهم[1]؟!!

وقد أُخِذَ بلالٌ ـ رسول الله ﷺ ـ فربطه أميّةُ بن خلف وزبانيّته ، فأوثقوه ، ثم ألقوه في البطحاء بعد أن ألبسوه أدرع الحديد ، وكان إذا حميتِ الشَّمسُ وقتَ الظهيرة يلقيه أُميّةُ بن خلف في الرَّمضاء على وجهه وظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُلقى على صدره ويقول: لا تزالُ هكذا حتى تموتَ أو تكفر بمحمّد ، وتعبد اللات والعُزّى.

فكان ورقةُ بن نوفل يمرُّ به وهو يُعذَّب وهو يُردِّد: أحد أحد ، فيردد ورقةُ خلفه: أحد والله يا بلال. ثم يقول ورقةُ بن نوفل لأمية بن خلف: أحلفُ بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنّه حَناناً[2].

ويصيح أميّةُ قائلاً: ربُّهُ اللات والعزى.

فيقول بلال: أحدٌ أحد!!

فلما رآه أبو بكر يُعذَّب قال لأمية بن خلف الجمحي: ألا تتركُ هذا المسكين؟ فقال أبيه: أنتَ أفسدته فأبعدته[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/٦٦). «لأتخذنه حَناناً»: أي لأجعلن قبره موضع حنان ، أي مظنّة من رحمة الله.

(٣) المصدر السابق.

فقال أبو بكر: أشتريه منك بأيّ ثمن تريد.

فيستمرُّ أميَّةُ في ضرب بلال بن رباح، ويتوقَّفُ قليلاً عند سماع عرض أبي بكر لشراء بلال ويقول: ماذا تقول؟

قال أبو بكر: خذ أكثر من ثمنه واتركه حُرّاً.

وافق أميَّةُ بن خلف، وباع بلالاً إلى أبي بكر قائلاً: خذه، فو اللاّت والعُزَّى، لو أبيتَ إلا أن تشتريه بأوقيةٍ واحدةٍ لَبِعْتَكَهُ - يريد أن يقلِّلَ من قيمة بلال -.

فأجابه أبو بكر في الحال قائلاً: والله لو أبيتم أنتم إلا مئة أوقية لدفعتها.

هكذا كان أبو بكر يعرفُ قيمةَ هذا الرجل الصادق الإيمان، القوّي العزيمة، الذي نَذَرَ النفّسَ كُلَّها في سبيل الله عزَّ وجل.

عاد بلال إلى دار أبي بكر، وتخلّص من آثار التعذيب وندوبه، وتأبَّطَ ذراعَ صاحبه أبي بكر، ثم مضيا إلى رسول الله ﷺ، وعندما وصلا عنده بشَّره أبو بكر بتحرير بلال من ظلم أمية بن خلف، فقال: اشتريتُ بلالاً يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: الشّرِكَةَ يا أبا بكر.

فقال أبو بكر: قد أعتقتُه يا رسولَ اللهِ.

أصبح بلالٌ حُرّاً، ينعم بإنسانيته في ظِلِّ الإسلام، ويسخر من كُلّ قُوَّةٍ ادّعاها أهلُ الجاهلية حينما ظنّوا أن رمالَ مكَّة الحارّة، وحجارتها الضخمة، أو حتّى سيوفهم ورماحهم تستطيعُ أن توقفَ نوراً انبعث في ظلام حالك، فالإيمانُ راسخٌ في القلوب لا يزعزعه ألم هنا، أو ضرب مبرّح هناك، وإذا كان الموتُ دونه هذا فإنها الشهادةُ، ونِعْمَ الفوز.

ومن هذه اللحظة انطلق بلالٌ يخلِّدُ اسمه بخلود صوت المؤذِّن على وجه الدنيا عبر القرون.

## الـهجـرة والـمـؤاخـاة

هاجر الرسولُ ﷺ من مكّة إلى المدينة بعد أن شدَّد الكفارُ بطشهم وتعذيبهم للمسلمين ، وقد ظل بلال إلى جوار رسول الله ﷺ في مكة ينهل من فكر الرسالة ، ويزداد علماً بأسرار دعوته ﷺ.

وقد أمر الرسولُ أصحابه بالهجرة ، فخرج بلال ذات ليلةٍ بصحبة سعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر ، وسار ثلاثتهم بالليل حتى وصلوا المدينة ، فوجدوا بها أنصارَ الرسول ﷺ ، وجدوهم إخواناً ونِعْمَ الإخوان. رجالٌ صدقوا الله ما عاهدوا عليه ، يحبُّون مَن هاجر إليهم ، ويُؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

سبق بلال الرسولَ ﷺ في هجرته إلى المدينة ، ولما جاء ﷺ استقبله بلال بالبِشْر والفرح ، شأنه شأن إخوانه أهل المدينة ـ وقد تذكر بلال كَرَمَ صاحبه شريف الأنصار وأحد نقبائهم سعد بن خيثمة ـ رضوان الله عليه ـ الذي نزل عليه فأكرم ضيافته ، وأنزله منزل حبّ وصِدْق في داره[1].

ولما جاء ﷺ آخى بينه وبين عبيدة بن الحارث بن المطلّب ، ولكن بلال يعتبر كُلَّ الصحابة إخوانه ، كُلٌّ منهم له دورٌ عظيم ، فها هو يذكرُ صاحبه أبا رويحة الخثعمي كثيراً.

ولما دوَّن عمر ـ رضوان الله عليه ـ الدواوين بالشام خرج بلال إلى الشام فأقام بها مجاهداً.

فقال له عمر: إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟ قال بلال: مع أبي رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي ، لا أفارقه أبداً للأخوّة التي كان رسول الله ﷺ عقد بيني وبينه[2].

---

(١) الطبقات (٣/ ٢٣٣).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٣٤).

ولذلك فقد أخذ بعضُ الرواة هذه الرواية سنداً يقولون به أن رسول الله ﷺ آخى بين بلال وبين أبي رويحة الخثعمي لمَا هاجر إلى المدينة.

ويستقر بلال بن رباح ـ رضوان الله عليه ـ بالمدينة، وينتظم المجتمعُ المدني أنصاراً ومهاجرين في نسيج متين وبناء شامخ، تقف على أعمدته الدعوةُ، وتبدأ في انطلاقتها شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، تتجاوزُ الجبالَ والأنهارَ، وتمضي في كُلِّ الآفاق، وبلال يشهدُ خُطاها، ويشاركُ في هذا الموكب المبارك بأجمل ما هتفتِ الشفاهُ على وجه الأرض، لقد شارك بالخلود كلّه، شارك بالأذان المبارك.

## قصة الأذان

### أ ـ البوق والناقوس:

اطمأن رسولُ الله ﷺ لحال الدعوة، فقد آخى بين المهاجرين والأنصار بعد استقراره بالمدينة، واجتمع إليه إخوانُه من المهاجرين، واجتمع أمرُ الأنصار، واستحكم أمرُ الإسلام، فقامت الصلاةُ، وفُرِضت الزَّكاةُ والصِّيام، وقامتِ الحدودُ، وفُرِضَ الحلالُ والحرامُ، وتبوَّأ الإسلامُ بين أظْهرهم، وكان هذا الحيُّ من الأنصار هم الذين تبوّؤوا الدار والإيمان.

وقد كان رسول الله ﷺ حين قَدِمَ المدينة إنما يجتمعُ الناسُ إليه للصلاة في مواقيتها، بغير دعوة، فهمَّ رسولُ الله ﷺ أن يجعلَ بوقاً كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم، ولم يطبْ له عليه الصلاة والسلام ذلك فكرهه، ثم أمر بالناقوس فَنُحِتَ ليضربَ به للمسلمين للصلاة(١).

### ب ـ الأذان:

فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبدُ الله بن زيد بن ثعلبة النداءَ فأتى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسولَ الله، إنه طافَ بي هذه الليلةَ طائفٌ: مرَّ

(١) سيرة ابن هشام (٢/٥٠٨).

بي رجلٌ عليه ثَوْبان أخضران ، يحمل ناقوساً في يده ، فقلتُ له: يا عبدَ الله ، أتبيعُ هذا الناقوس؟

قال: وما تصنعُ به؟ قال: قلتُ: ندعو به إلى الصلاة.

قال الرجل: أفلا أدلُّكَ على خيرٍ من ذلك؟

قال عبد الله: وما هو؟

قال الرجلُ: تقول: الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهدُ أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح ، حيّ على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله[١].

**جـ ـ تعليم بلال الأذان:**

أُخبِرَ رسول الله ﷺ ، فقال: «إنها لرؤيا حقّ ، إن شاءَ اللهُ ، فقم مع بلال يا عبد الله فألقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً[٢] منك».

أذَّن بلال كما علَّمه عبد الله بن زيد ، فلما سمع عمرُ بن الخطاب ، وهو في بيته الأذان من بلال ، جاء إلى النبي ﷺ على الفور وهو يجرُّ رداءه ، فقال: والذي بعثك بالحقِّ ، لقد رأيتُ مثل الذي رأى.

لقد رأى عمر بن الخطاب في منامه مثل الذي سمعه من بلال.

**د ـ رؤيا عمر بن الخطاب:**

ولما سُئِلَ عُمر عما رأى في منامه ذكر: أنه بينما يريدُ أن يشتريَ خشبتين للناقوس ، إذ رأى في المنام مَن يقول: لا تجعلوا النَّاقُوسَ ، بَلْ أذِّنوا للصلاة. فَذَهَبَ عُمر إلى النبي ﷺ ليخبرَه بالّذي رأى ، وقد جاء النبي ﷺ الوحيُ بذلك ، فما راع عُمر إلاّ بلال يؤذِّن ، فقال ﷺ حين أخبره عمر بذلك: قد سبقك بذلك الوحي.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «أندى صوتاً»: أي أرفعُ وأعلى. وقيل: أحسنُ وأعذب. وقيل: أَبْعَدُ.

### هـ ـ ما كان يقول بلال قبل الأذان:

وقد ذكر الرواة ما كان يقوله بلالٌ قبل الآذان ، عن طريق رواية لامرأة أنصارية[١] كانت تقول: كان بيتي من أوّل البيوت حول المسجد ، فكان بلالٌ يُؤذِّن عليه للفجر كُلَّ غداة ، فيأتي بسَحَر ، فيجلس على البيت ينتظر الفجر ، فإذا رآه تمطّى ، ثم قال: اللهم إني أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك. قالت: والله ما علمتُه كان يتركها ليلةً واحدةً[٢].

وكان بلالٌ ـ رضوان الله عليه ـ إذا فرغ من الأذان فأراد أن يُعْلِمَ النبي ﷺ أنه قد أذَّن وأنهى الأذان وقف على بابه ﷺ يقول: «حي على الصلاة ، حي على الفلاح الصلاة يا رسول الله ، الصلاة يا رسول الله»[٣].

فإذا خرج رسولُ الله ﷺ ، فرآه بلالٌ ابتدأ في الإقامة؛ وبالطبع فإن بلالاً ـ رضوان الله عليه ـ كان يتغيَّبُ أحياناً ، لذلك فإنَّ رسولَ الله في مغيب بلال كان يختارُ عمرو بن أم مكتوم أو أبا محذورة ، فإذا غاب بلال أذن أبو محذورة ، وإذا غاب بلال وأبو محذورة ، أذَّن عمرو بن أم مكتوم[٤].

ألا يُعَدُّ الأذان الطيِّبُ تكريماً لبلال ـ رضي الله عنه ـ الذي ارتعشت شفتاه تحت لهيب رمضاء مكة ، وقد ألبسه الكفارُ أدرعَ الحديد ، وجعلوا يضربونه بوحشية ، ارتعشت شفتاه تقول: أحد. . . . أحد؟ بلى ورب الكعبة.

## في يوم بدر

كان يومُ بدرٍ من أيام الله العظيمة؛ التي نصر فيها عباده المؤمنين في بداية جهادهم مع أعداء الله ، فكان اللقاء حاسماً ، وكان الله عز وجل مع الذين آمنوا ، فنصرهم وأيدهم بجنود من عنده.

---

(١) هي امرأة من بني النجار ، والرواية مأخوذة عن عروة بن الزبير.
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٠٩).
(٣) الطبقات (٣/ ٢٣٤).
(٤) المصدر السابق.

في هذا اليوم كان بلال بطلاً ، له سيفٌ بتَّار احتزَّ به رؤوسَ الكفار من الذين اسْتَضْعَفُوا المؤمنين فأذاقوهم ويلاتٍ كثيرةً.

وإذا تحدَّثنا عن يوم بدر وبلال ـ رضي الله عنه ـ كان حديثُ عبد الرحمن بن عوف في السيرة[1] أفضل ما نترك له القلم وننصت إلى هذا السابق الأول المبشَّر بالجنة ، وهو يقول ـ رضي الله عنه ـ:

كان أُميةُ بن خلف صديقاً لي بمكة ، وكان اسمي عبدَ عمرو ، فتسمَّيت حين أسلمتُ ، عبد الرحمن ، ونحن بمكة ، فكان يَلْقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو ، أرغبتَ عن اسمٍ سمّاكَهُ أبواك؟ فأقول: نعم؛ فيقول: فإني لا أعرف الرحمن ، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوكَ به ، أمَّا أنت فلا تجيبني باسمكَ الأوَّل ، وأما أنا فلا أدعوكَ بما لا أعرف.

ويضيف عبد الرحمن قائلاً: فكان إذا دعاني: يا عبدَ عمر ، لم أُجبه.

فقلتُ: يا أبا علي ، اجعلْ ما شئتَ.

قال أمية: فأنت عبدُ الإله.

فقلت: نعم.

وكان إذا مرَّ أميَّةُ بعبد الرحمن وقال له: يا عبد الإله ، أجابه وتحدَّث معه ، حتى إذا كان يوم بدر؛ يقول عبد الرحمن: حتى إذا كان يوم بدر ، مررتُ به وهو واقفٌ مع ابنه ، عليّ بن أُمية ، آخذٌ بيده ، ومعي أدراعٌ قد استلبتُها ، فأنا أحملُها ، فلما رآني قال لي: يا عبدَ عمرو ، فلم أُجِبه.

فقال: يا عبدَ الإله؟

فقلتُ: نعم.

قال: هل لكَ فيّ ، فأنا خيرٌ لكَ من هذه الأدراع التي معك؟

قال عبد الرحمن: نعم ، ها الله ذا «أي ها أنا تارك الأدراع».

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٣١).

قال عبد الرحمن: فطرحتُ الأدراع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قطّ، أما لكم حاجة في اللبن؟ يريد باللبن، أن من أسرني افتديت منه بإبلٍ كثيرة اللبن.

ثم نظر أميّةُ إلى عبد الرّحمن بن عوف وقد أمسك عبدُ الرحمن ـ رضي الله عنه ـ بأيديهما هو وابنه، فقال: يا عبدَ الإله، من الرجلُ منكم المُعلّم بريشةٍ في صدره؟

فقال عبدُ الرحمن لأُمية: ذاك حمزةُ بن عبد المطلب.

قال أُمية بن خلف: ذاك الذي فعلَ بنا الأفاعيل.

وبينما عبد الرحمن ممسكٌ بهما كأسيرَيْن؛ إذ رآه بلال بن رباح معه، فتذكَّر بلالٌ تلك الأيام العصيبة التي لفحت جلده فيها رمضاءُ مكة، وكيف أنَّ أميةَ بن خلف كان يربطهُ بأدراع الحديد، ويلقيه في بطحاء مكة فيطلقُ عليه زبانيته ليلفحوا جسده بالسياط، فيقول بلال: أحد أحد.

مرَّتْ تلك الأيامُ في مخيلة بلال تعدو سريعاً، صرخ بعدها قائلاً: رأس الكفر أُمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا.

فقال عبد الرحمن: يا بلال؛ هما أسيران في يدي(١).

فقال بلال: لا نجوتُ إن نجا.

فقال عبد الرحمن: أتسمع يا بلال، هما أسيراي.

وضح إصرارُ بلال على قتل رأس الكفر أُمية بن خلف، وراح يصرخُ في النَّاس قائلاً: يا أنصارَ الله، رأس الكُفر أُمية بن خَلَف، لا نجوتُ إن نجا.

أحاط الناسُ بأمية بن خلف، وصرخ بلال صرخته وهجم ومعه أنصارُ الله على رأس الكفر، وترك عبد الرحمن أمية بن خلف يقول في نفسه: انجُ بنفسك يا عبد الرحمن، فو الله ما أُغني عنك شيئاً. وينظر عبدُ الرحمن بن

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٦٣٢).

عوف إلى صاحبه بلال ـ رضوان الله عليهما ـ فيقول: «يرحمك الله يا بلال، يرحم الله بلالاً، ذهبت أذْراعي وفجعني بأسيريّ»[1].

## يـوم ذي قَــرَد

بعد يوم بني قريظة، أقبل رسولُ الله ﷺ إلى المدينة وبعث بإبله مع غلامه رباح، وخرج مع رباح سلمة بن الأكوع ـ رضوان الله عليه ـ وقد ركب فرساً لطلحة بن عُبَيْد الله، فلما أصبحوا إذا بعبد الرحمن بن عُيَيْنة قد أغار على إبل رسول الله فاستاقها أمامه بعد أن قتل رباحاً راعي إبله[2].

وقف سلمةُ بن الأكوع على تلٍّ عال يطلُّ على المدينة، فنادى مستنجداً أهلها يقول: واصباحاه، ثم اتّجه إلى المشركين وجعل يرميهم بالنبل، وما زال يرميهم ويضرب إبلهم، فإذا رجع منهم فارسٌ أتى وتوارى خلف شجرة وقعد في أصْلِها، فرماه فسقطتْ فرسُه به، وظلَّ سلمة يطاردهم حتى جاءهُ مددُ رسولِ الله ﷺ.

يقول سلمة بن الأكوع عن هذا اليوم: فما برحتُ مكاني ذاك حتى نظرتُ إلى فوارس رسول الله ﷺ يتخلَّلُون الشجر؛ أوّلهم الأَخْرمُ الأسديّ، وعلى إثْره أبو قَتَادة الأنصاريّ، وعلى إثْره المِقْدادُ بن الأسود الكنديّ.

خرج بلال بصحبة رسول الله ﷺ في هذا اليوم، وطارد المسلمون هؤلاء الذين اعتدوا على إبل رسول الله ﷺ وسلبوها، واستطاعوا أن يستردُّوا إبلَ رسول الله ﷺ، وظلّوا على حالهم هذا حتى وصلوا قبل غروبِ الشمس ماءً بين جبلين يقال له «ذو قَرَد» فشربوا منه وهم عِطَاش، واستطاعوا أن يغنموا من عدوِّهم الغنائم.

ويكون بلالٌ بن رباح في هذا اليوم ملازماً للرسول ﷺ، ونترك سلمة مرّةً

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبري (٣/٥٩٨).

أُخرى يتحدَّثُ عن لحظةٍ من لحظات بلال مع حبيبه المصطفى ﷺ ، يقول سلمة:

ثم جئتُ رسول الله ﷺ وهو على ماء ذي قَرَد الذي حلأتُهُم[1] عنه ، فإذا هو قد أخذ تلك الإبل التي استنقذت من العدوّ ، وكلّ رُمح ، وكُلّ بُردَة ، وإذا بلالٌ قد نَحَرَ ناقةً من تلك الإبل التي استنقذت من العدوّ ، فهو يشوي لرسول الله ﷺ مِن كبدها وسَنَامها.

فقلت: يا رسولَ الله ، خَلّني فلأنْتَخِب مئة رجل من القوم فأتّبِعُ القوم فلا يبقى منهم عين[2].

فضحك رسول الله ﷺ وقال: «أكنت فاعلاً»؟ فقلت: إي والذي أكرمك!

وفي الصباح رجع رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى المدينة .

رجع بلال إلى المدينة ، يستعدُّ لجولةٍ أُخرى مع الرسول ﷺ.

## يوم فتح مكة

نقض الكفارُ صلحَ الحديبية بتجاوزهم أهمّ شروطه ، وهو عدم اعتداء الكفار على حلفاء النبي من القبائل ، وكان من القبائل التي حالفتِ الرسول ﷺ قبيلة خزاعة ، وممّن حالف قريشاً قبيلة بكر.

وكان أن اعتدت بكر على خزاعة ، وقتلوا منهم أناساً فأصبح صلح الحديبية مهدّداً ، بل تُعَدُّ قريش هي البادئة بنقض شروط الصلح ، ومضى عمرو بن سالم الخزاعي ـ أحد أشراف قبيلة خزاعة ـ إلى رسول الله ﷺ في المدينة ، ليستنصره ويطلب النجدة ، فأنشد شعراً قال فيه:

فانْصُر رسولَ الله نصراً أعْتدا     وادْعُ عِبَادَ اللهِ يأتوا مَدَدا[3]

---

(١) «حلأتهم»: أي طردتهم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) «أعتداً»: أي حاضراً. «مدداً»: المدد: العون.

فيهـم رسـولُ اللهِ قـد تَجَـرَّدا　　أَبْيَضَ مثل البدرِ يَنْمِي صُعدا[1]
إنَّ قُـريشـاً أخلفـوكَ المـوعِـدَا　　ونَقَضُـوا ميثـاقَـكَ المُـؤكَّـدا
وجعلـوا لـي فـي كَـدَاءٍ رَصـدَا　　وزعمـوا أن لَسْـتُ أَدْعُـو أَحَـدَا[2]
وهـم أذَلُّ وأقـلُّ عَـدَدَا　　هُـمْ بَيَّتُـونـا بـالـوَتيـر هُجَّـدا
فقتَّلونا رُكَّعاً وسُجَّدا

فقال رسول الله ﷺ ، حين سمع ذلك من حليفه الخزاعي: «قد نُصِرت يا عمرو بن سالم»!

مضى رسول الله ﷺ في جيشٍ عظيمٍ من أصحابه وحلفائه ، ملأ الأفقَ صهيلُ خيله المنتصرة ، وتصاعد غبارُها في السماء فارتجَّت له سائر مكّة.

ودخلها من أماكن مختلفة ، فجعل الزبير بن العوام يدخلها من جبل في أسفل مكة على طريق اليمن يسمى «كَدَى» وعلي بن أبي طالب من جانب آخر ، وخالد بن الوليد من موضع يسمى «اللِّيط» ومعه بعضُ الناس ، وأبو عبيدة بن الجراح مع جيشه بين يدي الرسول.

وقد عهد رسول الله إلى أُمراء الجيوش عند دخولهم مكة ألاَّ يقتلوا أحداً غير مَن قاتلهم؛ إلاَّ نفراً سمَّاهم وأمر بقتلهم ، وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة[3] لإيذائهم المسلمين.

شهد بلالٌ رسول الله ﷺ يدخل مكةَ ، وسمعه يقول وقد وقف على باب الكعبة: لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صَدَقَ وَعْدَه ، ونَصَرَ عَبْدَهُ ، وهَزَمَ الأحزابَ وَحْدَهُ ، أَلاَ كُلّ مَأْثرة[4] ، أو دم ، أو مال يُدَّعى؛ فهو تحت قَدَمَيَّ هَاتَيْن إلا سِدَانَةَ البيت[5] وسِقاية الحاجّ.

---

(١) «تجرّد»: تشمّر وتهيّأ.
(٢) كَدَاء: موضع بمكة.
(٣) منهم عبد الله بن سعد ، وعبد الله بن خطل ، والحويرث بن نُقَيْذ.
(٤) «مَأْثرة»: هي الخصلة التي تتوارث ويتحدَّث بها الناس.
(٥) «سدانة البيت»: خدمته.

يا معشر قريش؛ إنَّ الله قد أذهبَ عنكم نَخْوة الجاهليّة وتعظُّمَها بالآباء. الناسُ من آدَمَ؛ وآدمُ خُلِقَ من تراب. ثم تلا قوله تعالى من سورة الحجرات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

وأمر ﷺ بلالاً أن يؤذِّنَ في هذا اليوم يوم الفتح على ظهر الكعبة، فصعد بلال ليصدح صوته في الآفاق، ولتتجاوب معه أرجاءُ مكة العامرة: جبالها ووديانها، بعد أن تساقطتْ على الأرض رموزُ الوثنية، وتحطمت هبل واللات والعزّى.

وها هو العبدُ الحبشي، السيد الحرّ المسلم يصدحُ بصوتٍ جهوري عالٍ... وعلا صوتُ بلال سيدنا كما كان يحلو لعمر بن الخطاب أن يسمّيه. ليقول: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الصلاة، حي على الفلاح حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

وجلس أهلُ الجاهلية يشهدون مولد أعظم رسالة على وجه الأرض، وجلس الحارث بن هشام وصفوان بن أمية، وجعل أحدهما يقول للآخر: انظر إلى هذا الحبشي!! ويتعجَّب.

فيقول له الآخر: إن يَكْرَهْهُ الله يُغَيِّره[1].

كيف يكره الله هذه النفس الزّكيّة الطّائعة الأبيّة، كيف لا يحبُّ الذين يدعونه بالغداة والعشي يريدون وجهه؟! لقد ذهبتِ الجاهليةُ كلّها خلف الجبال، وتوارت في جحورها بعدما طاردها صوتُ بلال العظيم وأذان بلال الخالد: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله.

---

(١) الطبقات (٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

## الـزواج الـمبـارك

عُرِفَ بلال بالصدق بين الناس؛ فقد كان صادقاً كما ربَّاه الصَّادقُ الأمين ، فيأبى صدقُه إلا أن يقولَ كلمة حقّ في أقرب الناس إليه ، فقد ذهب أخوه إلى قومٍ يخطبُ منهم امرأةً ، فقالوا إن حضر بلالٌ زَوَّجناك ، فحضر بلالٌ فتشهّد ثمَّ قال: أنا بلال بن رباح وهذا أخي وهو امرؤ سوءٍ في الخُلُق ، فإن شئتم أن تُزوِّجوه وإن شئتم أن تدعوا فدَعوا. فقالوا: من كان أخاه بلال نزوِّجه ، فزوَّجوه.

ويجيءُ بنو البكير إلى رسول الله ﷺ فقالوا: زَوِّجْ أختنا فلاناً. فقال عليه الصلاة والسلام: أين أنتم عن بلال؟

ثم جاؤوا مرة أخرى ، فقالوا: يا رسول الله أنكح أُختنا فلاناً.

فقال: أين أنتم عن بلال؟

ثم جاؤوا الثالثة فقالوا: أنكح أُختنا فلاناً ، فقال: أين أنتم عن بلال؟ أين أنتم عن رجلٍ من أهل الجنّة[١].

فوافق الناس وزوجوا بلالاً ـ رضوان الله عليه ـ.

## فـي وداع رسـول الله ﷺ

وتمضي الأيامُ؛ ويُقبض رسولُ الله وتصعد روحُه إلى الرفيق الأعلى ، ويـؤذِّن بـلال قبـل دفـن رسـول الله ﷺ ، فكـان إذا قـال أشهـد أن محمـداً رسول الله ، علا نحيبُ الناس في المسجد ، وبكوا بكاءً مرَّاً.

ودُفِنَ رسول الله ﷺ ، واسْتُخْلِفَ أبو بكر من بعده ، فقال لبلال: أذِّن يا بلال.

---

(١) المصدر السابق.

فقال بلال ـ رضي الله عنه ـ: إن كُنت إنما أعتقتني لأنْ أكونَ معك فسبيلك ذلك ، وإن كنتَ أعتقتني لله فخلِّني ومَن أعتقتني له[1].

فقال أبو بكر: ما أعتقتك إلا لله.

فقال ـ رضي الله عنه ـ: فإني لا أُؤذِّن لأحدٍ بعد رسول الله ﷺ.

فقال أبو بكر: كما تحبُّ. وتركه وشأنه.

ولما خرج بَعْثُ أسامة بن زيد ، خرج معه بلالٌ قاصداً بلادَ الشام ، يجاهدُ في سبيل الله مع إخوانه ، ويعودُ إلى المدينة بين الفينة والفينة ، كلما أحسَّ بالحنين إلى زيارة المصطفى ﷺ.

وكم أثارتْ وأهاجت زياراتُه للمدينة ذكرياتٍ وأياماً عزيزةً في نفوس الناس ، إنها أيام النبي ﷺ.

## مشاهد ومواقف

عندما جاء بلال إلى المدينة ، كان أبو بكر قد مرض ، فكان إذا أخذته الحمى يقول:

كُلُّ امرىءٍ مُصْبحٌ في أهلِهِ     والموتُ أدنى من شراكِ نَعْلِه

بينما بلالٌ يقولُ:

ألا ليتَ شِعْري هل أبيتَنَّ لَيْلَةً     بوادٍ وَحَوْلي إذخِرٌ وجليلُ
وهل أَرِدَنْ يوماً مياهَ مَجَنَّة     وهل يبْدُو لي شامةٌ وطفيلُ

## عنزات النجاشي

كان النجاشيّ يبعثُ بالهدايا لرسول الله ﷺ ، وها هو يبعثُ له ذات مرَّة بثلاث عنزات ، فأعطى ﷺ علياً واحدة ، وعمراً واحدة ، وأمسك

(١) المصدر السابق.

واحدة ، فكان بلالٌ يمشي بها بين يديه في العيدين حتى يَأْتي المُصَلَّى فيتركها جانباً ثم يُصلِّي[1] .

ويجلس بلالٌ ذاتَ يوم ، ويأتيه مَن يقول : إن أناساً يفضلونك على أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فيقول: كيف يُفضلوني عليه ، وإنما أنا حسنةٌ من حسناته؟!

أيّ أدبٍ هذا الذي يتحلّى به بلالٌ ـ رضوان الله عليه ـ أيّ حلم هذا الذي تحلَّى به صاحبُ رسول الله ، ومؤذِّنه الخالد الذِّكْر بلال بن رباح الحبشي!!

هذا السيد الذي أعتقه سيّدنا كما قال عمر: «أبو بكر سيِّدُنا وقد أعتق سيِّدَنا».

أيّ صبر يتعلّمه الناس من رجل لفحته رمضاءُ مكة ، ولسعته سياطُ جاهليتها ، فقال: أحدٌ أحدٌ ، وكان الناسُ لهم ما يمنعهما من أذى أهل مكة ، وكان بلالٌ يقول: أحدٌ أحدٌ. . . كان النَّاس يملكون حرّيتهم بعد المنعَة ، وكان بلالٌ عبداً مملوكاً يتصدَّى لسيّده ، ويتحدَّى كُلَّ أعراف الجاهلية التي تُعطي السيِّد حقَّ قَتْلِ العبد ، فيقولُ بشجاعة: أحدٌ أحدٌ. وعندما يُطلبُ منه القولُ بأُلوهية الأصنام كان يقول: لا أفهم في هذه اللغة كثيراً. إيه يا أيها الصابر المجاهد فزت وربّ الكعبة ، فزت بالجنّة.

## في وداع بلال

كان أُناسٌ يأتون بلالاً فيذكرون فضله ، وما قسم اللهُ له من الخير فكان يقول: إنَّما أنا حبشي كنتُ بالأمس عَبْداً.

وتجلس زوجُه إلى جواره في مرضه ساكنةً ، وقد انسابت دموعُها ، وها هو يحتضرُ فيقول عند استقباله لمنيّته: غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه[2] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/٣٥٦).

(٢) المصدر السابق.

فتقول زوجتُه في صوتٍ كسيرٍ حزين: واويلاه! فيجيبها قائلاً: وافرحتاه!

هنيئاً لك أبا عبد الله ، هنيئاً لك يا بن حمامة ، هينئاً لك أيها الحبشيّ المخلص ، اسْتُضْعِفْتَ في الدنيا ، آه لو يعلمُ النَّاس قُوَّتك في الآخرة! فكم كنتَ متواضعاً فيها؛ هنيئاً لك هذا المقعد ، ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

رحم الله بلالاً ، فقد كان خالدَ الذِّكْرِ ، وما زال يخلد بخلود الأذان ، إلا أنَّه بشر ، وكلُّ مَن عليها فانٍ ، ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام.

* * *

# (٢)
# عمار بن ياسر

قال تعالى في سورة النحل:

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

## في البدء كلمات

صاحَ عمّار بن ياسر يومَ اليمامة يقول: يا معشرَ المسلمين أمِنَ الجنّة تفرُّون؟ أنا عمار بن ياسر، هلمُّوا إلي.

وينظر عبدُ الله بن عمر إلى عمّار فيجدُ أُذُنَهُ قد قُطِعَتْ، فهي تتأرجحُ، وتنزفُ الدماءُ منها، بينما عمّار يقاتلُ دون أن يلقيَ بالاً للموت أو المخاطر.

ولقد تحمل عمّار بن ياسر الشيء الكثير عبر سنيّ حياته، ولاقى المصاعب الجمّة، وها هو يجاهد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد بدأت حياته بتعذيبٍ شديدٍ على بطحاء مكة، وضرب لا تقهره إلاّ إرادة حديدية. لكنّ هذا المستضعفَ الذي نالَ شرفَ الجنَّة على صبره مع رسول الله ﷺ، لم يغيّر عقيدته، ولم يهتزَّ إيمانه أبداً، فقد قوي منذ بدايات إسلامه؛ إذ أنه تربّى على الصبر والجهاد في سبيل الله.

وحين عُذِّب بلال المؤمن لم يُعذَّب كأحدٍ ممّن عُذِّبوا واضطُهدوا من المستضعفين، لقد كان عذابُ عمار بن ياسر النفسي أضعاف عذابه الجسدي، وذلك عندما يرى أمّه تُضرب ولا شأن لها في ذلك. وحين يهجم عليها أبو جهل رأس الكفر ويقتلها أمام زوجها وابنها عمار، ألاَ يتجاوزُ هذا آفاقَ أيّ عذابٍ جسدي؟! ذلك ما لاقاه عمار وآل ياسر؛ فبُشِّروا بالجنّة وهم في صبرهم هذا، وبطحاء مكة تلفح أجسادهم.

إنَّ الصبرَ على آلام الجسد قد ينتهي بانتهاء الآلام، لكنّ عماراً كان عليه

أن يتحمّل الصبرين معاً ، صبر الجسد ، وصبر النفس ، فأمُّه سميّة كانت أوّل سيِّده يُراقُ دمُها. وتُزهق روحُها في سبيل دعوة الحق التي آمنتْ بها وصدَّقتها ، فلم تَهُنْ ولم تضعُفْ ، بالرغم ممّا وقع عليها من عذاب واضطهاد أدَّى في النهاية إلى استشهادها على يد رأسٍ من رؤوس الكفر في مكة ، إنَّه أبو جهل.

وقد كان آلُ ياسر على مرّ الزمن قدوةً صالحةً للمسلمين في صبرهم وتحملهم وجَلَدهم ، وهم يواجهون الموت والعذاب بأجساد ضعيفة. لكنها انطوت على نفوسٍ قويةٍ إذ آمنت بالله ، واعتقدت بحقها في ترك عبادة الأصنام ، والسجود لله وحده.

## من هم آل ياسر!

ياسر بن عامر ، والدُ عمار يمني الأصل والأرومة. جاء إلى مكة يطلب أخاً له في مكة. فطاب له المقامُ في مكة ، فسكن فيها بعد أن حَالَفَ حذيفةَ بن المغيرة.

تزوَّج ياسر بن عامر إحدى إماء أبي حذيفة بن المغيرة ، وهي سُميَّة بنت خبَّاط ـ رضوان الله عليها ـ وقد أثمر هذا الزواج المبارك فولدت سميّة عماراً.

هذه الأسرة من مستضعفي مكة الذين بكَّروا بإسلامهم ، فكانت الهداية من الله والجهاد في سبيله ، وساماً على صدورهم.

هذه عجالة ، لكن ما تقولُ كتبُ الروايات في نسب هذا البطل المستضعف عمار بن ياسر؟

## عمار بن ياسر

قال الذهبي عن عمار[1]: الإمام الكبير ، أبو اليقظان العَنْسِيُّ المكي

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٠٦).

مولى بني مخزوم ، أحدُ السَّابقين الأوَّلين ، والأعيان البدريين. وأمّه سُميَّة مولاة بني مخزوم ، من كبار الصحابيّات السَّابقات.

ولعمار جملةُ أحاديث ، ففي مسند بقيّ له اثنان وستّون حديثاً ، ومنها في «الصحيحين» خمسة.

يذكرُ ياسر بن عامر يوم مجيئه إلى مكة ومعه أخواه الحارث ومالك ، وَقَدْ قَدِموا جميعاً من اليمن إلى مكة يطلبون أخاً لهم ويذكر أيضاً أخويه اللَّذين رجعا ، وقد آثر هو أن يقيمَ بمكة ويذكر أيضاً يوم أن حالف أباحذيفة بن المُغِيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ وقد كان نِعْمَ الحليفُ.

ويذكرُ يوم زواجه بسميّة ، وقد جاءت على استحياءٍ من بيت سيِّدها.

ويذكر أخيراً يوم أن ولدت له عمّاراً وقد أحسَّ يوم ميلاده بأن لابنه شأناً سيأتي في يوم من الأيام.

## إسلام عمار

وبالأمس أسلم عمار بن ياسر ، وأسلمت الأسرةُ كُلّها ، وكانت بدايةُ إسلام عمار في حديثٍ جاء على لسانه قال فيه[1]: لقيتُ صُهَيْب بن سنان على باب دار الأرقم ، ورسولُ الله فيها.

فقلتُ له: ما تريدُ؟

قال لي: ما تريدُ أنت؟

فقلت: أردتُ أن أدخلَ على محمد فأسمعَ كلامه.

قال: وأنا أريدُ ذلك.

فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلامَ فأسلمنا ، ثم مكثنا يَوْمَنَا على ذلك

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٤٧).

حتى أمسينا ، ثم خرجنا ونحنُ مستخفون. فكان إسلامُ عمار وصهيب بعد بضعةٍ وثلاثين رجلاً.

ويُعَدُّ عمّارٌ من المستضعفين في مكة. والمستضعفون قومٌ لا عشائرَ لهم بمكة ، وليست لهم منعةٌ ولا قوة ، فكانت قريش تُعذِّبهم في الرمضاء في حرّ الهاجرة ليرجعوا عن دينهم.

## محنة آل ياسر

لم تكن محنةً بقدر ما كانت امتحاناً تفوّق فيه عمّار ، ووالده ياسر ، وأمُّه سميّة ، تفوّقوا فيه جميعاً على كُلّ قوى الجهل والجاهلية ، فلقد تفرّغ بنو مخزوم تماماً لتعذيبِ هذه الأُسرة ، فأصبحت رمضاءُ مكة تعرفهم ، ولو كانت بطحاءُ مكة ممن يُسمحُ لها بالنطق لقالت الكثير مما رأتْ من صُنُوف العذابِ الّذي وقع على هذه الأسرة الصّابرة الطيّبة.

وقد كان رسول الله ﷺ يخرجُ كُلّ يوم إلى أسرةِ ياسر ، يُحيِّي صبرهم وجَلَدَهُم ، ولما كان عليه الصلاة والسلام ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وأُسرة ياسر من السَّابقين المؤمنين ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يعودهم ، وينادي عماراً ، فيقول عمار وقد أجهده العذابُ: يا رسولُ الله؛ لقد بلغَ منّا العذابُ كُلَّ مَبْلَغ.

فناداه الرسولُ: «صَبراً آل ياسر؛ فإن مَوْعِدَكُم الجنَّةُ»(١).

وقد كان عمّار ـ رضوان الله عليه ـ يُعذَّب فيغيبُ عن وعيه؛ حتَّى لا يدري ما يقول ، وقد تجرّد عمار يوماً من بعض ثيابه ، فنظر أصحابُه إليه فإذا بظهره نتوءات كثيرة ، فلما قال أحدهم: ما هذا؟

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات (٣/٢٤٩) والذهبي في تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الراشدين ص (٥٧٢).

قال عمار ـ رضوان الله عليه ـ: «هذا مما كانت تعذِّبني به قريش في رمضاء مكة»[١].

وقد قال أحد الرواة[٢] عن عمار: أحرقَ المشركون عمار بن ياسر بالنار، فكان رسول الله ﷺ، يَمُرّ به ويمر بيده على رأسه فيقول عليه الصلاة والسلام: «يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار كما كنتِ على إبراهيم». ثم أضاف عليه الصلاة والسلام قائلاً لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[٣].

ويمرُّ عليه الصلاة والسلام ومعه عثمان بن عفان في بطحاء مكة فيأتيان على أبي عمار وعمار وأمه وهم يُعذَّبون.

فقال ياسر: الدَّهْر هكذا؟!

فقال له النبي ﷺ: «اصبِرْ» ثم دعا فقال: «اللهُمَّ اغفر لآل ياسر وقد فَعَلْت»[٤].

وفي يوم من أيام محنَة عمار مع هؤلاء المشركين لم يكتفِ جلّادهم بالكيّ بالنار، فقد طرح جسد عمار على لهيب بطحاء مكة، وابتكر شيئاً جديداً!! لقد وضعَ رأس عمار بن ياسر في الماء حتى كادَ يختنق ويموت، مِمَّا جعل عماراً يغشى عليه في غيبوبةٍ طويلةٍ لا يَدْري ما يقول.

وجاء إلى النبي ﷺ يبكي بُكاءً مُرّاً. فقال عليه الصلاة والسلام: ما وراءكُ يا عمار؟

فأجاب عمار ـ رضوان الله عليه ـ: شرّ يا رسول الله، والله ما تُرِكْتُ حتى نِلْتُ منك، وذكرت آلهتهم بخيرٍ.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٤٨).
(٢) هو عمرو بن ميمون.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٦٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٩٣) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩) وابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٤٤٣).

فقال عليه الصلاة والسلام: فكيف تجدُ قلبك؟

قال عمّار: مطمئنٌ بالإيمان.

فقال عليه الصلاة والسلام: فإن عادوا فعد[1].

فنزل قوله عزَّ وجل من سورة النحل:

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

انتصر عمار ـ رضي الله عنه ـ، فتجاوز محنة الجلّاد الذي أصبح ضعيفاً أمام هذا المستضعف، القوي بإيمانه وبالله سبحانه وتعالى.

ومضى عمّار مهاجراً ـ رضوان الله عليه ـ واستقرّ في هجرته إلى اللهِ، واطمئن قلبُه بالإيمان.

## الانفراج

هاجر عمار إلى الحبشة الهجرة الثانية ليتخلَّص من صنوف العذابِ، وقد جَعَلَ دارَهُ في كُلِّ مكانٍ نزل فيه مسجداً يُصلِّي فيه، حتى قال عنه الرواة: أوّلُ من بنى مسجداً يُصلّى فيه عمار بن ياسر[2].

وقالوا أيضاً: أوّل من اتَّخذ في بيته مَسْجداً يُصلّي فيه عمّار[3].

وفي المدينةِ نزل مهاجراً، وحلَّ ضيفاً على صاحبه الأنصاري مبشر بن عبد المنذر[4]، لكن عماراً كان صاحبَ مكانةٍ عاليةٍ في نفس النبي ﷺ فأقطعه مَوْضعاً في داره.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٥٠) والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٥٨).

(٣) ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٥٠).

(٤) هو أخو أبي لبابة، شهد بدراً؛ واستشهد بها. (الإصابة ٣/ ٣٦٠).

وقد قال ﷺ في عمار: «إن عَمّاراً مُلىء إيماناً إلى مُشاشِهِ»[1].

وقال ﷺ: «مَن عادى عمّاراً عاداه الله، ومن أبغضَ عماراً أبغضه الله»[2].

وقد شارك عمّار رسولَ اللهِ ﷺ والمسلمين في بناء المسجد الشريف.

ولما ظنّ به أحد أصحابه ظنّاً أغضب عماراً قال رسولُ الله ﷺ: «ما لهم ولِعمَّار...؟ يدعوهم إلى الجنَّة، ويدعونه إلى النارِ وذلك دَأْبُ الأشقياء الفجّار»[3].

وقد استأذن عمّار على النبي ﷺ، فقال: «مرحباً بالطَّيب المُطَيَّبِ»[4].

نعم إنَّه طيب القلب، مطيَّب بالإيمان، مطمئن بربّه رغم إكراهه على الكفر من قبل المشركين.

## مشاهد ومواقف

### أ ـ قصته مع الشيطان:

يروي عمار قصّته مع الشيطان فيقول: قاتلتُ مع رسول الله ﷺ الجنَّ والإنس، قيل: وكيف؟ قال: كنا مع النبي ﷺ فنزلنا منزلاً، فأخذتُ قربتي ودَلْوي لأستقي، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا إنَّه سيأتيك على الماء آتٍ يمنعُك منه».

فلما كنتُ على رأس البئر إذا برجلٍ أسود كأنه مَرسٌ، فقال: والله

---

(١) رواه النسائي (٨/ ١١١)، وابن ماجه (١٤٧)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٩٢) والبزار كما في فتح الباري (٧/ ٩٢). «المشاش»: جمع مُشاشة، وهي رؤوس العظام اللَّيِّنة.

(٢) رواه أحمد (١/ ٨٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٩١)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٣) وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه ابن أبي شيبة وابن عساكر.

(٤) رواه الترمذي (٣٧٩٩) وابن ماجه (١٤٦).

لا تستقي اليوم منها ، فأخذني وأخذته فصرعتُه ، ثم أخذتُ حجراً فكسرتُ وجهه وأنفه ، ثم ملأتُ قربتي وأتيتُ رسولَ الله ﷺ ، فقال: هل أتاك على الماء أحدٌ؟

قلت: نعم.

فقصصتُ عليه القِصَّة ، فقال: «أتدري مَن هو؟» قلت: لا ، قال: «ذاك الشَّيْطَانُ جاءَ يمنعُك من الماء».

**ب ـ مسجد الرسول:**

وفي بناء مسجد الرسول ﷺ يروي عبد الله بن أبي الهذيل فيقول[1]: لمّا بنى رسول الله ﷺ مسجده جعل القوم يحملون ، وجعل النبي ﷺ يحملُ موادّ البناء ومعه عمار ، فجعل عمار يرتجزُ ويقول:

نَحْـنُ المسلمـونَ نبتنـي المسـاجِـدا
لا يستـوي مـن يعمـرُ المسـاجـدا
يَـدْأَبُ فيهـا قـائمـاً ، وقـاعِـدا
ومَـن يُـرَى عـن الغبـار حـائـدا[2]

وجعل رسول الله ﷺ يقول: المساجدا.

وقد حَمَلَ الصَّحابةُ الأجلاّء كُلٌّ واحدٍ منهم لبنةً لبنةً ينقلها ، بينما عمّار بن ياسر ينقل لبنتين لبنتين ، فَتَرِبَ رأسُه وامتلأ غُبَاراً ، فجعل رسول الله ﷺ ينفضُ رأسَهُ ويقول: «وَيْحَكَ يا بنَ سُمَيَّةَ! تَقْتُلُكَ الفئةُ الباغيةُ»[3].

تُرى أي فئة باغيةٍ هذه التي ستقتل عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ؟ ذلك مشهد أخير سنتحدثُ عنه في نهاية هذه السيرة العطرة.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٥١).
(٢) المصدر السابق.
(٣) رواه مسلم (٢٩١٥) وأحمد في المسند (٣/ ٥) ، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٥٢).

ومشاهدُ عمّار كثيرةٌ سننتقل فيها من موقعٍ إلى موقعٍ ومن مشهدٍ إلى مشهد ، والمشهد القادم في اليمامة.

### ج ـ يوم اليمامة:

كتب رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذّاب كتاباً يردُّ فيه على افتراءاته فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب ، السلامُ على من اتّبع الهدى ، أما بعدُ: فإنَّ الأرض لله يُورثها مَن يشاءُ مِن عِبادِهِ ، والعاقبةُ للمتقين»[1].

فلما مات رسول الله ﷺ ، وبعث أبو بكر السَّرايا إلى المرتدِّين ، فأرسل عِكرمةَ بن أبي جهل في عسكر إلى مُسَيلمة ، واتّبعه شرحبيل بن حَسَنة ، وكان مسيلمةُ قد اشتدّ أمره ، والتفَّ حوله أربعون ألف مقاتل من بني حنيفة باليمامة.

فسار عكرمةُ إلى اليمامة ، ولم يَرَ أن ينتظرَ مَدَداً ، لذلك فلم يثبتْ أمام جيش مسيلمة ، لأنَّه استعجل ولم ينتظرِ المددَ الذي أرسله إليه أبو بكر ، ولكن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ أرسل خالد بن الوليد ومعه جيشٌ قويّ وفيه الأنصار وعلى رأسهم ثابت بن قيس والبراء بن عازب ، وعلى المهاجرين أبو حذيفة ، وزيد بن الخطاب.

وكان عمّار من المهاجرين الذين حضروا هذا اليوم العظيم ، وكانت معركةٌ رهيبةٌ استشهدَ فيها عددٌ من الصحابة ومنهم زيد بن الخطاب ، ويقول الرواةُ عن يوم اليمامة:

فما رُئِيَ يومٌ كان أحدّ ولا أعظم نِكَايةً ممَّا رُئِيَ يومئذٍ ، ولم يُدْرَ أيَّ الفريقين كان أشدّ نكايةً ، إلا أنَّ المصيبةَ كانت في المهاجرين والأنصار أكثر منها في أهل البادية.

---

(١) الوثائق السياسية ، لمحمد حميد الله ص (٣٠٥).

وظلَّ يومُ اليمامة سِجالاً ، مرّةً على المسلمين ومرّةً على الكافرين.

فقال خالد: امتازوا لنعلم بلاءَ كلِّ حيّ ، ولنعلم من أين نُؤْتَى! فامتاز أهل القرى والبوادي ، وامتاز أهل القبائل من البادية والحضر.

ودارت رحى المسلمين وطحَنتْ ، واستطاع المسلمون تسلُّقَ سور الحديقة التي كان فيها مسيلمة. ويقول عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن بطولة عمار في هذا اليوم: رأيتُ عماراً يومَ اليمامة على صخرةٍ ، وقد أشرفَ يَصِيحُ: يا معشرَ المسلمين ، أمن الجنة تفِرُّون؟ أنا عمّار بن ياسر، هَلُمُّوا إليَّ ، وأنا أنظر إلى أُذُنه وقد قُطِعت، فهي تذبذب ، وهو يقاتل أشدَّ القتال[1].

وهذا المشهد وغيره يدلّ على شجاعة الرجل وإقدامه.

### د ـ مع أمير الكوفة:

اعتاد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن يختارَ من المسلمين ولاةً لهم مكانة وخاصية نادرة في غيرهم ، وها هو يختارُ عمّار بن ياسر والياً على الكوفة ، ومعه ابن مسعود أميناً على بيت المال ، ومن الأشياء التي يحرصُ عليها عمر ـ رضي الله عنه ـ أن يكتبَ لأبناء الأمصار عن حال واليهم ، فكتب إلى أهل الكوفة يقول: إني بعثتُ إليكم عَمَّار بن ياسر أميراً ، وابن مسعود معلِّماً ووزيراً ، وإنهما لمن النُّجباء ، من أصحاب محمد ، ومن أهل بدر».

وفي الكوفة كان عمار عند حُسْنِ ظَنِّ أمير المؤمنين فيهم ، فما إن وصل إلى ولايته حتى سلك مسلك عَدْلٍ شهد له به أهلُ الكوفة ، ومنهم ابن الهُذَيْل الذي قال: رأيت عمار بن ياسر وهو أمير الكوفة يشتري قَتّاً[2] بدرهم ، ثم يربطها بحبل ويحملها فوق ظهره ، ويمضي بها إلى داره.

---

(١) ابن سعد (٣/ ٢٥٤) والطبري في المنتخب من الذيل (٥٠٩).

(٢) «القت»: الفِصْفِصَة ، وهي الرطبة من عَلَف الدَّوابّ.

أيّ تواضعٍ هذا!

وفي الكوفة قال له رجل أيضاً: «يا أجدعَ الأذن» يُعَيِّرهُ بإذنه التي قُطِعت في يوم اليمامة العظيم، فيجيبُ وابتسامة على وجهه قائلاً: «خَيْرَ أُذنيَّ سَبَبْتَ. لقد أُصيبت في سبيلِ الله».

**هـ ـ المشهد الأخير:**

في صفين كان عمار بن ياسر في صف علي بن أبي طالب، يُناصره، ويقاتل معه. وخرج عمار مع علي يوم صفين وعمره ثلاث وتسعون سنة...!!

وقال في هذا اليوم وهو في هذا السن المتقدِّمة: والذي نفسي بيده، لقد قاتلتُ مع رسول الله ﷺ بهذه الراية، وها أنذا أقاتل بها اليوم، والذي نفسي بيده، لو هزمونا حتى يبلغوا سعفات هجر لعلمت أننا على الحقِّ، وأنهم على الباطل.

وفي هذا اليوم نستعيدُ كلمات رسول الله ﷺ لعمار: «تقتلك الفئةُ الباغيةُ».

وقاتل عمار يوم صفّين وهو يقول: اليوم ألقى الأحبة، محمداً وصحبه.

وقد أُستجيب لدعائه فَقُتِل في هذا اليوم، وتذكر الناس مقولة الرسولﷺ «تقتله الفئةُ الباغيةُ».

ووصلت هذه الكلماتُ إلى معاوية فخرج للناس يقول مدافعاً عن نفسه ودافعاً هذه التهمة عن نفسه: «إنما قتله الذين خرجوا به من داره وجاؤوا به إلى القتال».

ومضى الإمام علي للصلاة على جثمان صاحبه، ثم دفنه في ثيابه.

رحم الله عمار بن ياسر، المستضعف القوي، الصابر الأبي، المؤمن المطمئن، الذي سبق إلى الإسلام فنال حُظْوة السَّبق.

وقد حدَّد رسول الله مكانته حينما قال: «اقتدوا باللَّذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر، واهتدوا بهَدْي عمّار، وتمسّكوا بعهد ابن أم عَبْد»[1].

اللهم اهدنا بهدي عمار، واجعلنا من الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه.

* * *

---

(1) رواه أحمد في المسند (٥/ ٣٨٥ و٤٠٢)، وابن حبان في صحيحه (٢١٩٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٧٥) ووافقه الذهبي.

# (٣)
# خـبّـاب بـن الأرتّ

قال تعالى في سورة مريم:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾.

## من مذكرات حدّاد

قال خَبَّابُ بن الأرتّ ـ رضوان الله عليه ـ: كُنتُ حداداً في مكّة أصنعُ السيوف، فعملتُ للعاص بن وائل سيفاً فجئتُ أتقاضاه؛

فقال: لا أُعطيك حتى تكفرَ بمحمد.

فقلتُ: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموتَ ثم تُبْعثَ.

فقال: إذا بُعِثْتُ كان لي مالٌ فسوف أقضيك (أي أعطيك أجر السيف).

فقلت ذلك لرسول الله ﷺ فأُنزلت الآيات السالفة الذكر.

هذه سطورٌ قليلة من مذكرات حدّاد مسلم في مكة، كان مستضعفاً في نظر هذا العاص بن وائل، الذي جَهِلَ كُلَّ الجهل قوّته الكامنة في صدره.

إنَّ قُوَّة خبّاب المستضعَف تكمنُ في إيمانه؛ الذي كان كالسَّيل لا يُبقي في طريقه أي عوائق من الجاهلية. ولو يعلمُ النَّاسُ أنَّ خباباً كان يوماً سُدُس الإسلام؛ عندما أصبحَ سادس سِتَّةٍ أسلموا على ظهْرِ الأرضِ؛ لعرفوا سِرَّ قوّته.

لقد كان حدّاداً ماهراً يُتْقِنُ صنعته، نَعم كان تاجراً صادقاً صناعته السيوف، وكان سيّافاً مهنته الجهاد في سبيل الله عزَّ وجل.

وكان فصيحَ اللسان، حكيمَ الرَّأي، صادِق الوعد، مِمَّا جعل النَّاس في

الجاهلية يُقْبِلُون على شراء سيوفِهِ ، ولما كان يتحلّى به أيضاً من الأمانة والصِّدق وإتقانِ العمل.

وسنجد في سِيْرة خبّاب قُوَّةَ المستضعفين ، فأصحابُ النبي ﷺ لابُدَّ وأن يكونوا أعِزَّةً على الكُفَّار ، أذلَّةً على إخوانهم ، فَنَفْسُ المؤمن عزيزةٌ على الكافر الفاجر ، ذليلةٌ للمؤمنين الذين نهلوا من معين العقيدة.

فلنعش لحظاتٍ مع سيرة هذا المستضعف العظيم ، الصحابي الجليل ، السَّابق الأوَّل خبّاب بن الأرتّ ، حداد مكة وصانع سيوفها في الجاهلية والإسلام.

## بطاقة تعريف

*** من هو خبّاب؟**

خبّاب بن الأرت بن جندلة بن خذيمة بن كعب بن سعد بن زيد بن مناة ، من تميم ، أبو يحيى التميمي[1].

خبّاب بن الأرت ، من نجباء السابقين ، له أحاديث عِدّة ، كنيته أبو عبد الله ، شهد بدراً والمشاهد[2].

خبّاب بن الأرت كان من السَّابقين الأوَّلين ، وكان من المستضعفين[3].

خبّاب بن الأرتّ أوَّلُ من أظهر إسلامَه ، وعُذِّب عذاباً شديداً لأجل ذلك[4].

خبّاب بن الأرتّ نزل الكوفة ومات بها سنة سبع وثلاثين[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٢٣).
(٢) المصدر السابق.
(٣) الإصابة ترجمة (٢٢١٠).
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

خباب بن الأرت عربي تميمي أصابه سبيٌ ، فبيعَ بمكة فاشترته أم أنمار ، وهي أم سباع الخزاعية حِلْف عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة[1].

هذه بطاقةٌ صغيرة أَجْملنا فيها سيرة خبّاب بن الأرت المستضعَف القوي!!

*** في بيت أم أنمار الخزاعية:**

في سوق العبيد بمكة كانت أم أنمار الخزاعية تمضي في الطريق تبحثُ عن غلامٍ تنتفع بخدمته ، وراحت تتأمَّل في المعروض في سوق العبيد والنخاسين في مكة؛ حتى وقع اختيارُها على صبي صغير لم يبلغِ الحُلم ، فدفعتْ ثَمَنَهُ ، وصَحِبَتْهُ في الطَّريق إلى بيتها.

وفي الطريق سألته عن اسمه فأجاب: خبّاب ، وعرفتْ أنه من قبيلة تميم ، فاستغربتِ الأمرَ وقالت: فما الذي أوصلك إلى سوق العبيد في مكة؟

فقال: أغارت علينا قبيلةٌ من قبائل العرب ، فاستاقت أنعامنا وسبت نساءنا؛ وكنتُ من غلمان بني تميم الذين سبوهم ، وما زلتُ أنتقل من سوقٍ إلى سوق حتى جئتُ إلى مكة ، وها أنا بين يديك.

وما كانت أمُّ أنمار تتركه دون عمل أو صنعة كما اعتاد أهلُ مكّة مع عبيدهم ، ولكنها دفعته إلى حدَّادٍ في مكّة يصنعُ السيوف كي يعلّمه صنعة السيوف ، فكان أن أتقن الفتى خبّاب صنعةَ السيوف إتقاناً لم يسبق لأحدٍ مثله.

اشتدَّ عُودُ خبّاب ، وقَوِيَ ساعدُه ، وأصبح سيَّافاً صانعاً للسيوف ، ما بعده صانع في مكة ، حتى أن فرسانها ورجالاتها كانوا يتزاحمون حوله ، كلٌّ منهم يريدُ أن ينجح بأخذ سيفٍ من صنع خبّاب بن الأرتّ.

لذلك فكّرت أم أنمار في فتح دُكّان لغلامها خبّاب ، كي تستثمرَ جهده ،

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٦٤).

وتستفيدَ منه وقد اشترته بمالِها من السوق؛ لذلك فقد استأجرتْ له دُكّاناً ، وزوَّدته بحاجيات الحدّاد ، وجعلت تقولُ في نفسها: لماذا لا أستثمر مهارة هذا العبد في صنع السيوف؟ وما إن فعلتْ حتّى ذاعَ صيتُ خبّاب ، وفاضت شهرتُه كأشهر صانعي السيوف في مكة ، فجاء الناسُ من كُلّ حدب وصوب ، وأقبلوا عليه يشترون سيوفه القوية.

## إسـلامـه

غير أنَّ أخبارَ مكة وما فيها من جديد لا تخفى على رجلٍ كهذا يمرُّ بدكّانه الفارسُ والخادم ، وكلٌّ منهم يحملُ خبراً جديداً ، وكانت أخبارُ محمد بن عبد الله الهاشمي من أكثر الأخبار التي توقَّفَ عندها خبّابٌ كثيراً ، وهو الذي يسخرُ من جَهْل العرب ، وطقوسهم الضالّة ، التي أصبحت تغزو كُلَّ شيءٍ في مكّة حتّى خباب ذاته.

جاء ذاتَ ليلةٍ مَن ينقلُ له دعوةَ محمد ﷺ ، وسماحة هذه الدعوة ، وعظيم ما جاء فيها ، فانطلق إلى رسول الله ﷺ ليعلنَ إسلامَه ، وكان سادسَ ستّة أسلموا في المعمورة كُلّها. آمن بدعوة محمد ﷺ فأسلم؛ وهو لا يرى منعةً تمنعه حين أسلم ، لم يكن أتباعُ محمد بالكثرة حتى يطمئن رجلٌ كهذا ، وإنما هو الإيمان بعينه.

كان شُجاعاً لم يكتمْ إسلامَهُ رغم علمه بخطورة هذا الموقف ، لكنَّ نوراً في قلبه كان أقوى وأكثر إشعاعاً من أيِّ ظلامٍ جاءتْ به الجاهليةُ الأولى.

منذ أعلنَ خبّاب إسلامَهُ انهالت عليه أساليبُ التعذيب والاضطهاد ، فكانت أوسمةً خالدةً على صدره ، وعلى كل مكان في جسده نال من التعذيب ألواناً كثيرة.

وكُلَّما اشتدَّ الاضطهادُ والعَذَابُ ، كُلّما عَلَتْ مكانةُ هؤلاء المستضعفين ، ومنهم خبّاب بن الأرتّ ـ رضوان الله عليه ـ فهذا شأنُه وشأن آل ياسر وصهيب وغيرهم من المستضعفين.

لقد صبر خَبَّابٌ ولم تلنْ له بين أيدي الكفار قناةٌ ، فجعلوا يلصقون ظهره العاري بالحجارة المحمّاة حتى ذهب لحمه.

هكذا تحدّث أحدُ الرُّواة[1] عن ثبات خبّاب ـ رضوان الله عليه ـ وحظّه الكبير من العذاب ، وكيف أنه كان يقاومُ صنوفَ العذاب بِجَنَانٍ ثابت.

وقد بدأت هذه المرحلةُ المشؤومة من حياة خباب ـ رضوان الله عليه ـ عندما بلغ خبرُ إسلامه إلى أمّ أنمار ، فصحبت أخاها سباع بن عبد العزّى ، ولحق بهما جماعة من فتيان خزاعة أهل أم أنمار ، فما إن وصلوا إلى دُكّان صُنْع السيوف وفيه خبّاب ، حتى أمسكوا به ، فقال لهم في وضوح كامل : ما صبأتُ ، وإنما آمنتُ بالله وحده ، ونبذتُ أصنامكم ، وشهدتُ أن محمداً عبد الله ورسوله ، صلى الله عليه وسلم.

انهال فتيانُ خزاعةَ على خبّاب بن الأرتّ ضرباً عندما سمعوا كلماته هذه ، وجعلوا يضربونه بكلّ شيءٍ يملكونه؛ حتى انهار على الأرض فاقد الوعي ، لا يدري ماذا حدث ، وقد سالت دماؤه الطاهرة على الأرض.

علم النّاسُ بما حدث ، وتداولوا خبر جُرأة خبّاب ، فهو أوّلُ من اشتهر أمرُ إسلامه من المستضعفين في مكّة.

واشتدَّ غضبُ سباع بن عبد العزّى، فما إن اشتدَّ لهيبُ بطحاء مكة ، حتى ساقَ خبّاباً أمامه ، ونزَعَ عنه ثيابه ، وألبسه دروعَ الحديد. وبطبيعة الحال فإنَّ موقفاً كهذا لن يَدَعَ فرصةً لخبّاب كي يتناولَ شربةَ ماء أو فتات الطعام!.

وبدأ الضَّرْبُ على جَسَدَ هذا الرجل الصابر ، وأقبل عليه ابنُ عبد العزّى يقول له ولهب الصحراء يأكل جسده: ما تقولُ في محمدٍ؟

---

(١) هو عامر الشعبي.

فيقول خباب: عبد الله ورسولُه، جاءَنا بدين الهُدَى والحقِّ ليخرِجَنَا من الظُّلماتِ إلى النور.

وكلَّما كرروا عليه السؤال أجاب الإجابة نفسها، فينهالون عليه ضرباً مرّةً أُخرى ثم يقولون له: وما تقولُ في اللاَّت والعزى؟.

فيقول خبّابٌ في جُرأة وشجاعة: صنمان أبْكَمان لا يضران ولا ينفعان.

واشتدَّ العَذَابُ، وزاد الكفارُ تعذيبَهم للمستضعفين، ومنهم خباب، فجمعوا أنفسهم ومضوا إلى رسول الله ﷺ، ويقصُّ خبّابٌ فيقول: أتيتُ النبي ﷺ وهو متوسِّدٌ في ظل الكعبة ـ وقد لقينا من المشركين شِدَّة ـ فقلت: يا رسولَ الله، ألا تَدْعو الله لنا؟ فَقَعد وهو محمرٌّ وجهه، فقال: «لقد كان مَن قَبْلكم لَيُمْشَط بمِشاطِ الحديد، ما دُون عظامه من لحم أو عَصَبٍ، ما يَصْرِفُهُ ذلك عن دينه، ويُوضَعُ المِيْشارُ على مفرق رأسِهِ فَيُشَقُّ باثنتين، ما يَصْرِفُه ذلكَ عن دِيْنِهِ. وَليتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صَنْعاءَ إلى حَضْرَموتَ ما يخافُ إلا الله»[1].

بهذا الدرس العظيم للمعلم الأول والرسول الكريم ازداد تماسُك هؤلاء المستضعفين، وامتلأت نفوسُهم بإيمان قوي وإصرار عظيم، فلم يجِد الشيطانُ مجالاً لكي ينالَ منهم.

وجاء دورُ أُمِّ أنمارٍ، فلم يكن دورُها أقلَّ سوءاً من شقيقها سباع بن عبد العزّى. فما إن رأتْ رسول الله ﷺ يمرُّ بدكان خبّاب بن الأرتّ، ويتحدث معه قليلاً حتى جُنَّ جُنُونُها، وسوَّل لها الشيطانُ عملها السَّيِّىء فأخذت حديدةً مُحمَّاة من الموقد الذي يُصهَرُ به الحديد داخل المحل ووضعتها على رأسه؛ حتى خرجَ من رأس خبّاب دخانٌ، وسمع صوتُ ارتطام النار برأسه ـ رضي الله عنه ـ فأُغمي عليه، وجعل خبَّابٌ يتمتمُ

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٢). «الميشار»: تقول: وشرت الخشبة وأشرتها ويُقال فيه بالنون، وهي أشهر في الاستعمال.

بكلمات هامسةٍ يدعو بها على هذه القاسية القلب وعلى أخيها سِباعٍ الذي أشبعه ضرباً وتعذيباً.

ويستجيب الله عزَّ وجلَّ لدعاء عبده المستضعف خباب بن الأرتّ، وتُصاب بصداعٍ في رأسها، فكانت أم أنمار تمسكُ رأسها، وتهرولُ صارخةً في شوارع مكةَ من شدّة ما أصابها من الصداع.

ولما طلب أبناؤها الطبَّ لها قال لهم الأطباء: إنه لا شفاء لَها بغير كَيِّ رأسها بالنار، فجعلتْ تَكْوِي رأسَها بالحديد المحمَّى في دكّان خبّاب؛ حتى تنسى ما أصاب رأسها من آلام، ويجيءُ انتقامُ الله لعباده المخلصين حاسماً ولو بعد حين.

## الهجرة إلى المدينة

مضى خبّابٌ مهاجراً من مكة إلى المدينة، بعد أن أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة، وبعد أن نصح الرسولُ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، حيث إخوانهم الأنصار الذين عاهدوهم فصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

فخرج ذاتَ يوم مع صاحبه المقداد بن عمرو من مكة قاصداً المدينة، فلما وصلاها نزلا على صاحبهما كلثوم بن الهِدْم[1]، وظل في منزله ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ إلى أن توفي قبل خروج الرسول ﷺ إلى بدر غازياً[2].

ثم تركا بيت صاحبهما بعد وفاته إلى دار سعد بن عبادة فلم يزالا عنده حتى فُتِحت ديارُ بني قريظة.

وقد آخى رسول الله ﷺ بين خبّاب بن الأرت، وجبر بن عتيك.

وفي بدر كان خبّاب بن الأرتّ أحد الأبطال الذين قاتلوا إلى جوار

---

(١) هو كلثوم بن الهِدْم: صحابي من الأوس، نزل عليه رسول الله ﷺ بقباء أوّل ما قدم المدينة، وهو أوّل مَن مات من أصحاب رسول الله ﷺ بالمدينة. (الإصابة رقم الترجمة ٧٤٤٤).

(٢) الطبقات (٣/ ١٦٥).

الرسول ﷺ ، فكسب وسامَ بدر ، فهو بدريّ ، وناهيك مكانةً عاليةً بأصحاب بـدر؛ إذ يقولُ الرسولُ ﷺ عن أهل بدر لعمر بن الخطاب يوم الفتح حينما اعترضَ على رسالـة حاطب بـن أبي بلتعة ، وأراد أن يضربَ عنقه قائلاً: يا رسول الله ، دعني أضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة ، فقد كفر.

فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا بن الخطاب! لعلَّ الله قد اطّلعَ على أهل بَدْرٍ ، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»[1].

فهنيئاً لخبّاب هذه المغفرة.

## يـوم أحـد

وكما أصيبت أمُّ أنمارٍ بداء في رأسها جعلها تعدو لاهثةً في أرجاء مكة وتقول صارخةً: وارأساه ، إثر دعاء خبّاب عليها ، فقد وجد أن الله لا يتركُ عباده الصَّالحين ، فيستجيب لهم ، وها هنا من أُحُدٍ يستجيبُ الله تعالى مرةً أخرة لدعاء خباب فيقرّ عينه برؤية سباع بن عبد العُزى أخي أُمِّ أنمارٍ وهو يسقط قتيلاً مضرّجاً في دمائه ، بعد أن لقي مصرعه على يد حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ ، لذلك فقد كان يوم أُحد رغم ما فيه من هزيمة يوم قصاص لمستضعفٍ كخبّاب بن الأرتّ.

## الـمـالُ مـالُ الله

أنعم الله من فضله على عباده المخلصين ، وكانت بلادُ فارس وأمصار أعداء الإسلام غنائم كبرى لهؤلاء المستضعفين؛ الذين تركوا أموالهم وديارهم وأولادهم ، وأمسكوا بدعوة رسول الله ﷺ فلم يتركوها أبداً.

وقـد امتلك خبّـابٌ مالاً كثيراً وفيراً ، لم يكن يـظن أنه يظفر به في يوم

(١) رواه الطبراني في الأوسط كما في (كنز العمال ١٤/ ٦٩).

من الأيام ، ولم يكن المالُ حلماً لأحدٍ من هؤلاء الصادقين؛ فقد كانوا يُطعمون الطَّعامَ على حبه، ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، لذلك فما إن كَثُرَ مالُ خباب حتى جعله في موضعٍ يتناول كُلُّ داخلٍ إلى داره ما يريدُ منه!!

فقد وضع ـ رضوان الله عليه ـ دراهمَهُ في مكانٍ معروفٍ لذوي الحاجة في بيته ، فما إن يحتاجُ أحدٌ منهم حتى يأتي إلى داره ، ويأخذَ ما يريدُ ، ويمضي دون سؤالٍ أو استئذانٍ من صاحب المال. ألا يوجد في هذا الزمان من يأخذ حاجته ويكتفي ، وتكون القناعة هي التاجُ الذي تحلّى به في مواجهة هذا المال الخضر الحلو الذي يُؤخذ بطيب نفس. ذلك ما نحبُّ أن نتعلّمه من سيرة خبّاب بن الأرت ـ رضوان الله عليه ـ.

## مع عمر بن الخطاب

كان عمر يحبُّ هذا الصِّنْفَ من الرجال ، وكلما وجد أحداً منهم أثنى عليه ، فما كانت تقع عيناه على عُمَيْر بن سعد حتى كان يقول عنه: نسيج وحده ، فمن لي برجل مثل عمر؟!

وها هو خباب يدخلُ ذات يوم على عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ فأجلسه عمر على متكئه وقال: ما على الأرض أحدٌ أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد.

فقال له خبّاب: من هو يا أمير المؤمنين؟

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: بلالُ.

فقال خباب: يا أميرَ المؤمنين ما هو بأحقّ مني ، إنَّ بلالاً كان له في المشركين مَن يمنعه الله به ، ولم يكن لي أحدٌ يمنعني ، فلقد رأيتني يوماً

أخذوني وأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها ، ثم وضع رجلٌ رِجْلَه على صدري فما اتَّقيتُ الأرض[1] .

وكشف عن ظهره فرأى عمر ـ رضي الله عنه ـ ما تقشعرّ له الأبدان ، لقد سقط لحمُه عن عظام ظهره ، ولم يطفىء النارَ إلاَّ الماء الذي نزَّ من جسده .

## في وداعه الأخير

وقد مرض خبّاب بن الأرتّ مرضاً عضالاً في آخر أيامه ، ويصفه حارثة بن مضرب أحد معاصريه فيقول: دخلتُ على خباب بن الأرت أعوده وقد اكتوى سبع كيّات ، فسمعته يقول: لولا أني سمعتُ رسول الله ﷺ ، يقول: «لا ينبغي لأحدٍ أن يتمنّى الموت» لألْفاني قد تمنيته[2] .

وحين جاؤوا إليه بالكفن قال: لكن حمزة عمّ النبي ﷺ ، كُفِنَ في بُرْدة ، فإذا مُدّت على قدميه قلصت عن رأسه ، وإذا مُدّت على رأسه قلصت عن قدميه ، حتى جُعل عليه إذْخِرٌ.

ولقد رأيتُني مع رسول الله ﷺ ، ما أملك ديناراً ولا درهماً ، وإن في ناحية بيتي في تابوتي لأربعين ألف وأوفى ، ولقد خشيتُ أن تكون قد عُجِّلَتْ لنا طيِّباتنا في حياتنا الدنيا[3] .

وجاء أصحابُه يعودونه فقالوا: أبشر يا أبا عبد الله ، إخوانك تقدمُ عليهم غداً ، فبكى وقال: عليّ من حالي ، أما إنّه ليس بي جزعٌ ، ولكن ذكّرتموني أقواماً ، وسمّيتموهم لي إخواناً ، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما هي ، وإني أخافُ أن يكونَ ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا[4] .

وعن تاريخ وفاته سُئل ابنه عبد الله بن خباب: متى مات أبوك؟ فقال:

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٦٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/١٦٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

سنة سبع وثلاثين ، وهو يومئذٍ ابنُ ثلاث وسبعين سنة. وكانت وفاته في الكوفة.

كان ذلك أثناء عودة علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ من صفيّن ، فمرَّ على قبور سبعة أو ثمانية فقال علي: ما هذه؟ فقيل: يا أمير المؤمنين إنَّ خبَّاب بن الأرتّ توفي بعد مخرجك وأوصى بأن يُدفن في ظاهر المدينة ، وكان الناس إنما يدفنون في دورهم وأفنيتهم ، وكان أول من دفن بظاهر الكوفة.

فقال علي: رَحِمَ اللهُ خباباً ، فلقد أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلي في جسمه أحوالاً ، ولن يضيِّعَ اللهُ أجرَ من أحسن عملاً.

رحم الله خبّاباً ، فقد كان في المستضعفين زعيماً ، وفي الإسلام راغباً ، وفي الهجرة مطيعاً ، حيَّا الله خباباً شيخ المستضعفين ، وإمامهم العظيم.



# (٤)

# عامر بن فهيرة

## تمهيد

بكى شاعرُ الرسول ﷺ حسان بن ثابت شهداء بئر معونة فأنشد يقول:

علـى قَتْلَـى مَعُـونـةَ فـاستهلِّـي ... بـدَمْـعِ الْعَيـن سَحّـاً غيـر نَـزْرِ(١)
علـى خَيْـلِ الـرَّسـول غـداةَ لاقَـوا ... منـايـاهُـم ولاقَتْهـم بقَـدْرِ
أصـابَهـمُ الفَنـاءُ بعَقْـد قـوْمٍ ... تُخُـوِّن عَقْـدُ حَبْلهـم بغَـدْرِ(٢)
فَيـا لَهْفـي لمُنـذرَ إذْ تَـولَّـى ... وأعنَـق فـي منيَّتِـه بِصَبْـرِ(٣)
وكـائِـنْ قـد أُصيـب غـداة ذاكُـم ... مِن أبْيض ماجدٍ من سرِّ(٤) عمرو(٥)

## فـزْتُ والله

ما إن طُعِنَ عامر بن فهيرة يوم بئر معونة حتى هلّل قائلاً: فزتُ ورب الكعبة... فُزْتُ والله...!!

عَجَباً لهذا المستضعَفِ القويّ يطعن بالرمح، ويوشك على الموت وهو يقاتلُ في سبيل الله، فيقول: فُزْتُ ورب الكعبة، فزت والله.

أيّ فوز هذا الذي جعله يستقبلُ الموتَ فَرِحاً مُهَلِّلاً، وقد هانت عليه الدُّنيا ومَنْ فيها!! أيّ نوع من الرجال كان صاحب محمد ﷺ عامر بن فهيرة البطل المجاهد!!

انفرد به رجلٌ من بني كلاب يقال له «جبّار بن سَلْمى» ودار بينهما نزال

(١) «استهلّي»: أسبلي دمعك. «سحّاً»: السحّ: الصّبّ. «النزر»: القليل.
(٢) «تخوّن»: تنقّص.
(٣) «أعنق»: أسرع.
(٤) «سرّ القوم»: خيرهم وخالصهم.
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٩٨).

الأُسود؛ بينما أحاطه الأعداء من كل مكان ، وإذا برمحٍ صَلْد ينفذُ من الظهر إلى الصدر يمزّقُ قلبَ عامر بن فهيرة فيعلو صوته قائلاً: فزتُ والله!

فتساءل جبّار بن سَلْمى: أيّ فوزٍ هذا الذي فازَهُ وهو يُقْتَلُ على يدي؟!

فجاء الردّ: لقد فاز بالجنة ونال الشهادة.

انتزع جبّارٌ رُمْحَهُ من ظهر عامر بن فهيرة ، فنظر فإذا به يعلو إلى السماء حتى يغيب عن بصرِهِ ، حتّى ما يراه.

دُهِشَ جبّار بن سَلْمى ، ووقف مبهوتاً ، فما سبق له أن رأى مثل هذه الحالة ، ومضى إلى صاحبٍ له سبق وأعلن إسلامه هو الضحّاك بن سفيان الكلابي ، فأخبره بما كان ، فعرض الضحاك عليه الإسلام ، فأسلم جبّار ، وأرسل الضحاكُ إلى الرسول ﷺ مَن يخبره بإسلام جبّار؛ لما رآه من مقتل عامر بن فهيرة ، فقال عليه الصلاة والسلام: «فإنَّ الملائكةَ وارتْ جُثَّته ثم أُنزِل عليين»[١].

هنيئاً لعامر بمنزل العليين ، وهنيئاً لكل من يقرأ سيرته العطرة ، فإلى أريجها ندخل الآن معاً.

## الجذور

عامر بن فهيرة كان مولداً من مولدي الأزد ، أسود اللون ، مملوكاً للطفيل بن عبد الله بن سخبرة الأزدي[٢].

وكان الطفيلُ أخاً لعائشة أمّ المؤمنين؛ لأُمها أم رومان[٣].

هذه الجذور التي تحدّثنا عنها تُبيِّن صلة عامر بن فهيرة ببيت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فلم تكن صلة نسب ولكن صلة أدخلته بيت صاحب رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر (المغازي ١/ ٣٤٩) و(السيرة النبوية ٣/ ١٩٦).
(٢) الاستيعاب (٣/ ٧).
(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٦٨).

فقد أسلم عامر بن فهيرة مبكّراً جداً ، وأسلم قديماً ، فإذا قلنا : إن السابقين هم الذين أسلموا عند دخول الرسول ﷺ دارَ الأرقم بن أبي الأرقم والدعوة منه؛ إذاً فكيف بعامر بن فهيرة الذي أسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم؟! إذاً فعامر من السابقين الأوّلين ، ورغم أن عامراً واجه مشقةً بإسلامه كما سنرى فيما بعد؛ إلاّ أنَّ البيتَ الذي نشأ فيه كان تربةً خصبة نبت فيها الإسلام وترعرع ، فالطفيلُ ـ رضوان الله عليه ـ كان وافدَ قومه الأزديين على رسول الله ﷺ، وله مآثر عظيمة في قومه بعد وفاة رسول الله ﷺ عندما ارتدَّ النَّاسُ، فكان يأمرهم بلزوم الإسلام والتمسك به. وذكره الترمذيّ في الصَّحابة.

في هذا البيت الطاهر نشأ عامر بن فهيرة ، وأعلن إسلامه وهو مملوك للطُّفيل الأزدي ، فاشتراه أبو بكر ضمن سبعة اشتراهم ، وأعتقهم لوجه الله ، وهم: بلال بن رباح ، عامر بن فهيرة ، وزنِّيرة ، والنَّهدية وابنها ، وجارية بني مؤمّل وأم عبيس[1].

اشتراه أبو بكر فأصبح مولىً من مواليه ، يرعى الغنم ، ويقوم على شؤونه ، لذلك نَجد أن عامر بن فهيرة كان قريباً من بيت أبي بكر في مكة وفي المدينة ، وأثناء هجرة الرسول ﷺ.

هذه هي جذور عامر بن فهيرة المستضعف القويّ ، المؤمن الصابر ، المعذَّب والمحتسب. أجره عند الله ، الصابر على البأساء في سبيل إيمانه الثابت ، وإسلامه الراسخ رسوخ الجبال. لقد جاهد عامر بن فهيرة بالنفس والمال ، وترك داره ومستقره مهاجراً في سبيل الله عزّ وجلّ.

## الإيـذاء والـفتنـة

اعتدى الكُفَّارُ على مَن أسلم واتبع محمداً ﷺ ، وأصبح من أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ فقد وثبت كُلُّ قبيلةٍ على مَن فيها من المسلمين ،

---

(١) الكامل (٢/ ٤٢١).

فجعلوا يحبسونهم ويعذِّبونهم بالضَّرْبِ والجُوع والعَطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتدَّ الحرُّ ، وهؤلاء المعذَّبون هم من الذين اسْتُضْعِفُوا منهم ليفتنوهم عن دينهم ، فمنهم من يُفتن من شِدَّة البلاء الذي يُصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ، بإرادةٍ لا تلين ، وعزيمة لا تفتر ، ويعصمه الله منهم.

وقد قال أبو قحافة لابنه أبي بكر الصِّدِّيق يوماً: يا بُنيّ ، إني أراك تَعْتِقُ رِقاباً ضعافاً ـ يقصد المستضعفين ومنهم عامر بن فهيرة ـ.

ثم أضاف أبو قحافة قائلاً: فلو أنَّك إذْ فعلتَ ما فعلتَ أعتقتَ رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون دونك؟!

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت، إني إنما أريدُ ما أُريدُ لله عزّ وجلّ[1].

لذلك فلم يجدْ هؤلاء المستضعفون صَدْراً حنوناً في مكة كُلّها إلاّ صدر أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليه ـ وقد جاء شراؤه لهم وإعتاقهم لوجه الله في وقتٍ عَصِيبٍ ، بلغ فيه التَّعذيبُ بهم مبلغاً يفوق طاقةَ البشر.

وهذا عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ يمشي مع سعيد بن جبير فيسأله سعيدٌ قائلاً: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يُعذَرون به في تَرْك دينهم؟

فقال ابنُ عباس: نعم والله ، إن كانوا ليَضْربون أحدَهم ويُجيعونه ويُعَطِّشُونه حتى ما يقدر أن يستويَ جالساً من شدّة الضُّرِّ الذي نزل به ، حتى يُعْطيهم ما سألوه من الفِتْنة حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهُك من دون الله؟ فيقول: نعم ، افتداءً منهم ممَّا يبلغون من جَهْده[2].

وقد سأل عمار بن ياسر النبي في ذلك فقال عليه الصلاة والسلام بعد أن سأله عن إيمانه؛ قال: «فإن عادوا فَعُدْ»! ونزل في ذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٣٤١).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).

وكان عامر بن فهيرة من هؤلاء ، فقد نال من العذاب ما نال أصحابه ، فـأُلـقي ببطحاء مكة ، وأُلبس دروع الحديد وقد أحمتها الشمس ، إلاَّ أنه حين أُعتق ودخل بيت أبي بكر أصبح في منعة من إيذاء القوم ومن سفاهتهم.

وكانت سعادتُه بإسلامه وبنجاته من الإيذاء والفتنة أكبر السعادة ، فانصرف لشؤونه ، ولصلاته أيضاً. فكان يرعى غنم أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ومن الملاحظ أنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ تحدّثت عنه كثيراً لقربه منهم وقيامه على شؤون هذا البيت الكريم.

## يـوم الـهجـرة

ونتركُ حديثَ الإيذاء والفتنة ليكون الانفراجُ والهجرة ، فقد كان رسول الله ﷺ لا يُخطىء أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار. إمَّا بكرة ، وإما عشية ، حتى كان اليومُ الذي أُذِنَ فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة ، والخروج من مكة من بين ظهري قومه.

تقول عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ عن هذا اليوم[١]: أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة ، في ساعةٍ كان لا يأتي فيها ، فلما رآه أبو بكر ، قال: ما جاء رسولُ الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث. فلما دخل ، تأخَّر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله ﷺ ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر ، فقال رسول الله ﷺ: أَخْرِج عني مَنْ عندك؛ فقال: يا رسول الله ، إنما هُما ابنتاي وما ذاك؟ فداك أبي وأُمي!

فقال: إنَّ الله قد أَذِنَ لي في الخروج والهجرة. فقال أبو بكر: الصحبةَ يا رسولَ الله . قال عليه الصلاة والسلام: الصحبة. قالت: فو الله ما شعرتُ قطّ قبل ذلك اليوم أنَّ أحداً يبكي من الفرح؛ حتى رأيتُ أبا بكر يبكي يومئذٍ ، ثم قال: يا نبيَّ اللهِ ، إنّ هاتين راحلتان قد كنتُ أعددتهما لهذا ،

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ٤٨٥).

فاستأجَرَا عبدَ اللهِ بن أريقط ، وكان مشركاً ، يدلُّهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

وبعد فقد أجمع النبيّ ﷺ على الخروج ، وأتى أبا بكر فخرجا من خَوخةٍ لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمد إلى غارٍ بثَوْرٍ ـ وهو جبل بأسفل مكة ـ فدخلاه.

وجاء دورُ عامر بن فهيرة في هذا اليوم العظيم ، فقد أمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمَّع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر.

وأمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يُريحها عليهما ، فيأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يُصلحهما.

أقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثةَ أيام ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه ، مئة ناقة ، لمن يردّه عليهم ، وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاراً ، يسمع ما يأتمرون به ، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر ، وكان عامر بن فُهيرة ، مولى أبي بكر رضي الله عنه ، يرعى في مراعي أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر ، فاحتلبا اللبن. فإذا تركهما عبد الله بن أبي بكر ومضى من عندهما إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يمحو آثارَ أقدامه من على الطريق ، فلا يتبعه أحد.

وها هم الأبطال الثلاثة: عامر بن فهيرة ، وعبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، وأسماء ذات النطاقين يكررون عملهم هذا ثلاثة أيام، حتى إذا مضت الثلاث، وسكن الناس عن الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له ، وأتتهما أسماء ـ رضي الله عنها ـ بِسُفْرتهما وقد امتلأت بالطعام ، ولما لم تجدْ ما تُعلّق به سفرتهما حلت نطاقها وجعلته عِصاماً[1] ثم علقت السفرة في بعير أبي بكر بهذا النطاق.

---

(١) «العصام»: ما تعلّق به السفرة وغيرها.

هذا هو دور عامر بن فهيرة ـ رضي الله عنه ـ في يوم الهجرة ، فقد كان كاتم سِرٍّ عظيمٍ ، ساعد بغنمه وبجهده في إبعاد قريش وزبانيتها عن رسول الله ﷺ.

## في المدينة

هاجر عامرُ بن فهيرة إلى المدينة شأنُه شأن إخوانه المهاجرين في سبيل الله ، وهاجر عدد من الصحابة بعد رسول الله ﷺ ، لكنّ عامراً هاجر مع رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر ، فكان رسول الله ﷺ يَثْقُلُ على البعير؛ فيتحوَّل عليه الصلاة والسلام على بعير أبي بكر ، ويتحول أبو بكر إلى بعير عامر بن فُهيرة ، ويتحول عامر بن فهيرة إلى بعير رسول الله ﷺ.

ولما كانوا في الطريق استقبلتهم هديّة من الشام من طلحة بن عبيد الله إلى أبي بكر فيها ثياب بياض من ثياب الشام فلبساها؛ فدخلا المدينة في ثياب بيض[(١)].

ولما جاء عامر بن فهيرة المدينة نزل على سعد بن خيثمة أحد أشرافها ، وأحد النقباء الاثني عشر الذي بايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية؛ فاستقبله سعدُ بن خيثمة استقبال الأشراف في بيته.

وعندما آخى الرسول ﷺ بين الأنصار والمهاجرين ، آخى بين عامر بن فهيرة ـ رضي الله عنه ـ والحارث بن أوس بن معاذ.

## يوم بئر معونة

قال أبو سعيد الخدري: «لم يَجِدْ رسول الله ﷺ على قَتلى ما وَجَد على

---

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ١٧٣).

قتلى بئر معونة». فلم يحزن رسول الله قدر حزنه على قتلى كهؤلاء ، لأنَّ قَتْلَهم جاء خيانةً ، فلم تكن مواجهة رجلٍ لرجل؛ بل كانت استدراجَ أصحاب النبي ﷺ لقتلهم ، تُرى كيف تمَّ ذلك؟

قدم أبو براء عامر بن مالك ـ مُلاعب الأسنة[1] ـ على رسول الله ﷺ؛ وأهدى إليه هديّة ، فأبى رسولُ الله ﷺ أن يقبلَها ، وقال: يا أبا براء؛ لا أقبلُ هذه الهدية ، فَأَسْلِمْ إنْ أردتَ أن أقبلَ هديَّتك ، ثم عرض عليه الإسلام ، وأخبره بما وعد الله المؤمنين ، وقرأ عليه القرآن ، فلم يسلم ، وقال لرسول الله ﷺ: يا محمد ، إني أرىٰ أمرك هذا أمراً حسناً شريفاً ، وقومي خَلْفي ، فلو أنَّك بعثت نَـفَراً من أصحابك معي لَرَجوتُ أن يجيبوا دعوتك ويتَّبعوا أمرك ، فإن هم اتَّبعوك فما أعَزَّ أَمرك[2]! فقال رسول الله ﷺ: إني أخاف عليهم أهل نجد.

فقال عامر: لا تخف عليهم ، أنا لهم جارٌ أن يَعرِض لهم أَحدٌ من أَهل نجد.

وكان من الأنصار شباب يُسَمّون القرّاء ، كانوا إذا أمسوا أتوا ناحيةً من المدينة فتدارسوا وصلّوا ، حتى إذا كان أوّل الصبح استعذبوا من الماء ، وحطبوا من الحطب فجاؤوا به إلى حُجَر رسول الله ﷺ ، وكان أهلوهم يظنُّون أنهم في المسجد ، وكان أهل المسجد يظنُّون أنهم في أَهليهم.

هؤلاء بعثهم رسول الله ﷺ ضمن مَن خرج في بئر معونة ، فخرجوا فأُصيبوا جميعاً.

ونعود إلى البدء ، فقد بعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو في أربعين رجلاً من أصحابه ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، فقال بعضُهم لبعض: أيكم يُبَلِّغ رسالة رسول الله ﷺ أهلَ هذا الماء؟ فقال حرام بن ملحان: أنا أُبلِّغُ رسالة رسول الله ، وخرج حتى أتى بيوتَ حيِّهم ثم قال: يا أهلَ بئر معونة ،

---

(١) هكذا كان يكنيه الناس في الجاهلية ، وهو سيِّد بني عامر بن صعصعة.
(٢) المغازي للواقدي (١/ ٣٤٦).

يا أهل بئر معونة ، إني رسولُ محمّد إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فآمِنُوا بالله ورسوله.

فخرج إليه عامر بن الطفيل من جانب البيت وفي يده رمح فضربه به في جنبه ، فخرج الرمحُ من الجانب الآخر ، فقال حرام: الله أكبر! فزتُ ورب الكعبة.

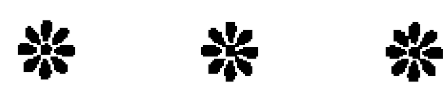
واتبعوا إثر حرام بعد قتله حتى أتوا أصحابَ النبي ، واستعانوا عليهم بقبائل من بني سليم ، وخرجوا جميعاً حتى جاؤوا القوم فأحاطُوا بهم في خيلهم ورحالهم ، واشتبكوا معهم في قتالٍ شديدٍ حتى قُتلوا عن آخرهم ، إلاّ كعب بن زيد ، الذي عاش إلى أن قُتِلَ يوم الخندق.

في هذا القتال تقدَّم عامر بن فهيرة وقاتل ببسالةٍ رائعةٍ ، فما إن طُعِنَ حتى قال: فزتُ والله.

ويروي عامر بن الطفيل هذه اللحظة فيقول: منْ رجل منهم لمَّا قُتِلَ رأيته رفع بين السماء والأرض ، حتى رأيتُ السماء دونه؟.

فجاء من يقول له: هو عامر بن فهيرة.

أي مُستضعَفٍ هذا الذي يقول حينما يلقى طعنة الشهادة: فزت والله؟ إنه مستضعف في نظر جاهلية المشركين ، وقويّ بإسلامه وإيمانه ، فهنيئاً لعامر فوزه بالجنة.



# (٥)

# صهيب الرُّومي

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

## كلمات في البداية

لم يشهدْ رسول الله ﷺ مشهداً قطّ إلا كان صهيب حاضِرَه.

ولم يبايع بيعةً قطّ إلا كان حاضرها.

ولم يجهّز سَرِيَّةً قطّ إلا كان حاضرها.

ولا غزا غزاةً قط ، أوّل الزمان وآخره ، إلا كان فيها عن يمينه أو شماله.

وما خافَ ـ المسلمون ـ أمامَهُم قط ، إلا كان أمامهم ، ولا خافوا وراءهم ، إلا كان وراءهم.

وما جعل رَسُول الله ﷺ بَيْنَهُ وبين العدو أبداً حتى لَقِيَ ربّه.

هذا الشّمولُ العظيمُ لصاحب رسول الله ﷺ ، المؤمن الفذّ والمجاهد العظيم ، يجعلنا نقفُ له إجلالاً واحتراماً ، وحبّاً لِمَا أحبّ ، نحبُّه في الله ، نحبُّ حُبَّه لرسول الله ﷺ ، فلقد كان حُبُّه لِلنَّبيّ ﷺ لا يفارقه لحظة في مشهدٍ من المشاهد ، فكان يداً تصافحُ يوم البيعة مع مَن بايعوه ﷺ.

نحبُّه مجاهداً في سرية ، وغازياً في غزوة ، ونحبُّه عندما يكون على يمين حبيبه المصطفى وعن شماله.

نحبُّه وهو إمام الخائفين ، نحبُّه وهو وراء المؤمنين يحمي ظهورهم.

لقد أحب صهيب الدعوة الإسلامية ، فكان حُبُّه عظيماً ، شهد لعظمته كلّ لحظة وقف فيها يمنعُ الأعداء عن النبي ﷺ.

كان حُبُّه للآخرة أسمى من شهوة الحياة ، فكان عاشقاً للخطر والموت في سبيل إعلاء كلمة الحق ودحر بهتان الباطل.

ونحنُ إذ نتابعُ مسيرةَ الحبّ في الله ، نرى صهيباً محبّاً عندما يسجد ، ونـراه محبّـاً عنـدمـا يـقـدِّم مـالـه للمستضعفيـن ليشتـري بـه البـاقيـات الصالحات.

وسنصحب هذا المحب الكبير من رحلة إلى رحلة ، ومن موقف إلى مشهد ، ذلك ما نمتعُ به النفس في الصفحات القادمة.

## مـن هـو صـهيـب؟

قبل أن نتحدَّثَ عن أصول صهيب الرومي ونسبه ، ذلك المستضعف المكّي ، المهاجر دون الفتنة ، الجواد الكريم. قبل أن نتحدَّثَ عن هذا كُلِّه نتركُ هذا الحوار يسترسلُ بين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وبين صهيب بن سنان.

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: يا صهيب مالك تُكْنى أبا يحيى وليس لك ولد؟ وتقول: إنك من العرب وأنت رجل من الروم؟ وتطعم الطعام الكثير وذلك سَرَفٌ في المال؟.

قال صهيب بن سنان ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ رسولَ الله ﷺ كنَّاني أبا يحيى. وأمّا قولك في النسب وادِّعائي إلى العرب ، فإني رجل من النمر بن قاسط من أهل الموصل ولكن سُبيتُ ، سبتني الرُّومُ غلاماً صغيراً بعد أن عَقَلْتُ أهلي وقومي وعرفتُ نسبي.

وأما قولك في الطعام وإسرافي فيه ، فإنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «إن خياركم من أطعم الطعامَ وردّ السَّلَام» فذلك الذي يحملني على أن أطعم الطعام[1].

ونعود إلى الحديث عن أصول صهيب فنقول:

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٢٧).

في قرية على شطّ الفرات مِمّا يلي الجزيرة والموصل[١] ، جلس سنان بن مالك العربي الأصل والأرومة ، جلس في قصره بقرية «الأُبلّة» فهو عامل كسرى على الأُبلة ، وجعل يُحدِّثُ زوجه سلمى بنت قعيد بن خزاعي التميمية ، جعل يُحدِّثها عن وليدهم القادم ، تُرى كيف سيكون؟

ابتسمت سلمى ، وقد علا ثغرها ابتسامةٌ طيِّبةٌ ، توارتْ خلف آلامِ الحمل ، فبدت على وجهها السعيد ، ومضت تمسكُ ظهرها ، وتفاخرَ زوجَها بوليدها القادم ، لعلَّه يكون ولداً ، بل هو أحمر ، شديد الحُمرة ، ليس بالطويل ولا بالقصير[٢] .

وفي نعيمٍ رَحْبٍ ، تحلَّى به قصرُ سنان بن مالك ، جاء المخاضُ إلى سلمى ، وعلا صراخُ الطفل الوليد ، وجاء من يزفُّ إلى حاكم «الأُبلّة» نبأ الضَّيف الذي حلَّ سهلاً ليشمَّ نسيم الفرات العليل ، ولتكن البداية رائعة ، فالوليد يُسمَّى صُهيباً ، أبوه عربي هو سنان بن مالك بن عبد عمرو بن عقيل ابن عامر بن جندلة بن خزيمة ، وينتهي نسبُه إلى ربيعة بن نزار[٣] وأمه سلمى ، عربية الأصل والأرومة أيضاً.

نشأ الغلامُ في بحبوحة العيش ، ونعومة الحياة ، وسعادة الأسرة ، وقد تحلَّى الأبُ والأُم بالهدوء والرِّضا بما ينعمان فيه من خير ، فسنانُ بن مالك أحد وُلاة كسرى ملك فارس ، وكانت الرُّومُ أكثر أعداء فارس عداوةً ، فما إن تتاح لهم فرصة الإغارة والهجوم على مُدن وقرى تابعة لفارس حتى تأتي على كُلّ شيء فتسبي النساء والأطفال.

ولم يَدُمْ هذا النَّعيم ، فقد أعدَّ الروم عُدَّتهم ، وأضمروا لأهل فارس سوءاً ، فأغاروا على الموصل ، وحدود الجزيرة من الشّمال ، وكانت الأُبلّة إحدى قرى كسرى الهامّة هدفاً لهم ، لذلك فقد أغاروا عليها ، واستطاعوا

---

(١) المصدر السابق.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩).
(٣) الطبقات (٣/ ٢٢٦).

سبي الغلام صهيب ، وهو صبي صغير ، لا يدرك شيئاً ، وكانت نشأتُه رُوميّـة ، مما جعلـه يتعلَّمُ لغتـهم ، ويصبح صاحبَ لُـكنَـةٍ رُوميّـةٍ في حديثه.

وينشأ صهيبٌ في بلاد الروم ، حتى يصبحَ رجلاً له مبلغ الرجال ، فهو رجلٌ أحمرُ شديدُ الحُمْرةِ ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، وهو إلى القصر أقرب ، وكان كثيرَ شعر الرأس ، يَخْضِبُه بالحنّاء[1].

وبعد أن شبَّ صهيبٌ ، وبلغ مبلغاً عظيماً من الرُّجولة ، وجد نفسه أسيراً لهؤلاء الروم ، ودَّ لو أنه تخلَّص من هذا الأسر ، ولكن كيف السبيل وقد مضت سنواتٌ طويلةٌ على هذا الأسر ؟!

وبينما كان صهيب ذا يُفكّر في الهرب من هذا الأسر ، وجد نفسه في قبضة تُجّار الرَّقيق الذين اقتنصوه ، وباعوه إلى بني كلب ، فحمله رجالُها حتى قَدِموا مكة ، فباعوه إلى عبد الله بن جدعان ، أحد أشراف مكّة ورجالها المعروفين[2].

وقد كان صُهيبٌ ذا حظٍّ عظيمٍ ، فعبد الله بن جدعان سيّده الذي اشتراه يُقري الضيف ، ويطعمُ الطعام على حُبّه ، ورجلٍ كهذا يلتقي مع شابٍّ نجيبٍ ذكيّ ، جميل الخَلْقِ والخُلُق ، لا بُدَّ أن تسقطَ حواجزُ الجاهلية. وقد كان عبدُ الله بن جدعان تاجراً ، فأعتق صهيباً ، وهيّأ له فرصة الكسب الشريف ، وتمضي الأيام ، ويمضي عبد الله بن جدعان إلى نهايته ، وتبدو في الأفق أنوارُ الدعوة المحمدية ، فيتطلع إليها صهيب.

## إسـلامـه

بلغتْ أنباءُ الدَّعوة وأخبار الرسالة أسماعَ شباب مكة ، ومن بينهم الشابّ

---

(١) هذا الوصف أورده ابن سعد في طبقاته (٣/ ٢٢٦).

(٢) وقيل: إنه هرب من الروم ، وحالف عبد الله بن جدعان ، أورد ذلك ابن سعد أيضاً ، والذهبي في سير أعلام النبلاء.

الذكي النّجيب صهيب بن سنان الرومي ، فقد لقيه عمار بن ياسر صاحبه المكي ، وكثيراً ما تحدَّثَ كُلٌّ منهم عمَّا سمع عن دعوة محمد بن عبد الله .

وفي يوم من أيام هؤلاء المستضعفين العظيمة؛ مضى صهيب إلى حيث يجلسُ محمد ﷺ ، فهو يعرف تماماً أين يكون هذا المجلس ، إنه في دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة؛ حيث كانت الدعوة في مهدها ، يتكتم أبناؤها السابقون خوفاً من بطش أشراف الجاهلية ورؤوس الجهل ، ونترك عمار بن ياسر يقتربُ من دار الأرقم ليحكي قصة اللقاء الأول ، يقول عمار[1] :

لقيتُ صهيب بن سنان على دار الأرقم ورسول الله ﷺ فيها ، فقلت: ما تريدُ؟

فقال لي صهيب: ما تريدُ أنت؟

فقلتُ: أردتُ أن أدخلَ على محمد فأسمَعَ كلامه .

قال: وأنا أريدُ ذلك .

فدخلنا عليه ، فعرض علينا الإسلامَ فأسلمنا ، ثم مكثنا يومنا على ذلك حتى أمسينا ، ثم خرجنا ونحن مستخفيان[2] .

خرج عمّار وصُهيب من عند النبي ﷺ بعد أن وجدوا في مجلس محمد ﷺ بضعةً وثلاثين رجُلاً سبقوهم إلى الإسلام .

كان صُهيب شأنه شأن عمّار ، وبلال الحبشي ، من السَّابقين إلى الإسلام؛ الذين سبقوا إليه ولا عشائر لهم تمنعهم أو تحميهم ، ولا قوة لهم يمنعون بها ، فأما مَن كانت له عشيرة تمنعه فلم يَصِل الكُفَّارُ إليه .

فلما رأى الكفارُ امتناع مَن له عشيرة وَثَبَتْ كُلُّ قبيلةٍ على مَن فيها من مستضعفي المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذِّبونهم بالضرب والجوع والعطش ، ويطرحونهم في لهيب رمضاء مكة ونارها؛ ليفتنوهم عن دينهم ،

---

(١) الطبقات (٣/ ٢٢٧).

(٢) المصدر السابق.

فمنهم من يفتتنُ من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان ، ومنهم من يتصلَّبُ في دينه ويعصمه الله منهم.

ذلك رَجْعٌ بعيدٌ ، يعود تاريخُه إلى تلك السنوات الأولى ، عندما شدَّدَ الكُفَّارُ العذابَ على عمّار بن ياسر وأسرته ، فيمرُّ بهم النَّبي مردِّداً قوله الكريم: «صبراً آل ياسر فإنَّ موعدَكم الجنَّة».

ويموتُ ياسرٌ في العذاب ، وعندما تغلظ سُميَّةُ أم ياسر الحديثَ لأبي جهل الكافر يطعنها طعنته المشؤومة ، فتصبح أوَّل شهيدة في الإسلام؛ وشدَّدوا العذابَ على عمار وقالوا: لا نتركك حتى تقول في اللات والعزى خيراً ، ففعل ، فتركوهُ[1].

فأتى النبي ﷺ يبكي ، فقال عليه الصلاة والسلام: ما وراءك؟

قال رضوان الله عليه: شرّ يا رسول الله ، كان الأمر كذا وكذا.

قال ﷺ: فكيف تجد قلبك؟

قال عمار: أجده مطمئناً بالإيمان. فقال ﷺ: يا عمّار إن عادوا فعُدْ ، فأنزل الله عز وجل في سورة النحل:

﴿ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

كان صهيب ـ رضي الله عنه ـ ممن عُذِّبوا عذاباً شديداً ، فلم يكن في مكة من ينصره نصرة الأهل والمنعة ، والمسلمون مستضعفون في هذا الوقت ، ونال صهيب من العذاب كما نال غيرُه ، وخاصة أنَّ حليفَه عبد الله بن جدعان قد مات ، ولم تكن لديه عشيرةٌ تمنعه ، أو تدفع عنه أذى المشركين.

كان وساماً عظيماً على صدر صهيب بن سنان ذلك الذي أعطاه له كُفّار مكة وجهلاؤها ، عندما ضمّوه إلى المستضعفين في مكة والمعذَّبين في بطحائها ، لقد جعلوا لصهيب دوياً لن ينساه التاريخُ على مرّ الزمان ، كُلَّما

---

(١) انظر (الكامل في التاريخ) لابن الأثير (٢/ ٦٦ ـ ٦٧).

مَرَّ عليه صنوفٌ من الرجال الذين أخلصوا في دعوتهم ، وصدقوا وعدهم ، فكان ولاؤهم لدعوة الحقّ ينطلق من شفاه رقيقة هادئة ما عرف عنها كذبٌ أبداً ، بل نطقت وحياً يُوحى ، علَّمه شديدُ القوى ، فاستقام العودُ الضعيفُ ليصبح جذعاً صلباً ، ولم يقصمْ تعذيبُ هؤلاء ظهور المؤمنين ، بل زادهم قُوَّةً وإيماناً ، فكان التَّحدِّي؛ تحدِّي صُهيب فتنة المال ، واختار دينَه على كُلِّ مال ، وانطلق يُبدي استعداده لفداء عقيدته بالنفس ، وهي أغلى من كُلّ مال وُجِد على ظهر الأرض ، ذلك مشهد من مشاهد يوم الهجرة.

## الـهجـرة

كان سابقاً وسبَّاقاً إلى الإسلام ، وفي هجرته كان سابقاً وسبّاقاً أيضاً ، فهو أوّل مسلم من ستة أظهروا إسلامهم ومنهم: رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وبلال ، وخباب ، وصهيب[1].

وقد اشتد العذابُ به في مكة حتى أنه من العذاب كان لا يدري ما يقول ، فكم ألبسوه أدراعَ الحديد ، وصهروه في الشَّمس!

ولما أَذِنَ اللهُ لرسوله بالهجرة ، مضى صلوات الله وسلامه عليه ومعه صاحبُه أبو بكر ، وهمَّ صهيب بالخروج معه إلا أنه وَجَدَ من الكفار مَن يصدُّه عن اللحاق بهذا الموكب المبارك. ولما عزم - رضوان الله عليه - الخروجَ للهجرة لم يحفل بما سيفعل هؤلاء فيما لو علموا خروجه ، فحمل كنانته وقد امتلأت بالسِّهام ، وترك كُلَّ شيءٍ في مكة.

ولمَّا أقبل - رضوان الله عليه - مُهاجراً ، تبعه نَفَرٌ من قريش ، فلما رآهم نزل عن راحلته ، وأمسك برمحه وقال: لقد علمتم أني من أرماكم ، وأيم الله لا تصلون إليَّ حتى أَرْمي بِكُلِّ سهم معي ، ثم أضربكم بسيفي ، فإن شِئْتُم دَلَلْتُكم على مالي ، وخلَّيتم سبيلي؟

---

(١) هذا قول مجاهد في (سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٢٠).

قالوا: نفعل.

فلما قدم على النبي ﷺ قال: «رَبِحَ البيعُ أبا يحيى»[1].

ونزل قول الله عز وجل يشيدُ بهذه النفس الطيِّبة التي اشترت دينها بكلّ ما في الدنيا من متاع، فهاجرت إلى الله ورسوله ﷺ.

قال عزَّ وجل في سورة البقرة:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

ومضى صهيب في صُحبة رائعة، ورحلة عظيمة، إنها صحبةُ الوفاء ورحلةُ الإيمان؛ التي تحلَّت بمشاهد عظيمة ومواقف كان وفاءُ صهيب فيها أسمى وفاء، وجهاد صهيب أروع جهاد، كان فيّاضاً كريماً، سَمْحاً خفيفاً صاحب فكاهة عذبة، فعندما رآه الرسولُ ﷺ يأكلُ رُطَباً، وكان بإحدى عينيه رمدٌ قال له الرسول باسماً: أتأكل الرطب وفي عينيك رمد؟ فأجاب صهيب قائلاً: «وأيُّ بأس..؟ إني آكُلهُ بعيني الأخرى»[2].

وفي المدينة آخى الرسولُ ﷺ بين صهيب وبين الحارث بن الصِّمَّة[3]، وهو رجل أنصاري شهد مع النبي ﷺ غزوة أحد، وبايعَ النبي ﷺ على الموت، ولما نادى النبيُّ يوم أُحد مستفسراً عن عمّه حمزة بن عبد المطلب قائلاً: ما فعل عمّي؟ ما فعل حمزة؟ فخرج الحارث ـ رضوان الله عليه ـ يبحثُ عن حمزة بين القتلى، فأبطأ فخرج خلفه علي بن أبي طالب يرتجزُ قائلاً:

يا ربِّ إنَّ الحارثَ بن الصِّمَّه ... كان رفيقاً وبنا ذا ذمَّه
قد ضلَّ في مهامِه مُهِمّهْ ... يلتمسُ الجنّة فيها ثمّهُ

فوجده عليٌّ واقفاً على جثمان حمزة وقد قُتل شهيداً في ذلك اليوم، فرجعا معاً هو وعلي وأخبرا النبي[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣) والطبقات لابن سعد (٣/ ٢٢٨).

(٢) رواه الطبراني.

(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٢٩).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٥٠٩).

كان الحارثُ كصهيب الرومي رجُلاً ذا هِمّة ، ويُعَدُّ من رجال يوم بئر معونة الأبطال ، وقد استشهد يومَ بئر معونة ، وسجَّل اسماً خالداً من أسماء رجال ذلك اليوم.

## جهاده

### ـ يوم بني النضير:

في يوم بني النضير كان صهيب ـ رضوان الله عليه ـ من رجال النَّبي ﷺ الذين خرجوا دفاعاً عن دينهم، وقد جاء هذا اليوم في السَّنة الرابعة من الهجرة.

هذا اليوم الذي جاء بعد أحداث بئر معونة[1] الذي قُتِل فيه غدراً وخيانةً عددٌ كبيرٌ من المسلمين.

عندئذٍ خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينُهم في دِية ذَيْنكَ القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ، فلما جاءهم وسألهم المعونة قالوا في ودّ مُزيّف: نعم ، يا أبا القاسم ، نُعينك على ما أحببت ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا: إنكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه ، وكان رسول الله ﷺ إلى جنب جدارٍ من بيوتهم ، فأيّكم يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرةً فيقتله بها فيُريحنا منْه!

فقال رجل منهم هو عمرو بن جحاش النضري: أنا أظهرُ على البيت فأطرحُ عليه صخرةً[2].

فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا والله ليُخبَرَنَّ بما هممتمْ به ، وإنه لنقضُ العهد الذي بيننا وبينه.

جاء رسول الله ﷺ الخبرُ بما همُّوا ، فنهض سريعاً كأنه يريدُ حاجةً ، فتوجّه إلى المدينة ولحقه أصحابُه فقالوا: أُقمتَ ولم نشعر؟

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ١٨٤) وتاريخ الطبري (٣/ ٣٣).

(٢) الطبقات (٢/ ٥٧).

فقال ﷺ: همّت اليهودُ بالغدر فأخبرني اللهُ بذلك فقمت ، ثم قال عليه الصلاة والسلام: ادْعُوا إليَّ محمد بن مسلمة. فلما جاء محمد بن مسلمة قال له عليه الصلاة والسلام: اذهبْ إلى يهودَ ، فقل لهم: اخرجوا من بلادي فلا تساكنوني ، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر ، وجاء الجوابُ من بني النَّضير بعد مراوغةٍ يقول: إنا لا نبرحُ دارنا ، فافعل ما بدا لك.

فكبَّر الرسولُ ﷺ وكبَّر المسلمون معه ، وقال: حاربت اليهود ، وزحفَ أبطالُ الإسلام ومعهم صهيب بن سنان الرومي ، وحاصروا بني النضير ستّ ليال فتحصَّنُوا في الحصون ، فأمر عليه الصلاة والسلام بقطع النَّخيل والتَّحريق فيها ، فنادوه: يا محمد؛ قد كنت تَنْهى عن الفساد ، وتُعيبهُ على مَن صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها! فنزل قول الله تعالى:

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الحشر: ٥ ـ ٦].

فلما أحسّوا بالهزيمة ، ويئسوا من المعونة ، وطال بهم الحِصَارُ ، وقذف اللهُ في قلوبهم الرُّعبَ سألوا رسول الله أن يُجْليهم عن المدينة ويكفَّ عن دمائهم ، على أنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم ، فقال ﷺ: اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملتِ الإبلُ إلاّ الحلقةَ (والحَلقة هو السلاح) ، فوافقوا على هذا ، وقد دام حصارُهم خمسةَ عشَرَ يوماً ، شارك فيه صُهيب بن سنان.

فكانوا يُخربُّونَ بيوتهم بأيديهم ، ثمّ أجلاهم عن المدينة وتولّى إخراجَهم محمد بن مسلمةَ ، وحملوا النساء والصبيان وكلّ متاعهم على ستمئة بعيرٍ ، ومضوا إلى خيبر[1].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٥٨).

أخذ الرسولُ ﷺ الأموالَ والسلاحَ فوجد خمسين درعاً وثلاثمئة سيف وأربعين.

وقد قسَّم ﷺ الأموالَ على فقراء المهاجرين مِمَّن تركوا أموالهم في مكة فداءً لأنفسهم ودينهم، وكان صهيب على رأس هؤلاء، فأعطاه عليه الصلاة والسلام بئراً.

ذلك اليوم العظيم كان أحد مشاهد جهاد صهيب بن سنان ـ رضي الله عنه ـ مع رسول الله ﷺ.

## إمـام الـمسلمـيـن

اعتدى أبو لؤلؤة المجوسي على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما طعنه بالخنجر وهو يُصلِّي صلاة الفجر، وكانت الضربُ في مَقْتَلٍ، فأَحسَّ عمرُ ـ رضي الله عنه ـ بدنو الأجل، فأوصى بالستة الذين يُخْتَار منهم واحد ليخلفه، وأوصى عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ باختيار الخليفة خلال ثلاثة أيام من موته.

وأوصى أصحابه قائلاً: «وليصلِّ بالناس صُهَيْب»، وأصبح صهيب إماماً للناس، ليملأ مكان أمير المؤمنين لحين اختيار أمير جديد يُصلِّي بالنَّاس.

وتَذْكُرُ الرِّواياتُ أنَّ عمر عاب لُكنةَ صهيب الأعجمية في الحديث والقراءة، عندما قال: لولا ثلاث خصال فيك.

قال صهيب: وما هنَّ؟ فو الله ما تزال تعيبُ شيئاً. قال: اكتناؤك وليس لك ولد؛ وادِّعاؤك النَّمر قاسط (يقصد أصله العربي) وأنت رجل ألكن، وأنك لا تمسك المال[1].

إلا أن هذا لم يمنعه من القول: «إنْ حَدَثَ بِي حَدَثٌ فليصلِّ بالناس صهيب» لذلك كان إماماً يعرف قدره أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب، فيجعله إماماً وهو على فراش الموت.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٦).

## المحدِّث

وقد حدَّث صهيب عن رسول الله ﷺ ، فله نحو من ثلاثين حديثاً ، وروى له مسلم منها ثلاثة أحاديث.

وممَّا جاء في مسلم من حديثه عن الإيمان ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ قال: يقولُ الله تبارك وتعالى: تُريدُون شيئاً أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّضْ وُجُوهنا؟ ألم تُدْخِلْنا الجنَّـةَ وتُـنَجِّنَـا مِنَ النار؟ قال: فَيَكْشِفُ الحجابَ ، فما أُعْطُوا شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظر إلى ربِّهم عز وجل»[1].

والحديث الثاني ، يقول رسول الله ﷺ: «عَجَباً لأمر المؤمن ، إنَّ أَمْرَهُ كُلَّه خَيْرٌ ، وليس ذاك لأحدٍ إلاَّ للمؤمن ، إنْ أصابته سَرّاءُ شَكَرَ ، فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فكان خيراً له»[2].

والحديث الثالث يحكي قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام ، وهو طويل؛ لذا آثرنا عدم إيراده ، وهو في صحيح مسلم (٣٥٠٠) في الزهد والرقائق ، فلينظره مَن شاء.

## وداعاً صهيب

عاش ثلاثاً وسبعين سنة ـ رضوان الله عليه ـ وقد مات صهيبٌ بالمدينة في شوال سنة ثمان وثلاثين[3].

ودُفِن بالبقيع ، وانتهت حياتُه الحافلةُ بالجهاد ـ رضوان الله عليه ـ وبقيتْ سيرتُه العطرةُ مَثَلاً يَحْتَذي به شبابُ الإسلام عبر كُلِّ العصور وفي كل زمان ومكان.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان برقم (١٨١).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٩٩٩) في الزهد والرقائق.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ـ عهد الخلفاء الراشدين ـ ص (٦٠٠).

وقد أنجب صهيب ثلاثة أبناء، هم: حمزة، وصيفي، وعمارة الذي قُتِل مجاهداً في سبيل اللهِ ومدافعاً عن الإسلام والمسلمين، وكانت وفاته في ذي الحجة سنة (٦٣) هجرية.

رحم الله صهيباً فقد كان عربيَّ الأصل والأرومة، رومي اللّكنة واللسان، مهاجراً من مكة، بعد أن كان مُسْتَضْعَفاً فيها.

سلاماً لك أيها الصحابي المجاهد.

* * *

# (٦)

# أبـو فـكيهـة

## الـجنـدي الـمجهـول

يُطْلِقُ الناسُ في أيامنا هذه لفظ الجندي المجهول ، وها أنا ذا أرى في أبي فكيهة ذلك الجندي الذي لم يُلْقَ عليه ضوءٌ أبداً ، فهو متوارٍ في بطون كتب السيرة ، لكنه كان مِمَّن ألقتهم قريش على رمضاء مكة ، فأكلت الرمالُ من جسمه ما أكلت.

أبو فكيهة الجهمي مولى لصفوان بن أمية ، وقيل مولى بني عبد الدار ، أصله من الأزد وهي قبيلة عربية[1].

أسلم قديماً ، أي قبل دخول رسول الله دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فما إن سمع بذلك سيِّده صفوان بن أمية حتى نقل نبأ إسلامه إلى أبيه رأس الكفر في مكة.

فأخذه أُميَّةُ بن خلف وربط في رجله حَبْلاً ، وأمر به فجُرّ ، ثم أَلقاه في الرمضاء الحارقة ، وجاءه أميةُ بن خلف يضربه ويعذّبه ، وفيما هو يعذبه مرَّ به «جُعل» وهو دابة صغيرة ، فقال له أمية بن خلف : أليس هذا ربُّك؟ فقال أبو فكيهة: الله ربّي وربّك ورب هذا.

لم يُخْطِىء أبو فكيهة ولكن أُمية جاهلٌ طحنته جاهليّتُه ، لقد انقضَّ أميةُ كالوحش الكاسر ، فخنق أبا فكيهة خنقاً شديداً ، ومعه أخوه أُبيّ بن خلف يقول: زِدْهُ عذاباً حتى يأتي محمد فيخلّصه بسحره ، ولم يزل على تلك الحال حتّى ظنوا أنّه قد مات.

ثم عاد أبو فكيهة إلى وعيه ، ولا بد أن يَجْعَلَ اللهُ لكلِّ شيءٍ سبباً ، فقد مرّ أبو بكر الصديق ـ رضوان الله عليه ـ ، فاشتراه وأعتقه ، ولما أمر

(١) الإصابة (٤/ ١٥٥) والاستيعاب (٤/ ١٥٦). والكامل (٢/ ٦٨).

الرسولُ ﷺ المسلمين في مكة ومنهم المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة، خرج أبو فكيهة مهاجراً في سبيل الله إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وعاد ليجد الإسلام قد انتشر في الآفاق، فلقد امتد الإسلامُ في القلوب والبلاد بصبر المؤمنين، وبجهاد المجاهدين، وبقوة المستضعفين الذي لم يهن ولم يضعف؛ حينما أخرجوه نصف النهار في حرٍّ شديد، وفي قيد من حديد، يُلْبَسُ ثياباً ويُبْطح في الرمضاء، ثم يُؤتى بالصخرة فتُوضع على ظهره حتى لا يعقل[1].

وقد مات أبو فكيهة بالمدينة قبل بدر.

رحم اللهُ هذا الجندي المجهول، ونفع المجاهدين بسيرته العظيمة، وصبره الرائع.



(١) المصادر السابقة.

(٧)

# نساء مستضعفات

أ ـ لبيبة
ب ـ النهدية
ج ـ زِنِّيرة
د ـ أم عُبَيْس

## أ ـ لبيبة[1]

كانت جاريةً ضعيفةً ، لا حولَ لها ولا قوة ، لا تملك أن تُفكّر في يومها أو غدها ، هي شيءٌ بسيطٌ في نظر الجاهلية .

كانت جاريةً لبني مؤمّل بن حبيب بن عدي بن كعب ، أسلمت وحَسُنَ إسلامُها ، ووجدت من دعوة محمد ما يثلجُ صدرها ، ويعيدُ إليها كرامتها ، ويُخْرِجُها من براثن الجهل والجاهلية .

أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ .

وكان عُمر مشركاً لم يسلمْ بَعْدُ ، فجعل يُعذِّبها حتى تُفْتَن ، ثم يدعها قائلاً : إني أعتذر لك ، إني لم أتركك إلاّ ملالةً . ويقول لها أيضاً : إني لم أدعك إلاّ سآمةً .

فتقولُ ـ رضوان الله عليها ـ : كذلك يفعل اللهُ بِكَ إن لم تُسلم .

ومر أبو بكر الصديق ، وسمع هذا كُلّه ، فاشتراها وأعتقها .

وانضمتْ لبيبةُ جارية بني مؤمّل في مكة إلى قافلة الإيمان ، فكانت جنديةً مجهولةً ، قد يجهلُها قلمُ الرُّواة قليلاً فلا نجدُ تاريخاً لوفاتها ، ولكِنّها ذاتُ إيمان مطمئن ، وعمل يوازي جبالَ مكة ، نضرّ الله قبرها بِرياض الجنة .

## ب ـ النهدية[2]

وهذه جندية مجهولة أيضاً . . .

إنها النَّهدية ، مولاة لبني نهد ، فصارت لامرأة من بني عبد الدار ، وكان

---

(١) أخذنا سيرتها من سيرة ابن هشام (١/ ٣١٩) والكامل (٢/ ٦٨) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٩) والكامل (٢/ ٦٩) .

معها بنت ، فتأخذهما امرأة بني عبد الدار لتعذّبهما بعد أن علمتْ بإسلامها وإسلام بنتها ، وكانت الكافرةُ تصيح قائلةً: والله لا أقلعتُ عنكِ ، أو يبتاعك بعضُ أصحاب محمد.

ويمرُّ أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وقد عاهد نفسه على مدّ يد العون لكل من قال لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ﷺ.

مرَّ بهما ومعها ابنتها وقد بعثتهما سيدتهما امرأة بني عبد الدار بطحينٍ لها ، هي تقولُ: والله لا أعتقكما أبداً.

فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : حِلّي يا أمَّ فلان ـ أي تحلَّلي من يمينك ـ فقالت: حِلّ؛ أنت أفسدتهما ، فأعتقهما يا أبا بكر!

قال رضي الله عنه: فبكم هما؟

قالت: بكذا وكذا.

قال أبو بكر رضي الله عنه: قد أخذتهما وهما حرَّتان ، أرْجعا إليها طحينها.

كان بإمكان النهدية وابنتهما أن يتركا الطحين في عرض الطريق ، ويتركا امرأة بني عبد الدار وشأنها ، وخاصّة حينما أعتقهما أبو بكر الصديق ، ولكنهما متخلِّقتان بأخلاق الإسلام ، فقالتا لصاحب رسول الله أبي بكر الصديق: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نردُّه إليها؟ أي نذهب فننهي الطحين أولاً ، ونردُّه إليها قبل أن نتركها.

فنظر إليهما أبو بكر وقال: وذلك إن شئتما.

مضتِ النَّهديةُ وفتاتها حيث الرَّحى يطحنُ ما حملت من طحين امرأة بني عبد الدار التي كانت تسقيهما صنوف العذاب ، وطُحن طحينُ سيدتهما ، وعادتا إليها وقدَّمتا لها الطحين ، ثم انصرفتا إلى حيث دعاهما صاحبُ رسول الله وقال: انصرفا إلى الصلاة ، والإيمان بدعوة محمد.

وانضمَّتِ النَّهديةُ وابنتها إلى قافلة الإيمان ، فلم تجدا أطيب وأطهر من

هذه القافلة المباركة ، التي لم تقتصر على الرجال وحسب؛ بل ازدانت بأخوات مؤمنات ، يُطِعْنَ الله ورسوله ، ويشهدن أن لا إله إلا الله ، ويسمعن القرآن من النبي محمد ﷺ وأصحابه يُتلى في بيوتهن ، فيزددن إيماناً وهدايةً.

## ج - زِنِّيرة[1]

كانت زِنِّيرةُ مولاةً لبني عدي ، فأسلمت وحَسُنَ إسلامها ، فجعل أبو جهل يُعذِّبها حتى عميت ، فقال لها: إن اللات والعزَّى أخذا بصرك ، وفعلا بك فعلهما.

فقالت في جُرأةٍ وصبر: وما يدري اللاتُ والعزّى مَن يعبدهما؟ ولكن هذا أمرٌ من السماء وربي قادرٌ على ردّ بصري.

والله عز وجل لا يترك عباده المخلصين ، فأصبحت زِنِّيرة من الغد وقد ردَّ اللهُ بصرها ، وخيَّب تأويلَ جهل أبي جهل.

فقالت قريش: هذا من سِحْر محمد ﷺ.

لقد كانت قلوبُهم مغلقةً ، لا يُعطى مفاتيحها إلا مَن أراد اللهُ به خيراً ، فما أكثر المشاهد والشواهد التي تكفي هؤلاء كي يؤمنوا بالله عزَّ وجل ، لكن كل هذا لا يكفي بالنسبة لهم.

لكن زِنِّيرة فازت فوزاً عظيماً ، فازت بدنياها وآخرتها ، فاشتراها أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وأعتقها ، وانضمت زنيرة لقافلة الإيمان ، فَحَسُنَ إسلامُها.

## د ـ أم عُبَيْس[2]

كانت أمةً لبني زهرة ، وفي بني زهرة من عميت بصيرتُه وأغْلَقَ قَلْبَه فلم

---

(١) الكامل في التاريخ (٢/ ٦٩).
(٢) المصدر السابق.

يغزه إيمان بدعوة محمد ، ولم يطرقه طارقُ الخير ، فلا يزال على جاهليته وكُفْره.

ابتليت بالأسود بن عبد يغوث ، فكان يُعذِّبها عذاباً شديداً ، فما كان يرعى ضعفها كأنثى ، ولم يُدخل في حسابه شهامة العربي وكرامة ابن البيداء في مساعدة الضعيف.

لكن أبا بكر رَحِمَ ضَعْفَها ، وكَرَّمَ المرأةَ فيها ، فاشتراها ، وأعتقها ، فأصبحت حرَّةً بإسلامها ، أبيَّةً بصبرها وجَلَدها ، فأضافت لأخواتها حسناتٍ يحسبن لنساء مكة ، ومستضعفاتها من النساء.

وكم تحتاجُ المرأةُ في عصرنا هذا إلى النظر بإمعان في سيرة السَّلف الصالح ، من مسلماتِ مكّة والمدينة؛ اللاتي منعن الإسلام بكل ما يملكن من منعة ، فَوَهَبْنَ له نفوسَهُنّ وقلوبَهُنّ ، ولم يمنعهن تعذيبٌ أو قَتْلٌ من ذلك ، كانت سميّةُ أمُ عمار هي المثل الأول والأعلى لهنَّ جميعاً؛ ـ رضوان الله عليهن أجمعين ـ ورضي الله عن أم عُبيْس.

* * *

# (٨)
# سلمان الفارسي

قال تعالى في سورة الأحزاب:

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

## كلمات في البداية

سلمان الفارسي.. صحابي أحبَّه رسول الله ﷺ فأحببناه، قال عنه عليه الصلاة والسلام: «سلمان منا آل البيت»(١).

كان يعيشُ حياةَ الملوك في بلاده، ونال حُظوة الإسلام عندما سافر في طريق طويلٍ حتى حطَّ الرحال على أشرف أرض.

كان أبوهُ دهقاناً يعيش حياة الدَّهاقين، والدّهقان: رئيس القوم، يملكُ ضيعةً جميلةً عظيمةً تَدُرُّ عليهم غلَّة كبيرة.

وأوَّلُ لحظات إيمانه كانت عند باب كنيسة من كنائس النَّصارى، عندما رأى النَّصارى يُصلُّون، فالتفت منبهتاً وقارن بينه وبين ما يفعله هو وقومه، الَّذين عبدوا النار، فكانوا مجوساً، وسلمان يضرم النار لهم حتى لا تَخْبُو ساعةً في ليلٍ أو نهارٍ، ولكن الله قدَّر له أمراً كان مفعولاً.

فانصرفتْ مشيئة الله عزّ وجل، أن يتركَ هذا كُلّه يوماً ويمضي تائهاً باحثاً عمَّا قُدِّر له، يُجرِّب ولا يتركُ الرأي، فلم يستقرَّ له بالُ، ولم يهدأْ له خاطرٌ حتَّى وجد ضالَّته، لقد أنار الله قَلْبَهُ وهو على متن نخلةٍ من نخيلِ المدينة، كان يقطفُ ثمارَها لسيِّده الذي اشتراه واستعبده.

---

(١) رواه الطبراني والحاكم.

ويمضي الفتى إلى أشرف مجلسٍ ، وتمتدُّ الأيادي الكريمةُ لتصافحَ الفتى الفارسي فيعلنُ إسلامه ، ويأتي اليومُ الذي أضاف لسليمان خطوة غير خطوته المباركة ، لقد أتى عليه اليومُ الذي يقال فيه: «سلمان منا آل البيت».

هذه عُجَالةٌ ترسمُ الإطار ، فإلى الصورة مُفَصَّلةً.

## الجذور

سلمان الفارسي أبو عبد الله ، «سابقُ الفرسِ إلى الإسلام»[1]. صاحب النبي ﷺ وخادمه ، حدَّث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فله في مُسند بقيّ ستون حديثاً ، وأخرج له البخاري أربعةَ أحاديث ، ومسلم ثلاثةَ أحاديث.

كان رضوان الله عليه لبيباً حازماً ، من عُقلاء الرجال وعُبَّادهم ونبلائهم[2].

ومن المناسب أن يتحدَّثَ سلمانُ الفارسي عن نفسه ، لذلك فقد تركناه يحدِّث ابن عباس عن قصته فيقول: كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان ، من أهل قرية منها يقال لها «جَيّ» وكان أبي دهقانها ، وكنتُ أحَبَّ خَلْقِ الله إليه ، فلم يزلْ بي حُبُّه إيّاي ، حتى حبسني في بيته كما تُحبس الجاريةُ.

وقد اجتهدتُ في المجوسية ، حتى غَدَوْتُ قَيِّمَ النار التي كُنَّا نعبدها فلا نتركها تخبو ساعةً.

وكانت لأبي ضيعةٌ عظيمةٌ ، فشغل في بنيان له يوماً ، فقال لي: يا بني! إني قد شُغِلْتُ في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي ، فاذهب إليها وتولَّ عني أمرها ، وأمرني ببعض ما يُريد ، فخرجتُ ، ثم قال: لا تحتبسْ عليَّ ، فإنك إن احتبست علي كنتَ أهمَّ إليَّ من ضيعتي، وشغلتني عن كُلّ شيءٍ من أَمري.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٩ و١٨٥) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٨٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٥٠٥).

فخرجت أُريدُ ضيعته ، فمررتُ بكنيسةٍ من كنائس النَّصارى ، فسمعتُ أصواتهم فيها وهُم يُصلُّون ، وكنت لا أدري ما أمرُ النَّاس بحبس أبي إيَّاي في بيته ، فلما مررتُ بهم ، وسمعت أصواتهم ، دخلتُ إليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتني صلواتُهم ، ورغبتُ في أمرهم ، وقلتُ: هذا واللهِ خيرٌ من الدِّين الذي نحن عليه ، فو الله ما تركتُهم حتى غربتِ الشَّمسُ ، وتركتُ ضيعةَ أبي ولم آتها.

فقلت لهم: أين أصلُ هذا الدين؟ قالوا: بالشَّام ، فرجع سلمان الفارسي إلى أبيه بعد أن بَعَثَ في طلبه ، وشغلت عن عمله كُلّه[1].

ويمضي سلمان الفارسي في سَرْد جذور إيمانه وبداياته الأولى ، مُبيِّناً البيئة التي نشأ فيها؛ والتي كانت تعيشُ الجاهلية الكبرى وحياة المجوس ، ولعلَّ ما يثيرُ في النفس العجبَ أنَّ هذا الفتى كان يعيشُ حياةً هانئةً مملوءةً بالتَّرَفِ ، فلم يكنْ هناك ما يُعَكِّرُ صفوه أو يجبره على الهجرة والسَّعي.

ونعود إلى روايته التي يحكي فيها بداياته الأولى فيقول: «فلما جئتُه قال: أي بني! أينَ كُنْتَ؟ فقلتُ: يا أبتِ إنِّي مررتُ بأُناسٍ يُصلُّون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيتُ في دينهم ، وما زلت عندهم حتى غربتِ الشمسُ.

ففزِعَ أبي مِمَّا صنعتُ وقال: أي بُنَيَّ ليس في ذلك الدِّين خيرٌ ، دينك ودينُ آبائك خيرٌ منه.

قلت: كلا والله! إنَّه لخيرٌ من ديننا.

عندئذٍ خاف أبي ممَّا أقولُ ، وخشي من خروجي عن دينهم ، وحبسني في البيت ، وجعل قَيْداً في رِجْلي.

وبعثتُ إلى النصارى أقول لهم: إذا قَدِمَ عليكم رَكْبٌ يُريد الذَّهَابَ إلى الشام فأعلموني بهم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٥٠٧).

فما هي إلاَّ أيامٌ قلائـلُ حتى أقبل عليهم رَكْبٌ مُتَّجِهٌ إلى الشام، فأخبروني بهم.

فقلت: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرَّجعة فأخبروني.

قال: ففعلوا. فألقيتُ الحديدَ من رجلي، ثم خرجتُ معهم، حتى قدمتُ الشام. فلما قدمتُها. ونزلنا فيها قلت: من أفضلُ رَجُلٍ من أهل هذا الدِّين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة.

فجئته فقلت: إني قد رغبتُ في هذا الدِّين، وأَحببتُ أن أكونَ معك أخدمُك في كنيستك، وأَتعلَّم منك، وأُصلِّي معك. قال: فادخل، فدخلتُ معه، وقمتُ على خدمته، فكان رجلَ سوءٍ يأمُرهم بالصدقة ويُرغِّبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها شيئاً اكتنزه لِنفسه، ولم يُعْطِه المساكينَ؛ حتَّى جَمَعَ سبع قِلالٍ من ذهب ووَرِقٍ، فأبغضتُه بُغْضاً شديداً لِمَا رأيتُه يصنعُ، ثم مات، فاجتمعت إليه النَّصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إنَّ هذا رَجُل سُوءٍ يأمُركم بالصَّدقة، ويُرغِّبُكُم فيها، فإذا جئتُم بها، كنزها لنفسه، ولم يُعْطِ المساكين، وأريتهم موضعَ كنزه سَبْعَ قلالٍ مملوءة؛ فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنهُ أبداً. فصلبوه ثم رموه بالحجارة، ثم جاؤوا برجل جعلوه مكانه، فما رأيتُ رجلاً أزهدَ منه في الدُّنيا، ولا أرغبَ منه في الآخرةِ، ولا أَدْأَب منه على العبادة ليلاً ونهاراً، فما أعلمُ أنني أحببتُ شيئاً قطّ قدر حُبِّهِ، فأحببته حُبًّا جَمًّا، وما زلتُ معه زماناً حتى حضرته الوفاة، فقلت له:

يا فلان! قد حضرك ما ترى من أمر الله، وإنِّي والله ما أحببتُ شيئاً قط حُبَّك، فماذا تأمرني وإلى من توصيني؟

فقال: يا بني، لا أعلمُ أحداً على ما كنتُ عليه إلاَّ رجلاً بالموصل، فائته، فإنك ستجده على مثل حالي[1].

(١) المصدر السابق ص ٥٠٨.

## بـدايـة الـرحـلـة

سمع سلمان الفارسي نصيحةَ الرجل ومضى حيثُ نَصَحَهُ ، ويستطردُ سلمانُ في سَرْد قصته فيقول: فلما مات وغُيِّبَ ، لحقتُ بالموصل ، فأتيتُ صاحبها ، فوجدتُه على مثل حاله من الاجتهاد والزُّهد.

فقلت له: إنَّ فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنَّكَ مُسْتَمْسِكٌ بما كان عليه من الحَقِّ.

فقال: أقم عندي ، فأقمت عِنْدَهُ فَوَجَدتُهُ على خَيْر حالٍ.

ثم إنَّه لم يلبثْ أنْ ماتَ ، فلما حَضَرَتْهُ الوفاةُ قلتُ له: يا فلانُ لَقَدْ جاءَك من أمْرِ اللهِ ما تَرَى ، وأَنتَ تعلمُ من أَمري ما تَعْلَمُ ، فإلى مَن توصي بي؟ ومن تأمرني باللحاق به؟

فقال: أي بني ، والله ما أَعْلَمُ أنَّ رجُلاً على مثل ما كُنَّا عليه إلاّ رجلاً بنصيبين وهو فلان فالْحقْ به.

فلما مات الرجل ودفناهُ لحقتُ بصاحِبِ نصيبين ، فأقمتُ عنده على مثل حالهم؛ حتى حضره الموت ، فأوصى بي إلى رجلٍ من أهل عمورية بالرُّوم ، فأتيتُه فوجدته على مثل حالهم ، واكتسبتُ حتى كان لي غنيمة وبُقيرات.

ثم احتضر الرُّومي فكلَّمته إلى من يوصي بي؟

قال: يا بني! والله ما أعلمُ بقي أَحَدٌ على مثل ما كُنَّا عليه آمرك أن تأتيه ، ولكن قد أظلّك زمانُ نبّي يُبعث من الحرم ، مهاجرهُ بين حرَّتين إلى أرض سبخة ذات نخل ، وإنَّ فيه علامات لا تخفى ، بين كتفيه خاتمُ النبوة ، يأكل الهدية ولا يأكُلُ الصدقة. فإن استطعت أن تخلُصَ إلى تلك البلاد فافعل ، فإنه قد أظلَّك زمانُه.

ثم وافته المنيةُ ، فمكثت بعمورية بعد وَفاتِهِ زَمناً إلى أن مَرَّ بي نَـفَـرٌ من

تُجَّار العرب من قبيلة كلب ، فقلتُ لهم: إن حَمَلْتُمُوني معكم إلى أرض العرب أعطيتُكُمْ بقرتي هذه وغنيماتي؟

فقالوا: نعم نحملك ، فأعطيتهم إيَّاها وحملوني ، حتى إذا جاؤوا وادي القرى ظَلَمُوني وغدروا بي وباعوني لِرَجُلٍ من اليهود ، فالتحقتُ بخِدْمَتِه ، ثم ما لَبِثَ أن زارَهُ ابنُ عَمٍّ له من بني قُرَيظَةَ فاشتراني منه ، ونقلني مَعَه إلى يَثْرِبَ ، فرأيتُ النَّخْلَ الذي ذكره لي صاحبي بِعَمُّورِيَّةَ ، وعَرَفْتُ المدينةَ بالوصف الّذي نعتها به ، فأقمتُ بها معه.

وكان النَّبيُّ حينئذٍ يدعو قَوْمَهُ في مكة ، لا يُذْكَرُ لي شيءٌ من أمره مع ما أنا فيه من الرِّق ، حتى قَدِمَ رسول الله ﷺ قُباء ، وأنا أَعمل لصاحبي في نخلةٍ له ، فو الله إني لفيها إذا جاءه ابنُ عمّ له ، فقال: يا فلان! قاتل اللهُ بني قَيْلة ، والله إنهم الآن لفي قُباء مجتمعون على رجلٍ جاء من مكة يزعمون أنَّه نبّي.

فو الله ما هو إلا أَن سمعتُها حتى أخذتني رعدةٌ ، واضطربتُ اضطراباً شديداً حتى خَشيتُ أنْ أَسْقُطَ على سَيِّدي ، وبادرتُ إلى النزولِ عن النَّخلةِ ، وجعلت أقول للرجل: ما هذا الخبر؟ فرفع مولاي يده فلكمني لكمةً شديدةً وقال: مَالَكَ ولهذا ؟! أَقْبِلْ على عملك ، فقلت: لا شيء ، إنما سمعتُ خبراً ، فأحببت أن أعلمه.

## اللقاء المبارك

لم يزل سلمانُ الفارسيّ يذكرُ كلمات الراهب الرومي في عموريّة ، وبدأ صوته يتردّد في سَمْعه: يا بني والله ما أعلمه بقي أحدٌ على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه.

تذكَّر سلمان جيّداً قولَ الراهب في عمورية: يا بني؛ قد أظلَّك زمانُ نبي يُبْعَثُ من الحرم ، مهاجرهُ بين حرّتين ـ والحرة أرضٌ ذات حجارة سود نخرة ـ ، نعم بين حرَّتين إلى أرض سبخة ذات نخل.

وها هو سلمان فوق نخلة يسمعُ بآذانه حقيقةً بَحَثَ عنها سنوات وسنوات ، ظنَّها مجهولة ، وها هي تتماثل أمامه حقيقة رائعة لا مراء فيها.

تذكَّر سلمان علاماتٍ لا تخفى في هذا النبي الذي يُبعث من الحرم بين حرتين ، ومهاجِرهُ إلى أرض سبخةٍ ذات نخل ، تذكر العلاماتِ جيداً:

* بين كتفيه خاتم النبوة.

* يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة. . !!

إذاً لا بُدَّ من تحرِّي الحقيقة ومواصلة هذه الرحلة الرائعة الجميلة ، ولكن كيف؟

ويستمر سلمان في قصته لابن عباس فيقول: فأقبلتُ على عملي ، ولما أمسيتُ جمعتُ ما كان عندي ثم خرجتُ حتَّى جئتُ رسول الله ﷺ بقباء ، فدخلتُ عليه ومعه نَفَرٌ من أصحابه ، فقلت له: إنكم أهلُ حاجةٍ وغُرْبَةٍ ، وقد كان عندي طعام نذرتُه للصدقة ، فلما ذكر لي مكانكم رأيتكم أحقّ النّاس به فجئتكم به. ثم وضعته ، فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «كُلوا باسم الله» وأمسك هو فلم يبسط إليه يداً.

فقلتُ في نفسي: هذه واللهِ ، واحدة ، إنه لا يأكلُ الصَّدقة. . !!

ثم رجعتُ ، وعدتُ إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في الغَدَاة ، أحملُ طعاماً ، وقلت له عليه الصلاة والسلام: إني رأيتُك لا تأكُل الصدقة ، وقد كان عندي شيءٌ أُحِبُّ أن أُكْرِمَكَ به هدية؛ ووضعتُه بين يديه ، فقال لأصحابه: «كُلُوا باسم الله» وأكل معهم.

فقلتُ لنفسي: هذه والله ، الثانية ، إنه يأْكل الهدية(١). . !!

ويسعى سلمان إلى الشيء الثالث الذي حدَّثه عنه راهب عمورية وهو خاتم النبوة في أعلى ظهره ، يقول سلمان رضي الله عنه:

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨).

ثم رجعت فمكثتُ ما شاء الله ، ثم أتيتُه ، فوجدتُه في البقيع قد تبع جنازةً ، وحوله أصحابه وعليه شملتان مؤتزراً بواحدة ، مرتدياً الأخرى ، فسلَّمتُ عليه ، ثم عدلتُ لأنظر أعلى ظهره ، فعرفَ أنّي أُريدُ ذلك ، فألقى بُرْدَته عن كاهله ، فإذا العلامةُ بين كتفيه ، خاتم النبوة ، كما وصفه لي صاحبي ، فأكببتُ عليه أُقبِّله وأبكي ، ثم دعاني عليه الصلاة والسلام فجلستُ بين يديه ، وحدَّثْتُه حديثي كما أُحدِّثُكم الآن[1].

ثم أسلمتُ، وحال الرِّقُّ بيني وبين شهود بدر وأُحُد. فقال رسول الله ﷺ: «كَاتِبْ سَيِّدَك حتى يعتقك ، فكاتبته على ثلاثمئة نخلة أحييها له بالفقير وبأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أعينوا أخاكم» ، فأعانوني بالنخل الرجل بثلاثين وَديّة [الودية هي صغار الفسيل]. والرجل بعشرين ، والرجل بخمس عشرة ، حتى اجتمعت ثلاثمئة وديّة ، فقال: «اذهب يا سلمان ففقِّر لها ، فإذا فرغتَ فائتني أكون أنا أضعُها بيدي».

ففقَّرت لها وأعانني أصحابي ، حتى إذا فرغتُ منها ، جئتُه وأخبرته ، فخرج معي إليها نقربُ له الوديّ ، ويضعه بيده ، فو الذي نفسُ سلمان بيده ما ماتت منها وديّة واحدة ، فأديتُ النخل ، وبقي عليَّ المال ، فأتى رسولُ الله ﷺ بمثل بيضةِ دجاجةٍ من ذهب من بعض المغازي. فقال: «ما فعل الفارسيُّ المكاتبُ»؟ فدُعيت له ، فقال: «خُذها فأدِّ بها ما عليك».

قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مِمَّا عليَّ؟ قال عليه الصلاة والسلام: خذها فإنَّ الله سَيُؤَدِّي بها عنك.

فأخذتُها فوزنتُ لهم منها أربعين أوقية وأوفيتهم حقَّهم وأُعْتِقْتُ، فشهدتُ مع رسول الله ﷺ الخندقَ حرّاً ، ثم لم يفتني معه مشهد من المشاهد[2].

وكان اللقاءُ المبارك في المدينة بدايةً مباركةً لهذا الفارسيّ البطل الذي شارك في غزوة الخندق ، وواجه مع أصحابه حِزْبَ الشيطان.

---

(١) وكان يقصُّ على العباس وبعض أصحاب النبي ﷺ.
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٤١ ـ ٤٤٤).

## يـوم الـخنـدق

انضمَّ سلمانُ إلى قافلة الإيمان العظيمة ، وأصبح لبنةً طيِّبةً لهذا الصَّرْح العظيم للدعوة الإسلامية في المدينة ، ونال شرفَ الصُّحْبة المباركة للنبي ﷺ.

لكن يوم الخندق كان لسلمان أعظم الشرف ، فقد ضمَّه النبي ﷺ إلى آل البيت مُبيِّناً سماحةَ الإسلام وعفوه ، تُرى ما الَّذي أوصل سلمان إلى هذه الدَّرَجات الْعُلى؟ أما كان من أصلٍ فارسي ، وحول النبي كوكبةٌ من الصحابة مهاجرين وأنصار ، أمَا كان من صحابة النبي ﷺ مَن هُو أحقّ بهذه الدعوة ، وهذا الوسام العظيم؟ هذا إذا كان في الإسلام شعوبية ، أو عنصرية ، أو دعاة العِرْقية والدَّم الأزرق!!

حاشا لله ، ما كان محمد ﷺ ودعوته شعوبياً أو يحملُ فكراً يتعصب به لجانبٍ من الناس ، بل قال ﷺ: «كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلاّ بالتقوى ، إن أكرمَكُم عند الله أتقاكم».

ومن بلاد فارس جاء هذا الرَّجلُ ، فكان مجاهداً في سعيه ، وعلى الرغم من أنه كان يعيشُ في سعةٍ من العيش ، لكنَّ الحقيقةَ شغلته ، فترك أقدامه تتحرَّكُ ما شاء لها الله أن تمضيَ ، وما إن استقرَّ في المدينة وعادت إليه حريته بعد عُبوديَّته ، وحَسُنَ إسلامه ، وصفت نفسه ، وقامت لكلّ مشهد إيماني؛ بعد هذا كُلّه كانت نبوّة الرَّسُولِ ﷺ لدِينه ، لقد تنبَّأَ النَّبيُّ ﷺ بإسلام بلاد فارس ، وبشّر براية الإسلام في مدائن الفرس ، وقصور ملوكها.

وفي يوم الخندق كان سلمان نجماً لامعاً ، وشاهداً على أحداثها العظيمة.

كان لسلمان الفارسي علاقةٌ وثقى بما حدث في يومِ الخندق ، وتأتي أحداثُ هذا اليوم في السنَّة الخامسة لهجرة النبي من مكة إلى المدينة ، إذ خرجَ نَفَرٌ من يهود المدينة وزعماؤهم قاصدين مكة؛ لتأليب المشركينَ ضِدَّ محمد ﷺ ، وهؤلاء هم: حيي بن أخطب ، وكنانة بن الربيع ، وسلام بن

أبي الحقيق ، وهوذة بن قيس ، وأبو عمار الوائلي ، خرجوا في نفرٍ من يهود بني النضير ، ونفر من بني وائل[1].

خرجوا حتى قدموا على قريش في مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا لهم: إنا سنكون معكم حتى نستأصله. فقالت قريش ـ وقد أصابتهم حيرة تنمُّ عن قصر نظر وسوء بصيرة ـ: يا معشر يهود ، إنَّكم أهلُ الكتاب الأول ، وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، فدينُنا خيرٌ أم دينه؟ وفي خبث ودهاء لا يستبعدُ عن هؤلاء اليهود قالوا لقريش: «بل دينكم خيرٌ من دينه! وأنتم أولى بالحقِّ منه».

سعدتْ قريش ، وسُرّت سروراً عظيماً بما جاء في حديث زعماء اليهود في المدينة ، وأبدوا استعداداً لحرب الرسول ﷺ.

ولم يكتفِ زعماءُ اليهود بتأليب قريش على محمد ﷺ ، بل مضوا إلى قبيلة غطفان ، فدعوهم إلى حربِ المسلمين ، وأخبروهم أنهم وقريش سيكونون معهم على المسلمين.

خرجتْ قريش بقيادة أبي سفيان ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن ، وخرجت بنو مُرّة وقائدهم الحارث بن عوف ، وخرج نَفَرٌ من قبيلة أشجع بقيادة مِسْعَر بن رُخَيْلة.

وقد وُضِعَتْ خُطّةُ الحربِ الغادرة ، بحيث يهاجمُ اليهودُ في المدينة ـ وهم يهود بني قريظة ـ يهاجمون الرسولَ من داخل المدينة ، بينما تهاجمُ قريش وغطفان المدينة من خارجها ، بحيث يقعُ جيشُ المسلمين في حصارٍ من داخل المدينة وخارجها.

فُوجِىءَ النَّبيُّ ﷺ وأصحابه مهاجرين وأنصار بهذا الجيش الضخم وهذا الحصار المرتَّب ، وزاغت الأبصارُ ، وخافَ أهلُ الإيمان على دعوتهم ، وظنُّوا بالله الظنون ، وقد وصف القرآن الكريمُ الحالةَ النفسيةَ للمسلمين حين جاء هذا الحصارُ الرَّهيبُ فقال عزَّ وجل في سورة الأحزاب:

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٢٩) ، والطبري (٣/ ٤٣).

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ .

وقد بلغ جيشُ الأحزابِ في هذا اليوم أربعة وعشرين ألف مقاتل ، على رأسهم أبو سفيان بن حرب وعيينة بن حصن ، لحصار المسلمين والبطش بمحمد ﷺ وأصحابه ، بل واستئصال الدعوة من جذورها ، كما قال اليهود لقريش في مكة .

عندئذٍ اجتمع الرسولُ مع أصحابه للتشاور في الأمر وكان الأمرُ الذي لا نقاشَ فيه هو الإجماعُ على القتال حتى الموت والشهادة في سبيل الله ، ولكن كيف تُدار هذا المعركة؟

سادت لحظةُ صمت قطعها سلمان الفارسي ، وهو الخبيرُ بالحرب في بلاد فارس ، فقطعَ الصَّمْتَ بكلماتٍ قليلةٍ ، لكنها كانت حاسمةً. قال سلمانُ: نحفر خندقاً يا رسول الله يُغطِّي جميعَ المناطق المكشوفة حول المدينة ، فوافقَ عليه الصلاة والسلام وشرع المسلمونَ في حفره ، وخلال الحفر كانَ سلمان ـ رضي الله عنه ـ يأخذ مكانه مع المسلمين ، ويشاركُ أصحابه في الحفر ، وقد كان ـ رضوان الله عليه ـ قويَّ البُنية طويل الساقين ـ وقد قسمَّ المسلمون أنفسهم جماعاتٍ ، كُلّ جماعةٍ تتعاونُ في الحفر ، وتثابر من أجل إنجاز الخندق للدفاع عن المدينة .

وفي مجموعة النبي ﷺ اشترك سلمانُ ، فجعل يضربُ الصخرة تلو الصخرة فتتناثر هُنا وهناك ، ولكنَّ واحدةً من هذه الصخور ارتبك سلمانُ في كسرها ، وحاول مرّةً ومرات ولكن دون جدوى ، فاستأذنَ النبيَّ ﷺ في ترك هذه الصخرة وتجاوزها لصلابتها ، ولكنَّ النّبي ﷺ نظر إلى الصخرة ودعا بمعول كي يُجرِّبَ تحطيمها ، وأمسكتِ اليدُ الشريفةُ بالمعول ، وسمَّى الله وضرب الصخرة ضربةً خرج على إثرها وهجٌ عالٍ تناثر على أثرها فملأ المكانَ نوراً ، فهتف ﷺ قائلاً: «الله أكبر ، أُعطيت مفاتيحَ فارس ، ولقد أضاء لي منها قصورُ الحيرةِ ، ومدائن كسرى ، وإن أمتي ظاهرة عليها».

ثم رفع النبيُّ مِعْوَلَهُ مرةً أخرى وهوى به على بقية الصخرة ، فانفلقتْ وتطاير منها الشَّرَرُ ، فهلَّلَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام مكبِّراً: «الله أكبر . . أُعطيتُ مفاتيحَ الروم ، ولقد أضاء لي منها قصورُها الحمراء ، وإن أُمتي ظاهرة عليها»[١] .

ثم كانت الضربةُ الثالثةُ التي قضت على صلابة الصخرة فتناثرت بقاياها وهلَّل ﷺ مُبشِّراً أصحابه ، ومنبّأً لهم بأنه يبصرُ قصورَ مدائن الأرض التي سيدخلها الإسلام.

وجاء المددُ من السماء فيقول عزّ وجل في سورة الأحزاب:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ .

ونترك نعيم بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقصُّ قصّة النهاية في هذا اليوم العظيم يوم الخندق. قال نعيم بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله إني قد أسلمتُ ، وإنَّ قَوْمي لم يعلموا بإسلامي ، فمُرنْي بما شئتَ ، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ ، فخذِّل عنا إن استطعتَ ، فإن الحرْب خَدْعة».

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديماً في الجاهلية ، فقال: يا بني قريظة ، قد عرفتم وُدِّي إيّاكم ، وخاصَّة ما بيني وبينكم ، قالوا: صدقت ، لستَ عندنا بمتَّهم.

فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم ، البلدُ بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تتحوّلوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم[٢] عليه ، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا مثلكم ، فإن رأوْا فرصةً

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٣) وما بعدها.

(٢) «ظاهرتموهم»: عاونتموهم.

أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقةَ لكم به إن خلا بكم؛ فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخُذُوا منهم رهناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثِقَةً لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه ، فقالوا له: لقد أشرتَ بالرأي.

وذهب نعيم بن مسعود إلى قريش وقال لأبي سفيان: قد عرفتم وُدِّي لكم ، وفراقي محمداً وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيتُ عَلَيَّ حقّاً أن أبلغكموه نُصْحاً لكم ، فاكتُمُوا عَنّي. قالوا: نفعل. قال: اعلموا أنَّ مَعْشَرَ يهود قد نـدِموا على ما صَنَعُـوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه ، إنَّا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيكَ أن نأخذَ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلَهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم؛ فإن بَـعَـثَتْ إليكم يهود تلتمسُ منكم رهناً من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً[1].

ثم خرج إلى غطفان ، فما إن بلغهم حتى قال لهم: إنكم أهلي وعشيرتي ، وأحبّ النّاس إليَّ ، ولا أراكم تتهمونني. قالوا: صدقت ، ما أنتَ عندنا بمتّهم! قال: فاكتموا عني ، قالوا: نفعل ، فما وراءَك؟ فقال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذَّرهم كما حذَّرهم.

فلما أرسل أبـو سفيان ومعـه شيوخ غطفان لليهـود قالوا: لا نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجزَ محمداً ، فإنَّـا نـخشى إن نالتْ منكم الحربُ ، واشتـدَّ عليكم الـقتالُ تسرعوا فـي الرجـوع إلـى بلادكم وتتركونـا ، والرّجُـلُ فـي بلدنا ولا طاقةَ لنا به[2].

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٥).

(٢) يقصدون النبي ﷺ.

فقالوا: إن الذي حدَّثنا به ابنُ مسعود لَحَقّ ، وبلغ الرسولَ ﷺ الخلافُ الذي نشب بينهم ، ثم هَبَّتْ ريحٌ شديدةٌ ، وجنود الله بينهم تفعل بهم ما تفعل؛ حتى قال أبو سفيان: يا معشر قريش فلينظر كُلُّ امرىء من جليسه ، إنكم ما أصبحتم والله بدار مقام ، فارتحلوا إني مُرْتَحِلٌ.

ولولا عهدُ الرسول ﷺ لابن مسعود لقتل ابن مسعود أبا سفيان وانتصر المسلمون ، بفضلٍ من الله ، عندما أرسل عليهم ريحاً وجنوداً لم يروها.

## الإنسـان

في يوم الخندق تجلَّى حُبُّ الصحابة لسلمان ، فالمهاجرون يقولون: سلمان منا ، والأنصار يقولون: سلمان منا. فقال النبي ﷺ: «سلمان منا آل البيت».

أيّ إنسان هذا الذي نال شرفَ الانتماء لآل بيت رسول الله ﷺ!! أيّ حُبّ هذا الذي يَحْسُدُ النَّاسُ عليه سلمان الفارسي!.

أحبّه أبو الدَّرداء ـ زاهد المدينة وشيخ الزُّهّاد فيها ـ فأسكنه معه في دارٍ واحدة ، وكان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقوم الليل مصلياً قائماً ، ويصوم النهار زاهداً في الطعام طائعاً لربه.

وقد أَخَذَ سلمان على صاحبه أبي الدرداء هذا الجهد القاسي الذي يبذله في العبادة ، فحاول يوماً أن يثني صاحبه عن صوم نافلةٍ رأفةً به ، وتهويناً عليه ، فرفض أبو الدرداء ، وقال بودٍّ: أتمنى أن أصوم لربي.

فأجابه سلمان ناصحاً فقال: إن لعينيكَ عليك حَقّاً ، وإنَّ لأهلِكَ عليك حَقّاً ، صُمْ وَأَفْطِرْ. . وصَلِّ ونَمْ.

فلما بلغ هذا الحديثُ رسول الله ﷺ قال: «لقد اتَّسع من العلم»[1].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٨٥) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤) ، ونسبه إلى الطبراني في الأوسط.

ولم يكن علمه من فراغ؛ فقد كان فطناً، ذكيًّا، مُطَّلعاً يسمعُ من أصحابه ومن حبيبه ﷺ كثيراً فيحفظ ويعي.

ورغم أنه نَصَحَ أبا الدرداء كثيراً، إلاَّ أن حياته مرَّت بأمثلة تكاد تكون على نهج صاحبه ـ رضي الله عنه ـ فقد جلس ذات يوم يضفر الخوصَ ويجدله، ويصنع منه أوعيةً وأواني، وقد لبس ثوباً قصيراً، رغم ما يأتيه من عطاء بيت المال آلافاً من الدراهم، إلاّ أنه يرفضُ أن ينالَ منها درهماً واحداً، ولما سئل عن ذلك قال: أشتري خُوصاً بدرهم، فأعملهُ، ثم أبيعهُ بثلاثة دراهم، فأعيد درهماً فيه، وأنفِقُ درهماً على عيالي، وأتصدق بالثالث، ولو أن عمر بن الخطاب نهاني عن ذلك ما انتهيت(١).

ألا يحق للمرء أن يتأمَّلَ هذه الشخصيّة الفذَّة التي تربَّت في جوٍّ من البذخ والترف، ولم يكن يوماً مِمَّن يُعانون من الفقر، ويردُّ أربعة آلاف درهم أو ستة آلاف هي نصيبه من بيت المال كُلّ عام، كي يمسك بالخُوص ليضفره ويصنع منه أوعية ومكاتل للناس، وينفق في يومه دِرهماً واحداً؟!

وقد قال عنه أصحابه: كان عطاؤه خمسة آلاف، وكان أميراً على ثلاثين ألفاً من الناس، يخطب في عباءة، يفترش نصفَها، ويلبس نصفها، وكان إذا خرج عطاؤه أمضاه، ويأكل من سفيف يده(٢).

ونجد شدّة حُبِّه لرسول الله ﷺ في هذا الحوار، إذ قال له رسول الله ﷺ ذاتَ يوم: «يا سلمانُ لا تبْغَضْنِي فتفارقَ دِيْنَك»!! قال سلمان: يا رسول الله؛ كيف أبْغضُك وبك هدانا الله؟ قال «تبْغَضُ العربَ فَتبْغضُني»(٣).

---

(١) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٥١٨ ـ ٥١٩).
(٢) الطبقات (٤/ ٨٧) والحلية (١/ ١٩٨)، وأسد الغابة (٢/ ٤٢٠).
«سفيف»: نَسْج.
(٣) رواه الترمذي (٣٩٢٧) في المناقب وقال: هذا حديث حسن غريب، وأحمد (٥/ ٤٤٠).

أيّ حبّ هذا الذي كان في نفس سلمان للعرب ، وللنبي العربي صلوات الله عليه وسلم ، الذي شرَّفه بأن يكونَ من أهل بيته فقال: «سلمان منا آل البيت»!

وتأتي إنسانيّةُ هذا الرجل من خلال عِلْمِهِ وفطنته وذكائه ، فلا يتركُ صديقه أبا الدرداء دون أن ينصحه بعلمه ، فيمضي ذاتَ يوم جمعة قاصداً دار أبي الدَّرداء ، فيَسأل عنه أهله فتأتيه الإجابة بأنّ أبا الدرداء نائم ، فقال متعجباً: أهو مريض؟

قالوا: لا ، ولكنه إذا كانت ليلة جمعة أحياها فقام يصلي طوال الليل ، ثم يصبح صائماً.

فقال سلمان لأهل بيت أبي الدرداء: أعندكم طعام؟ قالوا: نعم.

فدخل وأيقظ صاحبه أبا الدرداء من النوم ، ثم جيء له بالطعام ، فقال له أبو الدرداء: تفضل؛ كُلْ طعامك!

قال سلمان رضي الله عنه: لا ، حتى تأكل.

ثم لم يزل به سلمانُ ـ رضي الله عنه ـ حتى أفطر وأكل معه ، ثم أخذه سلمان ، وانطلق به إلى رسول الله ﷺ ، فقصَّ عليه ما كان بينه وبين أبي الدرداء ، فابتسم النبي الكريم وقال لصاحبه أبي الدرداء وهو يضرب على فخذه: «عويمر. سلمان أعلم منك ، سلمان أعلم منك ، سلمان أعلم منك». ثم قال عليه الصلاة والسلام: «لا تخصنَّ ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولا تخصنَّ ليلة الجمعة بصيام من بين الأيام»(١).

وفي إنسانية سلمان السماحة والتسامح ، وكثيراً ما جلس إلى إخوانه صهيب بنَ سنان الرومي وبلال بن رباح ، وبينما هم جلوس ذات يوم مرَّ عليهم أبو سفيان في نَفَرٍ من رجاله ، فقال سلمان ـ رضي الله عنه ـ: ما أخذتْ سيوفُ الله من عُنِق عدوّ الله مَأْخَذها.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٤٤) بنحوه.

فقال أبو بكر ـ وكان حاضراً ـ لهؤلاء: تقولون هذا لشيخ قريش وسيِّدها!!

ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بما حدث. فقال ﷺ: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت رَبَّكَ».

فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتُكم؟

قالوا: لا يا أبا بكر، يغفرُ اللهُ لك(١).

هكذا كان متسامحاً، فيه سماحةُ الإسلام، وقد كانت سماحتُه وخُلُقه الكريم سلاحه عبر رحلة عمره المديد، فأحبَّ الناس، وأحبوه في الله من خلال هذه السجايا العظيمة.

وعلى سبيل المفاخرة يقترب منه سعد بن أبي وقاص ويقول له: انتسب يا سلمان ـ وقد كان العرب في الجاهلية يفاخرون بنسبهم ـ فقال سلمان: ما أعرفُ لي أباً في الإسلام، ولكني سلمانُ ابن الإسلام، فعلم عمر بن الخطاب بذلك، فلما لقي سعداً في طريقة، بادَره قائلاً: انتسب يا سعد.

فقال سعد: أنشدك بالله يا أمير المؤمنين، وكأنه عرف قصد عمر رضي الله عنه، ولكن عمر أبى أن يدعَ سعد بن أبي وقاص يمشي دون أن ينتسب، فكان أن انتسب سعد وذكر آباءه وأجداده في الجاهلية.

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ لقد علمت قريش في الجاهلية أن الخطاب كان أعزّهم، وأنا عمر ابنُ الإسلام، أخو سلمان ابن الإسلام، أما والله لولا شيء لعاقبتك، أو علمت أن رجلاً انتمى إلى تسعة آباءٍ في الجاهلية فكان عاشرُهم في النار؟(٢).

ولإنسانية سلمان مشاهد عظيمة تُناسبُ عظمةَ سيرته، ومن هذه المشاهد

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٦٤)، ومسلم (٢٥٠٤) في الفضائل: باب من فضائل سلمان، وهو في الاستيعاب (٤/ ٢٢٤).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٥٤٤).

ما رواه شيخ عجوز من بني عبس[1] قال: «أتيتُ السوق ، فاشتريتُ عَلَفاً بدرهم»، فرأى سلمان، ولم يكن يعرفه من قبل، فقال له: احملْ هذا العلف، فحمل العلفَ على كتفه ، ومضى الرجلُ أمامه وسلمان ـ رضي الله عنه ـ خلفه ، ولما مرَّ بقومٍ يعرفون سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال القوم لسلمان: نحملُ عنكَ يا أبا عبد الله!! فتساءل الرجلُ العبسي: ومن يكون أبو عبد الله؟ قالوا: ألا تعرفه؟ إنه سلمان صاحب رسول الله ﷺ، فنظر الرجل لسلمان قائلاً: لم أعرفك ، ضَعِ العلفَ لأحمله أنا ، ولكن سلمان رضي الله عنه رفض واستمر يحملُ العلفَ ويعين أخاهُ المسلم حتى أتى المنزل[2].

## المجاهد الأكبر

جَمَعَ عمرُ بنُ الخطاب أهلَ الرأي في المدينة ، فاجتمع إليه وجوهُ أصحاب النبي ﷺ وأعلامُ العرب ، وقال عمر في هذا الجمع الحافل: أحضروني الرأي.

تُرى ما هو الأمر الهام الذي جمع عمرُ من أجله وجوهَ الصحابة؟

لقد جاءت الأنباء بتجمُّع الفرس على حدود أرض المسلمين ، ودبَّروا مكائدَ لِلنَّيل من الإسلام والمسلمين ، فقد جيَّشُوا الجيوش ، وجاءت رسائلُ من قيادة المسلمين المواجهة للفرس وعلى رأسها المثنى بن حارثة الشيباني ـ قائد جيش المسلمين في مواجهة الفرس ـ تُنبىء بخطرٍ عظيمٍ قادم من جهة الفرس ، فرأس عمرُ بعد تمحيص هذه الأنباء أن يخرجَ بنفسه على رأس جيوش المسلمين ، ولكن الصحابة نهوا عمر عن ذلك ووقف عبد الرحمن بن عوف يقول: يا عمر ما فديتُ أحداً بأبي وأُمِّي بعد النبي ﷺ قبل يومئذٍ ولا بعده[3].

---

(١) عن أبيه ، انظر المصدر السابق (١/ ٥٤٦).

(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٨٨).

(٣) انظر تاريخ الطبري (٣/ ٤٨١).

ثم أضاف عبد الرحمن قائلاً: بأبي وأُمي أنتَ يا عمر! أقم بالمدينة وابعثْ جنداً فقد رأيتَ قضاء الله لك في جنودك قَبْلُ وبعدُ، فإنه إن يُهزم جيشُك ليس كهزيمتك، وإنك إن تُقْتل أو تُهْزَم في أنف الأمر خشيتُ ألاَّ يُكَبِّر المسلمون، وألاّ يشهدو أن لا إله إلاّ الله أبداً.

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: فأشيروا عليَّ برجل.

فقال عبد الرحمن ـ رضي الله عنه ـ: وجدتُه!

قال عمر: من هو؟

قال عبد الرحمن: الأسدُ في براثنه؛ سعد بن أبي وقاص.

وبينما هم في هذا الحديث جاءت رسالةٌ من سعد بن أبي وقاص، وكان على صَدَقات هوازن والياً من قبل عمر ـ رضي الله عنه ـ وجاء في رسالة سعد ردًّا على كتاب عمر طالباً منه النجدة، جاء فيها: «إنِّي قد انتخبتُ لك ألفَ فارس مُؤدٍ[1]، كلُّهم له نجدةٌ ورأيٌ وصاحبُ حَيطة؛ يَحُوطُ حريم قَومه، ويمنع ذمارهم[2]؛ إليهم انتهت أحسابُهم ورأيُهُم، فشأنَك بهم».

عند ذلك أجمع رأيُ أهل الرأي في المدينة، ممن حضروا هذا الاجتماع الهامّ الذي تقرَّر فيه إدارة أحداث هامة من تاريخ الإسلام.

وكتب عمرُ كتاباً إلى سعد يفضي له فيه خبر تولّيه حرب الفرس في العراق، جاء فيه: «إنِّي ولَّيتُك حَرْبَ العراق، فاحفظْ وصيَّتي، فإنك تقدِم على أمرٍ شديد كريه، لا يُخلِّص منه إلا الحقُّ، فعوِّد نفسك ومَن معك الخير، واستفتح به. واعلم أنَّ لكلِّ عادةٍ عَتاداً، فعتادُ الخير الصبرُ، فالصبرَ على ما أصابك أو نابك، يجتمع لك خشية الله. واعلم أن خشيةَ اللهِ تجتمعُ في أمرين: في طاعته وفي اجتناب معصيته؛ وإنَّما أطاعه مَن أطاعه ببغض الدُّنيا، وحُبِّ الآخرة، وعصاه مَن عصاه بحبّ الدنيا وبغض

---

(١) «مُؤد»: أي ذو أداة؛ أو كامل أداة السِّلاح.

(٢) «ذمارهم»: أي ما يريدون حمايته وحِفْظه.

الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً ، منها السرّ ، ومنها العلانية؛ فأمّا العلانيةُ فأنْ يكونَ حامدُهُ وذامُّه في الحق سواء ، وأمّا السّر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانِه ، وبمحبّة النّاس؛ فلا تزهد في التحبُّب ، فإنَّ النّبيِّين قد سألوا مَحَبَّتَهُمْ ، وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ عَبْداً حبّبه؛ وإذا أبغضَ عبداً بَغَّضه. فاعتبرْ منزلتَكَ عند الله تعالى بمنزلتِك عند الناس؛ مِمَّن يشرع معكَ في أمرك»[1].

خرج سلمان في قوّات سعد المجاهدة ، من المدينة إلى العراق ، وقد شيَّعهم عمر بن الخطاب بعد أن قام فيها خطيباً ، فدعاهم إلى العدل وقال: إنَّ مفتاحَ العدل هو الزهد ، فلا تصانعوا في الحقِّ أحداً.

ثم أمر سعداً بالمسير بعد أن نصحه بانتخاب أهل النَّجدة والرأي والقوة والعُدَّة.

توافدت جيوشُ المسلمين ، وتجمَّعتْ بقيادةِ سعدٍ على ماء بنجدٍ يسمى «شَراف». ومضى سعدٌ في طريقه إلى القادسية ، بعد أن عبّأ جيشَه تماماً ، فاستعمل زُهرة بن عبد الله على مقدِّمات الجيوش؛ واستعمل على الميمنة عبد الله بنِ المعتمّ ، وهو من أصحاب رسول الله ﷺ ، واستعمل على الميسرة شُرحبيل بن السِّمْط الكِندي ، وكان غُلاماً شابّاً في مقتبل العمر ، أبلى في حروب الردَّة بلاءً حسناً في عهد أبي بكر الصِّدِّيق ، وجعل عاصم ابن عمرو التميمي على السَّاقة ، وسواد بن مالك التميمي على الطلائع ، وعلى الرَّجْل حمّال بن مالك السدي ، وعلى الرّكبان عبد الله بن ذي السهمين الخثْعَمِيّ ، فكان أُمراءُ التعبية يَلُون الأمير ، وهو أميرُ الجيوش ، وأمراء الأعشار يَلُون أُمراء التعبية[2] ، وأصحاب الرايات يَلُون أمراء الأعشار ، والقواد رؤوس القبائل يلُون أصحاب الرايات ، وكان على القضاء عبدُ الرحمن بن ربيعة الباهليّ ، وجعل إليه قسمةَ الفيء والأقباض[3].

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩).

(٣) «الأقباض»: جمع قبض؛ وهو ما جُمِعَ من الغنائم.

ويأخذ سلمانُ الفارسي دوره القيادي في هذا اليوم العظيم ، فيصبحُ داعيةً لهذه الجيوش ورائدهم ، ومعه ترجمان هو هلال الهجَريّ ، وكاتب هو زياد بن أبي سفيان.

لله درُّك يا سعد ، أيّ علم عسكري وصَلَكَ في هذا الزَّمن المبكِّر ، فكان جيشُك على هذا التنظيم ، حتى تجعلَ سلماناً مديراً للتوجيه المعنوي ، كما يُسَمُّونه هذه الأيّام في تعبئة الجيوش! للهِ درُّك يا سلمانُ ففي الخندق شاركتَ بالمعول المبارك في الحفر ، وبشَّرك رسول الله بفتح هذه البلاد ودخولها ، وها أنت داعيةُ القادسية ورائد رجالها ووزير إعلامها ، أيّ جهاد أعظم من هذا!! إنَّه جهادُ السيف والقلم ، جهاد الفكر الإسلامي المستنير!

فرغ سعدٌ من تعبئة قوّاته ، وأعدَّ لكل شيء عُدَّته ، ولم يبدأْ هجومه قبل استئذان قيادته في المدينة ، فأرسل إلى عمر رسالته التي تقصُّ عليه أن جيوشَ المسلمين أصبحت جاهزةً لأداء مهمتها.

فجاء أمر القتال بالنصح والإرشاد يقول فيه عمر: «وتوكَّلْ على الله ، واستعنْ به على أمرك كُلِّه ، واعلم فيما لديك أنك تقدِمُ على أُمَّةٍ عددهم كثير ، وعُدَّتهم فاضلة ، وبأسهم شديد ، وعلى بلد منيع وإن كان سهلاً»[1].

ومضى سعد بعد أن تبادلَ رسائلَ طويلةً رائعةً لا يتَّسعُ لها المجال هنا. وأقام سعدٌ في القادسية شهراً ، ثم بعثَ عُيُوناً إلى أهل الحيرة ليعلموا له أمرَ الفرس ، فرجعوا إليه بالأخبار التي أرسلها على الفور إلى عمر ، فأمر عمر رضي الله عنه سعداً أن يُرْسِلَ رُسُلاً إلى ملك الفرس يدعوه إلى الإسلام أو الجزية. فأرسل إليه سعدٌ من وجوه المسلمين مَن لهم مَنْظَرٌ ومهابةٌ وأهل رأي ، فكان منهم: عاصم بن عمرو ، وعطاء بن حاجب ، والأشعث بن قيس ، وعمرو بن معد يكرب ، والمغيرة بن شعبة ، والنعمان بن مقرن ، وكانت قصته معهم ، الذي قال في نهايتها بعد حوار حادّ مع المغيرة بن شعبة وغيره من الرجال الذين أوفدهم سعد.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٩٠).

قال يزدجرد برعونة وصلف وغباء: ائتوني بوِقْرٍ من تراب. ثم قال: احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن؛ ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسلٌ إليكم رُستم، حتى يُدفيكم ويدفيَه[1] في خندق القادسية.

ثم قال: مَنْ أشرفُكُمْ؟ فسكت القوم، فقال عاصم بن عمرو، وتقدّم ليأخذَ التراب: أَنَا أشرفُهم، أنا سيِّد هؤلاء فحمِّلْنيه.

فقال يزدجرد: أكذاك؟

قالوا: نعم، فحمّله على عُنُقه، فخرج من الإيوان والدّار حتّى أتى راحلته فحمّله عليها، ثم انجذب[2] في السَّير، حتى دخل وصحبُه على سعد، وأخبروه الخبر، فقال سعد: أبشروا فقد أعطانا الله مفاتيحَ مُلْكِهم.

كانت غطرسةُ الفرس واضحةً بيّنة في ردِّ مَلِكهم، وعدم استجابة قائد جيوشهم رستم لرسل سعد التي أبت المفاوضة، وظنُّوا أنّهم أشدّ قوّة من هؤلاء الأعراب، وهم الحُفاة الجفاة في نظرهم، إذ كيف تُحدِّثهم أنفسهم بحرب جيش رستم والوقوف أمامه، وهو القوي الذي يستطيع هزيمة أي جيش؟!

وابتدأتِ المعركةُ طاحنةً، شديدةَ القوى، والمسلمون يدفعون شرَّ هؤلاء عن دِينْهم، مستعينين بالله، عاقدين العزمَ على النَّصر مهما كلَّفهم ذلك من ثمن.

وكان يوم «أرماث» يوم القادسية الأول يوماً عظيماً، دخل فيه رستم القتال ضد المسلمين بجيش قوامه مئة وعشرون ألف مقاتل تساعدهم أعدادٌ

(١) «يدفيكم ويدفيه»: أدفى الجريح: أجهز عليه.
(٢) «انجذب»: أي أسرع.

هائلةٌ من الفيلة الضخمة التي تحمل الرُّماة ، ولم يكن للمسلمين خبرة في قتالها ، ومرَّتِ الساعات وسلمان يشهدُ هذا اليوم العظيم الذي يذكره تاريخُ المسلمين والإسلام بالفخر والاعتزاز ، وكان اليوم الثاني الذي يُقال له يومُ أغواث.

وجاء اليومُ الثالث ، وكلٌّ جيش على موقفه ، فقد قُتِل من المسلمين ألفان ، ومن الفرس عشرةُ آلاف ، وقال سعد: من شاء تقدّم نحو الشهداء وليدفنهم بدمائهم. فأقبل المسلمون على قتلاهم لدفنهم ونقل جرحاهم ، وجاء مَدَدٌ للمسلمين بقيادة القعقاع بن عمرو ، ومع مطلع الشمس بدأت المعركةُ من جديد ، وصاحَ المسلمون مُكبِّرين قائلين: جاء المدد ، وجاء الفرسان وتقدَّموا ، وضرب عاصمٌ وشقيقه القعقاع بن عمرو الفيلةَ بالرِّماح في عيونها ، وضربوا مشافرها وهجم القعقاعُ في الهزيع الأخير من الليل على قُوَّاتِ الفرس ، ولما أطلَّ سعدٌ ، ورأى بطلَ المسلمين القعقاع يقاتل دون إذنٍ منه قال: اللهم اغفرها له ، وانصره ، فقد أذنتُ له وإن لم يستأذنّي.

واستطاع المسلمون بعد عناء أن يضربوا الفرسَ ضربةً شديدةً أتت على أشدّهم وأكثرهم قتالاً ، ثم استمرَّ القتالُ من أول النهار حتى أول نهار اليوم التالي ، قضى المسلمون يوماً كاملاً وليلة كاملةً في قتالٍ مستمّر حتى هزموهم شرَّ هزيمة.

وكان يومُ القادسية يوماً عظيماً في تاريخ المسلمين ، شهد انتصارهم على وثنية الفرس ومجوسيتهم.

وانطلق جيشُ المسلمين إلى «بَهُرَسير» ومعهم سلمانُ الفارسي ـ رضوان الله عليه ـ وفي طريقهم إلى «بَهُرَسير» دخل المسلمون قرية تسمى «المظلّم» وعندما دخلها سعد قرأ قول الله عزّ وجلّ ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤][1].

---

(١) كان الفرس يقولون عن كتيبتهم في «المظلم»: لا يزول ملك فارس ما عشنا ، فلما فُتِحت أجابهم سعد بهذه الآية الكريمة.

ومن «بَهُرَسير» كبَّر المسلمون كلما جاءت خيلٌ لهم ، واستطاع المسلمون بخيلهم أن يأسروا مئة ألف من الفلاحين ، فقال «شيرازاذ» ـ وهو أمير ساباط التي دخلها الفرس واستطاع المسلمون إخراجهم منها ـ قال شيرازاذ عن الفلاَّحين ولسعد: إنَّ هؤلاء ليسوا محاربين ، ولم يحرِّضوا عليكم فاتركوهم ، فتركهم سعدٌ له؛ بعد أن كتب عليه كتاباً بأسمائهم.

وكتب سعد يستشير عمر في أمرهم ويشرح له آخر الموقف العسكري فقال: إنَّا وردنا «بهرسير» بعد الذي لقينا فيما بين القادسية وبهرسير ، فلم يأتنا أحد للقتال ، فبثثت الخيول ، فجمعت الفلاحين من القرىٰ والآجام فانظر رأيك[1]. فأجابه عمر ـ رضي الله عنه ـ : إنَّ من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يُعينوا عليكم فهو أمانُهم ، ومن هَرَبَ فأدركتموه فشأنكم به.

ولما جاء كتابُ عمر خلّى سعدٌ عن أولئك الفلاحين ، ودعاهم إلى الإسلام أو الجِزاء ولهم الذمَّة والمَنَعة.

وبعد حصار لبهرسير دام شهرين ، استطاع سعدٌ أن يدخلها ، ومعه رجاله الأبطال ، وحاولوا عبور نهر دجلة فلم يجدوا جسراً يعبرون عليه ، ولم يجدوا سفناً تحملهم إلى البرّ الثاني ، وفي الليل وقبل أن يطلع النهار لاح للمسلمين إيوان كسرى ـ أو القصر الأبيض ـ فقال ضرار بن الخطاب: الله أكبر؛ أبيض[2] كسرى! هذا ما وعد اللهُ ورسولُه. وكبر سلمان الفارسي مع إخوانه المسلمين ، وتابعوا التكبير طوال الليل حتى أصبحوا.

وبعد دخول سعد «بهرسير» حاول أن يجدَ سُفُناً لعبور النهر إلى المدائن فلم يجد من يُوفِّر له هذه السفن ، إلا أنه استدلَّ على مكانٍ يخوضُ منه إلى الجانب الآخر ، فتردد في العبور.

وفي منامه رأى سعدٌ رؤيا أن خيولَ المسلمين اقتحمتها ، فعبرت ،

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٥).

(٢) «الأبيض»: قصر الأكاسرة بالمدائن ، كان من عجائب الدنيا ، ولم يزل قائماً إلى أيام المكتفي في حدود سنة (٢٩٠هـ).

فصحا من نومه عازماً على العبور تأويلاً لرؤياه ، وجمع الناسَ وبينهم سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ ثم قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

إنَّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه معه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا ، فانظروا شأنكم في سفنهم ، وليس وَراءكم شيء تخافون أن تُؤتَوْا منه ، فقد كفاكموهم أهلُ الأيَّام ، وعطّلوا ثُغورَهم ، وأَفْنَوْا رجالهم ، وقد رأيتُ من الرأي أن تبادروا جهاد العدوّ بنيَّاتكم قبل أنْ تحصركم الدُّنيا ، ألاَ إنِّي قد عزمتُ على قطع هذا البحر إليهم. فقال سلمان رضوان الله عليه ومعه جمع المسلمين: عَزَمُ اللهُ لنا ولك على الرُّشد ، فافعل.

ثم بدأ سعدٌ في العبور ودعا الناس ، ولكنه قال قبل البدء: «مَن يبدأ ويحمي لنا الثغر من الناحية الأخرى لكيلا يمنعونا من العبور؟

فخرج عاصم بن عمرو ، ومعه ستمئة من القوّات الخاصة وأهل النجدات ، وأمَّر عليهم سعدٌ عاصماً ، فسار عاصمٌ ، وما إن اقْترب من حافَّةِ النهر حتى رأى بعضهم يتردَّد ويخاف فتلا قول الله عزَّ وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ثم دفع فرسه وانطلق يقتحمُ النهر ، واقتحم إخوانُه النهرَ من خلفه ، وعلى الجانب الآخر اقتحم الفرسُ النهر لملاقاة عاصم وإخوانه ، فلما اقترب منهم عاصم ، وقد اقترب من الشّطّ الآخر لدجلة لأنه اقتحم قبلهم ، ونادى أصحابه: الرماح الرماح ـ أشرعوها وتوخَّوا العيون ، فطعنوهم في أعينهم ، فمن لم يُقتل أصيبَ في عينه فهربوا إلى الخلف ، وتقدَّم عاصمٌ فأقام على الثغر من الجانب الآخر.

رأى سعدٌ وجيشُ المسلمين كُلَّ هذا وهم على ضفة النهر لم يقتحموا بعد ، فلما رأى سعدٌ استقرارَ طلائع قواته على الجانب الشرقي أمر الناسَ بالعبور.

ووقف سلمانُ ـ رضي الله عنه ـ إلى جوار سعدٍ لحظة الاقتحام ، فلما

اقتحم سعد تبعه سلمانُ ـ رضي الله عنهما ـ وسايره في الماء فعامت بهما الخيلُ بينما سعدٌ يردِّد: حسبنا الله ونِعْمَ الوكيلُ ، والله لينصرن الله وليَّهُ ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمَنَّ الله عدوَّهُ ، إن لم يكن في الجيش بَغْيٌ أو ذنوب تغلب الحسنات.

فقال سلمان ـ رضي الله عنه ـ: الإسلام جديد ، ذُلِّلَتْ لهم والله البحور كما ذُلِّل لهم البحر؛ أما والذي نفسُ سلمان بيده لَيَخْرُجُنّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً.

ملأت الخيلُ نَهر دجلة حتى ما يرى الماءُ من الشاطىء ، ثم خرجوا من الماء ، والخيل تنفضُ أعرافها صاهلةً ، كأنها تكبِّر للنصر وتُهلِّل لهذا الفتح العظيم.

ودخل سعد المدائن ، ومعه سلمان الفارسي ، حتى أشرفَ على قصر كسرى الأبيض ، وحاصره من جميع الجهات ، فأطلَّ رجلٌ من القصر يريد أن يتحدَّث إلى واحدٍ من المسلمين ، فلم يكُ بين المسلمين من يعرف لغتهم غير سلمان ، فسأله الرجلُ عن شروط المسلمين فقال ـ رضوان الله عليه ـ: ثلاث؛ تختارون أيتهُن إن شئتم.

قال الفارسي: وما هي؟

قال سلمان رضي الله عنه:

* الإسلام ، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا.

* وإن أبيتم فالجزية.

* فإن أبيتم فمناجزتكم حتى يحكم اللهُ بيننا وبينكم.

فقبلوا الشرط الثاني ، وهو دفع الجزية عن يد وهم صاغرون ، وتقدَّم سَعْدٌ ففُتِحَ له الإيوان ، وخلفه سلمان الفارسي ، ودخل الناسُ القصرَ ، وجعل سعدٌ ينظر إلى جمال العمارة ، ويدهش مِمَّا يرى من أشياء عجيبة.

وجاء وقتُ الصلاة ، فارتفع صوتُ المؤذِّن لأول مرَّة في تاريخ هذا

القصر ، واصطفَّ الناسُ للصلاة ، وسعد أمامهم وجعل يتلو قوله تعالى من سورة الدخان:

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ .

وتحقّق ما قال النبي محمد ﷺ ، وفتح اللهُ على المسلمين هذه البلاد ، واستعادَ سلمانُ ذكريات سنوات وسنوات مضت منذ لقاء الرسول يوم الخندق ومشاركته جهاد المسلمين.

وأقام المسلمون بالمدائن ، إلا أنَّهم لم يجدوا في المدائن المكانَ الهادئَ المريحَ ، فلم يعتادوا هذا الغبارَ الشَّديد والذباب الكثيف ، الذي ملأ مدينة المدائن ، فأرسل سعدٌ حذيفةَ بن النعمان لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يشرحُ له ما آل إليه حالُ المسلمين في المدائن ، فجاء الردُّ من عمر رضي الله عنه: إنَّ العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان ، فابعث سلمانَ رائداً وحذيفة ، فليرتادا منزلاً بريّاً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحرٌ ولا جسر.

بعث سعدٌ سلمان الفارسيّ ـ رضي الله عنه ـ ومعه حذيفة للبحث عن مكانٍ صالح من البلاد.

وبعد جولة طويلة لسلمان وصاحبه ـ رضوان الله عليهما ـ استقر رأيُهما على الكوفة ، فكانت الكوفةُ هي المنزل ، ثم رجعا إلى سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ وأخبراه أنَّ الكوفة هي مستقرٌّ عظيمٌ للمسلمين .

خرج المسلمون إلى الكوفة ، ومضوا سريعاً بعيداً عن الغبار والذباب الذي ملأ المدائن في هذه الفترة ، واطمأن سلمان وسكن الكوفة ، لكن جاء اليوم الذي يصبحُ فيه سلمان حاكماً للمدائن.

## زواج مبارك

إنَّ قصَّة زواج سلمان ـ رضي الله عنه ـ تموجُ وتفيضُ بالفكاهة والجد ،

فكاهة جاءت من قلوب هؤلاء الصحابة التي امتلأت بالحبّ كُلٌّ منهم للآخر ، وفاض هذا الحبُّ وفاءً ، وقد عبَّر علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عندما كان يقال أن بينه وبين طلحة بن عبيد الله شيءٌ في النفس فيقرأ الآيات من سورة الحجر:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

ثم يقول: هكذا أنا وطلحة.

وسلمان وصاحبه أبو الدرداء كانا هكذا أيضاً ، فما إن اطمأنَّ سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ في الكوفة ، حتى عاد إلى المدينة مع من عاد منها من أصحابه ، وما إن وصلَ المدينة حتى كان في النفس شجون ، شجون يوم عظيم ، إنه يوم الخندق ، ومجلس رسول الله ﷺ ، وتلك الأيام الخوالي في زمن بشائر النَّصر وبزوغ نور الدعوة المباركة ، ومجلس المصطفى ﷺ.

وما إن خلا إلى نفسه ، وفرغ وجدانُه من هذا الطَّيف العزيز على نفسه من عبق الذكريات ، حتى سأل نفسه: ألا أُكمل الشطر الثاني من حياتي ، أما آن لي الزواج وقد مضى من العمر الكثير؟!

بحث سلمانُ الفارسي ـ رضي الله عنه ـ عن زوجة صالحة ، فوقع اختياره على امرأةٍ من بني ليث ، فانطلق إلى صاحبه أبي الدرداء ، فقصَّ عليه ما حدَّثَتْهُ نفسُه بها ، وطلب من صاحبه الذهابَ إلى بني ليث آل العروس لِيُحَدِّثهم عنه بما يراه فيه ويخطب له عروسه.

مضى الصاحبان إلى دار العروس ، وتقدَّم أبو الدرداء ليخطبَ لصاحبه ، وما إن انفرد بوالد العروس وحدَّثه في أمر سلمان ، ورغبته في الزواج من ابنته ، وأنه رجل له فضائل ومناقب ، وهو صاحب رسول الله ﷺ ثم صمت أبو الدرداء ينتظر جوابَ والد العروس.

وكانت المفاجأة ، قال والد العروس: أمّا سلمان فلا نزوِّجه ، ولكنا نزوّجك أنت. . . !!

تعجَّبَ أبو الدرداء من حديث والد العروس ، ولكن إصراره كان مثيراً للدهشة في نفس أبي الدرداء ، ولم يخرجْ أبو الدرداء من دار هذا الرجل حتى خطب ابنةَ الرجِل. . . !!

خرج أبو الدرداء إلى صاحبه سلمان ، وكان سلمان في انتظار صاحبه بشوق ولهفة ، فما إن رآه خارجاً حتى قال: أبشر يا أبا الدرداء ماذا تم؟ خيراً إن شاء الله.

سكتَ أبو الدرداء ، وأرتج عليه الموقف ، وتلعثم ولم ينطقْ بكلمةٍ واحدةٍ.

تعجَّبَ سلمانُ ـ رضي الله عنه ـ وقال: ماذا حدث يا صاحبي ، لماذا لا تتكلم يا أبا الدرداء؟

قال أبو الدرداء: لقد حدثَ شيءٌ لم أكنْ أتوقَّعه ولا أستطيع أن أذكره لك.

فقال سلمان: وما ذاك؟

صمت أبو الدرداء قليلاً ثم سرد القصة على صاحبه ، وحدَّثه في حياءٍ شديد عمَّا دار بينه وبين رجل بني ليث أبي العروس.

فقال سلمان ـ رضي الله عنه ـ وقد علت وجهه ابتسامة مشرقة: أنا أحق أن أستحي أن أخطبها منك وقد قضاها اللهُ لك.

ولكنَّ الله قضى لسلمان أن يتزوَّدَ من قبيلة كندة ، فلما كان يومُ الزفاف مشى معه بعضُ أصحابه حتى أوصلوه إلى بيت امرأته ، فلما بَلَغَ داره قال لهم: ارجعوا آجركم الله.

ودخل سلمان داره فوجده مملوءاً بالفراش الوثير الجميل والمتاع النفيس الغالي الثمن ، فهنا بُسُط غالية الثمن ، وهناك منضدة رائعة ، وهذه آرائك نفيسة.

ما إن رأى سلمانُ الفارسي ـ رضوان الله عليه ـ هذا المتاع حتى قال لأصهاره: ما هذا؟ أمحمومٌ بيتكم قد أصابته الحمى أم تحوَّلت الكعبةُ إليه. . !!

ثم أمر سلمان ـ رضي الله عنه ـ أن تنزع كُلّ الستر إلا ستار البيت، ودخل سلمان حجرة امرأته، فوجدها مفروشة بمتاع كثير، فقال: لمن هذا؟

قالوا: متاعك ومتاع امرأتك.

فقال لهم: ما بهذا أوصاني خليلي رسول الله ﷺ، لقد أوصاني أن لا يكون متاعي من الدنيا إلا كزاد الرَّاكب.

ثم نظر حواليه فوجد بعضَ النِّسوة، فالتفت إليهن وقال: هل أنتن مخلياتٍ بيني وبين امرأتي؟

فقامت النساء عندئذٍ، وخرجن تاركاتٍ سلمان لزوجه، فأغلق سلمان بابه وأرخى الستر، وقال لزوجه: هل أنت مطيعتي في شيء آمرك به؟

قالت: نعم يا سلمان، جلستَ مجلسَ مَن يطيع.

فقال سلمان لزوجه: أوصاني خليلي رسول الله ﷺ إذا اجتمعتُ إلى أهلي أن أجتمع على طاعة الله ثم قام فتوضَّأ، وقامت معه امرأته، وبعد أن أسبغا وضوءهما صلَّيا عدة ركعات سويّاً.

ثم قاما إلى ليلة طيبة هانئة، أصبحا على إثرها يتقبَّلون تهنئة الأصحاب، ومباركتهم هذا الزواج السعيد الذي أضفى على حياة سلمان سعادةً ما بعدها سعادة.

ويبادر أحدُ أصحاب سلمان والبسمةُ تشرق على وجهه، وعلى كلّ الوجوه، يبادر سلمان بالسؤال: هيه يا أبا عبد الله. . كيف وجدت أهلَك؟

لم يجب سلمان على سؤال صاحبه وأعرض عنه، فكرَّر صاحبه السؤال قائلاً: كيف وجدت أهلك يا أبا عبد الله؟

التفت سلمان الفارسي رضوان الله عليه إلى صاحبه وقد امتقع وجهُه بعلامات الغضب، وقال لصاحبه: إنما جَعَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ السُّتُورَ والأبواب

لتواري ما فيها ، حسب امرىءٍ منكم أن يسألَ عما ظهر له ، فأما ما غاب عنه فلا يسألن عن ذلك ، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المتحدثان عن ذلك كالحمارين يتسافدان على الطريق».

وصمت صاحبه وقال بعضهم: صدقت يا سلمان ، صدقت وانصرفوا جميعاً بعد أن هنَّؤوا صاحبهم بزواجه المبارك الطيب ، وبدأت رحلةُ وُدٍّ بين سلمان وزوجته الكندية.

## أمير المدائن

جاء كتابُ أمير المؤمنين وسلمان في المدائن؛ قد اتَّخذَ له منزلاً ومستقراً ، جاء كتابُ عمر بن الخطاب لسلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ يولّيه إمارة المدائن ، وما كان سلمان ـ رضي الله عنه ـ يحبُّ الإمارة؛ إلاَّ أنَّ نفسه عادت إلى أعماق الماضي البعيد ، وهتف هاتفُ الطَّيف بهتاف حبيبه وصاحبه محمد ﷺ عندما ضرب الصخرة فخرج من بين ثنايا صدعها الكبير وَهجٌ عالٍ مضيءٌ ، فهتف ﷺ قائلاً: «الله أكبر أُعطِيتُ مفاتيحَ فارس ، ولقد أضاءَ لي منها قصورُ الحيرةِ ، ومدائن كِسْرَى ، وإنَّ أُمتي ظاهرة عليها».

ذلك رَجْعٌ بعيدٌ؛ جاء من المدينة ليجد صداه قريباً ما زال يتردَّدُ في جنبات قلب سلمان ـ رضوان الله عليه ـ.

لعلّه صلّى شاكراً ، وخشع عابداً ، وامتلأت عيناه بالدموع عندما مرَّ أمامه طيفُ هذه الأيام وصاحب هذه الأيام ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وحمد الله سبحانه وتعالى على ما آتاه من فضله ، فمن عبدٍ يُباع في سوق الرقيق إلى أمير على المدائن كُبرى بلاد فارس!

وعرف سلمانُ ـ رضي الله عنه ـ جيِّداً أنَّ حمد الله على نعمته وشكره يكونُ في تواضعٍ عظيم يُبديه للناس كما يخفيه في نفسه الزَّكيّة ، ومن حَمْدِه

لله وشُكْرِه أن يكونَ بأهل المدائن رقيقاً ، رحيماً ، سمحاً غير متكبّر ولا متجبّر.

ومن ذلك أنه ترك راتبه وعطاءه من بيت المال ، وكان قرابة الخمسة آلاف درهم؛ تركهُ للفقراء والمساكين فما إن يجيء هذا العطاءُ حتى يأخذه ، ويقوم بتوزيعه عليهم ، ولا يُبقي غير درهم واحد يشتري به خُوصاً ، فلما سأله سائلٌ عن سبب شرائه الخوص قال: «أشتري خُوصاً بدرهم فأعمله فأبيعه بثلاثة دراهم ، فأعيد درهماً فيه ، وأنفق درهماً على عيالي ، وأتصدق بدرهم. ولو أن عمر بن الخطاب نهاني عنه ما انتهيت»[1].

وعندما يجيءُ الطعام أمامه كان يقول: الحمد لله الذي كفانا المؤونة ، وأحسن الرِّزق.

وفي إمارة المدائن يدخل رجلٌ على سلمان ـ رضي الله عنه ـ وهو يعجنُ فقال الرجل وقد أصابته الدهشة: أين الخادمُ؟ فقال سلمان: بعثناها لحاجة فكرهنا أن نجمع عليها عَمَلين[2].

كان صاحب ذاكرةٍ قويّةٍ ، ونفسٍ طيِّبة ، ومما ذكر الرواةُ في ذلك أن رجلاً هبط المدائنَ ذاتَ يومٍ ، ولم يكُ يعرف سلمان من قبل ولم تجمعه به صلةٌ من صلات التَّعارف ، وبينما كان الرجلُ سائراً في الطريق إذ رأى رجُلاً لابساً ثوباً قديماً ممزَّقاً يصنعُ خُوصاً في يده أمام منزل ، وما إن التقت عينا الرَّجُلَيْن حتى أشار صاحبُ الثوب القديم إلى الرجل قائلاً: مكانك يا رجل. . مكانك يا عبد الله.

وقف الرجل مكانه مبهوتاً ، وهرول سلمانُ ـ رضي الله عنه ـ صاحب الثوب القديم المهلهل إلى داخل الدار مسرعاً ، ثم عاد بعد لحظات وقد لبس ثياباً بيضاً ، فأقبل على الرجل وأخذ بيده مصافحاً ، ثم قال: مرحباً مرحباً يا أخي ، مرحباً بك. فتعجَّب الرجل قائلاً: ما رأيتك قبل اليوم ،

---

(١) الطبقات (٤/ ٨٩).

(٢) المصدر السابق.

ولا عرفتني ولا عرفتك!! فقال سلمان: بلى والذي نفسي بيده لقد عرفتْ روحي روحَك حين رأيتك ، ألست الحارث بن عميرة؟

فأجاب الرجل في دهشة: نعم.. أنا هو ذا..!!

فقال سلمان ضاحكاً: فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الأرواح جنودٌ مجنَّدة ، ما تعارفَ منها ائتلفَ ، وما تناكر منها اختلف»(١).

وقد أحبَّ أهلُ المدائن سلمان الفارسي حبًّا شديداً ، حتى أنهم كانوا يتمنّون سماعَ حديثه ، وها هو يتوجَّه ذاتَ يوم إلى أحد المساجد ليؤدي المفروضة ، وتسامعَ النَّاسُ أنَّ سلمانَ أميرهم بالمسجد ، فتوافدوا على المسجد جماعات ، ووحداناً ، حتى زاد عددُهم على الألف ، وهو عددٌ كبير في ذلك الزمان ، وما إن انتهى سلمان من صلاته حتى شاهدَ النَّاسَ وقد ملؤوا المسجد ، وأدرك أنهم جاؤوا لسماعه ، فأحبَّ أن يلقي عليهم موعظةً تُفيدهم ، فرفع يده مشيراً ثم قال: اجلسوا... اجلسوا.

جلس الناس واطمأنـوا ، وخيَّم على المسجد صمتٌ شديدٌ ، فكلّ مَنْ في المسجد أرهفَ السَّمْع للاستماع إلى حديث أمير المدائن سلمان الفارسي ، ولكنه ـ رضوان الله عليه ـ استفتح بقراءة سورة يوسف وأخذ يتلوها آيةً بعد آية ، وظنَّ الناس أنه يفتتح حديثه ، ولكن سلمانَ ـ رضي الله عنه ـ لم يتوقَّفْ ، وظلَّ يتلو سورةَ يوسف ، فأخذ الناس ينصرفون من المسجد واحداً تلو الآخر حتى لم يَبْقَ في المسجد إلا قليلٌ ، وعندئذٍ ختم سلمان قراءته ثم قال: الزخرف من القول أردتم ، قرأتُ عليكم كتابَ الله فذهبتم.

وكان ذلك درساً عظيماً من دروس سلمان الفارسي رضي الله عنه.

ظلَّ سلمان أميراً على المدائن طوال حياة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وما إن مات عمر وتولَّى الخلافةَ بعده عثمان بن عفان ، ـ رضي الله عنهما ـ حتى أرسل عثمان أميراً غيره على المدائن ، فعاد سلمان إلى المدينة ، بعد

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والبخاري مُعلقاً.

أن أدَّى دوره العظيم ، أميراً له تواضعٌ أدهش أهلَ المدائن ، وله حديثُ عالمٍ لا يَمَلُّ منه المستمعُ، وله عِلْمٌ واسعٌ عرفه جيداً أهلُ المدائن.

وفي هذه السنوات الطويلة لم يَنْسَ صاحبه أبا الدرداء ، كما أن أبا الدرداء لم يتوقَّفْ عن مراسلته ودوام السؤال عنه ، فكانت أرواحهما كثيراً ما تتلاقى ولو تباعدت أجسامهما.

## من أقواله العظيمة

شهد أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعلم سلمان ، فقد روى أنَّ الناس قد اجتمعوا عنده ذات يوم ، فكان أن سأله أحدهم: يا أمير المؤمنين حدِّثنا عن أصحابك.

فقال علي رضي الله عنه: عن أيّ أصحابي؟

قالوا: من أصحاب محمد ﷺ.

قال: كلُّ أصحاب محمد ﷺ أصحابي ، فعن أيِّهم؟

قالوا: عن الذين رأيناك تلطفهم بذكرك ، والصلاة عليهم دون القوم ، حدِّثنا عن سلمان.

فقال علي رضي الله عنه: مَن لكم بمثل لقمان الحكيم ، ذلك امرؤ مِنّا وإلينا ـ أهل البيت ـ أدْرَكَ العلمَ الأول والعلم الآخر ، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر ، بحر لا ينزف.

هكذا أوجز علي بن أبي طالب عِلْمَ هذا الرجل بأنه علم شامل عميق غزير غزارة البحر ، لذلك فقد آثرنا أن نسجِّل لسلمان الفارسي ـ رضوان الله عليه ـ كلمات تتَّسم بحكمة قائلها وعلمه.

قال سلمان يوماً: إنَّ العبد إذا كان يدعو الله في السَّرّاء فنزلتْ به الضَّرّاءُ فدعا ، قالت الملائكة: يا ربّ صوت معروف من آدمي ضعيف ، فيشفعون له. وإذا كان لا يدعو الله في السَّرّاء فنزلت به الضراءُ ، فدعا قالت الملائكة: صوتٌ منكرٌ من آدمي ضعيف ، فلا يشفعون له.

ومن أقواله أيضاً: إذا كان الليلُ كان النّاسُ منه على ثلاثة منازل: فمنهم مَنْ له ولا عليه، ومنهم مَنْ عليه ولا له، ومنهم من لا عليه ولا له! فقلت: وكيف ذاك؟ قال: أما مَنْ له ولا عليه، فرجل اغتنم غفلةَ الناس وظلمةَ الليل، فتوضَّأ وصلَّى، فذاك له ولا عليه، ورجل اغتنم غفلةَ الناس، وظلمة الليل، فمشى في معاصي الله، فذاك عليه ولا له، ورجل نام حتى أصبح، فذاك لا له ولا عليه[1].

ويكتب أبو الدرداء يوماً لسلمان فيقول: سلام عليك، أما بعد؛ فإن الله رزقني بعدَك مالاً وولداً، ونزلتُ الأرض المقدسة.

فكتب سلمان لصاحبه يقول: اعلم أنَّ الخيرَ ليس بكثرةِ المال والولد، ولكن الخير أَنْ يَعْظُمَ حلمك، وأن ينفعَك علمك، وإنَّ الأرض لا تعمَلُ لأحد، اعمل كأنَّك تُرى، واعدد نفسك من الموتى[2].

وعندما قال أبو الدرداء: هلمَّ إلى الأرض المقدسة. كتب إليه: إنَّ الأرض لا تُقدِّس أحداً، وإنما يُقدِّسُ الإنسانَ عَمَلُه، وقد بلغني أنكَ جُعلت طبيباً تداوي فإن كنت تُبرىء فَنعِمّا لك، وإن كنت متطبِّباً فاحذر أن تقتُلَ إنساناً فتدخل النار، فكان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين، ثم أَدْبَرا عنه، نظر إليهما، وقال: ارجعا إلي أَعيدا عليَّ قصَّتكما، مُتطبِّبٌ، والله[3].

ولما كان يبغضُ الإمارة قبل تولِّيه المدائن سأله سائل يوماً: يا أبا عبد الله ما الذي يُبَـغِّضُ الإمارةَ إلى نفسك؟

فأجاب قائلاً: حلاوة رَضاعها، ومرارة فطامها.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٥٥٠).

(٢) انظر المصدر السابق ص ٥٤٨.

(٣) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٧٦٩) في الوصية، باب جامع القضاء وكراهيته. «لا تقدِّس أحداً»: لا تطهِّره من ذنوبه ولا ترفعه إلى أعلى الدرجات. «طبيباً»: أي قاضياً يُبرىء من الأمراض المعنوية.

## فـي وداع الأمـيـر

في خاتمة سيرته ، وفي وداعه نُسجِّل هذا الحوار بين سلمان الفارسي ـ رضوان الله عليه ـ وبين عبد الله بن سلام اليهودي الذي دخل الإسلام.

قال سلمان: أخي عبد الله ، أيُّنا مات قبل صاحبه فَلْيَـتَراءَى له.

قال عبد الله: أو يكون ذلك؟

قال سلمان: نعم إنّ نسمةَ المؤمن مخلّاةٌ تذهب في الأرضِ حيث شاءتْ ونسمةُ الكافر في سجْنٍ.

ولما مات سلمان قال عبد الله: بينا أنا نائم بنصف النهار على سريرٍ لي فأغْفَيْتُ إغْفاءةً إذ جاء سلمان فقال: السلام عليك ورحمةُ الله ، فقلت: السلام عليك ورحمة الله أبا عبد الله ، كيف وجدتَ منزلك؟ قال: خيراً ، وعليك بالتوكل ، فَنِعْمَ الشيءُ التَّوكُّل ، وعليك بالتوكل فنعم الشيء التوكل ، وعليك بالتوكل فنعم الشيء التوكل[١].

وذات يوم قام سعد بن أبي وقاص بزيارة لسلمان الفارسي رضي الله عنهما وهو مريض ، فما إن دخل سعدٌ حتى بكى سلمان وهو في فراشه ، وقال: والله ما أبكي جَزَعاً من الموت ، ولا حِرْصاً على الدُّنيا ، ولكنَّ رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً.

فقال: «ليكن حظُّ أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب» وها أنذا حولي هذه الأساود[٢].

ثم نظر إلى سعد ناصحاً فقال: وأمَّا أنت يا سعدُ فاتَّقِ الله في حكمك إذا حكمتَ ، وفي قسمك إذا قسمت ، وعند همك إذا هممت[٣].

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٩٣).

(٢) الأساود: هي الأشياء الكثيرة.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٥٥٢).

وتقول زوجُه وكان اسمها نُـقَـيْرة ، أنه لما حضرته الوفاة قال لها : افتحي هذه الأبواب ؛ فإنَّ لي زُوَّاراً لا أدري من أيّ هذه الأبواب يدخلون عليَّ.

ثم دعا بمسكٍ فقال : اخلطيه في التَّنُّور ، ثم انضحيه حول فراشي ، ثم تركته زوجته ومضت ، وما إن عادت حتى وجدته قد فارق الحياة.

رحم الله أبا عبد الله ؛ فقد كان مثابراً في سعيه لحقيقة اقتنع بها ، وآمن بها ، وتحمّل في سبيلها المشاق.

* * *

عصر الصحابة
(٦)

# الشهداء السبعة

توفيق

| | |
|---|---|
| إياس بن أوس | عمرو بن أوس |
| أنس بن أوس | الحرث بن أوس |
| شهيدا اليمامة: عمير ومالك | عامر بن أوس |

# مقدمة

الحمدُ لله رب العالمين ، الملك الحق القويّ المتين ، والصلاة والسلام على سيِّد المجاهدين ، محمد بن عبد الله النَّبي الأمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له يُخْشَى ، ولا نظير له يُرتجى .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله مصباح الدُّجى .

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه في النهار إذا ضحى ، والليل إذا سجى .

أما بعد :

فإنَّني ممَّن أحبُّوا سيرةَ الأنصار ، وعكفوا على الدرس والبحث في كنوزها ، وهؤلاء هم الذين بهروا ناظريَّ بوفائهم ، وعطائهم ، ونصرهم للإسلام .

وقد وجدتُ في سيرتهم كنوزاً لا تنتهي ، ومن كنوز وفائهم اخترتُ هذه الأسرة ، أسرة الشهداء السبعة .

إنهم بطنٌ من بطون الأنصار ، حلفاء النبي ، وشهداء الأنصار .

إنهم سبعةُ أشقاء ، أبناء أوس بن عبيد بن عبد الأعلم بن عامر ، وهم : إياس ، وأنس ، ومالك ، وعمير ، والحارث ، وعمرو ، وعامر .

سبعتهم أبناء أبٍ واحد ، شهدوا أُحُداً وما بعدها ، وكُلُّهم قُتِل شهيداً .

فَقُتِل إياس يوم أُحُد .

وقُتِل أنس يوم الخندق .

وقُتِل مالك وعمير يوم اليمامة.

وقُتِل عمرو يوم جسر أبي عبيد الثقفي.

وقُتِل عامر يوم الحرّة.

وإنَّني أعتزُّ ـ شأني شأن أيّ قارىء مسلم ـ أن أرى إخوة سبعة يموتون، كلهم شهداء، في سبيل دينهم، ودعوة نبيِّهم. وحسبي أن أقول ذاكراً قوله عزَّ وجل: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزِدْنا علماً يا أرحم الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

**عبد المنعم الهاشمي**

# (١)
# إيـاس بـن أوس

## مشهد في البداية

دارت المعارك يوم أحد عنيفةً قاسية ، وكان أقسى مشاهدها هذا المشهد الذي قُتِلَ فيه حمزة بن عبد المطلب ، عم النَّبي ﷺ ، عندما انكشف عنه الدرع ، فطارت حَربةُ وحشي بن حرب؛ لتستقرَّ في أحشائه ، وتخرج من الخلف فَيُسْتَشْهد أسدُ الإسلام حمزة بن عبد المطلب ، ويصيب المسلمين هزيمةٌ ، هي بمثابة امتحان للمسلمين ، فلا يركنوا إلى أنفسهم أبداً.

وقد حدَّث القرآنُ بمشاهد هذا الحدث العظيم ـ يوم أُحد ـ فقال عز وجل:

﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

تلك الآيات التي نزلت عندما أقبل أبو سفيان بن حرب منتصراً ، فلما أشرف على المسلمين ، وقد حملت له الأخبارُ الكاذبةُ مقتلَ محمد ﷺ ، فلما أشرف عليهم قال بصوت عالٍ يعلوه الزَّهْو والكبرياء: أفي القوم محمد؟.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا تجيبوه ، لا تجيبوه».

ثم صاح أبو سفيان مرة أُخرى: أفي القوم ابنُ أبي قحافة؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تجيبوه».

ثم صاح أبو سفيان: أفي القوم ابنُ الخطاب؟.

فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه».

ثم التفت إلى أصحابه فقال: أمَّا هؤلاء فقد قُتلوا ، ولو كان أحياء

لأجابوا ، فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه أن قال: كذبتَ يا عدوَّ الله ، قد أبقى الله لك ما يخزيك! .

فصاح أبو سفيان بأعلى صوته: اعْلُ هُبَل! اعلُ هُبل!! .

فقال رسول الله ﷺ: «أجيبوه» .

فقالوا: ما نقول يا رسولَ الله؟ .

قال عليه الصلاة والسلام: «قولوا: الله أعلى وأجلّ!» .

فقالوا بصوت عال: الله أعلى وأجل .

قال أبو سفيان: ألاَ لنا العُزى ، ولا عُزَّى لكم! .

فقال رسول الله ﷺ: «أجيبوه» .

فقالوا: ما نقول يا رسول الله؟ .

فقال عليه الصلاة والسلام: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم!» .

فقالوا ذلك .

قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر ، والحرب سِجال[1] .

انتهى هذا المشهدُ الذي بيَّن خلاصةَ الموقف في أُحُد؛ الذي كان إياس الأشهلي أحد أبطاله .

* * *

## مشهد ما بعد البداية

بعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب ، فقال: «اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون! فإن كانوا قد اجتنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فهم يريدون

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٢٦) .

المدينة؛ فوالذي نفسي بيده! لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأناجزنَّهم»[1].

خرج عليٌّ في آثارهم ينظر ما يصنعون؛ فلما اجتنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، توجَّهوا إلى مكة، فلما رآهم عليٌّ قد توجَّهوا إلى مكة أقبل يصيح:

ما أستطيع أن أكتم الذي أمرني به رسول الله ﷺ لما بي من الفرح... رأيتهم انصرفوا إلى مكة.

كانت هذه هي بدايةُ النهاية ليومٍ عصيب في تاريخ المسلمين، فكما ذاقوا حلاوةَ النصر وهم مستضعفون في بدرٍ، ذاقوا مرارة الهزيمة يوم أُحُد. وفصَّل القرآن هذا المشهدَ عند ثلاثة مواقف هي قوله تعالى عن إقبال أبي سفيان إليهم، ومناداته لهم:

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

والغم الأول: ما فاتهم من الغنيمة والفتح، عندما ترك الرماةُ مواقعهم أعلى الجبل: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٣] أي: من الغنيمة.

والغم الثاني: ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٥٣] أي: من القتل حين تذكرون[2]، فقد شغلهم أبو سفيان بقدومه، وحواره معهم.

* * *

## مشهد النهاية

الرسول عائد إلى المدينة، وقد أشرف على دخولها، قافلاً من أُحُد... امرأةٌ تعدو في اتجاه رسول الله... من هي يا ترى؟ قال سعد بن معاذ

(١) المصدر السابق (٢/ ٥٢٧).
(٢) انظر تفسير الآيات في تفسير الطبري (٧/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨).

لرسول الله ، وقد أمسك بلجام فرسه: يا رسول الله! أمي... أُمي تُقْبل علينا.

فقال رسول الله ﷺ لسعد: «مرحباً بها يا سعد... مرحباً بها».

دنت أُمُّ سعد من رسول الله ﷺ ، فتأملت في وجهه لتتأكَّد منه أهو محمد ، أم رجل غيره.

فعزَّاها رسول الله ﷺ في ابنها عمرو بن معاذ؛ الذي استشهد مع غيره في أُحُد ، ومنهم إياس بن أوس الأشهلي.

فقالت أُمُّ سعد: أمَا إذ رأيتك سالماً فقد اشتويت المصيبة[1].

فقال عليه الصلاة والسلام: «يا أُم سعد! أبشري وبشِّري أهل القتلى أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً ، وقد شفعوا في أهليهم جميعاً»[2].

قالت أم سعد: رضينا يا رسول الله! ومن يبكي عليهم بعد هذا؟! اُدع يا رسول الله لمن خلفوا بعدهم.

فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم أذهب حزنَ قلوبهم ، واجبرْ مصيبتهم ، وأحسن الخلف على مَن خلفوا».

ومضى رسولُ الله ﷺ في طريقه ، حتى مرَّ ببيوت الأنصار ، فوقف أمام ديار بني عبد الأشهل عندما سمع نساءهم يبكين قتلاهم: أزواجهن ، وأبناءهن ، وإخوتهم ، ومنهم بيت أوس الأشهلي.

فقال عليه الصلاة والسلام متأثراً وقد ذرفت دموعه: «ولكن حمزة لا بواكي له».

فأمر سعد بن معاذ نساءه ونساء الأنصار أن يذهبن إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين حمزة ، بين المغرب والعشاء.

---

(١) أي: استوعبتها.

(٢) السيرة الحلبية (٢/ ٢٥٤).

ما إن فرغ رسولُ الله ﷺ من صلاة المغرب حتى سمع البكاء ، فقال: «ما هذا؟».

فقيل له: نساء الأنصار يبكين حمزة.

فقال عليه الصلاة والسلام: «رضي الله عنكن ، وعن أولادكن». وأمر أن تُرَدَّ النساء إلى منازلهن ، فرجعت نساءُ الأنصار ، وبينهن نسوةُ أهل إياس بن أوس الأشهلي.

تُرى ما قصة استشهاد هذا الرجل بعد هذه المشاهد؟ هذا ما سنعرض له إن شاء الله تعالى.

* * *

## قصة خروج إياس إلى المعركة

*** استكرهْنا رسول الله:**

خرجت قريش بجيشها يوم أُحُد ، ومَن تبعها من بني كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا جميعاً يحتملون نساءهم في هوادجهن ، التماساً للحفيظة ، وتشجيعاً لهم لئلا يفرُّوا أمام المسلمين ، كما حدث في بدر.

وخرج أبو سفيان بن حرب ـ وهو قائد الناس ـ مصطحباً زوجه هند بنت عتبة ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأُم حكيم بنت الحارث ، وخرج الحارث ابن هشام مصطحباً زوجه فاطمة بنت الوليد ، وكذلك غيرهم.

وأقبلوا جميعاً حتى نزلوا بجبل أُحد على ناحية وادٍ قريبٍ من المدينة.

فلما بلغ النبيَّ ﷺ خبرُ خروجهم ، وعرف أنهم نزلوا حيث نزلوا ، قال النبي ﷺ للمسلمين:

«إني رأيت ـ والله ـ خيراً ، رأيت بقراً تُذْبَح ، ورأيتُ في ذُبَاب سيفي ثلماً ، ورأيت أني أُدْخلتُ يَدي في دِرْع حصينة ، فأوَّلتها المدينة؛ فإذا رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مُقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها».

وقف بعضُ المسلمين ، وقد كان إياس قريباً منهم ، وقالوا: يا رسول الله! أُخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنَّا جَبُنَّا عنهم ، وضَعُفْنا.

إلا أنَّ المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول أراد أن يثبط عزيمة المسلمين ، ويجعل من نفسه صاحب رأي أمام النبي محمد ﷺ ، فقال:

يا رسول الله! أقم بالمدينة ، ولا تخرج إليهم ، فوالله! ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب مِنَّا ، ولا دخلها علينا عدوٌّ إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله! فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مَجْلِس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجالُ في وجوههم ، ورماهم النساءُ والصِّبيانُ بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

ولكنَّ بعضَ المسلمين ، أنصاراً ومهاجرين ، ممَّن أحبُّوا لقاء قريش ، ما زالوا برسول الله ﷺ حتى دَخَلَ بيته ، فلبس درعه ، ثم خرج ، فلما رآه إياس بن أوس الأشهلي ومعه المسلمون وأهله من بني عبد الأشهل ندموا ، وقالوا:

بئس ما صنعنا! استكرهنا رسول الله ﷺ ، وليس ذلك لنا ، أَنُشير على النبي والوحي يأْتِيه من ربه؟!.

وقام الناسُ وفيهم إياس الأشهلي ، فاعتذروا لرسول الله ﷺ ، وقالوا:

يا رسول الله! اصنع ما رأيت.

فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لنبي إذا لَبِسَ لأمته أن يضعها حتى يُقاتلَ».

وضمن ألف رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خرج إياس بن أوس الأشهلي في كوكبة من رجال بني عبد الأشهل ، أهله ، وعشيرته ، وأنصار رسول الله ﷺ ، خرجوا لنصرة دينه ، وإعلاء كلمة الحق ، ورأوا بأنفسهم كيف كان عبد الله بن أبي ابن سلول يكره هذا الدين ، ويُسرِف في النفاق ، فما إن وصلوا إلى الشوط ـ وهو مكان بين أُحُد والمدينة ـ حتى رأوا ابن أبي

ابن سلول قد انخذل عن الرسول ، ورجع بثلث الناس قائلاً: أطاعهم فخرج وعصاني ، والله ما ندري عَلاَم نقتُل أنفسنا ها هنا!!.

لم يثنِ إياساً الأشهلي وأصحابه ، فساروا نحو هدفهم ، ومضى رسولُ الله على وجهه ، حتى نزل الطريق المؤدي إلى جبل أُحُد على حرف الوادي ، فجعل ظهره وجنوده إلى جبل أحد ، وأمر عبد الله بن جبير ، ومعه خمسون رجلاً من الرُّماة ، بالوقوف على الجبل لحماية ظهر الجيش من الخلف ، وأمَّر عليه الصلاة والسلام عبد الله بن جبير قائلاً: «انضح الخيل عنَّا بالنبل ، لا يأتونا من خَلْفِنا ، وإن كانت لنا أو علينا فاثبتْ مكانك ، لا نؤتين من قِبَلِك».

وظاهرَ رسولُ الله بين دِرْعَين ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عُمير.

وبدأت المعركة بمناوشات كثيرة ، على أن ما يهمنا هنا هو دور إياس الأشهلي وعشيرته بني عبد الأشهل في غزوة أُحُد.

*** بنو عبد الأشهل يوم أُحُد:**

كان للبيت الأشهلي الأنصاري يوم أُحُد دور عظيم ، بما فيه من مشاهد ومواقف تأخذ بالنفس ، وتسلب الفؤاد. فأوَّل أشهلي أخذ بالنفس وبهر العقل ذلك الرجل المعروف باسم عمرو بن أقيش الأشهلي.

*** من الجاهلية ، إلى الشهادة ، إلى الجنة:**

كان لعمرو بن وقش (أُقيش) الأشهلي ربا في الجاهلية ، وكَرِه أن يدخل الإسلام ، حتى جاء يوم أحد ، وخرج الأشهليون المسلمون للذَّود عن دينهم ، فما إن جاء عمرو من خارج المدينة ، ودخل ديار بني عبد الأشهل ، فلم يجد أحداً في مجلسه المعتاد ، فقال:

أين بنو عمي؟.

قالوا: خرجوا لملاقاة المشركين في أُحُد.

قال: فأين أوس بن إياس؟.

قالوا: بأُحُد أيضاً.

فلبس عمرو بن وقش درعه، وتسلَّح بسيفه ورمحه، وركب فرسه، ثم توجَّه قبلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك يا عمرو! أين أنت ذاهب؟.

فقال عمرو: إني قد آمنتُ.

ودارت معركة أُحُد، وكان قتالاً بطولياً أدهش من خلاله عمرو بن وقش كلَّ المحيطين به من المهاجرين والأنصار، وبني عمومته الأشهليين.

ومن النَّاس مَن قال: إنه قاتل حميّةً لقومه، فجاء سعد بن معاذ وقال لأخته: سليه: أحميّة لقومه، أم غضباً لله ورسوله؟ فجاء ليدافع عنهما.

اقتربت منه أختهُ وسألته قائلة: أتقاتل لله ورسوله، أم حمية لبني عبد الأشهل؟.

فقال: بل لله ورسوله. فمات فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة.

*** الشقيقان الجريحان:**

هما رافع بن سهل بن عمرو الأشهلي، وشقيقه عبد الله بن سهل بن عمرو الأشهلي، وعندما سمعا نداء الجهاد من رسول الله ﷺ خرجا مع أبناء عمومتهم وفيهم إياس بن أوس الأشهلي، وقاتلوا ببسالة شديدة، فاستشهد أبناء عمومتهم، ولم يفوزا بالشهادة، وإنما أصيب كلٌّ منهما إصابة خطيرة ظلَّا يتطببان منها زمناً، ولكن نداء الجهاد لم يمهلهما حتى يعالجا جراحهما ممَّا أصابهما، ويتحدَّث رافع فيقول عن ذكرياته في هذا الشأن:

شهدتُ مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لي، هو عبد الله بن سهل، فرجعنا من أُحُد جريحين، فلما أذَّن مؤذنُ رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو ـ يوم حمراء الأسد ـ قلت لأخي وقال لي: أتفوتُنا غزوة مع رسول الله ﷺ! والله مالنا من دابَّةٍ نركبها، وما منَّا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جُرْحاً منه(١).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٣٤).

فكنتُ إذا غُلِبَ أخي وأصابه تعبٌ حملتهُ نوبةً حتى يستريحَ ، ومشى هو نوبة حتى أستريح أنا مِن حَمْله ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه رسول الله ﷺ والمسلمين ، وهي منطقة حمراء الأسد على بُعْد ثمانية أميال من المدينة ، فأقام بها ﷺ ثلاثاً: الإثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة.

أيُّ نفرٍ هؤلاء الذين خرجوا للجهاد مع رسول الله ﷺ ، وجرحهم النافذ من جهاد سبق ينزف نزفاً شديداً!!.

أيُّ رجالٍ هؤلاء الذين لا يرضون لأنفسهم أن تفوتهم غزوة مع رسول الله ﷺ!!.

ما كان لهم من دابة يركبونها ، فمثلهم كمثل إخوتهم الراكبين مَن غيرِ سقم ولا جرح.

أيُّ صنفٍ هذا من رجال زمن رسول الله ﷺ!!.

وأيّ مدحٍ يكفيهم؟! لن نزكيهم ، فقد زكَّوا أنفسهم ، وسجَّلوا أسماءهم في سجل التاريخ الإسلامي ، فكانوا إطاراً جميلاً لصورة المجاهدين والشهداء من أنصار رسول الله ﷺ.

لقد كتبوا لبني عبد الأشهل سطوراً لن ينساها التاريخ ، ولن تهملها الذاكرة ، ذاكرة المؤمنين... إنها حقاً قدوة المسلمين عبر دورة الزمان.

## العجوزان المجاهدان

كانا شيخين عجوزين ، خرجا مع النساء والصبيان لكبر سنِّهما ، وهذا نهج المسلمين (النساء والأطفال وكبار السن يكونون في مؤخرة الجيش للمساعدة والتمريض).

قال الشيخ الأشهلي العجوز لصاحبه وحليفه ، وقد رأى القتالَ يشتدُّ بين أبطال الإسلام والمشركين ، ممَّن أرادوا إطفاء نور الإسلام ، ولكن هيهات.

قال العجوز الأشهلي لصاحبه: لا أبا لك! ما تنتظر؟.

قال له صاحبه: لا أنتظر شيئاً.

فنظر إليه العجوزُ الأشهلي قائلاً في إصرار وبطولة:

ما بقي لنا يا صاحبي من العمر إلا قليلاً، صدِّقني ما بقي لواحدٍ مِنَّا من عمره إلا ظِمْء حمار (وليس في الدواب أقصر ظمأً من الحمار، يرد الماء كل يوم في الصيف مرتين).

ثم أضاف العجوز الأشهلي قائلاً لصاحبه وحليفه: إنَّما نحن هامة اليوم أو غداً. . . . سنموت اليوم أو غداً؛ أفلا نأخذ أسيافنا، ثم نلحق برسول الله ﷺ، لعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ؟!.

حمل الشيخان العجوزان أسيافهما، ثم خرجا من جمع النساء والصِّبيان خِفيةً حتى لا يراهما أحَد، ثم دَخَلا في جمع المسلمين، ولم يعلم بهما أحد. وبدا كلٌّ منهم رافعاً سيفه يضرب تارة ويطعن بالرمح تارة أخرى، لقد ذاقا حلاوة القتال والنصر، أمَّا أوَّلهما وهو الشيخُ العجوزُ الأشهلي، فقد رآه المشركون فحملوا عليه، وتكاثروا، فاستشهد، وفاز بالشهادة، وأما الآخر فقد ظنَّه المسلمون مشركاً، فاختلف عليه أسيافهم فقتلوه، وهم لا يعرفونه، فصرخ ابنه الصحابيُّ الجليل والمجاهد الكبير قائلاً: أبي! إنه أبي!.

فقال المسلمون: والله ما عرفناه[1] وكانوا صادقين.

فقال ابنهُ الصحابي الجليل: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين! فأعطاه رسول الله ﷺ «دية أبيه» فتصدَّق بها على الفقراء، ممَّا زاده حُبّاً عند رسول الله ﷺ.

ترى مَن هما العجوزان الشهيدان المجاهدان؟ إنهما: ثابت بن وقش بن زعوراء الأشهلي، والثاني هو: حُسيل بن اليمان، والد الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ الذي تصدَّق بالدية على فقراء المسلمين.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٣٠).

## استشهاد إياس

كان القتالُ يدور على أشدِّه ، وإياس بن أوس الأشهلي يبارزُ خصمه فيقتله ، ويدفع رمحه إلى الأمام ، فينغرس في بطن كافرٍ جاء لمحاربة الإسلام ، وراح لواء المشركين يتساقط من أيديهم من شدة ما أبلى المسلمون بلاءً حَسَناً.

هُزِمَ المشركون ، ورأى هزيمتَهم جماعةُ عبد الله بن جبير ـ رماة الجبل ، الذين كلَّفهم رسول الله ﷺ حماية ظهر المسلمين من فوق الجبل ـ فقال الرماةُ بعضهم لبعض: هلمُّوا فأدرِكوا الغنيمة قبل أن يسبقنا إليها أَحَدٌ. . . وتركوا أماكنَهَم ، فخلُّوا ظهور المسلمين للخيل.

وجاء الكفَّارُ من خلف المسلمين ، فانكشفوا ، وأصاب منهم المشركون ، وصرخ صارخٌ يقول: إنَّ محمداً قد قُتِل؛ فانكَفَأَ المسلمون ، وانكفأ عليهم الكفار ، وخلص العدوُّ إلى رسول الله ، فَرُمِي بالحجارة حتى وقع فأُصيبت رباعيته ، وكُسِرت ، وشجّ وجهه ، فجعل الدَّمُ يسيلُ على وجهه ، وجعل يمسحُ الدم عن وجهه ، ويقول: كيف يُفلح قومٌ خضَّبوا وَجْهَ نبيِّهم بالدم ، وهو يدعُوهم إلى الله عزَّ وجل؟! فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

ودخلت حلقتان من حَلَق الدرع في وجنتيه فانغرسا فيهما ، ووقع عليه الصلاة والسلام في حفرةٍ ، وغشيه القوم.

فقال عليه الصلاة والسلام: «مَن رجل يشري لنا نفسه؟» أي: يبيع نفسه من أجل الدفاع عنا.

فصرخ سبعة من الأنصار بينهم إياس الأشهلي وقالوا: نحن يا رسول الله! نحن فداكَ يا رسول الله ﷺ.

كان إياس الأشهلي على رأس الأنصار يقاتل خلف زياد بن السكن ، وتحامل الكفار عليهم فسقط زياد أمام إياس مضرجاً بدمائه جريحاً ، يوشكُ

على الشهادة ، ثم نظر إلى جواره ليرى ابن عمه عتيك بن التيهان الأشهلي يسقط شهيداً ، ونظر خلفه فإذا رسولُ الله ﷺ يوشك رهطُ الكفار أن يصلوا إليه ليصيبوه بأذى ، إلا أنه اندفع مقاتلاً يصرخُ بأعلى صوته : الله أكبر . . . الله أكبر ، فزلزل هذا الجمع ، وجعله يتراجعُ عن رسول الله ﷺ ، وهذا كلُّ ما ابتغاه إياس بن أوس ـ رضوان الله عليه ـ .

تقدَّم إياس بصعوبة ، وتساقط خلفه خمسةٌ من الأنصار على رأسهم زياد بن السكن كلهم صرعى أمام رسول الله ، فتكاثرت عليه السيوفُ والرماح حتى سقط الفارس من فوق جواده شهيداً ، وقد أخلد إلى راحةٍ عظيمةٍ بعدما انتقل إلى دار القرار . . إلى الجنة ، ونعم عُقْبى الدار .

ووقف جوادُه ينتظر فارساً أشهلياً آخر يمتطيه ، كي يضربَ كتائب الكفر القادمة ؛ التي تريدُ أن تنالَ من رسول الله ﷺ ، ومن دعوته السامية العظيمة .

وانضمَّ إياس الأشهلي إلى مجموعة شهداء وأبطال بني عبد الأشهل في يوم أُحُد العظيم ، فكان الشيخ العجوز والفتى المقبل على ربيع عمره! .

فقد استشهد في هذا اليوم من الأنصار من بني عبد الأشهل : عمرو بن معاذ بن النعمان الأشهلي ، والحارث بن أنس بن رافع ، وزياد بن السكن الأشهلي ، ورافع بن ثابت بن وقش ، وعمرو بن ثابت بن وقش الأشهلي ، وعتيك بن التيهان ، وبطلنا المجاهد أول شهيد من الشهداء السبعة : إنه إياس بن أوس بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن زعوراء الأشهلي .

رحمه الله ، ورضي عنه ، وتقبَّله شهيداً في زمرة الصِّدِّيقين .

## البكاء والمشاركة

وصل النبأ بني الأشهل في المدينة ، وعاد منهم مَن عاد من غزوة أُحُد ، فبكوا شهداءهم ، وبكت نساؤهم هذا العددَ من الشهداء ، وبكى أشقاء إياس الستة شقيقهم إياس ، شهيد الإسلام .

ولما مرَّ عليهم رسول الله ﷺ وسمع بكاءهم قال كلمته الحزينة المشهورة: «ولكن حمزة لا بواكي له».

فما إن علمتْ نساءُ بني الأشهل بمقولة الرسول الحزينة هذه ، حتى ذَهَبْنَ عقب صلاة المغرب إلى بيت رسول الله ﷺ ، وجعلن يبكين حمزة ، ويواسين رسول الله ﷺ.

فلما رجع الرسولُ ﷺ من الصَّلاة شكر لهن مشاركتهن ، ودعا لبني عبد الأشهل دعاءً طيباً ، وعادت النسوةُ إلى دورهنَّ ، يبكين في صمت وحزن شهداءهن ، وعلى رأسهم إياس بن أوس الأشهلي.

رحم الله إياساً ، فقد ضرب مثلاً عظيماً في البطولة ، وكان أول شهيد بين إخوته السبعة ، الذين سيلحقونه في الجنة إن شاء الله تعالى.



# (٢)

# أنـس بـن أوس

قال ابنُ قدامة المقدسي في كتابه «الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار»:

«إياس، وأنس، ومالك، وعمير، والحارث، وعمرو، وعامر: سبعتهم أولاد أوس بن عبيد بن عبد الأعلم بن عامر بن زعوراء، شهدوا أُحُداً وما بعدها، وكلهم قُتِلَ شهيداً، فقتل إياس يوم أُحُد، وقتل أنس يوم الخندق رماه خالد بسهم فقتله، وقتل مالك وعمير يوم اليمامة، وقتل الحارث يوم أجْنادين، وقُتِلَ عَمْرو يوم جسر أبي عبيد الثقفي والد المختار، وقتل عامر يوم الحرة».

مضى عامان على استشهاد إياس شقيق أنس، فقد استشهد يوم أُحُد، واسترجع إخوتُه الستة عندما ذكروه صباح هذا اليوم، فقد نادى المنادي للخروج... نادى منادي رسول الله أن المدينة سَتُحاصَر بأهل الشرك بعد قليل، فهيا اخرجوا لنحفر خندقاً في شمال المدينة لمواجهة الكفار.

كان ذلك اليوم العظيم يوم أنس بن أوس، فقد حان وقت الشهادة والفوز، فيقول الشهيد: فزت ورب الكعبة... فزت ورب الكعبة... واليوم يوم فوز أنس، فإلى هناك.

## الخندق

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

يُعتبر أنس الأشهلي الرجل الثاني الذي نال الشهادة من أبناء أوس الأشهلي السبعة ـ رضوان الله عليهم ـ ولا نحسبه ميتاً، بل نؤمن بأنه حيٌّ يُرزق في جنات النعيم، شأنه شأن الشهداء؛ الذين قُتلوا في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

مضى الرجل في صحبة النبي محمد مؤمناً، وقد صحَّ إيمانه، ومسلماً وقد صَدَقَ إسلامه، لم يتردَّد، فالخطر يُداهم مدينة الإسلام، ولم يمنعه استشهاد أخيه إياس في غزوة أحد منذ فترة زمنية وجيزة من العمل بنشاط، فأيُّ حياة تُقبَلُ وعلى الطريق هوان أو جاهلية؟.

أي عيش يطيب وحصون الشرك تعلو، وأصوات الباطل تجلجل؟.

لا بدَّ من دكِّ حصون الشركِ، وإسكات هذه الأصوات الباطلة، ليعلو صوت الحق، وبناء العدل، ودعوة اصطفاها الله، وداعية أمين، على خُلُق عظيم، هو محمد بن عبد الله خاتم المرسلين.

كان ذلك عندما أخرج اليهود ما بداخلهم من الحقد، يقصدون مكّة كي يؤلّبوا قريشاً على محمد ﷺ، فدعوهم إلى حرب رسول الله، وقالوا لهم: إنا سنكون معكم حتى تستأصل شأفة المسلمين.

فقالت لهم قريش: يا معشر يهود! إنكم أهل الكتاب الأول، وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، فديننا خير أم دينه؟.

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

انشرحت صدورُ قريش من هذا الحديث المنافق، الذي أثلج صدورهم التي لم تُشْرح أبداً، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله، واجتمعوا لذلك، واستعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غَطَفان، فدعوهم إلى حرب المسلمين، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليهم، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، فأجابوهم.

وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان، ونزعت غطفان وقائدها عيينة بن حصن الفزاري، وخرجت بنو مرة وقائدهم الحارث بن عوف، وخرجت أشجع بقيادة مسعر بن رُخَيْلَة.

سمع رسولُ الله بكيدهم ، وعرف ما أجمعوا عليه من الأمر ، فكَّر ، وتدبَّر ، وشاور أصحابه ، وانتهى الرأيُ إلى فكرة حَفْر خندق حول المدينة. . . وعمل فيه بنفسه ، ومعهُ كلُّ الأنصار والمهاجرين بما فيهم إياس بن أوس الأشهلي ، وعمل معه المسلمون حتى أحكموه.

ولما فرغوا منه خَرَجَ رسولُ الله في ثلاثة آلاف من المسلمين ، جعلوا ظهورهم إلى سَلْع ، وضربوا عسكرهم هناك ، وأمر بالأطفال والنساء فجعلوا في الحصون.

وأقبلت قريش في عشرة آلاف مشرك ، تمكَّنوا من حصار المدينة ، بعد أن أكمل المسلمون حَفْر خندق عميق يحيطُ بشمالها ، بحيث لا يتمكن الأحزاب من اجتيازه.

وكان خالد بن الوليد قائداً لكتيبة من المشركين ـ إذ لم يسلم بعد ، ولم يدخل الإسلام ـ وحاول خالد اختراق الخندق فظلَّ يصولُ ويجول بخيله ويناوش المسلمين.

وكان على الجانب الآخر «أنس بن أوس» يمسك برمحه وسهام نبله ، فهو أحد رماة المسلمين الأشاوس.

وكان خالد يناوش المسلمين، ويقدم رماته فيرمون المسلمين ويحاول أن يجدَ مضيقاً في الخندق يقحم خيله منه، فلما لم يفلح، وفشل في اقتحام الخندق.

قال أتباعه من المشركين: إن هذا لمكيدة ما كانت العرب تصنعها[1].

رأى خالد بن الوليد رامياً لم يعهده من قبل ، ما أخطأت رميته أبداً ، فهي تقع في عنق مشرك ، أو في قدم كافر ، فيصرخ على أثرها من أعماقِه. تُرى من هذا الرامي الذي أجاد الرمي؟ أمُهاجر أم أنصاري؟ فليس من المعقول أن يكون يهودياً ، وقد حالفونا على قتال محمد ، وألَّبوا القبائل عليه.

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٨) طبعة دار صادر ـ بيروت.

راقب خالد جيداً هذا الفارس ، فهو أحد الذين أفسدوا الهجوم الأول لاختراق الخندق بِنبالهم ورماحهم.

وفي يوم طويل هاجمت كتيبةٌ من المشركين بقيادة خالد بن الوليد مواضعَ المسلمين من الصباح وحتى الليل ، وكان هجومُهم بدرجةٍ من الشدة بحيث شغلوا النبي ﷺ وأصحابه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ولكن هجومَ خالد هذا لم ينجح[1].

ولكن خالد بن الوليد كان قد نجح في رمي أنس بن أوس الأشهلي الذي هرع إليه إخوتهُ الخمسة الباقون ، وهم: عامر ، وعمير ، والحارث ، ومالك ، وعمرو. . . لم يمهلهم أنس فقد نطق بالشهادة ، وفاز بها ، وخرج من دنياهم في حفلٍ رائعٍ لن يفهمه إلاّ الذين عاشوه.

وقد حدَّث عن الفوز مؤمنُ آل ياسين حينما قُتِل شهيداً دفاعاً عن دينه ، وإيماناً بكلمة الحق ، التي صدح بها في وجوه المبطلين ، وهم أهل قريته ، فعندما أُمِر له بدخول الجنة تمنَّى أن يرى قومه هذه الحياة العظيمة ، والإحساس الغامر بالسَّعادة على إثر المغفرة ودخول الجنة.

جاء ذلك على لسانه في القرآن ، يقول عز وجل: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ ـ ٢٧].

غفر الله لأنس ، وأدخله جنته ، فقد قُتِل شهيداً دفاعاً عن دينه.

وقد كان ذلك في السنة الخامسة من هجرة رسول الله ﷺ.

أما خالد بن الوليد ، فقد كرَّ ليلاً في خيلٍ من المشركين يطلبون غرّة من المسلمين ، وغفلة ، بعد أن قتل منهم الرماة عدداً كبيراً ، فناوشوهم ساعة ، ولكنّ هجوم خالد الليلي لم ينجح أيضاً ، وعند ذلك عاد رسول الله ﷺ إلى قبَّته ، فأمر بلالاً فأذَّن ، وأقام الظهر فصلَّى ، ثم أقام بعد كل صلاة إقامة ، وصلَّى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات.

---

(١) المصدر السابق.

رحم الله أنس بن أوس الأشهلي الأنصاري ، الذي أبلى بلاءً حسناً ، وكان الشهيد الثاني من بين أبناء أوس الأشهلي الأنصاري السبعة.

* * *

# (٣ و٤)

# شهيدا اليمامة

# عمير ومالك

أرْسَلَ مسيلمةُ الكذاب رسالةً إلى رسول الله ﷺ مفادها: «من مسيلمة رسول الله! إلى محمد رسول الله. سلامٌ عليك.

أمَّا بعد؛ فإني قد أُشرِكْتُ في الأمر معك، وإنَّ لي نصف الأرض، ولقريش النصف الثاني، ولكن قريشاً قوم يعتدون».

وقد سبق هذا الرسالة لقاءٌ بين رسول الله ﷺ ووفد بني حنيفة، من أهل اليمامة، حينما قدموا على رسول الله ﷺ مُسلمين، وتركوا مسيلمة بن حبيب في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه، فقالوا: يا رسول الله! إنا قد خلَّفنا صاحباً لنا في رحالنا، وفي ركابنا، يحفظها لنا.

فأمر له رسولُ الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم، وقال: أما إنه ليس بشرِّكم مكاناً. ثم انصرفوا، وجاؤوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتدَّ، وتنبَّأ لهم، وقال: إني قد أُشركت في الأمر معه!! وقال لمن كان معه من وفد بني حنيفة: ألم يقل لكم محمد حين ذكرتموني له: أَمَا إنه ليس بِشَرِّكم مكاناً؟!.

وما ذاك إلاَّ لأنه كان يعلمُ أَني قد أُشرِكْتُ في الأمر معه. ثم جعل يسجع لهم الأساجيع.

وكتب إلى الرسول ﷺ رسالته المستنفرة التي صدَّرناها في أوَّل حديثنا هذا... وحَمَلَ هذه الرسالة رسولان من قِبَلِهِ، فلما قَدِما على رسول الله ﷺ، قال لهما النبيُّ حين قرأ كتاب سيدهم مسيلمة:

فما تقولان أنتما؟.

قالا: نقول بمثل ما قال.

فقال عليه الصلاة والسلام: أما والله لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَل لضربتُ أعناقكما.

ثم كتب ﷺ إلى مسيلمة كتابه العظيم:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذَّاب: سلامٌ على من اتبع الهدى، أمّا بعد: فإن الأرضَ لله يورِثها من يشاءُ من عبادِه، والعاقبة للمتقين».

جرى هذا الحديثُ مجرى النار في الهشيم على سرعته، فبلغ أهل المدينة جميعاً أنصاراً ومهاجرين، وسمعه أيضاً بنو عبد الأشهل، ومنهم: عمير، ومالك ابنا أوس الأشهلي، وغَلَى الدم في عروقهما من قُبْح هذا الكذَّاب ودناءته، وتمنَّوا لو أنهما حملا سيفيهما، ومضى كلٌّ منهما إلى هذا الرجل فقتله شرَّ قتلة، وأراحا الناسَ من كذبه، ودجله.

وأصبحت أمنية في النفوس قد تتحقق على أيديهما في حياةِ رسول الله ﷺ، لكن الأجل المحتوم عاجَلَ محمّداً ﷺ، فمات قبل أن يُحقّق الشقيقان أُمنية عزيزةً على النفس، غالية على الفؤاد، لكن الصدِّيق أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ كان أعجل منهما في تحقيق هذه الأمنية، فما إن مات رسول الله ﷺ حتى بعث الصدِّيقُ السرايا والجنود إلى المرتدين عن دين الله في كل مكان، وعَرَض عليهم: إمَّا الإسلام، وإما الجزية وهم صاغرون.

فقد أمّر أبو بكر الصديق بطلاً من أبطال المسلمين، هو عكرمة بن أبي جهل، بالمسير إلى مسيلمة الكذاب، وأتبعه ببطل آخر هو شُرَحبيل بن حسنة.

مضى الجيشان يسبق بعضُهما بعضاً، ولم يكن بين جنودهما الأشهليان: عمير ومالك بن أوس الشقيقان، اللذان فَقَدا أخويهما: إياساً، وأنساً في أُحد والخندق على التوالي، وتمنَّى كلٌّ منهما لو لحق بشقيقيه في الجنة، عندما ينالان شرف الشهادة في سبيل الله، ولكن يجيء دورُهما فيما بعد.

كان مسيلمةُ الكذاب قد اشتدَّ أمرهُ في الوقت ذاته، والتفَّ حوله أربعون ألف مقاتل من بني حنيفة باليمامة.

فسار عكرمة إلى اليمامة مسرعاً ، ولم يَر أن ينتظر صاحبه شرحبيل؛ ليكون له فخار النصر ، وهو البطل المجرّب ، والفارس المغوار ، ونظر عكرمةُ حوله ، فوجدَ أنه قد اجتمع في لوائه أبطال لهم في الحروب بلاءٌ حَسَن ، واندفع عكرمةُ في المسير دون انتظار لمدد صاحبه شرحبيل بن حسنة ، طمعاً في الاستحواذ على شرف النصر ، لكن مسيلمة الكذاب انتظره في الطريق بأربعين ألف مقاتل ، بينما رجال عكرمة أقلّ من ذلك بكثير ، فلم يثبتوا أمام جحافل الكفار ، واستطاع بنو حنيفة إرجاعهم إلى الوراء.

ولما علم شرحبيل بن حسنة بهزيمتهم أقام بالطريق ليعيدَ حساباته.

وكتب عكرمة بن أبي جهل لأبي بكر الصديق كتاباً بالذي أصاب جنده؛ مما أثار غضبَ خليفة المسلمين أبي بكر - رضي الله عنه - فكتب إلى عكرمة بن أبي جهل يقول:

يا بْنَ أُم عِكْرِمة! لا تَرْجِعَنَّ لتوهِنَ الناس؛ امضِ إلى حُذيفة وعرفجة ، فقاتِل أهْل عُمَان ومَهْرَة ، ثم تسير أنتَ وجندك حتى تلْقَى المُهاجر بن أبي أُمَية باليمن وحضرموت.

وكتب أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - إلى شرحبيل بن حسنة يأمره بالانتظار مكانه حتى يأْتيه أَمْرهُ.

وأعدَّ أبو بكر الصديق جيشاً قوياً بقيادة خالد بن الوليد ، فأَرسله إلى مسيلمة ، وقد تكون جيش خالد بن الوليد من جناحين كلاهما يتميز عن الآخر بما حوى من أبطال رجال لهم في الجهاد باعٌ طويل ، فالأنصار بقيادة ثابت بن قيس والبراء بن عازب ، وفي جنودهما: عمير ومالك ابنا أوس الأشهليان ، وعلى المهاجرين أبو حذيفة ، وزيد بن الخطاب ، وعلى كل قبيلة رجل منها.

وأصدر أميرُ المؤمنين الأمر التالي لقوات شرحبيل بن حسنة المنتظرة بالقرب من اليمامة ، جاء فيه:

إذا قدم عليك خالد ، ثم فرغتم إن شاء الله ، فالحق بقُضاعة ، حتى تكون أَنْتَ وعمرو بن العاص على مَنْ أَبىٰ منهم وخَالَف.

خرج الجيش من المدينة يملأ الآفاق ، ويَسُدُّ الطرقات ، لا يسمع منه إلا صوت حوافر الخيل ، وخفاف الإبل ، وهمس المسبِّحين على خيلهم ، والتالين لكتاب الله الكريم ، كان الطريقُ طويلاً استهله عمير بتلاوة آيات القرآن بصوت مسموع ، بينما أنصت مالك لتلاوة أخيه ، وقد سرح ببصره بعيداً ، وهو يرى المدينة بمبانيها البسيطة ، ونخيلها الباسق ، تتوارى بعيداً ساكنة حزينة.. فما يزال الحزن يخيِّم عليها ، فلم يمض الكثير من الزمن على فراق المصطفى ﷺ ، وانتقاله إلى الرَّفيق الأعلى ، وما إن مات عليه الصلاة والسلام حتى عثا المنافقون في الأرض فساداً ، فظنوا أنه بوفاة محمد ﷺ قد انتهى الإسلام ، فارتدوا ، وردّتهم نفاق كبير ، ومِن دواعي ردَّتهم أنهم امتنعوا عن دفع الزكاة ، ومنهم من ادَّعى كذباً أنه نبيٌّ مكلَّف برسالة كرسالة محمد ، ودعوة كدعوته.

ومضى الركب في طريقه ، بينما مالك صامت لا يتكلم في شيء ، اللهم إلا هذا الصوت الذي يسمعه من شقيقه عمير ، فيه حلاوة القرآن ، وجمال أسلوبه ، وحُسن كلماته ، حتى وصل عمير إلى الآية الكريمة:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥].

حسبي أن مالكاً قد خانته العَبْرة ، وسقطت دمعةٌ على خدّه ، فقد تذكَّر رجلاً يسمى «نهار». ونهارٌ هذا كان قد هاجر إلى النبي ﷺ ، وقرأ القرآن ، وفَقُهَ في الدين ، وأصبح عالماً فيه ، وعرف أصول الإسلام ، فبعثه الرسول ﷺ معلِّماً لأهل اليمامة ، يفقههم في الدين ، ويعلِّمهم أصوله ، ويشدُّ من عزائم المسلمين هناك.

ولكن نهاراً أصبح منافقاً وأكثر خطراً على المسلمين هناك من مسيلمة نفسه ، فقد شهد لمسيلمة أمام الناس أنه سمع محمداً ﷺ يقول: إنه قد أُشرِك معه ، فصدقه القوم واستجابوا له..!!.

أي: أن النبي ﷺ صرَّح أمام الكفار بأن له شريكاً في الرسالة..!! وهذا افتراء ما بعده افتراء... افتراء على الرسالة وعلى صاحب الرسالة.

وسخر مالك ـ وهو في أفكاره هذه ـ من هذا الرجل الذي يقال له: «طليحة النَّمري» والذي ذهب إلى اليمامة فقال: أين مسيلمة؟.

فقالوا له: مه رسول الله!.

قال: لا، حتى أراه.

فلمَّا جاء قال له: من يأتيك؟.

قال مسيلمة: رَحْمان.

قال طليحة: أَفي نور، أم في ظلمة؟.

قال مسيلمة: في ظلمة.

فقال طُليحة: أشهد أنَّك كذَّاب، وأن محمداً صادق، لكن كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضَر، واتَّبعَ مسيلمة، وانخَرَط في جيشه.

كلُّ هذه الأفكار كانت أطيافاً تمهد لمالك بن أوس اللقاء المرتقب مع مسيلمة الكذاب، وتملأ النفس إصراراً على دحر الكذب والكذابين، ومقاومة النفاق والمنافقين، ومعاقبة هذا الرجل الذي ادَّعى ادعاءً كاذباً على رسول الله ﷺ.

وعلى الطرف الآخر بلغ مسيلمةَ الكذاب دُنُوُّ وصول جنود خالد بن الوليد، ونزول عسكره بمنزل من منازل اليمامة يسمى عَقْرُباء، واستنفر الناس، وأكمل استعداداته.

ومما يدلُّ على عدم ولاء الناس للكذب وصانعه مسيلمة، فقد شغلت حادثة ثأر صغيرة أتباع مسيلمة عن الخروج معه لمقاتلة خالد بن الوليد، فبينما كانت جيوش خالد بن الوليد تتلاحق إلى أرض اليمن، وتبلغ أرض مسيلمة، خرج مُجَّاعةُ بن مرارَة في جماعة من بني حنيفة يطلبون ثأراً له في بني عامر وبني تميم، وثأرهم في بني عامر، أن امرأة من بني حنيفة اسمها

خولة بنت جعفر مَنَعَها قومُها من مُجَّاعة بن مرارة ، وأما ثأرهم في بني تميم فهو عبارة عن نَعَم وأموال أخذوها منهم.

وقد خاف مُجَّاعة أن يَفُوتَه إذا شُغِلَ بِلقَاء المسلمين وقِتَالهم ، وأدرك مُجَّاعة ثأره ، وعاد إلى أصحابه ، ولما بلغوا ثنية اليمامة وطريقها كان التعبُ قد أخذ منهم ، فناموا.

وأدركهم جنود خالد ، فوجدوهم نياماً ، وحبال خيولهم بأيديهم تحت خدودهم ، وهم لا يشعرون بقرب الجيش منهم ، فنبَّهوهم ، وسألوهم:

من أنتم؟ .

قالوا: هذا مُجَّاعة ، وهذه حَنيفة.

قالوا: وأنتم ، فلا حياكم الله؟! فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالد بن الوليد ، فأتوه بهم ، فقال لهم: متى سمعتم بنا؟ .

قالوا: ما شعرنا بك، إنما خرجنا لثأرٍ لنا فيمن حولنا من بني عامرٍ وتميم.

وسألهم خالد بن الوليد أيضاً: ما تقولون؟ .

قالوا: نقول منا نبيٌّ ومنكم نبيٌّ! .

عندئذ عرضهم خالد على السيف فقالوا:

إن كنت تريد بأهل اليمامة غداً خيراً أو شرّاً فاستبق هذا ولا تقتله.

فقتلهم خالد بن الوليد ، وحبس مُجَّاعة عنده كالرهينة ، وأوثقه في الحديد ، ثم دفعه إلى أم تميم امرأته ، وقال: استوصي به ، ثم مضى حتى نزل اليمامة.

مضى عمير بن أوس وشقيقه مالك تحت راية الأنصار؛ التي قادها ثابت بن قيس ، بينما رايةُ المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة ، والعرب على راياتها ، بينما مُجَّاعة بن مرارة مقيَّد في خيمة أم تميم. . . كل ذلك بعد أن نزل جيش خالد على كثيب يشرفُ على اليمامة ، استعداداً لهذا اللقاء المرتقب ، والذي لم يكن سهلاً على الإطلاق.

فقد فكر خليفة المسلمين أبو بكر الصديق وصاحبه عمر بن الخطاب بعد يوم اليمامة هذا في جَمْع القرآن ، لكثرة ما استشهد في هذا اليوم من حملة القرآن وحفظته.

ولنعد إلى المعركة الكبرى ، فقد التقى الجمعان في قتال ما بعده قتال ، حتى إن بعض المؤرخين قال:

«ثم التقى الناس ، ولم يلقهم حَرْبٌ قط مثلها من حرب العرب ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً»[1].

ودار القتالُ عنيفاً بصورةٍ لم يعهدها المسلمون من قبل ، فكان القتالُ شديداً عنيفاً ، تكسَّرت فيه سيوفُ الأبطال ، فأطاحت بأعناق أعدائهم.

ومن شدة القتال فقد وصل بنو حنيفة أتباع مسيلمة الكذاب إلى خيمة خالد بن الوليد ، وبها زوجه أُم تميم تحرس الأسيرَ الموثَق بالسلاسل ، وقد حَمَل رجلٌ من أتباع مسيلمة على أم تميم زوج خالد بن الوليد ليقتلها ، فصرخ فيه مجّاعة وهو موثق اليدين قائلاً: صبراً ، أنا لها جَار! فنِعْمَت الحُرَّة! عليكم بالرجال.

وعندئذٍ قام الجهلةُ الأوغاد بتمزيق الخيمة بالسيوف ، فلم تعد الخيمة فسطاطاً.

حلَّت الهزيمةُ بالمسلمين ، وتراجعوا هنا وهناك ، ولكن كتائب الأنصار لها عزم شديد ، فقد كانت كتيبتُهم وقائدها ثابت بن قيس أقوى وأشد من أي هزيمة تواجههم ، ولاح سيف عمير بن أوس الأشهلي ، وبرق رمح مالك ـ شقيقه ـ وزمجر في الأفق مع صياح القائد الأنصاري ثابت بن قيس ، الذي قال للمسلمين:

يا معشر المسلمين! بئسما عوَّدْتُم أنفسَكم. اللَّهُم إني أَبْرَأُ إليك مما يعبد هؤلاء ـ يعني: أهل اليمامة ـ.

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٨٩).

وهتف خلفه عمير ، ومالك: اللهم إنا نبرأ مما يعبد هؤلاء.

وهتفت الأنصارُ كلُّها: اللَّهم إنا نبرأ مما يعبد هؤلاء.

ثم نظر ثابت بن قيس وأشار إلى المسلمين الذين تراجعوا أمام ضغط قوات مسيلمة الكذاب ، وصاح قائلاً:

اللهم أني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء ، اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء.

ثم بدأ البطل ثابت بن قيس الأنصاري يلوحُ بسيفه في الأفق ، وانعكس عليه ضوء الشمس ببريقٍ كأنما هو إشارة النصر. وهتف هو وأصحابه من الأنصار فيقول ثابت بن قيس: يا أهل القرآن!.

فيجيبه عمير بن أوس الأشهلي: يا أصحاب سورة البقرة!.

ويجيب مالك شقيقه ومعه الأنصار:

يا أصحاب سورة البقرة! بطل السحر اليوم.

وبدأ ثابت بن قيس استعداداته للقاء ربِّه شهيداً مع الصديقين؛ ليفتتح باب الشهادة في هذا اليوم المبارك ، فقد حَفَر لقدميه في الأرض؛ وهو حامل اللواء ، بعد ما تحنّط وتكفن ، وظل ثابتاً يضرب هنا ، ويصيح هنا ، ويشجع المقاتلين فيلقي لهم سلاحاً من عنده ، ولم يزل سيفه يضرب ، ورمحه يطعن ، وسهمه يصيب ، وصوته الجهوري يكبر ، ولواؤه يعلو حتى سقط شهيداً في أرض الشهادة ، وضرب لإخوانه الأنصار مثلاً عظيماً في الجهاد ، فقد جاهد ولم يخشَ على شيء أبداً.

كان القومُ قد حملوا على كتيبة الأنصار العظيمة ، وهدفهم إسقاط اللواء من أيديهم ، إلا أنه بعد استشهاد ثابت بن قيس ـ رضي الله عنه ـ حمل اللواءَ رجلٌ مغوارٌ بعده ، هو أبو حذيفة ، الذي اندفع بين الصفوف واللواء يرفرف فوقه ، فكأنه أَسدٌ هصور يصول ويجول. ذلك الرجل هو أبو حذيفة؛ الذي صاح قائلاً:

يا أهل القرآن! زيِّنوا القرآن بالفعال.

وحمل أبو حذيفة ومعه عمير ومالك، فقاتلوهم حتى أبعدوهم.

وعلى الناحية الأخرى كان المهاجرون، ولم يكونوا أقلّ جهداً أو قتالاً من إخوانهم، وعلى رأس أبطال المهاجرين زيد بن الخطاب، الذي أبلى بلاءً حسناً في هذا اليوم، فلما رأى المسلمين انهزموا جعل يصيح في الناس ويقول:

أيُّها الناس! عَضُّوا على أضراسكم، واضربوا عدوَّكم، وامضوا قُدُماً، والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله، فألقى الله فأكلّمه بحجتي.

وكان أول ما لقي أمامه ذلك الرجل الذي يدعى «الرَّحَّال»؛ والذي يُعَدُّ أعظم فتنة على المسلمين من مسيلمة نفسه، فهو صاحب القصة التي رويت عنه بأنه ذهب إلى مسيلمة، واتبع دينه بعدما أسلم، وبايع رسول الله.

فقد روي عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال يوماً ـ وأبو هريرة ورحَّال بن عُنْفوة في مجلسٍ عنده ـ: «لضرس أحدكم أيُّها المجلس في النار يوم القيامة أعظم من أُحُد»[1].

قال أبو هريرة: فمضىٰ القوم لسبيلهم، وبقيت أنا ورحّال بن عنفوة، فلما زلت لها متخوِّفاً، حتى سمعت بخروج رحّال، فأمنتُ، وعرفت أنَّ ما قال رسول الله ﷺ حقّ.

علم أبو هريرة بِردَّة هذا الرجل عن الإسلام، فتذكَّر الحديثَ الذي ذكرناه سابقاً.

ونعود ـ والعود أحمد ـ إلى زيد بن الخطاب؛ الذي لقي أمامه «رحَّال» المرتد فبدأ لقاءه معه بالنصحية ـ والنصيحة لله ورسوله ﷺ ـ فقد اقترب حيث رحّال في صف زيد بن الخطاب في القتال، فقال زيد بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: يا رحّال! الله، الله، فوالله لقد تركتَ الدين، وإن الذي أدعوك إليه لأشرف لك، وأكثر لدنياك.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٨٩).

أبى رحّال أن يستجيبَ للنصيحة ، وقد ودَّ عمير وأخوه مالك الأشهلي لو أن رحّالاً قريبٌ منهم لاكتسبوا أَجرَ قتل مرتدّ يجبُ أن يُقام عليه الحد ، لكنهم انشغلوا بهذا القتال المستعر واللهيب الهادر ، في الوقت نفسه اندفع زيد بن الخطاب يضرب وجه الرّحال وسيفه وقدميه ، وكل مكان في جسده حتى أمكنه اللهُ منه فقتله؛ ليكون عبرة لكلّ مرتدٍ آثم.

نعودُ إلى الأنصار ، فقد انتفض البراء بن مالك انتفاضة الحرب يعرفها عنه كلُّ إخوانه الأشهليين وغيرهم من الأنصار ، فتكاثروا عليه حتى أفاق من هذه الرعدة التي أصابته ، فصرخ بأعلى صوته قائلاً:

أين أنتم يا معشر المسلمين؟! أين أنتم يا معشر المسلمين؟! أنا البراء بن مالك ، هلمُّوا إليَّ!.

ما إن سمعه عمير ومالك ابنا أوس الأشهليان ، حتى فاؤوا إليه هم وفئة من الناس ، فقاتلوا أتباع مسيلمة حتى قتلهم الله بأيديهم ، وما إن فرغوا منهم حتى ظهر لهم رجلٌ قوي من أتباع مسيلمة يقودُ جيشاً آخر ، أو موجةً أخرى من المقاتلين ، فقد اعتمد الحنفيون أتباع مسيلمة أسلوب الموجات المتلاحقة ضد المسلمين.

هذا الرجلُ القوي اسمه: مُحَكَّمُ اليمامة ، أو مُحَكّم بن طفيل ، فقال في قومه عندما رأى ما رأى من شدة القتال:

يا معشر بني حنيفة! الآن واللهِ تستحقب الكرائم غير رضيّات ، وينكحن غير خطيبات ، فما عندكم من حسب فأخرجوه.

ثم دخل الرجلُ ومَن معه في قتال شديد مع المسلمين ، فرماه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بسهمٍ فوضعه في نحره فقتله.

ثم زحف المسلمون حتى ألْجؤوهم إلى الحديقة ، حديقة الموت ، وفيها عدوّ الله مسيلمة الكذاب.

وبدأت منافسةٌ رائعةٌ عظيمة بين المسلمين. . . كانت منافسة ، ولم تكن

خلافاً. . فالمهاجرون والأنصار قالوا: إن في أهل البادية جُبْناً وخوفاً ، وأهل البوادي قالوا: إن في المهاجرين والأنصار جُبْناً وخوفاً.

وقال أهلُ القرى: نحن أهلُ القرى أعلم منكم جميعاً بقتال أهل القرى. . . ونحن أعلم منكم يا أهل البادية بقتالهم.

وقال أهل البادية: إنَّ أهل القرى لا يحسنون القتال؛ ولا يدرون ما الحرب ، فسترون إذا تميزنا عنكم من أين يجيء الخلل.

وجاء القتالُ عنيفاً ، وأبلى فيه عمير بن أوس ومالك بن أوس بلاءً حسناً ، فما رُئي يوم كان أعظم نكايةً مما رُئي يومئذ ، ولم يدر أيّ الفريقين كان فيهم أشد نكايةً؛ إلاَّ أنَّ المصيبةَ كانت في المهاجرين والأنصار أكثر منها في أهل البادية ، وظلت الحرب سجالاً؛ مرة على المسلمين ومرة على الكافرين؛ ووقف خالد بن الوليد يشدُّ أزر جنوده ، وقد دار قتال تشيبُ من هوله الرؤوس ، فقال خالد ـ رضي الله عنه ـ: امتازوا لنعلم بلاءَ كلّ حيٍّ ، ولنعلم من أين نُؤتىٰ!.

أي: تفرَّقوا على عدوكم؛ لنحسن إدارة المعركة. . فاستجاب لخالد أهلُ القرى والبوادي ، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضرة ، وبرقت سيوفُ بني عبد الأشهل ، فضرب عمير يميناً ، وحطَّم يساراً ، وطعن مالك الأشهلي ، وكرَّ على عدوه ، ولم يفرَّ أبداً.

ووقف بنو كلّ أبٍ ، أو كل بيت على رايتهم ، يقاتل دون دينه ، دفاعاً عنه حتى الموت ، وصرخ رجلٌ من أهل البوادي يومئذ يشدُّ أزر إخوته ، ويشعل المنافسة بين المسلمين فقال:

الآن يستحرُّ ، ويشتد القتل في الأجزع الأَضْعَف.

فاستحرّ القتل ، واشتدَّ على أهل القرى ، وثبت مسيلمة وجيشهُ رغم هول القتال ، إلا أن خالداً القائد المخضرم فكَّر في أن حسم المعركة لا يأتي إلا بقتل مُسيلمة ، ولم تحفل بنو حنيفة بقتل مَن قُتِل منهم ، فبرز خالد بن الوليد ، حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى المبارزة ، وبدأ يفاخر بفروسيته

المعهودة ونسبه بين البوادي والحضر ، فقال: أنا ابن الوليد العوْد ، أنا ابن عامر وزيد! .

ونادى بشعار المسلمين قائلاً: يا محمداه!! .

فبرزوا له ، الواحد تلو الآخر ، وكلما اقترب واحدهم من خالد قتله ، وهو يرتجز قائلاً:

أنا ابن أشياخ وسيفي السَّخْت أعظم شيء حين يأتيك النَّفت

ولا يبرز له رجلٌ منهم إلا صرعه أمامه ، ودارت رحى المسلمون ، وطحنت رؤوس بني حنيفة .

وكان رسولُ الله ﷺ فيما روى الطبري قال: «إن مع مسيلمة شيطاناً لا يعصيه ، فإذا اعتراه أزبد كأن شدقيه زبيبتان ، لا يهم بخير أبداً إلا صرفه عنه ، فإذا رأيتم منه عورة فلا تُقِيلوه العَثْرَةَ»(١) .

فلمّا دنا خالد منه ، واقترب ، طلب تلك ، فدعا مسيلمة طلباً لعورته ، فأجابه .

فعرض عليه خالد أشياء مما يحبُّ ويشتهي ، فقال خالد:

إن قبلنا النصف ، فأي الأنصاف تعطينا؟ .

فهمَّ مسيلمةُ بالجواب ، ولكن أعرض عن خالد مستشيراً شيطانه ، فينهاه ألاَّ يقبل العرض ، فرفض مسيلمة وأعرض ، فطارده خالد حتى أرهقه ، فأدبر وانهزم ، فحثَّ خالدٌ جنوده على مطاردتهم قائلاً:

دونكم لا تقيلوهم .

فسيطر المسلمون على المعركة ، وانهزم أتباعُ مسيلمة ، وقالوا لصاحبهم:

فأين ما كنت تعِدُنا؟ .

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٩٣).

فقال مسيلمة: قاتلوا عن أحسابكم.

ونادى منادٍ منهم قائلاً: يا بني حنيفة! الحديقة! الحديقة!.

وفي هذه اللحظة رأى عمير بن أوس الأشهلي مسيلمة الكذاب وهو في هياج شديد، وغيظ ما بعده غيظ، فحمل عليه بالسيف، وقبل أن يصل إليه لمح وحشياً ـ أحد أبطال المسلمين، والذي قتل حمزة قبل إسلامه ـ لمحه عمير يضربه بحربته التي استقرت في جسد «مسيلمة الكذاب»، فأكمل عمير على مسيلمة، وضربه بالسيف ضربته التي أتت عليه.

ولم يتوقف بعدها، وإنما توارى في صفوف المقاتلين يبحث عن مالك أخيه، فوجده صريعاً شهيداً، وقد أمسك سيفَه بيده، وأصابته ضربة العدو في جبهته.

حزن عمير، ولكنه تماسك... كان حزنه من نوع آخر، فقد مضى مالك إلى لقاء شقيقيه: إياس وأنس؛ اللذين حُشِرا في زمرة الشهداء والصديقين، ووقف عمير ليجدَ المسلمين يقتحمون حديقة الموت على أتباع مسيلمة الكذاب.. اقتحموها من حيطانها وأبوابها... وكان بنو حنيفة قد دخلوا الحديقة، وأغلقوها عليهم، وأحاط المسلمون بهم قبل الاقتحام، فكانت بدايةُ الاقتحام صرخةً من البراء بن مالك ـ أحد أبطال الأنصار ـ قال البراء:

يا معشر المسلمين! احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه[1].

فلما وضعوه على الحائط اقتحم عليهم، فقاتلهم على الباب من الخلف حتى فتحه للمسلمين، وهم على الباب من الخارج، فدخلوا، فأغلق الباب عليهم، ثم رمى بالمفتاح من وراء الجدار، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يُرَ مثله، فقد اعترضهم أتباع مسيلمة ممن كانوا في الحديقة.

وصرخ فيهم صارخ يقول: إن العبد الأسود قتل مسيلمة ـ يقصد وحشيَّ بن حرب ـ فلم ير منهم الأشهلي البطل الذي ضربه فأجهز عليه

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٩٤).

بالسيف ، حتى إن وحشياً لم ير عميراً عندما ضربه ضربته النهائية ، ومضى كالبرق بين الصفوف ، وتوارى خلف الصراخ والخيل.

وقد قُتِل في حديقة الموت عشرة آلاف مقاتل من شدَّة ما كان من قتال بين المسلمين وبني حنيفة ، وكثرة تحصُّنهم بالحصون.

وانقشع ضباب المعركة.. كانت خسائر مسيلمة الكذاب كثيرة جداً ، وخسائر المسلمين أيضاً كثيرة ، فقد بلغ القتلى ألف ومئتين من بينهم عمير بن أوس الأشهلي الذي لم يَرَ احتفالَ النصر العظيم ، فما إن بلغ خالدَ بن الوليد نبأُ مقتل مسيلمة الكذاب حتى اعتبر أنّ المعركة قد انتهت ، وخرج خالد ومعه أسيره مجّاعة ، وقد كان على حاله ما يزال مقيداً بالحديد منذ وصول خالد اليمامة ، وأسره ووضعَه في خيمة مع زوجه أُم تميم.

خرج خالد وقد أخذ مجّاعة ليعرِّفه على مسيلمة وأعلام جندِه الذين قُتِلوا في المعركة ، فأُتي على الرجّال الذي قتله المسلمون في بدء المعركة فقال: هذا الرجَّال!.

وجعل مجَّاعة يكشف القتلى حتى مرَّ بجثمان محكّم بن الطفيل ـ وكان رجلاً جسيماً وسيماً ـ فلما رآه خالد قال:

هذا صاحبكم؟ يقصدُ مسيلمة.

فقال: لا ، هذا والله خيرٌ منه وأكرم ، هذا محكم اليمامة.

ثم مضى خالد يكشف القتلى حتى دخل حديقة الموت ، فبدأ يقلِّب له القتلى ، فإذا برجل أُصيغر أخنينس!! فقال مجّاعة لخالد بن الوليد: هذا صاحبكم مسيلمة قد فرغتم منه.

فقال خالد لمجّاعة: هذا صاحبكم الذي فعل بكم ما فعل! فقال مجّاعة: قد كان ذلك يا خالد!.

وما إن فرغ خالد من مسيلمة وجنوده ، حتى اجتمع به كلٌّ من عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وقال له:

ارتحل بنا وبالناس ، فانزل على الحصون.

فقال خالد: اتركاني أَبُثُّ الخيول فألْقُط مَن ليس في الحصون ، ثم أرى رأيي.

بثَّ خالد الخيول والرِّجال ، فاستطاعوا أن يستولوا على ما وجدوا من مالٍ ونساء وصبيان ، فضمُّوا هذا كله لقوات المسلمين.

ونادى خالد للرحيل كي يهاجم الحصون ، وتنتهي كل أوجه المقاومة إذا استولى خالد على الحصون.

كان مجَّاعة ما يزال مع خالد بن الوليد مقيداً في أسرِهِ ، فقال لخالد: إنه والله! ما جاءك أوائل الناسِ وإن هذه الحصون التي تراها لمملوءة بالرجال والفرسان الأشداء!! فهلم يا خالد إلى الصلح على ما ورائي من القوم ، فصالحه على كل شيء دون النفوس ، ثم قال لخالد:

أتأذن لي أن أنطلق إليهم فأشاورهم ، وننظر في الأمر ، ثم أرجع إليك.

فأذن له خالد ، فدخل مجّاعة الحصون ، وليس فيها إلا النساءُ والصبيان ، ومشيخة فانية من العجائز نساءً ورجالاً ، ورجال بلغ منهم الضعف ما بلغ.

فأمرهم أن يظاهروا الحديد من سيوف ورماح على رؤوس النساء ، وأمر النساء أن ينشرن شعورهُن ، كي يظنَّ المسلمون أنهم مقاتلون أشداء ، وأن يُشْرِفْنَ على رؤوس الحصون ليراهم المسلمون.

ثم رجع مجَّاعة فأتى خالداً؛ فقال: قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت ، وقد أشرف لك بعضهم نقضاً عليّ ، وهم مني بَرَاء.

كل هذا كان خِداعاً من مجّاعة حتى ينقذهم من هجوم خالد القادم ، ويخفف عنهم نتائج المعركة السيئة بالنسبة لهم.

نظر خالد بن الوليد إلى قمم الحصون وسطوحها ، فوجدها من كثرة ما ظهر فيها من شعر منفوش ، ورماح قائمة قد اسودَّت ، وفكَّر في أمر المسلمين وقد أنهكتهم الحرب ، وخسروا فيها الكثير من القراء ، وأبطال الأنصار والمهاجرين ، ونفر من أهل القرى ممن أخلصوا النية للإسلام فنالوا

الشهادة في سبيل الدفاع عن دينهم ، غير أنَّ هذا اللقاء وهذه الحرب ـ حرب اليمامة ـ قد طالت وهي بعيدة عن مركز القيادة الإسلامية في المدينة ، وهناك مرتدون آخرون يجب التفرغ لهم .

كلٌّ هذه الأسباب جعلت خالد بن الوليد يسعى في إنهاء معركة اليمامة ، واستثمار النصر الذي حققه المسلمون ، وكفاهم ما حلَّ بمسيلمة ، فقد انهار صرحه الكاذب ، وادِّعاؤه المارق .

وافترض خالد أن في الحصون مقاتلين فعلاً ، فكيف به وقد قتل من أهل المدينة وحدها مهاجرين وأنصار ثلاثمئة وستون بطلاً ، ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلاثمئة من هؤلاء وثلاثمئة من هؤلاء؟ .

وقُتِل مشاهير الصحابة: ثابت بن قيس ، وزيد بن الخطاب شقيق أمير المؤمنين ، والشقيقان من بني عبد الأشهل: عمير بن أوس الأشهلي ، ومالك بن أوس الأشهلي .

كل هذا جعل رؤية خالد تتَّجه إلى الصلح ، فرأى أنه من الخير أن يصالح مجّاعة ، فقال خالد لمجّاعة :

هلم لأصالحك على الصفراء ، والبيضاء ، والحلقة ، ونصف السَّبي .

فقال مجّاعة :

والآن آتي قومي فأعرض عليهم ما قد صنعت .

قال خالد :

فانطلق إليهم .

فذهب مجّاعة ، وعاد إلى خالد بن الوليد ليقول له :

أبوا ما صالحتك ، ولكن إن شئت صنعتُ شيئاً .

قال خالد :

وما هو؟ .

قال مجَّاعة :

تأخذ مني ربع السَّبْي ، وتدَع رُبْعاً.

قال خالد:

قد فعلت.

قال مجَّاعة:

إذاً فقد صالحتك.

فكتب خالد ومجاعة صلحاً متفقاً عليه ، كتبوا فيه ما اتفقا عليه.

فلما فرغا من الصلح ، فُتِحَتْ الحصون ، فإذا فيها النساء والصبيان ومشيخة فانية ، ورجالٌ ضعاف!!.

فقال خالد لمجاعة:

ويحك! خدعتني.

قال: قومي؛ وأهلي ، ولم أستطع إلا ما صنعت.

فأجاز خالد الصلح.

وجُمع بنو حنيفة للبيعة والبراءة مما كانوا عليه ، وجيء بهم إلى خالد ، فبايعوا وأعلنوا رجوعهم إلى الإسلام ، كما أعلنوا براءتهم من الردة ومما قاله مسيلمة لهم من كذب ونفاق.

انتهى المقاتلون من المعركة ، وبدأ كل فريق منهم يتأمَّل نتائج المعركة ، ليتعرفوا على وجوه القتلى ، ويدفن المسلمون إخوتهم.

وكان هناك رجلٌ من بني عامر بن حنيفة ـ أتباع مسليمة ـ هذا الرجل يُسمَّى: الأغلب بن عامر بن حنيفة ، وكان أغلظ أهل زمانه عُنُقاً ، وأكثرهم شدَّة ، فلما انهزم المشركون يومئذ ، وأحاط المسلمون بهم ، ادَّعى أنه ميت ، فتماوت ، فلما أثبت المسلمون في القتلى ، أتى رجلٌ من الأنصار يُكنى أبا بصيرة ، ومعه نفرٌ يدفنون إخوتهم من الأنصار عمير ، ومالك الأشهليين ، وثابت بن قيس ، فلما رأوه ممدداً بين القتلى وهم يحسبونه قتيلاً ، قالوا:

يا أبا بصيرة! إنك تزعم ـ ولم تزل تزعم ـ أن سيفك قاطع ، فاضرب عنقَ هذا الأغلب الميت؛ فإن قطعته فكل شيء كان يبلغنا حق ، فاخترطه ، ثم مشى إليه ولا يرونه إلا ميّتاً ، فلما اقترب منه هبَّ من نومه ، وأمسكَ سيفه ، وبدأ يحارب به ، فاتَّبعه أبو بصيرة وجعل يقول:

أنا أبو بصيرة الأنصاري ، ويكرر قوله.

بينما الأغلب يهرب مسرعاً ، فكلما جرى أبو بصيرة نظر إليه الأغلب وهو يجري مسرعاً وقال له: كيف ترى عَدْوَ أخيك الكافر!! حتى أفلت منه هارباً.

وبعث خالد بن الوليد وفداً من بني حنيفة إلى أبي بكر ، فقدِمُوا عليه.

فقال لهم أبو بكر:

وَيْحكم! ما هذا الذي استزل منكم ما استزل!! أي ماذا حدث لكم ، إذ يستغربه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ.

فقالوا: يا خليفة رسول الله! قد كان الذي بلغك مما أصابنا ، وقد كان أمراً لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه.

وعاشت المدينة أيام النصر ، وأيام الحزن ، أيام النصر على المرتدين والكاذبين على رسول الله ﷺ، وأيام الحزن على الشهداء الذين سقطوا، وبينهم عدد كبير من قُراء القرآن؛ مما حدا بالخليفة للتفكير في جمع القرآن الكريم.

ولقي عمر بن الخطاب ابنه عبد الله ، وقد علم أن أخاه زيداً قد قُتِل ، فبكاه بكاءً شديداً ، وكان يسأل ابنه: وكيف جئت دون زيد؟!.

وبكى بنو عبد الأشهل الشقيقين: عمير ، ومالك: شهيدي اليمامة ، وأصحاب الشرف العظيم ، فقد سبقهم شقيقان أولهما في أُحُد والثاني في الخندق ، فليلتقِ الجميعُ في الجنة ، وهنيئاً لهم مقام الصدق الذي هم فيه.

* * *

# (٥)

# عمــرو بــن أوس

**قال القرطبي المالكي:**

«شهد أُحُداً والخندق وما بعد ذلك من المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وقُتِل يوم جسر أبي عبيد شهيداً»[1] .

**وقال ابن حجر:**

«قال أبو عمر: شهد أُحُداً والخندق وما بعدهما ، وقُتِل يوم جسر أبي عبيد شهيداً»[2] ابن حجر العسقلاني.

ساد صمتٌ رهيبٌ في المدينة إثر عودة جيش أمير المؤمنين منهزماً ، وأنصت النَّاس إلى مقرىء القرآن في مسجد رسول الله ﷺ ، فإذا وصل إلى الآية الكريمة التي تقول:

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦].

بكى معاذ القارىء بكاءً مُرّاً[3] ، فقال له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: لا تبك يا معاذ ، أنا فئتُك ، وإنما انحزتَ إلي.

تُرى لماذا البكاء؟ ولِمَ كل هذا الحزن الذي عمَّ مدينة رسول الله ﷺ؟.

على شاطىء الكوفة الغربي جلس عمرو بن أوس الأشهلي ، ينظر إلى الضفة الشرقية ، وقد شرد بفكره قليلاً ، فنسي ما حوله من جنود المسلمين؛ الراكنين إلى قليل من الراحة بعد قتال يوم «السقاطية» الذي رجع فيه الجالنوس ـ أحد قادة الفرس ـ منهزماً.

---

(١) الاستيعاب مع الإصابة (٢/ ٤٩٩).

(٢) الإصابة (٢/ ٥١٨).

(٣) هو معاذ القارىء ، أخو بني النجار ، كان ممن فرَّ مع مَن فرَّ من المسلمين. تاريخ الطبري (٣/ ٤٥٤).

سرح عمرو بن أوس بناظريه على صفحة مياه الفرات الراكدة ، وحمد الله ، وشكره في نفسه ، وتذكَّر أيام النّبي ﷺ يوم أن كان الحلم هو تأمينُ المدينة فقط من خطر أعدائها القرشيين ، وردَّد في نفسه قول الله عز وجل:

﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

تذكّر عمرو المشاهد كلّها التي شهدها مع رسول الله ﷺ. . تذكر يوم أُحُد ، يوم أن خرج مقاتلاً مع أخيه إياس ، وإخوته من بني عبد الأشهل. . . يوم أن استشهد أخوه. . . وسمع رسول الله ﷺ حين عودته من المدينة صوت بكاء أهله على أخيه إياس ، فتذكّر حمزة بن عبد المطلب عمّه وقال: «ولكن حمزة لا بواكي له!» فانتقلت نسوةُ الأنصار يبكين حمزة.

وتذكَّر عمرو بن أوس أخاه أنساً يوم الخندق عندما شارك مع المسلمين في حفر الخندق ، ورماه خالد بن الوليد ـ إذ كان كافراً ـ رماه بسهم فأرداه قتيلاً ، فانضمَّ إلى أسرة الشهداء.

وتنهَّد عمرو قائلاً :

إيه يا يوم اليمامة ! يرحمك الله يا عمير! فقد كنت بطلاً لا تعرف الفرار أبداً ، بل كنت كرّاراً على عدوِّك.

إيه يا مالك! إيه يا أبناء أوس بن زعوراء الأشهلي! إيه يا أسرة الشهداء.

ردَّد عمرو قولَ الله عزَّ وجل:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

حقاً إنهم أحياء حياة الخلود ، مع الصديقين في جنةٍ عرضُها السموات والأرض.

أوقف عمرو بن أوس كلَّ هذه الخواطر ، ووضع سيفه جانباً وخلع درعه ، وأوعز لأخٍ مسلم إلى جواره أنه قائم إلى الصلاة فليحم ظهره ، فهم في أرض الحرب والقتال.

ووقف عمرو يتهجَّد نافلة الليل ، عسى أن يتقبل منه ربُّه هذه النافلة ، فيلحقه بأسرته في الجنة ، بأربعة أشقاء استشهدوا ، هم: إياس ، وأنس ، وعمير ، ومالك.

وراح الفارس يسبِّح ربَّه في ركعتين طويلتين ما أحلاهما! وقد زيَّنهما بترتيلٍ جميل.

ما إن فرغ عمرو من صلاته حتى سمع حديثاً بالقرب منه ، فعرف أنه صوت المثنى بن حارثة ، قائد جيوش المسلمين في فتح العراق ، ومعه أبو عبيد بن مسعود الثقفي. . . اقترب الرجلان ، وعلا صوتُ المثنى يقول:

أما سمعت يا أبا عبيدة! ما الذي حدث عندما رجع الجالنوس منهزماً بالأمس؟ .

أبو عبيد: لا ، ما سمعتُ يا مثنى. ماالذي حدث؟

المثنى: لقد سأل رستم مَن حوله من مستشاريه قائلاً: أيّ العجم أَشدّ على العرب فيما ترون؟ .

أبو عبيد: وبِمَ أجابوا؟

المثنى: قالوا له: بَهْمن جاذويه. . . أتعرف شيئاً عنه يا أبا عبيد؟

أبو عبيد: كلُّ ما أعرفه عنه أنه يُلقَّب بذي الحاجب؛ لأنه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبراً.

المثنى: لقد خرج بهمن بن جاذويه ، ومعه الجالنوس الذي هدَّده رستم بضرب عنقه لو لم يعد منتصراً على العرب والمسلمين!!.

وقد جاءت الأخبارُ تقولُ الآن أنَّ بهمن سار من المدائن يقصد مواجهتنا ، والقضاء علينا ، وقد حمل معه راية كسرى.

أبو عبيد: وما هي راية كسرى يا مثنى؟

المثنى: ألم ترها من قبل؟ إنها من جلد النّمر ، عرضها ثمانية أذرع ، وطولها اثنا عشرة ذراعاً.

أبو عبيد: إذاً فلنعدّ أنفسنا لملاقاتهم صباحاً إن شاء الله.

المثنى: إن شاء الله تعالى.

مضى القائدان الكبيران إلى مركز قيادتهما، ووصل حوارهما أسماع الكثير من جندهما في المعسكر، وأحسَّ عمرو بن أوس بأنّ نزالاً كبيراً يقترب موعده، وعليه أن يكون مستعدّاً للقاء عدوّ الله، والذَّود عن دين الله - عزَّ وجلَّ -.

فأمسك سيفه، وتأمَّله، فإذا به قاطع، وأصبح مستعداً للقتال، وأمسك برمحه، وتمنَّى أن يفوز بقتل بهمن، كما رزق وحشي بن حرب بقتل عدو الله «مسيلمة الكذاب» أو: يرزقه الله الشهادة في ميدانٍ كهذا، يُعَدُّ أكبر ميادين الجهاد؛ الذي يتمنى كلُّ مسلم نَيل الشهادة فيه، والفوز بها، فيلحق بمن يحب من السابقين إلى رحاب الله: شهداء، وصديقين.

أفاق عمرو بن أوس من نومه على صوت أخٍ له يُردِّدُ كلماتٍ يعتزُّ بها كلُّ مسلم، إنها قول المؤذن: الصلاة خير من النوم.

أفاق عمر، وهمس يردِّد: أصبحنا وأصبح الملك لله... واقترب من شاطىء الفرات، وجعل يتوضأ، وأقيمت صلاة الفجر، وعلم الجند جميعاً أنَّ عليهم التحركَ إلى منطقة تُسمَّى «المروحة»... حمل الجنودُ أسلحتهم، ومتاعهم، ومشوا في طريق الجهاد، إلى أن وصلوا «المروحة»، فعسكروا بها، واستعدوا لمواجهة عدوهم، الذي عسكر على الجانب الشرقي للنهر، نهر الفرات، في منطقة قُسّ الناطف.

نظروا في الأفق على الجانب الآخر، فوجدوا أن بهمن جاذويه قد عسكر على الجانب الآخر، وحَشَدَ حشداً هائلاً من الجند، وعزَّز قواته بالفيلة.

وبينما القيادة الإسلامية تدرس كيفية التعامل مع قوات بهمن، إذا به يرسل رسالة لأبي عبيد الثقفي يقول فيها:

من بهمن بن جاذويه، إلى قائد جيش المسلمين... أما بعد:

إما أن تعبروا إلينا ، ونَدعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم[1] . . !! .

تذكَّر أبو عبيد في هذه اللحظة رؤيا زوجته «دَوْمة» وهي بالمروحة ، قبل القدوم إلى الشط ، فقد رأت أن رجُلاً نزل من السماء بإناءٍ فيه شراب ، فشرب أبو عبيد في أناسٍ من أهله.

فلما أخبرته زوجته بالرؤيا قال: إنها الشهادة.

أفاق أبو عبيد على صوتٍ جهوري قادم من الضفة الأخرى ، إنه صوت بهمن قائد الفرس يقول له: إما أن تعبروا إلينا ، وإما أن نعبر إليكم.

فقال الناس: لا تعبر يا أبا عبيد! ننهاك عن العبور. . . قل لهم: فليعبروا.

ووقف سليط بن قيس يقول له: إنَّ العرب لم تَلْقَ مثل جنود فارس ، وإنهم قد اجتمعوا واحتشدوا ، واستقبلونا من الزُّهاء والعدة (أي من العدد والعدة) بما لم يلقنا به أحد منهم ، وقد نزلت منزلاً لنا فيه مجالٌ ، وملجأ ، ومرجع ، من فَرَّةٍ ، إلى كرَّة[2] .

فقال: لا أَفْعَلُ ، جبنت والله يا سُليط! .

فقال سليط غاضباً: أنا والله أجرأ منك نفساً ، وقد أشرنا عليك بالرأي فستعلم! .

عندئذ لَجَّ أبو عبيد ، فنزل الماء ، وترك الرأي ، وقال في حماسة: لا يكونوا أجرأ على الموت منا ، بل نعبر إليهم.

واندفع المسلمون خلف قائدهم رغم مشورتهم التي أشاروا بها ، وهي مخالفة لرأي أبي عبيد ، إلاَّ أن العهد و المبدأ يقول: السمع والطاعة في المنشط والمكره.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٥٤).

(٢) المصدر السابق.

عَبَرَ سليط بن قيس في مقدمة العابرين ، ونزل معه عمرو بن أوس في الماء ، وتدفق جنود الإسلام على الجانب الآخر لنهر الفرات ، وكان جند المسلمين دون عشرة آلاف ، وقد ترك لهم الفرس مكاناً ضيّقاً وراء الجسر ، مما لِم يدع لهم مجالاً للكّر والفرّ ، ولم يمهلهم بهمن حتى يتمّ عبورهم وإنما أمر جنوده بالهجوم عليهم ، وأطلق عليهم الفيلة بما تحمل من جنود ، وقد عُلِّقت عليها أجراس وجلاجل ، تصدر أصواتاً جفلت منها الخيل ، وخافت ، وفرَّت ، فلم يثبت من الخيل إلا القليل ، وصعب على فرسان المسلمين السيطرة عليها ، ورشق الفُرْسُ المسلمين بالنبل ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

ولما اشتد القتال ، واحتدم ، ترجَّل أبو عبيد ، وعمرو بن أوس والناس ممن ركبوا الخيل ، ومشوا إلى الفرس ، والتحموا معهم في قتال رجلٍ لرجل ، بل رجل مسلم لرجال من الفرس ، ولم يكن قتالُ الرجال صعباً على المسلمين ، وإنما الصعوبة جاءت من الفيلة.

فلما رأى أبو عبيد خطر الفيلة أمر جنده بضربها ، فقال:

«احتوشوا الفيلة ، واقطعوا بُطُنها ، واقلبوا عنها أهلها».

هجم عمرو بن أوس ورجلان معه على فيل من الفيلة ، فحطّوا رحاله ، وقتلوا رجاله ، ووثب أبو عبيد على الفيل الأبيض ، فقطع بطانه ، فوقع الفرسان الذين ترجَّلوا عنه ، وضرب خرطومه بالسيف ، ولكن الفيل تقدَّم من أبي عبيد ، وضربه برجله ، فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه حتى أزهق روحه. . . فلما رأى الناس هذا المنظر المروع خشعت أنفسهم ، ثم أُخِذ اللواء من أبي عبيد ، وقوتل الفيل حتى تنحَّى عن أبي عُبيد ، وتتابع سبعةٌ من المسلمين كلّ منهم يأخذ اللواء ، ويقاتل حتى يموت.

في هذه الأثناء سقط عمرو بن أوس شهيداً ، ولحق بإخوته وأشقائه في الجنة.

فلما رأى عبد الله بن مرثد الثقفي ما لقي أبو عبيد وخلفاؤه من حملة

اللواء ، وما أصاب الناس من هرج ومرج ، بادرهم بقطع الجسر فقطعه وقال:

«يا أيها الناس! موتوا على ما مات عليه أمراؤكم ، أو تظفروا».

تراجع المسلمون إلى الجسر ، وقفز بعضُهم إلى النهر ، حتى غرق؛ لأنه لم يصبر ، وخشي المثنى أن تعمَّ الفوضى ، فأمسك اللواء ونادى:

«يا أيها الناس! أنَّا دونكم ، فاعبروا على مهل ، وعلى هينتكم ، ولا تُدْهَشوا؛ فإنَّا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ، ولا تغرقوا أنفسكم».

عبر الناس الجسر ، بينما وقف عبد الله بنَ مرثَد قائماً عليه يمنع الناس من العبور ، فأخذه بعضُ الناس للمثنى فهزَّه وقال: ما حملك على الذي صنعت؟

فقال: ليقاتلوا.

وممّن قاتل قتالاً شديداً عروة بن زيد الخيل ، وأبو محجن الثقفي.

ونادى المثنى بأعلى صوته: «من عبر نجا».

وأصلح المثنى الجسر ، فعبر الناس ، ثم عبر في النهاية المثنى ومَن معه ، وقد جُرِح جرحاً شديداً ، وتفرَّق الناس في البوادي استحياءً من الهزيمة ، وعاد بعضُ أهل المدينة حتى وصلوا إليها.

وكتب المثنى كتاباً إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، حمله إليه عبد الله بن زيد ، فلما انتهى إليه قال عمر: ما عندك يا عبد الله؟.

فأخبره عبد الله خبر الهزيمة ، وما أصاب الناس ، وقد شهدت عائشة هذا الموقف وهي في حجرتها فقالت: وقد سَمِعَته يحدِّث عمر: ما سمعتُ برجل حَضَر أمراً ، فحدث عنه كان أثبتَ خَبَراً منه.

فلما قدم المنهزمون من النَّاس ، ورأى عمر جزع المسلمين من المهاجرين والأنصار ، وساد صمت رهيب في المدينة حزناً على الهزيمة ، قال عمر: لا تجزعوا يا معشر المسلمين! أنا فئتكم؛ إنما انحزتُمْ إليَّ.

ثم قال عمر: اللهم كل مسلم في حِلٍّ مني ، أنا فئة كلِّ مسلم ، من لقي العدو فقطع بشيء من أمره فأنا له فئة ، يرحم الله أبا عبيد! لو كان انحاز إلي لكنتُ له فئة.

وصل المسلمون وتصبّروا بالقرآن ، وسمع معاذٌ القارىء صوتَ المقرىء يقول:

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦].

فبكى معاذ ، وبكت المدينة شهداءها ، ومنهم عمرو بن أوس الأشهلي ـ رضي الله عنه ـ فقد انضم إلى أسرة الشهداء العظيمة.

* * *

# (٦)
# الحارث بن أوس

قال القرطبي المالكي: «شهد الحرث بن أوس أُحُداً والمشاهد كلها، وقتل يوم أجنادين، لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة»[1].

عندما تقرأ أسماء شهداء أجنادين، ذلك اليوم الذي استشهد فيه الحرث، أو الحارث بن أوس بن عتيك الأشهلي، يَجُلْ بخاطرك، كما جال بخاطري، هذا اليوم الذي عاد فيه الرسولُ من ثقيف مجروحاً حزيناً، فإذا بجبريل يناديه يقول له: إنَّ معي مَلَكَ الجبال يريد أن يكلمك، فقال مَلَكُ الجبال للنبي ﷺ: لو أردتَ لأطبقتُ عليهم الأخشبين[2].

فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرجَ الله من أصلابهم مَن يعبد الله، لا يشرك به شيئاً»[3].

ولنسمع معاً أسماء شهداء هذا اليوم: فهم عكرمة بن أبي جهل بن هشام المخزومي، وقد خرج من صُلب رجل كافر هو أبو جهل، الذي طالما آذى النبي ﷺ.

وهشام بن العاص بن وائل السهمي، وكان أبوه ممن أساؤوا للرسول ﷺ، ولكن دعوته ﷺ استُجيب لها، فقد خرج من أصلابهم مَن يعبد الله، ولا يشركُ به شيئاً، ويُجاهد في سبيل الله حتى ينال الشهادة.

أما الحرث بن أوس فقد أَلِفَ الخروج للجهاد من أيام النبي ﷺ إلى يوم أجنادين هذا، واستشهد خمسة من إخوته خرج معهم مقاتلاً في أُحُد وغيرها، ولحقوا بالدار الآخرة شهداء.

---

(١) الاستيعاب (١/ ٢٨٦).

(٢) «الأخشبان»: جبلا مكة، أبو قبيس والأحمر.

(٣) رواه الشيخان.

لكن يوم الحرث بن أوس كان يوماً عظيماً ، فأعداؤه من الروم بلغوا زهاء مئة ألف ، جمعهم هرقل ـ عظيم الروم ـ.

كان على الجيش خالد بن الوليد ، فقد أبلى في هذا اليوم بلاءً حسناً ، فاندفع المسلمون والروم في قتال شديد ، لم يعهده الطرفان من قبل ، فكان الشهداء في هذا اليوم خليطاً من الأسماء العظيمة في مجتمع أصحاب النبي ﷺ ، وكانت هذه هي ضريبة النصر ، فقد هزم الله أعداءه ، وفرَّقهم ، وقُتِلَ منهم خَلْق كثير.

وكان من أشهر شهداء هذا اليوم:

عبد الله بن الزبير بن عبد الله بن عبد المطلب بن هشام.

وعمرو بن سعيد بن العاص بن أُمية.

وطليب بن عمير بن وهب بن عبد بن قصي ، الذي تلقى ضربة في يده اليمنى فسقط سيفه مع كفّه ، ثم غشيه الروم فقتلوه[(١)].

امتلأ قلبُ الروم رعباً من صِنْف القتال الذي واجههم ، فقد استعر القتال ، وخرج الحرث بن أوس من خندقه مندفعاً برمحه وسيفه ، يضرب يميناً ويساراً ، فكان نهراً من دماء الأعداء يتدفق حوله ، إلى أن أصابته ضربة هائلة من رجل رومي فتعثر فعاجله الروم.

وحسبي أنه كان يقول قول الرجال الأشهليين عندما يسقط أحدهم شهيداً: فزتُ وربِّ الكعبة.

نعم فقد فاز الحرث وربّ الكعبة ، فكان الشهيد السادس في أسرة الشهداء يوم أجنادين.

* * *

(١) فتوح البلدان (ص ١٢١).

# (٧)

# عامر بن أوس

كلّما قرأ المسلمون تاريخهم الإسلامي سعدوا به ، إلاّ تلك الحقبة الزمنية التي كانت بعد خلافة عثمان. وقد وصلت ذروتها ومأساتها في النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، لا سيما يوم كربلاء وما بعده ، تلك الأيام التي نشط فيها إبليس ليجعل المسلمين شيعاً وجماعات.

والشهداء السبعة ، تحدثنا عن ستة منهم ، كلهم قُتِلوا في معارك طرفاها على النقيض مسلمون وكفار ، والشهداء الستة: إياس ، وأنس ، وعمير ، ومالك ، وعمرو ، والحرث ، كلهم استشهدوا دفاعاً عن دينهم ، وبسيوف أعدائهم أعداء الله.

أما السابع وهو عامر فقد استشهد وهو آمنٌ في المدينة ، حينما انحسر دورُ الأنصار انحساراً شديداً وسط هذه الفتن ، وتلك الصواعق ، فقد ظلوا على عهدهم مع رسول الله ﷺ على مرِّ الأيام ، يدفعون الأذى عن المدينة ، ولا ينخرطون في فتنٍ لا شأنَ لهم فيها ، وإن كانت الأحداث قبل أجبرتهم ذات يوم للدفاع عن مدينة رسول الله ، والالتفاف حول رؤيةٍ رأى حكماؤهم أنها صحيحة.

وكان يوم الحرة يوماً من أيام هذا العصر الصعب بأحداثه ، لكن هي إرادة الله انصرفت ، ولا رادَّ لإرادته.

أمّا عامر بن أوس فقد شارك في المشاهد كلها ، بدءاً من الخندق مع رسول الله وما بعدها ، وشهد استشهاد أخيه أنس في الخندق على أيدي أعداء النبي ﷺ ، وعايش أحزان بني عبد الأشهل يوم أن ذهب شقيقاه عمير ومالك إلى اليمامة ، فلم يرجعا إلى المدينة مرّة أخرى ، بل صعدت روحهما الطاهرة إلى السماء لتلحق بأشقائهم الذين سبقوهم.

جلس عامر بن أوس وقد أخذه الحزن على ما آل إليه حالُ المسلمين ، فالمسلمون في دمشق والشام ، قلوبهم تحمل أشياء لا تسرّ لإخوتهم ، أو

لبعض إخوتهم في المدينة ، وتذكر قول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يوم سمع قول الله عز وجل:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

فقال علي بن أبي طالب: هكذا أنا وطلحة ، وكان على خلاف بينه وبين طلحة ، الذي انحاز للرأي آخر.

إذاً فلِمَ الخلاف؟ ولِمَ هذه السيوف تُسَلُّ في وجوه المسلمين بعضهم لبعض؟

نعود إلى يوم الحرة. فقد كان يزيد بن معاوية على أهل المدينة في عام (٦٣) هجرية ، والحرة أرض جرداء وعرة ، ذات حجارة سود نخرة ، كأنّها احترقت بالنار ، والحِرار كما هو معروف كثيرة في بلاد العرب ، أكثرها حوالي المدينة إلى الشام.

والحرة التي وقعت فيها هذه الوقعة تقع شرقي المدينة ، اسمها حرة واقم[1].

## عصر الحرة

لِنُلْقِ نظرة على العصر الذي جرت فيها وقعة الحرّة ، أو السنوات التي كانت وقعة الحرة ، فقد كان المسلمون قد خرجوا من توهم من مأساة كربلاء ، وما جرى فيها بين الإخوة والأشقاء.

فقد كان عمرو بن سعيد أميراً على الحجاز في عهد يزيد بن معاوية؛ الذي ولي الخلافة في سنة (٦٠) هجرية بعد وفاة معاوية ، وتوفي سنة (٦٣) ، وفي خلافته كانت أحداث سيئة ، ففي العام الأول من خلافته كانت كربلاء ، وفي العام الثاني غزا المدينة ، وفي السنة الثالثة غزا الكعبة بسبب الخلاف بينه وبين خصومه.

---

(١) انظر معجم البلدان (٣/ ٢٦٢).

السنة الثالثة حملت لنا أحداث يوم الحرة ، فعلى أثر وقعة كربلاء ، ومقتل الحسين ، أخذ عبد الله بن الزبير يدعو لنفسه بمكة ، واشرأبت إليه الأعناق ، فلم يكترث عمرو بن سعيد أمير الحجاز من قبل زيد للأمر ، ظنّاً منه أن الأمور تؤول إلى ابن الزبير ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، فبلغ يزيد تهاونه ، حتى قيل له: لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير ، وبعث به إليك.

عندئذ عزل يزيد عمراً ، وأبعده عن الحجاز ، وولّى الوليد بن عتبة أميراً.

وحاول الوليدُ استدراجَ ابن الزبير إلى نزالٍ أو قتال ، فكان ابن الزبير حذراً جدّاً ، بل عمل معه بمكرٍ ودهاء ، فكتب إلى يزيد يقول له:

إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق ، لا يتَّجه لأمر نافع ، ولا يَرْعوي لعظة حكيم ، ولو بعثت إلينا رجلاً سَهْلَ الخلق ، لَيِّن الكنف ، رجوت أن يُسَهِّل من الأمور ما استوعر منها ، وأن يجمع ما تفرَّق ، فانظر في ذلك ، فإن فيه صلاح خواصِّنا وعوامِّنا إن شاء الله.

فبعث يزيد بن معاوية إلى الوليد بن عتبة فعزله ، وعيَّن بدلاً منه عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، فجاء إلى المدينة ، وهو فَتىً غِرّ ، حَدَث ، صغير السن ، لم يجرب الأُمور ، ولم تحنكه السن ، ولم تضرسه التجارب؛ وكان متهاوناً في سلطانه وعمله ، فسمح لوفد من المدينة أن يزور يزيد في الشام.

وكان وفد المدينة يتكون من:

عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، (والغسيل: لقب حنظلة والد عبد الله ، وكان يسمَّى: غسيل الملائكة ، استشهد يوم أُحُد وغسلته الملائكة).

وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي. والمنذر بن الزبير.

ومعهم كثيرٌ من أشراف أهل المدينة.

فلما قدموا على يزيد أكرمهم ، وأحسن إليهم ، ثم انصرفوا عائدين إلى المدينة ، فلما دخلوا المدينة قالوا عن يزيد:

إنّا قدِمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويَعزِف بالطنابير ، وتضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخرّاب (اللصوص) والفتيان ، وإنا نشهدكم أنّا قد خلعناه.

فتابعهم النَّاس ، وأَتَوْا عبد الله بن حنظلة الغسيل ، فبايعوه ، وولّوه عليهم.

بلغ يزيد هذا الأمر ، فأرسل إلى النعمان بن بشير الأنصاري وكان يُعَدُّ حكيم القوم وشيخهم آنذاك ، فقال له يزيد:

ائتِ الناسَ وقومَك ، فاصرفهم عمَّا يريدون ، فإنهم ما لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترىء الناس على خِلافي واتباعهم ، وبها من أهلي وعشيرتي مَن لا أُحِبُّ أن ينهض في هذه الفتنة فيهلك.

فأقبل النعمان بن بشير الأنصاري ، فأتى قومه ، ودعا الناس إليه.

وقد كان عامر بن أوس ممن يستمعون إلى النعمان في هذا الوقت ، لكنه لزم الجماعة ، وخشي الفتنة.

وقد قال النعمان للنَّاس:

الزموا الجماعة ، وخافوا من الفتنة. . ثم أضاف قائلاً: إنه لا طاقة لكم بأهل الشام.

فوقف رجل يقال له عبد الله بن مطيع العدوي ، وقال له:

ما يحملك يا نُعمان على تفريق جماعتنا ، وفسادِ ما أَصْلَح الله من أمرنا؟.

فقال النعمان:

أما والله لكأني بك لو قد نزلت إلى الفتنة التي تدعو إليها ، ودارت الحرب ، وقامت الرجال على الرُّكَب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف ، وإذا دارت رحى الموت بين الفريقين ، نجدك قد هربتَ إلى مكة على بغلتِكَ تضرِبُ جَنْبيها إلى مكة ، وقد خلَّفْتَ هؤلاء المساكين ـ يقصد الأنصار ـ يقتلون في سككهم ، ومساجدهم ، وعلى أبواب دُورهم!!.

وقد كان النعمان رجلاً حكيماً في قوله هذا ، أحبّ أن يستمر دورالأنصار كما هو على العهد منذ أيام الرسول ﷺ . فلا يدخلون في فتنة ، ولا يسعون إلى سلطان أو خلافه ، وإنما سعيهم يكون دائماً إلى الله ورسوله.

وقد رجع عامر بن أوس إلى يوم العقبة ، وتذكر قول النقباء الاثني عشر زعماء الأنصار ، عندما بايعوا النبي ﷺ ، فقال البراء بن معرور الأنصاري ـ بطل يوم اليمامة ـ:

بايعنا يا رسول الله! فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر.

وقبل أن يتمَّ البراء بن معرور كلامه ، اعترض زعيم بني عبد الأشهل في ذلك اليوم وهو أبو الهيثم بن التَّيِّهان قائلاً:

يا رسول الله! إن بيننا وبين الرجال ـ أي: اليهود ـ حبالاً ، وعهوداً ، نحن قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسَّم الرسول ﷺ قائلاً:

«بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنتم مني وأنا منكم ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم».

وقد شهد العقبة من بني عبد الأشهل أهله وعشيرته: أُسيد بن الحضير ، وهو من النقباء الاثني عشر ، وأبو الهيثم بن التيهان ـ من رجال بدر ـ ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، ابن عم عامر ، وممن شهدوا بدراً ، وصنعوا فيها بلاءً حسناً.

كلّ هذه الذكريات جعلت عامر بن أوس ينظر إلى النعمان بن بشير الأنصاري نظرة إشفاق ، فلم تعد كلمتهم على صوت رجل واحد ، وإنما تفرقت بهم السُّبل ، فقد عصى الناسُ النعمان ، ووثبوا على مَن بالمدينة من بني أُمية ومَوَاليهم ، ومَن رأى رأيهم من قريش ، فكانوا نحو ألف رجل ، فقد تجمعوا جميعاً في دار مروان بن محمد ، وحاصروا الأمويين فيها.

وكتب مروان بن محمد كتاباً إلى يزيد قال فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد؛ فإنا قد حُصِرْنا في دار مروان بن الحكم فيا غوثاه! يا غَوْثاه!.

حمل الرسالة «حبيب بن كُرة» وقال:

فأخذتُ الكتابَ، ومضيتُ به حتى قدمت على يزيد، وهو جالس على كرسي، واضع قدميه في ماء في طست من وجع كان يَجِدُه فيهما، فقرأه، ثم قال متمثلاً:

لقد بدّلُوا الحِلْمَ الذي من سَجيَّتي فَبـدَّلـتُ قَـوْمـي غِلْظَـةً بِليـانِ

ثم رفع يزيد رأسه قائلاً:

أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة!

قال حبيب:

قلت: بلى، والله أكثر!.

قال يزيد: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعةً من نهار!.

فقال حبيب: يا أمير المؤمنين! أجمع النَّاسُ كلُّهم عليهم، فلم يكن لهم بجمع النَّاس طاقة.

ويضيف حبيب قائلاً:

فبعث يزيد إلى عمرو بن سعيد فأقرأه الكتاب، وأخبره الخبر، وأمره أن يسير إليهم في الناس.

فقال له:

قد كنت ضبطتُ لك البلاد، وأحكمت لك الأمور؛ فأمَّا الآن إذ صارت دماء قريش تراق، فلا أحبُّ أن أكون أنا أتولَّى ذلك، يتولاها منهم من هو أبعد منهم مني.

فلما رفض عمرو بن سعيد ـ وكان والياً على الحجاز ـ أرسل يزيد

حبيباً ، وكان رجلاً معروفاً بالشدة والبطش ، حتى إن بعضهم ذكر أن معاوية قال ليزيد: إن خالفك أهل المدينة فارمهم بمسلم بن عقبة.

وكان مسلم بن عقبة المُرّي شيخاً كبيراً ضعيفاً ، فجاء إلى يزيد ، وقال له عن بني أمية في المدينة:

أما استطاعوا أن يقاتلوا يوماً واحداً ، أو شطره ، أو ساعة منه! .

وخرج منادي مسلم ، فنادى الناس أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كاملة ، ومعونة مئة دينار تُوضع في يد كلِّ رجلٍ من ساعته.

فخرج معه اثنا عشر ألف رَجُلٍ.

وجاء مسلم ، ونزل بالحرة ، وهي تقع شرقي المدينة ، ثم دعا أهل المدينة قائلاً:

يا أهل المدينة! إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل ، وإني أكره إراقة دمائكم ، وإني أؤجلكم ثلاثاً ، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه ، وانصرفت عنكم ، وسرتُ إلى مكة ، وإن أبيتم كنَّا قد أعذرنا إليكم.

ولما مضت ثلاثة أيام قال مسلم: يا أهل المدينة! قد مضت الأيام الثلاثة ، فما تصنعون ، أتسالمون أم تحاربون؟ .

فقالوا: بل نحارب.

واتخذ أهلُ المدينة خندقاً في جانب منها ، ونزله جمعٌ عظيم ، بينهم عامر بن أوس الأشهلي ، وعبد الله بن مطيع ، ومعقل بن سنان ، وأميرهم وأمير جماعتهم: عبد الله بن حنظلة الغَسيل.

واشتبك الرجال والخيل في قتال شديد ، حمل فيه أهلُ المدينة حملةً قوية ، ودار قتال شديد ، شارك فيه الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وأصرَّ الفضلُ على قتل مسلم ، وكاد أن يصل إليه بعد أن انكشف أهلُ الشام وتفرَّقوا ، وقال الفضل لأصحابه:

احملوا عليهم حملة أخرى ، جُعلتُ فِداكم ، فوالله لئن عاينت أميرهم لأقتلنَّه أو لأقتلنَّ دونه ، إن صبر ساعةٍ مُعْقِبٌ سروراً ، إنه ليس بعد صبرنا إلا النصر.

ومضى الفضل نحو راية مسلم حتى ضرب رأس صاحب الراية ، فخرَّ ميتاً ، فظنَّه مسلماً ، ولكن اتَّضح أنه غلامٌ له ، ودار قتالٌ شديد ، قُتل على أثرِهِ الفضل بن عباس ، وقُتِل معه رجالٌ من أهل المدينة كثيرون ، من بينهم صاحبنا البطل عامر بن أوس ، وانضم إلى أسرة الشهداء التي أصبحت سبعة بمقتلِه هو في هذا اليوم.

واتجه مسلم نحو خيل عبد الله بن حنظلة الغسيل ، فكان إذا تقدَّم بخيله ثار الرجال في وجوههم بالرماح ففرُّوا ، وأحجموا ، وزاد مسلم رماته بالنبال ، فقال ابنُ حنظلة:

علام تكونون هدفاً لنبالهم؟ علام تستهدفون لهم؟.

من أراد التعجيل إلى الجنة فليلزم هذه الراية ، فقام الناسُ أكثر حماسة ، فقال لهم:

اتّعِدوا إلى ربّكم ، فوالله إني لأرجو أن تكونوا بعد ساعة قريري عين.

وأخذ ابنُ حنظلة يقاتل قتالاً شديداً ، ويقدم بنيه أمامه واحداً واحداً ، حتى قُتِلوا بين يديه ، وابن حنظلة يضرب بسيفه ويقول:

بُعــداً لمــن رام الفســاد وطَغَــى      وجــانــب الحــق وآيــات الهُــدَى
لايبعد الرحمن إلا من عصى

فقُتِل وقُتِل معه إخوة لأُمه ، وقُتِل معه محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، فمرَّ عليه مروان بن الحكم ، فقال:
رحمك الله! فُربّ سارية قد رأيتك تطيل القيام في الصلاة إلى جنبها.

وغلبت الهزيمة على أهل المدينة ، مما أفزع مَن كان بها من صحابة رسول الله ، وكان فيهم أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ الذي خرج حتى

دخل في كهفٍ في الجبل ، فرآه رجلٌ من أهل الشام ، فجاء يتابعه حتى اقتحم عليه الغار.

قال أبو سعيد الخدري عن هذا الموقف:

دخل إليَّ الشامي يمشي بسيفه ، فانتضيت سيفي ، ومشيتُ إليه لأرعبه لعله ينصرف عني ، فأبى إلا الإقدام علي ، فلما رأيت أن قد جَدَّ شِمْتُ سيفي ، ثم قلت له: لئن بسطتَ إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين.

فقال لي الشامي: مَن أنت؟ لله أبوك!.

فقلت: أنا أبو سعيد الخدري.

قال: صاحِبُ رسول الله ﷺ؟.

قلت: نعم! فانصرف عني.

وبايع الناسُ مسلماً بعد أن دخل المدينة ، وقُتِل في هذا اليوم عامر بن أوس الأشهلي الأنصاري ، وروعت بيوت الأشهليين مرَّة سابعة وعاشرة ، لكن أجرهم عند الله تعالى.

رحم الله عامر بن أوس الأشهلي الأنصاري.

* * *

# فهرس الموضوعات